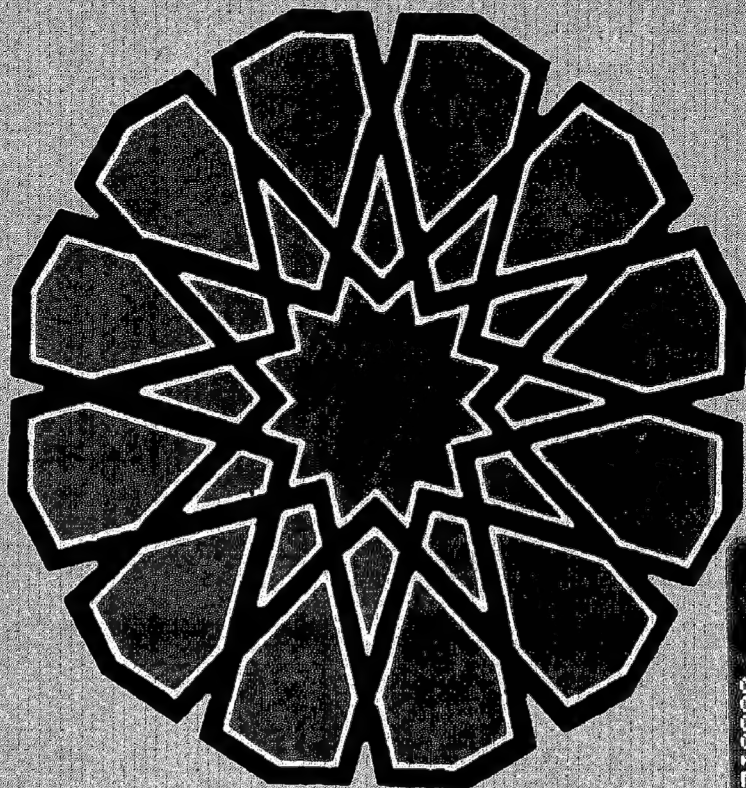


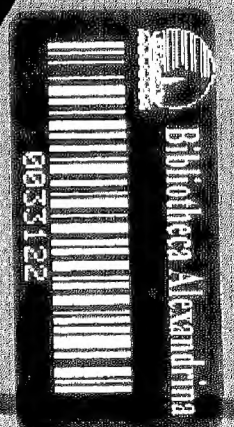
الدكتور أحمد جمال العمرى

السيرة النبوية

في مفهوم القاضى عياض



دار المعارف



السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ فِي مَفْهُومِ الْقَاضِي عِيَّاضَ

تأليف

دكتور أحمد جمال العمري

أستاذ الدراسات القرآنية والبلاغة
ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٨٨



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

أهل المدينة المنورة.. قوم يتميزون بالطيبة والسماحة، ورقة الشعور، ولين الطبع، وبشاشة الوجه، وأدب المعاملة، تنعكس أخلاقهم الكريمة على زوارهم، والمتعاملين معهم توارثوا عن أجدادهم الأدب النبوي، والأخلاق المحمدية، ونهلوا منها نهلا حتى ارتووا، وسرى كل ذلك في عروقهم وعقولهم، فكانوا أحسن الناس أخلاقا، وأطيبهم نفسا، وأعلاهم روحا..

أحبهم رسول الله - ﷺ - وأحبوه، وأيدوه وآزره بكل غال ونفيس، ونصروه بالأرواح والمهج، فكانوا الأنصار، ونعم الأنصار، فدعا لهم - ﷺ - ولدينتهم بالخير والبركة والصحة والبناء..

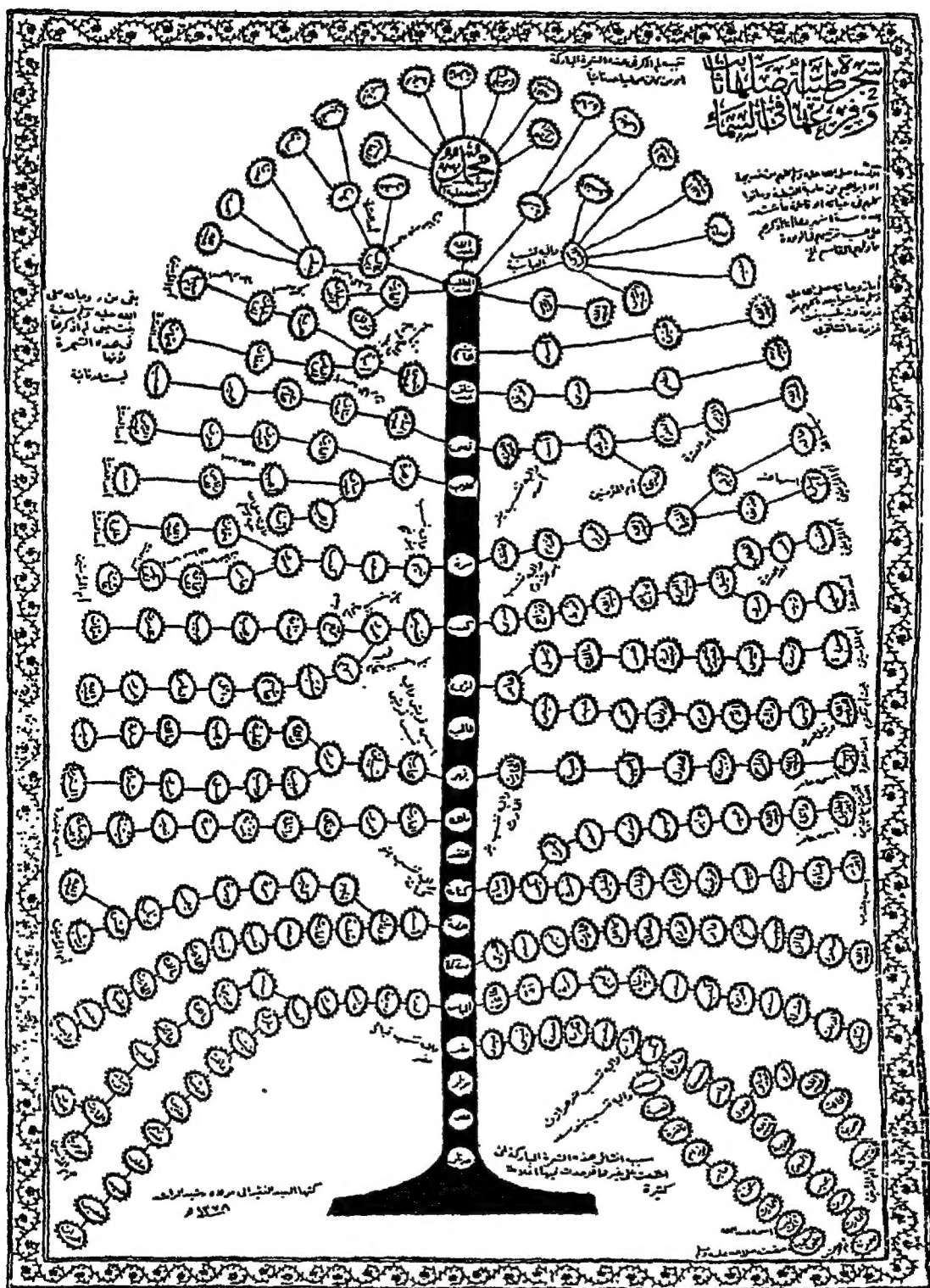
فإلى أهل مدينة رسول الله - ﷺ - أهدى هذا البحث.. تقديرا وامتنانا واعترافا بفضلهم، وحسن عشرتهم، وكرم طباعهم، ورقة شمائلهم، التي لمستها طوال أربع سنوات..

د. أحمد جمال العمرى

بِإِذْنِ اللَّهِ الرَّبِّ الْعَزِيزِ
هَذَا هُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي



مقدمة البحث

الموضوع

المنهج

المصادر..

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد.

أما بعد، فمن المعلوم أن كل أمة لها أبطالها وعظماؤها الخالدون بأعمالهم ومفاخرهم، فهي تحرص على تسجيل جميع ما يتصل بهؤلاء الأفاضل من أبنائها، لأنها تعتبر ذلك مفخرة من مفاخرها، ومأثرة من مآثرها، وليس هذا فحسب، بل إنها تريد أن تظل حياة هؤلاء الرجال سيرة طاهرة نقية، ترتادها الأجيال المقبلة لتقتدى بهم، وتسلك سبيلهم، وهذا ما فعلته الأمم العظيمة، ذات الحضارات الخالدة في سجل التاريخ.

وإذا فعلت ذلك أية أمة من أمم الأرض برجالها، فإن أمة الإسلام أولى بذلك وأحرى، لأنه ليس لأمة تاريخ مشرق وضاء مثل ما لأمة الإسلام، وما كانت تستطيع ذلك أو تحلم به لولا أن اختار الله منها أفضل الخلق أجمعين، سيد الأولين والآخرين، النبي الأمي - ﷺ - فدخلت بسببه في سجل التاريخ «وما

كان لها ذكر»، ثم أصبحت سيدة الأمم كلها بما حباها الله به من نور الإيمان، والقيام بمتطلبات الإسلام فكانت بذلك «خير أمة أخرجت للناس».

وكل ذلك بفضل اقتدائها بسيرة نبيها - ﷺ - السيرة العطرة، التي سلمت من العيوب والمثالب، وحظيت بالفضائل والمناقب، إذ هي معصومة بعصمة الله لصاحبها من الوقوع في الأخطاء البشرية، التي لا يسلم منها عادة أحد من الناس، فكانت حجة على الناس يجب تبنيها، والعمل بمقتضاها، والبحث عن جميع ما يتصل بها بحثاً علمياً، يعتمد على الدراسة المستندة إلى علم الإسناد، لأن سيرته - ﷺ - بجميع أحداثها تطبيق عملي لقواعد الإسلام، ومراتب الإيمان، وقد قال الحق - سبحانه - لرسوله:

﴿قُلْ: إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام ١٦٢، ١٦٣].

فحياته - ﷺ - لله، يعني أن ذلك عمل بأوامر الله، وبه صرحت الآية الكريمة. (وبذلك أمرت) فكانت العناية بسيرته - ﷺ - عناية بشريعته، بل بالجانب العملي التطبيقي لهذه الشريعة.

أحببت سيرة المصطفى - ﷺ - وشُغلت بها فترة كبيرة من الزمن، لأنها من أعظم العلوم قدراً، وأجلها مكانة، فهي سجل حافل لحياة رسول الإنسانية، ومعلم البشرية على مدار السنين، ولأنها القدوة الحسنة في مناهج الدعاة، والمصدر الكبير لقوتهم الإيمانية، وعاطفتهم الدينية، يقتبسون منها شعلة الإيمان، ويشعلون بها مجامر القلوب. وكان هذا دافعاً لي على القراءة والاطلاع، والبحث والمثابرة لمعرفة ما تضمنته هذه السيرة من أمور وأحداث، تتصل بالمولد والنشأة، والتأهيل للبعثة، ثم بعثته - ﷺ - ليكون رحمة للعالمين، ثم تحمله مشاق الدعوة في السر والعلن، في مكة والمدينة، وما قام به من غزوات في سبيل الله، ونشر رسالة التوحيد، التي كلفه الله بها من أجل هداية الكون، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ولقد هالني أن علم السيرة والمغازي من العلوم الإسلامية التي اختلط فيها

الحق بالباطل، والسليم بالسقيم، والصحيح بالضعيف من جراء الجمع الذي لا يُرَاعَى فيه إلا حَشْدُ الوقائع والأحداث دون تمحيص أو تدقيق، وكأن هذا هو الأسلوب المتبع لدى كتاب السير والمغازي. وقد يكون عذرهم مقبولا، لأنهم قد أوردوا ذلك بالأسانيد منسوبة إلى قائلها، ومن أراد التحقيق فله ذلك، بيد أن هذا الأسلوب والمنهج في التأليف قد أساء إلى السيرة النبوية كثيرا، خلط فيها خلطا مشينا.

إن هذه الكتب المتعددة كانت تتناول السيرة النبوية من جانب التاريخ، وتسلسل الأحداث، وتتابع الوقائع فقط، وهذه المصادر وإن كانت قد روت بعض ما في نفسى من ظمأ، وغذت ما في قلبى من حب لصاحب السيرة ﷺ، إلا أن العنصر التاريخي في هذه المصادر يغلب على ما عداه، ويسيطر سيطرة تامة على أحداثها ووقائعها.

وأخيراً وفقني الله في العثور على ضالتي في كتاب.. ومؤلف..

● أما الكتاب فهو «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» ﷺ.

● وأما المؤلف فهو «القاضي عياض اليحصبي» الفقيه المحدث.

لقد وجدت أن الرجل لم يتخذ الجانب التاريخي محوراً، ولم يجعل الأحداث المتصلة بالدعوة الإسلامية متكاً، بل أخذ ينظر في القرآن الكريم، وفي السنة المشرفة، ويستخرج منها عناصر السيرة النبوية وما يتصل بالرسول الكريم - ﷺ - وشخصيته ومكانته، عند الله والناس، وتلك كانت دراسة رائدة، وطريقة متفردة.

لقد وجدت نفسى أمام مؤلف جديد، له منهج فريد، تفرّد به، هذا المنهج كان نابعا من حبه لرسول الله - ﷺ - وتقديره لسيرته العطرة.

لقد وضع القاضي عياض وهو بصدد التأليف في السيرة النبوية، كل ما يتصل بالرسول - ﷺ - نصب عينيه، القرآن، وكتب الصحاح، وكتب الشرائع والدلائل، وكتب السيرة والمغازي، وكتب الأدب، ودواوين الشعراء الإسلاميين، ودرس ما فيها وهضمه، ليستخرج منها كل ما يتصل بالرسول

المصطفى من الناحية الروحية، التي تمس شغاف القلوب، وتحرك المشاعر والأفئدة، وتجعل المرء يحلّق في جو روحاني خالص. فجاءت السيرة النبوية على هذه الطريقة، ووفق هذا المنهج فريدة في نوعها، جامعة شاملة، تتناول كل الجوانب الدينية والعقيدية، حيث عكف القاضي عياض على تأليفها سنين طويلة، مستغلا في ذلك ثقافته الدينية والشرعية، وحفظه للقرآن الكريم وعلومه، والسنة المطهرة أقوالا وأفعالا وتقريرات، بالإضافة إلى الجانب الفقهي الذي نبغ فيه، كل ذلك في إطار جميل، وعرض شائق، مما جعل مصنفه هذا متميزا في نوعه.

والقاضي عياض شخصية علمية لها وزنها، عالم من علماء المغرب العربي الإسلامي، ومعروف عنه سعة الاطلاع، وغزارة العلم، وأمانة الكلمة، ورجاحة العقل، ومعروف عنه أيضا حبه للرسول المصطفى - ﷺ - وتفوقه في هذا الحب على المشاركة، وأن الرجل اقترن عنده العلم بالعمل، فكان له جهاده السياسي في عصره دفاعا عن أهل السنة ضد الشيعة أصحاب القول بعصمة الأئمة..

هذا الموضوع - وهو جديد في نوعه - استلقت نظري، وحفزني على دراسته دراسة متأنية، توضح ما اشتملت عليه السيرة من وجهة نظر القاضي عياض، وتكشف عن منهجه العلمي في تأليفها، خاصة وأن هذه الدراسة وهذا الرجل لم يسبق دراستهما في المشرق العربي.

✽ ولقد حفزني على الكتابة في هذا الموضوع ما يلي:

(أ) أن السيرة العطرة هي الميدان العلمي الذي طبقت فيه شريعة الإسلام، فالكتابة فيها تكتسب منهجا تطبيقيا وعلميا أبعد ما يكون عن الفروض والنظريات الجافة. ومن هنا أحسست بأهمية الموضوع الذي أخوض غماره، فهو مجال تربوي عملي، يشعر فيه المسلم أنه أمام حياة حافلة بالأنجاد الواقعية، التي تجسدت في شخصية الرسول المصطفى - ﷺ.

(ب) أن سيرته - ﷺ - ليست مجرد تسجيل للأحداث التاريخية، وإنما هي بالإضافة إلى ذلك.. أحكام ومعاملات وعقود وحياة حافلة بالأعمال النبوية في شتى المجالات. وتجتمع هذه الحياة النبوية الشريفة في نطاق الأسوة والقُدوة.

التي أمرنا الله بها في كتابه العزيز، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب ٢١].

ولا يتأتى للمسلم أن يقتدى برسول الله - ﷺ - في سيرته إلا إذا كانت السيرة ثابتة عنه - ﷺ - وفق مناهج المحدثين، وهذا أمر شائك لا يستطيع القيام به إلا من توفرت لديه وسائله العلمية المطلوبة، وأهمها اتصال السند. (ج) أن القاضى عياض عالم كبير لم يجد من يجتهد في التفرغ لدراسته وإبراز أهم الجوانب العلمية والشخصية التي توفرت له.

من هنا كانت أهمية هذه الدراسة التي تتناول السيرة النبوية من زاوية جديدة، وتتناول مؤلفها ومصنفها، وتلقى الضوء عليه إحياء لذكراه، وتخليداً لمصنفاته العديدة التي صنفها، وتحلية عن منهجه العلمي في بناء سيرة الرسول المصطفى - ﷺ.

٢ - منهج البحث:

كان أساس منهجى في البحث أن أبدأ من أول الطريق، غير متأثر برأى أحد من الباحثين، فآثرت في أول الأمر أن لا أقرأ شيئاً عن القاضى عياض، لأحد من الباحثين، ومضيت أتلّمس أخباره في مصادرها الأصلية في محاولة جاهدة مستقلة لتكوين رأى لى، وانقضت فترة ليست بالقصيرة، وأنا أقرأ وأدون، وأتأمل وأفكر، وأحدد خطوط صورته، حتى إذا ما كونت لنفسى رأياً.. مضيت أبحث عن دراسات وأبحاث الباحثين حول الرجل، والأمر العجيب أننى لم أحظ إلا ببعض التراجم القصيرة، التي لا تشبع نهم الباحث، ولا تساعد على أداء مهمته العلمية، إن أكبر ترجمة له لم تزد عن صفحتين في كتب التراجم القديمة، وهى كما نعلم لا تكفى في إلقاء الضوء على حياته العلمية والتأليفية والجهادية، وإنما هى شذرات من هنا وهناك.

أما محققو كتبه، فقد اكتفوا بما وجدوا في كتب التراجم القديمة، وإن أضافوا، فهى إضافات غير مشجعة، وغير كافية في دارسته. فكان لابد من البحث والنظر

ومحاولة استنطاق النصوص لاستخراج ترجمة وافية شاملة للرجل، تتناول جوانبه المتعددة، ومواهبه المتفردة، وتلقى الضوء عليه، وعلى العوامل المؤثرة في شخصيته، والعناصر المكملة لثقافته.

أما بالنسبة للسيرة، فكان عليّ أن أطلع على كل ما كتب عن الرسول - ﷺ - في المصادر القديمة والمصادر الوسيطة، والمصادر الحديثة، لأتعرّف على المناهج التي اتبعها أصحابها في دراسة سيرة رسول الله - ﷺ - من حيث التاريخ وسرد الأحداث وتفصيل الوقائع، ثم أعود إلى السيرة النبوية التي ألفها القاضى عياض، لتقوم الموازنة بين عمل العلماء السابقين والمعاصرين للرجل، وعمله هو في بناء السيرة، ماذا استفاد من العلماء السابقين، وما هو الجديد الذي أتى به لتكون السيرة من تأليفه على هذا المنهج، وعلى هذه الصورة.

لقد كان الرجل - كما قلت - لا يتكلف الحديث عن الأحداث التاريخية، وإنما كان يصب اهتمامه صَبًا على تصوير النبي - ﷺ - وتحديد شخصيته، ومعالم حياته، وإبراز مكانته وفضائله من خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ومن أحاديث الصحابة والتابعين، المروية بإسناد تام متصل، من هنا كان منهجه مغايرًا لكل مناهج السابقين عليه، والمعاصرين والآخقين..

وهكذا فرض البحث نفسه أن يكون في قسمين:

الأول: يتصل بدراسة القاضى عياض وعصره..

والثاني: يتصل بدراسة منهجه في تأليف السيرة النبوية.

في القسم الأول: درست «الرجل والعصر»، ولقد مهدت لذلك باطلالة على المغرب في عصره وجعلت دراسة حياة القاضى عياض في ستة فصول.

في الفصل الأول.. درست اسمه ونسبه.

وفي الفصل الثاني.. درست مولده ونشأته وثقافته.

وفي الفصل الثالث.. درست حياته الخاصة والعامة ومراحلها ورحلاته

العلمية.

وفي الفصل الرابع.. تحدثت عن مكانته العلمية، ومحتته بسبب عقيدته السنية،
وفي الفصل الخامس.. ذكرت مؤلفاته ومصنفاته وتحدثت عن مضمونها
ومشموها.

وفي الفصل السادس.. تناولت بالدراسة أدبه، شعره ونثره، ورسائله وخطبه.
ولقد اختط القاضي عياض لنفسه منهجا خاصا، حدّده بدقة في صدر السيرة
النبوية، ومضى ينفذه بكل أمانة ووضوح، وكان هذا المنهج من الدقة والشمول
بحيث جعلني أقتدى به، وأسير على نهجه وخطاه في القسم الثاني، وهو الدراسة
الفنية الموضوعية للسيرة النبوية.

لذلك قسمت هذا القسم إلى أربعة أبواب رئيسية، كل باب يشتمل على
فصول تتفق مع موضوعه.. ولقد صدرت هذا القسم بمقدمة تمهيدية، تناولت
فيها:

(أ) مميزات السيرة النبوية.

(ب) مصادر السيرة النبوية.

(ج) نظرة القاضي عياض إلى السيرة

(د) منهجه في بنائها.

وخصصت الباب الأول من هذا القسم لدراسة: شخصية الرسول
كما رسمها القرآن.

وهذا الباب يشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: في ثناء الله عليه.

والفصل الثاني: تحدثت فيه عن خصال الجلال والكمال.

والفصل الثالث: في عظيم قدره ومنزلته عند ربه.

والفصل الرابع: تحدثت عن معجزاته - ﷺ.

وخصصت الباب الثاني لدراسة: حقوق الرسول قبل المسلمين.
وهو يقع في أربعة فصول:

الفصل الأول: وجوب الإيمان به وتصديقه - ﷺ.

الفصل الثاني: لزوم محبته - ﷺ.

الفصل الثالث: وجوب تعظيم أمره وتوقيره وبرّه.

الفصل الرابع: وجوب الصلاة عليه وزيارة قبره الشريف..

وخصص الباب الثالث لدراسة: شخصية الرسول من جانبين: جانب النبوة والجانب الإنساني.

وهذا الباب يقع في فصلين:

الفصل الأول: جانب النبوة - وعصمة الله لنبئه.

الفصل الثاني: الجانب الإنساني في شخصية الرسول.

أما الباب الرابع والأخير، فقد خصصته لدراسة: موقف الشريعة من العداوة للرسول.

وهو يقع في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحكم الشرعى فيمن سبَّ أو نقص حق الرسول.

الفصل الثاني: موقف المذاهب الفقهية من ساب الرسول وشأنه.

الفصل الثالث: موقف الشريعة ممن سب الله تعالى وملائكته وكتبه وآل النبي وأزواجه وأصحابه.

وختمت البحث بنظرة تقويمية في عمل القاضى عياض في كتابه الشفا.

٣ - المصادر:

إن المصادر العلمية التى رجعت إليها، واعتمدتها في بحثى كثيرة، وهى تنقسم بحسب طبيعة المنهج إلى مجموعات:

(أ) مصادر دينية.

(ب) مصادر تاريخية.

(ج) مصادر لغوية وأدبية.

فأما المصادر الدينية، ففي مقدمتها كتاب الله العزيز، القرآن الكريم، وكتب الصحاح الستة، ثم كتب العقائد والمثل والنحل، يضاف إليها مجموعة كبيرة من التفاسير، كتفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير الزمخشري، وتفسير الشوكاني، وتفسير الشيخ سيد قطب، وتفسير أضواء البيان للشيخ محمد الشنقيطي، ويلحق بهذه التفاسير كتب التوحيد، مثل العقيدة الواسطية، وكتب ابن تيمية، وكتب الفقه، مثل كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ومثل تفسير آيات الأحكام للصابوني، وغير ذلك من الكتب.

وأما المصادر التاريخية فهي كثيرة، في مقدمتها سيرة ابن هشام والروض الأنف للسهيلي. والسيرة الحلبية، وجوامع السيرة لابن حزم، هذا بالإضافة إلى كتب التاريخ المختلفة، كتاريخ الطبري، وتاريخ بغداد، والبداية والنهاية لابن كثير، وكتب الطبقات، كطبقات ابن سعد، وقصص الأنبياء لابن كثير، وقصص الأنبياء للنيسابوري الثعلبي، وكتب التراجم المتعددة..

ولقد استفدت كثيرا من كتب المغاربة، مثل كتاب «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم» لابن بشكوال، وكتاب «بغية الملمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» للزبي، وكتاب «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان»، وكتاب «جذوة الاقتباس» لابن القاضي، «والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، للناصري.

وأما المصادر اللغوية، ففي مقدمتها معاجم اللغة، لسان العرب، وتاج العروس، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط.

وبالإضافة إلى هذه المصادر اللغوية رجعنا إلى مجموعة من الدراسات الأدبية والعلمية التي تتصل بموضوعنا، كان في مقدمتها الكتاب الذي أهداه لي فضيلة الأستاذ علي لغزوي رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الملك محمد الخامس، وهو كتاب «القاضي عياض الأديب»، وهو بحث قيم للأستاذ عبد السلام شقور، كان أطروحة نال بها سيادته درجة الماجستير من قسم اللغة العربية، والذي وجدت إتماما للفائدة أن اقتبس منه نصوصا نادرة من أدب القاضي عياض تكون ملحقا لهذا البحث.

إلى غير ذلك من الكتب والمصادر التي أفادتنا إفادة كبيرة في بحثنا، مما هو مدرج في هوامش البحث، وفي الثبت الأخير منه.

وبعد فهذه محاولة لدراسة عالم ومنهجه في السيرة النبوية، ولعلها تكون مفيدة، ولعلى أكون قد وقفت في التعريف بالعالم وإبراز منهجه العلمى، فإذا كان هناك شىء من القصور، فلأن الكمال لله وحده، والله حسبى وهو نعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٢ ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ

أحمد جمال العمرى

القسم الأول

الرجل والعصر

تمهيد	: إطلالة على المغرب في عصره
الفصل الأول	: اسمه ونسبه
الفصل الثاني	: مولده ونشأته وثقافته
الفصل الثالث	: حياته
الفصل الرابع	: مكانته، ومحنه بسبب عقيدته السنية
الفصل الخامس	: مؤلفاته ومصنفاته
الفصل السادس	: أدبه.. شعره ونثره.

تمهيد

إطلالة على المغرب العربي في عصره

يقسم المؤرخون تاريخ دولة الإسلام في الأندلس إلى خمسة عصور مميزة :
● العصر الأول : ويتميز في التاريخ الأندلسي، في المجال العسكري بالجهاد في الخارج، استمرارًا للفتح الإسلامي في الأجزاء الشمالية من أسبانيا، والأجزاء الجنوبية من فرنسا، وفي الداخل تميز بقمع الفتن والاضطرابات الداخلية لاسيما والدولة الأموية في الأندلس لم ترسخ أقدامها بعد.
ومن أبرز معارك الميادين الخارجية، كانت معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ، والتي استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي أمام جيش شارل مارتل، ملك الفرنجة.

● العصر الثاني : وهو عصر الأمراء الأمويين (١٣٨ - ٣١٦ هـ) ابتداء بعبد الرحمن الداخل، ثم الخلافة الأموية (٣١٦ - ٤٢٢ هـ) ابتداء بعبد الرحمن الناصر.

ويتميز هذا العصر أيضا بالجهاد المتواصل ضد ملوك النصارى الأسبان، الذين كانت لهم مرتكزات في الجزء الشمالي من أسبانيا، حتى تمكن حكام هذا العصر من إخضاعهم زمن عبد الرحمن الناصر، وتثبيت دعائم دولة إسلامية قوية على الأرض الأسبانية كلها، اعترفت بقدرتها وعظمتها دول أوروبا والعالم في المجالين العسكري والحضاري، ويعتبر ذلك العصر.. العصر الذهبي للدولة الإسلامية في الأندلس.

● أما العصر الثالث - وهو عصر ملوك الطوائف ودخول المرابطين قادمين من المغرب، بقيادة يوسف بن تاشفين، فقد تمكن فيه أعداء الإسلام من أن يبنوا بذور الفساد بين أمراء المسلمين، ليهلكوا أنفسهم بأيديهم، وكان دور هؤلاء الأعداء نصرة الأمير المسلم على أخيه الأمير المسلم الآخر، في الوقت الذي يعمل فيه العدو على توسيع رقعة نفوذه في الأندلس الإسلامية.

● وأما العصر الرابع: فقد استعاد فيه المسلمون بجهاد المرابطين المتواصل الحق الإسلامي في الأندلس، وإعادة الأمور إلى نصابها، وأصبحت فيه الأندلس ولاية تابعة للمغرب، وينتهى هذا العصر بهزيمة الموحّدين أمام الجيوش الأوربية المتحالفة في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ. وتلا ذلك فترة ملوك الطوائف، الذين قضى عليهم الأسبان، ولم يبق لهم سوى غرناطة، وكان ذلك عام ٦٢٨ هـ.

● وأما العصر الخامس والأخير، فقد انحصرت فيه الدولة الأندلسية بغرناطة، التي استمر حكمها حوالى القرنين والنصف، وتجمعت القوة الإسلامية كلها في ذلك الجزء من أسبانيا، الذي برز فيه ملوك بني الأحمر، يداً واحدة ضد كل طامع فيهم، وينتهى هذا العصر بسقوط الأندلس جميعها بيد الأسبان عام ٨٩٧ هـ على يد فردناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة، واللذين نشأت بزواجهما ملكة أسبانيا عام ٨٧٤ هـ.

آل الحكم إلى أسرة المرابطين، التي قامت في بلاد المغرب، وكان يوسف بن تاشفين أبرز رجائها، الذي كون له في شمال افريقية دولة كبيرة شملت رقعتها المغرب الأقصى برمته. ويقال ان «الغزالي» هو الذي طلب إلى الخليفة العباسي أن يقرّ يوسف بن تاشفين على مُلك المغرب، لانتصاره على المسيحيين في معركة الزلاقة، لأنه بذلك رفع من مكانة المسلمين في العالم. وكان نصارى الأندلس قد شددوا على المسلمين، وبخاصة ملوك الطوائف. وكاد حكم تلك البلاد الإسلامية ينتقل إلى أولئك النصارى، لولا أن قيض الله لهم ابن تاشفين، الذي لبى نداء ملوك الطوائف قائلاً: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى».

التقى ابن تاشفين مع الفونس السادس، ملك قشتالة، في «معركة الزلاقة» الحاسمة في ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)، وأحرز ابن تاشفين نصراً مؤزراً، ضمن للإسلام قوته وعزّته في بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى. وقد أفلح «ابن تاشفين» في إزالة الخلافات بين أمراء الأندلس وتوحيدهم، وحثهم على محاربة جيش النصارى وعلى رأسهم «الفونس»، الذين كانوا

يحاولون تفرقتهم بشتى الوسائل وحتى يضمن أسباب النجاح فى محاربة النصارى، ومن أجل الحفاظ على الدولة الإسلامية فى الأندلس، فقد ألحقها بدولته فى المغرب.

وكان عصر «ابن تاشفين» هو العصر الذهبى لدولة المرابطين، وقد حكم الأندلس والمغرب مدة خمسين سنة، وتوفى سنة ٥٠٠ هـ وعمره تسعون سنة.

وقد استمر حكم المرابطين فى الأندلس حتى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) عندما حلّ الموحدون محلهم. وقد استمر حكمهم حتى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٦٩ م)، بعد أن حلوا محل المرابطين فى المغرب، ومحل بنى حماد فى الجزائر، ومحل آل زيرى فى تونس وطرابلس.

عاش «القاضى عياض» فى العصر الذى كانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى مزيد من التماسك لمجابهة الأخطار التى أخذت تهدد العالم الإسلامى.

● ففى الأندلس - كان عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ - ٤٨٤ هـ) ومن أهم مظاهره التجزئة، والتناحر القبلى بين المسلمين، وزيادة أطماع حكام النصارى الأسباب فى التوسع على حساب الدولة الإسلامية.

ففى أخريات الدولة الأموية بالأندلس، أعلن الوزير «ابن جمهور» نفسه حاكماً للبلاد، وجعل قرطبة عاصمة له، وبذلك انتهت الخلافة الأموية فى الأندلس، ولم يكذب ابن جمهور يعلن ذلك، حتى أعلن كثير من الأمراء استقلالهم فى مقاطعاتهم.

وهكذا دخلت البلاد عصر ملوك الطوائف، وأصبح فيها حوالى عشرين أسرة حاكمة، ومن أهم تلك الإمارات: إمارة بنى عباد فى إشبيلية، التى استولت على قرطبة من ابن جمهور، وإمارة بنى حمود، وبنى زيرى. واستمر حكم ملوك الطوائف فى الأندلس، - كما ذكرنا - حتى كان عصر المرابطين.

تذكر المصادر التاريخية.. أن سقوط إشبيلية فى يد المرابطين، ووقوع المعتمد أسيراً فى أيديهم تم فى سنة ٤٨٤ هـ، لذا يعد بعض الباحثين هذا التاريخ حداً

فاصلا بين عهدين من حياة الدولة المرابطية^(١): «عهد التأسيس»، و«عهد التوحيد»، تأسيس الدولة المرابطية، وتوحيد المغرب في ظلها. وعهد الازدهار الحضارى في ظل وحدة سياسية ومذهبية. وفي هذا العهد الأخير عاش «القاضى عياض»، وساهم في أحداثه السياسية والثقافية.

إن الدولة المرابطية إنما قامت بعد صراع طويل، سياسى وقبلى. ذلك الصراع الذى أشعله الاختلاف المذهبى، والمطامع الخارجية، ومن ثم فإن أهل المغرب عامة، وفقهاءهم خاصة، كانوا ينظرون إلى المرابطين نظرة إكبار وإجلال، باعتبارهم أصحاب الفضل فى إنقاذ المغرب مما كان يحاق به. ولقد كان للفقهاء جهودهم فى نصرة الدولة الجديدة.

وإذا كانت الدراسات التاريخية، التى تناولت هذا العصر، لا ترى فى اهتمام يوسف بن تاشفين وخلفائه بالفقهاء إلا أثرًا من آثار الورع والتقوى، الذى عرف به رجال هذه الدولة، فإننا إنطلاقًا من الإشارات المبثوثة فى كتب التاريخ - يمكن أن نقول:

إن ذلك الاهتمام إنما جاء نتيجة طبيعية لنوع العلاقات التى ربطت بينها، منذ اتصال أبى عمران ببيحى الكدالى. حيث كان اتصالها نقطة تحول فى تاريخ المغرب السياسى والمذهبى، فقد رأينا أن تأسيس الدولة المرابطية، كان بإيعاز من فقيه مالكى، بحيث يمكن القول: إن القبائل الصحراوية لم تكن إلا الأداة المنفذة لخطة الفقهاء.

يقول ابن عذارى: «وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم، إلى أن قلب كل شخص منهم على موضعه، كما فعل ملوك الطوائف بالأندلس. فمر «عبدالله بن ياسين» ببلاده المصامدة بعد منصرفه من الأندلس، فوجدهم يغير بعضهم على بعض، يغنمون الأموال، ويقتلون الرجال، ويسبون الحريم، ولا يرجعون إلى طاعة إمام، فكان من عبدالله بن ياسين بعض

(١) أنظر ما ذكره القاضى عياض عن ذلك فى كتابه ترتيب المدارك ص ٧٨١ - طبعة لبنان.

الإلهام أن قال لهم: «هلا قدمتم عليكم إماما يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبي عليه السلام»^(١).

ويصف الدكتور حسن أحمد محمود، الوضع السياسى، الذى سبق قيام الدولة المرابطية، فيقول: «.. وبعد، فهذه قبائل قوية محاربة متفرقة الكلمة فى انتظار زعيم يرد الوحدة إلى صفوفها، وهذا مغرب سرت فيه الفوضى، وأساء حكامه من زناته السيرة حتى تبرم الناس وفاقوا، وهذا «مذهب مالك» قد تألق نجمه وبسط رواقه على المغرب كله»^(٢).

ولما كان المغرب - إلى عهد الدولة المرابطية، تتنازعه تيارات عقدية، وتتقاسمه إمارات متطاحنة، فإن الزحف المرابطى، والذى كان يدعمه الفقهاء فى كل خطوة يخطوها، حقق فى تقدمه نحو الشمال هدفين اثنين: توحيد المغرب سياسيا، وتوحيده مذهبيا، وصيانته من الهجوم الصليبي فى الشمال، ومن الأعراب فى الشرق.

وهكذا - فى الوقت الذى كان فيه الجيش يعمل على صيانة الوحدة المغربية داخليا، عن طريق إقامة نظام إدارى وقضائى دقيق، فإن فقهاء المذهب المالكي، وعلى رأسهم «القاضى عياض»، أقبلوا على الدرس والتدريس بغية نشر المذهب المالكي، وتعميمه عقيدة وتشريعا، وهم فى الوقت ذاته يراقبون أعماله السياسية، موجّهين النصح تارة، والانتقادات الصريحة تارة أخرى، فكانوا بمثابة سلطة تشريعية حقيقية، إلى جانب ما كانوا يمارسونه فى الميدان العقدي.

وبضم «يوسف بن تاشفين» الأندلس إلى المغرب، تكونت امبراطورية عظيمة، فسيحة الأرجاء، تمتد من غانا جنوبا، إلى شمال شبه الجزيرة الأيبيرية شمالا، ومن بجاية شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا. فاجتمع فى هذه الامبراطورية الواسعة خليط من الشعوب والحضارات منها ما هو إفريقي، ومنها ما هو شرقي، ومنها ما هو أوروبي.

(١) البيان المغربي، القطعة الخاصة بالمرابطين ص ١٠ - نقلا عن كتاب القاضى عياض الأديب للدكتور عبد السلام شقور ص ١٥، نشر دار الفكر المغربى سنة ١٩٨٢ م.
(٢) قيام دولة المرابطين ص ٩٩.

ولأول مرة في تاريخ المغرب المسلم تتكون فيه دولة، توحد بين أطرافه بمثل هذا الامتداد، ولذلك فمهما يكن عدد الجند القادمين من الصحراء في الزحف نحو الشمال، فإنه من المستحيل أن يكون هذا الجيش وحده كافيا لحفظ النظام.

إن السرّ في استتباب الأمن والاستقرار اللذين عمّا المغرب أثناء الحكم المرابطي، يكمن في كون الأمة المغربية وجدت لدى المرابطين كل ما يرضيها، وما كانت في حاجة إليه، وجدت العدل الذي كان مصدره تطبيق الشريعة الإسلامية، ذلك أن المرابطين تربوا تربية إسلامية كاملة، قبل الانطلاق نحو الشمال. أضف إلى ذلك أن الفقهاء كانوا يقومون بدور الوجه المعنوي للجيش المرابطي، وكانت بيدهم السلطة الروحية، وحبهم قد تمكن من قلوب الشعب، وهذا سر آخر من أسرار الاستقرار في ظل هذه الدولة.

وقد حظيت الأندلس بنصيب أوفى من رعاية واهتمام المرابطين، دون بقية أقاليم المغرب. وذلك يرجع إلى أنها كانت ثغرا من الثغور. وتبدو أهمية الأندلس لدى المرابطين، في حرص «يوسف بن تاشفين» على أخذ البيعة لولده «علي» في قرطبة من علمائها وأعيانها، وذلك قبل أن يأخذ البيعة له من علماء مراكش وأعيانها، وذلك أثناء اجتيازه الأخير إلى الأندلس متوجا بالنصر.

وهذا على نفسه لم يكد يتولى الخلافة حتى بادر إلى عبور البحر إلى الأندلس متفقدا شئونها.

ويبدو أن المرابطين استطابوا العيش في الشمال - بعيدا عن الصحراء - فلم يعودوا يهتمون بالجنوب، كذلك انقطعت أخبار الصحراء، وقد كان بإمكان إقليم الصحراء أن يستمر في إمداد «يوسف» «وخلفه» بأبناء آخرين، يساعدون إخوانهم في تحمل الأعباء التي ربما كان يوسف وأصحابه يتوقعونها. على أن يوسف بن تاشفين، كان يعي دون شك ما تفرضه عليه الظروف من مسؤوليات تسيير امبراطورية مهددة بالتفكك من الداخل، وبالهجوم الصليبي من الخارج لذلك نجد يوسف - أمير المسلمين، كما لُقّب - يضع لدولته جهازا إداريا وقضائيا محكما، فقد عمد إلى تقسيم المغرب إلى ولايات، ووضع على كل ولاية

واليا من القبائل. التي شاركت في عملية تأسيس الدولة. يقول الدكتور حسن أحمد محمود:

«إن المغرب كان مقسما إلى خمس ولايات هي: فاس، وسبتة، وتلمسان، وبلاد السوس، وإقليم الصحراء وسجلماسة. أما الأندلس فقد أصبحت بعد ضمها إلى المغرب شبه ولاية مستقلة^(١). يحكمها نائب من قبل أمير المسلمين، وكان نائب أمير المسلمين يتخذ في الغالب غرناطة، أو قرطبة، أو إشبيلية مقرا له. وكانت سبتة تحظى باهتمام خاص من يوسف بن تاشفين، وخليفه من بعده.

وكانت سلطة نواب أمير المسلمين - في الأندلس - تكاد تكون مطلقة، إذ كانوا يعينون الولاة أحيانا، ويعزلونهم، كما كانوا يعينون القضاة ويعزلونهم.. فهذا القاضي عياض يعينه الأمير تاشفين بن يوسف، قاضيا على غرناطة.

وكان الولاة غير مستقرين في أماكنهم، بل كانوا يخضعون لحركات نقل مستمرة، من إقليم إلى إقليم خوفا من استبدادهم بأقليمهم. فهذا محمد بن الحاج نقل من قرطبة إلى فاس، ومنها إلى بلنسية^(٢).

وكان الولاة - في العهد المرابطي، يحيطون أنفسهم بهالات من الوزراء والشعراء، وكانت حاشياتهم تنافس ما كان للملك الطوائف، من شعراء وكتاب وعلماء. وقد ساعد هذا النظام على انتعاش الإمارات علميا وثقافيا، دون أن يمس بوحدة البلاد السياسية والمذهبية. وكان القضاة أيضا يخضعون لحركات النقل، شأنهم في ذلك شأن الولاة.

ومن العوامل التي ساعدت على بث الاطمئنان في نفوس الناس، ذلك الجهد الذي قام به المرابطون في ميدان الجهاد، ذلك أن المرابطين لم يدخروا أى جهد في سبيل تأمين الرعية من الهجوم الخارجي الصليبي. والمرابطون إنما دخلوا الأندلس من باب الجهاد، وبصفة الجهاد عرفوا، وفي ذلك يقول المراكشي: «فأظهروا في أول أمرهم النكاية بالعدو، والدفاع عن المسلمين وحمايتهم،

(١) قيام دولة المرابطين ص ٣٥٢.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ص ٤٨.

ما صدق بهم الظنون، وأتلج الصدور، وأقر العيون، فزاد حب الناس لهم، واشتد خوف ملوك الروم منهم^(١).

إن أخبار المعارك التي خاضها المرابطون كثيرة، ذكرتها كتب التاريخ، ذلك لأن الجهاد - كما قلنا - كان شعارهم، وكان أمير المسلمين يقود بنفسه المعارك عبر البحر إلى الأندلس، فقد عبر البحر «علي بن يوسف» أربع مرات، بعضها لتفقد شئون المسلمين، وبعضها الآخر للجهاد، متتبعا في ذلك سيرة أبيه «يوسف ابن تاشفين»^(٢). ومن أهم المعارك التي خاضها المرابطون بعد معركة الزلاقة «معركة إقليج»، التي انتصر فيها الأمير «تميم بن يوسف»، وإلى غرناطة من قبل أخيه علي، على أحد الأمراء الأسبان. ومن أشهر الولاة الذين اشتهروا بانتصاراتهم على المسيحيين «ابن أبي بكر»، «وتاشفين بن علي»، وكان تاشفين آخر الأبطال المرابطين في الأندلس، ذلك أنه استمر في غزواته إلى ما بعد سنة ٥٣٦ هـ.

وإذا كان المرابطون قد نجحوا في حفظ البلاد من الهجمات الخارجية بواسطة الجهاد، فإنهم قد نجحوا كذلك في حفظها من التفكك الداخلي عن طريق إقرار سياسة إدارية وقضائية دقيقة، إلا أنهم وجدوا أن الوحدة الدائمة والاستقرار الداخلي، يجب أن تتوفر له دعامة دينية، تقوم على أعمال الفقهاء، وترمى إلى محاربة كل ما هو خارج عن المذهب المالكي، المذهب الرسمي للدولة المرابطية. والمذاهب التي عرفها المغرب قبل المرابطين هي المذهب الخارجي، والمذهب الشيعي، والمذهب الاعتزالي.

ولما كان المذهب المالكي قد وجد في المذهب الأشعري السلاح الذي كان ينقصه لمواجهة خصومه، فإن كبار فقهاء المذهب المالكي - والقاضي عياض منهم - اعتنقوا مذهب أبي الحسن الأشعري. ويوضح القاضي عياض ذلك فيقول:

(١) المعجب ص ١٦٢

(٢) انظر ما ذكره ابن أبي زرع في الأنيس المطرب ص ١٥٩، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٤، وابن عذارى في البيان المغرب ص ٥٢.

فأهل السنة من المشرق والمغرب بحججه يحتجون، وعلى مناهجه يذهبون^(١).

ومن المذاهب التي عرفها المغرب قبل المرابطين، مذهب أبي حنيفة، فقد ذكر القاضي عياض - في ترتيب المدارك - عند حديثه عن عثمان بن سعيد ابن حمادة، أن عثمان هذا قد تفقه على طريقة العراقيين، وأنه كان صاحب نظر وجدال وحجة^(٢). وبالإضافة إلى هذه المذاهب كان هناك مذهب البرغواطية، وهو مذهب يرد إلى أصول خارجية.

أما عن أسباب سيادة المذهب المالكي، فيمكن أن نجدها فيما ذكره ابن خلدون، من أن المعز كان منحرفا عن مذهب الرافضة، ومنتحلا للسنة، غير أنه كان يخفي ذلك، فلما واثته الفرصة، أظهر عداؤه للرافضة، فثار العامة على الشيعة وقتلوهم، فساعد ذلك على إقرار المذهب المالكي. أضف إلى ذلك أن تسخير الفقهاء لإمكانات الدولة المرابطية، كان عاملا جوهريا في إقرار المذهب المالكي بالمغرب بصفة نهائية. هذا بالإضافة إلى أن هجرات المغاربة كانت في أغلبها إلى مواطن الإمام مالك، سواء من أجل الحج أو العلم.

ومن المعروف أن فقهاء الأندلس، كانوا سباقين إلى استقدام المرابطين إلى الأندلس، فهم الذين شجعوا ملوك الطوائف على استدعاء يوسف بن تاشفين، وهم الذين هبوا بعد ذلك لأسباب لسقوط ملوك الطوائف، بيد أن فقهاء المغرب كانوا أكثر إخلاصا للمرابطين في آخر أيامهم.

وعلى أي حال فإن فقهاء المالكية، سواء في المغرب، أم في الأندلس، شعروا أن طبيعة المرحلة الجديدة تفرض عليهم مسئوليات متعددة، تحتم عليهم أن يخرجوا من رباطاتهم، لأن مهمتهم لم تعد منحصرة في الوعظ والتدريس، بل في الإشراف على سير قطاع واسع من قطاعات الدولة. وهكذا أصبح الفقهاء رجال الدولة، يخططون لسياساتها، ويتحملون مسئولية حماية كيانها، فمهمة الفقيه إذن، إرشاد الأمير في سياسته العامة، والسهر على تطبيق التشريع المالكي. أو بعبارة

(١) ترتيب المدارك ج ٥ ص ٣٦٥ ط المغرب.

(٢) ترتيب المدارك ج ٤ ص ٧٨٣.

أخرى، قد غدا نشاط الفقهاء تشريعيًا، وعقديًا، وسياسيًا، ولا شك أن هذا العمل كان ضربة قاتلة للانشقاقات الشيعية، والخارجية، والبرغواطية^(١).

ومن هنا كان للفقهاء في العصر المرابطي، تلك المكانة التي يتحدث عنها غير واحد، فقد رأينا ما قام به الفقهاء على المستوى السياسي والعقدي، بالإضافة إلى إسهامهم في تأسيس الدولة.

ومن المهم أن نعلم.. أن تلك المكانة، التي كان يتمتع بها الفقهاء لم تكن تكرما من يوسف بن تاشفين، أو على، بل كانت نتيجة طبيعية لطبيعة العلاقات التي ربطت بين الطرفين منذ أول لقاء تم بينهما، أي منذ لقاء أبي عمران ييحيى الكدالي بالقيروان.

فالدولة المرابطية قامت على دعامتين، أحد طرفيها الفقهاء، والطرف الثاني القبائل الصحراوية، ثم سار على هذا الدرب فيما بعد أمراء المرابطين وفقهاؤهم.

وفي هذا الباب ذكر القاضي عياض، وابن خلدون بعده، أنه بعد موت «عبد الله بن ياسين»، خَلَفَهُ شخص يُدعى «سليمان بن عذرا الجزولي»، وهو من رجال ترتيب المدارك^(٢).

وإذا كنا لا نعرف مَنْ خلف سليمان بن عذرا، فإنه يمكن القول بأن قاضي الحضرة ظل يمثل تلك السلطة التي كانت لعبد الله بن ياسين، وخلفه سليمان ابن عذرا، ومن ثم لا مغالاة في القول بأن دولة المرابطين هي دولة الفقهاء، ولم تكن القبائل الصحراوية التي قامت على أكتافها الدولة إلا جهازها التنفيذي. إن مظاهر نفوذ الفقهاء في الدولة المرابطية كثيرة، ويكفي أن نذكر أن فقيها اعترض على يوسف بن تاشفين نفسه، عندما عزم هذا على إحداث ضريبة، فما كان من يوسف إلا الإذعان لرأيه^(٣).

تلك هي الأسس التي سار عليها المرابطون، ساسة وفقهاء، وهي تتجسم

(١) عبد السلام شقور: القاضي عياض الأديب ص ٢٣.

(٢) ترتيب المدارك ج ٤ ص ٧٨٠ ط. لبنان.

(٣) الناصري: الاستقصاء - طبع دار الكتاب، البيضاء ١٩٥٤م (ج ٢ ص ٥٩)

- كما رأينا - في التنظيم الإداري، والقضائي، وفي الاهتمام بالجهاد، وأخيرا في دعم جهود الفقهاء الرامية إلى القضاء على كل أسباب التفرقة المذهبية.

وقد نجح المرابطون بأعمالهم هذه في إيجاد الاستقرار الفعلي، الشيء الذي بعث الطمأنينة في النفوس. وفي هذا الاستقرار، وتلك الطمأنينة، عاش المغرب فترة من أحسن فترات حياته «فكثرت الخيرات، ورخصت الأسعار، وانتعشت الحياة الفكرية والأدبية في المغرب. وشجع على ذلك كله أنه لم يجر طواوز أيام المرابطين رسم مكس، ولا معونة، ولا خراج، لا في بادية ولا حاضرة»، بل «كانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل، وعافية وأمن، كان ذلك مصطحبا بطول أيامهم، ولم يكن في عمل في بلادهم خراج ولا معونة، ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية، حاشا الزكاة والعُشر، وكثرت الخيرات في دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغيطة، وأحبهم الناس»^(١).

وقد نهج «يوسف بن تاشفين» سياسة خارجية واضحة، تتمثل في اعتراف الدولة المرابطية بالخلافة العباسية، وبذلك ارتبط المغرب بالشرق، وأصبح هناك نوع من التبادل الثقافي والعلمي. وقد شجع ذلك على تقوية أواصر المودة، وقيام الرحلات العلمية بين المغرب والشرق من جهة، وبين المغرب والأندلس من جهة ثانية، ورحلة «ابن العربي» إلى المشرق مشهورة. وإلى جانب هذه الرحلات، كانت هناك اتصالات مستمرة بين علماء المغرب وإخوانهم في المشرق، عن طريق الرسائل التي لم تكن تنقطع بين الطرفين، وكان «للقاضي عياض» - بصفة خاصة - مشاركة قوية في كل ذلك.

وقد وجد أهل الأندلس في دولة المرابطين ميدانا رحبا لترويج بضاعتهم وصناعاتهم، وتسخير إمكاناتهم الفنية والأدبية، فتوافدوا على المغرب زرافات ووحدانا.

كما أقبل الناس على التعليم بمختلف مستوياته، وذلك من أجل البلوغ إلى مناصب الدولة العليا، إذ أصبحت الكفاءة العلمية وحدها، هي الكفيلة بالوصول

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ط. دار المنصور: الرباط ١٩٧٣ (ص ١٦٧)

إلى أرقى المناصب، خاصة القضاء والكتابة. وظلت حياة الأمن والرخاء وصفو الحياة ترفرف في سماء المرابطين، ينعمون بها هم ورعيّتهم حتى قيام «ابن تومرت» عليهم.

لقد ظهر «ابن تومرت» لأول مرة بمظهر المصلح الاجتماعي والديني، إلا أن الأيام سرعان ما كشفت عن هدفه الحقيقي، وطموحه السياسي. ومن هنا وجدنا بعض الباحثين يذكر: أن هدف «ابن تومرت» كان سياسياً في أساسه، وإن اتخذ الوعظ والإرشاد طريقاً للوصول إليه، كما اصطنع لنفسه مذهباً خاصاً، هو في الواقع خليط من مذاهب شتى، ليواجه به مذهب الإمام المالك، الذي كان سائداً في المغرب، فعن الشيعة أخذ مبدأ العصمة، وعن الاعتزال أخذ آراءهم في الصفات. ويبدو أن ما أتى به «ابن تومرت» لم يكن بأمر جديد على المغاربة. فقد كانوا على علم بمذاهب شتى، وأن تلك المذاهب التي عرفها المغاربة قبل عودة ابن تومرت من الشرق بوقت طويل - هي نفسها المذاهب التي اقتبس منها «ابن تومرت» مذهبه.

ولقد شاع بين عدد من الباحثين، أن ابن تومرت فاجأ فقهاء المرابطين - المالكية - بطرق في الجدل لم يعرفوها، وأفكار لم يألّفوها، ومبادئ لم يفهموها، كما شاع أن فقهاء المرابطين كانوا جامدين، بل جاهلين بالإسلام^(١) والظاهر أن المصدر الأول لهذه الأحكام هو كتابات المراكشي، وابن القطان. ويكفي دليلاً على بطلان ما نسب إلى المرابطين وفقهائهم في هذا المجال، ما هو معروف من الرحلات التي لم تنقطع بين المشرق والمغرب طوال أيام المرابطين. «فابن العربي» على سبيل المثال، عاد من المشرق - قبل ابن تومرت - بسنوات، ومعه أمهات الكتب، ومنها كتب لكبار المتكلمين مثل كتب الغزالي، والجويني^(٢).

وخلاصة القول: أن الصراع المذهبي، الذي احتد بين المرابطين والموحدين، لا يعدو أن يكون لونا من ألوان الصراع المذهبي الذي كانت الدولة المرابطية

(١) الدكتور يحيى هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية ص ٢١٢ طبع مصر.

(٢) انظر فهرسة شيوخ الرعيني ص ٢٥٨.

تخوضه ضد اتجاهات متعددة. وإن انتقادات «ابن تومرت» - زعيم الموحدين - للمرابطين، ساسة وفقهاء، إنما هي وليدة الصراع السياسى، وتبرير له، ذلك لأن دعوة الموحدين، كما يقول الدكتور حسن أحمد محمود^(١). «دعوة أذكتها العصية القبلية، وأوحى بها ذلك الصراع المربى بين القبائل الجبلية المستقرة، وبين شعوب المسلمين، هي دعوة ظاهرها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وباطنها تعصب ذميم، وكره دفين، وطعن فى المرابطين، وتشويه لدعوتهم ولتاريخهم، رفعت دولة المرابطين علم مذهب الأمام مالك، فلا بأس من أن يعلن صاحب الدعوة الجديدة، الحرب السافرة على مذهب مالك، وفقهاء مذهب مالك، فيرميهم بالتعصب والجمود، والتكالب على عرض الدنيا. وبلغ من كره الموحدين لهذا المذهب أنهم أحرقوا «مدونة سحنون» ودعا المرابطون لبنى العباس، وخطبوا لهم على المنابر، فلا بد أن تؤدي الكراهة العنصرية إلى أن يخرج المصامدة على بنى العباس».

وعلى الرغم من أن ظهور «ابن تومرت» كان سنة ٥١٥ هـ، فإن ثورته لم تصبح خطيرة إلا بعد سنة ٥٢٠ هـ، بل لعل المرابطين لم يجدوا فيها خطرا حقيقيا على دولتهم إلا بعد هذا التاريخ بكثير، وذلك سبب تأخرهم فى استقدام جيوشهم، التى كانت تغزو فى الأندلس، إذ لم يعد «تاشفين» بجيشه إلى المغرب إلا فى سنة ٥٣١ هـ^(٢).

والظاهر أن «على بن تاشفين» كان يعلق آماله على ولده «تاشفين» هذا، الذى لم تنكسر له راية فى الأندلس، بيد أنه ما كاد يصل إلى المغرب حتى هبت ريح الهزيمة على قواته، فتلاحقت عليها الهزائم، الواحدة تلو الأخرى^(٣). وسرعان ما تطورت الأحداث بسرعة لصالح الموحدين، وفى غمرة هذه الأحداث الأليمة، يأخذ «على بن يوسف» البيعة لولده «تاشفين»، وذلك سنة ٥٣٣ هـ - أى فى نفس الوقت الذى كان فيه «عبد المؤمن» يستعد للخروج من

(١) قيام دولة المرابطين ص ٣٥٢.

(٢) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب ص ٦٤.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام. القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادى - طبع الكتاب سنة

١٩٦٤ م (ص ٦٤).

«تينمل» في غزوته الشهيرة، التي قطع فيها المغرب العربي، من جنوبه إلى شماله، ومن غربه إلى شرقه، والتي قصم فيها دولة المرابطين، وقد كان خروجه من تينمل سنة ٥٣٤ هـ.

وبخروج «عبد المؤمن» تبدأ مقاومة «تاشفين» له، وأثناء تلك الأحداث، يموت «علي بن يوسف» في مراكش سنة ٥٣٧ هـ، وتاشفين - فيما يظهر - غائب عنها، وتستمر مقاومة تاشفين لعبد المؤمن، وتصديه له فترة تستغرق مده إمارته كلها. وخلال ذلك الصراع العنيف يهاجم عبد المؤمن «سبتة»^(١) موطن «القاضي عياض» ومسقط رأسه.

يقول ابن عذارى: «إن الموحدین وصلوا إلى ريف سبتة سنة ٥٣٦ هـ، إلا أن سبتة استعصت على عبد المؤمن، نظرا لمداقعة القاضي عياض له»^(٢) فكان عمل القاضي عياض هذا يجسّم في الحقيقة، تلك العلاقة الوثيقة، التي ربطت بين الفقهاء والأمراء، في ظل الدولة المرابطية، وخاصة فقهاء المغرب، وهي الوفاء لهذه الدولة التي كانت ثمرة لجهودهما المشتركة.

ولقد تضافرت عوامل عديدة، طبيعية وغير طبيعية على النّيل من تاشفين وجيشه، حيث انتهى الصراع بمقتل «تاشفين» سنة ٥٣٩ هـ. وبمقتله يفتح باب المغرب على مصراعيه في وجه الموحدين، وتزول دولة المرابطين. وتضطر كثير من أقاليم المغرب إلى الاعتراف بالسيادة الجدد، خوفا من بطش «عبد المؤمن». وكانت «سبتة» من بين تلك المدن التي سارعت إلى إرسال وفد عنها إلى عبد المؤمن. لتقديم ولائها، وكان «القاضي عياض» رئيسا لذلك الوفد.

ويبدو أن المغرب لم يهدأ، ولم يسلم نفسه لأمراء دولة الموحدين، فقد كان على ولاء دفين للمرابطين، وقد ظهر هذا الولاء في مقاومته الشديدة للموحدين، حيث قامت ثورات عديدة هنا وهناك، كان أعنفها تلك الثورة التي قادها «محمد بن هود» المعروف «بالماسي»، وكذلك الثورة التي تزعمها «القاضي عياض» في سبتة، حيث كانت على اتصال بثورة أخرى هي ثورة برغواطة.

(١) الناصري: الاستقصاء ج ٢/١٠٤.

(٢) البيان المغرب: القطعة الخاصة بالمرابطين ص ٩٩.

الفصل الأول

اسمه ونسبه

هو «عِيَاض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض^(١)». أبو الفضل، اليَحْصِي، السَّبْتِي، الأندلسي، القاضي الإمام، العلامة.

قال أبو عبد الله محمد بن عياض: «وكان أبي. رحمة الله عليه - يقول: «لا أدري هل محمد والد عياض أم بينها رجل فهو جده؟»^(٢). وهذا ما جعل ابن خلكان يختلف في الاسم، فيقول: «عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض» دون أن يذكر عبد الله.

ونقل أبو العباس المقرئ، عن ابن القاسم بن الملجوم قوله: «اجتاز علينا القاضي عياض. وسألته عن نسبه فقال لي: إنما أحفظ «عياض بن موسى، بن عياض، بن عمرو، بن موسى، بن عياض، بن عمرو، بن موسى، ابن عياض» وأحفظ أيضا بعد ذلك: محمد بن عبد الله، بن موسى بن عياض. ولا أعرف أن محمدا هذا هو أبو عياض أو بينها أحد^(٣).

وهكذا نرى أن المصدرين متفقان فيما يخص سلسلة أجداده.

بيد أننا نرى «ابن الأبار» - في ترجمته لعياض - يسقط (نون) عمرو.

(١) أبو عبد الله محمد بن عياض: التعريف، تحقيق وتقديم د. محمد بن شريفة. مطبوعات وزارة الأوقاف. ص ٢.

وأبو القاسم بن الملجوم: أزهار الرياض في التعريف بالقاضي عياض. طبع المغرب ج ١ ص ٢٤.

(٢) التعريف ص ٢.

(٣) المقرئ: الأزهار ج ١/٢٤.

أما «ابن خلكان» فقد أسقط «عمرون» فيما بين عياض وموسى، كما أسقط «عبد الله» فيما بين محمد وموسى^(١).

وكنيته: أبو الفضل^(٢).

وألقابه: «اليخصبي»، نسبة إلى «يخصب بن مالك بن يزيد»^(٣).

و «يخصب» أخو ذى أصبح، الحارث بن مالك بن زيد، الذى ينتهى إليه نسب الإمام «مالك بن أنس الأصبحي».

«والسبتي» نسبة إلى سبته، التى ولد فيها ونشأ بين ربوعها، وهى مدينة مشهورة بالمغرب^(٤).

و «الأندلسي»: إشارة إلى أصله وموطنه الأم، فعياض.. يخصبى النسب، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل بسطيته^(٥).

والقاضي: لأنه تولى القضاء فى سبته مرتين، وتولى قضاء غرناطة ردحاً من الزمن^(٦).

والإمام: لأنه كان أحد الأئمة الحفاظ، الفقهاء المحدثين، الأدباء^(٧).

والعلامة: لكثرة علمه، وتنوع مجالاته، وكثرة تواليفه وتصانيفه فى فروع العلم المختلفة^(٨).

والناظر فى نسب القاضي عياض، يجد أنه يمت إلى الإمام «مالك بن أنس» بصلتين:

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٥٢ الترجمة رقم (٤٨٤).

(٢) وفيات الأعيان ١٥٢/٥.

(٣) جبهة ابن حزم ص ٤٠٨، ونهاية الأرب للقلقشندى ٢٤٩، وأنظر تاج العروس (حصب - صبح) وقد وقع فى أزهار الرياض ٢٧/١ (يخصب بن مدرك) وهو تصحيف.

(٤) ابن خلكان ١٥٤/٥.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ٢٢٢/٤.

(٦) الديباج المذهب ١٦٨.

(٧) ابن الأبار: المعجم ٢٩٤. وابن خلكان ١٥٣/٥.

(٨) انظر الفصل الخاص بؤلفاته ومصنفاته وآثاره.

الأولى: صلة المذهب المالكي، الذي اعتنقه أهل المغرب، ودانوا به، وما يزالون. وكان القاضي عياض من أبرز أعلامهم وأشهرهم.

والصلة الثانية: صلة القرى والانتساب إلى قبيلة حمير، من عرب اليمن، ذات الصيت الذائع في تاريخ الإسلام والمسلمين.

ويبدو أن لصلة القرى هذه أثرًا في توجيه جهد القاضي عياض إلى العناية البالغة بجماعة الإمام مالك^(١)، وإبرازها في إطار من الجلال والبهاء، وفي إصراره على أن يبعد عنها كل ما من شأنه أن يشوّه جمالها، أو يشوب نصوعها، أو يخدش في بهائها.

وكانت أرض أجداده بجهة «بسطة»^(٢)، وهي بلدة تبعد حوالي ١٢٣ كيلو مترا نحو الشمال الشرقي من مدينة «غرناطة» ومنها انتقلوا إلى «فاس» بالمغرب، ثم إلى مدينة «سبتة» وفي ذلك يقول ابنه محمد، في التعريف بموطن أسلافهم:

«استقر أجدادنا في القديم بالأندلس، جهة بسطة، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، لا أدري أقبل استقرارهم بالأندلس أم بعد ذلك»^(٣).

وقال صاحب تاج العروس: إن اليحصيين نزلوا بقلعة يحصب، على بعد ست مراحل في الشمال الغربي من غرناطة، وأن هذه القلعة سميت بهم^(٤).

«وكان سبب ذلك أنه كان له - لعمر بن والد جد عياض - ولآبائه بمدينة فاس نباهة، فأخذ ابن أبي عامر رهنا من أعيان مدينة فاس: فأخذ فيهم أخوى عمرو: «عيسى والقاسم» فخرج عمرو إلى مدينة سبتة ليقرب من أخبارها بمدينة قرطبة، فاستحسن سكنى مدينة سبتة»^(٥).

(١) انظر كتاب ترتيب المدارك ص ٤، ص ٦ - ٢٢.

(٢) التعريف ص ٤، والمعجم لابن الأبار ٢٩٤، والديباج المذهب ١٦٨.

(٣) التعريف ص ٤، والديباج المذهب ١٦٨.

(٤) تاج العروس (مادة حصب).

(٥) التعريف ص ٢.

ولم تذكر المصادر القديمة - التي ترجمت للرجل - في عداد أهل العلم أحداً من أجداده غير أن بيتهم كان من البيوتات النابذة بفاس وبسببته، وأن جده عمرون، الذي انتقل من فاس إلى سبتة حوالى سنة ٣٧٣هـ، كان من أهل الخير والصلاح، حافظاً للقرآن. حج إحدى عشرة مرة، وغزا مع المنصور ابن أبي عامر كثيراً من الغزوات، وأنه اشترى أرضاً بسببته من ماله، جعل جزءاً منها وقفاً على المسلمين، يدفنون فيه موتاهم، وجزءاً بنى فيه مسجداً، ودياراً جعلها وقفاً على المسجد، وأنه لازم هذا المسجد للتعبد إلى أن مات سنة ٣٩٧هـ^(١). وهى خلال كلها تمكن لنباهة الذكر ورفعة المكانة.

وإذا كانت المعلومات عن أسرة عياض - من أبيه - متوفرة نسبياً، فإننا لا نعرف إلا شيئاً قليلاً عن عائلته من أمه، ومما بقى عنها من أخبار يبدو أنها لم تكن مغمورة، فنحن نعرف أن بعض رجالها كان لهم اشتغال بالعلم، جاء في «الغنية» - وهو من كتب التراجم التى ألفها القاضى عياض - أن من الذين سمعوا عن أبى عبد الله ابن سحنون اللواتى، خالَى عياض: أبى بكر، وأبى محمد ابنى الجوزى^(٢). وقد تردد هذا الاسمان كثيراً فى كتب التراجم^(٣). ومن أفراد أسرة عياض من أمه، نجد جده، وهو مذكور أيضاً فى كتب التراجم^(٤).

وبالرغم من أن أباً عبد الله يذكر ابن عم له يدعوه «أباً عبد الله الزاهد»، بلغت درجته فى العلم مكانة، جعلت القاضى عياضاً يستخلفه على قضاء غرناطة، فإن ابن عم عياض هذا لا نكاد نعرف عنه شيئاً، فلم يرد اسمه فى «التعريف» مع أن أباً عبد الله بن عياض، تحدث عنه فى أكثر من موضع، وقد ورد فى كتاب «التماس العفا فيما كتب على الشفاء، أن اسمه محمد، وكناه بالفاضل^(٥)». وكان لعياض أخ، ولا ندرى أهو والد أبى عبد الله الزاهد، الذى ذكرناه،

(١) التعريف ص ٥.

(٢) القاضى عياض: الغنية ص ١١٦.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج ١ ص ٢٨٩.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج ١ ص ٢٨٩.

(٥) موسى العبدلاوى ورقة ١٨٥ ضمن مجموع - نقلا عن القاضى عياض الأديب ص ٦٩.

أوهو أخ آخر؟ كما ذكر ابن الخطيب، عند حديثه عن أحمد بن عبدالرحمن ابن الصقر الأنصاري، أن القاضي عياضا اشتمل عليه عندما كان قاضيا بغرناطة، لصلة بينها وقراة. ولا نعرف نوع هذه القراة، ولا درجتها^(١).

وهكذا يتضح أن القاضي عياض ورث الجاه المادى عن أجداده لأبيه، والجاه العلمى عن أجداده من أمه.

(١) ابن الخطيب: الاحاطة ج ١ ص ١٨٤.

الفصل الثاني

مولده ونشأته وثقافته

ولد القاضي عياض - حسبما كتب بخطه^(١).. «بسبّنة»، في منتصف شهر شعبان من سنة ٤٧٦ للهجرة. وكانت سبّنة في ذلك التاريخ قاعدة من قواعد المغرب، هيأها موقعها الجغرافي الممتاز، لأن تكون ملتقى العلماء، سواء الواردون عليها من المشرق والمغرب، بقصد العبور إلى الأندلس، أم القادمون إليها من الأندلس إلى المغرب. بقصد الرحلة أو الإقامة، وأن تصبح - نتيجة لذلك - ملتقى لثقافات متنوعة متعددة.

وهكذا أنشأ أهل العلم، المقيمون «بسبّنة»، والوافدون إليها، مركزا ثقافيا بها له أهميته، وله مميزاته وخصائصه^(٢) هذا بالإضافة إلى أنها من الناحية السياسية كانت تستعد لاستقبال الزوار الجدد - أعني المرابطين - كما كانت تنهيا للقيام بدور خطير في حياة الدولة الجديدة، على المستويين السياسي والثقافي، وقد ساعدها في كل ذلك موقعها الجغرافي^(٣).

إن سبّنة في ظل دولة المرابطين، أصبحت عاصمة ثانية للدولة، فمن سبّنة كان يتم الإشراف، في كثير من الأحوال، على الأندلس، وفي سبّنة وُلد «ليوسف بن تاشفين» «علّي»، بعد سنة من ميلاد «عياض»، وفيها فقد «يوسف» ولدا آخر، ونظراً لموقعها، فقد غدت مركزا علميا يؤمه العلماء والأدباء.

وتذكر كتب التاريخ، أن المغرب ارتبط في هذا العهد ارتباطا قويا بالأندلس

(١) الصلة ص ٤٤٧، المعجم لابن الأبار ٢٩٦. وخالف صاحب الديباج المذهب وقال أنه ولد سنة ٤٩٦ هـ - ص ١٦٨.

(٢) بغية المتلمس ٤٢٥، المعجم ٢٩٤، والصلة ٤٤٧.

(٣) عن سبّنة، انظر مقالا بعنوان «سبّنة السليبية» للأستاذ محمد بن تاويت، مجلة البحث العلمي، وانظر أيضا «اختصار الأخبار من تحقيقه».

والمشرق، بفضل سياسة «يوسف بن تاشفين». ولا شك أن «سبته» كانت صلة الوصل بين المغرب والمشرق، أهلها لذلك رجالها.

نشأ «عياض» طالبا للعلم، محبا له، حريصا عليه، مجتهدا فيه، وقد اتفقت المصادر على وصفه بالذكاء والفطنة، والفهم والحدق، وهى مؤهلات من شأنها أن ترفع صاحبها إلى مراتب عالية فى العلم والفضل والأدب. وهذه المواهب العقلية الممتازة، وفى ذلك الجو المشبع بالعلم والمعرفة. الذى تهيأ له بمسقط رأسه (سبته) بدأ عياض طلبه للعلم، وتلمذته على شيوخ عصره فى بلده.

وإذا كانت الكتب العلمية، التى يدرسها طالب العلم، تتدخل مثلما يؤثر الشيوخ فى تكوين شخصيته، وصقل مواهبه، وتعميق ثقافته، فإن ما قرأه عياض الطالب، من أمهات الكتب، على اختلاف موضوعاتها وألوانها - فى بلده - لأدل دليل على أن شخصيته العلمية قد نضجت قبل أن يغادر بلده، فى رحلاته المتعددة فى سبيل العلم والمعرفة.

- ففى بلده حفظ القرآن بقراءاته السبع، برواية نافع، وابن كثير، وأبى عمرو بن العلاء، وابن عامر، أخذ هذه الروايات بطرقها المختلفة المعروفة، عن «عبدالله بن ادريس بن سهل المقرئ»، المتوفى سنة ٥١٥ هـ^(١) ورواية «حمزة بن حبيب الزيات»، عن «عبدالله بن محمد النفرى»، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ^(٢).

- وقرأ اللغة العربية، متنا وأديها فى «كتاب الفصيح» لأبى العباس ثعلب، وكتاب الأملى لأبى على القالى، والكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد. وأدب الكتاب لأبى محمد بن قتيبة^(٣). ودرس قواعدها فى كتاب الجمل للزجاجى، والواضح لأبى بكر الزيرى، والكافى لابن النحاس، والمقتضب للمبرد، والإيضاح لأبى على الفارسى^(٤)، وشرح الجمل لابن فضال^(٥).

(١) الفنية ١٤٩ وانظر ص ١٧.

(٢) الفنية ١٤٨، وانظر ص ٤٣، ٤٤.

(٣) الفنية ١٣٤، ١٣٥ وانظر ٤٣، ٦٧.

(٤) الفنية ١٣٥

(٥) الفنية ١٦٠.

- أما أصول الفقه، وأصول الدين، وعلم الكلام^(١) على مذهب أبي الحسن الأشعري والجدل والمناظرة^(٢) فقرأ أصول الدين على قاضي سبته عبدالله ابن محمد بن ابراهيم بن قاسم اللخمي، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ^(٣). وقرأ رسالة ابن أبي زيد القيرواني، على محمد بن عيسى التميمي^(٤). وصحب «عبد الغالب ابن يوسف السالمي»، المتوفى سنة ٥١٦ هـ، المتكلم على مذهب أهل السنة من الأشعرية، مدة إقامته بسبته، وناوله كثيرا من مجموعاته^(٥).

وقرأ على «يوسف بن موسى الكلبى»، المتكلم على مذهب الأشعرية، أرجوزته التى ألفتها فى الاعتقادات^(٦). كما قرأ كتاب المنهاج فى الجدل والمناظرة، «لأبي الوليد الباجى»^(٧).

ولاشك أن احتجاج «القاضى عياض» المتكرر فى كتبه، خاصة فى كتاب الشفا، بأراء أبي الحسن الأشعري^(٨).. والقاضى أبي بكر الباقلاني^(٩)، وأبي بكر ابن فورك^(١٠)، وأبي المعالى إمام الحرمين الجويني^(١١). يثبت صلته الوثيقة بمذهب الأشعرية، وبكتبهم، وقراءاته لمؤلفاتهم فى الاعتقاد^(١٢) ووصفه الباقلاني، وأبا بكر بن فورك بقوله «من أئمتنا»^(١٣)، دال على أنه أشعري المذهب.

(١) جاء فى التعريف به ص ٦ - أن القاضى عياض كان متكلماً أصولياً، وكان لا يرى الكلام فى ذلك إلا عند نازلة، وعلم الكلام منذ نشأته، يعنى المجاج عن العقيدة والمناظرة عليها. ثم اشتهر بين أهل السنة استعماله فى معنى المجاج عن العقيدة السنية بالأدلة البرهانية العقلية، والرد على المخالفين لهم فيها، فالمحاجة والمناظرة جزء من مفهوم علم الكلام.

(٢) علم الجدل والمناظرة، يراد به الجدل فى مسائل الفقه تارة، وفى مسائل الاعتقاد تارة أخرى.

(٣) الفنية ١١٦

(٤) الفنية ص ٢٢

(٥) الفنية ١١٦

(٦) الفنية ص ٢١٥

(٧) الفنية ١٦٠

(٨) الشفا ٢٧٧/٢

(٩) الشفا ٢١٦/١، ٢٦٣/٢، ٢٦٧، ٢٧٦

(١٠) الشفا ٢١٦/١، ١٥٦/٢

(١١) الشفا ٢٠٥/١، ٣١١، ٢٦٤/٢

(١٢) الفنية ١٦٦، ٢١٥

(١٣) الشفا ٢١٦/١

ومناقشاته العميقة لآراء المعتزلة^(١)، والفرق الاعتقادية الإسلامية على اختلاف مذاهبها^(٢)، وللفلاسفة^(٣) والصوفية^(٤) والخوارج^(٥)، تطلع الدارس لعياض على معرفته الواسعة بالمذاهب الاعتقادية، وآراء أصحابها.

وصلة القاضي عياض بعلم الكلام، وما يتبعه من جدل ومناظرة، ومعرفته بدقائق آراء المخالفين لأهل السنة فيه، تصل بنا إلى أن البيئة التي خرجت «القاضي عياض» كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين، والكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري، وأن كتب الأشاعرة في علم الكلام، كانت معروفة بين رجالها، يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب.

وبسبب أيضاً، عن أعلامها ومحدثيها أخذ عياض علم الحديث، متنه، وغريبه، ورجاله ومصطلحه، فقرأ الموطأ للإمام مالك، ومسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري، وصحيح البخاري بروايتي الفريبري والنسفي، وصحيح مسلم، وسنن النسائي، وشرح غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، وإصلاح الغلط على أبي عبيد، لأبي محمد بن قتيبة، وغريب الحديث لأبي سليمان الخطابي، وعلوم الحديث للحاكم، وكتاب الطبقات، لمسلم الحجاج صاحب الصحيح، وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي، وكتاب الطبقات له، وكتاب التقصى لابن عبد البر^(٦)، والمؤتلف والمختلف للدارقطني^(٧) والمؤتلف في تكملة المؤتلف والمختلف، للخطيب البغدادي^(٨)، وشكل الحديث لابن فورك^(٩) والإكمال لابن ماكولا^(١٠).

(١) الشفا ٢/٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٧٩

(٢) الشفا ٢/٢٦٨، ٢٦٩

(٣) الشفا ٢/٢٦٩

(٤) الشفا ٢/٢٦٩

(٥) الشفا ٢/٢٧١

(٦) الغنية ٢ - ٢٢، ١٤٦، ١٩٠، ١٩١

(٧) الغنية ٥١ - ٥٦

(٨) الغنية ٥١ - ٥٦، ٦٤

(٩) الغنية ١٣٥

(١٠) الغنية ٥٦

أما الفقه المالكي، فدرس رسالة ابن أبي زيد^(١)، والمدونة^(٢). وتأليفا في الأيمان اللازمة، للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري، قرأه عليه بسبته عند مروره بها^(٣).

وقرأ أصول الفقه على محمد بن داود بن عطية القلعي. ويبدو من كلام القاضي عياض، أنه له معرفة بالدراسات النفسية، من ذلك أنه قال عند الكلام على غريب قول المرأة الثانية، في حديث أم زرع: «وقال أبو سعيد النيسابوري: إنما عنت أن زوجها كثير العيوب، متعقد النفس عن المكارم» وهذه إشارة إلى ملاحظة أبي سعيد النيسابوري للتعقد النفسي، وأنه قد تكون عند بعض الناس عقد نفسية، وأنها ربما حالت بين الانسان وبين المكارم. ونقل القاضي عياض - لقول أبي سعيد هذا - يدل على أنه له نظر في علم النفس ومشاكله.

هذه العلوم، والثقافة الواسعة، جعلته وحيد عصره - في شبابه، لشمول ثقافته واتساعها، وتنوع مصادرها، فقليل إنه «عالم المغرب وإمام أهل الحديث في زمنه، كما وصفوه بأنه كان «عالما بالتفسير وجميع علومه، فقيها أصوليا، بصيرا بالأحكام، عاقد الشروط، بصيرا حافظا لمذهب مالك»^(٤). وقالوا أيضا: أنه كان شاعرا مجيذا، ريان من علم الأدب، خطيبا بليغا صبوراً حليماً، جميل العشرة، جواداً سمحاً، كثير الصدقة، دؤوباً على العمل، صلباً في الحق»^(٥).

ويبدو أن مكانة أسرة عياض، وكذا موقع بلده «سبته»، أتاح له اتصالاً مبكراً بعلماء أجلاء، وهو ما يزال صغيراً.

- فهذا الحافظ أبو علي الغساني (ت سنة ٤٩٦ هـ) يميزه مؤلفاته.

- وأخذ عياض العلوم الإسلامية من قرآن وحديث وفقه على أبي عبدالله

(١) الغنية ٥٦

(٢) الغنية ٢٢

(٣) الغنية ١٩، ١١٩، ١٤٦، ٤٠ - ٤٢.

(٤) ابن خلكان ١٥٢/٥، الديباج المذهب ١٦٨

(٥) المراجع السابقة

محمد بن عيسى التميمي^(١)، وأبي عبدالله محمد بن محمد الأموي^(٢)، وأبي بكر ابن العربي^(٣)، وأحمد بن محمد بن عبدالرحمن الأنصاري^(٤)، وأبي إسحاق إبراهيم اللواتي^(٥)، وأحمد بن طاهر بن شبرين^(٦) - وكان يميل إلى النظر كما يقول عياض^(٧)، وأبن إسحاق إبراهيم بن أحمد البصري^(٨)، والفقهاء أبي محمد عبدالله ابن أحمد بن خولف الأزدي، المعروف بابن شبونة^(٩) والقاضي أبي محمد عبدالله اللخمي^(١٠)، وعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد النفزي^(١١)، وعبدالله بن أحمد التميمي^(١٢)، والفقهاء أبي عبد المالك مروان اللواتي، زعيم المغرب وشيخه^(١٣)، وأبي الأصبع عيسى بن محمد^(١٤).

وأما علم الكلام واللغة والأدب، فقد أخذها عن الشيوخ: يوسف بن موسى الكلبى، وأبي الحجاج الضرير المتكلم، وكان من نظار أهل السنة^(١٥)، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكتامي^(١٦)، المعروف ابن العجوز، وعبد الغالب بن يوسف السالمى، المتكلم على مذاهب أهل السنة^(١٧)، والفقهاء الخطيب أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد المعافري، من أهل سبتة، والفقهاء أبي الحسن الكلاعى، من أهل سفاقس، استوطن سبتة، وتكرر عليه عياض كثيراً، وأخذ عنه غير شيء^(١٨).

ومن هذه القائمة الطويلة من الأعلام، يمكن القول أن بيئة «سبتة» كانت تحتضن كبار العلماء، ومن هؤلاء العلماء من كان من أهل سبتة، ومنهم من نزلها مؤقتاً للقضاء أو لغيره، ومنهم من مرَّ بها فقط.

(١) الغنية ٢٣	(١٠) الغنية ٨٦
(٢) الغنية ٢٣	(١١) الغنية ٨٧
(٣) الغنية ٢٩	(١٢) الغنية ٨٩
(٤) الغنية ٦٥	(١٣) الغنية ١١٤
(٥) الغنية ٦٦	(١٤) الغنية ١٠٩
(٦) الغنية ٦٣	(١٥) الغنية ١٢٩
(٧) الغنية ٦٣	(١٦) الغنية ٩٦
(٨) الغنية ٦٩	(١٧) نفس المرجع ٩٨
(٩) الغنية ٨٥	(١٨) الغنية ٧٨

وبهذه المحصلة العلمية الهامة، وبهذا الكم الوفير من لقاء العلماء، عزم القاضى عياض على الرحيل إلى الأندلس طالبا للعلم.

ومن المفيد أن نذكر - أن القاضى عياض تلقى إجازة علمية من أبى على الغانى، وهو فى العشرين من عمره، أو دونها^(١). كما أنه كان يجالس كبار العلماء، وهو لصغر سنة لا يفهم عنهم شيئا^(٢).

(١) الفنية ٧٦.

(٢) الفنية ٧٦.

الفصل الثالث

حياته

مرت حياة القاضي عياض بثلاث مراحل أساسية، أو ثلاث حلقات، كل منها تتصل بالأخرى وتكملها:

الأولى: مرحلة طلب العلم.

الثانية: مرحلة بذل العلم.

الثالثة: مرحلة الصراع الفكري والعقيدى.

أما المرحلة الأولى، فتتمثل في طلب العلم - كما رأينا - في سبته، ثم أكملها رحلاته المتعددة، وتنقلاته في بلاد المغرب، من أجل أخذ العلم وتسجيله وروايته. وكانت أولى هذه الرحلات:

١ - رحلة الأندلس:

ذكر أبو عبد الله، محمد بن عياض، أن هذه الرحلة كانت الأولى. ولكن الأمر يبدو غير ذلك، فقد ذكر «ابن خاقان» - عند حديثه عن «أبي الحسن على التتوخى»، أنه لقي «القاضي عياض» بأشبيلية، عام ثمانية وتسعين وأربعمائة للهجرة (٤٩٨ هـ)^(١).

ومعنى هذا أن عياضا رحل إلى الأندلس قبل رحلته المشهورة، التي تحدث عنها ولده، ومن جاء بعده. بنحو عشر سنين. ومن الطبيعي أن تكون للقاضي عياض «أكثر من رحلة إلى الأندلس، فالأندلس موطن أجداده، ثم إن «سبته» كانت على اتصال وثيق بالأندلس، منذ أيام عبد الرحمن الناصر، حيث كانت ولاية تابعة للأندلس.

والأمر الواضح في هذه المرحلة الشهيرة، أنه رحل وقد سبقته شهرته إليها،

(١) القلائد ص ١١٥، والخريدة ج ٢ ص ٣٦٣.

هذا بالإضافة إلى أن صديقه «أبا القاسم بن الجعد» - كاتب الدولة المرابطية - كان قد بعث برسالة خاصة إلى «ابن حمدين»، يستوصيه خيرا بعياض^(١). كما بعث أمير المسلمين «علي بن يوسف» رسالة أخرى إلى ابن حمدين يأمره فيها بتقديم كل مساعدة إلى «عياض» في رحلته، من أجل تحقيق بغيته، يقول فيها: «وفلان (أى القاضى عياض) - أعزه الله بتقواه، وأعانه على مانواه، ممن له حظ وافر، ووجه سافر، وعنده دواوين أغفال، لم يفتح لها على الشيوخ أقفال. وقصد تلك الحصون ليقيم أود متونها، ويعانى رمد عيونها، وله إلينا مائة مرعية أوجبت الإشادة بذكره، والاعتناء بأمره وله عندنا مكانة حفية، تقتضى مخاطبتك بخبره، وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت إن شاء الله تسد عمله، وتقرب أمره، وتصله أسباب العون له إن شاء الله»^(٢).

فهذه الرسالة أوضح دليل على مكانة القاضى عياض، وعلى ما كان يحظى به من عناية خاصة لدى كبار رجال الدولة المرابطية، وذلك قبل أن يذاع صيته، ويشتهر علمه، وربما كان هذا الأمر من الأسباب التى جعلت القاضى عياض، يخلص لهذه الدولة كل الإخلاص.

٢ - وصوله إلى قرطبة:

كان خروج القاضى عياض من «سبتة» - كما يقول ابنه - يوم الثلاثاء، منتصف جمادى الأولى، سنة سبع وخمسمائة (٥٠٧) للهجرة^(٣) فوصل إلى «قرطبة» يوم الثلاثاء، مستهل جمادى الآخرة بعده^(٤). ولم يذكر أبو عبد الله، أن والده مر «بأشبيلية»، ولكن القاضى عياض ذكر في فهرسته، أنه لقي بأشبيلية «أبا عبد الله أحمد بن محمد الخولاني»^(٥). وقد توفي «الخولاني» في شعبان سنة ٥٠٨ هـ. فلا يكون اتصال القاضى عياض به بعد هذا التاريخ.

(١) فلاند العقيان ص ١١٥، المريدة ٣٦٤/٢.

(٢) ابن خاقان: الثلاث ص ١١٦.

(٣) التعريف ص ٩.

(٤) التعريف ص ٦.

(٥) الفتية ص ٥٦.

وقد احتفى علماء قرطبة، وعلى رأسهم «ابن حديد» احتفاء كبيرا^(١).
ويطول بنا الحديث لو أننا تتبعنا عياضا في لقاءاته مع كل الشيوخ في قرطبة،
لذلك سنقف عند أبرزهم في حياة الرجل العلمية.
* لقد أخذ عياض الحديث والفقه على «أبي عبد الله محمد بن أحمد بن خلف
التجيبى» المعروف بالحاج^(٢) وأبي القاسم بن بقى^(٣)، وأبي الوليد بن رشد^(٤)،
وأبي عبد الله محمد بن محمد بن حديد^(٥). ومن جملة ما أخذه عياض عنه. ردوده
العميقة على كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

* وأما الأدب واللغة، فقد أخذهما في قرطبة عن «أبي عبد الله محمد،
المعروف بابن أخت غانم»^(٦) أخذ عنه كما ذكر الكامل للمبرد، والأمالى للقالى.
ومن أهم شيوخ قرطبة، الذين أخذ عنهم اللغة، سراج بن عبد الملك بن سراج
الأموى، اللغوى الحافظ، وفي ذلك يقول عياض. «رحلت إليه، إلى قرطبة سنة
٥٠٧ سنة هـ فسمعت عليه، وجعل لى من نفسه حظا، ثم رجعت إليه بعد رحلتى
إلى شرق الأندلس»^(٧).

ولقد كانت قرطبة في ذلك العصر، مركزا من مراكز المذهب المالكي، ومنها
خرجت الفتوى الشهيرة بإحراق «كتاب الإحياء»، بعد أن قاد «ابن حديد»
الحملة على الغزالي. ويبدو أن للقاضى عياض مشاركة في المناقشات التى دارت
حول الكتاب^(٨).

والظاهر أن القاضى عياض أعجب برجال العلم في قرطبة، ونشأت بينه

(١) انظر التعريف ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) الفنية ١٦.

(٣) الفنية ٥٠.

(٤) الفنية ٢٠.

(٥) الفنية ١٥.

(٦) الفنية ٢٤.

(٧) الفنية ١١٦.

(٨) انظر مسائل ابن رشد فقد حوت بعضها.

وبينهم صلات وطيدة من أجلهم أحب قرطبة ولذلك نراه يعرج عليها، وهو في طريقه عائدا من شرق الأندلس^(١).

٣ - مُرْسِيَّة:

ثم خرج القاضى عياض من قرطبة إلى مُرْسِيَّة، فوصل إليها يوم الثلاثاء ثالث صفر من سنة ٥٠٨ هـ أى بعد أسبوع قضاء في الطريق.

ولقد كانت كل المجالس العلمية على علم برحلته تلك، وذلك ما يؤكد الحديث الذى دار بين عياض وشيخه «أبى على الصدقى». يقول أبو عبد الله: إن «أبا على الصدقى» كان مختفيا، ووجد الرّحّالين إليه قد نفدت نفقات بعضهم، ومنهم من ابتدأ كتابا لم يتمه. فأخذ أكثرهم فى الرجوع إلى موطنهم، وتربص بعضهم، فمكث هو بقية صفر، وشهر ربيع الأول، لا يقع على خبر سوى الظن بكونه هنالك».

* ويقول أيضا: «وقابل أثناء ذلك بأصوله، وكتب منها ما أمكن على يد خاصته من أهله، ولا يشك أن تصرفه فى ذلك لم يكن إلا بأمره، إلى أن وصل كتاب قاضى الجماعة، أبى محمد بن منصور» بحلّ «أبى على» من القضاء، ووصل كتابه أيضا إلى أبى معلما له بذلك، إذ كان يكرم عليه، وعلم برحلته إليه، فخرج «أبو على» من اختفائه. وجلس للتسميع، فسمع عليه كثير، ولازمه، وكان له به اختصاص، فحصل له سماع كثير فى أمد يسير.

ويقول «القاضى عياض» إن القاضى أبا على الصدقى، قال له: لولا أن الله يسّر خروجى بلطفه، لكنت عزمت أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار فى بلاد الأندلس، لا يؤبه لكونى فيه، فتدخل إليه، وأخرج مختفيا إليه بأصولى، فتجد ما ترغب لما كان فى نفس من خوف تعطيل رحلتك، وإخفاق رغبتك»^(٢).

(١) الغنية ١١٧.

(٢) التعريف ٩، ١٠، وأزهار الرياض ١٠٨/٣.

وعلى أى حال فإن أبا على كان قد عزم على إشعار عياض بمخبئه، لأنه كان يعلم أنه إنما قدم إلى الشرق من أجله هو^(١).

وتوثق عرى الصداقة بين القاضى عياض، وأبى على الصدقى، ويشد إعجاب عياض بشيخه، وكان ثمرة هذا الإعجاب كتاب «المعجم». الذى ألفه عياض فى ذكر شيخه، وذكر شيوخه^(٢).

ولم يذكر أبو عبد الله متى خرج والده من مرسية، ولا المكان الذى قصده قبل عودته إلى سبته. ولكن جاء فى الغنية، أن عياضا قصد «غرناطة»، بعد رحيله من مرسية. وفى غرناطة عاود الاتصال ببعض الشيوخ، مثل «أبى الحسين على بن محمد الأنصارى» المعروف بابن درى، الذى يقول عنه عياض: «إنه كان له نظر بالعلوم القديمة» وكان لعياض معرفة به. إذ سبق لابن درى أن سكن سبته^(٣).

ومثل «هشام الهلالى». وغيرهما^(٤).

ثم يغادر عياض غرناطة قاصداً «قرطبة» من جديد: ليلتقى بشيخه «ابن سراج»^(٥)، وليودّع أصدقاءه. ولقد كان ذلك اليوم الذى ودع فيه عياض شيوخ قرطبة، يوما مشهورا، تحدث عنه «أبو زيد بن القصير»، فقال بعد كلام: «ومن شعره (يقصد شعر عياض) عند صدوره من قرطبة، بعد تقييده ما قيد بها من الروايات، وطلب بها من العلم ما طلب. وقد تنفس مودعوه بزفرات الفراق، وأراق كل واحد منهم من الدمع للعين ما أراق»^(٦) ثم أورد المقطوعة الشعرية الآتية:

أقول وقد جدّ ارتحالى وغردت حدائق، وزمت للفراق ركائبي
وقد غمصت من كثرة الدمع مقلتي وصارت هواء من فؤادى ترائبي
ولم تبق إلا وقفة يستحثها وداعى للأحباب لا للحبائب

(٤) أنظر الغنية ص ١٢٧.

(٥) الغنية ص ١١٧.

(٦) المرقى: الأزهار ٢٤١/٤

(١) التعريف ٨.

(٢) الغنية ٧١.

(٣) الغنية ص ١٠٣.

رعى الله جيراناً بقرطبة العلى وسقى رباها بالعهاد الصوائب
وحى زمانا بينهم قد ألفت طليق المحيى، مُستلان الجوانب
أإخواننا بالله فيها تذكروا معاهد جار، أو مودة صاحب
غدوت بهم من برهم واحتفائهم كأنى فى أهلى وبين أقاربي

* ويصل القاضى عياض إلى سبتة، ليلة السبت السابع من جمادى الآخرة^(١) من سنة ثمان وخمسةائة (٥٠٨ هـ). أى بعد أسبوعين من خروجه من قرطبة. بعد أن أمضى فى رحلته، عبر مدن الأندلس قرطبة. مُرسية، غرناطة، قرطبة مرة أخرى، - سنة وشهرا تقريبا، وهى مدة قصيرة، ولكنها كانت كافية بالنسبة له لتحقيق مطامحه العلمية.

وإذا كان المترجمون له قد عُنوا بتحديد مبدأ رحلته ومدتها، وهى عناية محمودة لها فوائدها ومزاياها، إلا أن مبدأ الرحلة ومدتها لا يهم الباحثين، ولا يفيدهم الفائدة التى تعود عليهم من معرفة ما فعله القاضى عياض فيها. ولكن المهم حقا، أن يُعرف حصيلة هذه الرحلة، وما أدت إليه، وما خلفته من آثار فى معلوماته، وفى تفكيره.

● لقد كانت رحلته فى طلب العلم تستهدف أمرين هامين:

أولهما: التأكد من سلامة منهجه النقلى ومن كماله، وهذا ما يتضح من مصنفاته وآثاره. ذلك أنه فى رحلته، أخذ يُصحح المتون المروية، والكتب المدروسة، ويبحث عن أصولها، ويصل أسانيدها بأصحابها، منقبا عن أعلى هذه الأسانيد وأقومها وأصحها. فهذه المادة العلمية، التى استقاها رواية وشفاهة، قراءة وسماعا، إذا لم تثبت بصورة صحيحة نسبتها إلى أصحابها، لا تصلح أن تتخذ أساسا للبحث والدرس، وبناء أحكام عليها، سواء كانت هذه الأحكام دينية، أو علمية، أو أدبية.

ولا شك أن حرصه على إكمال المنهج النقلى وسلامته، واضح فى عناية القاضى

عياض البالغة، في الرواية والقراءة، فنراه يقرأ كتباً جديدة لم يقرأها في بلده^(١)، وبمقابلة كتبه بالأصول الصحيحة^(٢)، والبحث عن أصول العلماء الخطئية المسندة^(٣). والتنصيص على الأفضل، والأصح، والأوثق من رواياتها إلى أصحابها إن تعددت الطرق والروايات^(٤).

الأمر الثاني: تصحيح منهج التفكير، وإقامة أسسه على قواعد ثابتة:

تقول المصادر، التي ترجمت له - إنه عني في رحلته بقاء الشيوخ^(٥)، والأخذ عنهم، ويذكر هو أيضاً، بلسانه وبخطه، شيوخه في كل مكان ومجال..

والذي يظهر من دراسة رحلاته واهتماماته فيها، أنه لم يكن هدفه الأساسي أن يرى وجوه هؤلاء الشيوخ ومجالستهم، وإنما كان يعنى، بعد أن سلم له المنهج النقلى، أن يصفح أفكارهم، وأن يقابل علمهم، فيزنه بما تعلمه في بلده من علم وأفكار. وقدما قالوا: «إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره».

ولقاء الشيوخ هو الذى أتاح لعياض أن يرصد عن كتب مناهجهم في التفكير، ويرصد كيف يتناولون المسائل بالدرس والبحث، يردون منها ما يردون، ويقبلون ما يقبلون، فينقل ما شاهد، وما فهم، إلى ما تعلمه عن علماء بلده، من أسس ومناهج يقارن بينها، ويفاضل، فيبقى في ذهنه. بعد الفحص والتحصيل، والموازنة والعرض على ميزان النقد، ما يصح أن يبقى، وينفى ما لا يثبت للنقد.

وبعملية الاختيار والمفاضلة، والتنقيح والتلقيح هذه، تم له بناء جهازه النقدى، وتكاملت له أصول التفكير، على أساس من النقل، والمقارنة، والاختيار.

وقد عرف مقداره ومكانته العلماء الذين رحل إليهم، ليأخذ عنهم، وقد أثرت عنهم كلمات تشير إلى فراستهم فيه، وتقديرهم له، واعترافهم بفضله وعلمه.

(١) انظر الغنية ص ١٤٢، ١٥٥.

(٢) انظر الغنية ص ١٥، ٢٦، ٢٧، ١٣٢.

(٣) الغنية ١١.

(٤) الغنية ص ١٤٢، ١٥٥.

(٥) الصلة ٤٤٦، والوفيات ١/٤٩٧.

* قال له أستاذه «أبو عبد الله بن حمدين» وقت رحلته: «وَحَقِّي يا أبا الفضل إن كنت تركت بالمغرب مثلك»^(١).

* وقال «أبو محمد بن أبي جعفر» «ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض»^(٢).

* وحين أراد الرحلة - بالأندلس - إلى بعض الأشياخ، للأخذ عنه، قال له الوزير «أبو الحسين بن سراج»: «لَهُوَ أَحْوَج إِلَيْكَ مِنْكَ إِلَيْهِ»^(٣).

* وفي رحلته هذه - كتب عنه «أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل الطليطلي» أشياء من حديثه^(٤).

* وقال ابن بشكوال: «وقدم علينا قرطبة، فأخذنا عنه بعض ما عنده، وعظم صيته»^(٥).

بقى أن نُسَجِّل بعض الاستنتاجات التي وضحت من دراسة مرحلة طلب العلم، هي:

١ - أن دراسة رحلة طلب العلم في حياة القاضي عياض، هي في الواقع دراسة للحياة الفكرية في المغرب العربي، في العصر المرابطي، باتجاهاتها ورجاها، لذلك فإن فهرسة عياض تُعدّ وثيقة هامة في التعرف على ثقافة عصر المرابطين عامة، وفي الأندلس خاصة.

٢ - أن قائمة الكتب التي استقاها الرجل ورواها، تؤكد أنه كان ذا ثقافة موسوعية، فهو فقيه ومتكلم ومحدث وأديب: وبذلك يمكن القول. إن ثقافته تمثل. أصدق تمثيل ثقافة عصره.

(١) التعريف ص ١٢١.

(٢) التعريف ص ١٢١.

(٣) التعريف ص ١٢١.

(٤) الفنية ٥٩.

(٥) الديباج المذهب ١٦٨.

المرحلة الثانية: مرحلة بذل العلم..

وعاد عياض من رحلته الأندلسية، قبسا من النور يُضيء، ومعينا عذبا، ومنهلا فياضا من العلم لا يلحقه نضوب، وصوتا عاليا للحق ينادى، مرشداً وحاكما، فيسمع النداء، وطاقة هائلة من الإيمان والثبات والخلق. وإلى هذا جميعا إحساس واع بنفسه وببلده^(١) وبالمكانة التي تهيأت له، بما ورثه عن سلفه، وبما أفاده بسعيه، وتقدير للمسؤوليات الجسام التي تفرضها عليه تقاليد هذه المكانة، من إرشاد وهداية، وتوجيه وتنوير، وحماية إن كانت السلامة في الكرامة الإنسانية، وفي المقدسات لا تحفظ إلا بالحماية.

وصل عياض سبته، بعد رحلة الإعداد، ليلة السبت سابع جمادى الآخرة، سنة ثمان وخمسمائة (٥٠٨ هـ) بعد أن أمضى أكثر من عام، ففتحت له قلبها وصدرها، ورحبت به وأكبرته، وأسندت إليه قيادها، فكان عياض في جميع ذلك، الرائد الأمين، الذي لا يكذب أهله.

وأجلسه أهل سبته للمناظرة عليه في المدونة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاما، أو ينيف عليها^(٢). والجلوس في المناظرة تشريف علمي، لا يصل إليه إلا الشيوخ الكبار، ممن رسخت أقدامهم في العلم. والمناظرة في المدونة كان تقليداً معروفا عند فقهاء المالكية، وقد سبق لعياض المناظرة فيها على كل من أبي عبد الله محمد بن محمد الأموي^(٣)، وأبي اسحاق إبراهيم بن أحمد البصري^(٤) والقاضي أبي محمد عبد الله اللخمي^(٥).

(١) من مظاهر هذا الاحساس عنايته بأخبار سبته، وتأليف كتاب العيون الستة، والعناية بتاريخ المدن المغربية قديم، فقد ألف محمد بن يوسف التاريخي الوراق أخبار تاهرت وغيرها، وانظر فصل مؤلفاته ومصنفاته.

(٢) الديباج المذهب ١٦٨.

(٣) الغنية ٢٣.

(٤) الغنية ٦٩.

(٥) الغنية ٨٦.

ويبدو أن المناظرة كانت أشبه بالمجالس العلمية، التي كانت تعقد في المشرق العربي، يرأسها شيخ جليل، ويتحلق حوله الطلبة، والهدف الأسمى منها هو التأكد من سلامة الحفظ والفهم، وكثيرا ما كان أعيان البلد يحضرون هذه المجالس، للاستفادة.

ثم أجلس القاضي عياض للشورى، والجلوس للشورى مرحلة أولى في سلم القضاء. وقد كانت العادة أن يتخذ القاضي أربعة مستشارين، وكانوا يخضعون لتنظيم خاص^(١).

ثم ولي عياض منصب القضاء في سبته، عام خمسة عشر وخمسمائة (٥١٥ هـ) لثلاث بقين من صفر، وكان عمره إذ ذاك تسعة وثلاثين عاما^(٢) وهو بتوليته هذا المنصب، يكون قد فتح مجال القضاء أمام أسرته، فيذكر أبو عبد الله، أن ثلاثة من أحفاده تولوا أيضا هذا المنصب^(٣)، وهم ولده أبو عبد الله محمد، وحفيده عياض بن محمد، وحفيد ولده أبو عبد الله محمد بن عياض بن محمد بن عياض.

وتجمع المصادر على نعت القاضي عياض بالعدل في الأحكام، وأنه سار في خطة القضاء حسن السيرة، محمود الطريقة، مشكور الخلة، أقام الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها^(٤).

ولم يكن منصب القضاء - في عصره - يقف عند إقامة الحدود، والفصل في المنازعات، بل كان يتعداه إلى تعيين أئمة المساجد، وبناء البنايات التي يرى أنها ضرورة لحماية البلد. وتشير المصادر - إلى أن القاضي عياض بنى «الطالع الكبير»، الفذ النظير، طالع سبته، الذي بأعلى جبل ميناها، المعروف عند الناس بالناظور، «وهذا الطالع من أعجب الطلائع، لكونه يكشف البرّين، ويشرف

(١) قيام دولة المرابطين ص ٣٦٧.

(٢) التعريف ١٠.

(٣) التعريف ص ٨.

(٤) التعريف ١٠.

على العدوتين، فلا يخفى عليه من الزقاق شيء لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة، وفي حكم أهلها إذ تقع فتنة، أو يحل حصار^(١).

وعلى الرغم من المهام العديدة، التي كانت مسندة إلى القضاة، فإن ذلك لم يمنع القاضي عياض من أن يقوم بالتدريس، وذلك إلى جانب ما كان يقوم به في مجال التأليف والتصنيف.

ويبدو أن شهرة القاضي عياض في هذه المرحلة الثانية من حياته كانت قد بلغت إلى المشرق العربي، إذ أخذت الإجازات تتوارد عليه من كل من بلاد المغرب، والإسكندرية وغيرها من بلاد المشرق.

وذكر المقرئ^(٢): أن القاضي عياض استجاز الزمخشري العالم المعتزلي، إلا أن الزمخشري رفض إجازته، فلما بلغ القاضي عياض ذلك قال: «الحمد لله الذي لم يجعل لمبتدع على فضلا» وعندي - أن عياضا أكبر من هذا السلوك، وظنى أن هذه القولة من إضافات اللاحقين، دفعهم إلى قولها حُب القاضي عياض، والرغبة في الدفاع عنه.

وإلى جانب الإجازات، التي كانت ترد على القاضي عياض، أو تصدر عنه، فقد كانت له مراسلات مع أشهر رجال عصره، في المشرق والمغرب، ولنا من هذه الرسائل، رسالته إلى أبي طاهر السفلى نزيل مصر.

وأما الرسائل المتبادلة، بينه وبين صديقه ابن خاقان فمشهورة، وهي مما كتبه القاضي عياض في هذه المرحلة الثانية، التي كانت أحلى فترات حياته.

ومن المؤكد أن مجالس عياض كانت تجمع باستمرار العلماء والشعراء، ومنهم من كان يأتي خصيصا للاتصال به^(٣)، وكان قضاة المرابطين - في عصره - قبلة للشعراء، وكان عياض واحداً من هؤلاء القضاة الذين يقصد إليهم الشعراء.

(١) الانصاري؛ اختصار الأخبار ص ٨٣.

(٢) أزهار الرياض ٢٨٢/٣.

(٣) ذكر القاضي عياض في الفنية (٩٩) أن ابن عبدون زاره في سبته، وأقسم له أنه ما قصد سبته إلا لزيارته.

يقول أبو عبد الله : إنه جمع ما قيل في والده من شعر في ديوان، فكان مجموع ذلك خمسة آلاف بيت».

ومن الشعراء والكتاب الذى مدحوا القاضى عياض، ابن سارة أبو محمد عبد الله^(١)، وابن بَقِيَّ يحيى بن بَقِيَّ^(٢)، وابن جودى أبو الحسن على بن عبد الرحمن^(٣)، وابن شرف أبو الفضل جعفر^(٤) وأبو بحر بن عبد الصمد^(٥)، وابن أبي الحصال أبو عبد الله محمد^(٦)، وابن بياع^(٧).

ظل عياض قاضى سبته ما يقرب من ست عشرة سنة، بلغت شهرته بصفته عالما كبيرا، وقاضيا نزيها إلى «تاشفين بن على بن يوسف»، فأراد أن يكون القاضى عياض قاضيه بغرناطة، وغرناطة على عهد تاشفين غدت تأوى كثيرا من أهل العلم والأدب، ففيها تجتمع رجال الأندلس حول تاشفين، وهو الأمير الذى لهجت بمدحه الألسن، وأجمعت الأقوال على وصفه بالعدل وساعد على ذلك أن مدة ولايته على الأندلس طالت، ثم إن الرجل كان له اهتمام بالعلم والعلماء.

وصل كتاب تاشفين إلى القاضى عياض، بنقله إلى غرناطة فى أول يوم من صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة^(٨)، ولم يتأخر عن الالتحاق بمقر عمله الجديد، إذ وصل إلى غرناطة يوم الخميس، لخمس بقين من ربيع الآخر، عام واحد وثلاثين وخمسمائة (٥٣١ هـ)، وكان اليوم الذى دخل فيه القاضى عياض غرناطة يوما مشهودًا، وصفه أبو زيد عبد الرحمن الغرناطى - أحد تلاميذه فقال: ^(٩).

«لما ورد علينا القاضى عياض غرناطة، خرج الناس للقاءه، وبرزوا له تبريزًا

(١) ابن سارة، أبو محمد عبد الله : القلائد ص ٢٧١. الخريدة ٢/٢٥٦.

(٢) ابن بَقِيَّ يحيى، الخريدة ٢/٦٦٧.

(٣) ابن جودى، الخريدة ٢/٢٥٢.

(٤) ابن شرف، أبو الفضل جعفر، القلائد ص ٢٦٣، الذخيرة ق، ج، ص ٨٦٧.

(٥) أبو بحر بن عبد الصمد، الذخيرة ق، ج ٢ ص ٨١١.

(٦) ابن أبي الحصال، القلائد ١٩٢، الذخيرة ق ٢ ج، ص ٧٨٤.

(٧) التعريف ١٠٤، القلائد ٢٣٥.

(٨) التعريف ١٠.

(٩) أزهار الرياض ج ٣ ص ١١.

ما رأيته لأمر مؤمر مثله، وخرجت أعيان البلد الذي خرجوا إليه ركاباً نيفاً على مائتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة، وخرجت مع أبي - رحمه الله تعالى - في جملة من خرج، فلقينا شخصاً بادی السيادة، منبأ عن اكتساب المعالي والإفادة».

وانصرف القاضي عياض كعادته إلى التعليم، إلى جانب مهمة القضاء. وقد ذكر أبو زيد عبدالرحمن المعروف بابن القصير، أن القاضي عياض كان يُقرئ كتاب الشفا في غرناطة، أي أثناء توليه القضاء بها. يقول:

«دخلت مجلس القاضي أبي الفضل عياض - رحمه الله تعالى - إذ كان قاضياً عندنا بغرناطة، يسمعون تأليفه المسمى بالشفا، فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات (ومن قسم به أقسط) قرأه ثلاثياً، وكذلك كان في الأم التي يقرأ فيها، فقلت للقاضي - وصل الله توفيقه: «هذا لا يجوز في هذا الموضوع، فقال: ما تقول؟ قلت: (إنما هو أقسط) لأن المراد في هذا الموضوع عدل، فالفعل منه رباعى، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقْصُوا إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. وأما (قسط) فإنما هو جار، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(١).

سار عياض في قضائه بغرناطة على المعتاد من سيرته، ولكنه على الرغم من ذلك، أو بسبب ذلك - كما يقول ولده - صرفه تاشفين عن قضاء غرناطة، لما ضاق به ذرعاً، إذ كان يصد أصحابه عن الباطل. والواقع أنه ليس غريباً على فقهاء دولة المرابطين، أن يقفوا في وجه الأمراء، يصدونهم عن الباطل، فقد عرفنا عنهم ذلك، بل إن عملهم هذا كان يدخل في صميم مهامهم التي كانت تشمل التوجيه والمراقبة والنقد.

ويبدو أن خبر إعفاء القاضي عياض من منصبه غير صحيح، يؤيد ذلك ما رواه صاحب طبقات المالكية: التي نقلها عن الأنوار الجلية، من أن القاضي عياض استعفى ولم يصرف^(٢).

(١) أزهار الرياض ج ٣/ ٣١.

(٢) طبقات المالكية، مخطوط مصور رقم ١٠٩٢٥ ص ٣١١.

ومن المهم أن نذكر أن القاضي عياضاً، ما كان يقبل الخروج من بلده، لولا أن الأمر كان صادرًا من جهة لا يمكن له إلا أن يطيعها، وإلا فإنه لم تكن تطيب له حياة إلا في سبته، ولذلك تجده من الرجال القلائل الذين لم يرحلوا إلى المشرق لا للعلم، ولا للحج، رغم شوقه الشديد إلى زيارة الرسول المصطفى ﷺ، ذلك أنه كان يكره السفر، وخير شاهد على ذلك شعره الذي يقول فيه: ^(١)

تقاعدُ عن الأسفار إن كنتَ طالبًا نَجاةً، ففي الأسفارِ سَبْعَ عَوَائِقِ
تشوِّقُ إخواني، وفَقِدَ أحبة وأعظمها يا صاح - سكنى الفنادقِ
وكثرةُ إيجاش، وقلةُ مؤنس وتبذيرُ أموال، وخيفةُ سارقِ
فإن قيل في الأسفار كسب معيشة وعلم وآداب، وصحبة وامي
فقل: كان ذا دهرًا تقادم عصره وأعقبه دهر شديد المضايقي
فهذا مقالى والسلام كما بدا وجرب، ففي التجريب علم الحقائقِ

ولقد ترك القضاء في غرناطة، في رمضان من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة (٥٣٢ هـ) ^(٢) وقد وصل إليه الخبر، وهو بسبته، ذلك لأنه كان غادر غرناطة تاركاً ابن أخيه الزاهد أبا عبدالله محمد في منصبه.

٣ - المرحلة الثالثة: مرحلة الصراع السياسي والعقيدى

كان رجوع القاضي عياض إلى سبته عاملاً حاسماً في أحداث المغرب عامة، وبلده خاصة. حيث تميزت بصراعه الكبير ضد الموحدين، ذلك أنه كان يتتبع أخبار المهدي، ويتابع سير الأحداث وتطورها.

إن نجاح ثورة «ابن تومرت» أخاف أمراء المرابطين، فاستغاثوا بجيشهم الذى كان موجوداً بالأندلس، وأخاف أنصارهم وحلفاءهم الطبيعيين، وفي مقدمتهم فقهاء المذهب المالكي، والقاضي عياض - بطبيعة الحال - كان من أبرز هؤلاء الحلفاء، وذلك سر الشكوى، التى ردها في مقدمات كثير من كتبه.

(١) ابن المؤقت: السعادة الأبدية ص ٧٧

(٢) التريف ١١

إن هذه المرحلة من حياة القاضى عياض، يكتنفها الغموض، ويساعد على غموضها، اختلاف الروايات التى تناوَلها من ناحية، وسكوت أبى عبدالله محمد ابن عياض عن كثير من قضاياها من ناحية أخرى. ذلك أن الرجل كان يتجنب كل ما فى شأنه أن يمس آل عياض بسوء، بسبب موقف أبيه من الموحدين. ويؤكد هذه الحقيقة، أن المقرئ نفسه، أراد أن يسجل أحداث هذه الحقبة من حياته، فلما لم يجد المادة الإخبارية الكافية عنه، ترك ذلك^(١).

وإذا كانت كتب التراجم، قد أغفلت ما يتصل بمشاركة القاضى عياض فى ثورة سبته على الموحدين، فإن كتب التاريخ السياسى لم تغفل هذا الجانب، بل تحدثت بإفاضة عن الثورات، التى عرفها المغرب فى أواخر دولة المرابطين.

عكف القاضى عياض على التأليف والتصنيف، بعد أن استقر بسبته، بيد أن دعوة الموحدين أقضت مضجعه، فلم يكد يخلد إلى الراحة، حتى كانت جيوش عبد المؤمن قرب سبته، فقد ذكر ابن عذارى، نقلا عن ابن حمادة - أن الموحدين وصلوا إلى ريف سبته سنة ست وثلاثين وخمسة (٥٣٦ هـ)^(٢)، ولم تكن سبته - وهى تحت زعامة القاضى عياض - لتسلم نفسها للموحدين، وهى المدينة التى تحتفظ للمرابطين بكل أنواع الوفاء والتقدير والعرفان، ولذلك نظمت نفسها تحت إمرة عياض. لتدافع عن الوجود المرابطى بها. وقد ساعدها على ذلك تحصيناتها القوية، التى أنشأها عياض نفسه، وخبرة أهلها بفنون القتال. وتسجل أحداث هذه الفترة، خطبتان من خطب القاضى عياض، خطبها حاثا أهل سبته على الاستماتة فى الدفاع عن بلدهم.

يقول فى الخطبة الأولى، مستنفرًا سكان سبته للاستعداد بالسلاح وغيره لمقاومة العدو:

«أيها الناس، انظروا لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم وتأمّلوا ما يراد بكم، واستعدوا لما أعدّ لكم، وتحفظوا قبل أن يحاط بكم، فإنكم تستقبلون خطباً

(١) الدليل على ذلك: أنه لا وجود للروضة السادسة المخصصة لما أصاب القاضى عياض من محن.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الخاص بالمرابطين ص ٩٩

جسبها، وتنتظرون عن قريب أمراً عظيماً، فقد صار أعداؤكم عليكم إلباً، وتحالفوا عليكم شرقاً وغرباً»^(١).

ويشكر الله تعالى - في الخطبة الثانية - على ما أمدهم به من نصر، يقول:

«الحمد لله الذى أظهر فى مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة حزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس - لعز الإسلام - عوالى رايات الكفر وبنوده، وكشف عن قلوب ما غشيتها من روع عدته وعديده.»

والأمر العجيب حقاً، هو سكوت ولد عياض عن مشاركة والده فى هذه الأحداث، بل ذهب إلى حد القول: إن والده كان من السابقين إلى الدخول فى الدعوة الموحدية، حيث قال: «ثم بادر - يقصد والده - بالمسابقة إلى الدخول فى نظام الموحدين، والاعتصام بحبلهم المتين».

ولعل ذلك يوضح ما سبق أن ذهبنا إليه، والأسباب التى دفعته إلى ذلك.

ويبدو أن الذى حدد موقف القاضى عياض من الموحدين، هو أنه ما كان يمكن أن يقبل بأى حال من الأحوال ما أتى به «ابن تومرت» زعيمهم. فالقاضى عياض - كما نعلم - أمضى ردحا كبيراً من حياته فى التأليف فى المذهب المالكي، ودافع عنه دفاعاً حاراً فى تأليفه.

وتقديراً لموقف القاضى عياض فى مجابهة الموحدين، ورغبة فى ضمان وفاء سبته وإخلاصها للمرابطين، عين إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف «القاضى عياضاً قاضياً على سبته للمرة الثانية»^(٢). وكان ذلك فى آخر سنة تسع وثلاثين وخمسة (٥٣٩ هـ).

ومن المهم أن نذكر أن قبول القاضى عياض للقيام بمهام هذا المنصب، فى هذا الظرف الدقيق من تاريخ الدولة المرابطية له أكثر من معنى:

فهو يعنى أن الرجل مخلص للمرابطين، ومستعد للوقوف معهم إلى أبعد مدى،

(١) خطب مخطوطة، انظر الملحق الأخير لكتاب الدكتور شقور: «القاضى عياض الأديب».

(٢) التعريف ص ١١

هذا من ناحية-ومن ناحية أخرى، أن موت تاشفين لم يفت من عضده. ويؤكد ذلك أن عياضا لم يقدم طاعة سبته وولاءها لعبد المؤمن إلا في سنة أربعين وخمسة، أو بعدها بقليل^(١). حيث توجه القاضى عياض، على رأس وفد من أعيان سبته، للقاء عبد المؤمن فاجتمع به في مدينة سلا عند توجهه.

ولاشك في أن عبد المؤمن أوسع نزله، وأجزل صلته، فتلك كانت عادة عبد المؤمن مع الوفود، التي كانت تفد عليه، حاملة ولاءها للموحدين، وخير دليل على إكرام عبد المؤمن للقاضى عياض هو اقراره في منصبه، وإعادةه إلى سبته معززا مكرما.

بيد أنه ما كادت تشتعل الثورات ضد الموحدين، حتى بادرت سبته إلى إعلان ثورتها ضدهم، بقيادة القاضى عياض^(٢). قال صاحب أخبار المهدي: إن عياضا كان من أوائل الثائرين على دولة الموحدين، وأن ثورته هي الثورة الثلاثون في سلسلة الثورات التي قامت ضدها^(٣).

يقول ابن زرع عن أحداث هذه الثورة:

«وفي خلال هذه الأيام - خلال سنة ثلاث وأربعين - قام أهل سبته على الموحدين، بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة، وكان قيامهم برأى عياض، فقتلوا من بها من الموحدين وعماهم، وأحرقوهم بالنار، وركب عياض البحر إلى ابن غانية بالبيعة، وطلب منه واليا، فأرسل معه الصحراوي، فدخلها وأقام بها أياما.. فلما رأى أهل سبته انهزام الصحراوي، سقط في أيديهم، وندموا على صنيعهم، وكتبوا ببيعتهم إلى عبد المؤمن، وأتى بها أشياخ المدينة. وطلبتها تائبين، فعفى عنهم وعن القاضى عياض»^(٤).

والأمر العجيب حقا، أن أبا عبدالله محمد بن عياض، نفى في التعريف أى

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٨٩، الاستقصاء ج ٢ ص ١٠٧.

(٢) البيهقي: أخبار المهدي ص ٦٨

(٣) أخبار المهدي ص ٦٨.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٩١

صلة فيها بوالده، ولكن كلامه - في رأيي - لا يؤخذ به نظرا لما سبق أن قلناه، وأيضا لأن ابن خلدون قد نصّ على هذه الثورة، حيث يفهم من كلامه - أن القاضي عياضا قد شارك في هذه الثورة، إذ يقول: إن عياضا أجاز البحر إلى يحيى بن غانية المسوفي.. فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي^(١).

حدثت ثورة سبّعة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة حسب تحديد ابن خلدون، أو سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حسب تحديد ابن أبي زرع، ومن الممكن أن يكون التاريخ الأول تاريخ بداية الثورة، والتاريخ الثاني تاريخ إخمادها.

تقول المصادر: إن حزم عبد المؤمن وصرامته هما اللذان أنقذا دولة الموحّدين، حيث وجه عبد المؤمن حملة تلو حملة، وتمكن من أن يقهر الصحراوي - الذي أتى به القاضي عياض. وأن يقضى على الجموع التي كانت وراءه. وهى على العموم برغواطة، ثم وجه إلى شمال المغرب «يصلاسن»، فمشى إلى طنجة وقتل واليها - الذى كان يدين بالولاء للمرابطين، ثم وصل إلى سبّعة فحاصرها، ورجع عنها ولم يفتحها^(٢)، فلم يجد أهل سبّعة مخرجا إلا مبايعة الموحّدين من جديد، والظاهر أن «يصلاسن» لم يرفع الحصار عن سبّعة إلاّ بتدخل القاضي عياض، بعد أن اشتد الحصار، وشعر أهلها أنه لا طاقة لهم بالموحّدين^(٣).

ولكى يأمن الموحّدون غدر أهل سبّعة من جديد، نفوا القاضي عياض من سبّعة، فخرج منها باكيا، لعلمه أنه لن يعود إليها، ولذلك كان - رحمة الله عليه - يوم سفره منفيًا، يودع الناس ويبكى ويقول: جعلني الله فداء لكم^(٤).

(١) كتاب العبر ج ٦ ص ٤٧٤

(٢) أبو بكر الصنهاجى: أخبار المهدي ص ٦٨

(٣) المرجع السابق

(٤) التعريف ص ١١٥

الفصل الرابع

مكانته، ومحتته بسبب عقيدته السنية

عاش القاضى عياض معيشة أهل العلم، فهو حيثما حلّ، وأينما ارتحل يفيد ويُفيد.. عاش صوتا عاليا، ينادى بالحق وللحق، مرشدا وحاكما، وقاضيا، يمدّه إحساس واع بدينه، وبعقيدته السنية^(١)، التى يعتنقها، وبالمكانة التى تهيأت له، فكل الذين عرفوه أشادوا بمكانته وبعلمه، ويقول عنه معاصره الفتح بن خاقان:

«جاء على قدر وسبق إلى نيل المعالى وابتدر، واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حيام، وتلا من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواء ونكل، فتحلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور، كأنهن الباقوت والمرجان، لم يطمئنهن إنس قبله ولا جان، قد ألحقته الأصاله رداءها، وسقت أنداءها، وألقت إليه الرياسة أقاليدها، ولكنه طريقها وتليدها، فبذّ على فتائه الكهول سكونا وعلمها، وسبقهم معرفة وعلمها، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت فضائله سرى الرياح، فتشوفت لعلاه الأقطار، ووكفت تحكى نداء الأمطار، وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعنى بإقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حذب، إلى سكون ووقار، كما رسا الطود، وجمال مجلس كما حليت الخود، وعفاف وصون، ما علمنا فسادا بعد الكون، وبهاء لو رآته الشمس ما باهت بأضواء وخفر، ولو بان للصبح ما لاح ولا أسفر، وقد أثبت من كلامه البديع اللفظ والأعراض، ما هو للعيون النجل، والجفون المراض»^(٢)

(١) التعريف ص ١١٥

(٢) قلائد المقيان ٢٢٢

ويقول ابن الأبار: ^(١)

«كان لا يدرك شأوه، ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه، إلى اضطلاع بالآداب، وتحقيقه بالنظم والنثر، ومهارته في الفقه، ومشاركته في اللغة العربية. وبالجمل - فكان جمال العصر، ومفخر الأفق، ونبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عُدَّت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس، حسب فيهم صدراً». وقيل عنه أيضاً: «إنه كان صُلْباً في الحق، لا تأخذه فيه لومة لائم، محبا في طلبه العلم، محرضا لهم على طلبه ^(٢)، ووصفوه بأنه كان كثير التواضع، يقبل على المساكين والفقراء، فيسألهم عن أحوالهم، ويكثر الصدقة عليهم ^(٣). وكان يعاشر الناس بالأخلاق الحسنة، والجانب اللين، ويؤثرهم بما يجيد، أنفق في ذلك ما ورثه عن أبيه، وباع فيه رباعة بسبته، وأملاكه ^(٤) ومات مدينا.

وتحدث ابن العماد عن صلته بربه، فقال:

«كان متين الدين، مجتهداً، كثير الصوم، قوام الليل، تاليا لجزء من كتاب الله - عز وجل - في الجزء الأخير من الليل، لم يتركه - ما قدر على تلاوته - في أية حالة، ملتزماً بحدود الشريعة، سُنِّيا في عقيدته، شديد التمسك بها إلى حد التعصب ^(٥)، ولم يصرفه واجبه الديني والاجتماعي، عن الواجب العلمي المقدس، فكان دائم الصلة بعلمه، لا يفارق كتبه، يقرأ ويدرس، ويؤلف ويبحث، حتى صار إمام وقته في الحديث وعلومه، والتفسير وجميع علومه، فقيها أصوليا، بصيرا بالأحكام، عاقدا للشروط، بصيرا حافظا لمذهب الإمام مالك، شديد المحبة له،

(١) المعجم ٢٩٤

(٢) التعريف ص ٧

(٣) التعريف ص ٧

(٤) التعريف ص ١٢٨

(٥) شذرات الذهب ١٣٩/٤

ويظهر ذلك من كلامه في كتبه، من مثل قوله عند الكلام على أن في استهلال (حديث أم زرع) من الفقه حسن عشرة الرجل مع أهله، حيث قال:

«وقد كان مالك - رضى الله عنه - يقول: «في ذلك: مرضاة لربك، ومحبة في أهلك، ومثابة في مالك، ومنسأة في أجلك». وقد بلغنى ذلك عن بعض أصحاب النبي - ﷺ، وكان مالك - رحمه الله - من أحسن الناس خلقاً مع أهله وولده، وكان يحدث يقول: يجب على الإنسان أن يتحبيب إلى أهل داره، حتى يكون أحب الناس إليهم^(١).

وقد استوقفنى المنحى الزهدى عنده، إذ برز بشكل واضح من خلال الروايات والأخبار عن الزهاد، ومن أشعاره. على أن الزهد عند القاضى عياض، لا يخرج عن مفهوم أهل السنة ونظرتهم، وقد عرف كبار الصحابة والتابعين بزهدهم، اقتداء برسول الله - ﷺ - ونقول القاضى عياض في ذلك لا تخرج عن هذا الإطار.

ولقد كان لتمسك القاضى عياض بعقيدة أهل السنة والجماعة، سبباً في تعرضه في أخريات حياته لمحنة قاسية أتت عليه.

لقد تطورت الأحداث في أخريات حياته - كما رأينا - وأرغمته على أن يخوض غمارها، هو ومن معه من العلماء.

لقد كانت هناك مقررات سنّية عقديّة، لا سبيل مطلقاً إلى التخلّى عنها، آمن بها أهل المغرب، وتمسكوا بها، ولم يحيدوا عنها قيد أنملة، ووقف العلماء المغاربة يجاهدون ويدافعون بكل نفس ونفيس عن هذه العقيدة السلفية، بكل ما كان لديهم من وسائل.

فالعقيدة السنّية تقرر فيها تقرر.. «أن لا عصمة لأحد من الناس غير الأنبياء». أضف إلى قضية العصمة ما كانت تستلزمه من مظاهر التشيع. ولقد كان الدافع إلى إثارة هذه الموضوعات وإعلانها، ما جاء في كتاب «إحياء

علوم الدين» للغزالي، من مباحث تعارض ما عليه أهل السنة. فهذا الكتاب وقف منه علماء المغرب بالمرصاد، ويهرجوا ما فيه من علم، ونقدوا ما جاء فيه نقداً مرا.

ويمكن حصر المباحث التي وردت فيه، ورفضتها الأوساط الدينية والفكرية في المغرب، في نقطتين:

الأولى: ذلك الموقف السلبي الخطير، الذي يقفه الغزالي في كتاب الإحياء وغيره، من الاشتغال بالعلوم الإسلامية.

والثانية: ما عرض للبحث فيه من علوم المكاشفة، وما بناء عليها من نتائج وأحكام.

وآمن القاضي عياض بما آمن به أهل السنة في المغرب، وكان شديد التمسك بما آمن به، خاصة بعد أن قرأ على «محمد بن عبد العزيز التغلبي» (ت سنة ٥٠٨ هـ) ردوده على الغزالي^(١). كما كان على علم بموقف المازري - شيخه - من كتاب إحياء علوم الدين، فكان للقاضي عياض من هذا جمعيه موقفه، ورأيه في كتب الغزالي وآرائه، وهو موقف مماثل لما رآه شيوخه ومعاصروه.

كان القاضي عياض يرى - أن الغزالي لو اختصر كتابه، واقتصر فيه على العلم الخالص - وهذه عبارته - لكان كتاباً مفيداً^(٢) وغير الخالص من العلم - في كتاب الإحياء - فيما يعنى القاضي عياض، هو علم المكاشفة.

وذكر ابن العماد الحنبلي^(٣)، والشعراني^(٤).. أن القاضي عياضاً كان يرى أن كتاب الإحياء يجب أن يُحرق، وليس غريباً ما ذكره ابن العماد عنه، فللقاضي عياض - في كتابه الشفا، حكم على أبي حامد الغزالي في غاية القسوة^(٥).

(١) الفنية ص ٢٥.

(٢) التعريف ص ١٢١.

(٣) شذرات الذهب ١٣٩/٤.

(٤) طبقات الشعرا ١٥/١.

(٥) الشفا ٢٨١/٢.

* أما موضوع العصمة، فكان للرجل أيضا موقفه منها، تلك الدعوى التي وصف المهدي.. حاكم المغرب - بها نفسه. فقد جاء مهدي الموحدين - بأراء ومعتقدات، صدمت أهل المغرب في أقدم ما لديهم، وهى العقيدة السنية، حيث سبهم المجسمين الكافرين، وقتلهم قتال كفر، وحصر التوحيد في أصحابه وأتباعه^(١). فقط، وأقام حركته على دعامين:

الأولى : عصمة الإمام، وكان هو الإمام

والثانية: علمه بالمغيبات.

أما علمه بالمغيبات، فقد استفاده من كتاب الجفر، الذى يتضمن علوم أهل البيت.

وأما عصمة الإمام، فهى تعنى عند الإمامية، وعندهم ينقل ابن تومرت - أن الإمام لا يجوز أن تصدر عنه معصية صغيرة، ولا يجوز أن يحصل منه سهو فى الدين، ولا يجوز أن ينسى شيئا من الأحكام^(٢).

ومن كرامات الإمام عندهم، أنه يعرف ضائير الناس، وأنه يعرف ما يكون قبل كونه^(٣).

وموقف العقيدة السنية، من عصمة الأئمة، معروف، وهو أنها لا تقبل عصمة أحد من الناس غير الأنبياء، كما أنها ترفض وصف الأئمة بأنهم عالمو الغيب، وما تكنه ضائير الناس، أو تخفيه الصدور.

ولقد كان تعرض الغزالى لعلوم المكاشفة، وإفاضته فيها، واعتاده عليها، من الأسباب التى حدثت بعلماء المغرب أن يقفوا منه، ومن كتاب الاحياء موقفهم العدائى المعروف. ومن أجل هذا أيضا، كان موقف القاضى عياض ورأيه، الذى رآه فى الغزالى وفى كتبه.

(١) ابن خلدون: العبر ٢٢٦/٦ - ٢٢٩، ٢٦٦/٦

(٢) أوائل المقالات ٣٦

(٣) أوائل المقالات ٣٧

ومن السهل الآن، أن يفهم الدارس، لماذا قاوم المغاربة في كل مكان دعوة الموحدين، ثم لماذا ثارت سبته، بزعامة القاضي عياض، وكررت العصيان في وجه نظام الموحدين، منذ سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (٥٤٣ هـ).

ومن المهم أن نعلم، أن القاضي عياضاً لم يتنازل قط عن عقيدته السنية، وما كان الظن به أن يفعل. وأن الموحدين لم يسامحوه قط، ولذلك غرّبوه عن بلده سبته إلى مراكش، فجزع الرجل لفراقها جزعا شديداً.

ولم يقف الأمر عند حد التغريب والنفي، بل نغصوا عليه أواخر حياته إلى أن لقي ربه بمراكش، في سابع جمادى الآخرة، أو في رمضان من سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٥٤٤ هـ)، ودفن - رحمه الله - بباب إيلان داخل المدينة^(١).

ولقد وردت أخبار عديدة عن موته..

فقد ذكر ابن خلدون^(٢) أن القاضي عياض لما تولى، كبر دفاع عبد المؤمن عن سبته، وكان رئيسها يومئذ بدينه، وأبوته، ومنصبه، وسخطه الدولة آخر الأيام، حتى مات مغرباً عن سبته بتادلاً، مستعملاً في خطة القضاء بالبادية.

يبد أن هذا القول يدفعه قول أبي عبدالله بن القاضي عياض، فقد قال: ^(٣) «إن أباه نهض لمراكش من سبته، في اليوم الخامس والعشرين من جمادى الثاني، عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة (٥٤٣ هـ) فاجتمع فيها بعبد المؤمن، وأمره بلزومه محله إلى أن خرج عبد المؤمن لغزو دكالة، فخرج بصحبته، فمرض بعد مسيرة مرحلة، فأذن له في الرجوع، فرجع إلى حضرة مراكش، فأقام بها مريضاً نحواً من ثمانية أيام، ثم مات ليلة الجمعة نصف الليل، التاسع من جمادى الآخرة عام أربعة وأربعين وخمسمائة (٥٤٤ هـ)، ودفن بها في باب إيلان دخل السور.

والظاهر أن كلام أبي عبدالله هذا ذكره تحت ضغوط معينة، خاصة وأن هناك أخباراً كثيرة تقول إن الرجل قتل مسموماً، سمّه يهودي^(٤).

(٣) التعريف ١٣١

(٤) الديباج ١٦٨

(١) الديباج ص ١٦٨

(٢) العبر ٢٣٠/٦

فتذكر المصادر أن الذين دفنوا القاضي عياضا - رحمه الله - كانوا فئتين من الناس : حكام دولة الموحدين، وسادتهم وأتباعهم، وأمة المغرب، وشعور الفئتين نحوه مختلف متباعد.

* أما حكام الموحدين، فحكمت أقاصيصهم، أن الغزالي بلغه رأى القاضي عياض في كتبه، فدعا عليه، فمات فجأة في الحمام يوم الدعاء عليه^(١). وحكت أيضا أن المهدي هو الذي أمر بقتله سرا، بعد أن ادعى عليه أهل بلده بأنه يهودي، لأنه كان لا يخرج يوم السبت، فقتله المهدي لأجل دعوة الغزالي^(٢).

* وأما الأمة المغربية، فكانت أصابعها تشير إلى الموحدين، تتهمهم وتقول: «سُمُّ ابن العربي، وخُنُقُ اليحصبي»^(٣)، وكانت تقول وهي تودعه: هذا في الشهداء، سَمَهُ يهودي^(٤).

قال أبو الحسن بن هارون الملقى، فيه^(٥):

ظَلَمُوا عِيَاظًا وَهُوَ يَحْلُمُ عَنْهُمْ وَالظُّلْمُ بَيْنَ الْعَالَمِينَ قَدِيمٌ
جَعَلُوا مَكَانَ الرَّاءِ عَيْنًا فِي اسْمِهِ كَيْ يَكْتُمُوهُ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ
لَوْلَاهُ مَانَا حَتَّ أَبَاطُحُ سِبْتَةٍ وَالرُّوضُ حَوْلَ فَنَائِهَا مَعْدُومٌ

(١) طبقات الشعراء ١٥/١

(٢) فهرس الفهارس ١٨٥/٢

(٣) المرقبة العليا ٩٥

(٤) الديباج ١٧٢

(٥) ابن خلكان ١٥٣/٥

الفصل الخامس

مؤلفاته ومصنفاته

كانت حياة القاضي عياض موزعة بين القضاء، والتأليف^(١)، والتدريس، على الرغم من أن أعباء القضاء كانت تأخذ وقتا كبيرا في حياته، إلا أنه ترك عددا كبيرا من المؤلفات والمصنفات، مستغلا في كتابتها الأوقات القليلة، التي كان يخلو فيها إلى نفسه، ولعله أفاد كثيرا من تلك الفترة التي ترك فيها القضاء، والتي تمتد من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، إلى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة للهجرة.

وقد أصاب كتب القاضي عياض ما أصاب حياته من اضطراب وقلق، ونتج عن ذلك فقد عدد كبير منها، كما وقع اختلاف في تحديدها، وتحديد أسماء بعضها، فهي (١٩) تسعة عشر كتابا عند ابنه في التعريف^(٢)، وهي فوق الثلاثين عند ابن تاويت الطنجي.

وصل إلينا بعضها، ولكن أكثرها سقط من يد الزمن، فلم يبق إلا اسمه^(٣).

والباحث المدقق في هذه المؤلفات والمصنفات، يجد أنها تدور في عدة مجالات:

مجال الحديث، ومجال الفقه، ومجال السيرة النبوية، ومجال التاريخ، ومجال الأدب وغير ذلك من الأغراض والموضوعات^(٤).

(١) لم ينقطع القاضي عياض عن التقييد حتى في أحلك الظروف، ففي الغنية، نجده يذكر عبدا لله ابن أحمد بن خلوف الأزدى، المعروف بابن شبونة، وقد توفي سنة ٥٣٧ هـ (الغنية ٨٥) وعبدالله بن محمد النفزي، وقد توفي سنة ٥٣٨ هـ (الغنية ٨٧) وأبا بكر ابن العربي وقد توفي سنة ٥٤٣ هـ (٢) التعريف ص ١١٦، وهو المعتمد، خصوصا وأنه مؤلف بعد وفاته.

(٣) مقدمة ترتيب المدارك، الجزء الأول، الصفحات من ١٢ إلى ١٣

(٤) انظر ثبت مؤلفاته في: أزهار الرياض ٢٣/١ - ٢٩، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس رقم ٢٩٦، والمعجم لابن الأبار رقم ٢٧٩، الصلة رقم ٩٧٢، جذوة الاقتباس ص ٢٧٧، الإحاطة في أخبار غرناطة ١٨٣/١، وانظر ثبت مؤلفاته في مقدمة ترتيب المدارك ج ١ ص ١٠.

أولاً: كتب الحديث

كان القاضي عياض - كما ذكرنا - إمام وقته في الحديث وعلومه، وجمع من الحديث كثيراً، وكان له عناية كثيرة به، مهتماً بجمعه وتقييده. من ذلك كتبه:

١ - إكمال المعلم بفوائد مسلم:

وهو شرح على صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، كمل به شرح أبي عبد الله محمد بن علي المازري، المسمى المعلم بفوائد مسلم^(١). وقد ذكره القاضي عياض في أول كتابه مشارق الأنوار ج ١ ص ٧^(٢).

يقول القاضي عياض في مقدمته^(٣): «إن طلبة العلم الذين اجتمعوا لديه، رغبوا إليه في التفقه في صحيح الإمام مسلم، والوقوف على معاني أخباره، والبحث عن أغواره، والكشف عن أسرارها، وبيان غامضه ومشكله، وتقييد مبهمه ومهمله، والتنبيه على ما وقع من اختلال لبعض رواته في أسانيده ومتونه، والبسط لما في مقدمته من أصول علم الأثر وفنونه...»

- وإنه رغب في إجابتهم إلى ما التمسوه، وتحقيق ما أملوه، لأنه لم يؤلف في شرح صحيح مسلم إلا ما ذكره أبو علي الجبائي في تقييد المهمل، من الكلام على مشكل أسانيده، مع المشكل من أسانيد صحيح البخاري، وإلا كتاب المازري، المسمى بالمعلم، وقد أودعه جملة صالحة من كلام الجبائي على أسانيده»

* ثم قال القاضي عياض: «وكلا الكتابين نهاية في فنه، بالغ في بابه، مودع من فنون المعارف وفوائدها، وغرائب علوم الأثر وشواهداها، وكل واحد من

(١) ابن خلكان، وفیات الأعيان ١٥٢/٥

(٢) كما ذكره ابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه ١٩٦، ٤٩٤، ورواه عن مؤلفه. وذكره ابنه في التعريف بأبيه ص ١٣٢، والاحاطة ١٨٣/١ وقدره كانه بتسعة وعشرين جزءاً، وانظر كشف الظنون ١٤٥/١، ٥٥٧/١، والوفيات ٤٩٦/١، وهدية العارفين ٨٠٥/١.

(٣) نقلا عن مقدمة كتاب الإلماع، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ص ١٤.

الكتابين أجازهما لنا مؤلفه، أعظم الله بذلك أجورهما، وأشرق بما سعيهما فيه بين أيديهما وبأيمانها - نورهما..

لكن الإحاطة على البشر ممتعة، ومسارح الأذهان والألباب للبحث متسعة، وكثيرا ما وقعنا في الكتاب المذكور على أحاديث مشككة، لم يقع لها هناك تفسير، وفصول محتملة تحتاج معانيها إلى تحقيق وتقدير، ونكت مجملة لا بد لها من تفصيل وتحرير، وألفاظ مهمة تضطر إلى الإتيان والتقييد، وكلمات غيرها النقلة من حقها أن يخرج صوابها إلى الوجود..

وعند الوقوف على ما أودعناه هذا التعليق، وضمناء الكتاب الآخر، الذي بين أيدينا المسمى «بمشارق الأنوار على صحاح الآثار» تقف على مقدار ما أشرنا إليه، وكثرة ما أغفل الكلام في الكتابين من الفنين عليه، والعذر بين:

فإن «كتاب المعلم» لم يكن استجمع له مؤلفه، وإنما هو تعليق على ما يضبطه الطلبة، من مجالسه وتلقفه. وكذلك «كتاب تقييد المهمل» حال بين الشيخ فيه، وبين استيفاء غرضه، ما دهمه من مدمن مرضه، فكثرت الرغبات في تعليق لما يمضى من تلك الزيادات والتنبيهات، يضم نشرها ويجمع، والقواطع عن الإجابة تقطع، وشغل المحنة التي طوقت عنق الإنسان تمنع، والرجاء لوقت فراغ من ذلك يسوف ويطمع، إلى أن من الله بإحسانه، يحل تلك القلادة وزوالها، وفرغ البال من عهدا القادحة وأشغالها، فتوجه الأمر، وانقطع العذر، وانبتت همة العبد الفقير، بمعونة مولاه وتوفيقه - إلى الإجابة، راغبة لمولاه جل اسمه، في المعونة وتوخي الإصابة.

ثم ترددت في عمله، ورأيت أن أفراد كتاب لذلك يقتطع عن الكتاب المعلم وما ضمه، غير موف بالغرض، وأن تأليف كتاب جامع لشرحه لا معنى له، مع ما تقرر في «المعلم» من فوائد جمة لا تضاهي، ونكت متقنة، وقف عندها حسن التأليف وتناهي، فيأتي الكلام في ذلك ثانية غير مفاد، أو كالحديث المعاد..

فاستتب الرأي بعد استخارة الله تعالى، وسلوك سبيل العدل والإنصاف، أن يكون ما نذكر من ذلك كالتذليل لتمام كلامه، فنبدا بما قاله، رضى الله عنه،

ونضيف إليه ما استتب وتوالى، فإذا حصلت زيادة فصلناها بالإضافة إلينا إلى أن تنتهى منتهاها، ثم عطفنا على سَوِّق ما يأتى من قوله، ويتطارد الكلام هكذا بيننا قويا بقوة الله وحوله.

- وكان في «المعلم» تقديم وتأخير عن ترتيب كتاب مسلم، فسقناه مساق الأصل، ونظمنا فصوله على الولاء فصلا بعد فصل.

.. وأنا أبرأ لقارنائه من التعاطى لما لم أحط به علما، والإغفال عما لا ينفك عنه البشر سهوا ووهما، وأرغب لمن حقق فيه خللا أن يصلحه، أو وجد فيه مغفلا أن يبينه ويوضحه، أو رأى فيه متأولا أن يحسن تأويله، وألفى فيه محتملا أن يوضح دليله.

- وقد اخترت للكتاب سمة على وفقه، تشهد بالإنصاف والاعتراف لذى السبق بسبقه، ووسمته بكتاب «إكمال المعلم»، وتحريت فيه جهدى الصواب بفضل المنعم، وأودعته من الغرائب والعجائب ما يعرف قدره كل مفتن بها مهتم، ومن الحقائق والدقائق ما يبين كل مبهم، ويسير مع كل منجد ومتهم. وإلى الله أرغب أن يجعلنا ممن انتفع بما علّم، وهدى إلى الصراط المستقيم وألهم. ولقد تركنا كثيرا مما تعلق بعلم الإسناد، مما لم يذكره الشيخ الحافظ أبو على، أو ذكره ولم يذكره الإمام أبو عبدالله، إذ غالب ما ذكر في هذا الكتاب مما في كتاب الحافظ أبي على، ولم نتبعه لاستقصائه في الكتاب الآخر، لكننا ذكرنا من العلل طرفا مما لم يقع في كتاب الحافظ أبي على، مما هو من شرطه، أو تركه عن قصد مما ذكره الإمام أبو الحسن الدار قطنى، في كتابه المسمى «بالتبعية والاستدراكات على البخارى ومسلم»، إذ لم يكن غرض الحافظ أبي على - في الغالب - إلا ذكر ما لم يذكره.

ولولا ذكر الإمام أبي عبدالله لأطراف مما ذكره الحافظ أبو على من ذلك، لتركنا الكلام على هذا الفن في هذا التعليق جملة، إذ هو باب واسع، والتصانيف فيه كثيرة موجودة، ولاقتصرنا على الشرح والمعاني، دون العلل والأسامى.

٢ - الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع:

وهو الكتاب الوحيد الذى ألفه القاضى عياض فى علوم الحديث^(١) وهو أحد الكتب التى كثر اعتقاد المتكلمين فى مصطلح الحديث عليها، وقد وصلنا هذا الكتاب النفيس، ونشر بتحقيق الأستاذ السيد صقر، فى دار التراث بمصر سنة ١٩٧٠ م

وقد ذكر فى مقدمته: أن راغبا رغب إليه فى تلخيص فصول فى معرفة الضبط وتقييد السماع والرواية، وتبيين أنواعها، وما يصح وما يتزيف، وما يتفق من وجوها وما يختلف. فأجابه إلى طلبه، لأنه: «لم يعتن أحد بالفصل، الذى رغبته كما يجب، ولا وقفت فيه على تصنيف يجد فيه الراغب ما رغب، وجمعت فى ذلك نكتا غريبة من مقدمات علم الأثر وأصوله، وقدمت بين يدي ذلك كله أبوابا مختصرة فى عظم شأن علم الحديث، وشرف أهله، ووجوب السماع والأداء له ونقله، والأمر بالضبط والوعى والاتقان، وختمته بباب فى أحاديث غريبة، ونكت مفيدة عجيبة، من آداب المحدثين وسيرهم، وشوارد من أقاصيصهم وخبرهم^(٢)».

* وغنى عن البيان أن قول القاضى عياض: «إنه لم يقف فى هذا العلم على تصنيف» - ليس على إطلاقه، بل مقصور على أهل المغرب، فهم الذين ليس لهم تأليف فى علوم الحديث قبل كتابه، أما أهل المشرق، فلهم فيه تأليف كثيرة، قد أشار إليها فى مقدمته حيث يقول:

«فأول فصوله: معرفة أدب الطلب والأخذ والسماع، ثم معرفة علم ذلك ووجوهه، وعمن يؤخذ، ثم الاتقان والتقييد، ثم الحفظ والوعى، ثم التمييز والنقد بمعرفة صحيحه من سقيم، وحسنه ومقبوله، ومتروكه وموضوعه، واختلاف روايته

(١) التعريف ص ١٣٣، بغية المتئس ٤٢٥، والاحاطة ١٨٣/١، وكشف الظنون ١٥٨/١، وهدية العارفين ٨٠٥/١، وتاريخ الفكر الأندلسي ٣٩٧.
(٢) المقدمة ص ٥.

وعلله، وميز مسنده ومرسله، وموقفه من موصوله، ثم معرفة طبقات رجاله من الثقة والحفظ، والعدالة والجرح، والضعف والجهالة، والتقدم والتأخر، ثم ميز زيادات الحفاظ وغيرهم فيه، وفصل المدرج أثناءه من أقوال ناقله، ثم معرفة غريب متونه وتفسير ألفاظه، ثم معرفة ناسخه من منسوخه، ومفسره من مجمله، ومتعارضه ومشكله، ثم التفقه فيه، واستخراج الحكم والأحكام من نصوصه ومعانيه، ثم النشر وآدابه، وكل فصل من هذه الفصول علم قائم بنفسه، وفي كل منها تصانيف عديدة وتآليف جمة مفيدة^(١).

ولو لم يقل القاضى عياض ذلك - لما كان هناك مندوحة عن تفسير قوله بأنه لم يجد بين مصنفات المغاربة مصنفا في علوم الحديث، لأنه قد جمع مواد كتابه من كتب المشاركة، ولا سيما المحدث الفاصل للرامهر مزي، ومعرفة علوم الحديث للحاكم، والكفاية في قوانين الرواية، والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع وغيرهما من كتب الخطيب البغدادي.

وقد ذكر في كتاب الغنية، الذى ترجم فيه لمائة شيخ ممن أخذ عنهم رواية أو إجازة، أنه روى تلك الكتب وغيرها من كتب المشاركة في علوم الحديث^(٢).

* والناظر في كتاب الإلماع، يجد أن القاضى عياض بدأه بباب، يتحدث فيه عن وجوب طلب الحديث، وإتقانه وضبطه، وحفظه ووعيه^(٣)، أورد فيه طائفة من الأحاديث الدالة على وجوبه، والرحلة في طلبه، ووجوب تبليغه والتحذير من الكذب والافتراء فيه، ثم ثنى بباب في شرف الحديث وأهله^(٤). وذكر فيه من الأحاديث والآثار والأشعار ما طاب له إيراد، دون تمحيص أو تدقيق، وهو أضعف فصول الكتاب. ويتضح هذا الضعف - في تصديره الباب بحديث «اللهم ارحم خلفائى» وهو حديث موضوع. وإيراده حديث «من حفظ على أمتى أربعين حديثا» وهو حديث ضعيف من جميع طرقه.

(١) المقدمة ص ٤، ٥.

(٢) السيد أحمد صقر، مقدمة الإلماع ص ٢٢.

(٣) كتاب الإلماع ص ٦.

(٤) كتاب الإلماع ص ١٧.

- ونقل فيه حديث أبي سعيد الخدري من طريق ضعيف، وترك طريقه الصحيح.

- وذكر خبراً طويلاً عن البخاري (٢٩ - ٣٤) يقول فيه:

«إن الرجل لا يصير محدثاً إلا بعد أن يكتب أربعاً مع أربع، كأربع مثل أربع، في أربع عند أربع، بأربع على أربع، عن أربع لأربع»

وكل هذه الرباعيات لا تتم له إلا بأربع مع أربع، فإذا تمت له كلها هان عليه أربع، وابتلى بأربع، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله في الدنيا بأربع، وأثابه في الآخرة بأربع»

وهو خبر مكذوب على البخاري يحمل في أطوائه دلائل افتراءه.^(١)

* ثم عقد باباً تحدث فيه عن آداب طالب السماع^(٢)، وما يجب أن يتخلق به، بداهة بحديث يروي عن ابن عباس، أن رسول الله قال: «اعتموا تزدادوا حِلماً».

وهو حديث لا يصح له طريق، وذكر فيه أيضاً حديث: «اطلبوا الحديث يوم الاثنين والخميس، وهو حديث باطل.

وذكر فيه آثاراً صحيحة عن الشافعي ومالك ومجاهد، ولكنه ذكر أثراً عن علي ابن أبي طالب يقول فيه: «إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلج عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض.. إلخ.»

ولست أرتاب في أن هذا الكلام لم يدر بخلد عليّ - كرم الله وجهه، وعذر عياض في ذكره أنه مسطور في «جامع بيان العلم» لابن عبد البر، وفي الفقيه والمتفقه، والجامع للخطيب البغدادي.

* وأعقب هذا الباب، بباب موجز جيد عما يلزم من إخلاص النية في طلب الحديث وانتقاد من يؤخذ عنه^(٣).

(١) السيد احمد صقر - مقدمة الإلماع ٢٣.

(٢) كتاب الإلماع ص ٤٥.

(٣) كتاب الإلماع ص ٥٤.

* وأردفه بباب «متى يستحب سماع الطالب، ومتى يصح سماع الصغير»^(١)
 لخص فيه ما قاله الخطيب وابن خلاد، ولكنه ذكر فيه حديثا رفعه اسماعيل
 ابن رافع، ونصه: «من تعلم علما وهو شاب كان كوشم في حجر، ومن تعلم بعد
 ما يدخل في السن، كان ككاتب على ظهر الماء» وأعقبه بقوله: «وقد رفع هذا
 الحديث محمد بن عجلان، عن سعيد ابن أبي سعيد، عن أبي هريرة: أن رسول
 الله - ﷺ، قال: «من تعلم العلم وهو شاب كان كوشم في حجر» وذكر بقية
 الحديث. وهو حديث موضوع لا يصح عن رسول الله^(٢).

* ويأتى بعد ذلك باب الأبواب في الكتاب، وهو الخاص بأنواع الأخذ
 وأصول الرواية^(٣) وهى ثمانية ضروب:

أولها : السماع من لفظ الشيخ.

وثانيها : القراءة عليه.

وثالثها : المناولة.

ورابعها : الكتابة.

وخامسها : الإجازة.

وسادسها : الإعلام للطالب بأن هذه الكتب روايته.

وسابعها : وصيته بكتبه له.

وثامنها : الوقوف على خط الراوى فقط.

وقد فصل القول على هذه الضروب ضربا، وبين أقسامها، وماز
 صحيحها من سقيمها فأجاد وأفاد. وضم فيه إلى أقوال المشاركة، أقوال المغاربة،
 والأندلسيين، التى تلقفها من الشفاه، أو اجتناها من المصنفات.

ولقد بلغ القاضى عياض ذروة الكمال، فى حديثه عن الضرب الخامس،
 الخاص بالإجازة. واستوفى الكلام على وجوهها الستة، ونقل فى تضعيف كلامه

(١) كتاب الاملاص ص ٦٢.

(٢) السيد احمد صتر - المقدمة ص ٢٤.

(٣) كتاب الاملاص ص ٦٨.

نصوصاً قيمة من كتب أهل الفقه، ومن غيرهم..

وبما يزيد من قيمة هذه النصوص أن الكتب التي نقل منها مفقودة، والقليل الموجود منها مازال مخطوطاً، كنقله من كتاب الوجازة لأبي العباس الغمرى المالكي، وكتاب أبي مروان الطنبى، والبرهان لأبي المعالى الجوينى، وأبي الطيب الطبرى، وأبي الحسن الماوردى، وأبي الوليد الباجى.

وهو عندما يذكر الأقوال يبين أوجه الوفاق والخلاف بينها، ويصطفى منها ويرد بالحجة والبرهان.

وقد أحس عياض بتفوقه في شرحه لهذا الضرب من ضروب الرواية، فقال في ختام كلامه عنها: «وقد تقصينا وجوه الإجازة بما لم نسبق إليه، وجمعنا فيه تفاريق المجموعات والمسموعات، والمشافهات والمستنبطات، بحول الله وعونه» وصدق فيما قال.

* ثم عقد باباً «في العبارة عن النقل بوجوه السماع، والأخذ والمتفق في ذلك والمختلف فيه، والمختار منه عند المحققين، وعند المحدثين»^(١).

وهو فصل جيد برزت فيه شخصيته، ودقته في النقل والتلخيص.

* ثم أعقبه بباب «في تحقيق التقييد والضبط والسماع، ومن سهل في ذلك وشدد»^(٢).

* وأعقبه بباب «في التقييد بالكتاب والمقابلة والشكل والنقط والضبط»^(٣).

وقد وفق في عرض هذين البابين توفيقاً كبيراً.

* ثم عقد باباً «عن التخريج والإلحاق والنقص»^(٤). يقول في بدايته: «أما تخريج الملحقات لما سقط من الأصول، فأحسن وجوها ما استمر عليه العمل «عندنا» من كتابة خط بموضع النقص صاعداً إلى تحت السطر الذى

(١) كتاب الإلماع ص ١٤٦.

(٢) كتاب الإلماع ص ١٦٢.

(٣) كتاب الإلماع ص ١٢٢.

(٤) كتاب الإلماع ص ١٣٣.

فوقه.. واختار بعض أهل الصنعة من «أهل أفقنا» وهو اختيار القاضى أبى محمد ابن خلاد» من أهل المشرق، ومن وافقه على ذلك، أن يكتب في آخر اللحق الكلمة المتصلة به من الأم ليدل على انتظام الكلام.

ولقد أفادنا القاضى عياض - في هذا الباب - أن الحكم المستنصر بالله، كان في قصره «بيت للمقابلة والنسخ»، ثم ذكر فيه من شعره أبياتا مطلعها:

خير ما يقتنى اللبيب كتابٌ محكم النقل مُتَقْنُ التقييدِ
خطه عارفٌ نبيل وعاناه فصَحَّ التبييض بالتسويدِ
لم يخنه إتقانُ نَقْطٍ وشكلٍ لا ولا عابَهُ لحاقُ المزيدِ

* ثم تحدث عن التصحيح والتمريض والتضبيب^(١)، والضرب والحك والشق والمحو^(٢) واختلاف العلماء في الحرف المتكرر أيها أولى بالضرب، ثم قال: وأرى «أنا»... «وهذا عندي»^(٣).

* ثم ذكر بابا في تحرى الرواية والمجىء باللفظ، ومن رخص من العلماء في المعنى ومن منع^(٤). ولما تحدث فيه عن اختلاف العلماء في ذكر بعض الحديث، لاستخراج نكته لا تعلق لها بيقينه، قال: وقد تقصينا الكلام في هذا في كتاب «الإكمال لشرح كتاب مسلم بن الحجاج في الصحيح»^(٥).

* وعقد بعد ذلك بابا في إصلاح الخطأ وتقويم اللحن، واختلاف العلماء في ذلك^(٦)، يقول فيه:

«الذى استمر عليه عمل أكثر الأشياء، نقل الرواية كما وصلت إليهم وسمعوها، ولا يغيرونها من كتبهم حتى اطردوا ذلك في كلمات من القرآن استمرت الرواية في الكتب عليها بخلاف التلاوة المجمع عليها، ولم يجىء في الشاذ من ذلك في الموطأ والصحيحين وغيرها حماية للباب، لكن أهل المعرفة منهم

(٤) كتاب الإللاع ص ١٧٤.

(٥) كتاب الإللاع ص ١٨١.

(٦) كتاب الإللاع ص ١٨٣.

(١) كتاب الإللاع ص ١٦٦.

(٢) كتاب الإللاع ص ١٧٠.

(٣) كتاب الإللاع ص ١٧٢.

ينبهون على خطئها عند السماع والقراءة، وفي حواشي الكتب، ويقرءون ما في الأصول على ما بلغهم»^(١).

ومنهم من يجسر على الإصلاح، وكان أجراًهم على هذا من المتأخرين القاضي أبو الوليد هشام بن أحمد الكنتاني الوقشي، فإنه لكثرة مطالعته وتفننه، كان في الأدب واللغة وأخبار الناس، وأسَاء الرجال وأنسابهم، وثقوب فهمه، وحدة ذهنه - جسر على الإصلاح كثيراً، وربما نبّه على وجه الصواب، لكنه ربما وهم في أشياء، وتحكم فيها بما ظهر له، أو بما رآه في حديث آخر، وربما كان الذي أصلحه صواباً، وربما غلط فيه، وأصلح الصواب بالخطأ.

«ثم عرض لكتاب إصلاح خطأ المحدثين للخطابي^(٢)، فقال: وقد نبّه أبو سليمان الخطابي على ألفاظ من هذا في جزء أيضاً، لكن أكثر ما ذكره مما أنكره على المحدثين له وجوه صحيحة في العربية، وعلى لغات منقولة، واستمرت الرواية به، وليس الرأي في هذا واحداً».

وما ذكره القاضي عياض، عن أكثر ما في كتاب الخطابي غير مسلم، ولكن رده يحتاج إلى ما لا سبيل إليه في هذا المقام.

* ثم عقد باباً «في ضبط اختلاف الروايات والعمل في ذلك»^(٣). يرى فيه أن «هذا مما يضطر إلى إتقانه ومعرفته وتمييزه، وإلا تسودت الصحف، واختلطت الروايات، ولم يحل صاحبها بطائل، وأولى ذلك أن يكون الآم على رواية مختصة، ثم ما كانت من زيادة الأخرى ألحقت، أو من نقص أعلم عليها، أو من خلاف خرج في الحواشي، وأعلم على ذلك كله بعلامة صاحبه من اسمه، أو حرف منه للاختصار لاسيما مع كثرة الخلاف والعلامات، وإن اقتصر على أن تكون الرواية الملحقة بالحمرة...»

ولا يغفل المهتبل بهذا عند كثرة العلامات، واختلاف الروايات تقييد ذلك

(١) كتاب الإلّاع ص ١٨٦.

(٢) كتاب الإلّاع ص ١٨٨.

(٣) كتاب الإلّاع ص ١٨٩.

أول دفتره، أو على ظهر جزئه، أو آخره، والتعريف بكل علامة لمن هذه، لئلا ينسى وضع تلك العلامات مع طول الزمن، وكبر السن، واختلال الذكر، فتختلط عليه روايته، ويشكل عليه ضبطه. ومن الصواب ألا يتساهل الناظر ذلك ولا يهمله، فربما احتاج إلى تخريج حديث، أو تصنيف كتاب، فلا يأتي به على رواية من يسنده إليه، إن لم يهتبل بذلك، فيكون من جملة أصناف الكاذبين»^(١)

وهذا كلام جيد يصلح أن يكون أساساً للنشر والتحقيق^(٢).

- ثم يقول: «والناس مختلفون في إتقان هذا الباب اختلافاً يتباين، ولأهل الأندلس فيه يدٌ ليست لغيرهم، وكان إمام وقتنا في بلادنا في هذا الشأن «الحافظ أبو علي الجياني» شيخنا - رحمه الله - من أتقن الناس بالكتب، وأضبطهم لها، وأقومهم لحروفها، وأفرسهم ببيان مشكل أسانيدھا ومتونها، وأعانه على ذلك ما كان عنده من الأدب وإتقانه، ما احتاج إليه من ذلك على شيخه الشيخ «أبي مروان بن سراج اللغوي» آخر أئمة هذا الشأن، وصحبته للحافظ «أبي عمر بن عبد البر»، آخر أئمة الأندلس في الحديث، وأخذه عنه، وتقييده عليه، وكثرة مطالعته.. وناهيك من إتقانه لكتابه الذي ألفه على مشكل رجال الصحيحين.

ثم يقول: وكان قبرينه وكفيه شيخنا «القاضي الشهيد» عارفاً بما يجب من ذلك جداً، لكنه لم يهتبل بكتبه اهتباله»

ثم لمز - للمرة الثالثة - أستاذه أبا الوليد هشام الوقشي الكتاني، فقال: «وكان القاضي أبو الوليد الكتاني ممن أتقن وربما تكلف في الإصلاح والتقويم بعض ما نعى عليه»^(٣).

* ثم عقد القاضي عياض باباً في «رفع الإسناد في القراءة والتخريج والعمل فيه»^(٤)

(١) كتاب الإلماع ص ١١٢.

(٢) السيد أحمد صقر - مقدمته ص ٢٦.

(٣) كتاب الإلماع ص ١١٣.

(٤) كتاب الإلماع ص ١١٤.

* أعقبه بيباب في «متى يستحب الجلوس للإسراع، وسنّ المحدث ومتى يمتنع»^(١).

وقد اعتمد القاضي عياض في هذا الباب على ابن خلّاد، ونقده في اختياره سنن الخمسين حدًا لحسن التحديث، وقال: «وكم من السلف ومن بعدهم من المحدثين، من لم ينته إلى هذا السن، ولا استوفى هذا العمر، ومات قبله، وقد نشر عن الحديث ما لا يحصى، وذكر منهم الكثير، ونقل قول ابن خلّاد: فإذا تنهى العمر فأحب أن يمisk في الثمانين».

وقال: «إن الحدّ عنده في ترك التحديث التغير، وخوف الخرف، وإلا فأنس ابن مالك. وغيره من الصحابة والتابعين ومن تلاهم، حدثوا وتيفوا على هذا العدد، وقارب كثير منهم المائة ونيف عليها»^(٢).

وقال القاضي عياض بعد انتهائه من هذا الباب^(٣).

«هذه فصول وأبواب انتخبناها في هذا الكتاب، وأتينا منها بالمحض اللباب، مما يحتاج إليه طالب علم الحديث في طلبه، ويلتزمه من وظائفه وآدابه، ويضطر إليه في علم مأخذه ومبادئه، وأتينا في ذلك من المعقول والمنقول ما يعترف المنصف بالإجابة فيه»

* ثم ختم الكتاب بيباب جامع لفوائد من الحديث، وشوارد من سير أهله، ونوادر من الآثار تتعلق بالحديث وعلمه، ومحاسن من آداب المشايخ في سماع الحديث ونقله، وهو يقع في ثمان وثلاثين صفحة.

وكاز في إمكان القاضي عياض أن يلحق ما جاء به في هذا الفصل بأماكنه المناسبة له من الكتاب، ولكنه سار على نهج الإمام مالك بن أنس، فإنه عقد في آخر الموطأ «كتاب الجامع». جمع فيه كثيرا من الأحاديث التي استغرقت مائة وعشرين صفحة.

(١) كتاب الإلّاع ص ١٩٩.

(٢) كتاب الإلّاع ص ٢٠١.

(٣) الإلّاع ص ٢١٢.

* ومن النصوص التي ذكرها القاضى عياض فى الباب الجامع، ذلك النص الذى رواه بسنده عن عبد الله أحمد بن حنبل، أنه قال: «ما رأيت أبى - على حفظه - حدث من غير كتاب إلا أقل من مائة حديث». وهو نص يصحح ما قرء فى أذهان عوام العلماء، من أنه كان يحدث بأحاديثه كلها من غير كتاب.

* ومن نصوص هذا الباب، ذلك الدعاء، الذى كان يدعو به الحسن البصرى» عندما يريد مفارقة من يحدثهم، وهو:

«اللهم بارك لنا فيما تقلبنا إليه من قول وعمل، ومال وأهل، اللهم اجعلها نعمة مشكورة مشهورة، مبلغة إلى رضوانك والجنة، واجعله متاع إيمان وزاد إيمان»
وآخر ما أورده فى الباب - وكان إirاده مسك الختام - الدعاء الفذ، الذى كان يختتم به رسول الله - ﷺ - مجلسه، وهو كما رواه ابن عمر:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أبقيتنا، واجعله اللهم الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، ولا تجعل الدنيا أكبر همى، ولا مبلغ علمى»

وهو حديث رواه الحاكم فى المستدرک، وقال: إنه صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجہ وأقره على ذلك الذهبى.

٣ - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد:

وهذا الكتاب أوفى شروح هذا الحديث، وأغزرها مادة^(١).
وقد وصل إلينا هذا الكتاب، ونشر بتحقيق الأساتذة صلاح الدين بن أحمد الأدلبى، ومحمد الحسن أجانف، ومحمد عبد السلام الشرقاوى سنة ١٩٧٥م،

(١) ذكره ابنه فى التعريف ص ١٣٣، والذهبي فى تذكرة الحفاظ ٩٧/٤، وابن خير فى فهرست ما رواه عن شيوخه. ورواه عن مؤلفه ١٩٧، ٤٧٨، وابن خلکان ١/٤٩٦، وكشف الظنون ١/٢٤٨، وهدية العارفين

ضمن مطبوعات مديرية الشئون الإسلامية في المغرب.

قال ابن حجر: «وقد شرح حديث أم زرع، اسماعيل بن أبي أويس شيخ البخاري، روي ذلك في جزء إبراهيم بن ديزيل الحافظ من روايته عنه، وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، وذكر أنه نقل عن عدة من أهل العلم لا يحفظ عددهم، وتعقب عليه في مواضع أبو سعيد الضرير النيسابوري. وأبو محمد بن قتيبة، كل منها في تأليف مفرد، والخطابي في شرح البخاري، وثابت ابن قاسم، وشرحه أيضا الزبير بن بكار، ثم أحمد بن عبيد بن ناصح، ثم أبو بكر بن الأنباري، ثم اسحاق الكاذبي في جزء مفرد، وذكر أنه جمعه عن يعقوب بن السكيت، وعن أبي عبيدة، وعن غيرها، ثم أبو القاسم عبد الحكيم ابن حبان المصري، ثم الزمخشري في الفائق، ثم القاضي عياض، وهو أجمعها وأوسعها، وأخذ منه غالب الشراح بعده.»^(١)

يقول القاضي عياض في مقدمته^(٢) إنه سئل عن شرح هذا الحديث، وتفسير مشكل معانيه وأغراضه، وفتح مقفل غريبه وألفاظه، فأجاب سائله إلى طلبته.

ثم يقول: «ورأينا أن نبتدئ «بالحديث»، وسياسة متنه، مع اختلاف ألفاظ نقلته، وزيادات بعضهم على بعض في سرده، ثم نذكر بعد ذلك علة إسناده، وشرح غريبه، وعويص إعرابه، ومعاني فصوله، وما يتعلق به من فقه، وينقدح منه من فائدة، ويتجه فيه من وجه يحول الله وقته».

«وطرقنا في هذا الحديث كثيرة متشعبة، جئنا ببعضها عن أئمة شيوخنا، وبعضهم يزيد على بعض، وفي متن الحديث بينهم اختلافات وزيادات، وتقديم وتأخير، فجئنا بأكملها رواية، وأحسنها سياقة، بعد تقديم أشهر أسانيدنا فيها، إيثاراً للاختصار والائتلاف، واستظهاراً بمن نهج لنا هذه السبيل من قدوة الأسلاف، ونبهنا على مواضع الخلاف فيها مما يفيد فائدة، أو يزيده فقرة شاردة،

(١) فتح الباري ١١/١٦٣ - ١٦٤.

(٢) الصفحة رقم ١.

وتم زيادات من غير الطرق التي ذكرناها، جلبنا بعضها، ونبهننا على ما أمكن منها، والله ولي التوفيق».

* وبعد أن ذكر القاضي عياض طرق الحديث، وما يتعلق بها، ذكر على طريق الإجمال ما فيه من «التعريف» و«العربية» و«الفقه» و«الغريب» في كلام عائشة - رضى الله عنها - ثم غريب قول الأولى، وما فيه من «العربية»، ثم عقد تنبيهها مهما، قال فيه:

«كنت نويت أن أذكر ما في كلام كل واحدة من هؤلاء النسوة من «أبواب الفصاحة»، وأنبئه على ما فيه من «فنون البلاغة»، وأبين ما اشتمل عليه من «أبواب البديع»، على مذهب أهل هذه الصناعة، فإن كلام هؤلاء النسوة من الكلام العالى الفصيح، الجامع للفظ المختار، والنظم المتناسب المليح، والمعنى الجيد البليغ الصحيح..

- لكنى رأيت أن أفراد الكلام عليه عند شرح قول كل واحدة يطول، لما يتوجه من التكرار والمداخلة في بعض الفصول، فرأيت أن تأخير ذلك إلى آخر الحديث أولى، ليأتى الكلام عليه دفعة، ويفيض سجلا، جريا إلى ما اشترطته من الاختصار، وكرها لما بسطته من عذر الإكثار.

وقد وفيّ القاضي عياض بما وعد «من ذكر ما اشتمل عليه هذا الحديث من ضروب الفصاحة، وفنون البلاغة، والأبواب الملقبة بالبديع في هذه الصناعة، من لفظ رائق، ومعنى فائق، ونظم متناسب، وتأليف متعاقد متناسق.

وبالجملة^(١) فكلام هؤلاء النسوة من الكلام الفصيح الألفاظ، الصحيح الأغراض، البليغ العبارة، البديع الكناية والإشارة، الرفيع التشبيه والاستعارة، وبعضهن أبلغ قولا، وأعلى يدا، وأكثر طولا، وأمكن قاعدة وأصلا، وكلام بعضهن أكثر رونقا وديباجة، وأرق حاشية وأحلى مجاجة، وبعضهن أصدق في الفصاحة لهجة. وأوضح في البيان محجة، وأبلغ في البلاغة والإيجاز حجة».

- فأنت إذا تأملت كلام أم زرع، وجدته - مع كثرة فصوله، وقلة فضوله
- مختار الكلمات، واضح السمات، بين القسّمات، قد قدرت ألفاظه قيس معانيه،
وقررت قواعده، وشيدت مبانيه، وجعلت لبعضه في البلاغة موضعاً، وأودعته من
البديع بدعاً.

- وإذا لمحت كلام التاسعة، صاحبة العباد والنجاد والرماد، ألفيتها لأفانين
البلاغة جامعة، ولعلم البيان رافعة، وبعضاً الإيجاز والقصر قارعة.

- واعتبر كلام الأولى، فإنه مع صدق تشبيهه، وصقاله وجوهه، قد جمع من
حسن الكلام أنواعاً، وكشف عن محيا البلاغة قناعاً، وقرن بين جزالة اللفظ،
وحلاوة البديع، وضّم تفاريق المناسبة والمقابلة، والمطابقة والمجانسة، والترتيب
والترصيع.

«فأما صدق تشبيهها فعلى ما شرحناه قبل، والتشبيه أحد أنواع البلاغة،
وأبداع أفانين هذه الصناعة، وهو موضوع للجلاء والكشف، والمبالغة في البيان
والوصف، والعبارة عن الخفى بالجلي، والمتوهم بالمحسوس، والحقير بالخطير،
والشئ بما هو أعظم منه وأحسن، أو أخسّ وأدون، وعن القليل الوجود
بالمألوف المعهود، وكل هذا لتأكيد البيان والمبالغة في الإيضاح.

«فانظر أين قول القائل: الذين كفروا أعمالهم لا ينتفعون بها، من قوله
تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [سورة النور الآية ٣٩]. وتأمل
بون ما بين الموضعين من البيان، وفرق ما بين الكلامين في الإيضاح، وإن كان
الغرض واحداً، والموضوع سواء.

* وكذلك قول امرأة: زوجي بخيل لا يوصل إلى شيء مما عنده، وبين كلام
هذه المرأة المتكلم عليه. ووجه بلاغة التشبيه ما فيه من الجلاء والإيضاح،
كما قدمنا.

ثم يقول^(١) «وأكثر تشبيهات الكتاب العزيز من هذا النمط، كقوله تعالى:

(١) بعنية الرائد ص ١٨٨.

﴿مثل نُوره كمشكاة فيها مصباح﴾ [سورة النور ٣٥] و﴿مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ [سورة يونس الآية ٢٤]. أو لما فيه من المبالغة والغلو وهو من أبواب البلاغة، ومرجعه إلى البيان والإيضاح، كتشبيه الشيء بما هو أعظم منه وأكبر، نحو قوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام﴾ [سورة الرحمن الآية ٢٤]

وبعد أن يعرض بحثاً قيمياً في تشبيهات القرآن، يعرض كذلك نماذج تشبيهات الشعراء، فيبين ما فيها من بلاغة، ثم يعود من حيث بدأ، فيقول^(١).

«وهذه المرأة قد شبهت بخل زوجها، وأنه لا ينال ما عنده مع شراسة خلقه. وكبر نفسه، بلحم الجمل الغث على رأس الجبل الوعث، فشبهت وعورة خلقه بوعورة الجبل، وبعد خيره ببعد اللحم على رأسه، والزهد فيما يرجى منه لقلته، وتعذره بالزهد في لحم الجمل الغث، فأعطت التشبيه حقه، ووفته قسطه، وهذا من تشبيه الخفى بالجلى، والمتوهم بالمحسوس، والحقير الخطير.

ثم يذكر القاضي عياض ما جاء في كلام صواحبه من التشبيه، ويبين وجه بلاغته على هذا النحو.

ثم يعود إلى كلامها^(٢) فيبين ما فيه من حسن التأليف، وجمال المناسبة والمقابلة، فيقول: «ثم انظر حسن نظم كلامها وتطارده، وأخذه حقه من المؤالفة والمناسبة في الألفاظ، التي هي رأس الفصاحة، وزمام البلاغة، فإنها وازنت ألفاظها، وما ثلث كلمها، وقدرت فقرها، حسنت اسجاعها، فوازنت في الفقرة الأولى لحم برأس في الثانية، وجمل بحبل، وغث بوعث، في الرواية الواحدة. ومَحَرَّب وعرف في الرواية الأخرى. فأفرغت كل فقرة في قالب أختها، ونسجتها على منوال صاحبها.

وعلى هذا المنوال جرى القاضي عياض في كشف ما في حديث النسوة الإحدى عشرة من ترصيع ومجانسة، ومطابقة، وحسن تفسير، وغرابة تقسيم،

(١) بقية الرائد ص ١٨٩.

(٢) بقية الرائد ص ١٩٠.

والتزام ما لا يلزم، وإيغال أو تبليغ. واستعارة وكناية، وصحة مقابلة، وتتميم
وارداف وتتبيع، وحسن تسجيع وترديد، واستوفى الكلام في هذه الأنواع البلاغية،
في حوالى ثلاثين صفحة من صفحات الكتاب.

إن هذا الفصل الأخير من فصول «بغية الرائد» الذى كشف فيه القاضى
عياض عن فنون البلاغة، فى حديث أم زرع - يعتبر من أروع فصول البلاغة
التطبيقية فى الكتب العربية، وهو يكشف عن ناصية مجهولة من مناصى عظمة
القاضى عياض، وهى الناحية البلاغية، التى تجلت فيها شخصيته، وبرز فيها
رأيه، وتجلي ذوقه الرقيق، ونقده الدقيق، وما علمت أحدًا من قبلى نبه على هذه
الناحية أو أشار إليها.

ولو قد انتشر منهج القاضى عياض هذا، ونهج نهجه فيه الدارسون لأساليب
القرآن والحديث، لغنيت الأبحاث النقدية، وتجدد شباب البلاغة العربية، ورفعت
نضارتها، ودامت غضارتها، وارتاحت إليها الأرواح، وصفت نحوها القلوب
وجنحت إليها الأفكار، وتعشقت العقول، فدامت حية فى النفوس والأذهان، ولما
كان مصيرها هذا المصير الرهيب، الذى صوح فيه نبتها، وأقفر روضها، وحلت
محلها بلاغة الأعاجم، التى لا ترهف حسا، ولا تصقل ذوقا، ولا تنمى ملكة لبيان
فى نفس إنسان، لأنها فى حقيقة أمرها أشجاج من المنطق والفلسفة، وأخلاط من
النحو وعلم الكلام، تزهرق أرواح دارسيها، وتصدهم عن النظر فيها^(١).

ولقد أفصح القاضى عياض عن قيمة ما أتى به، فقال فى آخر كتابه:

«وحررت فى هذا الفصل الأخير من علم البلاغة، واستثرت ما فى كلامهن
من سر النصيحة، وغرائب النقد، وبديع الكلام، ما فيه غنية لتأمليه، ممن شدا فى
باب الأدب شيئا، وتطلع لأن يعلم صناعة تأليف الكلام ويفهم منازع أرباب هذا
الشأن، وعلى الله - جل اسمه - الاعتداد فى العفو عن الزلل، والرغبة فى
غفران المباهاة فى القول والعمل^(٢)».

(١) السيد أحمد صقر، مقدمة كتاب الإلماع ص ٢٢٠.

(٢) بغية الرائد ص ٢١٥.

٤ - مشارق الأنوار على صحيح الآثار:

وقد طبع هذا الكتاب في المغرب في سلسلة تراثنا الإسلامي، ونشر في دار التراث، المكتبة العتيقة سنة ١٣٢٨ هـ. وهو كتاب من أقوم ما خلف القاضي عياض - رحمه الله - مفيد جدا في تفسير الحديث المختص بالصالح الثلاثة، وهي: الموطأ، والبخاري، ومسلم^(١). وقد ترك هذا الكتاب في مبيضة، ووصف خط القاضي عياض فيه، بأنه غاية في التشبيح والإدماج والإشكال وإهمال الحروف، وجاء المحافظ المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الغرناطي المعروف بالطرار، فجمع أصول وأمّهات حافلة من كتب الغريب واللغة، واستعان بها على إخراج نص هذا الكتاب من مسودته، فجاء هذا الكتاب أجّل كتب القاضي عياض قدرا، وأنبهها ذكرا، وأكثرها دلالة على عظم مكانته في فنون الرواية، حيث قام بتحقيق نصوص الموطأ والصحيحين، فعمد إلى كلمات المتن، وأسماء الأماكن، والرجال وكناهم، وألقابهم، فرتب كل ذلك على حروف المعجم، ثم شرع في عمله، فضبط متونها وصححها على الأصول، ونبه على رواياتها المختلفة، وأشار إلى الصواب، أو الأرجح منها اعتمادا على المقارنة بين الروايات ومتون اللغة.

وقد دفعه إلى ذلك^(٢)، أنه رأى المتأخرين قد تساهلوا في الأخذ والأداء، حتى أوسعوه اختلالا، ولم يألوه خبالا، فنجد الشيخ المسموع بشأنه وثنائه، يتكلف الناس مشاق الرحلة إليه، ويتناوبون الأخذ عنه. وحضوره كعدمه، لأنه لا يحفظ حديثه، ولا يتقن أداءه وتحمله، ولا يمك أصله، بل يمك كتاب سواء، وربما كان معه من يتحدث معه، أو غدا مستقلا نوما، أو مفكرا في شئونه حتى لا يعقل ما سمعه ولعل الكتاب المقروء عليه لم يقرأه قط، ولا علم ما فيه إلا في نوبته

(١) ذكره أبو عبد الله في التعريف ص ١٣٣، والإحاطة ١/١٨٣، وأزهار الرياض ٢/٤٣٩ - وابن خلكان ١/٤٩٦، وكشف الظنون ٢/١٦٨٧، وهدية العارفين ١/٨٠٥.

(٢) المقدمة ص ٣.

تلك، أو يكون بعض متساهلي الشيوخ قد ناوله كتباً لا يعلم سوى ألقابها، أو أخته إجازة فيه من بلد سحيق، أو يشتري كتباً ويكتفى بأن يجد عليها أثر دعوى المقابلة والتصحيح، والآخذون عن ذلك الشيخ يتساهلون كذلك، فلا يضبطون ما يكتبون، وقد يتشاغلون أثناء السماع بمحادثة الجلساء، وربما حضر مجلس الشيخ صبي لم يفهم بعد عامة كلام أمه. فيعتدون بصحة سماعه إذا كان قد أوفى أربعة أعوام، ويحتجون بحديث محمود بن الربيع، الذي يقول فيه: (عقلت عن النبي - ﷺ - مجة مجها في وجهي وأنا ابن أربع سنين) وليس في عقل محمود هذه المجة حجة على عقله لكل شيء كان من أمره. أو من حوله، إلى غير ذلك من ألوان تساهل الآخذ والمأخوذ عنه.

ثم قال: «إن أكثر ساعات الناس في عصره، وفي أزمان كثيرة من قبله كان بهذه السبيل، وإنه لذلك كثر في الكتب التغير والفساد، وشمل ذلك كثيراً من المتون والإسناد، وشاع التحريف، وذاع التصحيف».

* ثم ذكر «أن قلة قليلة قد هبت من قبله لإقامة هذا الأود، وإصلاح هذا الخلل، بمقدار ما أوتوا من العلم، وهم بين غال ومقصر، ومشكور عليهم، ومتكلف هجوم».

وبعد أن تحدث عنهم وذكر من الأمثلة ما كان منهم قال:

«إن الحاجة مست إلى كتاب يجمع شوارد تلك الأوهام، ويسدد مقاصدها، ويبين مشاكلها، وينص على اختلاف الروايات فيها، ويظهر أحقها بالحق وأولاهها، وأنه لم يجد كتاباً مفرداً في هذا الشأن إلا كتاب تصحيف المحدثين للدارقطني، وأكثره مما ليس في الكتب الثلاثة، وإلا كتاب الخطابي الموجز، وإلا كتاب شيخه الجياني المسمى بتقييد المهمل. فإنه تقصى فيه أكثر ما اشتمل عليه الصحيحان، وقيد أحسن تقييد، وجوده نهاية التجويد، ولكنه اقتصر على ما يتعلق بالأسماء والكنى، والأنساب والألقاب، دون ما في المتون من تغيير وتصحيف وإشكال، وإن كان قد شذ عليه من الكتابين أساء^(١).

(١) مقدمة كتاب مشارق الأنوار ص ٥ بتصرف.

ثم ذكر أنه رتب الكلمات التي عرض لها على ترتيب حروف المعجم المعروف بالمغرب ولم يكتف بترتيبها على ذلك بحسب حرفها الأول فقط، بل رتبها كذلك بحسب الحرف الثاني والثالث أيضاً، وبدأ في أول كل حرف بالألفاظ الواقعة في متونه، فأتقن ضبطها بحيث لا يلحقها تصحيف ولا يعتورها إيهام، فإن كان في اللفظ اختلاف نبّه عليه، وبين الصواب من الخطأ، وميز الراجح من المرجوح، بنص من سبقه من جهابذة العلماء، أو باجتهاده وتحقيقه هو على غرار مناهج المتقدمين.

ثم ذكر أنه ترجم فصلاً في كل حرف على ما وقع في الكتب الثلاثة من الأسماء التي يكثر تصحيف الرواة فيها، ونبه معها على أشباهها، ثم يعطف على ما وقع في الإسناد من النص على شكل الأسماء والألقاب والأنساب والكنى المبهمة.

ثم ذكر في آخر كل فصل ما جاء فيه من تصحيف، ونبّه على صوابه، وشرح ما دعت الضرورة إلى شرحه، من غريب ألفاظ المتون، دون نقص أو اتساع، لأنه لم يضع كتابه لشرح اللغة، ولا لتفسير المعاني، بل وضعه لتقويم الألفاظ وإتقانها^(١).

ثم ذكر - أنه قد شذت عن الأبواب نكت غريبة مهمة لم تضبطها تراجمها، لكونها جل كلمات، يضطر القارئ إلى معرفة ترتيبها، وصحة تهذيبها، إما لما دخلها من التفسير أو الإيهام، أو التقديم والتأخير، أو أنه لا يفهم المراد بها إلا بعد تقديم إعراب كلماتها، أو سقوط بعض ألفاظها، أو تركه على جهة الاختصار، ولا يفهم المراد إلا به..

فأفرد لها آخر الكتاب ثلاثة أبواب:

أولها: في الجمل التي وقع فيها التصحيف. وطمس معناها التلخيص.

وثانيها: في تقديم ضبط جمل في المتون والأسانيد، وتصحيح إعرابها، وتحقيق

(١) مقدمة مشارق الأنوار ص ٧ بتصرف.

هجاء كتابها، وشكل كلماتها، وتبيين التقديم والتأخير اللاحق لها، ليستبين وجه صوابها، وينفتح للأفهام مغلق أبوابها.

وثالثها: في إلحاق ألفاظ سقطت من الأحاديث، أو من بعض الروايات، أو بترت اختصاراً، أو اقتصاراً على التعريف بطريق الحديث لأهل العلم به، لا يفهم مراد الحديث إلا بإلحاقها، ولا يستقل الكلام إلا باستداركها^(١).

ثم قال: «فإذا كملت هذه الأغراض، وصحت تلك الأمراض، رجوت ألا يبقى على طالب معرفة (الأصول المذكورة) إشكال، وأنه يستغنى بما يجده في كتابنا هذا عن الرحلة لمتقني الرجال، بل يكتفى بالسماع على الشيوخ، إن كان من أهل السماع والرواية، أو يقتصر على درس أصل مشهور الصحة، أو يصحح به كتابه، ويعتمد فيما أشكل عليه على ما ههنا إن كان من طالبى التفقه والدراية^(٢)».

ويقول القاضى عياض عن كتابه مشارق الأنوار:

«فهو كتاب يحتاج إليه الشيخ الراوى، كما يحتاج إليه الحافظ الواعى، ويتدرج به المبتدئ، كما يتذكر به المنتهى، ويضطر إليه طالب التفقه والاجتهاد، كما لا يستغنى عنه راغب السماع والإسناد، ويحتج به الأديب في مذكراته، كما يعتمد عليه الناظر في محاضراته. وسيعلم من وقف عليه من أهل المعرفة والدراية قدره، ويوفيه أهل الإنصاف حقه. فإني نخلت فيه معلوماتي، وبشئته مكتومي، ورصعته بجواهر محفوظي ومفهومي، وأودعته مصونات الصناديق والصدور، وسمحت فيه بمضونات المشايخ والصدور، وقد ألفته بحكم الاضطرار والاختيار، وصنفته منتقى النكت من خيار الخيارات، وأودعته غرائب الودائع والأسرار، وأطلعته شمساً يشرق شعاعها في سائر الأقطار، وحررتة تحريراً تحار فيه العقول والأفكار، وقربته تقريباً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وسمته:

(١) المقدمة ص ٧.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٧.

«بشارق الأنوار على صحيح الآثار»

وصدق القاضي عياض فيما وصف به كتابه العجيب في أنظار الأجيال. وقد كان ابن الصلاح ينشد عند ذكره:

مشارق أنوارٍ تسنت بسببته وذأ عجب كون المشارق بالغرب
ويرجع الفضل في حفظ هذا الكتاب إلى أبي عبدالله محمد بن علي بن يوسف الأنصاري، المتوفى سنة ٦٤٥ للهجرة، فهو الذي تجرد له، وأخرجه عن المبيضة، لأن القاضي عياض مات وتركه كذلك.

ثانياً: مصنفاته الفقهية

صنف القاضي عياض في الفقه مجموعة من الكتب، ساعده على ذلك سعة علمه وروايته. التي أحلتها المحل الأول في الفقه المالكي، وجعلت أبناء عصره يعولون عليه في حل ألفاظ مدونة سحنون، وضبط مشكلاتها. وتحرير رواياتها، وهي التي مكنت له من أسباب التفوق في تأليف كتبه.

وهذه المصنفات الفقهية هي:

١ - الأجوبة المجبرة على المسائل المتخيرة^(١):

وهو من الكتب التي لم يكملها القاضي عياض. وذكر ابنه^(٢). أنه وجد منه يسيراً فضمه إلى ما وجدته في بطائق أبيه، أو عند أصحابه، من معان شاذة، في أنواع شتى سئل عنها، فأجاب عنها، جمع ذلك كله في جزء.

٢ - الأجوبة فيما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام^(٣).

(١) ورد ذكره في الإحاطة ١٨٣/١، أزهار الرياض ٢٩٩/٢، وكشف الظنون ١١/١

(٢) التعريف ص ١٣٣ - ١٣٤

(٣) الإحاطة ١٨٣/١، التعريف ص ١٣٤، أزهار الرياض ٢٣١/٢.

وهو أحد الكتب التي لم يكملها القاضى عياض، واختلفت المصادر في تقدير ما ترك منه، بين كونه جزءاً أو جزأين. ويظهر أن هذه الأجوبة ضمنها ابنه أبو عبد الله محمد بن عياض كتابه «مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام»، فقد ورد في مقدمته:

«أما بعد.. فإنى أبى - قدّس الله روحه، ونور ضريحه - لما طال في خطة القضاء نزلت إليه من الأقضية نوازل تحار فيها الأذهان والأفهام، وألفت بعد موته - رحمة الله عليه - سؤالاته على تلك النوازل، والأجوبة عليها في بطائق، فنقلت تلك الأسئلة، ومن خطه - رضى الله عنه - نقلت إلا ما نهت عليه، وجعلت كتابي هذا ديواناً يشمل على جميعها، وترجمته (بمذاهب الحكماء في نوازل الأحكام).

وتوجد منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية بالمغرب تحت رقم (٤٠٤٢)

٣ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام:

وقد طبع هذا الكتاب^(١) بوزارة الشؤون الإسلامية بالمغرب، في سلسلة مطبوعاتها، بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي.

وهو كتيب صغير، كتبه القاضى عياض بأسلوب بسيط، وطابعه العام هو الطابع السردى التقريرى، الذى يخلو من المناقشة والتفصيل، وإثارة الاختلاف، وهو إلى جانب ذلك كله شديد الإيجاز، ومن إيجازه عدم الدخول في التفاصيل، وعدم إيراد السند، وذلك أن الكتاب مؤلف للأطفال، فقد صار من الضرورى أن يكتب بأسلوب مبسط. ولذلك وقف القاضى عياض كثيراً لشرح أو تبسيط لفظ أو معنى، أحس أن الغموض بلغها. ومن ذلك ما ورد في باب مكروهات الصلاة^(٢).

فقد رأى القاضى عياض أن لفظ «الإقعاء» تحتاج إلى شرح، فشرحها بقوله:

(١) ورد ذكره في التعريف ص ١٣٣، والإساطة ١٨٣/١، وكشف الظنون ١٢٧/١

(٢) الإعلام بحدود قواعد الإسلام ص ١٦، نقلاً عن كتاب الأستاذ عبد السلام شقور ص ١٢٧.

«والإقعاء، وهو جلوسه (أى المصلى) فيها (فى الصلاة) على صدور قدميه فى التشهد، أو عند القيام من السجود، بل يعتمد على قدميه عند قيامه».

وفيه يتحدث القاضى عياض عن العشر واجبات، فيقول^(١).
 «فالعشر الواجبات أن تعتقد أن الله واحد غير منقسم فى ذاته. وأنه ليس معه ثان فى إلهيته، وأنه حى قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه إله كل شىء وخالقه، وأنه على كل شىء قدير، وأنه عالم بما ظهر وما بطن «لا يغرب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض»، وأنه يريد لكل كائن من خير أو شر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سميع بصير، متكلم بغير جارحة ولا آلة. بل سمعه وبصره وكلامه صفات له، لا تشبه صفات الصفات، كما لا تشبه ذواته الذوات، ليس كمثل شىء، وهو السميع البصير».

وواضح من أسلوبه، أنه كتبه ليحفظه المتعلمون، لذلك لم يشق عليهم بالتطويل ولا بالتعقيد، بل اختار لكتابته هذا أسلوبا سهلا، بعيدا عن الصنيع.

٤ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك^(٢).

ألفه القاضى عياض بعد تأليفه الآخر «جمهرة رواة مالك»^(٣).
 وقد طبع هذا الكتاب بوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى المغرب، بتعليق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى.

يقول القاضى عياض فى مقدمته^(٤).

«وبعد.. فلما تكررت رغبات الأصحاب، شملنا الله وإياهم بسعادته، لإمضاء ما كانت النية اعتقدته، وتبيض ما غدت المهمة قد سوّدت، من كتاب حاول لأسماء أعيان المالكية وأعلامهم، وتبيين طبقاتهم وأزمانهم، وجمع عيون فضائلهم وآثارهم، وضمّ نشر فنون سيرهم وأخبارهم، تشمل منفعته، وتجمل معرفته،

(١) الإعلام بحدود قواعد الإسلام ص ٣٠.

(٢) التعريف ص ١٣٤، أزهار الرياض ٢/ ٢٩٩، وذكره الحلبي فى الدر النثيس ص ١٦.

(٣) الأستاذ عبد السلام شقور ص ١١٢.

(٤) ترتيب المدارك ص ٦.

وتستغرب فوائده. وتستعذب مصادره وموارده».

«إذ هو فن لم يتقدم فيه تأليف جامع، ولا اختص به تصنيف رائع، يُوصِّل الطالب إلى الغرض، ويقف بالراغب على البغية، مع شدة حاجة المجتهد والمقلد له، وضرورة الفقيه، والمتفقه إلى ما ينطوى عليه، إلا ما جمعه عبد الله بن محمد أبي دُلَيْم القُرطبي من ذلك، ومحمد بن حارث القرويّ، مع تقدم زمنها، وما اقتضبه الشيخ أبو إسحاق الفيروزابادي، في موضع ذكرهم من مختصره».

«وكل الكتب ما شفت غليلا، ولا تضمنت من الكثير إلا قليلا، على أن ابن أبي دُلَيْم اتسع اتساعا حسنا، فيمن ذكره من المغاربة من اتباع رواة مالك، من المصريين والأندلسيين، وطائفة من القرويين، واقتصر على ذكر تطبيقيهم وأسائهم، دون شيء من أخبارهم، وبيان أحوالهم، ولم يُجِرْ لأحد من الحجازيين والشرقيين، ذكرا على جلالة مكانتهم، وكثرة أعلامهم».

* ثم يقول: «ولم أزل منذ سمت همتي لمعرفة هذا الفن، وتحركت نيتي للاطلاع عليه، استقرئ سُبُلَ مسالكه، وأفحص عن وجوه مداركه، وأقيد أثناء مطالعتي شوارده، وأجرّد مدة بحثي جرائده، إلى أن اجتمع لي من ذلك بعد طول المباحثة الشديدة، والعناية التامة، والمطالعة المتواترة، ما وجدته بغية وغنية، وبَسَطَ لي في تجريده أملا ونية»^(١).

«ولم ألق أحدا ممن يُعتنى بقوله، ويلتفت إلى حسن رأيه، ممن وقف على نُبذ من أمره، أو انتهى إليه نبأ من ذكره إلا قلقا إلى تمامه، شديد التعطش إلى كماله، محرضا على صرف العناية إلى تحريره وتهذيبه، راغبًا في تقريب الفائدة بنظمه، وتبويبه، والنفس تمصل بذلك وتُسَوِّف، وتوالى القواطع والشواغل، يصرف عن ذلك ويصدف، إلى أن انبعثت الآن عزيمة مصممة للتفرغ لتأليفه، وترتيب مضمونه وتصنيفه»^(٢).

إلى أن يقول:

(١) مقدمة القاضي عياض على ترتيب المدارك ص ٧.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٧.

«فاستخرت الله تعالى على ذلك، واستعنته جل اسمه لتوطئة هذه المسالك، وجمعت قراطيسي فنفضتها عما استودعتها، وطالعت تعاليقي فوقفت على خفي أسرارها، واستثبت محفوظاتي، فأنجذنتي بشوارد أذكراها، فنظمت مثنورها، وفصلت شذورها، ورتبت أعجازها وصدورها، وأبرزته تأليفا مفردا في مضمونه، بالغا فيما قصر عليه من أنواع هذا العلم وفنونه^(١)».

ويتحدث القاضي عياض عن منهجه في تأليف هذا الكتاب، فيقول^(٢):

«واقضى النظر بين يدي الغرض، تقديم مقدمات تمس الحاجة إليها، وتتم الفائدة بالوقوف عليها، تشتمل على أبواب: في ذكر المدينة وفضلها، وتقديم علمائها، ووجوب الحجة بإجماع أهلها، وترجيح مذهب مالك بن أنس إمامها، وتقصيت هذه الأبواب تقصيا يشفي الغليل، وأنعمتها نظرا يقف بالمنصف على سواء السبيل».

«ثم قفيه باقتداء الأئمة به، وثناء العلماء عليه ونشر فضائله، وما أضيف من السير إليه. إلى سائر ما يحتاج إليه من معرفة تاريخه ونسبه، ويتطلع إليه من مجارى أحواله في معاشرته وأدبه، واستوعبت في هذه الجملة باختصار فنونها، والاقتصار على عيونها، وما طالت به تواليف جمّة، وشحنت به مجلدات عدة..»
«إذ ألّف في فضائل مالك ومناقبه وأخباره جماعة من الأئمة، والسلف والخلف من فرق هذه الأمة».

ثم يذكر القاضي عياض قائمة من الذين ألفوا في فضائل مالك ومناقبه، قائلا:

فمن ألف في ذلك وأطال: القاضي عبد الله التستري المالكي، له في ذلك نحو ثلاثة مجلدات. ومثل ذلك لأبي الحسن بن فهر المصري، ولأبي محمد الحسن بن اسماعيل الضراب. ويذكر أكثر من ثلاثين عالما.

(١) مقدمة الكتاب ص ٨.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٨.

وأما عن مصادره فيقول: ^(١)

«وأكثر تعويلي على كتابي التستري والضراب، وتتبع من غيرهما ما فيه زيادة فائدة، أو نادرة لم تقع فيهما.»
«وحذفت كثيرا مما أطالوا به من كلامه في التفسير والجوامع والرجال، إذ ليس من الغرض وله فكان آخر هن أليق به.»

ثم أثبت بعد ذلك جريدة في أسماء مشاهير الرواة عن مالك، وحملته الفقه والعلم عنه، مختصة بالتعريف بهم، معرفة من توارى عنهم وأخبارهم، إذ قد اتسعنا في أخبار الفقهاء منهم بعد هذا، ومن سواهم فليس من غرضنا ذكرهم.
«ولم أقصد في هذه الورقات لاستيعاب كل من ذكرت له عنه رواية أو بحالة أو سؤال، إذ قد أودعنا ذلك كتابا آخر في جمهرة رواة مالك، انطوى على أزيد من ألف وثلاثمائة راو. تفصيتها من الكتب المؤلفة في ذلك، إذ ألفت في ذلك كتب عدة:

كتاب أبي الحسن الدارقطني الحافظ. وكتاب اسماعيل الضراب المصري وأبي بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي. وأبي اسحاق بن شعبان القرطبي وأبي الحسن بن أبي عمر البلخي، وأبي نعيم الأصبهاني.
ومنهم من بلغ الألف، ومنهم من قصر دونها.»

ومن الأندلسيين: أبو عبد الله محمد بن مفرج، وعبد الله ابن أبي ذؤيم، وهما أقل عدداً، وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد البكري. وفي كل واحد من هذه الكتب ما لم يذكره الآخر.

فتتبع ذلك جهدي، وأضفت إليه ما شذ عنها، ونذ فيما طالعت من كتب أهل الحديث وغيرهم.
ثم يقول:

«اقتصرنا في هذه الورقات على ذكر ألف اسم منهم، فمن عُرف اسمه،

وصحّت روايته. وشهرت صحبته، ورأينا أن لا نُخلّي هذا الديوان من هذا القدر لتتم في بابه فوائده، وتكمل في فنه معارفه».

«وبعد هذا اطردت أغراض التأليف، واتسقت طبقات التصنيف.. «فابتدأنا بذكر الفقهاء من أصحابه خاصة (أصحاب مالك) ثم بأتباعهم طبقة طبقة، وأخلافهم أمة بعد أمة، إلى شيوخنا الذين أدركناهم، وأئمة زماننا الذين عاصرناهم، ممن شهرت إمامته، وعرفت معرفته، أو ظهرت تواليفه، ونقلت أقواله، وامتلئت فتاويه وآراؤه على حسب تقدم أزمانهم، وتعاقب أوقاتهم.

«فأنبأنا بأسائهم، وأعرينا عن ألقابهم وأنسابهم، وقيدنا مهملها، لئلا يقع فيها تصحيف، وأزحنا علّة مشكلها ليأمن من اطلع عليها من التحريف»^(١).

«ثم ذكرنا بعد هذا من فضائلهم ومناقبهم، وثناء الجلّة عليهم، وتوثيق المزيّن منهم، ومنازلهم من الزكاء والعدالة، ومراتبهم في العلم والرواية، ومن تكلم فيه منهم على قِلَّتِهِمْ، وأعدّ منهم في أولى التقدم والإمامة، مع ما يحتاج إليه الناظر المجتهد، ممن يعتد بخلافه واجماعه، ويضطر إليه المتفقه والمقلد في معرفة من يدين بإمامته واتباعه».

«ودَحَضْنَا الدّلس عن قوم منهم، تحامل المتعصبون عليهم، أو تجمل أهل الريب بإضافتهم إليهم، وقد صح عنهم وعُرف خلاف ذلك بما سنجلبه إن شاء الله تعالى، عنهم.

«وقد نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه، فإن فيها الجهمية والرافضة، والخوارج والمرجئة، والشيعة، إلا مذهب مالك - رحمه الله تعالى - فإننا ما سمعنا أن أحداً ممن تقلّد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فلاستمسك به نجاة إن شاء الله تعالى»^(٢).

(١) مقدمة الكتاب ص ١٤.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٢٢.

«ثم جمعنا من أخبارهم وقصصهم، وفقر من سير حُكامهم وقضاتهم، ونوادير من فتاوى فقهاءهم وأئمتهم، وما يحتاج الحكام إليه، ولا غنى بالعلماء عنه، وأثبتنا من حكم حكماؤهم، ورقائق وُعَاظهم، ومناهج صلحائهم وزهادهم، ما ترجى بركته، ولا تخيب - إن شاء الله - منفعتة».

«وذكرنا من محن ممتحنهم، وبلايا مبتليهم ما فيه مسلاة للممتحنين، وأدلة على ثبات قدمهم في الصالحين».

«وذكرنا من بلدانهم وأوطانهم، ورَحاليهم وقطانهم، إذ كان ينبوع هذا المذهب بالمدينة، فيها تفجّر، ومنها انتشر، فكانت المدينة كلها على ذلك الرأي، وخرج منها إلى جهات من الحجاز واليمن، فانتشر هناك بأبي قرة القاضي، ومحمد بن صدقة الفدكي، وأمثالهما»^(١).

وبعد أن ذكر علماء المذهب في الأمصار الإسلامية العراق وخراسان، والأندلس ومصر: قال: «فبدأنا في كل طبقة بأهل المدينة، ثم بمن والاهما من جزيرة العرب، ثم بأهل المشرق، ثم كررنا على المصريين ومن والاهم من المغاربة، وختمنا بأهل الأندلس - إلا من لم نجد له من أهل تلك البلاد، في تلك الطبقة اسماً، فتعدى إلى ما بعده على الرسم. «وانتقينا أثناء ذلك من نوادر ظُرَفائهم، وملح آدابهم، ومحاسن شعرائهم ما ينشط النفس عند كسلها، ويصقل عنها رَيْن صدئها».

«وذكرنا ما ينتحله كل واحد منهم من المعارف، وما أضيف من الخصال إليه، ونبيّنها على الغالب من أنواع العلوم عليه، وسَمّنا من تأليف مؤلفيهم، وإملأنا مصنفهم ما لا غنى عنه، وما ينبه المتفقه على الاقتباس منه»^(٢).

ويختتم القاضي عياض مقدمته هذه بقوله:^(٣)
«ولم نأل فيما جمعنا من ذلك تحريراً للاختصار لفنونه، وتحريراً للاقتصار على

(١) مقدمة الكتاب ٢٤.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٢٨.

(٣) مقدمة الكتاب ص ٣٣١.

نصوصه وعيونه، وحذفا للطرق والأسانيد، وضما للتفاريق والأبائيد، واستصفيناه من كبار تصانيف المحدثين، وأمهات تواليف المؤرخين، ككتاب أبي عبد الله البخارى، وعبد الرحمن ابن أبي حاتم، وأبي الحسن الدارقطنى، والزبير بن بكار القاضى.. وغيرهم.

«وأنا أضرع إلى ذى العزة والجلال. ألا يجعل حظى من هذا الكتاب مجرد التعب، وواصل السهر والنصب، وأن يحسن فيه النية، ويكمل بعفوه عن زللنا المنة» «وجدير بمطالعه أن يحسن الظن، وأن لا يبادر إلى الطعن، حتى يجيد النظر، ويحقق ما أنكر، فإن تيقن بعد زلة أصلحها، أو وجد مبهمة أوضحها، وأن يشكر ما كفيناه فى جمعه من شغل الخاطر، والفراغ للبحث، والطلب المتواتر، ويعذر فيما عساه يعثر عليه من زلل خفى أو ظاهر، فالغالب على المرء التقصر، والأمر الذى ارتكبته خطير، ويغتفر القليل للكثير».

هذا وقد اتفقت المصادر المعتمد بها فى ترجمة القاضى عياض، على أنه لم يُسمع كتاب «ترتيب المدارك» فى حياته لأحد من الناس، وهو إشارة فيها - فيما نظن - التفسير للاختلافات الواردة فى النسخ المخطوطة، فهى تعنى - كما يقول محققه^(١) - أن الكتاب لم يقرأه الناس على مؤلفه، فتتحد عند قراءته - بصورة علنية ونهائية أجزاءه، وتتحد بشكل جماعى، النسخ المسموعة منه على متن واحد، وعلى ترتيب واحد، وتحذف منه التراجم المتكررة.

فالكتاب لم يسمع، بل ظل فى مسودة المؤلف^(٢)، إلى أن تداولته أيادى النساخ، فأخرجوه من المسودة باجتهادهم.

٥ - التنبيهات المستنبطة على المدونات المختلطة^(٣)

الكتب المدونة والمختلطة هى أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروها وبها مناظراتهم ومذاكراتهم.

(١) مقدمة التحقيق الصفحة (كح)

(٢) الديباج ٢٩٢.

(٣) ذكره القاضى عياض فى ترتيب المدارك ج ٣ ص ٩٩.

٦ - كتاب السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول^(١). وهو مفقود.

٧ - كتاب العقيدة^(٢)

٨ - مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور^(٣).

قال ابنه في التعريف: انه من الكتب التي تركها القاضي عياض في المبيضة. وهو مفقود.

٩ - مطامح الأفهام في شرح الأحكام^(٤). وهو مفقود.

١٠ - نظم البرهان على صحة جزم الأذان^(٥). وهو مفقود.

ثالثا: مصنفاته في السيرة النبوية

١ - اختصار شرف المصطفى^(٦):

«وشرف المصطفى» اسم كتاب لأبي سعد بن عبد الملك بن محمد الواعظ النيسابوري الخركوشي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ، وهو ثمانى مجلدات، ويسمى أيضا «شرف النبوة». وقد اختصره القاضي عياض، حدث به عنه ابن خير إجازة ومشافهة وإذنا.

وكان القاضي عياض كان يمهّد لتأليف كتابه الشفا، فاستطال كتاب «شرف المصطفى» فليخصه ليسهل رجوعه إليه، واستفادته منه^(٧).

(١) ذكره صاحب الظنون ١٠١٨/٢. وهدية العارفين ٨٠٥/١.

(٢) ذكره الذهبى في تذكرة الحفاظ ٩٧/٤، وهدية العارفين ٨٠٥/١.

(٣) ذكره ابنه في التعريف ١٣٣، والمقرئ في أزهار الرياض ٢٣٠/٢.

(٤) ذكره حاجى خليفة في كشف الظنون ١٧١٨/٢، وهدية العارفين ٨٠٥/١.

(٥) ذكره ابنه في التعريف ١٣٣، والإحاطة ١٨٣/١، أزهار الرياض ٢٣٩/٢، وهدية العارفين ٨٠٥/١.

(٦) ذكره صاحب الظنون ١٠٤٥/٢، وابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه ٢٨٩، ٤٩٧.

(٧) انظر مقدمة كتاب ترتيب المدارك الصفحة (كب).

٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى^(١):

سماء الذهبى «الشفا فى شرف المصطفى» وهو أشهر من أن يعرف، أقرأه القاضى عياض فى حياته وأجاز فيه.

يقول عنه ابن فرحون: إن القاضى عياض أبدع فيه كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه، ولم ينازعه أحد فى الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه، وأنصفوا فى الاستفادة منه، وحمله الناس عنه، وطارث نسخه شرقا وغربا^(٢).

وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات سواء فى المغرب أو فى مصر، كان آخرها طبعة المكتبة التجارية بمصر، وقد ذيل بحاشية لطيفة هي «مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء» للعلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى، المتوفى سنة ٨٧٢ للهجرة.

وقد ذكر حاجى خليفة^(٣) كتاب «الصفاء بتحرير الشفا» ونسبه له، وقد فهم اسماعيل البغدادى من ذلك أن «الصفاء بتحرير الشفا» اسم كتاب للقاضى عياض فذكره له فى ترجمته^(٤). وهو فهم خاطئ لأن «الصفاء بتحرير الشفا» من تأليف قطب الدين محمد بن محمد بن الخيضرى المتوفى سنة ٨٣٤ للهجرة. وقد ورد ذكره فى كشف الظنون، فى الحديث عن شروح الشفا.

(١) ذكره ابنه فى التعريف ١٣٢، وغنه الاحاطة ١٨٣/١، وأزهار الرياض ٢٣٨/٢، وتذكرة الحفاظ ٩٧/٤، وكشف الظنون ١٠٥٢/٢، هدية العارفين ٨٠٥/١.

(٢) الديباج المذهب ١٦٨.

(٣) كشف الظنون ١٠٧٩/٢.

(٤) هدية العارفين ٨٠٥/١.

رابعاً: مصنفاته التاريخية

١ - أخبار القرطبيين:

ذكره ابنه في التعريف^(١)، وقال: «وله تاريخ لعلماء قرطبة يسمى أخبار القرطبيين. وأخشى أن يكون هو نفسه كتاب أجوبة القرطبيين، الذي سنذكره

٢ - تاريخ المرابطين^(٢):

كتب فيه تاريخ المرابطين، وانتهى إلى سنة ٥٤٠ للهجرة، أى قبل وفاته بأربع سنوات.

٣ - الجامع في التاريخ^(٣):

ذكره القاضى عياض في ترجمة عبد الله بن ياسين، القائم بدعوة المرابطين بقوله: «وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ».

وذكره تلميذه محمد بن حمادة البرنسى البستى، وعنه الذهبى بعنوان «جامع التاريخ». وقال المقرئ^(٤): إنه تاريخ المرابطين، انتهى فيه إلى سنة ٥٤٠ هـ، وأنه كتاب أربى على جميع المؤلفات، فيه أخبار الملوك بالأندلس والمغرب، منذ دخول الإسلام إليها، واستوعب أخبار سبته وقطانها وفقهاءها، وجميع ما جرى من الأمور فيها.

(١) التعريف ص ١٣٣ كشف الظنون ٢٨/١، هدية العارفين ٨٠٥/١، تاريخ الفكر الأندلسى ٢٨٣.

(٢) أزهار الرياض ٢٣٩/٢.

(٣) تذكره الحفاظ ٩٧/٤، أزهار الرياض ٢٣٩/٢ كشف الظنون ٥٣٨/١.

(٤) أزهار الرياض ٢٣٩/٢.

٤ - العيون الستة في أخبار سبتة^(١):

وقد ذكره ابنه بعنوان «الفنون الستة في أخبار سبتة»^(٢). كما ورد ذكره بهذا الاسم في الاحاطة، وأزهار الرياض^(٣). وهو من الكتب التي لم يكملها القاضي عياض، بل تركه في المبيضة.

٥ - المعجم في ذكر أبي على الصدفى وأخباره، وشيوخه وأخبارهم^(٤):

وهو معجم كبير، يتضمن تراجم نحو المائتى شيخ. ذكر القاضي عياض في الغنية^(٥)، أنه ألفه.

٦ - أخبار العلويين:

وقد انفرد بذكره «عبد الحمى الكتانى»، ولم يأت في التعريف ولا في الديباج^(٦)

٧ - تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض:

وقد عثرنا على نسخة من هذا الكتاب، في المكتبة المركزية لجامعة الملك عبد العزيز، بجدة. وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ محمد الطالبي، وطبع بتونس سنة ١٩٦٨ م ولم يرد ذكره في المصادر التي ترجمت له وتحدثت عن مؤلفاته ومصنفاته.

٨ - المعجم في شيوخ ابن سكره:

جمع فيه نحو مائتى شيخ، ذكره القاضي عياض في الغنية، وقد ورد في إحدى قوائم المخطوطات، أنه توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة بالجزائر تحت رقم ٥٨

(١) كشف الظنون ١١٨٦/٢، هدية العارفين ٨٠٥/١.

(٢) التعريف ١٣٣.

(٣) الاحاطة ١٨٣/١، أزهار الرياض ٢٣٩/٢.

(٤) ذكره ابنه في التعريف ص ١٣٣، والاحاطة ١٩٣/١.

(٥) الغنية ص ١٢٣.

(٦) الأستاذ عبد السلام شقور ص ١١٧.

٩ - جمهرة رواة مالك^(١):

أشار إليه القاضى عياض أكثر من مرة، فى مقدمة كتابه «ترتيب المدارك» حيث قال: «ولم أقصد فى هذه الورقات استيعاب كل من ذكر لى عنه رواية أو بحالسة أو سؤال، إذ قد أودعنا ذلك كتابا آخر فى «جمهرة رواة مالك» انطوى على أزيد من ألف وثلاثمائة راوٍ، تقصيتها من الكتب المؤلفة فى ذلك»

١٠ - الغنية فى أسماء شيوخه^(٢):

وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ ماهر زهير جرار، وطبع فى دار الغرب الإسلامى ببيروت سنة ١٩٨٢ م.

ولقد ذكر ابن الأبار: أن شيوخ عياض يقاربون المائة^(٣)، وقد خلد القاضى عياض هؤلاء الشيوخ، فصنف من أجلهم هذا الكتاب، اعترافا بفضلهم، وتخليدا لذكراهم، وسماه «الغنية» ترجم لهم فيه، وحدد تخصصاتهم، وذكر مؤلفاتهم ومصنفاتهم، وذكر متى لقيهم، وماذا أخذ عنهم، وكأنه بتخليده لهم يخلد نفسه أيضا.

يقول فى مقدمته^(٤):

«أيها الراغبون فى تعيين رواياتى وإجازة مسموعاتى ومجموعاتى، فقد تعين بحكم إلحاحكم علىّ، ومدكم أيدى الرغبات إلىّ، أن أنص لكم من ذلك على عيون، وأخص أوراقى هذه بما لعله يفى المضمون، وأحيل على فهارس الأشياخ على العموم، فى سائر أنواع العلوم، وأسّمى أشياخى الذين أخذت عنهم قراءة وسامعا، ومناولة وإجازة، ومن كتب إلىّ ممن لم ألقه، وذكرت من خبر كل واحد منهم ما يعطى الحال وفقه، بطرف من الاختصار والايجاز، بحكم ما أدت إليه الحال من الرحلة والانحياز، وذكرت أثناء ذلك أسماء جلة ممن لقيتهم وجالستهم،

(١) ترتيب المدارك ج ١ ص ١٣ ط المغرب. وانظر ج ١٤/١، ٧٣، ج ٢ ص ١٧٠.

(٢) ذكره ورواه عنه ابن خير فى فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٤٣٧، ٥١٢.

(٣) المعجم ص ٢٩٥، وابن خلكان ١٥٣/٥.

(٤) مقدمة كتاب الغنية ص ٢٥.

وذاكرتهم ولم أرو عنهم، أو سمعت منهم اليسير إما لقاطع قَطَعَ، أو لسبب مَنَعَ، أو لأنهم لم يكونوا أصحاب رواية، أو أهل إتقان لما رَوَوْا أو دراية»

من هؤلاء الشيوخ:

١ - الفقيه القاضى أبو عبدالله محمد بن عيسى بن حسين التميمي^(١):

يقول عنه القاضى عياض: «أجل شيوخ بلدنا سبته - رحمه الله - ومقدم فقهاءهم، مولده بمدينة فاس، انتقل به أبوه إلى سبته وهو شاب، وأصله من تاهرت، وجده هو المنتقل إلى فاس. فطلب العلم بسبته على شيوخنا أبي محمد المسيلي وغيره.

وكان كثير الكتب حافظا عارفا بالفقه، مليح الخط والكتابة والمحاضرة، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم. وأسمتهم، تام الفضل، كامل المروءة، بعيد الصيت عند الخاصة والعامة، عظيم القدر.

- لازمته كثيرا للمناظرة في المدونة والموطأ، وسأع المصنفات، فقرأت وسمعت عليه بقراءة غيرى كثيرا، وأجازنى جميع روايته. وكان من أحسن القضاة وأنزههم على الطريقة القويمة، فمضى فقيدا حميدا، واحتفل الناس لجنائزته. ثم يذكر القاضى عياض ما سمعه عليه.

٢ - الفقيه القاضى أبو عبدالله محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبى:

قال عنه القاضى عياض^(٢): «أجل رجال الأندلس وزعيمها في وقته، ومقدمها جلاله ووجاهة، وفيها ونباهة، مع النظر الصحيح في الفقه والأدب البارع، والتقدم في النثر والنظم. كان مولده سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (٤٣٩ هـ). تقلد الشورى بقرطبة لأول الدولة المرابطية، ثم ولى قضاء الجماعة

(١) انظر ترجمته في الفنية ص ٢٧.

(٢) انظر ترجمته في الفنية ص ٤٦.

بها سنة تسعين إلى أن توفي، في يوم الخميس لثلاث بقين من محرم، سنة ثمان وخمسة (٥٠٨ هـ). ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر.

لقبته بقرطبة سنة سبع وخمسة، وصدر سنة ثمان، وجالسته كثيرا - رحمه الله - وسمعت عليه الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثي، وقرأت عليه بعض رسائله وردوده على الغزالي. وسمعت بعضها، وسمعت كثيرا من كلامه، ورسائله لابن شاخ. وأجاز لي سائر رواياته.

٣ - الفقيه القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد:

قال عنه القاضي عياض: ^(١) «زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب، ومقدمهم المعترف له بصحة النظر، وجودة التأليف، ودقة الفقه، وكان إليه المفزع في المشكلات، بصيرا بالأصول والفروع والفرائض، والتفنن في العلوم. وكانت له الدراية أغلب عليه من الرواية. كثير التصنيف مطبوعه.

* ألف كتابه المسمى «بكتاب البيان والتحصيل» في شرح كتاب العتبي، المستخرج من الأسمعة، وهو كتاب عظيم نيف على عشرين مجلدا، وكتاباه على الكتب المدونة المسمى بالمقدمات، وكتاباه في اختصار الكتب المبسطة من تأليف يحيى بن اسحاق بن يحيى، وأجزاء كثيرة في فنون من العلم مختلفة.

وكان مطبوعا في هذا الباب، حسن القلم والرواية، حسن الدين، كثير الحياء، قليل الكلام، متسمتا نزها، مقدما عند أمير المسلمين، عظيم المنزلة معتمدا في العظام أيام حياته.

ولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة إحدى عشرة وخمسة، ثم استعفى منها سنة خمس عشرة، إثر الهيج الكائن بها من العامة وأعفى، وزاد جلاله ومنزلة. وإليه كانت الرحلة للتفقه من أقطار الأندلس مدة حياته إلى أن توفي - رحمه الله - في ذى القعدة سنة عشرين وخمسة.

- جالسته كثيرا وسألته، واستفدت منه، وسمعت بعض كتابه في اختصار

(١) انظر ترجمته في الفنية ص ٥٤.

المبسوطة من تأليفه، يُقرأ عليه وناولني بعضها، وأجازني الكتاب المذكور وسائر رواياته.

٤ - الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأموى:

ذكره القاضى عياض فقال: ^(١) «شيخ بلدنا وقاضيه ومفتيه وصالحه، ولى القضاء مرتين، مرة أيام برغواطية، والأخرى أول دولة المرابطين. وكان حافظاً للفقهاء والفرائض، مشاركاً فى التفسير، وعلم النسخ والمنسوخ وغير ذلك. لكنه كان يقصر به لسانه عن تأدية بعض ما عنده. إذ كان لم يطالع شيئاً من علم العربية. صالحاً ورعاً مشهوراً بالخير، وكان شأنه الحفظ والتفقه، ولم يكن له كبير شغل بالسماع والرواية. وكان موصوفاً بالصلاح والعفة من صغره، من أهل الورع والتحرى.

وتوفى - رحمه الله - يوم الأحد - سادس رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة، مولده سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

* ناظرتُ عليه مدة طويلة فى المدونة، وأخذتُ عنه فوائد من العلم كثيرة

٥ - الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن داود بن عطية بن سعيد العكى القلعى:

ترجم له القاضى عياض فقال: ^(٢) «كان من أهل العلم بالفقه والأصول، تفقه بأبى عبد الله الذكى وغيره من شيوخ بلده، ودرس الأصول على «عبد الجليل الديباجى» وغيره، وسمع بالأندلس من «الجيانى» وأكثر عنه، ولى قضاء تلمسان، ثم نقل لقضاء إشبيلية، ثم نقل لقضاء فاس، وبها توفى يوم الاثنين عاشر ذى القعدة سنة خمس وعشرين وخمسمائة.

* صحبتُهُ كثيراً، ودرستُ عليه أصول الفقه، وكان جليلاً فاضلاً، فقيهاً ذكياً، رحمه الله.

(١) ترجمته فى الفتنى ص ٥٨.

(٢) ترجمته فى الفتنى ص ٦٤.

٦ - الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، مستوطن المهديّة^(١) :

إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر. درس أصول الفقه والدين، وتقدم في ذلك فجاء سابقا، لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفقه منه، ولا أقوم لمذهبهم. وسمع الحديث، وطالع معانيه، وأطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والآداب وغير ذلك، فكان أحد رجال الكمال في العلم في وقته، وإليه كان يُفزع في الفتوى في الفقه. وكان حسن الخلق مليح المجلس أنيسه، كثير الحكاية وإنشاد الشعر، وكان قلمه في العلم أبلغ من لسانه، وألف في الفقه والأصول، وشرح كتاب مسلم، وكتاب التلقين للقاضي أبي محمد، وليس للمالكية كتاب مثله. توفي - رحمه الله - يوم السبت الثالث من ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسمائة. وقد نيف على الثمانين.

* كتب إلى من المهديّة يميزني كتابه المسمى «بالمعلم في شرح مسلم»، وغيره من تواليفه.

ويبدو أن فهرست شيوخ القاضي عياض «الغنية» لم يتسع للكثيرين من الشيوخ الذين أخذ عنهم، فنحن نجد عددا كبيرا من الروايات والأخبار، عن شيوخ القاضي عياض مما لم يُضمّن فهرسته هذه. مثال ما ورد في كتاب «التعريف» لولده محمد، والمعجم لابن الأبار^(٢)، وبعض كتب القاضي عياض «كترتيب المدارك» مثلا.

أما ما أورده الونشريسي حيث قال^(٣) : وفي فهرست القاضي أبي الفضل عياض - رحمه الله - عن الشيخ أبي بكر بن البراء الخزرجي... إلخ.

(١) ترجمته في الغنية ص ٦٥.

(٢) المعجم ١٣٠٧ في ترجمة سراج بن عبد الملك.

(٣) النهج الفائق والمنهل الرائق ص ٤٩-٥٠، وقارن بالتعريف ص ٧٦، ٧٧.

فيبدو أن الونشريسي نقله عن «التعريف» وذكر أنه ورد في فهرست شيوخ القاضي عياض، ظنا منه أن أبا عبدالله محمد بن عياض أخذه عن فهرسة أبيه. وما يؤكد ما ذهبْتُ إليه، ما ذكره عدد من الشيوخ والعلماء، ممن وصف «الغنية» أو نقل عنها، فقد عدَّ محمد بن عياض أسماء شيوخ والده، ونقل كثيرا عن الغنية، غير أن محمدا اضطرب عليه الأمر فيما يبدو حين عدد أشياخ والده، مما ترك من أتى بعده في حيرة من أمرهم قال: ^(١)

«انتهى أشياخه الذين ضم إلى فهرسته ممن سمعه أو أجازته، واليسير منهم لقيه وجالسه ولم يسمع منه إلى مائة شيخ حسبما يأتي بعد هذا في تسمية شيوخه، رحمه الله».

وسمى في موضع آخر شيوخ أبيه، وذكر عددهم بحسب الحروف ^(٢) حرف الألف سبعة عشر (وسمَّاهم)، حرف الخاء أربعة وسماهم، حرف الميم أحد وثلاثون، حرف العين سبعة وعشرون - إلا أنه سمى ستا وعشرين، حرف الغين واحد، حرف السين خمسة، حرف الشين واحد، حرف الهاء اثنان، حرف الياء أربعة.

وبهذا يكون عدد الأشياخ سبعة وتسعين إلا أنه سَمَّى ستة وتسعين، وقال بعد أن ذكرهم: ^(٣) «هذه جملة ما في فهرسته - رحمه الله - وترك جماعة ممن لقيهم، وذاكرهم وحضر مجالس نظرهم من الفقهاء والرواة، ممن لم يحمل عنهم اقتصاراً على ما ذكره وفيه كفاية.

من هذا نستنتج أن عدد تراجم «الغنية» نحو المائة دون تحديد، ومع أن ابنه قد ذكر أن عدد شيوخه مائة إلا أنه عدَّ منهم ٩٨ فقط. وأن القاضي عياض لم يضمها جميع تراجم شيوخه، واقتصر عند ذكر من ترجم لهم على إيراد بعض أخبارهم، وقد صرح هو نفسه بذلك.

(١) التعريف ص ٩، ١٠.

(٢) التعريف من ص ١١٩ - ١٣٢.

(٣) التعريف ص ١٣٣.

هذا - ويعتبر كتاب «الغنية» وثيقة مهمة، تبين لنا طرق الاتصال الثقافي والفكري، وحركة التبادل العلمي بين المغرب والمشرق.. وتبرز أهميته فيما تضمنه من ضبط لسلاسل السند والرواة، وما يلقيه من ضوء على طرق الاتصال الثقافي، ونوعية الكتب والمعارف، التي كانت سائدة في عصر القاضي عياض. والتي كان لها دور في تكوين شخصيته الفذة.

وكتاب «الغنية» على صغر حجمه عظيم الفائدة، إذ تتبين من خلاله المصادر التي استقى فيها عياض ثقافته المتشعبة، ولعل أول ما يلاحظه الدارس هو هذا العدد الضخم من الكتب التي رواها وسمعها، إضافة إلى الكثير من الأخبار والروايات، كما قُبِضَ له أن يحمل عن عدد من المشايخ المشرقيين، إما سماعاً أو إجازة، فحصل علماً جماً، وصار مدار الرواية في الأندلس عليه.

خامسنا: مصنفاته الأدبية

١ - كتاب التنبهات.

انفرد بذكره ابن خلكان^(١)، وقال: إنه جمع فيه غرائب وفوائد.

٢ - كتاب خطبه^(٢)

وقد تم العثور على مجموعة من خطبه، إلا أن هذه المجموعة من الخطب ليست المقصودة هنا^(٣)

٣ - سر السراة في آداب القضاة^(٤):

قال أبو عبد الله في التعريف - رأيت أيضاً هذه الترجمة بخطه، ولم أجد من هذا الكتاب شيئاً. ولا وقفت على خبر.

(١) وفيان الأعيان ١٥٢/٥

(٢) ذكره ابنه في التعريف ص ١٣٣.

(٣) انظر ملاحق البحث.

(٤) التعريف ص ١٣٤.

بينما جاء في الإحاطة^(١): ومما تركه في المبيضة: سر السراة.. إلخ.

٤ - كتاب سؤالات وترسيل^(٢):

ذكره الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ضمن ثبت مؤلفاته.

٥ - غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل^(٣)

هكذا أورده أبو عبد الله في التعريف، أما بقية المصادر فمختلفة في إيراد هذا الاسم.

ففي كشف الظنون «في صدور الرسائل» وفي الإحاطة^(٤) «في الصدور أو الرسائل»

وقال ابن خاتمة: «كتاب في سؤالات وترسيل له» في نحو أربعة أسفار، وهو مفقود.

٦ - غريب الشهاب^(٥):

وهو مفقود

٧ - كتاب القواعد^(٦):

٨ - المقاصد الحسان^(٧):

قال أبو عبد الله في التعريف: وهو من الكتب التي لم يكملها، وقد تركه في المبيضة، وهو في جزء. وذكر ابن خاتمة: إنه في سفرين. وهو مفقود.

(١) الإحاطة ١٨٣/١ وورد ذكره في أزهار الرياض ٢٣٨/٢.

(٢) مقدمة كتاب ترتيب المدارك الصفحة (كد).

(٣) التعريف ص ١٣٣، والمقرى: أزهار الرياض ٢٣٩/٢.

(٤) الإحاطة ١٨٣/١.

(٥) كشف الظنون ١٠٢٧/٢، وهديّة العارفين ٨٠٥/١.

(٦) هديّة العارفين ٨٠٥/١.

(٧) التعريف ١٣٣، والإحاطة ١٨٣/١، وأزهار الرياض ٢٣٨/٢.

هذه هي مؤلفات القاضي عياض ومصنفاته كما وردت في المصادر المختلفة.. ونظرة فاحصة في هذه الآثار، تجعل الباحث يرجح أن يكون بعضها قد صار لها أكثر من اسم.

من ذلك كتابه في التاريخ، قد نجد له خمسة أسماء، وهي:

- ١ - أخبار القرطيين.
- ٢ - تاريخ المرابطين.
- ٣ - الجامع في التاريخ.
- ٤ - العيون الستة في أخبار سبتة.
- ٥ - الفنون الستة في أخبار سبتة.

هذه الأسماء الخمسة. ليست إلا فصولا لكتاب واحد، كما يقول الأستاذ عبد السلام شقور^(١).

فقد ذكر الذهبي في تذكرته، أن لعياض كتابا في التاريخ، أربى على جميع المؤلفات، جمع فيه أخبار ملوك الأندلس والمغرب، واستوعب أخبار سبتة. وهذا صاحب طبقات المالكية، ينقل عن ابن مرزوق قوله: «وكتابه في التاريخ، ألف فيه أخبار الملوك بالأندلس والمغرب من لدن دخول الاسلام إليهما، واستوعب أخبار سبتة، وقضاتها وفقهائها، وجميع ما جرى فيها من الأمور، وغير ذلك»^(٢)

والمعروف عن القاضي عياض أنه كثيرا ما كان يشير إلى كتبه، إلا أنه لم يشر إلا إلى كتاب واحد له في التاريخ، وذلك في معرض حديثه عن عبد الله ابن ياسين^(٣).

وهناك كتاب آخر للقاضي عياض، يظهر أن اسمه تعدد أيضا، ذلك هو كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» فقد ذكره بعضهم باسم كتاب العقيدة،

(١) القاضي عياض الأديب ص ١١٥.

(٢) مجهول طبقات المالكية ورقة ٣١٥ نقلا عن المرجع السابق.

(٣) ترتيب المدارك ج ٤ ص ٧٨١.

وذكره أحدهم باسم «القواعد»، وورد في كشف الظنون باسم «الإعلام في حدود الأحكام»^(١).

وقد سبق أن ذكرنا بعض الكتب المنسوبة للقاضي عياض، والتي تردد ذكرها بصفة خاصة لدى المشاركة. وليس من الطبيعي في شيء أن يعرفها المشاركة ولا يذكرها المشاركة، لذلك يرى الأستاذ شقور^(٢) - وهو مغربي - أنه لا تصح نسبتها للقاضي عياض، وهي:

١ - السيف المسلول على من سب الرسول.

٢ - الصفا بتحرير الشفا

٣ - غريب الشهاب.

٤ - مطامح الأفهام في شرح الأحكام.

ويقول: إن القول الفصل فيما يخص كتب عياض، لن يكون ممكنا ما دامت كثير من كنوز المكتبات بعيدة عن أيدي الباحثين، وليس بعيدا أن تظهر في يوم ما مؤلفاته التي تعتبر الآن مفقودة. فهذا معجمه يظهر في مكتبة بالجزائر^(٣). وهذه بعض خطبه تظهر في مراكش.

وهناك كتب أخرى نسبها بروكلمان^(٤) للقاضي عياض، وهي: «شرح مشكلات الصحيحين».

والغالب أن هذا الكتاب هو «مشارك الأنوار»، على أن المشارق في شرح مشكلات كتب الصحاح الثلاثة، كما ذكرنا - لا في شرح الصحيحين فقط.

والكتاب الثاني، الذي انفرد بروكلمان بنسبته لعياض، هو «منهاج العوارف إلى روح المعارف»

وكتب القاضي عياض - كما رأينا - تدرج تحت ثلاثة علوم هي: الحديث،

(١) حاجر خليفة ١/١٢٧.

(٢) القاضي عياض الأديب ص ١١٧.

(٣) مخطوط رقم ٥٨.

(٤) تاريخ الأدب العربي - الجزء الخامس (ترجمته).

والفقه، والتاريخ وهى ليست ترفا فكريا، ولكنها ثمرة وضع ثقافى شهده المغرب فى ظل المرابطين بكل إشكالاته.

فقد كان المغرب يشهد أيام المرابطين - فى عصره - نهاية صراع عنيف على جميع المستويات، ولقد أسفر هذا الصراع عن ميلاد ما يمكن تسميته بمقومات الشخصية الثقافية للمغرب، فقد تحدت معالم هذه الشخصية، وأصبح للمغرب اتجاه المذهبى والثقافى على العموم.

وكتب القاضى عياض تبلور هذه الشخصية الثقافية^(١).

ومعروف أن العصر المرابطى عرف اتجاهات ثقافية متعددة، منها الاتجاه الفقهى، وهو الاتجاه الرسمى، والاتجاه الصوفى، ولم يكن منسجما مع الأول، والاتجاه الكلامى، ويبدو أنه كان يقف موقفا وسطا بين هؤلاء وأولئك. وعياض من هذا الاتجاه، يمثل الاتجاهات الثلاثة كلها.

وكتب القاضى عياض، بما تطرقت إليه من موضوعات وقضايا، تصور أصدق تصوير الاتجاهات المختلفة. ويمكن القول إن «الشفاء» بشكل خاص يصور كل هذه الاتجاهات.

وإذا تجاوزنا التقسيم الشكلى والموضوعى لمؤلفات القاضى عياض، وجدنا أن علمه فيها كان منصباً على تحقيق هدفين اثنين، وهما:

١ - توثيق النصوص نظريا وتطبيقيا، فى مجال الحديث والفقه، ويظهر ذلك جليا فى «المشارك» و«الإلماع» و«التنبيهات». وهدف القاضى عياض من ذلك، وضع نصوص محققة فى الحديث. وفى الفقه، أمام بصر الفقيه، وقدم بعمله هذا خدمة جليلة، لكل من أراد البحث فى الحديث.

٢ - والهدف الثانى: هو الدفاع عن المذهب المالكى، والجزء الأول من كتابه «ترتيب المدارك» كله فى الدفاع عن المالكية، وجميع اللاحقين بعده، عيال عليه فى هذا الباب.

(١) عبد السلام شقور ص ١١٩.

أراد القاضي عياض ترسيخ جذور المالكية في المغرب، فاهتم بالمذهب وبرجاله. ولا يعني هذا أن المالكية كانت غريبة عن المغرب إلى أن جاء عياض.. لا أحد يقول بهذا، لأن جذور المذهب المالكي ترجع إلى عصور سابقة لعصر عياض، ولكن لا أحد ينكر ما لتأليف القاضي عياض من تأثير على وضع المذهب في المغرب.

إن المالكية في المغرب عرفت دوراً جديداً من حياتها على يد عياض، كما قال الباحث الفرنسي برونسفينك في بحثه الهام عن المالكية بالمغرب^(١).

ومن الأكيد أن تأثير مؤلفات القاضي عياض قد تجاوز عصره إلى العصور اللاحقة، وذلك لأن هذه الكتب ظلت طوال العصور منهلاً يغرف منه الأجيال جيلاً بعد جيل، فقد رزق الله كتبه من السر والقبول ما جعل الأجيال اللاحقة تدرسها وتشرحها وتلخصها^(٢).

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن عياضاً ساهم بكتبه إلى حد كبير في صياغة الثقافة المغربية، وطبعها بطابع خاص.

(١) مجلة الأندلس ص ٤٥٣ وما بعدها سنة ١٩٥٩.

(٢) أغلب كتب القاضي عياض عليها شروح وذيول وتلخيصات، فشروح «الشفاء» كثيرة، فقد شرحه المغاربة والمشاركة. وكتاب «ترتيب المدارك» اختصره غير واحد. وحتى الكتيب الصغير «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» عليه شروح كثيرة. [انظر مقدمة التعريف للدكتور محمد بن شريفة]

الفصل السادس

أدبه

يستطيع الباحث المدقق في أدب القاضى عياض، أن يرى أن هناك ثلاثة روافد، تجرى جميعا لتصب في مجرى الأدب عنده.

الأول: الأدب الإنشائى بفرعيه: الشعر، والنثر الفنى.

الثانى: الأدب الوصفى بشقيه: تاريخ الأدب، والنقد الأدبى^(١)

الثالث: الأدب التعليمى.

وهنا فى هذا البحث، أن نقف عند الرافد الأول وهو أدبه الإنشائى.

أولا: شعره

للقاضى عياض شعر كثير، ولكن يبدو أنه ضاع منه الكثير، لعدة أسباب أهمها.. عدم اهتمام القاضى عياض نفسه بأن يُعرف أنه شاعر، لذلك لم يُؤله اهتمامه، ولم يدونه، ولم يقيده. وفى ذلك يقول أبو عبد الله - ابنه - فى «التعريف»:

«كان شعره - رحمة الله عليه - فى شبيبته كثيرا، لكنى لم أجد منه بخطه إلا يسيرا» ثم يضيف:

«وأكثر ما عندى منه، إنما أخذته عن أصحابه - لا عنه، لأنه لم يدونه، ولا قيده، ولا أرى أن يؤثر عنه، ولا أعتقده»^(٢)

(١) انظر البحث القيم الذى كتبه الأستاذ عبد السلام شقور وعنوانه «القاضى عياض الأديب» الفصل الخاص «بالنقد عند القاضى عياض».

(٢) التعريف ص ١٠٣.

وهذا القول يؤكد أن القاضي عياض لم يهتم بجمع شعره، بل ما كان يرى أن يؤثر عنه - حتى لا يعرف أمام القوم بأنه شاعر، بل كان يكفيه أن يعرفه الناس قاضيا وإماما محدثا، فقيها عالما بالقرآن.

ويرى الأستاذ عبد السلام شقور، أن قول أبي عبد الله، فيه شيء من المبالغة، وإذا صحَّ هذا الموقف بالنسبة للفقهاء في المغرب، فإنه لا ينطبق على القاضي عياض، ولعل كلام أبي عبد الله - ابنه - ينطبق على لون خاص من الشعر - لا على الشعر بصفة عامة، وإلا فمن المعروف أن القاضي عياض كان يرأسل أصدقاءه شعرا، كما أنه ضمَّن كتبه الكثير من شعره. وهذا الشعر الكثير، الذي ضمنه حنينه وتشوقه الشديد إلى الروضة الشريفة، وهو أكثر ما بقي من شعره، لا يمكن إلا أن يكون عياض راضيا عنه.

وقد ذكر ابنه، أنه يروم جمع شعر والده، أو ما اجتمع له منه على الأصح في ديوان^(١) إلا أننا لا نعرف إن كان قد وفى بما قال، أم لا، فلا أثر لهذا الديوان في المجامع التي اهتمت بأدبه.

وقد ذكر ابن جابر الوادياشي، في برنامجه - أنه جمع ما صدر عن عياض من شعر، وأثبتته في آخر نسخته من الشفاء، إلا أنه لا أثر لهذه النسخة من الشفاء، ولا لترجمة القاضي عياض التي كتبها ابن جابر كذلك^(٢)

وهذه الأقوال وغيرها تدل على أن القاضي عياض خلف شعرا كثيرا، وذلك ليس بغريب، إذا علمنا أن عياض أكثر من قول الشعر في شبابه، نظرا لتوفر حوافز قول الشعر.. وكذلك الحال في شيخوخته، فقد ألجأته ظروف عديدة، وعوامل شتى، سياسية، وغير سياسية إلى قول الشعر، من أجل استعطاف عبد المؤمن، ومن أجل دفن الأُمّة في بحر الشوق إلى الرسول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والدليل على ذلك هذه المطولات من المدائح النبوية، المشحونة بالآلام والآمال.

(١) التبريد ص ١٠١

(٢) الوادياشي: برنامجه ص ٢١٨.

* أما مصادر شعره، فيمكن تحديدها فيما يلي:

١ - كتاب ولده «التعريف»، فقد أورد له مقطوعات شعرية، مختلفة الطول والفرض والبناء الشعري، وكأنما أراد ابنه أن يقدم للقارئ نماذج جامعة لفنون الشعر عند والده، فجاءت المقطوعات الشعرية - التي أثبتتها - متنوعة الأغراض بين الحنين والتوسل، والنسيب، ومشملة على نماذج من المتشابه، أو لزوم ما لا يلزم^(١)

٢ - كتاب قلائد العقيان - لابن خاقان - فقد أثبت الفتح في كتابه ست مقطوعات شعرية، للقاضي عياض. مجموع أبياتها تسعة وعشرون بيتاً، ليس منها بيت واحد مذكور في التعريف.

٣ - كتاب أزهار الرياض، للمقري، حيث اعتمد على المصدرين السابقين فيما أورده من شعر، وإن كان قد زاد عشر قطع شعرية أخرى لم ترد فيهما، بل نقلها عن جماعة ممن جمعوا نظمهم.^(٢)

٤ - أما المصدر الرابع فهو كتبه، فقد ضمن كتبه بعض شعره، الذي له صلة بمواضيعها.

* ففي كتاب الشفا، أثبت القطعة الشعرية التي مطلعها:^(٣)

يَادَارُ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ هُدًى الْأَنَامِ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ

* وضمن كتابه ترتيب المدارك قصيدتين أخريين، مطلع الأولى:^(٤)

إِذَا ذُكِرَتْ كُتِبَ الْعُلُومُ فَخَيْرُهَا كِتَابُ الْمَوْطَأِ مِنْ تَصَانِيفِ مَالِكٍ

ومطلع الثانية:^(٥)

يَا سَائِلًا عَنْ حَمِيدِ الْهُدَى وَالسَّنَنِ اطْلُبْ هُدَيْتَ - عُلُومَ الْفَقْهِ وَالسَّنَنِ

(٤) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٧٨.

(٥) ترتيب المدارك ج ١٧١٢

(١) التعريف ص ١٠٠

(٢) الأزهار ج ٤ ص ٢٥٤

(٣) الشفا ٥٨/٢

* وضمن كتابه الإلماع قصيدة، يستهلها بقوله: ^(١)

يا طَالِبَ الْعِلْمِ اسْتَمِعْ قَوْلَ إِمْرِي مُحَضَّ النَّصِيحَةِ لِلْمُرِيدِ الرَّاعِبِ

٥ - أما المصدر الخامس، من مصادر شعره، فهي المجامع المختلفة، التي تضمنت كثيرا من شعره وفيها يلي بيان بما عثر عليه الأستاذ شقور من شعر في هذه المجاميع.

١ - قصيدة من سبعة عشر بيتا مطلعها ^(٢):

قِفْ بِالرَّكَابِ فَهَذَا الرَّبْعُ وَالْدَّارُ لَاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ أَنْوَارُ

٢ - قصيدة من تسعة وثلاثين بيتا، مطلعها ^(٣):

يَا عَيْنُ هَذَا السَّيِّدُ الْأَكْبَرُ وَهَذِهِ الرُّوضَةُ وَالْمَنْبَرُ

٣ - قصيدة من خمسين بيتا، ومطلعها ^(٤):

هَذَا الَّذِي وَخَذَتْ شَوْقًا لَهُ الْإِبْلُ هَذَا الْحَبِيبُ الَّذِي مَآئِنُهُ لِي بَدَلُ

٤ - قصيدة من خمسة وعشرين بيتا، مطلعها ^(٥):

بُشْرَاكَ يَا قَلْبُ. هَذَا سَيِّدُ الْأَمْرِ وَهَذِهِ حَضْرَةُ الْمُخْتَارِ فِي الْحَرَمِ

٥ - قصيدة من سبعة عشر بيتا، وتبتدئ بالبيت التالي ^(٦):

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ اسْتَمَطَرُ الْفَضْلَا وَاسْتَكْشِفُ الْبَلَوَى وَأُسْتَقْطِفُ الطُّولَا

(١) الإلماع ص ٤٣.

(٢) مجموع مخطوط بخزانة ابن يوسف براكش رقم ٣٥٩، ومجموع بالمكتبة العامة بنطوان رقم ٥١٨، ومجموع بالمكتبة العامة بالرباط رقم ٧٧٤ ومجموع آخر بنفس المكتبة رقم ٢٤٤٥ د. أنظر كتاب القاضي عياض الأديب ص ٢٢١.

(٣) مجموع بخزانة مولاي يوسف براكش رقم ٣٥٩

(٤) مجموع بخزانة ابن يوسف براكش رقم ٣٥١

(٥) مجموع بخزانة ابن يوسف براكش رقم ٣٥٩

(٦) مجموع بالمكتبة العامة بالرباط رقم ١٦٥٤ د

٦ - قطعة شعرية من خمسة أبيات، مطلعها^(١):

أُولِيَاءَ اللَّهِ إِنِّي مَرِيضٌ وَالْدَاءُ لَدَيْكُمْ وَالشِّفَاءُ

٧ - وقد أورد ابن المؤقت مقطوعة شعرية نسبها للقاضي عياض، دون أن يحدد مصدره، ومطلعها^(٢):

تَقَاعَدَ عَنِ الْأَسْفَارِ إِنْ كُنْتُ طَالِبًا نَجَاةً، فَفِي الْأَسْفَارِ سَبْعَ عَوَائِقِ

٨ - ومما وُجد منسوباً للقاضي عياض، الأبيات الثلاثة الآتية^(٣):

لِحَبْرَةٍ تُجَالِسُنِي نَهَارًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْسِرِ الصَّدِيقِ
وَرُزْمَةٌ كَاغِدٌ فِي الْبَيْتِ عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَمَلِ الدَّقِيقِ
وَلَطْمَةٌ عَالِمٌ فِي الْحَدِّ مِنِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَأْسِ الرَّحِيقِ

٩ - وهناك بيتان نسبهما إليه عبد الله كنون في النبوغ، وهما^(٤):

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَادْكُرْتَنِي لَيْلَى وَصَلَّهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ
كِلَانَا نَاطِرٌ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعَيْنَهَا وَرَأَتْ بَعَيْنِي

١٠ - وهناك أبيات أربعة عزاها مؤلف كتاب يتيمة العقود الوسطى لعياض، وذكر مؤلفه أن القاضي عياض نظمها بـ «داى» أيام قضائه بها، ومطلعها^(٥):

رَبِّ وَرَقَاءَ هَتُوفٍ فِي الضُّحَى ذَاتِ شَجْوٍ صَرَخَتْ فِي فَنِّ

(١) مجموع بالمكتبة العامة بالرباط، رقمه ٢٣٢٨ د

(٢) السعادة الأبدية ص ٧٧

(٣) عبد الصمد التهامي، كتاب النسق العالي والنفس العالي ص ٤١١. ونسبها إليه أيضا كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ج، ١٧٦٥٥

(٤) النبوغ المغربي ج ٣ ص ٥٣

(٥) المعزى في أخبار أبي يعزى ص ١٥

وما من شك في أن هذا القدر من الشعر كاف لاستخلاص تصور واضح عن القاضى عياض الشاعر. خصوصا أن هذا الشعر موزع بين أغراض شعرية شتى.

والناظر في شعر الرجل، يلاحظ أن الأغراض الشعرية في شعره متداخلة، ففي شعره الدينى، نجد في القصيدة الواحدة توسلا وتأملا، ومدحا للرسول، وهى أغراض كلها على أى حال متقاربة، والمعتمد في تصنيف شعره الآخر، النزعة الغالبة على القصيدة، ذلك أن النص الشعرى الواحد، يمكن وضعه في باب النسيب، إلى جانب الإخوانيات، كما يمكن ضمه إلى المديح. وسنقف الآن عند بعض أغراض الشعر عنده.

(أ) المدائح النبوية في شعر القاضى عياض

لم يقيض الله - جلّت مشيئته - للقاضى عياض أن يزور الرسول المصطفى - ﷺ - أو يتمتع بروضته الشريفة في مسجده بالمدينة المنورة، وقد ظل الشوق إلى الروضة الشريفة يؤرقه طوال حياته، ويبدو أن هذا الشوق كان يتأجج في قلبه كلما تقدم به العمر.

ولم تذكر المصادر الأسباب التى حالت دون حج بيت الله الحرام، وزيارة الرسول - ﷺ - إلا ما ذكره محمد الأمين الصحراوى^(١)، من أن القاضى عياض، كان قد عزم على الرحلة بقصد الحج والزيارة، فمنعه الموحدون. ولعل الصحراوى استنتج ذلك، من قوله في قصيدته الثائية^(٢):

يا دارَ خيرِ المرسلينَ ومَن به	هذى الأنامُ وخُصَّ بالآياتِ
عِنْدِي لأجلِكَ لوعةٌ وصَبابةٌ	وتَشَوَّقٌ متوقِّدُ الجمراتِ
وعلى عهدٍ أن ملأتُ محاجرِي	من تلكم الجدرات والعِصاتِ

(١) المجد الطارف والثالث ص ٤٠١

(٢) الشفا ج ٢ ص ٥٨.

لا عفن مَصُونٍ شَيْئِي بَيْنَهَا مِنْ كَثْرَةِ الثَّقِيلِ والرُّشَفَاتِ
لولا العوادي والأعداى زرتها أبداً ولو سَخَباً على الوجناتِ

فالبيت الأخير قد يستنتج منه ذلك.

إن الذى لا شك فيه، أن القاضى عياض عاش حياته فى شوق دائم، وحنين مستمر إلى زيارة الرسول - ﷺ، لذلك وجد فى سيرته نوعاً من الصبر والعزاء على ما يكابده من شوق، ووجد فى مديحه الصبر والسلوان، بعد أن سلبته ظروف الحياة، كل أمل فى زيارته، فراح يقول:

أَتَرَانِي وَمَا عَسَى أَنْ تَرَانِي أَخِذَا مَرَّةً أَمَانَ الزَّمَانِ
صَرَفْتَنِي صُرُوفَهُ كُلِّ عَلَيٍّ مِنْ شَبَابٍ وَصَاحِبٍ وَأَمَانِ

وراح يترجم عواطفه وحنينه، ولواعج نفسه شعراً فى مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم. ويردد فى كل مناسبة^(١)

بُشْرَاكَ يَا قَلْبُ هَذَا سَيِّدُ الْأَمَمِ وَهَذِهِ حَضْرَةُ الْمُخْتَارِ فِي الْحَرَمِ
وَهَذِهِ الرُّوضَةُ الْغَرَاءُ طَاهِرَةٌ وَهَذِهِ الْقُبَّةُ الْخَضْرَاءُ كَالْعَلَمِ
وَمَنْبَرُ الْمُصْطَفَى الْهَادِي وَحُجْرَتُهُ وَصَحْبُهُ وَالْبَقِيعُ دَائِرُ ۞
فَطَبَّ وَغَبَّ عَنْ عُمُومٍ كُنْتَ تَعْرِفُهَا وَسَلَّ تَلَّ كُلُّ مَا تَرْجُوهُ مِنْ كَرَمِ

والبيت الأخير ذو دلالة خاصة بالنسبة لما كانت عليه نفسية الرجل.

* وتشابهه مطالع مدائحه فى هذا المجال، فنراه دائماً يصيح معبراً عن فرحته بزيارة الحبيب المصطفى - ﷺ - من مثل قوله:^(٢)

هَذَا الَّذِي وَخَذَتْ شَوْقًا لَهُ الْإِبِلُ هَذَا الْحَبِيبُ الَّذِي مَامَتْهُ لِي يَدُلُّ
هَذَا الَّذِي مَارَاتْ عَيْنٌ وَلَا سَمِعَتْ أَذُنٌ بِأَكْرَمٍ مِنْ كَفِّهِ إِنْ سَأَلُوا

(١) انظر الملحق الخاص بشعره فى دراسة الأستاذ شقور ص ٣٣٩

(٢) ملحق الشعر ص ٣٤٢

* ويبدو أن القاضى عياض كان يجد في هذا المديح بعض العزاء في الارتواء
عن بُعد^(١)

إِنْ لَمْ تُعَايِنْ ثَرَاهُ الْعَيْنُ يَا أَسْفَى أَوْ لَمْ تَزُرْهُ فَإِنَّ الشَّوْقَ زَوَّارٌ
* لقد وصلتنا كثير من قصائد القاضى عياض، في التشوق إلى الرسول
المصطفى - ﷺ - كاملة لحسن الحظ، وقارئها يجد أنه بصدد نسيج واحد،
فالمعاني متشابهة متقاربة، والبناء الفنى يكاد يكون هو هو في جميع ما وصل إلينا
من شعره في هذا الباب.

والباحث المتأمل، يستطيع أن يدرك أن كل مديحة منها تتكون من أربعة
عناصر:

العنصر الأول: فرحة الشاعر الكبرى بأشرافه على الأماكن المقدسة:

فمرة يعبر عن هذه الفرحة بقوله:^(٢)

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ قَدْ لَاحَتْ قِبَابُهُمْ فَانْزِلْ فَقَدْ نَلَتْ مَا تَهْوَى وَتَحْتَارُ
هَذَا الْمُحْصَبُ، هَذَا الْخَيْفُ، خَيْفٌ، مِنِى هَذِى مَنَازِلُهُمْ، هَذِى هِىَ الدَّارُ

ومرة بقوله:^(٣)

بَادِرٌ وَسَلَّمٌ عَلَى أَنْوَارِ رَوْضَتِهِ قَبْلَ الْمَاتِ. فَلَا تُشْغِلْكَ أَعْدَارُ

ومرة يقول:^(٤)

يَا عَيْنُ هَذَا السَّيِّدُ الْأَكْبَرُ وَهَذِهِ الرَّوْضَةُ وَالْمَنْبَرُ
فَشَاهِدِي فِي حَرَمِ الْمُصْطَفَى مِنْ نُورِهِ السَّاطِعِ مَا يُبْهِرُ
يَا عَيْنُ ذَا مَا كُنْتَ تَبْغِيهِ فَمَا لِأَجْفَانِكَ لَا تُمِطِرُ

(١) ملحق الشعر ص ٣٣٢. وأنظر ملحق الشعر الملحق بهذه الدراسة.

(٢) ملحق الشعر ص ٣٣١

(٣) الملحق الشعرى ص ٣٣١.

(٤) الملحق الشعرى ص ٣٣٣.

ولا يخفى على القارئ ما في هذه المطالع من تشابه كبير، وذلك ما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن هذه المدائح نسيج يد واحدة، وإخراج عقل واحد. والظاهرة الواضحة في هذه المقدمات، استخدام القاضي عياض لاسم الإشارة «هذا» في أكثر من مطلع، ولعل هذا كان يوحى إليه بالقرب من الرسول الكريم، زيادة على التعظيم.

وظاهرة ثانية في هذه المطالع، وهي قدرة الشاعر على استحضر الغائب البعيد، متخطيا ومخترقا حاجز الزمان، ونطاق المكان. استمع إلى قوله مرة أخرى: (١)

قَفَّ بِالرَّكَّابِ فَهَذَا الرَّيْحُ وَالْدَّارُ لَاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ أَنْوَارُ
بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ قَدْ لَاحَتْ قِيَابُهُمْ فَاَنْزِلْ، فَقَدْ نِلْتَ مَا تَهْوَى وَتَخْتَارُ
هَذِهِ قِيَابُ قُبَا آثَارُ وَطَنِهِمْ وَذَا هُوَ الْجِرْعُ، فَابْكِ، ذَا هُوَ الْغَارُ

● والعنصر الثاني: هو مدح الرسول المصطفى ﷺ. ويشغل هذا العنصر حيزا كبيرا في صلب القصائد من مثل قوله في مديحته الرائية: (٢)

كُلُّ مَقَامٍ قَدْ سَمَا قَدْرُهُ فِي هَذِهِ الْحَضْرَةِ مُسْتَصْفَرُ
تَجَمَّعَ الْفَضْلُ بِهَا وَالنَّدَى وَالْجُودُ وَالسُّودُ وَالْمُتَجَرُّ
بِاسْمِكَ يَا رَبِّ قَرْنَتْ اسْمُهُ فَإِنَّهُ يُذَكِّرُ إِذْ تُذَكِّرُ
صِفَاتُهُ الْعُلَيَّا كُلُّ الْوَرَى عَنْ حَضْرَتِهَا، وَالْقَطْرُ لَا يُحْصَرُ
مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى اسْمُهُ بِقَوْلِهِ «فَاَضْدَعْ بِمَا تَوْمَرُ»
بَدْرُ دُجَى، أَضْحَابُهُ أَنْجُمُ بَحْرُ نَدَى، أَمَلُهُ أَبْحَرُ
وقوله في مديحته اللامية: (٣)

هَذَا الَّذِي جَاءَتْ الْأَخْبَارُ وَاتَّفَقَتْ قَدَمَا عَلَى بَعْتِهِ الْأَخْبَارُ وَالْمِلَلُ

(١) يقصد مسجد قباء، وقد قصر الممدود. انظر الملحق الشعري ص ٣٣١.

(٢) الملحق الشعري ص ٣٣٣.

(٣) الملحق الشعري ص ٣٤٢.

هَذَا الَّذِي كَانَ مِنْ سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ مَعَ جَدِّهِ نَبَأٌ مِنْ بَعَثَةِ جَلَلُ
هَذَا مُحَمَّدُ الْمَاجِي وَأَحْمَدُهُمْ هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ الْمَاجِي إِذَا جَهِلُوا
هَذَا الَّذِي فِي قُرَيْشٍ قَدْ سَمَا نَسَبًا أَبَا وَأَمَّا فَمَغْنَى الْمَجِيدِ مُكْتَمِلُ

ويقول في مديحه أخرى رائية^(١)

هَذَا النَّبِيُّ الْحِجَازِيُّ الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ بِتَقْدِيمِهِ فِي الرُّسُلِ أَخْبَارُ
هَذَا الْحَبِيبُ الَّذِي أُسْرَى لِحَالِقِهِ لَيْلًا، وَقَدْ ضُرِبَتْ بِاللَّيْلِ أَسْتَارُ
هَذَا الشَّفِيعُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِلْمُذْنِبِينَ إِذَا مَا اسْوَدَّتِ النَّارُ
بَادِرٌ وَسَلَّمٌ عَلَى أَنْوَارِ رَوْضَتِهِ قَبْلَ الْمَمَاتِ، فَلَا تَشْغَلْكَ أَعْدَارُ

● العنصر الثالث من عناصر مدائحه - هو التضرعات والتوسلات

وهو في هذا المجال يطيل ما شاء الله له أن يطيل. ويبدو أن هذه التضرعات والتوسلات كانت تنفيسا عما في صدره، من هموم وأحزان، خاصة بعد أن سلبه الزمان كل عزيز من الشباب والصاحب والأمان.

سَلَبْتَنِي صُرُوفُهُ كُلَّ عِلْقٍ مِنْ شَبَابٍ وَصَاحِبٍ وَأَمَانٍ
فلا عجب إذا أن تأتي هذه التوسلات حارة صادقة، من مثل قوله في مناجاة الرسول ﷺ^(٢).

يَاسِيدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي فَحَوْضُ فَضْلِكَ مَوْرُودٌ لِكُلِّ ظَمٍ
يَاسِيدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي فَالْعَبْدُ ضَيْفٌ وَضَيْفُ اللَّهِ لَمْ يُضْمِرْ
يَاسِيدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي يَأْمَنُ لِقَاصِدِهِ أَمْنٌ، مِنْ النُّقْمِ
يَاسِيدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ يَأْمَنُ ضَيْفُ سَاحَتِهِ بَيْتٌ فِي الْأَمْنِ، فِي خَيْرٍ وَفِي نِعَمٍ
فَقَدْ أَتَيْتَكَ أَرْجُو مِنْكَ مَكْرَمَةً وَأَنْتَ أَدْرَى بَمَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْمِ
وَالْحَالُ يُغْنِي عَنِ الشُّكْوَى إِلَيْكَ وَقَدْ عَرَفْتَ حَالِي، وَإِنْ لَمْ أَحْكِهِ بِفَمِ

(١) الملحق ص ٣٣١.

(٢) الملحق ص ٣٣٩.

وقوله في مديحته الرائية^(١):

يَا رَحْمَةَ اللَّهِ وَيَا شَافِعَهَا	وَالنَّاسُ فِي حَسْرَتِهِمْ حَيْرٌ
ذَخِيرَتِي حُبُّكَ يَا مُصْطَفَى	فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مَا يَذْخِرُ
يَا كَاشِفَا دَاءٍ مَقِيمًا وَلَا	يُشْفِيهِ إِلَّا مَنْ بِهِ أَخْبِرُ
قَدْ عَجَزْتَ عَنْ طِبِّهِ قُدْرَتِي	رَفَعْتَ شَكْوَايَ لِمَنْ يَقْدِرُ
وَقَدْ تَوَسَّلْتُ إِلَى اللَّهِ فِي	شِفَائِهِ دَائِي بِكَ يَا مُنْذِرُ
فَاشْفَعْ فَإِنِّي بِكَ مُسْتَشْفِعٌ	وَانصُرْ فَإِنِّي بِكَ مُسْتَنْصِرُ
وَارْحَمْ فَإِنِّي بِكَ مُسْتَرْحَمٌ	وَاجْبِرْ فَإِنِّي بِكَ مُسْتَجْبِرُ

● والعنصر الرابع في مدائحه النبوية.. هو الصلاة على النبي

فما من مديحة من مدائحه إلا وختامها الصلاة على النبي ﷺ.

من مثل قوله في قصيدته الرائية^(٢):

وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى الْمُصْطَفَى	وَالَهُ مَا جَادَتِ الْآبُحُرُ
وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ الْأَلَى	لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَتَى يُذْكَرُ
مَا هَامَ صَبٌّ وَهَمَى عَارِضٌ	وَسَارَ رَكْبٌ أَوْ سَرَى عَسْكَرُ

ومن تصلياته في قصيدته الميمية^(٣):

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍّ	خَيْرُ الْبَرِيَّةِ مِنْ غَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
مُحَمَّدُ الْمُصْطَفَى وَالْأَلْ ثُمَّ عَلَى	أَصْحَابِهِ مَا سَرَى رَكْبٌ لِرَبِيعِهِمْ

ومنها قوله في مديحة أخرى^(٤):

صَلِّ عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا سَجَعَتْ	وَرَقٌ، وَمَا نَفَحَتْ فِي الرُّوضِ أَزْهَارُ
وَالَهُ وَعَلَى أَصْحَابِهِ السَّعْدَا	مَا لَاحَ نَجْمٌ وَمَا هَظَلَّ مِذْرَارُ

(١) ملحق الشعر ص ٣٣٤.

(٢) ملحق الشعر ص ٣٣٦.

(٣) ملحق الشعر ص ٣٤٠.

(٤) ملحق الشعر ص ٣٣٢.

وهكذا تتشابه مدائحه في الرسول - ﷺ - في خواتمها، كما تتشابه في بنائها بشكل عام. والواضح من هذا الشعر عامة، أنه يغلب عليه الطابع التقريرى، ويفقد الرواء في قسم كبير منه لأنه شعر عالم فقيه.

ولقد حاول القاضى عياض إنقاذ فنّه الشعرى من هذه التقريرية العلمية، التى أوقعته فى هوة الجفاف، فعمد إلى ضروب من الصناعة البديعية خاصة، من مثل قوله:

ما هَامَ صَبٌّ، وَهَمَى عَارِضٌ وَسَارَ رَكْبٌ أَوْ سَرَى رَاكِبٌ
وقوله:

هَذَا ابْنُ مُرَّةَ الْحُلُوبِ النَّدَا كَرْمًا وَالْمُرُّ بِأَسَا، وَنَارُ الْحَرْبِ تَشْتَعْلُ
وقوله:

هَذَا ابْنُ غَالِبٍ الْمَغْلُوبُ حَاسِدُهُ وَالْوَاهِبُ السَّالِبُ الْآسَادَ مَا حَمَلُوا
وقوله:

هَذَا ابْنُ ذَبِيحٍ اللَّهِ وَابْنُ خَلِيٍّ لَللَّهِ، تِلْكَ خِلَالُ مَا بِهَا خَلَلٌ

والحقيقة أن هذا التعمد من لدن عياض فى اصطیاد هذه الجناسات، لم تفد فى شىء، إذ هى لم تنقذ النص الشعرى من التقريرية التى غرق فيها. ويبدو أن الذى أوقعه فى شراك التكلف هو اتكاؤه على عناصر السيرة النبوية فى هذه القصائد، ويتضح ذلك من قوله:

هَذَا هُوَ ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا أَوْفَى الْبَرِّيَّةِ: إِنْ قَالُوا وَإِنْ فَعَلُوا
هَذَا ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ خَيْرٌ مَنِ نَزَلَتْ بِهِ الْوُفُودُ، فَلَا بُخْلٍ وَلَا مَلَلُ
هَذَا هُوَ ابْنُ قُصَيٍّ سَيِّدُ جَمَعَتٍ بِهِ قَرِيشُ، فَعَادَ الْوَدَّ وَاتَّصَلُوا
هَذَا ابْنُ أَمَّةِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهَا أَبَاؤُهَا غُرُرٌ لِلدَّهْرِ قَدْ جُعِلُوا

فالقصيدة كم نرى نظم للأخبار المتعلقة بالرسول - ﷺ - وما لا شك أن عياضا لم يعرف كيف يستفيد من هذه الأخبار، فاكتفى بترديدها، وكان من

الممكن أن يستلهمها بحيث تتفجر لديه ينبوعا ثرا يغرف منه ما شاء. بيد أن الخيال ينقصه.

وليس فقر الخيال هو وحده الذى يطبع هذه القصائد، ولكن هناك إلى جانب ذلك الألفاظ الجارحة، التى لا ينجح الشاعر فى إخضاعها إلى الوزن الشعرى إلا بمشقة.

ولعل ما نراه من فقر فنى فى هذا الشعر مرده إلى أن القاضى عياض نظمه فى ظروف لم يتح له فيها فرصة التجويد.

إن هذا الشعر - كما يقول الأستاذ شقور^(١)، وليد الظروف التى قال عنها هو نفسه:

لَجَأْتُ إِلَى بَابِ الْكَرِيمِ لِفَاقَتِي فَلَيْسَ لَنَا مَغْنًى سِوَاهُ وَلَا مَوْلَى
كَثِيْبًا غَرِيْبًا بِافْتِقَارٍ وَضِيْعَةٍ ذَلِيْلًا حَقِيْرًا أَهْمِلُ الْفَرَضَ وَالنَّفْلَ

إن لجوء القاضى عياض إلى الرسول - ﷺ - كان نتيجة لما أصابه على يد أمراء الموحدين والدليل على ذلك قوله فى الدعاء عليهم، فى إحدى قصائده الدينية:

فَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلَاكَ صَوَاعِقًا تَصِيرُ مَدَى الْأَعْمَارِ أَخْبَارُهَا تُتْلَى

إنه بصريح العبارة لجأ إلى باب الله فراراً من هؤلاء الذين يدعو عليهم هنا فى هذا البيت.

وأنه نظم مدائحه النبوية فى ظروف اجتمعت عليه فيها المصائب، فلم يجود ما نظم.

ويبدو أن المدائح النبوية - شعرا ونثرا - كانت الباب الذى دلف منه المغاربة إلى ميدان التصوف ومن الأبيات التى تدل على ذلك فى شعر القاضى عياض:^(٢)

(١) القاضى عياض الأديب ص ٢٣٥

(٢) السعادة الأبدية ٧٧

وَمَا زَادَنِي طَرَبًا وَتَبِيهَا وَكَدْتُ بِأَخْصِي أَطَا الثَرِيَا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ: يَا عِبَادِي وَأَنْ صِيرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَا

(ب) النسيب

ولم يكن شعر القاضي عياض وقفا على المدائح النبوية وحدها، بل وجدنا له أشعاراً كثيرة في النسيب، وفي الشكوى والحنين.

يلتزم القاضي عياض، في مقطوعاته الشعرية في باب النسيب، مبدأ أساسيا، هو الشعور بالهجران، يتفنن فيه تفننا كبيرا، ويصطنع أساليب عدة في التعبير عن مرارته، ويحمل الزمان مسئولية ما أصابه، من مثل قوله: ^(١)

وَقَدْ حَالَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّةِ أَلْفَتُهُمْ إِلْفَ الْخَمَائِلِ لِلْقَطْرِ
هُمْ أَوْدَعُونِي تِبَارِيحَ لَوْعَةٍ فَنَأَيْتُهُمْ أَذَكِّي وَأَنْكِي مِنَ الْجَمْرِ
عَلَى أَنْ لِي سَلَوَى بَأَنِّ فِرَاقِهِمْ وَإِنْ طَالَ لَمْ يُزَجِّجْ بِصَدٍّ وَلَا هَجْرٍ
سَأَفْزَعُ لِلرَّيْحِ الشَّمَالِ لَعَلَّنِي أُحْمَلَهَا نَجْوَى تُلْجُلُجُ فِي صَدْرِي

فهو هنا يصور عاطفته، وارتباطه بأحبته، ارتباط القطر بالخمائل، ثم يصف ما يعانیه من ألم الفراق، وتباريح اللوعة، على أنه يجد بعض العزاء إذ إن الفراق لم يأت عن جفاء، وإنما كان ذلك اضطرارا.

وتردد في شعره كثيرا كلمات الوداع، والهجر، واللقاء، والوجد، من مثل قوله: ^(٢)

يَعَزُّ عَلَيْنَا تَنَائِي الدِّيَارِ وَذَاكَ سَلَامُكَ لِي وَالْوَدَاعُ
لَكُمْ أَمْلٌ كَانَ لِي فِي اللَّقَاءِ وَأُمْنِيَةٌ قَدْ طَوَّاهَا الزَّمَاغُ
فَلَمْ أَجِنِ مِنْهَا سِوَى حَسْرَةٍ فَوَجَدُ جَمِيعَ وَأَنْسَ شُعَاغُ
لَنْ حَمَلَ الْقَلْبُ مَا لَا يَطَاقُ فَمَا كَلَفَ الْجَفْنَ لَا يَسْتَطَاعُ

(١) القلائد ص ٢٣٤

(٢) القلائد ص ٢٣٥

ومعروف أن الشعراء القدماء، منذ العصر الجاهلي، قد تفتنوا في وصف لحظات الفراق. وقد استوعب القاضي عياض كل هذه الصور الشعرية، فأخرج لنا على منوالها صوراً تذكرنا بما لدى الجاهليين، من مثل قوله في وداع الأحبة^(١):

أَقُولُ وَقَدْ جَدَّ ارْتِحَالِي وَغَرَّدَتْ حَدَاقِي وَزَمْتُ لِلْفِرَاقِ رَكَائِبِي
وَقَدْ غَمَصْتُ مِنْ كَثْرَةِ الدَّمْعِ مُقْلَتِي وَطَارَتْ هَوَاءً مِنْ فُؤَادِي تَرَائِبِي
وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا وَقْفَةً يَسْتَحِثُّهَا وَدَاعِي لِلأَحْبَابِ، لَا لِلْحَبَائِبِ
رَعَى اللَّهُ جِيرَانًا بِقَرْطَبَةِ الْعَلَا وَسَقَى - رُبَاهَا بِالْعَهَادِ الصَوَائِبِ

* ومن الطبيعي أن يكون الغزل في شعر القاضي عياض عفيفاً، يجنح إلى التلميح دون التصريح، فإذا كان من عادة الشعراء المتغزلين التفتن في وصف مفاتن المحبوبة، فإن القاضي عياض على العكس من ذلك، لا يكاد يعرج على وصف جمال محبوبته، يقول: ^(٢)

يَا خَلِيلِي فَأَحْمَلَا بَعْضَ قَوْلِي لِتِي غَادَرَتْ فُؤَادِي عَلِيلاً
بَلِّغَا عَنِّي الثَّرِيَّا سَلَامًا وَادْكُرَانِي لَهَا وَقُولَا جَمِيلاً
حَلَّتْ أَتَى مَلَكْتُهَا وَإِذَا بِي فِي يَدَيْهَا تَخَيلاً مُسْتَحْيِلاً
لَسْتُ أَنْسَى وَكَيْفَ لِي أَنْ أَنْسَى حِينَ أَلْقَى الدَّجَى عَلَيْهَا السُّدُولَا
هَلْ إِلَى نَظَرَةٍ سَبِيلٌ فَلْيَنِي لَسْتُ أَبْغِي إِلَّا إِلَيْهَا سَبِيلَا

فلا أثر للملامح التي سبته، وملكت عليه مشاعره، وتركته فؤاده عليلاً. والذي لا شك فيه، أن هذا الشعر العاطفي العذري العفيف - إن جاز أن نستخدم هذا التعبير، جعله يبتعد كثيراً عن الإحراج، الذي قد يشعر به، وهو رجل علم ودين، وفقه محدث، لذلك كان المجال فسيحاً في هذا الغرض، بعيداً عن الحرج، عند تصوير عواطفه. من مثل قوله في تصوير الأثر الذي أحدثته في قلبه حبيبة حرقت قلبه وأرقته: ^(٣)

(١) المرجع السابق

(٢) الأزهار ٢٤٤/٤

(٣) الأزهار ٢٤٧/٤ والتعريف ص ١٠٠

يا مَنْ تَحْمِلُ عَنِّي غَيْرَ مُكْتَرِبٍ لَكِنَّهُ لِلضُّنَى وَالسُّقْمِ أَوْصَى بِي
 تَرَكْتَنِي مُسْتَهَامَ الْقَلْبِ ذَا حُرْقٍ أَخَا جَوَى وَتَبَارِيحٍ وَأَوْصَابٍ
 أَرَأَيْتَ النِّجْمَ فِي جُنْحِ الدُّجَى سَهْرًا كَأَنِّي رَاصِدٌ لِلنَّجْمِ أَوْصَابِي
 وَمَا وَجَدْتُ لَذِيذَ النَّوْمِ بَعْدَكُمْ إِلَّا جَنَى حَنْظَلٍ فِي الطَّعْمِ أَوْصَابٍ

والظاهر أن القاضى عياض لم يمر بتجربة عاطفية، وإنما كان يحاكي الشعراء الآخرين، الذين يرسمون معالم تجربة خاصة عاشوها، حتى لا يفوته لون من ألوان الشعر، دون أن ينظم فيه، والدليل على ذلك المقطوعة السابقة، التي حاول فيها إبراز البراعة عن طريق اصطناع قيود بالغ في الاحتفاء بها، ولم يظهر فيها أى معلّم من معالم التجارب العاطفية التي عاشها. ويصور ذلك أيضا قوله: ^(١) أذات الخال كم ذا تنضيها على سيف عيناك انتضاء بمطالك لي مواء اقتضيها من التوريد واللّمس اقتضاء ففضى وعدّ مطالك وانجزيه خيار الناس أحسنهم قضاء

والحديث عن المحبوبة - في شعر القاضى عياض - متصل كما ذكرت بالهجران، ولعل ساعة الهجر أكثر إثارة للشعور من ساعات الوصال، وهذا الموقف عنده يذكرنا بموقف الوداع في الشعر القديم، وفي هذا يقول: ^(٢) يا راحلين وبالفؤاد تحملوا أيرى لكم قبل المات قفول أما الفؤاد فعندكم أنباؤه ولواعج تتأبه وغليل فيرى لم علم بمنترج الكرى عن جفن صب ليله موصول أودى بعزمه صبره وإباؤه طرف أحم ومبسم مضقول ما ضرّكم أو ضنكم بتحية يحيا بها عند الوداع قتيل إن البخيل بلحظة أو لفظة أو عطفة أو وقفة لبخيل

(١) التعريف ٩٩

(٢) التعريف ص ١٠١، والأزهار ج ٤ ص ٢٥١

* في الشكوى والحنين:

وللقاضى عياض إلى جانب النسيب، لون وجداني آخر، يفيض عذوبة ورقة، هو شعره في الشكوى والحنين للأصدقاء وللبلاد التى زارها.
ومن أحسن أشعار هذا الفن، تلك الأبيات التى نظمها شوقا إلى «سبتة»، بعد أن فارقتها. وهى تصور إحساسه بالغربة ومرارتها، يقول: ^(١)

أَتَرَانِي وَمَا عَسَى أَنْ تَرَانِي آخِذَا مَرَّةً أَمَانَ الزَّمَانِ
صَرَفْتَنِي صُرُوفَهُ كُلُّ عِلْقٍ مِنْ شِبَابٍ وَصَاحِبِ وَأَمَانِ
كَلِمًا حُزْتُ بُغْيَتِي بِفُلَانٍ عُلِقْتُ كَفَّهُ بِذَاكَ الْفُلَانِ
كُلَّ يَوْمٍ طَلِعْتُ لِفِرَاقِي وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ تَرَى لِلتَّدَانِي
وقد فجرت ظروف النفى فى قلبه ينبوعا من الشعر، خاصة فى أخريات حياته، فراه يناجى حمامة، وهو بـ «دأى» فى طريقه إلى منفاه براكش، ويبشها لواعجه وحنينه، فيقول ^(٢)

أَقْمَرِيَّةُ الْأَدْوَاخِ بِاللَّهِ طَارِحِي أَخَا شَجَنِ بِالنُّوحِ أَوْ بِغَنَاءِ
فَقَدْ أُرْقَتْنِي مِنْ هَدِيكَ رَنَّةً تَهْيَعُ مِنْ بَرَحِي وَمِنْ بُرَحَائِ
لَعَلَّكَ مِثْلِي يَا حَمَامُ فَإِنِّي غَرِيبٌ بـ «دأى» قَدْ بُلِيتُ بِدَائِ
فَكُمُ مِنْ فَلَاةٍ بـ «دأى» وَ«سبتة» وَخَرَقَ بَعِيدِ الْخَافِقِينَ قِوَاءِ

إلى أن يقول متشوقا إلى سبتة:

يَذْكُرُنِي سَحَّ الْمِيَاءِ بِأَرْضِهَا دُمُوعًا أُرِيقَتْ يَوْمَ بِنْتِ وَرَائِي
وَيَعْجِبُنِي فِي سَهْلِهَا وَحُزُونِهَا خَمَائِلُ أَشْجَارٍ تُرْفَ رَوَائِي
لَعَلَّ الَّذِي كَانَ التَّفَرُّقُ حُكْمَهُ سَيَجْمَعُ مِنَّا الشَّمْلَ بَعْدَ تَنَائِي

(١) الأزهار ج ٤ ص ٢٤٤

(٢) التعريف ص ٩٨، والأزهار ٢٦٧/٤

ويصل التواجد قمته بينه وبين الحماة فيقول في مقطوعة أخرى^(١)
 وَلَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمُهَا وَلَقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُنِي
 غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَى أَغْرِفُهَا وَهِيَ أَيْضًا بِالْجَوَى تَعْرِفُنِي
 * في العلم والحض عليه:

وللقاضى عياض أشعار كثيرة في الحض على العلم، وبذل الجهد في سبيله،
 وهى وإن كانت ليس لها قيمة فنية، إلا أنه لابد من ذكرها كلون من ألوان
 الشعر عنده.

يقول في تقرير الموطأ^(٢):

إِذَا ذَكَرْتَ كُتُبَ الْعُلُومِ فَخَيْرُهَا كِتَابُ الْمَوْطَأِ مِنْ تَصَانِيفِ مَالِكٍ
 أَسَانِيدُ أَمْثَالِ الرُّوَاسِ صَحِيحَةٌ وَرَأَى كَأَنوَارِ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ
 هُوَ الْحِجَّةُ الْغَرَاءُ وَالْعَصْمَةُ الَّتِي يَنْجِي هِدَايَا مِنْ جَمِيعِ الْمَهَالِكِ
 وَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَوْضِيحِ الطَّابِعِ التَّقْرِيرِ الْخَالِصِ لِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ، فَلَمْ
 تَسْتَطِعِ التَّشْبِيهَاتُ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا مِنْ إِشَاعَةِ الدَّفءِ فِيهَا، فَظَهَرَتْ وَكَأَنَّهَا
 مَعَادِلَاتُ رِيَاضِيَّةٍ.

ومن هذا اللون العلمى التقريرى، قوله في الحض على الاهتمام بعلوم الفقه
 والسنة^(٣).

يَاسَانِلَا عَنْ حَمِيدِ الْهَدَى وَالسَّنَنِ اطْلُبْ - هُدَيْتَ - عُلُومَ الْفَقْهِ وَالسَّنَنِ
 وَاسْلُكْ سَبِيلَ الْأَلَى حَازُوا نَهْيَ وَتَقَى كَانُوا، فَبَانُوا حَسَانَ السَّرِّ وَالْعَلَنِ
 هُمُ الْأُتْمَةُ وَالْأَقْطَابُ مَا انْخَدَعُوا وَلَا شَرُّوا دِينَهُمْ بِالْبَخْسِ وَالْغَبَنِ
 أَصْحَابُ خَيْرِ الْوَرَى أَخْيَارُ مِلَّتِهِ خَيْرُ الْقُرُونِ نَجُومُ الدَّهْرِ وَالزَّمَنِ

(١) يتيمة العقود الوسطى ص ٣٢٦.

(٢) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٧٨.

(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ص ١٦٨.

من اهتدى بهداهم مهتد وهم
ومالك المرتضى لا شك أفضلهم
نجاة من بعدهم من غمرة الفتن
إمام دار الهدى والوحي والسنن

ومن ذلك قوله^(١):

لمحبرة تجالسنى نهاراً
ورزمة كاغد في البيت عندي
ولطمة عالم في الخد مني
أحب إلى من أنس الصديق
أحب إلى من حمل الدقيق
أحب إلى من كأس الرحيق

ومنه قوله أيضاً^(٢):

خير ما يقتنى اللبيب كتاب
خطه عارف نبيل وعناه فصيح
لم يخنه اتقان نقط وشكل
فكان التخريج في طرته
محكم النقل متقن التقيد
التبييض بالتسويد
لا، ولا عاباً لحاق المزيد
طرر صُففت ببيض الحدود

(١) النسق العالي والنفس العالي في شرح نصيحة أبي العباس الملالى ص ٤١١.

(٢) الإلماع ص ١٦٥.

ثانياً: نثره «رسائله.. وخطبه»

وللقاضى عياض مجموعة غير قليلة من الرسائل والخطب، التى احتضنتها كتب الأدب والتاريخ، والفقه والمجاميع. وقد كان للأستاذ عبد السلام شقور الفضل فى استخراجها وجمعها، ثم تحقيقها وتنسيقها. ثم دراستها^(١).

وأقدم المصادر التى احتفلت برسائل القاضى عياض وخطبه:

١ - كتاب قلائد العقيان، للفتح بن خاقان.

٢ - التعريف الذى ألفه ابنه أبو عبد الله.

وعلى هذين المصدرين اعتمد المقرئ فيما أثبتته من رسائل وخطب للقاضى عياض، وإن كان قد أضاف إليهما ما وجده فى بعض المجاميع بفاس.

ومن المرجح أن ما يتجمع لدى الدارس من كل ذلك، لا يمثل إلا قسماً ضئيلاً من نثر القاضى عياض، ذلك أنه من الثابت أن له أكثر من ذلك. فهذا كتاب خطبه، الذى ذكره غير واحد، لا أثر له، وليس لدينا منه إلا خطب قليلة.

وقد كان القاضى عياض - كما ذكر مترجموه - لا يخطب إلا من إنشائه، ودواعى الخطابة كثيرة كما لا يخفى، خاصة وأنه كان سياسياً، بالإضافة إلى كونه إماماً.

ومن هذا المنثور، الذى كتبه ابنه فى التعريف ترسيل والده، يقول:

«كتبت من ترسيله، رحمة الله عليه، هذه الفصول لتنبئ عن مكانته من الآداب، واكتفيت. بما أثبتته مخافة التطويل والإسهاب، وإني لأروم جمع ترسيله فى

(١) انظر دراسته فى بحثه القيم «القاضى عياض الأديب» فصل النثر الفنى ص ١٥٥.

ديوان يشتمل من كلامه على العجب العجائب، الذى اعترف له بالسبق فيه زعماء الأدباء والكتاب»^(١).

هذا ولم يُعثر على هذا الكتاب الذى يضم رسائله، ولعله ضاع كما ضاع الكتاب الذى يضم خطبه.

١ - رسائله:

كانت لدى القاضى عياض دواع كثيرة لكتابة الرسائل، ذلك أنه عالم فقيه محدث، بلغت شهرته الآفاق، وكان ذلك يحتم عليه الكتابة، ومشاركة الأدباء فى هذا اللون الفنى، المتمثل فى المباريات الأدبية، التى كانت رائجة فى عصره. ورسائل القاضى عياض تدور فى مجالات ثلاثة.. كل منها قائم بذاته وله خصائصه وسبته:

أولها : مكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وثانيها: مكاتبة الأدباء فى مواضيع خاصة.

وثالثها: مكاتبة العلماء فى قضايا علمية.

وأهم هذه الأنواع وأكثرها اتصالا بموضوعنا هو النوع الأول.

وهذا النوع يبدو أنه كان شائعا لدى الأندلسيين والمغاربة منذ العصر المرابطى.

ويعلل القلقشندى سبب ذلك بقوله: «وأكثر الناس تعاطيا لذلك، أهل المغرب، لبعد بلادهم، ونزوح أقطارهم»^(٢).

والباحث المتأمل فى هذه الرسائل يجد أن الكاتبين - ومنهم القاضى عياض، كانوا يحنون حيناً قويا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتشوقون إلى زيارة مسجده الشريف، للسلام عليه فى قبره الشريف.

(١) التعريف ص ١٩٥.

(٢) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٩.

ونظرة فاحصة فيما كتبه القاضي عياض من رسائل إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - يجد أن بناءها يتكون من أربعة عناصر: «الاستهلال، والتصدير، ثم غرض الرسالة، ثم الخاتمة» (أ) الاستهلال:

يقول القاضي عياض مستهلاً رسالته: «إلى سيد ولد آدم، وشفيع العالم، البشير النذير» وينتهي هذا الاستهلال بقوله: «من الشائق إلى زيارته، الراجي دعوته، عياض بن موسى»^(١). وهكذا يقدم اسم الرسول - ﷺ - على اسمه تأديباً، وتوقيراً له واحتراماً. (ب) التصدير:

بعد الاستهلال المذكور، يصدر عياض رسالته، بقوله:^(٢) «بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلوات وأزكى التسليم، على المصطفى محمد نبيه الكريم، سيد المرسلين، وإمام المتقين». (ج) غرض الرسالة:

وفي هذا القسم من الرسالة، وهو أهمها، يبين القاضي عياض، شوقه إلى الرسول المصطفى - ﷺ - ثم يشرع في الدعاء والتوسل^(٣) - يقول: «يا محمداه طال شوقي إلى لقائك، ويا أحمداه ما كان أسعدني لو متّع المسلمون ببقائك. ويا نبياه عليك مني أفضل الصلوات والبركات والتسليم، ويا حبيباه اذكرني عند ربك في مقامك المحمود، ويا شفيعاه اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظيم.»

وهذا القسم كله ابتغال من قلب مفعم بحب الرسول، متأجج الشوق

(١) أزهار الرياض ج ٤ ص ١١.

(٢) أزهار الرياض ج ٤ ص ١١.

(٣) أزهار الرياض ج ٤ ص ١١/٤.

لزيارته، وهو شوق - لاشك في قلب كل مسلم، فكيف بمن كان مثل القاضي عياض في علمه وسنه،^(١) وصدق إيمانه، وطهارة نفسه؟

(د) الخاتمة: تحية وسلام:

وينهى القاضي عياض رسالته بتوجيه تحياته إلى الرسول - ﷺ - فيقول: «ثم السلام الأحفل الأكمل مردداً، عدد القطر والحصى كثرة وعدداً، عليك يا نبي الهدى...»^(٢)

تلك هذه العناصر الأساسية لرسالة القاضي عياض إلى الرسول ﷺ، وهي في الواقع عناصر كل رسالة.

ومادة الرسالة مستمدة من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والسيرة النبوية بشكل خاص، والدليل على ذلك، قوله:

«صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة والفضيلة والكوثر، ورافع لواء الحمد يوم المحشر، المرسل إلى الأسود والأحمر، الآتي بالآيات والنذر، المتحدى بالمعجزات جميع البشر، المبعوث بجوامع الكلم، الشاهد على جميع الأمم...»

ومنها قوله أيضاً:

«من لم يجعل الله به علينا من حرج، وأسرى به من الفرش إلى العرش وعرج، واستسقى الغمام بوجهه فجمع، وانشق القمر لتصديقه نصفين ثم اجتمع...»^(٣)

والرسالة من هذا اللون تقوم في أسلوبها على السجع، والسجع في رسالة القاضي عياض ليس من النوع المعقد، الذي نجده مثلاً في باقي رسائله، فليس

(١) يبدو أن عياض توجه إلى الروضة الشريفة بقلبه في أخريات حياته، وكان ذلك لجوءاً إلى من يمنحه بعض الاطمئنان والراحة النفسية.

(٢) أزهار الرياض ١٩/٤

(٣) أزهار الرياض ١٩/٤

فيه ذلك التقسيم الداخلى، ولا ذاك التلوين الصوتى، وليس هناك حرص على المطابقة الصوتية بين الجمل، إلا أن عياضا - حرصا منه حسب عادته دائما، على إثارة القارئ، عن طريق دفع الملل، وإحداث عنصر الجدة، فإنه هنا فى رسالته هذه، يعمل أيضا على تنويع الجمل، من مثل قوله فى موضع آخر من الرسالة.

«بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلوات وأزكى التسليم، على المصطفى محمد نبيه الكريم، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وشفيع المذنبين، وقائد الغر المحجلين، وأكرم الآخرين والأولين، ورسول رب العالمين، ووسيلتهم إليه أمعين، النور الساطع، والشفيع المشفع الشافع، صاحب الخوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة والفضيلة والكوثر، ورافع لواء الحمد يوم الحشر...»^(١)

وواضح أن هذه الرسالة تستمد عناصرها ومقوماتها من الشعور المتأجج فى قلب القاضى عياض. يزيد هذا الشعور تأججا ما كان عليه الرجل من حالة نفسية سيئة، إذ اجتمع عليه أمران خطيران: الهرم، ونوائب الدهر، وهما كفيلا بتفجير الطاقة الشعورية عنده. إنها فيض عاطفة. وهذا سر هذه اللهجة الصادقة التى نلمسها فى قوله:

«فيا محمداه، طال شوقى إلى لقائك، ويا أحمداه ما كان أسعدنى لو متع المسلمون ببقائك، ويا نبياه عليك منى أفضل الصلوات، ويا حبيباه أذكرنى عند ربك فى مقامك المحموم الكريم، ويا شفيعاه...»

وقد صار هذا اللون الأدبى بعد عصر عياض مجالا للتبارى، وميدانا لعرض الصنعة، ولونا من ألوان المدح والتقرب إلى الملوك، مثال ذلك ما كتبه ابن الخطيب على لسان ممدوحه أبى الحجاج يوسف سابع ملوك بنى الأحمر.^(٢)

إن فن الرسائل النبوية فن نشأ ونما فى حضن الدين، ولعل أهم خصيصة تميز بها الأدب المغربى، أنه أدب إسلامى، بمعنى أنه يمتاح مع الاسلام فى أغراضه ومعانيه، فلا عجب إذن أن يشيع هذا الفن بين كتاب المغرب.

(١) أزهار الرياض ١٩/٤

(٢) عيد السلام شقور ص ١٦٣

٢ - فن التَّصْلِيَّة:

ويرتبط بفن الرسائل، الموجهة إلى الرسول الكريم - ﷺ، وإلى الروضة الشريفة، فن نثرى آخر هو فن "التَّصْلِيَّة"، أى فن الصلاة على النِّبى (١) - ﷺ، وهو فن يستمد مقوماته من العاطفة الإسلامية، وحب الرسول.

وقد وصل إلينا من هذا الفن تصليتان فقط:

إحداها: أثبتها أبو العباس المقرئ فى كتابه (٢)

والثانية: وجدت فى مجموع سجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ ق

يقول المقرئ عن التَّصْلِيَّة الأولى:

«ومن نثر القاضى عياض - رحمه الله - هذه الصلاة على رسول الله - ﷺ - حسبها وجدته ببعض الجامعات، بمحروسة فاس - حاطها الله تعالى، وقد تضمنت جملة من أوصافه، ﷺ - الطاهرة، ومعجزاته الباهرة، وكمالاته التى بها انفرد، وسار بها المثل واطرد - ﷺ»

وإن يكن المقرئ قد تشكك فى نسبتها للقاضى عياض، دون أن يحدد السبب، حيث قال: «ولست على يقين من نسبتها للقاضى عياض، والعهدة على من نسبها له إن لم تصح النسبة» (٣)

ويتساءل الأستاذ شقور: فهل يراها دون مستوى عياض فى أسلوبها؟
ينفى ذلك استحسان المقرئ لها، فهو يقول:

«ولا خفاء أن هذا الكلام - يعنى الصلاة - مياسم الوصول إليه لائحة، ونواسم القبول لديه فائحة، وكيف لا وقد اشتمل على جملة من أوصاف الماحى

(١) عقد القاضى عياض فى «كتاب الشفا» بابا للحديث عن الصلاة عن النِّبى ﷺ، وأورد مجموعة من الصلوات.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أزهار الرياض ٨٦/٤

العاقب، ونبذة من له من المفاخر والمناقب.. ولعمري إن مثل هذه الوسيلة نظيرها قليل، وهى على صدق صاحبها أعظم دليل»^(١)

ويقرر الأستاذ شقور صحة نسبة هذه الصلاة للقاضى عياض، ويقول: «إن هذه الصلاة ليست فى واقع الأمر إلّا قبسا من ذلك النور، الذى استمد منه عياض كثيرا مما أبدعه، ومن ثم فإنه ليس هنالك ما يستدعى التشكك فى نسبتها إليه - لأنه بمقارنة الصلاتين، وجد وكأنها صلاة واحدة، وثبت أنها للقاضى عياض، لتقارب الأسلوب، واتفاق المقدمتين، والبناء التأليفى منها. ويمكن تفسير هذا التشابه بين مقدمتى الصلاتين، بما يوجد عادة من تشابه بين النماذج الأدبية، التى تتناول موضوعا واحداً، ومثيله ما هو موجود بين الرسائل المتعددة التى بعث بها كتابها إلى الروضة الشريفة بالرغم من اختلاف الكتاب والعصور»^(٢).

وبالبحث المدقق فى الصلاتين الموجودتين، يجد أن كلا منهما تتكون من ثلاثة أجزاء:

١ - الحث على الصلاة على الرسول ﷺ.

٢ - ثم الصلاة عليه.

٣ - وأخيرا الدعاء.

وهذا يفسر التكرار الذى يحسه القارئ، وهو فى الواقع ليس تكرارا، بل الأمر يتعلق بحلقات متشابهة إلى حد ما، ولكن هناك نمواً وحركة، وهى حركة تتخذ شكلا لوليبيا.. ولتحقيق هذه الغاية لجأ القاضى عياض إلى عدة تقنيات، منها تلوين الأسلوب عن طريق تنويع الجمل، فهو يأتى بجمل إسمية، ثم يعقبها بأخرى فعلية، من مثل قوله:

«إذا مشى كان أعدل الناس، وإذا تكلم كان أفصح الناس، وإذا جلس أعلأ الناس، وإذا وعظ أبكى الناس، صاحب الوجه المليح، والفم السبيح، واللسان

(١) المرجع السابق

(٢) عبد السلام شقور ص ١٦٤

الفصيح، والقول النصيح - من بشر وأنذر، وخوف وحذر، وحج واعتمر، وحلق ونحر، وهلل وكبر، وجاهد وانتصر، وقاتل من كفر، وبدين الله أمر - الطاهر المطهر، المنتخب من خيار أخيار مضر، المؤيد المنصور، الماجد المشكور^(١)

وعياض يستمد مادة هذه التصليات من منبعين اثنين: من الثقافة الإسلامية بكل مشتملاتها. ومن السيرة النبوية العطرة، من مثل قوله:

«من بشر به الكليم والمسيح، وأخبر به الخليل والذبيح، بحر الأنعام، فخر الأنام، بدر التمام، الذى بنوره أجلي الله الظلام، وذل الكفر وعز الإسلام، وظهر الحق ودام، وزهق الباطل فلم يقم، فى مولده تنكست الأصنام، وبطل علم الكهانة حتى كأنه لم يعلم، واسقطوا عن أسرتهم وزعقوا زعقة الحمام، وحرسست السماء بالشهب فلم ترم، واللجنة تهتف: لا يدرون أشربن فى الأرض أم الرشدا والاستقام..»^(٢)

وفى هذه التصلية عينها، نجد قفزات سماء فيها فكر القاضى عياض بعض السمو، لأنه وجد فى قصته الإسراء والمعراج منبعاً خصباً، من مثل قوله:

«فسبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى مسجده الأقصى إلى حضرة عرشه. فتجلى له بقدسه وأنسه بلطفه، فأمنه من خوفه، وبلغ غاية أمله. ومشى على بساط العزة بنعله، ودنا من ربه حتى تناول ثمار القرب بيده، دنا فتدلى ولم يتأن، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فبلغ كل وصل ومُنَى، وأعطى جميع ما تمنى، فسجد شكراً لله على بساط عزة الله.. فرفعت له الحُجُب، حتى سلم الحبيب على المحبوب، كما سبق فى أم الكتاب مكتوب، ونال كل مطلوب، وبلغ غاية المرغوب..»^(٣)

وقد وجد القاضى عياض فيما ورد عن مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم،

(١) أزهار الرياض ٨٩/٤

(٢) ملحق التصليات نقلاً عن القاضى عياض الأديب. وهى من مجموع مسجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ ق.

(٣) ملحق التصليات آخر كتاب القاضى عياض الأديب. وهو المجموع السابق ذكره.

وما واكب ذلك الحدث العظيم من معجزات رددتها كتب السيرة والتاريخ، منها عذبا ارتوى منه، فأطلق العنان لخياله، فقال:

«فلما نظرت إليه أسرع في وجها الابتسام، وأراد أن يكلمها فأمسك الله لسانه عن الكلام، فإذا بغمامة قد نزلت من السماء، لا تشبه الغمام، وفيها جماعة من الملائكة الكرام، فازدحموا عليه أى ازدحام، وسلموا عليه بأحسن سلام، ونادوه: يا وجيه، يا محمد، يا نعم الغلام، وأمه في قلق واحتشام، فحملوه ورفعوه، وعرجوا به للسماء وعن بصرها غيَّبوه، وطافوا به على الأنبياء والملائكة نعتوه، وإلى رضوان خازن الجنة^(١) دفعوه، وفتحوا له الجنة ودخلوه، ففرح به الحور العين وقبلوه، وكحلُّوه ودهنوه. وبالمسك الأذفر طيَّبوه»^(٢).

على أن أهم فقرات هذه التصلية سموا. وأبدعها خيالا في فكر القاضى عياض، تلك التى يتحدث فيها عن الشجرة، التى نبت منها محمد صلى الله عليه وسلم، يقول:

«واستخرجه الله من شجرة مباركة طيبة، باسقة عطرة ناعمة، نبت من الخليل عودها، واتسق باسما عيل عمودها، واتصل بعدنان عنقودها، وتم بمحمد صلى الله عليه وسلم صعودها، يالها من شجرة نبتت في أرض الصفا، وقامت على لسان الوفا، وسقيت بماء الاكتفا، لامعة البهاء، مشرقة الضياء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، الحق زهرتها، والصدق ثمرتها، والحلم ورقها. والعلم جنتها، والهدى قنوانها، والتقوى أفنانها، من تعلق بها سلم، ومن استظل بها غنم، ومن عاندها حطم، ومن خاصمها خصم»^(٣)

إن هذا النص يوضح مدى حب القاضى عياض للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيه نجد أنه لا يتكوى على السجع فحسب، ولكنه يستغل ضروبا أخرى من

(١) في أصل التصلية «خازن النار». ورضوان خازن الجنة، وإنما خازن النار هو مالك، ويبدو أن هذا وهم منه، أو خطأ من الناقلين. قال الله في الحديث عن أهل النار (ونادوا يا مالك ليقتض ربك، قال إنكم ماكنون..) الآية ٧٧ من سورة الزخرف.

(٢) ملحق التصليات.

(٣) ملحق التصليات.

الألوان البيانية. لقد صور هذه الشجرة وكأنها تضرب بجذورها في باطن التاريخ. لتصل محمداً - صلى الله عليه وسلم - بأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣ - خطبه:

ذكر أبو عبد الله بن عياض - في التعريف - ضمن مؤلفات والده، كتاباً يتضمن خطباً لوالده^(١) وقد ورد في أحد المجاميع^(٢) أن هذه الخطب قرئت على القاضي عياض في حياته.

إلا أن معظم هذه الخطب سقط من يد الزمن، فلا أثر لها.

ويبدو أن أبا عبد الله قام باستنساخ خطب والده، مضيفاً إليها خطباً أخرى، كان القاضي عياض ألفها في أخريات حياته، إلا أن هذه النسخة لم يعثر عليها. وقد ورد في التقديم، الذي حرره أبو عبد الله - لمجموع خطب والده: «وهذه خطب أخرى صنعها بعد تدوين هذه (أى الخطب التى جمعها أبوه بنفسه ثم استنسخها ولده) فنقلتها من مبيضاتها، وأثبتها ليجتمع شملها، ويكمل تدوينها، فمن ذلك خطبة^(٣)..»

وبمجموع هذه الخطب المضافة ست، أوردها الأستاذ شقور في ملحق الدراسة التى أعدها عن عياض الناصر^(٤).

ولهذه الخطب، التى قام أبو عبد الله بجمعها وإلحاقها بأخواتها، أهمية أدبية وتاريخية كبيرة. إذ إنها تلقى الضوء على المراحل الأخيرة من حياة القاضي عياض.

(١) التعريف ص ١١٧

(٢) وهو مجموع شارك به مالكه فى المسابقة الخاصة بالمخطوطات لسنة ١٩٧٨ انظر فهرس المخطوطات التى شارك بها أصحابها فى السنة المذكورة. نقلاً عن «القاضى عياض الأديب».

(٣) المجموع السابق ذكره

(٤) انظر ملحق الدراسة ص ٣٦٠ وما بعدها.

وقد ذكر المترجمون للقاضى عياض، أنه ما كان يخطب إلا من إنشائه، ولسوء الحظ أن ما بقى لنا من خطبه إلا النزر اليسير، فقد وصلنا منها عشر خطب فقط، فى «التعريف» و«الاحاطة» و«أزهار الرياض» وأحد المجاميع بتطوان ورقمه ١٠٢، والمجموع الهام الذى ظهر أخيرا بمراكش، ونال به مالكة جائزة الملك الحسن الثانى سنة ١٩٧٨م.

وخطب القاضى عياض المثبتة فى هذا المجموع نوعان:

١ - خطب تحريضية أو جهادية.

٢ - وخطب دينية.

١ - أما الخطب الجهادية: فقيمتها كبيرة، إذ إنها تساعد فى الكشف عن المجهود الذى قام به القاضى عياض فى سبيل بقاء الدولة المرابطية، لأنها تتصل بالثورة، التى قادها وأهل بلده على الموحدين. إنها باختصار خطب ألقاها عياض فى أهل سبتة، يحرضهم فيها على مقاومة خصومهم، الذين جاءوا يهجمون عليهم فى عقر دارهم، وعددها ثلاث.

وبما ورد فى إحداها قوله، بعد التحميد والصلاة على النبى:

«أيها الناس، انظروا لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم، وتأملوا ما يراد بكم، فإنكم تستقبلون خطباً جسيماً، وتنتظرون عن قريب أمراً عظيماً، فقد صار أعداؤكم عليكم إلهاً. وتحالفوا عليكم شرقاً وغرباً، واحتشروا إليكم براً وبحراً، وتعاهدوا عليكم سراً وجهراً، ومدوا لكم من كيدهم وشرهم أمراً إمرأ، وأنتم عما يراد بكم غافلون.. ومدينتكم هذه التى رموا إليها أبصارهم، وأجمعوا عليها كيدهم وأنصارهم، عرضة للبلاء إن لم تشيد. وفرصة للعدو إن لم ترتب أمور وتسدد، جهاتها غير محصنة.. لا حماة ولا رماة، ولا سلاح ولا آلات، ولا عدد ولا عدة، ولا أموال لمصالحها معدة»^(١)

ويبدو أن هذه الخطبة ألفت قبل أن تحاصر سبتة، أى عندما علم القاضى

(١) انظر ملحق الخطب ص ٣٦٠

عياض بما يدبر لبلده وأهلها، لذلك نجده في نهايتها يحرض أهل بلده على بذل كل نفيس من أجل تحصينها. والخطبة طويلة، منها قوله:

«واعملوا مادام يكتنكم العمل في هذه الأيام، قبل أن يشغلكم العدو، فقبل الرمي تراش السهام».. «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» وعدة للقتال، واستكثروا من القسي والنبال. وبيض الصفاح، وسمو الرماح، فقد ألزمكم من له الأمر عليكم ذلك، كما ألزمكم الله وأمركم..»

* ولما قربت جيوش الموحدين من سبتة، وكاد الشر يدهم المدينة، وقف القاضي عياض خطيباً في قومه. قال:

«اعلموا أن الله قرب إليكم الرباط والجهاد بأبواب داركم، فاغتنموا ذلك وابتدروا، والتزموا مراتبكم ولا تهلوا، ولا تتواكلوا ولا تكلوا، وعلى ربكم فتوكلوا. ولا تهنوا ولا تحزنوا... واصبروا إن الله مع الصابرين، واضرعوا إليه في كشف بأسه وضرة، فإنه يجيب المضطرين»^(١).

وقد أجاب الله دعاء القاضي عياض، ففرج عنهم الخطب، فكانت تلك مناسبة ليشكر الله، فقال:

«الحمد لله الذي أظهر في مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة حزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس لعز الإسلام عوالي رايات الكفر وبنوده. وكشف عن قلوب ما غشيها من روعة عدته وعديده. أحده حق تحميده. وأشكره شكراً موعوداً بمزيد..»

«.. أيها الناس إن أحق النعم بحفيل الشكر وجميع الذكر نعمة عمت عوارفها، وتمت مبادئها وروادفها، وملأت القلوب مسرة عواطفها ولطائفها»^(٢)

ومن هنا نرى أن خطب القاضي عياض الجهادية إنما كانت تسير أحداث ثورة بلده سبتة، في كل مراحلها. كما تعكس دوره في كل أحداثها.

(١) ملحق الخطب ص ٣٦٣

(٢) انظر ملحق الخطب ص ٣٦٣

٢ - الخطبة الدينية:

وهذه الخطب. كانت تلقى في المناسبات الدينية، كما كانت تلقى في أيام الجمعة في المساجد. ونظرة فاحصة فيما وصح إلى أيدينا من هذه الخطب، نجد أنها تتكون من ثلاثة عناصر أساسية:

- العنصر الأول: صدر الخطبة واستفتاحها.
- العنصر الثاني: موضوع الخطبة ومناسبتها.
- العنصر الثالث: وهو خاص بالدعاء.

١ - أما عن صدر الخطبة، فقد جرت العادة على أن يكون بالتحميد، والصلاة على النبي - ﷺ^(١).

وهذا القسم - في خطب القاضي عياض - يشغل حيزا كبيرا، لأنه يحظى باهتمام خاص منه، لما فيه من الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد يكون ثلث الخطبة، بل نصفها في بعض الأحيان، وهو لا ينفصل عن موضوع الخطبة، ففيه إشارة إلى مضمون الخطبة.

يقول في افتتاحية إحدى خطبه:

(الحمد لله، الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك. ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبرا) [الإسراء]، (تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) [الجن ٣] (يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، أن دعوا للرحمان ولدا، وما ينبغي للرحمان أن يتخذ ولدا، إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمان عبدا، لقد أحصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتية يوم القيامة فردا) [مريم ٩٠ - ٩٥] (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذا ذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله

(١) قال الكلاعي: وهو معاصره في تعريف الخطبة، هي ما استفتح أوله بالتحميد وأعلم غفله بالتحميد. [أنظر أحكام صنعة الكلام ص ١٤٦].

عما يصفون) [المؤمنون ٩١] (وما من إله إلا إله واحد) [المائدة ٧٣] (سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله زكيلا) [النساء ١٧٠]. (بديع السماوات والأرض، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) [الأنعام ١٠٢] (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) [الأنعام ١٠٣]

أحمد، وأومن به، واستعينه وأتوكل عليه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلى الخليفة المنتخب من صميم نسبه الحسنى الفاطمى^(١)، المحمدى، العربى، القرشى، الهاشمى، المصطفى من بيت النبوة المختار^(٢).

فكان كلامه هذا متمشيا مع ما ورد في صلب الخطبة.

٢ - أما موضوع الخطبة الدينية الشرعية، فهو الوعظ بشكل عام لذلك فليس هناك ما يربط بين هذه الخطب، وبين العصر الذى تلقى فيه. وخطب القاضى عياض الدينية تجمع بين الترغيب والترهيب، سالكا في ذلك مسلكا خاصا، إذ يتجه فيها إلى عقل المستمع وإلى قلبه معا، تارة يعمد إلى الجدال، وأخرى يخاطب وجدان السامع من مثل قوله:

«أيها الانسان، إن الله تعالى قد وهبك من عنايته حظا اقتضى شرفك موفورا، وأبرزك من العدم إلى الوجود، ومن الغيب إلى الشهود، واستودع عالمك المختص بدائع الحكمة ما يحار فيه عقل متجليه، ونضد جواهره النفيسة، في سلك الازدواج، فكل عضو إلى ما يليه..»^(٣)

هكذا يعظ القاضى عياض الإنسان، ويدعوه إلى التأمل في خلقته، ودقتها، ليكون ذلك له حافزا على طاعة الخالق، وهذا الأسلوب في الجدال مستمد من الأسلوب القرآنى.

(١) من العلوم أن المهدي رفع نسبه إلى البيت النبوى.

(٢) أنظر الملحق ص ٣٧٣.

(٣) الملحق السابق.

أما أسلوبه الوجداني: فيظهر في قوله في خطبة أخرى:

«فمالك يا حيران تتلى عليك آى القرآن ولا تزدر بعظاتها، ولا تفرق،
ولجت في بضع التسويف ولم تبال بالتخويف، أخشى عليك أن تفرق، أما علمت
أنه لا يد لك من موقف القمر فيه يخسف، والبصر فيه يبرق^(١)»

العنصر الثالث والأخير هو الدعاء

وللقاضى عياض طريقة تكاد تكون ثابتة في اختتام خطبه، ذلك أنه يختتمها
بتلاوة آية، أو أكثر من القرآن الكريم، تكون جامعة شاملة لمعانيها.

- يقول في ختام خطبة له:

«يا من لاربّ سواه، يا مجيب المضطر إذا دعاه، يا من لا ملجأ لنا منه
إلا إياه، نسألك يارب العالمين، أن تكشف عنا بأس القوم الظالمين، وتكشف عنا
أيدي المعتدين، وتصرف صرف الكفرة الملحدين، الذى سفكوا الدم الحرام،
وركبوا منا الآثام، وحرقوا الديار، وقطعوا الثمار... اللهم وأصلهم جهنم بثس
القرار، اللهم استأصل شأفتهم، واقطع من الأرضين دعوته، واهلكهم أجمعين،
وانصرنا عليهم يا رحمان يا رحيم..»

اللهم احنا من جميع جهاتنا، ولا تكشف ماسترت من حرامتنا، واعصم منهم
أموالنا، ودماءنا، واكفنا برحمتك أعداءنا، واجعلهم جزر صفاحنا ورماحنا، وبلغنا
منهم شفاء نفوسنا وأرواحنا، واجعلنا من المنصورين عليهم في مغدانا ومراحنا،
اللهم وهب لنا نصرة منك تفرج بها ما نزل بنا بلطفك المرتجى، واجعل لنا من
أمرنا فرجا ومخرجا، وانهج لنا ما يرضيك صراطا مستقيما، ومنهجا، (ربنا
لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)^(٢)
(ربنا واجعلنا من (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين
هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)^(٣)

(٣) الزمر ١٧. وانظر الملحق ص ٣٦٩

(١) الملحق السابق.

(٢) آل عمران ٨.

ويقول في خاتمة خطبة أخرى

«اللهم بك نحول، وبك نصول، وفيك، وبك نخاصم، وبك نستنجد، ولك نستعد، ولا ملجأ لنا، ولا منجى منك إلا إليك، ولا معول لنا إلا عليك، ولا ناصر لنا إلا أنت، وما نخدول إلا من خذلت، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا تخلنا من نظرك في الدارين، واكنفنا بعزك الذي لا يضام، واكنفنا في كنفك الذي لا يرام، واحطنا عن أيماننا وشمالنا، وأمامنا وخلفنا، وفوقنا وتحتنا، وحول عنا عدونا، واكنفنا منا ما أهمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، واكشف ما نزل بنا، وأنزل سكينتنا علينا، وثبت الأقدام إن لقينا، والطف بنا بلطفك الخفي المرتجي، واجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجاً..

يا من تجيب المضطر إذا دعاه، دعوناك مضطرين كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا (إنك لا تخلف الميعاد)^(١) (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)^(٢).

وهكذا كان القاضي عياض علماً متفرداً في هذا الباب، اتخذ لنفسه، اتجاهها معيناً فأجاده، هذا ما تجلى لنا من عرض ما جاء في بعض خطبه.

ولقد وجدنا خطبا صاغها الرجل على أساس موسيقي، وإيقاع فني جميل، لا يعتمد فيه إلى تقسيم أو مزاجية، بل يبنى فواصل الخطبة كلها على حرف واحد^(٣)، فجاءت بمثابة القافية للقصيدة، مهما طالت الخطبة. من مثل قوله:

«الحمد لله مبدى الحقائق، ومبدئ الخلائق، ومبدع السبع الطرائق، ومزينها بالكواكب الشوارق، أحمدُه على نعمه التوالى والسوابق، حمدا يطبق ما بين المغارب والمشارق، وأستعيذه كما أمر من شر كل حاسد وفاسق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة تملأ فم كل ناطق».

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٤

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠١

(٣) من ذلك خطبته على كتاب الشفا

«أيها الناس: اسلكوا جواد الحقائق، واتركوا بنيات الطرائق، ولا تغرنكم الدنيا بكواذب المخارق، فإنها كثيرة البوائق، حجة العوائق، قاطعة للأسباب والعلائق، تاركة عن هام بها مفارق، تدبر دوائرها بكل صامت وناطق» جعلنا الله وإياكم ممن سعد في قدره السابق، ورزقنا عفوه ورحمائه، فهو خير رازق، إن أبلغ الوعظ وأنفع الرقائق، كلام المهيمن الخالق^(١)

وليس هذا فحسب، بل هناك خطب اقتبسها القاضى عياض من القرآن، ولم يقف عند حد اقتباس آية أو أكثر، ولكنه نظم الخطبة جميعها من آى الذكر الحكيم. من ذلك قوله:

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) [الآيات الثلاث من سورة الأنعام ١ - ٣]

(وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) [الزخرف ٨٤] (وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) [الآية ٨٥ من سورة الزخرف] (هو الأول والآخر والظاهر والباطن - إلى قوله - وهو عليم بذات الصدور) [الآية ٣ من سورة الحديد] (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) [الآية ٨٠ من سورة المؤمنون] (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) [الآية ١١٧ من سورة البقرة] (لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين) [الآية ٨٤ من سورة الدخان] (لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه) [الآية ٨٨ من سورة القصص]

وكأنى بعياض يريد المبالغة فى كل شىء، فإذا التزم كاتب مثل المعرى مثلاً قيّداً، أو جملة قيود، فإنه لا يكتفى بها، بل يضيف إليها قيوداً أخرى، وما نحن قد رأينا أمثلة عديدة لذلك، أبرزها اقتباس الخطبة كلها من القرآن.

وخلاصته القول.. إن الطابع العام لنثر عياض، هو أنه نثر يستقى من الإسلام كثيراً من مقوماته الفكرية والفنية، فقد كان الإسلام المنبع الذى ارتوى

منه عياض، فظهر ذلك بارزا في كل ماكتب، وقد رأينا ذلك واضحا في رسائله،
وتصليته، وخطبه. أما تأليفه، فتعد إلى يومنا هذا من أهم ما كتب في باب الثقافة
الإسلامية.^(١)

(١) الأستاذ عبد السلام شتور ص ٢٠٨

القسم الثاني

منهج القاضي عياض في السيرة النبوية

تمهيد: السيرة النبوية قبل القاضي عياض

- ١ - مميزات السيرة النبوية.
- ٢ - مصادر السيرة النبوية.
- ٣ - منهج القاضي عياض في تأليف السيرة.
 - (١) نظرتة إلى السيرة.
 - (ب) منهجه في البحث.

تمهيد

السيرة النبوية قبل القاضي عياض

١ - مميزاتها

تحمل سيرة المصطفى - ﷺ - عدة مزايا تجعل من دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، كما تجعل هذه الدراسة ضرورة لعلماء التفسير، والحديث، والدعاة إلى الله، والمهتمين بإصلاح المجتمع الاسلامي، ليضمنوا إبلاغ الشريعة إلى الناس، بأسلوب يجعلهم يرون في سيرته - ﷺ - الملجأ والملاذ الذي يلوذون به عند اضطراب السبل، واشتداد العواصف، ولتفتح أمام الدعاة قلوب الناس وأفئدتهم، ويكون الإصلاح الذي يدعو إليه المصلحون، أقرب نجاحا، وأكثر سداً.

إن أعظم مزايا السيرة النبوية تبرز فيما يلي:

أولاً: أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مُرسل، فقد وصلت إلينا سيرته - صلى الله عليه وسلم، عن أصح الطرق العلمية، وأقواها ثبوتاً، مما لا يدع مجالاً للشك في وقائعها البارزة، وأحداثها العظيمة، وبما ييسر لنا معرفة ما أضيف إليها في العصور المتأخرة من أحداث، أو معجزات، أو وقائع أوحى بها العقل الجاهل، الراغب في زيادة إضفاء الصفة المدهشة على الرسول - ﷺ - أكثر مما أراد الله لرسوله أن يكون عليه، من جلال المقام، وقدسية الرسالة، وعظمة السيرة.

إن سمة الصحة والصدق، التي يتطرق إليها الشك لا توجد في سيرة أى رسول آخر من رسل الله عز وجل.

فموسى - كليم الله - عليه الصلاة والسلام، قد اختلطت وقائع سيرته الصحيحة بما أدخل عليها اليهود من زيف وتحريف، ولا نستطيع أن نطمئن إلى

التوراة - التي بين أيدينا - لنستخلص منها سيرة صادقة لموسى عليه السلام، فقد أخذ كثير من النقاد الغربيين يشكُّون في بعض أسفارها، وبعضهم يجزم بأن بعض أسفارها لم يكتب في حياة موسى - عليه السلام - ولا بعده بزمان قريب، وإنما كتب بعده بزمان بعيد دون أن يُعرف كاتبها.

ولا شك أن هذا الأمر كاف للتشكيك في صحة سيرة موسى - عليه السلام - الواردة في التوراة، ولذلك ليس أمام المسلم أن يؤمن بشيء من صحة سيرته، إلا ما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية - الصحيحة.

ومثل ذلك يمكن أن يقال في سيرة المسيح عيسى بن مريم، فالأنجيل الأربعة، المعترف بها لدى الكنائس المسيحية، لم تقرَّ إلا في عهد متأخر عن عهد السيد المسيح بمئات السنين، وقد اختيرت دون سند علمي، من بين مئات الأنجيل، التي كانت بأيدي أتباعه وتلاميذه. أضف إلى ذلك، أن نسبة هذه الأنجيل إلى جامعها وكاتبها لم تثبت بطريق علمي تطمئن إليه النفوس، فهي لم ترو بسلاسل إسناد متصلة إلى كاتبها، كما أن هناك خلافا قويا قد وقع بين نقاد الغرب حول الأعضاء الكاتبين لهذه السيرة، من يكونون؟ وفي أي عهد كانوا؟ وما مصادرهم؟ وكيف حفظت..؟

وإذا كان هذا شأن سيرتي موسى وعيسى، عليهما السلام، فنحن لا يمكن الاطمئنان إلى كل ما جاء فيها، أو يتصل بها من معلومات وروايات.. ومن هنا كان قولنا: إن أصح سيرة لرسول، وأقواها ثبوتا، وأصدقها مصادر، وأعظمها وضوحا هي سيرة النبي المصطفى - ﷺ.

ثانيا: إن حياة رسول الله ﷺ - واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها، منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة، إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى. فنحن نعرف الشيء الكثير عن ولادته وطفولته وشبابه، ومكسبه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة إلى أن بعثه الله سبحانه - مبشرا ونذيرا، ورسولا كريما.

كما نعرف بشكل أدق وأوضح وأكمل كل أحواله بعد ذلك سنة فسنة، مما يجعل سيرته - ﷺ - واضحة وضوح الشمس. وهذا ما لم يتيسر مثله،

ولا قريب منه لرسول آخر من رسل الله السابقين.

فرسول الله موسى - عليه السلام - لا نعرف شيئا قط عن طفولته وشبابه وطرق معيشته قبل النبوة، ونعرف الشيء القليل من حياته بعد النبوة، مما يجعلنا لا نتعرف على صورة مكتملة لشخصيته.

وكذلك المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - طفولته ونشأته مجهولة، إلا ما تذكره الأناجيل الحاضرة، من أنه دخل هيكل اليهود، وناقش أخبارهم - فهذا هو الخبر الوحيد الذى نعرفه عن طفولته. ثم نحن لا نعرف من أحواله بعد النبوة إلا ما يتصل بدعوته، وقليلًا من أسلوب معيشته، وما عدا ذلك فأمر يغطيه ضباب كثيف.

فأين هذا مما تذكره مصادر سيرة النبی المصطفى - صلى الله عليه وسلم، من أدق التفاصيل فى حياة رسول الله الشخصية، كأكله، وشربه، وقيامه وقعوده، ولباسه وشكله، وهيئته ومنطقه.. والعائلية، مثل معاملته لأسرته، وزوجاته وبناته، ومباشرته لأصحابه. والعبادية، مثل تعبد، وقيامه، وصلاته وصيامه. بل بلغت الدقة فى رواة سيرته، أن يذكروا لنا عدد الشعرات البيض فى رأسه ولحيته.

ثالثا: إن سيرة رسول الله - ﷺ تحكى سيرة إنسان بشر، أكرمه الله تعالى بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضيف عليه أى صفة من صفات الألوهية أو الملائكية، قليلا أو كثيرا.

وإذا قارنا سيرته، بما يرويه ويعتقده أنصار المسيحية وأتباعها عن سيرة المسيح - عليه السلام - وما يرويه معتنقو البوذية عن بوذا.. اتضح لنا الفرق جليا بين سيرته - ﷺ، وسيرة هؤلاء.

ولا شك أن لهذا الأمر أكثر الأثر فى السلوك الإنسانى والاجتماعى لاتباعهم، فإضافة الألوهية على عيسى - عليه السلام، وبوذا، جعلها أبعد منا لا من أن نكون القدوة والأسوة للإنسان فى حياته المعيشية والاجتماعية. بينما ظل -

وسيطل - الرسول المصطفى - ﷺ - من خلال سيرته المثل الانساني النموذجي الكامل، لكل من أراد أن يعيش سعيداً كريماً في نفسه وأسرته وبيئته، مصداقاً لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) [الأحزاب ٢١]

رابعاً: إن سيرة رسول الله - ﷺ - كاملة، شاملة لجميع النواحي الانسانية في الإنسان. فهي تحكى لنا سيرة محمد الشاب الأمين، الصادق المستقيم، قبل أن يكرمه الله بالرسالة. كما تحكى لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله، المتلمس أجدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته.

كما تحكى لنا سيرته، سيرة رئيس دولة، وقائد أمة، استطاع أن يضع لدولته أقوم النظم وأصحابها، ويحميها بيقظته وإخلاصه وصدقه، بما يكفل لها النجاح.. كما تحكى لنا سيرة المصطفى - ﷺ - سيرة المرزى المرشد، الذى يشرف على تربية أصحابه تربية خلقية مثالية، ينقل فيها من روحه إلى أرواحهم، ومن نفسه إلى نفوسهم، ما يجعلهم يحاولون الاقتداء به في دقيق الأمور وكبيرها.

كما تصوّر لنا سيرة رسول الله - ﷺ - صورة الصديق، الذى يقوم بواجبات الصحبة، وينفى بالتزاماتها وآدابها، مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم، وأكثر من حبهم لأهلبيهم وأقربائهم.

وسيرته - ﷺ - تحكى لنا سيرة القائد المنتصر، والمحارب الشجاع، والسياسى الناجح، والمعاهد الصادق، والجار الأمين.

إن سيرة المصطفى - ﷺ - شاملة لجميع النواحي الانسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مرب، وكل سياسى، وكل رئيس دولة - ولا يمكن أن نجد مثل هذا الشمول، ولا قريباً منه، فيما بقى لنا من سير المرسلين السابقين.

خامسا: إن سيرة النبي - ﷺ - وحدها تقدم لنا الدليل الذي لا شك فيه على صدق رسالته وصدق نبوته..

إنها سيرة رجل ملهم، سار بدعوته من نصر إلى نصر، لا عن طريق خوارق الطبيعة والمعجزات، بل عن طريق طبيعى مرسوم.

لقد دعا إلى الله فأوذى، وبلغ فأصبح له الأنصار، واضطر إلى الجهاد فجاهد، وكان حكيما موفقا في قيادته، فما حانت ساعة وفاته إلا كانت دعوته تلف آفاق الجزيرة العربية كلها عن طريق الإيمان. لا عن طريق القهر والغلبة.

ومن عرف ما كان عليه العرب من عادات وعقائد، وما قاوموا به دعوته من شتى أنواع المقاومة، ومن عرف عدم التكافؤ بينه وبين محاربيه، في كل معركة انتصر فيها، ومن عرف قصر المدة التى استغرقتها رسالته حتى وفاته. وهى ثلاث وعشرون سنة - أيقن يقينا جازما أن محمداً رسول الله حقا، وأن ما كان يمنحه الله من ثبات وقوة وتأثير ونصر، ليس إلا لأنه نبي حقا، مبعوث من قبل رب العزة. وما كان الله ليؤيد من يكذب عليه، هذا التأييد الفريد في التاريخ.

فسيرة النبي - ﷺ - تثبت لنا صدق رسالته، وصدق نبوته، عن طريق عقلى محض. وما وقع له - ﷺ - من المعجزات، لم يكن الأساس الأول في إيمان العرب بدعوته، بل إننا لا نجد له معجزة آمن معها الكفار المعاندون - على أن المعجزات المادية إنما تكون حجة على من شاهدها.

ومن المؤكد أن المسلمين المؤمنين، الذين لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم - ولم يشاهدوا معجزاته، إنما آمنوا بصدق رسالته، للأدلة العقلية القاطعة على صدق دعواه النبوة، ومن هذه الأدلة العقلية «القرآن الكريم» فإنه معجزة عقلية. تلزم كل عاقل منصف، أن يؤمن بصدق محمد - ﷺ - في دعوى الرسالة.

وهذا يختلف تماما عن سير الأنبياء السابقين، المحفوظة لدى اتباعهم فهى تدل على أن الناس إنما آمنوا بهم لما رأوا على أيديهم من معجزات وخوارق، دون أن يحكموا عقولهم في مبادئ دعواتهم فتدعن لها.

وأوضح مثل لذلك، السيد المسيح - عليه السلام، فإن الله حكى لنا في القرآن الكريم أنه جعل الدعامة الأولى في إقناع اليهود بصدق رسالته، أنه يبرئ الأكهم والأبرص، ويشفي المرضى، ويحيى الموتى، وينبئهم بما يأكلون في بيوتهم، كل ذلك بإذن الله.

والأنجيل الحاضرة. توضح لنا أن هذه المعجزات هي وحدها التي كانت سببا في إيمان الجماهير دفعة واحدة به، لا على أنه رسول - كما يحكى القرآن الكريم - بل على أنه إله أو ابن إله، وحاشا لله من ذلك.

ومن هنا ندرك الميزة الواضحة في سيرة رسول الله ﷺ: إنه ما آمن به واحد عن طريق مشاهدته لمعجزة خارقة، بل عن اقتناع عقلى ووجدانى، وإذا كان الله قد أكرم رسوله بالمعجزات الحسية الخارقة، فما ذلك إلا إكرام له - ﷺ - وإفحام لمعانديه المكابرين.

ومن تتبع القرآن الكريم، وجد أنه اعتمد في الاقناع على المحاكمة العقلية، والملاحظة المحسوسة لعظيم صنع الله، والمعرفة التامة بما كان عليه الرسول من أمية تجعل إتيانه بالقرآن الكريم، دليلا على صدق رسالته - ﷺ.

يقول الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

ولما اشتط كفار قريش في طلب المعجزات من رسول الله - ﷺ - كما كانت تفعل الأمم الماضية، أمره الله أن يجيبهم بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٢).

(١) الآيات ٥٠، ٥١

(٢) الإسراء ٩٣

استمع إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَ مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ.. وَلَنْ نُؤْمِنَ لِإِزْقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُقْرَأُ... قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١)

هكذا يقرر القرآن بصراحة ووضوح أن رسول الله - ﷺ - إنسان، بشر، وأنه لا يعتمد في دعوى رسالته على المعجزات والخوارق، وإنما يخاطب العقول والقلوب.

٢ - مصادر السيرة النبوية:

تعتمد دراسة السيرة النبوية على مصادر كثيرة متنوعة، وتنقسم هذه المصادر بحكم طبيعتها إلى: مصادر أصلية، ومصادر تكميلية.

* أما المصادر الأصلية، فهي بطبيعة الحال: القرآن الكريم، وكتب الحديث، وكتب السيرة المختصة، وكتب الدلائل والشمال، وكتب التاريخ العامة.

* وأما المصادر التكميلية، فهي لا تتصل بالسيرة النبوية اتصالاً مباشراً، بل تتناول موضوعات أخرى، لكنها تفيد في حقل دراسة السيرة، مثل كتب الأدب، ودواوين الشعر، وكتب الرجال والتراجم، وكتب الفقه، وكتب الأنساب، ومعاجم اللغة.

وهذه الكتب تكمل الصورة، وتملأ بعض الثغرات، التي تبقى بعد استيفاء المصادر الأصلية.

والباحث المدقق في مجال السيرة النبوية، ينبغي أن يتنبه إلى أن هذه المصادر تتباين قوة وضعفاً، وأصالة ووضعا، لذلك لا ينبغي له أن يضعها في مصاف واحد،

أو يتعامل معها على السواء. فعلى سبيل المثال، لا يمكن معارضة آية قرآنية أو حديث صحيح برواية من كتب التاريخ أو الأدب^(١) فلا بد إذاً من تقويم هذه المصادر ووضعها في الموضع الذي تستحق.

أولاً: المصادر الأصلية

١ - القرآن الكريم:

والقرآن مصدر أساسي تُستمد منه ملامح سيرة رسول الله - ﷺ - فهو كلام رب العالمين، أنزله على عبده ونبيه محمد ﷺ لفظاً ومعنى، بطريق الوحي، لذلك فهو في مقدمة مصادر السيرة العطرة^(٢)، إنه يتضمن الحديث عن الرسول، ودعوته، والرسالة وما يتصل بها، ويتناول جوانب كثيرة من شخصية الرسول - ﷺ - وحياته ومكانته عند ربه، كما يتضمن توجيهات الله له، ويتضمن بيان أصول العقيدة الإسلامية، وبيان تنظيم المجتمع الإسلامي، إلى جانب كثير من الأحكام ذات الأهمية الكبيرة في بيان النظم الإسلامية.

وفي القرآن الكريم تلخيص للكثير من الأحداث التاريخية في عصر النبوة، خاصة ما يتصل بغزوات الرسول - ﷺ - مثل بدر وأحد والخندق وحنين^(٣). حيث يصور ظروف النبي - ﷺ، وحال المسلمين، والأجواء العامة التي وقعت فيها هذه الغزوات والأحداث الأخرى الهامة، كما يحدد الأبعاد النفسية التي كان عليها الرسول ورجاله، ويوضح ذلك بدقة، وهذا ما لا نجده إلا في القرآن.

(١) وهذا ما وقع فيه أبو رية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) وانظر في التنبيه على ذلك: الدكتور مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٢٩٣ - ٢٩٤. وقد انتقد الدكتور جواد علي كلا من المستشرقين شبرنكو وكايتاني لاعتمادهما على الشاذ والغريب والضعيف والروايات المتأخرة، وتقديهما ذلك على الروايات المعتبرة في دراستيهما للسيرة بغية إثارة التشكيك فيها [انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام، فصل السيرة النبوية ص ٩ - ١١]

(٢) أنظر ما كتبه الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه (سيرة الرسول) حيث حلل الآيات القرآنية المتعلقة بالسيرة.

(٣) نجد في القرآن تفصيلاً لأحداث موقعة بدر في سورة الأنفال، وعن أحد في سورة آل عمران، وعن غزوة الخندق في سورة الأحزاب، وعن حنين في سورة التوبة، كما أشارت آيات في سورة أخرى إلى هذه الغزوات.

وفي القرآن الكريم.. تصوير دقيق للصراع الفكري والمادى بين المسلمين وأهل الكتاب، خاصة اليهود في المدينة المنورة^(١)، وتسجيل لعلاقات الرسول الكريم مع أهل الكتاب، ومحاوراته معهم.

وفي القرآن الكريم.. إشارات كثيرة إلى الأنبياء والرسل السابقين، وإشارة إلى الأهم البائدة، وإلى أحداث التاريخ في عصر النبي - ﷺ، كالصراع بين الروم والفرس، وهذا ما دفع العرب المسلمين إلى تسجيل أخبار الروم والفرس والترك والأحباش وغيرهم.^(٢)

ومعلوم أن القرآن العظيم ليس كتابا في التاريخ، بل هو دستور للحياة، لذلك لا ينبغي أن نتوقع ورود تفاصيل عن الأحداث التاريخية، أضف إلى ذلك أن هناك صعوبة في معرفة أسباب ووقت نزول كثير من الآيات. إما لعدم ورود روايات في ذلك، أو لتضارب الروايات الواردة^(٣) مما يحتاج إلى تحقيق لتمييز الروايات الصحيحة أولا، ثم إزالة التعارض إن وجد بعد ذلك.

ومن الطبيعي أن نعرف أن الإفادة التامة من القرآن الكريم، كمصدر أصيل من مصادر السيرة، لا تتم إلا بالرجوع إلى التفاسير القرآنية الموثقة، وفي مقدمتها كتب التفسير بالمأثور أو بالرواية، أى التفسير بما أثر عن رسول الله وصحابته وتابعيه، مثل تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، لأنها يفسران القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة. ومن المهم أيضا الرجوع إلى كتب علوم القرآن، وكتب أسباب النزول، وغيرها مما يتصل بالقرآن الكريم وعلومه.

إن بعض المؤرخين المعاصرين، يأنفون من الرجوع إلى هذه المؤلفات والمصنفات، ويعتمدون على ذوقهم الخاص في فهم أساليب القرآن ومعانيه، مما يؤدي بهم إلى الزلل والوقوع في الخطأ. مثل ما وقع فيه بعض المستشرقين، عند تفسير قول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ حيث ذهبوا إلى أن أميته - ﷺ - تعنى الجهل بالدين لا الكتابة، في حين أن

(١) أنظر عن الصراع الفكري سورة البقرة، وعن الصراع المادى سورة الحشر والأحزاب.

(٢) أنظر ما كتبه الدورى في كتابه: نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٨، ٥١.

(٣) أنظر ما كتبه صالح العلى : في «محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام - (فصل المصادر).

القرآن الكريم، وصف النبي - ﷺ - بأنه ﴿النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ﴾ وجعلها مدحة له، ولا يعقل أن يكون النبي جاهلاً بالدين^(١).

إن الأمانة العلمية، تقتضي الرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة، الموثقة، وتفسير النصوص القرآنية، بما جاء عن النبي أو صحابته، وإبراز معانيها الصحيحة، وليس تأويلها حسب الهوى، رغبة في دعم مذهب معين، أو طائفة معينة، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك بقوله:

«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ - أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ - فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢)

٢ - الحديث النبوي الشريف:

ويلي القرآن الكريم كمصدر أصيل في فهم السيرة النبوية، الحديث النبوي الشريف، فهو كلام رسول الله - ﷺ - عن نفسه، وعن أحواله، وعن علاقته بربه، وعلاقته بالناس.

وفي حديثه الشريف، توضيح لسيرته، وتوضيح لرسالته، وتفسير للقرآن، وتوضيح للعقائد والآداب الإسلامية، وهو الذي يعرف المسلم بكل ما يتصل بنبيه، من قول وفعل وتقرير ووصف، في الحركات والسكنات، ويجعله يسعد بصحبته، وكأنه يحضر مجالسه، ويستمتع لحديثه.

وفي حديث رسول الله ﷺ توضيح للأحكام والأمور العبادية والتشريعية، من صوم وصلاة وحج وزكاة وجهاد، ونظم سياسية ومالية وإدارية.. فلا يمكن تصور قيم الإسلام، ولا مثالياته إلا بمعرفة الحديث.

ولكل هذه الجوانب التي تناولتها السنة المطهرة صلة بالحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عصر رسول الله - ﷺ - وما تلاه من عصور، لأن المسلمين التزموا بتطبيق السنة في حياتهم تطبيقاً تاماً، خاصة بعد أن نبههم رسول الله - ﷺ - إلى التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، وهم الذين

(١) صبحي الصالح: علوم الحديث ص ١٥

(٢) مقدمة تفسير ابن كثير.

عاشروا الرسول ولازموه، ونصر الله بهم دينه، وقد رباهم رسول الله - ﷺ - على عينه، فكانوا أكمل أجيال التاريخ استقامة أخلاق، وقوة إيمان، وصدق حديث، وسمو أرواح، وكمال عقول، فكل ما روه عن رسول الله؛ بالسند الصحيح المتصل، يجب أن نقبله كحقيقة تاريخية لا يخالجنّا الشك فيها.

إننا نجد في بعض كتب الحديث ومصنفاته قسماً خاصاً للمغازي والسير، مثل صحيح البخاري^(١) ولا شك أن مادة السيرة في أبواب كتب الحديث موثقة، يمكن الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة، لأنها ثمرة جهود جبارة قدمها رجال الحديث عند تمحيص الحديث، ونقده سنّداً وممتناً، وهذا التدقيق والتمحيص والنقد الذي حظيت به أحاديث الرسول الله، لم تحظ به الكتب التاريخية.

بيد أنه ينبغي التفتّن إلى أن كتب الحديث، بحكم عدم تخصصها، لا تورد تفاصيل أحداث السيرة، بل تقتصر على بعض ذلك، ومن ثم فإنها لا تعطي صورة كاملة لما حدث، وينبغي إكمال الصورة من كتب السيرة المختصة، وإلا فقد يؤدي ذلك إلى لبس كبير. والدليل على ذلك ما ورد في الصحيحين.. أن النبي صلى الله عليه وسلم - هاجم بنى المصطلق وهم غارون (أى بغتة دون إنذار) وهذا يخالف منهجه - صلى الله عليه وسلم، المتمثل في قوله تعالى: (وإن خِفْتُمْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) وكتب السير توضح أنه أُنذر بنى المصطلق، فلو اقتصرنا على رواية الصحيحين دون أن نتبين حكم الاسلام في إنذار العدو، لوقعنا في خطأ وليس^(٢)

* ولكن بسبب ترتيب الأحاديث في كتب الصحاح إما على الرواة من الصحابة مثل كتب المسانيد، ومن أجلها مسند الإمام أحمد بن حنبل، أو على المواضيع مثل كتب السنة، دون مراعاة عنصر الزمن في كلا الترتيبين، لذلك تبرز أمام الدارس صعوبة تحديد الأحاديث زمنياً. على أن كتب السير، والتاريخ المرتبة على السنين، تعوّض هذا النقص في كثير من الحالات.

(١) أنظر كتاب المغازي في الجزء الخامس منه.

(٢) محمد الفزالي فقه السيرة ص ١٠، ٢٠٨

إن أقدم كتب الحديث الشاملة، التي وصلت إلينا هي موطأ مالك، وصحيح البخارى ومسلم، وسنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، ومسند الدارمى، ومسند أحمد بن حنبل.. من هذه الكتب التى حوت القسم الأكبر من حياة النبى - ﷺ - ووقائعه وحروبه وأعماله، نستطيع أن نكون فكرة شاملة، وإن كانت غير متكاملة أحياناً، عن سيرة الرسول - ﷺ.

هذا ويعطى كتاب مفتاح كنوز السنة للمستشرق فنسك فكرة عن كمية الأحاديث المهمة المتعلقة بموضوعات السيرة، كما يعين كتاب «المعجم المفهرس فى ألفاظ الحديث النبوى» لفنسك وجماعة من المستشرقين على تخريج أحاديث السيرة.

ولا يخفى أن بعض المستشرقين المغرضين، ومن يسير على نهجهم يحاولون أن يشككوا فى صحة ما بين أيدينا من كتب السنة المعتمدة، لينفذوا منها إلى هدم الشريعة والتشكيك بوقائع السيرة.

٣ - كتب السيرة المختصة:

هذه الكتب تلى من حيث الدقة والأصالة القرآن الكريم، والحديث الشريف، وبما يعطيها قيمة علمية كبيرة، أن أوائلها كتبت فى عهد مبكر جداً، وعلى وجه التحديد فى جيل التابعين، حيث كان أكثر صحابة رسول الله، موجودين على قيد الحياة، فلم ينكروا على كتاب السيرة محاولتهم هذه، مما يدل على إقرارهم لما كتبوه.

ومن الطبيعى أن يكون صحابة رسول الله - ﷺ - على علم تام ودقيق وواسع بسيرته، لأنهم عاشوا أحداثها وشاركوا فيها، وكان حبهم لرسول الله، وتعلقهم به، ورغبتهم فى اتباعه. وأخذهم بسنته فى الأحكام، سبباً فى ذبوع أخبار السيرة، ومذاكرتهم فيها، وحفظهم لها، فهى التطبيق العملى لتعاليم الاسلام. هذا وقد كان هذا الاهتمام المبكر فى تسجيل وكتابة السيرة من أهم العوامل

التي قللت من احتمال تعرضها للتحريف أو للمبالغة أو التهويل أو الضياع. ولقد كتبت عدة دراسات حديثة عن رواد كتابة السيرة من التابعين ومن تلامهم^(١)

بيد أن هذه المؤلفات لم تهتم ببيان حال رواد كتابة السيرة من حيث الجرح والتعديل، ولم تقوم مؤلفاتهم من زاوية حديثة، ووفق قواعد مصطلح الحديث.

وأقدم من كتب في السيرة النبوية:

١ - عروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤ هـ) وهو محدث ثقة من التابعين، وبعد أحد الفقهاء السبعة المشهورين في المدينة. وقد جمع الدكتور محمد مصطفى الأعظمي مرويَّات عروة ونشرها مؤخرًا. على أن نشاط عروة لم يقتصر على التأليف في السيرة، ذلك أنه ألقى على تلاميذه معلومات جمعها بنفسه جرياً على سنة النقل الشفوي الذي يدعمه الإسناد، تلك السنة التي أصبحت من ثم قوام الطريقة المتبعة في السيرة^(٢).

٢ - أبان بن عثمان بن عفان (٣٢ - ١٠٥ هـ) وهو محدث ثقة من التابعين. وقد جمع دروسه عن حياة النبي - ﷺ - في كتاب تلميذه عبد الرحمن ابن المغيرة (ت ١٢٥ هـ) وأطلق على هذه الآثار الأدبية الأولى اسم المغازي، وهي التي ظلت من التواليف الماثورة إلى عهد متأخر، فضلاً عن أنها تتم -

(١) من أبرزها:

- ١ - هورفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها.
 - ٢ - مارغوليس: دراسات عن المؤرخين العرب.
 - ٣ - عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب.
 - ٤ - صالح العلي: فصل ضمن كتابه: محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام.
 - ٥ - الدكتور جواد علي: فصل في بداية كتابه: تاريخ العرب قبل الإسلام - السيرة النبوية.
 - ٦ - الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف: دراسة في مصادر التاريخ الاسلامي.
 - ٧ - مارسدن جونز: مقدمته لكتاب: مغازي الواقدي.
 - ٨ - الدكتور حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب.
- (٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة (سيرة)

كما يستفاد من القطع التي بقيت منها - على أن محتوياتها تتعلق في جوهرها بحياة النبي العامة^(١)

٣ - عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٣ هـ) وهو محدث ثقة، له كتاب المغازي^(٢)

٤ - عاصم بن عمر بن منادة (ت ١١٩ هـ)، وهو محدث ثقة.

٥ - محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) وهو من كبار المحدثين في عصره، وثقه جهازة علماء الجرح والتعديل، وهو أول من استخدم طريقة جمع الأسانيد ليكتمل السياق، وتتصل الأحداث دون أن تقطعها الأسانيد.

وقد انتقد على الزهري تلفيقه الحديث من عدة من شيوخه، دون أن يفرد حديث كل واحد منهم عن الآخر، لكن هذا الانتقاد الذي حكاه القاضي عياض، عن القدامى رده كبار العلماء مثل النووي والعراقي، حيث أوضحوا أن عمله جائز مادام قد بين ذلك، ومادام الجميع ثقات^(٣).

٦ - يزيد بن رومان الأسدي المدني (ت ١٣٠ هـ) تابعي ثقة، ألف في المغازي، معتمدا على عروة والزهري. يروى عنه ابن اسحاق^(٤)

٧ - عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم (ت ١٣٥ هـ) وهو محدث ثقة من التابعين.

٨ - موسى بن عقبة (ت ١٤٠ هـ)، وهو محدث ثقة من تلاميذ الزهري، وقد أثنى الإمام مالك على كتابه (المغازي) وقال: إنه أصحّ المغازي^(٥). وقال يحيى

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (سيرة)

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢٣٠/١٢

(٣) أنظر النووي: شرح صحيح مسلم ٦٢٨/٥، والعراقي: طرح التهذيب شرح التقريب ٤٧/٨

(٤) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢٢٥/٩

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١٥/٦

ابن معين: «كتاب موسى بن عقبة عن الزهري من أصح هذه الكتب»^(١). وقال الإمام الشافعي: وليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره»^(٢).

٩ - محمد بن عبد الرحمن بن نوفل (ت ٢٣١هـ) له كتاب «المغازي»^(٣).

١٠ - سليمان بن طرخان التيمي (ت ١٤٣هـ) وهو محدث ثقة من التابعين.

١١ - معمر بن راشد (ت ١٥٣هـ) وهو محدث ثقة من تلاميذ الزهري «كان من أوعية العلم مع الصدق والتحرى والورع والجلالة وحسن التصنيف»^(٤).

١٢ - محمد بن اسحاق (ت ١٥١هـ) من تلاميذ الزهري، إمام في المغازي، لكن مروياته لا ترقى إلى درجة الصحيح، بل الحسن بشرط أن يصرح بالتحديث، وهو أول من وضع السيرة في نسق التاريخ العام. وتحتوي سيرته على الحسن والضعيف معا.

قال ابن عدي: وقد فتشت أحاديثه، فلم أجد في أحاديثه ما يتهبأ أن يقطع عليه الضعف، وربما أخطأ أو يهمل، كما يخطئ غيره، ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة، وهو لا بأس به. وهذه الشهادة لها قيمتها العلمية، لا لمكانة ابن عدي وتشدده في التوثيق فقط، بل لأنها مبنية على سير الروايات، وليس على نقل أقوال النقاد الإقدامى فقط، والتي تدور حول اتهام ابن اسحاق بالقدر وبالتشيع وبالتدليس^(٥)، ومرة باحتمال كذبه في الرواية عن فاطمة زوجة هشام ابن عروة بن الزبير، ولم يثبت كذبه، فقد رد على الاتهام عدد من الأئمة النقاد منهم الإمام أحمد بن حنبل.

وقال الحافظ الذهبي: «لا ريب أن ابن اسحاق كثر وطول بأنسب

(١) الخطيب: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٢٢٥

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ١١٢، ٣٥١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٧.

(٥) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٣٩.

مستوفاة، اختصارها أملح، وبأشعار غير طائفة حذفها أرجح، وبآثار لم تصحح، مع أنه فاته شيء كثير من الصحيح لم يكن عنده، فكتابه محتاج إلى تنقيح وتصحيح، ورواية ما فاته»^(١)

وقد أجاد الحافظ الذهبي في بيان مرتبة حديثه، فقال عنه: «له ارتفاع بحسبه ولا سيما في السير، وأما أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن، إلا فيما شذ فيه، فإنه يُعدّ منكراً»^(٢).

ويقول العراقي: «المشهور قبول حديث ابن اسحق، إلا أنه مدلس، فإذا صرح بالتحديث كان حديثه مقبولا»^(٣).

ولا يعني ذلك توثيق سائر مرويات كتابه في السيرة، فقد أورد فيها روايات منكرة ومنقطعة، سجلها عليه الحافظ الذهبي، قال: «صالح الحديث ماله عندي ذنب إلا ما قد حشاه في السيرة من الأشياء المنكرة والمنقطعة»^(٤).

والظاهر من كلام العلماء أن استخدام الإسناد في كتابه قد اضطرب اضطراباً صدم فقهاء علم الحديث المستمسكين بأصول السنة صدمة عنيفة، فأنكروا عليه بالإجماع صفة المحدث الثبت.

وهذا الحكم الذي أعلنه الإمام مالك بن أنس، هو الذي جعل ابن اسحق يهجر التدريس في المدينة، وينزح إلى العراق. وهذا الحكم عظيم الأهمية، فهو يفرق تفرقة واضحة، بين الحديث التاريخي والحديث العقيدى.

١٣ - أبو معشر السندی (ت ١٧١ هـ) وهو بصير في المغازي، ضعيف في الحديث، لكن ضعفه نسبي، يكتب معه حديثه، لاسيما حديثه عن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس، تمشياً مع رأى الطبقة المتوسطة من النقاد، لأن منهج المحدثين

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١٦/٦.

(٢) المرجع السابق ١٤١/٧.

(٣) طرح التثريب شرح التقريب ٧٢/٨.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤١/٧.

الأخذ بقول الطبقة المتوسطة في التجريح إذا تعارض مع قول الطبقة المتشددة^(١).

١٤ - عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن حزم المدني (ت ١٧٦هـ) محدث ثقة في كتابه «المغازي»^(٢).

١٥ - يحيى بن سعيد الأموي (ت ١٩٤هـ) محدث ثقة صنف المغازي.

١٦ - الوليد بن مسلم الدمشقي (ت ١٩٦هـ) محدث ثقة.

١٧ - يونس بن بكير (ت ١٩٩هـ) وهو أحد رواة سيرة ابن اسحق، وله زيادات على المغازي^(٣).

١٨ - محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، وهو ضعيف عند المحدثين، مع غزارة مادته العلمية، ولا تصلح مروياته للاحتجاج بها فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة، ولكنها تنفع في وصف تفاصيل الأحداث. والملاحظ في استقراء مغازيه، أنه يسوق روايات كثيرة، من طرق فيها رجال لا نجد لهم تراجم في كتب علم الرجال، وأما الروايات التي ينقلها ابن سعد عن الواقدي، فيبدو أنه انتقاها، حيث نجد تراجم رجال الإسناد في كتب علم الرجال.

ومعنى ذلك أن أسانيد الواقدي فيها رجال ليست لهم رواية في الحديث، لذلك لم نترجم لهم كتب الرجال، أو أنهم مُختَلَقُونَ وضع أسماءهم الواقدي. ومن هنا يتضح سبب اتهام المحدثين النقاد له بالكذب والوضع، وحكمهم عليه بأنه متروك. ولا شك أن جميع مرويات الراوي ودراساتها والحكم عليه من خلالها كان منهج كثير من الأئمة والنقاد في الحكم على الرواة المكثرين.

١٩ - محمد بن عائد الدمشقي (ت ٢٣٤هـ)، محدث ثقة، وقد قرأ ابن حجر جزءاً منتقى من مغازيه، كما ذكر في المعجم المفهرس.

(١) راجع: ابن حبان: المجروحين ٦٠/٣ والتاريخ الكبير للبخاري ١١٤/٨، وتاريخ بغداد ١٣/١٧٢ وتهذيب التهذيب ٤٢٠/١٠.

(٢) ابن التديم: الفهرست ٢٨٢.

(٣) ابن حجر: الإصابة ٢٤٢/١.

- ٢٠ - علي بن محمد المدائني (ت ٢٥٥ هـ) ورد في ترجمته ما يدل على صدقه في الأخبار، وهو يمتاز بتناوله موضوعات من السيرة أفردتها في مصنف، وهي مهمة في دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للسيرة.
- ٢١ - عبد الله بن محمد بن نفيل الحراني (ت ٢٣٤ هـ) له كتاب «المغازي»، وهو ثقة حافظ.
- ٢٢ - صالح بن اسحق الجرمي النحوي (ت ٢٢٥ هـ) كان جليلاً في الحديث والأخبار، وله كتاب في السيرة عجيب^(١).
- ٢٣ - أحمد بن الحارث الخراز (ت ٢٥٨ هـ) له كتاب «مغازي النبي وسراياه وأزواجه».
- ٢٤ - عبد الملك بن محمد الرقاش البصري (ت ٢٧٦ هـ) له كتاب «المغازي» وهو صدوق يخطئ.
- ٢٥ - اسماعيل بن جميع (ت ٢٧٧ هـ) له كتاب «أخبار النبي ومغازيه وسراياه»^(٢).
- ٢٦ - ابراهيم بن اسماعيل العنبري الطوسي (ت ٢٨٠ هـ) له كتاب في «المغازي».
- ٢٧ - اسماعيل بن اسحاق القاضي (ت ٢٨٢ هـ) له كتاب «المغازي».
- وقد ذكرت كتب التراجم أسماء عدد من التابعين وأتباعهم ومن تلاهم، ووصفتهم بالعلم بالسيرة والاهتمام بها، مثل أبي اسحق عمرو بن عبد الله السبيعي (ت ١٢٧ هـ) ويعقوب بن عتبة بن المغيرة المدني (ت ١٢٨ هـ) وداود بن الحسين الأموي (ت ١٣٥ هـ) وعبد الرحمن بن عبد العزيز الحفيفي (ت ١٦٢ هـ) ومحمد بن صالح بن دينار (ت ١٦٨ هـ) وعبد الله بن جعفر المخرمي المدني (ت ١٧٠ هـ).

(١) الخطيب: تاريخ بغداد ٣١٤/٩.

(٢) ابن التديم: الفهرست ١١٢.

وهؤلاء لم تصرح المصادر بتأليفهم كتاباً في السيرة، بل أشارت إلى عنايتهم واهتمامهم بالتحديث بها^(١) لذلك لم أثبتهم ضمن أسماء المؤلفين في السيرة، واكتفيت بهذه الإشارة إليهم.

هؤلاء هم الرواد الأوائل في كتابة السيرة، ويتضح من توثيق نقاد الحديث لأكثرهم، ما تميزوا به من العدالة وال ضبط، وهما شرطان عند العلماء لتوثيق الرواة، فلو كانوا قد وثقوا عند المحدثين رغم دقة شروطهم في التوثيق، ورغم نظرهم لهم على أنهم محدثون، مادتهم الأحاديث وليسوا إخباريين مادتهم الأخبار، والنقاد يتشددون في مادة الحديث كثيراً، ويتساهلون في قبول الأخبار^(٢)، فإن هذا التوثيق يعطى كتاباتهم في السيرة قيمة علمية كبيرة.

لقد حفظ الله تعالى سيرة نبيه - ﷺ - من الضياع والتحريف والمبالغة والتهويل، بأن هبأ جهاذة المحدثين، ليعنوا بها ويدونوا أصولها الأولى، قبل أن تتناولها أقلام المؤرخين والقاصين، وهذه ميزة لمصادر السيرة لم تتوفر لغيرها من كتب التاريخ والأخبار.

ميزة لكون المحدثين ثقات مأمونين في الرواية، وميزة لكونهم علماء لهم مناهج واضحة في نقد الروايات سنداً ومحتواً، ولهم أسلوب يتسم بالجدية والبعد عن الحشو والمبالغة.

وحقا فإن مصنفات هؤلاء الأعلام الذين ذكرتهم في السيرة معظمها قد سقط من يد الزمن، لكن المصادر التالية - التي وصلت إلينا - اعتمدت عليها، ونقلت عنها كثيراً بالأسانيد، فوصلت منها مادة علمية كبيرة، وقد ظلت مادة المصنفات الأولى، هي الأساس وهي الأصل في كل المصنفات المتأخرة، ليس في المادة فقط، بل في طريقة العرض أيضاً.

(١) انظر تراجمهم في المرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٢٠٢، وتاريخ بغداد ١٢/٢٣٠، وتهذيب التهذيب ٨/٦٣، ٦٧، ١٧٢/٥، ٣٨٨/٦، ٢٩٣/١١، وتاريخ التراث العربي ٢/٤٥٦.

(٢) د/أكرم العمرى: مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٤.

* ومن أبرز المصادر التي وصلت إلينا في السيرة النبوية:

١ - سيرة ابن هشام:

وهي تهذيب لسيرة ابن اسحاق، حيث حذف ابن هشام منها كثيرا من الأشعار المنتحلة والاسرائيليات، وأضاف إليها معلومات في اللغة والأنساب، مما جعلها - بعد التهذيب - ترضى جمهور العلماء فليس من مؤلف في السيرة - بعده - إلا ويعتمد عليه.

والحق أن الصورة التي تعطيها هذه السيرة عن حياة الرسول، تقترب إلى حد كبير مما أورده كتب الحديث الصحيحة، مما يعطى سيرته توثيقا كبيرا. خاصة وأن عمله كان يتسم بالنقد والتوثيق، فجاء كتابه أوفى وأغزر مصادر السيرة النبوية، وأصحها وأدقها.

وقد شرح سيرة ابن هشام الحافظ السهيلي (ت ٥٨٢هـ) في كتابه «الروض الأنف» وهو مطبوع. والخشني (٥٣٥ - ٦٠٤هـ).

٢ - مغازى الواقدي، لمحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ)

وفي هذه المغازي يقدم في بعض الأحيان إضافات على سيرة ابن اسحاق^(١)، ويبدى رأيه في الروايات، ويرجح بينها^(٢)، ويعترف العلماء بغزارة مادته في السيرة، لكن المحدثين ضعفوه^(٣) فقال النسائي: «يضع الحديث»، واتهمه الإمام الشافعي بالوضع، وقال عنه الإمام أحمد: كذاب. وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة، والبلاء منه» وقال ابن حجر: متروك مع سعة علمه^(٤). وقد دافع عنه ابن سيد الناس بما لا طائل تحته، بعد أن جرحه النقاد.

(١) مارسدن جونز: مقدمة مغازى الواقدي ص ٣٤، والدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب ص ٣١.

(٢) مقدمة مغازى الواقدي ص ٣٤.

(٣) الخطيب: تاريخ بغداد ٢١/٣.

(٤) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر، وفي تقريب التهذيب له أيضا.

٣ - الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) حيث خصص المجلدين الأولين من كتابه للسيرة. وابن سعد ثقة يتحرى في كثير من رواياته، كما يقول الخطيب البغدادي، والعسقلاني، لكنه ينقل أحياناً عن الضعفاء مثل الواقدي، الذي أكثر من النقل عنه، حتى اتهمه ابن النديم بسرقة مصنفاته. بيد أن التحقيق والتدقيق، كلاهما يثبت أن ابن سعد مؤلف له منهجه، وأنه يكثر من النقل لا عن الواقدي وحده، بل عن كثير من الشيوخ البارزين من أمثال عفان بن مسلم، وعبيد الله بن موسى، والفضل بن دكين، والثلاثة من ثقات المحدثين^(١). وكان منهجه في الطبقات يسير على ذكر أسماء الصحابة والتابعين، بعد ذكر سيرة رسول الله - بحسب طبقاتهم وقبائلهم وأماكنهم، ويعتبر كتابه هذا من أوثق المصادر الأولى لسيرة رسول الله - ﷺ - وأحفظها بذكر الصحابة والتابعين.

٤ - تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)

وهو محدث ثقة من شيوخ البخاري في الصحيح، وكتاباه تاريخ عام تناول في بدايته أحداث السيرة باقتضاب، معتمداً على ابن اسحق بالدرجة الأولى^(٢) ٥ - أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ) وهو تاريخ عام مرتب على الأنساب، وقد خصص البلاذري القسم الأول منه للسيرة.

وينظم المحدثون البلاذري في سلك الضعفاء، فقد أورد العسقلاني ترجمته في كتابه (لسان الميزان) ضمن الضعفاء.

٦ - تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)

حيث خصص قسماً منه للسيرة. والطبري محدث ثقة، واعتمد على ابن اسحق في معظمها، وأبرز خصيصة في منهجه، أنه لا يهتم بنقد الروايات التي يوردها من

(١) د/أكرم العمري: بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ٥٦، ٥٧.

(٢) د/أكرم العمري: مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦، ٢٧.

حيث الصحة والضعف، بل يسوقها بأسانيدها، تاركا للقارئ مهمة التحقيق والترجيح^(١)

٧ - الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣ هـ)

وهو من أعلام المحدثين في عصره، وقد اعتمد على سيرة ابن اسحاق، وسيرة موسى بن عقبة، وتاريخ ابن أبي خيثمة، بالإضافة إلى كتب الحديث^(٢). ولم يصرح بالنقل عن الواقدي إلا في موضع واحد^(٣). لكنه أشار إلى روايته لمغازيه^(٤). وقد صرح بمتابعة ابن اسحاق في البناء العام لكتابه^(٥) ولم يتقيد بذكر الإسناد كثيرا.

٨ - جوامع السيرة، لابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦ هـ)

وقد غفلى عن طريقة ذكر الأسانيد، ولم يذكر مصادره^(٦)، وهو يرجح بين الروايات، ويثبت في كتابه ما اختاره وحققه في تواريخ الأحداث^(٧)، وغلبت عليه طريقة التلخيص، فجرد السيرة من الأشعار والقصص.

٩ - الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (ت ٦٣٢ هـ)

وهو مؤرخ ثقة، وكتابه تاريخ عام، خصص قسما منه للسيرة.

١٠ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، لابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ)

وهو محدث ثقة، وثقه الذهبي وابن كثير، وقد أكثر فيه النقل عن كتب الحديث، إلى جانب كتب المغازي التي سبقته، وقد ذكر مصادره في مقدمة كتابه.

(٢) د/أكرم العمري: مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦، ٢٧

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك - مقدمة طبعة أبي الفضل إبراهيم ٨/١

(٢) الدكتور شوقي ضيف: مقدمة كتاب الدرر ص ٨، ابن عبد البر: الدرر ص ٣٩.

(٣) الدرر ص ٢٧٦

(٤) الدكتور شوقي ضيف: مقدمة كتاب الدرر ص ١٢

(٥) مقدمة جوامع السيرة ص ٨.

(٦) جوامع السيرة، المقدمة ص ١٠

(٧) المصدر السابق ص ١٣

١١ - زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) وهو عالم ثقة، وكتابه نفيس في الشئائل والآداب والفقه والمغازي، فهو يجمع بين ذلك كله.

١٢ - السيرة النبوية، للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) وهو مؤلف ثقة يمتلك عقلية ناقدة جيدة، وخاصة في استخدام قواعد المحدثين، التي يعتبر من أهل الاستقراء التام فيها، وقد اقتصر على نقد بعض الروايات في كتابه هذا.

١٣ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وهو تاريخ عام، خصص جزءا منه للسيرة. وابن كثير من الأئمة الثقات المتحققين، وثقه علماء كثيرون كالذهبي والعسقلاني وابن العباد الحنبلي وغيرهم.

١٤ - السيرة الحلبيّة، لبرهان الدين الحلبي (ت ٨٤١هـ) ومنهجه يقوم على حذف أسانيد الروايات والاكتفاء بذكر راوي الخبر، وشرح بعض الغريب، وإضافة بعض التعليقات، وقد حشاه بالقصص الاسرائيلي^(١)

١٥ - المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية، لأحمد بن محمد القسطلاني (ت ٩٢٣هـ)

وهو من الكتب الجامعة بين السيرة والشئائل، وقد شرحه محمد بن عبد الباقي الزرقاني المتوفى سنة ١١٢٢هـ في ثمانية مجلدات.

١٦ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الدمشقي الشامي (ت ٩٤٢هـ) جمعها من أكثر من ٣٠٠ كتاب.

٤ - كتب الدلائل والشئائل:

أما كتب الدلائل والشئائل، فهي تذكر المعجزات والدلائل التي تبين صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وتعرف بالتأييدات الإلهية للرسول الكريم.

ورغم أن كتب الحديث اشتملت على أبواب في علامات النبوة وآياتها

(١) الدكتور: جواد علي: تاريخ العرب قبل الاسلام، السيرة النبوية ص ١٠.

ودلائلها^(١)، وخصائص الرسول - ﷺ - إلا أن هناك كتباً قد خصصت لإبراز الدلائل على نبوته - ﷺ.

(١) من أقدم من ألف في دلائل النبوة:

- ١ - محمد بن يوسف الغرياني (ت ٢١٢هـ) وهو ثقة ثبت في كتابه «دلائل النبوة»
- ٢ - علي بن محمد المدائني (ت ٢١٥هـ) في كتابه «آيات النبی»^(٢)
- ٣ - داود بن علي الأصفهاني (ت ٢٧٠هـ) في كتابه «أعلام النبوة»
- ٤ - وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في مؤلفه «أعلام رسول الله»
- ٥ - وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) في كتابه «أعلام النبوة»
- ٦ - وأبو بكر بن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)
- ٧ - وأبو عبد الله بن منده (ت ٣٩٥هـ)
- ٨ - وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) وقد طبع مختصر منه، وفيه روايات كثيرة ضعيفة.
- ٩ - والقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥هـ) في كتابه «تثبيت دلائل النبوة» وهو مطبوع.
- ١٠ - وأبو العباس جعفر بن محمد المستغفري (ت ٤٣٢هـ)
- ١١ - وأبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠هـ) وهو مطبوع.
- ١٢ - وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) وهو مطبوع.

(١) أنظر صحيح البخاري ١٤٠/٢ ط بولاق، وصحيح مسلم وغيرهما من الكتب.

(٢) ابن النديم: الفهرست ١١٣

ويضم أحاديث صحيحة وحسنة وأخرى ضعيفة وموضوعة، وقد امتدح الحافظ الذهبي هذا الكتاب^(١)

١٣ - وأبو القاسم اسماعيل الأصفهاني (ت ٥٣٥هـ)

١٤ - وعمر بن علي بن الملقن (ت ٨٠٤هـ) في كتابه «خصائص أفضل المخلوقين».

١٥ - وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه «الخصائص الكبرى» وهو مطبوع، ويتناول السيرة والدلائل.

وكتب الخصائص والدلائل كثيرة، فاقترنت على بعضها، وليست هذه القائمة مشتملة على سائر ما ألف، فهناك مؤلفات أخرى في هذا الموضوع.

(ب) كتب الشئائل:

أما كتب الشئائل فتحدث عن مكانة وأخلاق وآداب وصفات الرسول - ﷺ. وأقدم من ألف فيها:

١ - داود بن علي الأصبهاني (ت ٢٧٠هـ) في كتابه «صفة أخلاق النبي»^(٢).

٢ - والحافظ الترمذي (ت ٢٧٩هـ) في كتابه «الشئائل النبوية والخصائص المصطفوية» وهو مطبوع.

٣ - الشيخ عبد الله بن محمد بن حيان الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ) في كتابه «أخلاق النبي وآدابه» وهو مطبوع.

٤ - أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٦هـ) في كتابه «شرف المصطفى».

٥ - أبو العباس المستغفرى (ت ٤٣٢هـ) في كتاب «شئائل النبي».

(١) سير أعلام النبلاء ١١٦/٦

(٢) ابن النديم: الفهرست ٢٧٢

٦ - الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ) وقد صنف كتابا بعنوان «شئائل الرسول» وهو مطبوع.

٧ - القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وهو محور دراستنا الآن، للتعريف بمنهجه.

* وقد خرّج أحاديثه الحافظ السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتاب «مناهل الصفا في تخرّيج أحاديث الشفا» وهو مطبوع.

* وشرحه عدد من العلماء، منهم على القاري (ت ١٠١٤هـ) في «شرح الشفا» وهو مطبوع. والخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) في كتابه «نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض».

٣ - منهج القاضي عياض في تأليف السيرة

(أ) نظرته إلى السيرة:

نظر القاضي عياض إلى السيرة النبوية على أنها فقه الإيمان، وبرد اليقين، وأنس الروح، وسعادة النفس، ونشوة الحسّ..

نظر إليها على أنها نور وهّاج، أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية، فانجابت كما ينجاب الغمام، وهدى من الله أرسله إلى الإنسانية الضالة فانتشلها من ضيعة، وانتاشها من هلاك، وأنقذها مما كانت تتخبط فيه من دياجير الظلام، وعقاييل الضلال.

إن سيرة الرسول المصطفى - ﷺ - بين ذهن القاضي عياض وقلمه، سيرة عالية، رفيعة الشأن، جليلة القدر، عظيمة النفع، كبيرة الفائدة، تلمع أضواؤها في الكتاب والسنة، متضمنة نفحات من هذا الهدى، وممضات من ذلك الإشراق.

إن سيرة الرسول - ﷺ - في مفهومه - سيرة الحبيب المحبوب، غنية بأحداثها، زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها.

إنها صفحة عريضة، فريدة وحيدة من صفحات الجهاد لإنقاذ البشرية، ومثل صادق، فريد وحيد لمثل البر والرحمة. وما كان لباحث منصف، يسعى إلى إيفائها حقها من البحث والتحليل، إلا أن يوسع نطاق رؤياه، ويصب اهتماماته على مضمونها، من حيث كونها.. واقعية مثالية، دينية أخلاقية، قيادية روحية، فقهية حضارية.

ومن هنا لم يلتزم القاضى عياض الخط الزمني لأحداث السيرة النبوية، ذلك الخط الذى وقع فى أسره معظم المؤرخين والكتابين، فضاعت فى مجراه حقائق، وطُمست دلالات وقيم ما كان لها أن تضيع أو تطمس لو قُسمت وقائع السيرة إلى دراسات موضوعية متجانسة، استقصيت فيها سائر جوانبها، ونسقت لجل وقائعها، وحللت جميع دلالاتها.

رأى القاضى عياض، أن التزام الخط الزمني، يدفع الباحث إلى أن يعرض فى النقطة الواحدة، أو المقطع الواحد مجموعة أحداث، ووقائع متنافرة، متقاطعة غير متجانسة، ويلجئه أحيانا إلى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة، لا يضمها إطار واحد، ولا يوحدتها تجانس نوعى. وهذا هو الأسلوب الذى اعتمده، والمنهج الذى ارتضاه المؤرخون القدماء، وعرفوه باسم (الحوليات)، حيث لم تكن مناهج البحث فى علوم التاريخ قد استكملت أسبابها بعد.

ورأى كذلك، أن اعتماد بعض الكتّاب فى السيرة، على المصادر التاريخية القديمة، كمصادر محورية، وتغافلهم عن واحد أو أكثر من المصادر الأساسية، كالقرآن والسنة وأشعار العرب، جعلهم يتركّون فقرات عميقة فى صلب أبحاثهم، كما دفعهم إلى سرد الكثير من المعلومات والروايات.. ومن ثمّ كان تضخيم وقائع السيرة إلى أضعاف حجمها الحقيقى، على حساب الأمور الجوهرية فى سيرة المصطفى - ﷺ.

أما الباحثون المسلمون من المحدثين وعلماء القرآن، والقاضى عياض رائدهم، فقد كانوا منهجين فى بحوثهم عن الرسالة والرسول، نظروا إلى القرآن الكريم كمصدر ريانى، تعلو معطياته على كل المصادر التاريخية، وعلى الأحداث

والظروف زمانا ومكانا.. ونظروا إلى السيرة النبوية كوحدة عضوية متكاملة، مصدرها الأساسى: القرآن والسنة المطهرة الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين، المروية المتواترة..

ومن رحمة الله عز وجل، أن اتصال السند، من خصائص الأمة الإسلامية، فلسنا نعرف على مدى التاريخ البشرى كله، أمة من أمم الرسل، قد سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة، من الأحاديث النبوية، ومن المرويات عن الصحابة والتابعين وتابعيهم.. بل على العكس من ذلك، نرى الأمم كلها فقيرة، لا تملك مصدرًا من مصادر البحث عن سير الأنبياء، ونراها قد انقطع ما بينها وبين أنبيائها، وفقدت الصلة التى تصلها بعصور هؤلاء الرسل.

أما الرسول الكريم - ﷺ - فهو الرسول الذى يُعرف عنه كل دقيق وجليل، ويعرف عنه من دقائق الأخلاق والصفات، والقول والعمل، وكلها متواترة، استنادًا إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

فالقرآن والسنة - بهذه الصورة، مصدران أصيلان، وسجلان خالدان، بهما حفظت هذه السيرة المباركة، وعن طريقهما يعرف كل مسلم ما يتصل بنبيّه، من قول وفعل، وخصال وخصائص، وتقرير ووصف فى الحركات والسكنات، ويسعد بصحبته، وكأنه يعيش فى عصره، يحضر مجالسده، ويستمتع لحديثه، ويقضى معه أسعد مدة من الزمان.

ومن رحمة الله - تبارك وتعالى، أن كانت هذه الأمة، تملك قوة الذاكرة، وسرعة الحفظ والاستظهار، مما يسر لها الجمع والحفظ والاستحضار، حيث كانت القلوب واعية، والعقول حافظة، ولا غرو.. فقد برهن الوحي بقوة بيانه، وأخذ عليهم مشاعرهم، بسطوة سلطانه، واستأثر بكريم مواهبهم، فى لفظه ومعناه، فكان الحفظ فى الصدور، والتدوين فى السطور، وكانت صبغة الله، التى شاء أن تكون، وقد خلعوا عليه حياتهم، حين علموا أنه روح الحياة.

ومن ثمّ كانوا أهلاً لتحمل الرواية، وفقه الدراية، حتى فاقوا فى ذلك كل الأمم، وقد وعى الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - ما سمعوا وما شاهدوا،

وحرصوا أشد الحرص وأبلغه على حفظه، ونشره، حرصا لم يعرف عن أمة نبي من الأنبياء. وجاء التابعون، وتابعوهم بإحسان، فحملوا الرواية، وأدوا الأمانة، وبلغوا حديث الرسول الكريم، وسيرته وأحواله، وتتابع المسلمون جيلا بعد جيل، يحفظون، ويبلغون، ويتذكرون.

وكان لقواعد التحديث الأثر الفعال في وضع الموازين، التي تكفل السلامة للعلماء الباحثين، وتقيم الحجة على المفسدين المغالطين، ممن ساءت نواياهم حيال هذا النبي الكريم، وهذا الدين، فاتهموا هذه القواعد بما لا يقوم على ساق ولا قدم، ولا يستقر عند البحث والنظر.

أجل.. إن في هذه القواعد، التي تواضع عليها علماء الحديث والقرآن، فوائد مهمة فريدة، ومباحث جمة مفيدة، ومعارف رائعة وحيدة، وعوارف رائعة عجيبة، وتحقيقات بدیعة لطيفة، ومعالم نفيسة شريفة، لا يستغنى عنها من يشتغل بالبحث في السيرة النبوية، والعلوم الشرعية، والطرق الحكمية، والأدلة اليقينية.

إن المحدثين وعلماء القرآن كانوا ملهمين، تحقيقا لمعجزة سيد المرسلين، وخاتم النبيين، حين استخرجوا معالم السيرة النبوية، واستنبطوا القواعد المحكمة، وعرفوا الصحاح من الزياف.. وأنهم ما كانوا هازلين ولا مخدوعين، بل كانوا جادين، على هدى وعلى صراط مستقيم، فكانت تلك القواعد، التي ارتضوها للتوثيق من صحة الأخبار والأحداث، أحكم القواعد وأدقها، ولو ذهب الباحث المنصف المتثبت يطبقها لآتته ثمرتها، ووضعت يده على الخبر اليقين.

إن نظرة فاحصة، على عطاء السيرة النبوية - في كتاب الشفا، تبصرنا بأن السيرة ليست مجرد سرد للحوادث، وإنما هي تفسير الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية، التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان.

ولقد كانت مصادره المعتمدة، هي نفسها المصادر المعتمدة في المنهج الإسلامي، وهي المرجع المعول عليه مع تحرير النصوص وتنسيقها. وتطبيق قواعد التحديث

رواية ودراية. فكان الرجل يعيش في سيرة المصطفى ﷺ بعقله وقلبه، وروحه ونفسه، وحسّه وشعوره وإدراكه، في جو الإسلام كعقيدة وشرعية، وفكر ونظام، وفي جو الحياة الإسلامية المباركة الطيبة، كصورة واضحة المعالم والقسيمات. لقد كان القاضي عياض، يدرك معطيات السيرة النبوية إدراكاً حقيقياً، وكان يتجاوب معها بكل ذاتيته، ويعيش في جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها قلباً وقالباً.. من هنا أمكنه دراسة السيرة النبوية دراسة واعية، بإدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية.

(ب) منهجه في البحث:

كان القاضي عياض أميناً ودقيقاً، حين حدّد منهجه في دراسة السيرة النبوية، في مقدمة كتابا الشفا.

لقد قسّم بحثه إلى أربعة أقسام رئيسية، كل قسم منها يضم مجموعة من الأبواب. وكل باب يندرج تحته فصول. وهو بذلك يجزئ دراسته، حتى يسهل عليه تناولها تناولاً حصرياً، وحتى لا يفوته موضوع، أو تغفل عليه نقطة، وهو في ذلك يقول:

«ولما نويتُ تقريره، ودرجت تبويبه، ومهدتُ تأصيله، وخلّصت تفصيله، وانتحيت حصّره وتحصيله، ترجمته «بالشفا بتعريف حقوق المصطفى» وحصرت الكلام فيه في أربعة أقسام^(١):

● القسم الأول: في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولا وفعلًا.

الباب الأول: في ثنائه تعالى عليه، وإظهاره عظيم قدره لديه. (وفيه عشرة فصول).

الباب الثاني: في تكميله له بالمحاسن، خلّقا وخلّقا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقًا. (وفيه سبعة وعشرون فصلاً).

(١) الشفا ص ٨ وما بعدها.

الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصّه الله به في الدارين من كرامته. (وفيه اثنا عشر فصلا).
 الباب الرابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمعجزات، وشرفه به من الخصائص والكرامات (وفيه ثلاثون فصلا).

● القسم الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه - عليه الصلاة والسلام.

ويرتب القول فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في فرض الإيمان به، ووجوب طاعته، واتباع سنته. (وفيه خمسة فصول).

الباب الثاني: في لزوم محبته ومناصحته، (وفيه ستة فصول).

الباب الثالث: في تعظيم أمره، ولزوم توقيره وبره (وفيه سبعة فصول).

الباب الرابع: في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته (وفيه عشرة فصول).

● القسم الثالث: فيما يستحيل في حقه - ﷺ - وما يجوز عليه، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه.

وهذا القسم هو سرّ الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات، والدلائل على ما نوره فيه من النكت البيّنات. وهو الحاكم على ما بعده، والمنجز من غرض هذا التأليف وعده..

وعند التقصى لموعده، والتفصى عن عهده، يشرق صدر العدو اللعين، ويشرق قلب المؤمن باليقين، وتلأ أنواره جوانح صدره، ويقدر العاقل النبي حق قدره.

ويتحرر الكلام فيه في بابين:

الباب الأول: فيما يختص بالأمور الدينية، ويتشبت به القول في العصمة (وفيه ستة عشر فصلا)

الباب الثاني: في أحواله الدنيوية، وما يجوز طرؤه عليه من الأعراض البشرية (وفيه تسعة فصول)

● القسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام على مَنْ تَنَقَّصَهُ أو سَبَّهُ - ﷺ

وينقسم الكلام فيه في بابين:

الباب الأول: في بيان ما هو في حقه سبٌّ ونقص من تعريض أو نص (وفيه عشرة فصول)

الباب الثاني: في حكم شائته ومؤذيه ومنتقصه، وعقوبته، وذكر استتابته والصلاة عليه وورائته. (وفيه عشرة فصول)

ثم يقول القاضى عياض: وختمناه بباب ثالث. جعلناه تكملة لهذه المسئلة، وَوُضِلَتْ للباين اللذين قبله، في حكم من سب الله تعالى، ورُسِلَه وملائكته وكتبه وآل النبي - ﷺ - وصحبه - (واختصر الكلام فيه في خمسة فصول)

وبتأملها ينتجز الكتاب، وتتم الأقسام والأبواب، ويلوح في غرة الايمان لمعة منيرة، وفي تاج التراجم دُرَّة خطيرة، تزيع كل لبس، وتوضح كل تخمين وحَدَس، وتشفى صدور قوم مؤمنين، وتصدع بالحق وتعرض عن الجاهلين.

هذا هو المنهج الذى وضعه القاضى عياض لنفسه، في دراسته لسيرة المصطفى - ﷺ.

ونظرة فاحصة في خطة بحثه، نجد ما يلى:

١ - أنه خصص القسم الأول لدراسة شخصية الرسول - ﷺ، كما رسمها القرآن، وحدد معالمها الحق تبارك وتعالى.

- ٢ - وأنه خصص القسم الثاني لدراسة حقوق الرسول قِبَل المسلمين.
- ٣ - وأنه خصص القسم الثالث لدراسة شخصية الرسول - ﷺ - من جانبين:

(أ) جانب النبوة

(ب) الجانب الإنساني.

- ٤ - أما القسم الرابع والأخير، من دراسته، فقد خصصه لإبراز موقف الشريعة من العداوة للرسول.
- ٥ - أنه تنكب الجوانب التاريخية، التي نهجها كتاب السيرة السابقين، وتفرد بالحديث عن هذه الجوانب الدينية.
- وستكون خطة بحثنا - إن شاء الله - وفق خطته، وتسير على نهجه وأسلوبه.

البَابُ الأولُ

شخصية الرسول كما رسمها القرآن

تمهيد

الفصل الأول : في ثناء الله عليه

الفصل الثاني : خصال الكمال والجمال

الفصل الثالث : عظيم قدره ومنزلته عند ربه

الفصل الرابع : معجزاته (ﷺ)

شخصية الرسول كما رسمها القرآن

تمهيد:

صدر القاضى عياض فصول هذا الباب، بمقدمة تمهيدية، تحدث فيها عن مجمل موضوعات هذا الباب، قال فيها:

«لَاخْفَاءَ عَلَى مَنْ مَارَسَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ، أَوْ خُصَّ بِأَدْنَى لَمَحَةٍ مِنَ الْفَهْمِ، بِتَعْظِيمِ اللَّهِ قَدْرَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَخُصُوصِهِ إِيَّاهُ بِفَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ، وَمُنَاقِبَ، لَا تَنْضَبُطُ لَزَامًا، وَتَنْوِيهِهِ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ بِمَا تَكَلَّلَ عَنْهُ الْأَلْسَنَةُ وَالْأَقْلَامُ.

ولقد أوضح القاضى عياض فى هذه المقدمة، أن المنهج الإلهى سلك طريقين، لتوضيح شخصية الرسول ﷺ. طريق نظرى، وطريق عملى تطبيقى.

* أما الطريق النظرى، فهو ما صرح به تعالى فى كتابه، ونبه به على جليل نصابه، وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه، وحضّ العباد على التزامه، وتقلد إيجابه، فكان جل جلاله هو الذى تفضل وأولى ثم طهر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثنى عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءًا وعودًا.

* أما الطريق الثانى: فهو الطريق العملى التطبيقى - وهو ما أبرزه للعيان من خلقه على أتم وجوه الكمال والجمال، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة، التى شاهدها من عاصره، ورآها من أدركه، وعلمها علم اليقين من جاء بعده، حتى انتهى عِلْمُ حقيقة ذلك إلينا.

إذا فموضوعات هذا الباب - كما أجملها القاضى عياض، تتناول:

- ١ - ثناء الله عليه.
- ٢ - خصال الجمال والكمال.
- ٣ - عظيم قدره ومنزلته عند ربه.
- ٤ - معجزاته - ﷺ.

الفصل الأول

في ثناء الله عليه وإظهاره قدره لديه

بدأ القاضى عياض دراسته للسيرة النبوية، سالكا الطريق النظرى، فتناول مكانة الرسول عند ربه، تلك المكانة التى سجلها القرآن فى أكثر من موضع، وتحدث عنها فى العديد من الآيات، مثنيا عليه، مظهرا عظيم قدره، وجيل شأئله، وتعيد محاسنه، وتعظيم أمره، والتنويه بمكانته، من مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

قال القاضى عياض: أعلم الله تعالى المؤمنين، أو جميع الناس، أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يعرفونه، ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونهم بالكذب، وترك النصيحة لهم، لكونه منهم، وأنه لم تكن فى العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله - ﷺ - ولادة، أو قرابة.

ثم بين القاضى عياض، أن الحق سبحانه وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يُعنتهم ويضرّ بهم فى دنياهم وأخراهم، وعزّته عليهم، ورأفته ورحمته بمؤمنيه، حيث أعطاه الله اسمين من أسمائه: رؤوف رحيم.

ولقد علّم - سبحانه وتعالى - عجز خلقه عن طاعته، فعرفهم ذلك لكى يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم فى الصورة، ألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال تعالى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

قال أبو بكر محمد بن طاهر: «زين الله تعالى محمداً - ﷺ - بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شئائله وصفاته رحمة على الخلق. فمن أصابه شيء من رحمته، فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب».

ومن آيات تكريم الحق سبحانه وتعالى لرسوله - ﷺ - ما جاء في سورة الانشراح، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى آخر السورة..
أى وسع قلبه، وشرحه بنور الاسلام، وملأه حكماً وعلماً، ووضع عنه ما سلف من ذنبه، قبل النبوة.

وفى ذلك يقول القاضى عياض: «هذا تقرير من الله جلَّ اسمه لنبِيِّه - ﷺ - على عظيم نعمه لديه، وشريف منزلته عنده، وكرامته عليه، بأن شرح قلبه للإيمان والهداية، ووسعه لوعى العلم، وحمل الحكمة، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه، وبغضه لسيرها، وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله، وحطَّ عنه عُهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم، وتنويهه بعظيم مكانه، وجليل رتبته، ورفعته ذكره. وقرانه مع اسمه اسمَه. حيث رفع الحق سبحانه ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا يقول: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»

وفى ذلك يقول النبى - ﷺ - فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى:
«أتانى جبريلُ عليه السلام، فقال: إن ربِّي وربَّكَ يقول: تدرى كيف رفعتُ ذُكْرَكَ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي».

ومن ذكره معه تعالى - أن قرن طاعته بطاعته، واسمه باسمه، فقال تعالى:
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ﴿وَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فجمع بينها بواو العطف المشتركة.

ومن فضيلته عند ربه، أن جعل طاعته طاعته، فقال سبحانه:
﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وقد استدل القاضى عياض فى هذا المجال، بالكثير من الآيات القرآنية، التى تتناول الموضوع نفسه، واستشهد عليها بما جاء فى أقوال الصحابة والتابعين.

* ثم انتقل القاضى عياض، وهو فى مجال حديثه عن مكانة الرسول عند الله، إلى الحديث عن وصفه تعالى له بالشهادة^(١)، وما يتعلق بها من الثناء والكرامة. وقدم لذلك بما ذكره الحق سبحانه، فى كتابه العزيز. من مثل قوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية..

وقال : جمع الله تعالى له فى هذه الآية ضرباً من رُتب الأثر، وجملة أوصاف من المدحة، فجعله شاهداً على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وهى من خصائصه - ﷺ - ومبشراً لأهل طاعته، ونذيراً لأهل معصيته، وداعياً إلى توحيده وعبادته، وسراجاً منيراً يهتدى به للحق.

واستشهد على ذلك بما جاء فى التوراة مؤيداً لما وصفه به القرآن.

«يا أيها النبى أنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عُميا، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلُفاً.. ولا متزناً بالفحش، ولا قوالاً للخنا، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خُلُق كريمة، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخيالة، وأسَمِّى به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء

متشنته، وأمم متفرقة، وأجعل أُمته خير أمة أخرجت للناس».

* كما أورد القاضى عياض، ما جاء فى القرآن الكريم من خطاب وجهه الحق سبحانه لنبيه الكريم. على وجه الملاحظة والمبرة..

وهو قوله تعالى: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ»

وجمع القاضى عياض كل ما ذكره العلماء والمفسرون، من أقوال حول هذه الآية^(١).

قيل: هذا افتتاح كلام بمنزلة «أصلحك الله»، وأعزك الله، أخبره الحق بالعفو قبل أن يخبره بالذنب.

وقيل: إن معناه: عافاك الله يا سليم القلب لم أذنت لهم، ولو بدأ النبي - ﷺ - بقوله «لم أذنت لهم» لحيف أن ينشق قلبه من هيئة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو، حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف، حتى يتبين لك الصادق فى عذره من الكاذب.

قال القاضى عياض معلقا: وفى هذا من عظيم منزلته عند الله، ما لا يخفى على ذى لب، ومن إكرامه إياه، وبره به، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب.

«ولقد ذهب ناس إلى أن النبي - ﷺ - معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك بل كان مخيرا، فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى، أنه لو لم يأذن لهم لقعدا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه فى الإذن لهم».

وبضيف قائلا: «يجب على المسلم المجاهد نفسه، الرائن بزم الشريعة خُلُقَه، أن يتأدب بأداب القرآن، فى قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية، ولتأمل هذه الملاحظة العجيبة فى السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغنى عن الجميع. ويستثير ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب»^(٢)

(١) الشفا ٢٨/١.

(٢) الشفا ٢٩/١.

* ومعلوم أن الحق سبحانه لم يقسم بنبي أو رسول، سوى النبي المصطفى - ﷺ. لذلك احتفل القاضى عياض بما جاء في القرآن الكريم « في قَسَمِ الحق تعالى بعظيم قدره »
وهو قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

فقال: ^(١) هذا قَسَم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد - ﷺ - ومعناه: «وبقائك يا محمد» «وعيشك»، «وحياتك»، وهذا نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف.

واستشهد القاضى عياض، بما جاء عن حبر الأمة عبد الله ابن عباس، في مضمون هذه الآية، وهو قوله: «ما خَلَقَ الله تعالى، وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد - ﷺ - وما سمعتُ الله تعالى أقسَمَ بحياة أحد غيره.

وقد أقسم الله تعالى باسمه، وبكتابه المجيد، أنه مرسل من قبَلِهِ لهداية الناس، فقال عز وجل: «يَسْ، وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿إِنَّكَ لِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

قال القاضى عياض: أراد مخاطبة نبيه، ﷺ، بقوله: يا إنسان، يا محمد.. ثم أقسم الله تعالى باسمه، وكتابه، إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه أى طريق لا اعوجاج فيه، ولا عدول عن الحق.

كما أقسم الحق سبحانه - بالبلد الذى حلّ فيه وكان فيه، وهو مكة المكرمة، فقال: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

أى أقسم به، وأنت به يا محمد حلال، أو حلّ لك ما فعلت فيه.
﴿وَوَالِدَ مَا وَلَدَ﴾ أى ابراهيم وما ولد.

وفى هذا إشارة إلى محمد - ﷺ، لأنه من سلالة اسماعيل ولده. وبذلك تتضمن السورة القسم به في موضعين.

وفى مجال القسم أيضاً، أورد القاضى عياض سورة الضحى كدليل على

تحقق مكانته عند ربه^(١) لأن هذه السورة تضمنت من كرامة الله تعالى له، وتنويه به، وتعظيمه إياه ستة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى «وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ» أي وربّ الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته عنده، وحظوته لديه، بقوله تعالى: ﴿وَمَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما تركك. وما أبغضك، وما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي مآلك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا، أي ما ادخرت لك من الشفاعة، والمقام المحمود، خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشتات الإنعام في الدارين والزيادة.

روى عن آل النبي - ﷺ - أنه قال: ليس آية في القرآن أرجى منها، ولا يَرْضَى رسول الله - ﷺ، أن يدخل أحد من أمته في النار.

الخامس: ما عده تعالى عليه من نعمه، وقرره من آلائه قبله في بقية السور، من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به، ولا مال له فأغناه بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، ويتبها فحذب عليه عمه وآواه إليه.

وقيل: المعنى، ألم يجدك فهدى بك ضالا، وأغنى بك عائلا، وآوى بك يتيما، ذكره بهذه المتن.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه، وشكر ما شرفه به بنشره، وإشادة ذكره، بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإن شكر النعمة، التحدث بها. وهذا خاص له. عام لأئمة.

* والحق - سبحانه وتعالى - يعلم ضعفه الانساني، ومقدرته البشرية - وما كان يتحملة النبي - ﷺ، وبأخذ به نفسه، في عبادته، في صلاته وخشوعه، في قيامه وركوعه، وما كان يتحملة في سبيل دعوته.. لذلك أفرد القاضي عياض، فصلاً للحديث عما أورده الحق سبحانه في القرآن مورد الشفقة على نبيه ﷺ^(١). من مثل قوله تعالى:

﴿طه.. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

حيث نزلت فيما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتكلفه من السهر والتعب، وقيام الليل. وأخذ يستشهد على ما جاء في هذه الآية، بما ورد من أخبار عن النبي المصطفى - ﷺ - فيما رواه أنس بن مالك قال:

«كان النبي - ﷺ ، إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى (طه) يعني طيا الأرض يا محمد ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾..»

ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام، وحسن المعاملة.

ومثل هذا من غط الشفقة - كما يقول القاضي عياض - قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي قاتل نفسك لذلك غضباً أو غيظاً أو جزعاً.

ويذكر القاضي عياض - في معرض حديثه - آيات عديدة، كمنهاج مما أورده القرآن مورد الشفقة عليه، ﷺ، قائلاً: ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ إلى آخر السورة.

سلاهُ الحق سبحانه - بما ذكر، وهون عليه ما يلقاه من المشركين، وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحلّ به ما حلّ بمن قبله.

ومن هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾

ومن هذا قوله تعالى:

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾

عزاء الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة، ومقاتلتها لأنبيائهم قبله، ومحتنتهم بهم. وسلاؤه بذلك عن محنته بمثله، من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيب نفسه، وأبان عذره، بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عنهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ فى أداء ما بلغت. وإبلاغ ما حملت.

ومثله ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك. سلاؤه الله تعالى بهذا فى أى كثيرة من هذا المعنى.

* ثم أفرد القاضى عياض فصلا خاصا للحديث عن عظيم قدر المصطفى وشريف منزلته على الأنبياء. وحظوة رتبته عليهم، صدره بقول الحق سبحانه: ^(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فاستخص الله رسوله بالمصطفى محمد - ﷺ - بفضل لم يؤته غيره، أبانه به، وهو ما ذكره فى هذه الآية.

قال القاضى عياض: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيا إلا ذكر له محمداً ونعته، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به، وقيل: أن يبينه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم.. ومثله قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾

قال قتادة: «إن النبى ﷺ - قال: كنت أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم فى البعث» فلذلك وقع ذكره مقدما هنا قبل نوح وغيره.

وهذا تفضيل نبينا - ﷺ، لتخصيصه بالذكر قبلهم، وهو آخرهم بعثا. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية.

أراد بقوله ﴿ورَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ محمداً - ﷺ، لأنه بُعث إلى الأحمر والأسود، وأُجِلَّتْ له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أُعْطِيَ فضيلة أو كرامة إلا وقد أُعْطِيَ محمداً - ﷺ - مثلها.

قال: ومن فضل المصطفى - ﷺ - أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة، في كتابه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾

* وتقديراً لمكانة الرسول المصطفى - ﷺ - عند ربه، خَصَّهُ بصلاته عليه، وأوحى للملائكة، وأمر عباده بالصلاة عليه أيضاً. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

قال القاضي عياض: ^(١) أبان الله تعالى فضل نبيه - ﷺ - بصلاته عليه، ثم صلاة ملائكته، وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه.

والصلاة من الملائكة ومناً له دعاء، ومن الله عز وجل رحمة
ثم قال: وقد تأول بعض العلماء، قوله - ﷺ - (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)

أى في صلاة الله تعالى عليه، وملائكته، وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة.
* وفي هذا المجال يتحدث القاضي عياض أيضاً عن رفع العذاب عن أمته بسببه، استناداً إلى قول الحق سبحانه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.
قال: وهذا من أبين ما يُظهر مكانته - ﷺ - ودرأته العذاب عن أهل مكة، بسبب كونه ثم كونه أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خَلَّتْ مكة منهم، عَذَّبَهُم الله بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

واستشهد القاضى عياض هنا، بحديث رسول الله - ﷺ :
 «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمَّتِي» ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾
 ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار.
 * ثم انتقل القاضى عياض ليتحدث عن كرامات النبى المصطفى - ﷺ
 فيما تضمنته سورة الفتح^(١) وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾
 قال: تضمنت هذه الآيات من فضله، والثناء عليه، وكريم منزلته عند الله
 تعالى، ونعمته لديه ما يقصُر الوصف عن الانتهاء إليه، فابتدأ جل جلاله بإعلامه
 بما قضاه له من الفضاء البين بظهوره وغلبته على عدوه، وعلو كلمته وشريعته،
 وأنه مغفور له، غير مؤاخذ بما كان وما يكون. وجعل الله المنّة سببا للمغفرة، وكُلُّ
 من عنده لا إله غيره منّة بعد منّة. وفضلا بعد فضل، ثم قال ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
 عَلَيْكَ﴾ بخضوع من تكبر لك، وبفتح مكة والطائف.

«فَأَعْلَمَهُ بِتِمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، بخضوع متكبرى عدوّه له، وفتح أهم البلاد
 له، وأحبها له، ورفع ذكره وهدايته الصراط المستقيم، المبلغ الجنة، والسعادة،
 ونصره النصر العزيز، ومنته على أمته المؤمنين، بالسكينة والطمأنينة، التى
 جعلها فى قلوبهم، وبشارتهم بما لهم عند ربهم بعد، وفوزهم العظيم، والعفو عنهم،
 والستر لذنوبهم، وهلاك عدوه فى الدنيا والآخرة، ولعنهم وبُعدهم من رحمته، وسوء
 منقلبهم.

* ويتعرض القاضى عياض إلى ما جاء فى بيعة الرضوان، تلك البيعة التى
 آزرت النبى، ونصرته على أعدائه. وقد ذكرها الحق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾

أى يبايعون الله ببيعتهم إياك ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد عند البيعة. قيل:
 قوة الله، وثوابه، ومنّته، وعقده..

ويوضح القاضي عياض ما في هذه الآية من قيم بلاغية، فيقول: «وهذه استعارات وتجنيس في الكلام، وتأكيد لعقد بيعتهم إياه، وعظم شأن المَبَاعِ وَٱلْمَبُوعِ».

* واستكمالاً للموضوع السابق، يذكر القاضي عياض أموراً أظهرها الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده..

من ذلك ما قصه الله تعالى من قصة الإسراء، في سورة سبحان والنجم، وما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته، وقربه ومشاهدته ما شاهد من العجائب.

وما ذكره الله تعالى من أمور عن الهجرة، وما دفع الله به عنه من أذى المشركين، بعد تحريمهم لهلكه، وخلوصهم نجياً في أمر. والأخذ على أبصارهم عند خروجهم عليهم، وذهولهم عن طلبه في الغار، وما ظهر في ذلك من الآيات، ونزول السكينة عليه، وقصة سُراقَة بن مالك، حسبها ذكره أهل الحديث والسير في قصة الغار وحديث الهجرة.

قال القاضي عياض: «ومن كرامات الله على رسوله، ما جاء في سورة الكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أَعْلَمَهُ الله تعالى بما أعطاه، والكوثر حوضه وقيل: نهر في الجنة، وقيل: الخير الكثير، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات الكثيرة، وقيل: النبوة، وقيل: المعرفة.

- ثم أجاب عنه عدوه، ورد عليه قوله، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أى عدوك ومبغضك، هو الحقير الذليل، المفرد الوحيد الذى لا خير فيه.

ويختتم القاضي عياض فصل «ثناء الله عليه» بالاستفاضة في ذكر كرامات الرسول التي لم يتسع لها مكان، فيتحدث عما جاء منها في القرآن، ويقف برهة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

فيقول إن السبع المثاني، من الأمور التي خصَّ الله بها رسوله، وجعلها كرامة من كراماته وهى السور الطوال الأولى في القرآن العظيم، وقيل: السبع المثاني أم القرآن، وقيل: هى ما في القرآن من أمر ونهى، وبُشرى وإنذار، وضرب مثل،

وإعداد نعم، وآتيناك نبأ القرآن العظيم. وقيل سميت أم القرآن مثاني لأنها تتلى في كل ركعة.

* وقيل السبع المثاني: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة.

الفصل الثانی

خِصَالُ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ

في هذا الفصل يوضح القاضى عياض المنهج التطبيقي العملى فى تحديد شخصية الرسول - ﷺ، فيتحدث حديث المستفيض فى «تكميل الله تعالى له بالمحاسن خُلُقًا وَخَلُقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسَقًا.. وهذا الفضل من أمتع الفصول التى تحدث عنها الرجل، عن كمال الرسول فى القرآن.

لقد أراد القاضى عياض أن يُثبِت الكمال النبوى فى المصطفى ﷺ، فعقد فصلا دقيقا وازن فيه بين الكمال الفطرى المطبوع، والكمال المكتسب الموهوب^(١) قال فيه:

«اعلم أيها المحب لهذا النبى الكريم، الباحث عن تفاصيل مجل قدره العظيم، أن خصال الجمال والكمال فى البشر نوعان:

(أ) ضرورى دنيوى اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا.
(ب) ومكتسب دينى، وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله تعالى زُلْفَى ثم هى على فنين أيضا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين، ومنها ما يتمازج ويتداخل.

* فأما الضرورى (الدنيوى) المحض، فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب (بل فطرة وطبعا) مثل ما كان فى جبلته من كمال خلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه، وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه.

(١) الشفا ١/٥٤

* ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه وماله وجاهه.

* وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالآخوية، إذا قصد بها التقوى، ومعونة البدن، على طريقها، وكانت على حدود الضرورة، وقواعد الشريعة. ثم ينتقل القاضى عياض إلى توضيح الخصال المكتسبة الدينية الآخوية، فيقول:

«وأما المكتسبة الآخوية، فسائر الأخلاق العلية. والآداب الشرعية، من الدين والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها، وهى التى جماعها: حُسن الخلق. «وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو فى الغريزة، وأصل الجبلة لبعض الناس. وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها، ولكنه لابد أن يكون فيه من أصولها فى أصل الجبلة شُعبة، وتكون هذه الأخلاق دنيوية، إذا لم يُرد بها وجه الله والدار الآخرة.. ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا فى موجب حُسنها وتفضيلها».

ومفهوم كلام القاضى عياض - من هذه المقدمة - أن الخصال الكريمة، وصفات الجلال، يخص بها الله من يشاء من عباده، فيهبه خصلة أو أكثر. أما أن يتشرف بها جميعا شخص معين، فلا بد أن يكون لميزة معينة، أرادها الله، ولحكمة كريمة قصدتها الله، وهذا أمر يحدث وفق المشيئة الالهية، ولغاية ربانية، اقتضتها حكمة وإرادة اللطيف الخبير.

وفى ذلك يقول^(١): «إذا كانت خصال الكمال والجلال - ما ذكرناه - ورأينا الواحد منا يتشرف بواحدة منها أو اثنتين، إن اتفقت له فى كل عصر، إما من نَسب أو جمال، أو قوة أو علم، أو حلم أو شجاعة أو سباحة، حتى يعظم قدره، ويُضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك فى القلوب أثره وعظمته»..

«فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال، إلى ما لا يأخذه عدّ، ولا يُعبر عنه مقال، ولا يُنال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة والرسالة والخلة والمحبة والاصطفاء والإسراء، والرؤية والقرب، والدنو والوحى. والشفاعة والوسيلة، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد والبشارة والندارة والمكانة عند ذى العرش، والطاعة، والأمانة والهداية، ورحمة العالمين، وإعطاء الرضى والسؤال، والكوثر، وسماح القول، وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وما تأخر. وشرح الصدر، ووضع الإصر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة والسبع المثاني، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أَرَادَ الله، ووضع الإصر والأغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجهادات والعُجَم، وإحياء الموتى، وإسماع الصُّم، ونيع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل. وانشقاق القمر، وردّ الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصى، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، إلى ما لا يحويه محتفل، ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك، ومفضله به، لا إله غيره، إلى ما أعد له فى الدار الآخرة، من منازل الكرامة، ودرجات القدُس، ومراتب السعادة، والحسنى وزيادة، التى تقف دونها العقول، وبحار دون إدراكها الوهم.

وواضح من كلام القاضى عياض، بجمعه كل هذه الخصائص والخصال الكريمة، خصال الكمال والجمال، أنه يقصد بها الرسول المصطفى - ﷺ، وأن الله سبحانه قد اختص بها، ووهب إياها، ليكون أكمل الناس خُلُقًا وخُلُقًا، وأعظمهم مكانة وخصالا، فطره عليها، وجعلها من سماته الأساسية التى لا تتعلم، وإنما فطره الله عليها، وبثها فيه، وجعلها من تمام سماته وصفاته، ومن عظيم آلائه وخصاله، فكان كما وصفه الحق سبحانه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وكان أكمل الناس خلقا، وأجمع الناس للفضائل، ومدحه الحق سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

١

كان جمع القاضى عياض للضرورى المحض من الخصال والمزايا والهبات والكرامات والمعجزات، التى منحها الله سبحانه، لرسوله المصطفى - ﷺ - فى هذا التقديم والتعريف، هو المنطلق الذى وضعه القاضى عياض، لكى يتحدث عن كل خصلة وصِفَة من صفات الكمال، التى هى من شائله - ﷺ .

كان هذا الحصر الجَم لجميع صفات الجمال والجلال والكمال، هو المنطلق لكى يقف القاضى عياض عند كل عنصر منها ليشبعه توضيحا وتحليلا، وتفسيرا وتعليلًا، مستشهدا بآيات الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة، وما جاء على ألسنة الصحابة والتابعين، وما حمله أهل العلم والأخبار

يبدأ القاضى عياض بحثه بالحديث عن خصال الكمال والجمال غير المكتسبة، وأولها كمال الخلقة وجمال الصورة فيقول^(١):

«اعلم نور الله قلبى وقلبك، وضاعف فى هذا النبى الكريم حُبى وحُبَّك، أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة (أى الضرورية الدنيوية)، وفى جبلة الخلقة (أى طبيعتها وفطرتها)، وجدته - ﷺ ، حائزا لجميعها، محيطا بشتات محاسنها دون خلاف، بل بلغ بعضها مبلغ القطع».

أما الصورة وجمالها، وتناسب أعضائه فى حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة، والمشهورة الكثيرة بذلك، من حديث على، وأنس بن مالك وأبى هريرة، والبراء بن عازب وعائشة أم المؤمنين، وابن أبى هالة.. وغيرهم..

من أنه ﷺ : «كان أزهر اللون، أدعج أنجل، أشكل أهدب الأشفار، أبلج أزج، أقنى أفلج، مدور الوجه، واسع الجبين، كث اللحية، تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرد،

دَقِيقَ الْمَسْرُوبَةِ، رُبْعَةَ الْقَدِّ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا الْقَصِيرِ الْمُنَرَّدِ..
 .. ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطَّوِيلِ إِلَّا طَالَهُ - ﷺ -
 رَجُلَ الشَّعْرِ. إِذَا افْتَرَّ ضَاحِكًا، افْتَرَّ عَنْ مِثْلِ سَنَا الْبَرْقِ، وَعَنْ مِثْلِ حَبِّ
 الْغَمَامِ، إِذَا تَكَلَّمَ رِيءَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ ثَنَائِيَاهُ، أَحْسَنَ النَّاسِ عُنُقًا، لَيْسَ
 بِمُطَهَّمٍ وَلَا مُكَلِّثٍ، مُتَمَاسِكَ الْبَدَنِ ضَرْبَ اللَّحْمِ^(١).
 ويظل القاضي عياض يذكر ما جاء عن صحابته ومعاصريه، حتى يصف كل جزء
 فيه، ثم يقول في ختام هذا الفصل: «والأحاديث في بسط صفته مشهورة كثيرة فلا
 نطوّل بسردها»^(٢).

٢

فإذ ما انتهى من وصف شكله. ﷺ - عقد فصلا في نظافة جسمه، وطيب
 ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأقدار وعورات الجسد^(٣).
 يقول فيه: إن الله تعالى قد خصه في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم
 تممها بنظافة الشرع، وخصال الفطرة العشر.

(١) (قوله أزهر اللون): قيل نيره، وقيل حسنه ومنه (زهرة الحياة الدنيا) وهو زينتها. وقوله (أدعج):
 البهيج شدة سواد الحديقة. و (قوله أنجل) أى ذو نجل يفتحتين، وهو سعة شق العين. و (قوله أشكل) من
 الشكلة، وهى حمرة فى بياض العين كالشهلة فى سوادها. و (قوله أهدب الأشفار) الأهدب الرجل الكبير
 أشفار العين، وهى حروف الأجفان التى يثبت عليها الشعر، وهو الهدب - و (قوله أبلج) أى مشرق. أبلج
 الوجه أى مشرقه. و (قوله أزج) أى مقوس الحاجب مع طول وامتداد. و (قوله أقي) أى محدوب الأنف.
 و (قوله أفلج) من الفلج وهو تباعد ما بين الثنايا. و (قوله سواء البطن) سواء المستوى. و (قوله عبل
 العضدين) العبل: الضخم. و (قوله والأسافل) أى الفخذين والساقين، و (قوله رحب الكفين) أى واسعها.
 و (قوله سائل الأطراف) أى طويل الأصابع. و (قوله أنور المتجرد) أى ما تجرد عند الثياب من البدن
 و (قور المسربة) خيط الشعر الذى بين الصدر والسرّة. و (قوله رجل الشعر) أى شديد المجمود. و (قوله
 افتر ضاحكا) أى إذا بدا أسنانه حالة أنه ضاحك. و (قوله حب الغمام) هو البرد. و (قوله ليس بمطهم) أى
 ليس بمنشفة الوجه أو فاحش السمن، و (قوله ولا بمكثم) أى القصير الحنك الدانى الجبهة. المستدير
 الوجه، أراد أنه كان أسيل الوجه ولم يكن مستديره. و (قوله متماسك البدن) أى يمسك بعضه بعضا. و (قوله
 ضرب اللحم) قال الخليل: الضرب من الرجال: القليل اللحم.

[انظر مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلامة الشافعى على هامش الشفا ص ٥٩، ٦٠]

ثم أعقبه بفصل آخر للحديث عن وفور عقله، وذكاء لبه، وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شئائه^(١).

يقول فيه: لا مزية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق، وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عَجَبٍ شئائه، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع، دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة. وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه.

ومع قول القاضى عياض هذه الحقيقة، إلا أنه ظل يقدم الشواهد، من الآثار والأخبار، على وفور عقله، وذكاء لبه.. وإن يكن قد أضاف أخباراً وآثاراً عنه ﷺ - لا تدرج تحت هذا الباب، وإنما تدرج تحت باب قوة حواسه.. نحو قول مجاهد: كان رسول الله - ﷺ - إذا قام في الصلاة يرى مَنْ خَلْفَهُ، كما يرى من بين يديه.

وقول عائشة: كان رسول الله ﷺ يرى في الظلمة كما يرى في الضوء.. ثم يقول القاضى عياض: «والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ الملائكة والشياطين، ورفع النجاشي له حتى صلى عليه، وبيت المقدس حتى وصفه لقريش، والكعبة حين بنى مسجده».

وهذه كلها ليست أوصافاً تتصل بقوة حواسه، وإنما هي إلهامات وفيوض إلهية، يسرها الله له، لكي يؤدى رسالته، ومؤيدات حسية اختصه الله بها لإثبات صدق نبوته..

لذلك فهي تخرج عن صفاته أو خصاله غير المكتسبة. ويبدو أن القاضى عياض تنبه إلى ذلك، بعد ذكره ما سبق، فقال: «وهى من خواص الأنبياء» واستشهد على ذلك بما روى عن موسى في حديث أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لما تجلّى الله عز وجل لموسى - عليه السلام - كان يُبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ».

ثم قال: «ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا ﷺ بما ذكرناه من هذا الباب، بعد الإسراء، والخطوة بما رأى من آيات ربه الكبرى». وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن هذه الأمور والمعجزات، ييسرها الله سبحانه لمن يشاء من أنبيائه ورسله، تأييدا للرسالة، وتصديقا بالنبوة.

٤

وعلى الرغم من أن القاضي عياض نوّه في الفصل السابق عن فصاحة لسانه وبلاغة قوله^(١) جمع فيه كل ما جاء عن الرسول ﷺ من مخاطبات ومكاتبات وأدعية، وأقوال مأثورة، وعبارات هي من جوامع الكلم. قال: أن الرسول ﷺ كان يحمل «سلاسة طبع، وبهارة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخصّ ببّدائع الحكم، وعُلمُ ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، من تأمل حديثه وسيره عَلمَ ذلك وتحققه». وأما كلامه، فكان يتناسب مع طبيعة القبائل والأقوام، «فليس كلامه مع قریش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى الشعار الحمداني، وطهفة النهدي، وقطن بن حارثة العلّمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقبال حضرموت، وملوك اليمن». ثم يعرض القاضي عياض نماذج من كتاباته في المناسبات المختلفة، من ذلك كتابه لنَهْد^(٢): «في الوَظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش وذو العنان

(١) الشفا ٧١/١. (وقوله الفريضة) أى المسنة الهرمة، يعنى هى لكم لا يؤخذ منكم فى الزكاة. (وقوله الفارض) أى الناقة التى يصيبها كسر أو مرض فتتحر. (والفريش) هى الناقة التى وضعت حديثا كالفارس من النساء، (وقوله ذو العنان الركون) يريد الفرس الذلول لأنه يلجم ويركب (وقوله والغلو) أى المهر (والضبيب) أى السر الصعب، (وقوله سرحكم) أى ما شيتكم. (وقوله يعضد) أى يقطع، والطلع شجر عظام من شجر العضاء. (وقوله لا يحبس دركم) أى ذوات الدر من الماشية، (وقوله ما لم تضمروا الرماق) أى النفاق.

(وقوله وتأكلون الرباق) أى ما فى أعناقكم من العهد، (وقوله الزمة) أى العهد (وقوله فعليه الربوة) أى من تقاعد عن أداء الزكاة فعليه الزيادة فى الفريضة الواجبة.

(انظر مزيل الخفاء هامش الصفحة ٧٤ من الشفا).

(٢) المرجع السابق.

الرُّكُوبُ وَالْغُلُو الضَّبَّيْسُ، لَا يُنْمَعُ سَرُّ حُكْمٍ، وَلَا يُعْضَدُ طَلْحُكُمْ، وَلَا يُحْبَسُ دَرْكُمْ مَا لَمْ تُضْمِرُوا الرِّقَاقَ، وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ، مَنْ أَقْرَ فَلَهُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ، وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهِ الرِّبَوَةُ».

ومنه كتابه لوائل بن حُجْر: «إِلَى الْأَثْيَالِ الْعِبَاهِلَةِ، وَالْأَوْرَاعِ الْمَشَائِبِ، وَفِيهِ: «فِي التَّيْعَةِ شَاةٌ، لَا مُقَوَّرَةٌ الْأَلْيَاطُ، وَلَا ضَنَّاكٌ، وَأَنْطُوا الثَّيْبَةَ، وَفِي السُّيُوبِ الْخُمْسُ، وَمَنْ زَنَى مِنْ بَكْرٍ فَاصْقَعُوهُ مِائَةً، وَاسْتَوْفُضُوهُ عَامًا، وَمَنْ زَنَى مِنْ ثَيْبٍ فَضَرْجُوهُ بِالْأَضَامِيمِ، وَلَا تَوْصِيْمَ فِي الدِّينِ، وَلَا عَمَةَ فِي فَرَائِضِ اللَّهِ، وَكُلُّ مُسْكٍ حَرَامٌ...»^(١).

ثم يقول القاضي عياض: «لَمَّا كَانَ كَلَامُ هَؤُلَاءِ عَلَى هَذَا الْحَدِّ، وَبَلَاغَتِهِمْ عَلَى هَذَا النَّمْطِ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِمْ هَذِهِ الْأَلْفَافِ، اسْتَعْمَلَهَا مَعَهُمْ (رَسُولُ اللَّهِ) لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ، وَلِيَحْدِثَ النَّاسُ بِمَا يَعْلَمُونَ».

بعد ذلك يذكر ماجاء في قول النبي المصطفى ﷺ، ووافق لغة العرب. كقوله - في حديث عطية السعدي: «فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْطِيطَةُ، وَالْيَدُ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطَاطَةُ»، قَالَ: فَكَلِمَتُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَلَّغَتْنَا. وقوله في حديث العامري، حين سأله، فقال له النبي ﷺ «سَلْ عَنْكَ» أَيْ سَلْ عَمَّا شِئْتَ، وَهِيَ لُغَةُ بَنِي عَامِرٍ.

(١) الشفا ٧٤/١. (وقوله العبايلة) يقصد عبايلة اليمن أي ملوكهم الذين أقروا على ملكهم لا يزالون عنه (وقوله والأوراع) أي الحسان الوجوه يقال رائع وأرواع. (وقوله المشاييب) أراد الرؤس السادة الزهر الألوان. (وقوله في التيعة) هي الأربعون من الغنم، قال أبو سعيد: أدنى ما تجب من الصدقة كالأربعين من الغنم فيها شاة وخمس الإبل فيها شاة، وأصله من التبع وهو الفء. (وقوله لا مقورة الألياط) أي لا مسترخية الجلود لها من الأقورار وهو الاسترخاء في الجلود والهمال. والألياط: هو الشعر اللأنط يعني اللآزق به. (وقوله ولا ضناك) قال الهروي: الضناك الكثير اللحم. (وقوله وأنطوا) لغة يمانية أي أعطوا، والثبيجة: يعني أعطوا الوسط في الصدقة، ولا تعطوا من خيار المال ولا من رذالته. (وقوله وفي السيوب) أي العطية، قال ابن الأثير: وقيل السيوب: عروق من الذهب والفضة، تسبب في المعادن أي يتلون فيها ويظهر. (وقوله سم بكر) لغة أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميما. أي من زنا من بكر. و (قوله فاصقعوه) أي اضربوه (وقوله واستوفضوه) أي غربوه وانفوه واطردوه. (وقوله فضرجوه) أي ادموه بالضرب و (قوله بالأضاميم) يريد الرجم، و (قوله ولا توصيم) قال الهروي: لا تفترؤا في إقامة الحد، ولا تحابوا فيه. [انظر مزيل الخفاء على هامش الشفاء ص ١٧٦].

ثم تحدث القاضى عياض عن فصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحكمه الماثورة، وهى مما لا يوازى فصاحة، ولا يبارى بلاغة، فذكر منها نماذج عدة.

كقوله ﷺ: «المسلمون تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم» وقوله ﷺ: «الناس كأسنان المشط» و «المرء مع من أحب» «ولا خير في صُحبة من لا يرى لك ما ترى له» و «الناس معادن» و «وما هلك امرؤ عرف قدره» و «المستشار مؤتمن، وهو بالخيار ما لم يتكلم» و «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم».

وقوله ﷺ: «أُسْلِمَ تَسْلَم، وَأُسْلِمَ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ أَحْبَبْتُكُمْ إِلَى وَأَقْرَبْتُكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحَابَسْتُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطَأُونَ أَكْنَفًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ».

وقوله: «أَحْبَبُ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضُكَ يَوْمًا مَا». وقوله فى بعض دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلْمِ بِهَا شَعْبِي، وَتُصْلِحَ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعَ بِهَا شَاهِدِي، وَتُرْكَى بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهَمَنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدَّ بِهَا الْفَقِي، وَتَعْصِمَنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ عِنْدَ الْقَضَاءِ، وَنُزْلَ الشَّهَادَةِ، وَعِيشَ السَّعَادَةِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ».

إلى ماروته الكافة عن الكافة، من مقاماته ومحاضراته، وخطبه وأدعيته، ومخاطباته وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز فيها سبقاً لا يقدر قدره.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن فصاحته، مستشهداً بالآثار المروية عنه ﷺ فى ذلك، من مثل قوله «أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيِّدَ أَفَى مِنْ قَرِيشَ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدِ».

وختم القاضى عياض هذا الفصل بقوله: «فَجُمِعَ لَهُ بِذَلِكَ ﷺ قُوَّةُ عَارِضَةِ الْبَادِيَةِ، وَجِزَالَتِهَا، وَنِصَاعَةُ أَلْفَاظِ الْحَاضِرَةِ، وَرَوْنَقُ كَلَامِهَا، إِلَى التَّأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَدَّدَهُ الْوَحْيَ الَّذِي لَا يَحِيطُ بِعَلِيهِ بَشَرِيٌّ».

قالت أم معبد في وصفها له: «حُلُو المَنْطِق، فَضْلٌ، لَا نُزْرٌ وَلَا هَذَرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ تُنْظَمْنَ». وكان جهير الصوت، حسن النعمة، ﷺ.

٥

ومن الخصائص الضرورية المحضة، التي ليس للمرء فيها اختيار ولا اكتساب: شَرَفُ النُّسَبِ والمنشأ وكرم البلد.. لذلك أفرد القاضي عياض لهذا الموضوع فصلاً^(١) استكمالا للموضوعات السابقة. بدأه بقوله: «وأما شرف نسبه، وكرم بلده ومنشئه، فما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفى منه، فإنه نخبة بنى هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب وأعزهم نفرا، من قَبْلِ أبيه وأمه، ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده».

ثم استشهد على ذلك بكثير من أقوال الرسول ﷺ. من مثل قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ، مِنْ خَيْرِ قَرْنِهِمْ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا».

وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

وروى ابن عباس، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَتْ رُوحُهُ نُورًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِالْفَى عَامٍ، يُسَبِّحُ ذَلِكَ النُّورَ وَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِهِ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَلْقَى ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَهْبَطَنِي اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوْحٍ، وَقَذَفَ بِي فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ تَعَالَى يَنْقُلُنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ، وَالْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنْ أَبِي، لَمْ يَلْتَقِ عَلَى سَفَاحٍ قَطُّ».

واستشهد القاضى عياض على صحة هذا الخبر بشعر العباس المشهور في مدح النبى ﷺ.

٦

هذه الأمور التى تحدث عنها القاضى عياض، كلها يندرج تحت الضرورى الدنيوى.

وقد أشار فى تقسيمه لخصال الجمال والكمال البشرى، أنه يلحق بالضرورة الدنيوى، ما تدعو إليه ضرورة حياته - ﷺ - من غذائه، ونومه، وملبسه، ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه.

بيد أن القاضى عياض لم يفصل هذه الأمور مباشرة، وإنما قسمها إلى ثلاثة أضرب: ^(١)

١ - ضرب الفضل فى قَلْبِهِ.

٢ - وضرب الفضل فى كَثْرَتِهِ.

٣ - وضرب تختلف الأحوال فيه.

ثم تناول كل ضرب منها ليصل إلى هدفه من أن الرسول - ﷺ - حاز من هذه الأمور أفضلها وأحسنها. وفق ما تدعو ضرورة حياته إليه.

أما عن الضرب الأول، فيقول القاضى عياض:

«فأما ما التمدح والكمال بقلته اتفاقاً، عادة وشريعة، فهو الغذاء والنوم.. ولم تزل العرب والحكماء تتبادح بقلتهما، وتذم بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم، والحرص والشره، وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد، وخسارة النفس، وامتلاء الدماغ.»

«وقلته دليل على القناعة، وملك النفس، وقمع الشهوة، مسبب للصحة وصفاء الخاطر، وحدة الذهن.»

«كما أن كثرة النوم، دليل على الفسولة والضعف، وعدم الذكاء والفطنة،

مسبب للكسل وعادة العجز، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته.

ثم ينتقل من هذه المقدمة، لإثبات أن النبي - ﷺ - قد أخذ من هذين الأمرين (المأكل والنوم) بالأقل، وحض عليهما. وقدم القاضى عياض الشواهد على ذلك من حديث رسول الله - ﷺ - التى تدل على قلة أكله، من ذلك قوله - ﷺ - «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسَبَ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقَمِّنُ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتَلْتُ لِطْعَامِهِ، وَتَلْتُ لِشَرَابِهِ، وَتَلْتُ لِنَفْسِهِ» ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب. قال سفيان الثورى: بقلة الطعام يملك سهر الليل، وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا، فتخسروا كثيرا.

وقد روى عنه - ﷺ - أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضَغْفٍ - أى كثرة الأيدى - وقالت عائشة - رضى الله عنها: لم يمتلئ جوف النبي - صلى الله عليه وسلم - شبعاً قط» وأنه كان فى أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقوه شرب.

وهنا أثار القاضى عياض قضية، مؤداها: أن هناك تعارضاً، بين ما جُبل عليه رسول الله - ﷺ - من القناعة والزهد، وما جاء فى حديث بَرِيرَةَ، وهو قوله - ﷺ -: «أَلَمْ أَرِ الْبُرْمَةَ فِيهَا لَحْمٌ؟»

فنراه يحاول أن يزيل التعارض، وأن يبرر للأسباب التى من أجلها قال الرسول ذلك.. يقول: لعل سبب سؤاله، ظنه - ﷺ - اعتقادهم أنه لا يحل له، فأراد بيان سُنته، إذ رآهم لم يقدموه إليه، مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به، فصَدَّقَ عليهم ظنه، وبين لهم ما جهلوه من أمره، بقوله: «هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ»

ويتناول القاضى عياض موضوعاً آخر يرتبط بالقناعة والزهد، وهو «الاتكاء أثناء الأكل»

والاتكاء هو التمكن للأكل، والتَّعَدُّدُ فى الجلوس له، كالمترَبُّع وشبهه من

تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل، ويستكثر منه، والنبي - ﷺ - إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مُقْعِيًا.

* وقد جاء في الصحيح، قوله - ﷺ - «أَنَا أَنَا فَلَا أَكُلُ مُتَكِنًا»
* وقوله ﷺ متواضعا: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»

ثم ينتقل القاضي عياض إلى صفة نومه^(١) - ﷺ - فأخذ يستشهد بالآثار الصحيحة، على أن نومه كان قليلا. ثم يقول: «ومع ذلك فقد كان ﷺ، يقول: «إِنَّ عَيْنِي تَنَامَانٌ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»

وأما عن كيفية نومه، فلم يغفلها القاضي عياض، بل حددها وبرر أسبابها، لما في ذلك من استكمال لموضوعه. قال:

«وكان نومه على جانبه الأيمن، استظهاراً على قِلَّةِ النوم، لأنه على الجانب الأيسر أهنأ لهدوء القلب، وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة حينئذ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعى ذلك الاستئقال فيه، والطول. وإذا نام النائم على الأيمن تعلّق القلب وقَلِقَ، فأسرع بالافاقة، ولم يغمره الاستغراق.»

الضرب الثاني:

ثم ينتقل القاضي عياض للحديث عن الضرب الثاني - المضاد - وهو ما يتمدح بكثرته والفخر به وهذا الضرب حدده الرجل في النكاح والجاه^(٢).

قال: «أما النكاح، فمتفق عليه شرعا وعادة، فإنه دليل الكمال، وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمدح به سيرة ماضية. وأما في الشرع فسنة مأثورة.

وأشار إلى قول ابن عباس «أفضل هذه الأمة أكثرها نساء» يعني رسول

الله - ﷺ. وأخذ يقدم الدليل تلو الدليل، ويسرد الأحاديث والمرويات، حول قدرته ﷺ

وفي رأيي أن هذا الأمر لا يليق الحديث فيه بهذه الطريقة، وهذا الأسلوب، التي يصور الرسول الكريم - ﷺ - وجلا شهوانيا، ويضعه في صورة المتهالك المتهافت على النساء، وهو أمر مخالف للحقيقة.

إن الصورة الشائعة، والتي تبناها القاضى عياض أيضا، أن الرسول - ﷺ - كان يعدد زوجاته من أجل المتعة الحسية، الغريزية، وكثرة النكاح..

بيد أن هناك نقطتين مهمتين غابتا عن كل من تناول هذا الموضوع، ومنهم القاضى عياض، حين تحدث عن كثرة نسائه، وتعدد زوجاته.

النقطة الأولى: أن الرسول ﷺ لم يعدد زوجاته إلا بعد بلوغه سن الشيخوخة، أى بعد أن جاوز من العمر الخمسين.

النقطة الثانية: أن جميع زوجاته الطاهرات ثيبات «أرامل» ما عدا السيدة عائشة - رضى الله عنها - فهي بكر، وهى الوحيدة من بين نسائه التي تزوجها وهى فى حالة الصبا والبراءة.

ومن هاتين النقطتين ندرك بطلان ذلك الادعاء، الذى لم يقدره بعض العلماء، حين تحدثوا عن قدراته الجنسية، وأنه كان يمر على جميع نسائه فى الليلة الواحدة، إلى آخر ما ذكرته كتب السير والأخبار، وروج إليه أعداء الاسلام، وأعداء رسول الله.

فلو كان المراد من زواجه، الجرى وراء الشهوة، أو السير مع الهوى، أو مجرد الاستماع بالنساء، لتزوج فى سن الشباب، لا فى سن الشيخوخة، ولتزوج الأبقار والشابات لا الأرامل المسنات، وهو القائل لجابر عبد الله، حين جاءه وعلى وجهه أثر التطيب والنعمة.

«هل تزوجت؟ قال: نعم، قال: بكراً أم ثيباً؟ قال: بل ثيباً، فقال له - ﷺ - فهلاً بكراً تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك؟

فالرسول الكريم، أشار عليه بتزوج البكر، وهو عليه السلام يعرف طريق الاستمتاع، وسبيل الشهوة، فهل يعقل أن يتزوج الأرملة، ويترك الأبكار، ويتزوج في سن الشيخوخة، ويترك سن الصبا، إذا كان غرضه الاستمتاع والشهوة.

إن الحكم في تعدد زوجات الرسول ﷺ كثيرة ومتشعبة، ويمكننا أن نجملها فيما يلي:

١ - حكمة تعليمية.

٢ - حكمة تشريعية.

٣ - حكمة اجتماعية.

٤ - حكمة سياسية.

١ - أما الحكمة التعليمية، فقد كانت الغاية الأساسية من تعدد زوجاته، هي تخريج بضع معلمات للنساء يعلمنهن الأحكام الشرعية، فالنساء نصف المجتمع، وقد فرض عليهن من التكاليف ما فرض على الرجال. وقد كان الكثيرات منهن يستحيين من سؤال النبي ﷺ عن بعض الأمور الشرعية، وخاصة المتعلقة بهن، كأحكام الحيض والنفاس والجنابة والأمور الزوجية، وغيرها من الأحكام. وقد كانت المرأة تغالب حياءها حينما تريد أن تسأل الرسول الكريم عن بعض هذه المسائل.

كما كان من خلق الرسول ﷺ الحياء الكامل، فما كان يستطيع أن يجيب عن كل سؤال يُعرض عليه من جهة النساء بالصراحة الكاملة، بل كان يكتفي في بعض الأحيان، ولربما لم تفهم المرأة عن طريق الكناية مراده ﷺ.

● تروى السيدة عائشة - رضی الله عنها - أن امرأة من الأنصار، سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فعلمها ﷺ كيف تفتسل، ثم قال لها: خذي فرصة ممسكة، أي قطعة من القطن بها أثر الطيب، فتطهرى بها، قالت: كيف

أتطهر بها؟ قال: تطهرى بها، قالت: كيف يا رسول الله أتطهر بها؟ فقال لها: سبحان الله.. تطهرى، قالت السيدة عائشة: فاجتذبتها من يدها فقلت: ضعيفا في مكان كذا وكذا، وتتبعى بها أثر الدم، وصرحت لها بالمكان الذى تضعها فيه.

٢ - وأما الحكمة التشريعية في تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم فهي أنها كانت من أجل إبطال بعض العادات الجاهلية المستنكرة، مثل بدعة التبني، التي كان يفعلها العرب قبل الإسلام. كان المرء منهم يتبنى ولد غيره، فيقول له: أنت ابني أرثك وترثني»، وما كان الإسلام ليقهرهم على باطل، ولا ليركهم يتخبطون في ظلمات الجاهلية، فمهد لذلك بأن ألهم رسوله ﷺ أن يتبنى أحد الأبناء، وكان ذلك قبل البعثة النبوية، فتبنى الرسول زيد بن حارثة.

وفي سبب تبنيه قصة من أروع القصص، وحكمة من أروع الحكم، ذكرها المفسرون وأهل السير، لا يمكننا الآن عرضها، لعدم اتساع المجال. وهكذا تبني النبي الكريم زيد بن حارثة، وأصبح الناس يدعونه بعد ذلك اليوم «زيد بن محمد».

وقد روى البخارى ومسلم، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنها - أنه قال: «إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، فقال النبي ﷺ أنت زيد ابن حارثة بن شراحيل».

وقد زوجه ﷺ بابنة عمته زينب بنت جحش، وقد عاشت معه مدة من الزمن، ولكنها لم تطل، فقد ساءت العلاقات بينها، ولحكمة يريد بها الله، طلق زيد زينب، فأمر رسوله أن يتزوجها، ليبطل بدعة التبني، ويقيم أسس الإسلام، ولكنه ﷺ كان يخشى من السنة المنافقين والفجار، أن يتكلموا فيه، ويقولوا: تزوج محمد امرأة ابنه، فكان يتباطأ حتى نزل العتاب الشديد لرسول الله، في قوله جل وعلا:

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾

لَكَيْلًا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا،
وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

وهكذا انتهى حكم التبنّي، وبطلت تلك العادات التي كانت متبعة في الجاهلية،
ونزل قول الله تعالى مؤكدًا هذا التشريع الإلهي الجديد:
﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ،
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾.

وقد كان هذا الزواج بأمر من الله تعالى، ولم يكن بدافع الهوى والشهوة.

٣ - الحكمة الاجتماعية:

أما الحكمة الثالثة، فهي الحكمة الاجتماعية، وهي تظهر بوضوح في تزوج
النبي، بابنة الصديق الأكبر أبي بكر، وزيره الأول، ثم بابنة وزيره الثاني
الفاروق عمر، ثم باتصاله ﷺ بقريش اتصال مصاهرة ونسب، وتزوجه العديد
منهن، مما ربط بين هذه البطون والقبائل برباط وثيق، وجعل القلوب تلتف حوله،
وتلتقى حول دعوته في إيمان وإكبار وإجلال.

٤ - الحكمة السياسية:

لقد تزوج النبي ﷺ ببعض النسوة من أجل تأليف القلوب، وجمع القبائل
حوله. فمن المعلوم أن الإنسان إذا تزوج من قبيلة، أو عشيرة، يصبح بينه وبينهم
قراة ومصاهرة، وذلك بطبيعته يدعوهم إلى نصرته وحمايته.

فلقد تزوج الرسول ﷺ بالسيدة جويرة بنت الحارث سيد بني المصطلق،
كانت قد أسرت مع قومها وعشيرتها، ثم بعد أن وقعت تحت الأسر، أرادت أن
تفتدى نفسها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه بشيء من المال، فعرض عليها
الرسول الكريم أن يدفع عنها الفداء وأن يتزوج بها فقبلت ذلك، فتزوجها، فقال
المسلمون: أصهار رسول الله تحت أيدينا، فاعتقوا جميع الأسرى، الذين كانوا
تحت أيديهم، فلما رأى بنو المصطلق هذا النبل والسمو، دخلوا في الإسلام.

وكذلك تزوج بالسيدة «صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب»، التي أُسرت بعد قتل زوجها في غزوة خيبر، ووقعت في سهم بعض المسلمين، فقال أهل الرأي والمشورة: هذه سيدة بنى قريظة لا تصلح إلا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعرضوا الأمر على الرسول الكريم، فدعاها وخيرها بين أمرين:

(أ) إما أن يعتقها ويتزوجها فتكون زوجة له.

(ب) وإما أن يُطلق سراحها فتلحق بأهلها.

فاختارت أن يعتقها وتكون زوجة له، وذلك لما رآته من جلالته وقدره وعظمته. وكذلك تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان»، وأبو سفيان كان في ذلك الحين حامل لواء الشرك، وألد الأعداء لرسول الله، وقد أسلمت ابنته في مكة، ثم هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فراراً بدينها، وهناك مات زوجها، فبقيت وحيدة فريضة، لامعين لها، فلم علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأمرها، أرسل إلى النجاشي، ملك الحبشة، ليزوجه إياها، فأبلغها النجاشي بذلك، فسرت سروراً كبيراً، لأنها لو رجعت إلى أبيها، أو أهلها، لأجبروها على الكفر والردة.

وهكذا كانت زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - أراميل، ما عدا السيدة عائشة، فإذا علمنا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عدّد زوجاته بعد الهجرة، في السنة التي بدأت فيها الحروب بين المسلمين والمشرّكين، وكثر فيها القتل والقتال، وهي من السنة الثانية للهجرة إلى السنة الثامنة، التي تم فيها النصر للمسلمين، وفي كل زواج ظهر لنا الدليل الساطع على نبيله وشهامته، وسمو غرضه.. أدركنا بطلان الادعاء، أنه - صلى الله عليه وسلم - كان متهافتاً، وليس همّة إلا النساء، والمتع الحسية، وبذلك نرفض الروايات والأخبار، التي رويت عن قدراته الجنسية، وما جاء حولها.

وإذا كنا قد تناولنا الغايات العظمى، التي من أجلها عدّد الرسول أزواجه.. فإننا لا نرفض أو ننفي أنه كان يحيا حياة البشر العادية، وينهى عن التبتل والرهينة، مع ما فيه من قمع للشهوة، وغض البصر، اللذين نبّه عليهما - ﷺ -

بقوله: «مَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ - أى مقدره - فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ».

* وينقض القاضى عياض رأيه السابق، حين يطرح سؤالاً هاماً فى هذا الفصل، ثم يرد عليه ويفنده فيقول: فإن قيل: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل، وهذا يحىى بن زكريا - عليه السلام - قد أثنى عليه الله تعالى أنه كان حُصُورًا. فكيف يثنى عليه الله بالعجز عما نَعَدَهُ فضيلة؟.

وهذا عيسى بن مريم - عليه السلام - تَبَتَّلَ مِنَ النِّسَاءِ، ولو كان كما قررته لنكح؟

هنا يتصدى القاضى عياض لىوضح الأمر، قائلا:

«فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور، ليس كما قال بعضهم إنه كان هُبُورًا أولا ذَكَرَ له بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا هذه نقيصه وعيب ولا يليق بالأنبياء - عليهم السلام - وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب أى لا يأتئها، كأنه حُصِرَ عنها.

وقيل: مانعا نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة فى النساء..

فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها، إما بمجاهدة كعيسى - عليه السلام، أو بكفاية من الله تعالى، كيحيى - عليه السلام، فضيلة زائدة. لكونها مُشْغِلَةً فى كثير من الأوقات، حاطة إلى الدنيا، ثم هى فى حق من أقدر عليها وملكها، وقام بالواجب فيها، ولم يشغله عن ربه درجة علياء، وهى درجة نبينا ﷺ، الذى لم تشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة لتحسينهن، وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن وهدايته إياهن، بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره. فقال عليه السلام: «حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ» فدل أن حبه لما ذُكر من النساء والطيب اللذين هما من أمر دنيا غيره، واستعماله لذلك ليس لدنياه بل لآخرته».

ويستطرد القاضي عياض قائلا:

«وكان حبه الحقيقي المختص بذاته في مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته، ولذلك ميّز بين الحُبّين، وفَصَلَ بين الحالين، فقال: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». فقد ساوى يحيى وعيسى في كفاية فتنّتهن، وزاد فضيلة بالقيام بهن».

* أما الجاه.. محمود عند العقلاء عادة، ويقدر جاهه عِظْمُهُ في القلوب. لكن آفاته كثيرة، فهو مضرّ لبعض الناس لِعُقْبَى الآخرة، فلذلك ذمّه من ذمّه، ومدح ضده وورد في الشرع ذم العلوّ في الأرض.

وكان ﷺ - قد رزق من الحشمة، والمكانة في القلوب، والعظمة، قبل النبوة وبعدها، وهم يكذّبونه ويؤذّون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته.

● ويضرب القاضي عياض لذلك من الأمثلة على عظمة جاهه، والرهبة في لقاته، فيقول:

«روى عن قَيْلَةَ أنها لما رأتَهُ أُرْعِدَتْ مِنَ الْفَرَقِ، فقال - ﷺ: «يا مسكينة عليك السكينة».

وفي حديث ابن مسعود، أن رجلا قام بين يديه فأرْعَدَ، فقال له: «هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَيْلِكَ»

أما عظيم قدره بالنبوة، وشريف منزلته بالرسالة، وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا فأمرّ هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيّد ولد آدم.

الضرب الثالث:

ثم ينتقل القاضي عياض ليتحدث عن الضرب الثالث من الضروب التي حددها وهو: «ما تختلف الحالات في التمدح به، والتفاخر بسببه، فذكر كثرة المال^(١).

(١) الشفا ٩٢/٨.

«فصاحب المال على الجملة معظم عند العامة، لا اعتقادها تَوَصُّلُهُ به إلى حاجات، وتمكن أعراضه بسببه، وإلا فليس فضيلة في نفسه».

«فمتى كان المال بهذه الصورة، وصاحبه مشريا به المعالي، والثناء الحسن، والمنزلة من القلوب، كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجوه البر، وأنفقه في سُبُل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكلِّ بكل حال».

* «ومتى كان صاحبه ممسكا له غير موجهه وجوهه، حريصا على جمعه، عاد كثرُهُ كالعدم، وكان منقصة في صاحبه، ولم يقف به على جُدد السلامة، بل أوقعه في هُوَّة رَذِيلَةِ البُخل، ومذمة النذالة».

فإذا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله ليست لنفسه، وإنما هو للتوصل به إلى غيره، وتصريفه في متصرفاته، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه، ولا وجهه وجوهه، غير ملء بالحقيقة، ولا غني بالمعنى.. بل هو فقير أبداً، غير واصل إلى غرض من أغراضه.

عقب هذه المقدمة، التي أسهب فيها القاضى عياض، انتقل إلى سيرة المصطفى - ﷺ - وخلقُه في المال، فقال:

إنه - ﷺ - «قد أوتى خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحِلَّت له الغنائم، ولم تُحَلَّ لنبي قبله، وفتح عليه في حياته - ﷺ - بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما داني ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتهما وصدقاتها ما لا يُجِبِّي للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم».

«فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهما، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، وقال: ما يسُرَّنِي أن لي أَحَدًا ذهباً يبيت عندي منه دينارٌ إلا ديناراً أرصده لِدِين».

«وآتته دنائيرُ مرة فقسَّمها وبقيت منها سِتَّةٌ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذها نوم حتى قام وقسمها، وقال: الآن استرحت».

«ومات - ﷺ - ودرعه مرهونة في نفقة عياله، واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهده فيما سواه».

وبعد أن تحدث عن زهد الرسول في المال، وانفاقه في سبيل الله، تحدث القاضي عياض عن زهده في ملبسه^(١)، قال:

«كان - ﷺ - يلبس ما وجدته، فيلبس الشُّملة، والكساء الخشن، والبُرْد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوَّصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر».

«إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء، والمحمود منها تقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لُبْس مثله، غير مُسْقِط لمروءة جنسه، مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرفين، وقد ذم الشرع ذلك، وغاية الفخر منه - في العادة عند الناس - إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود، ووفور الحال».

٧

الخصال المكتسبة:

بعد أن أتى القاضي عياض على الخصال الضرورية الدنيوية، وأوسعها توضيحاً وتحليلاً.. انتقل إلى دراسة الخصال المكتسبة الدينية، من الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة، التي حوّاها رسول الله - ﷺ.

وهي خصال «اتفق جميع العقلاء على تفضيلها، وتفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها، فضلاً عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحُسن الخلق، وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها.

هذه الخصال الكريمة، كما يقول القاضي عياض - قد كانت خُلُق نبينا

(١) الشفا ٩٥/١.

- ﷺ، على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقال الرسول عن نفسه: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

ويستشهد القاضي عياض على أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقدم مجموعة من الأحاديث المروية عن صحابته، وأقوال المحققين في ذلك.

من مثل قول عائشة - رضى الله عنها - كان خُلُقُهُ القرآنَ يَرْضَى بِرِضَاهُ، وَيَسْخِطُ بِسَخْطِهِ».

وقول أنس: كان رسول الله - ﷺ - أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقًا».

«وقد ذكر المحققون - أن أخلاق الرسول - ﷺ - كان محبوبا عليها في أصل خلقته، وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بحدود إلهي، وخصوصية ربانية، وهكذا كسائر الأنبياء».

ويستشهد لذلك بما جاء عن أهل السير والأخبار.. قالوا:
«أن أمه آمنة بنت وهب، أخبرت أنه ﷺ، وُلِدَ حين ولد باسطاً يديه إلى الأرض، رافعا رأسه إلى السماء».

وأنه - ﷺ - قال: لَمَّا نَشَأْتُ بَغِضْتُ إِلَى الْأَوْتَانِ، وَبَغِضَ إِلَى الشَّعْرِ، وَلَمْ أَهَمْ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، فَعَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهَا ثُمَّ لَمْ أَعُدْ».

وهنا يقرر القاضي عياض أمراً يتصل بالأنبياء جميعاً، فهم فطروا على أمور هي قمة الخصال الحميدة، «تترادف نفحات الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم، حتى يصلوا إلى الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة، في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة».

«وقد نجد غير الأنبياء من يطبع على بعض هذه الأخلاق دون جميعها، ويولد عليها، فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله.. فبالاكتساب يكمل ناقصها، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها، ويعتدل منحرفها، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس».

قال ابن مسعود: إن الخلق الحسن جبلةٌ وغيرةٌ في العبد.
وقد روى عن النبي - ﷺ - أنه قال: «كل الخلال يُطبع عليها المؤمن إلا
الخيانة والكذب».

* والقاضى عياض حين يفرد فصلا للحديث عن الخصال المكتسبة، فإنه
يرمى إلى الحديث عن أمور حددها هو مسبقا في تقسيمه للخصال الضرورية
والخصال المكتسبة، وهى:

«سائر الأخلاق العلية، والآداب الشرعية، من الدين والعلم، والحلم
والصبر، والشكر والعدل، والزهد والتواضع، والعفو والعفة، والجلود
والشجاعة والحياء والمروءة، والصمت والتؤدة، والوقار والرحمة، وحسن
الأدب والمعاشرة، وأخواتها، وهى التى جماعها حسن الخلق^(١)».

لذلك نراه يتأهب للحديث عن هذه الخصال، ليحقق وصفه - ﷺ - بها.
بيد أنه لم يشأ أن يبدأ حديثه عن خصال المصطفى المكتسبة، دون أن يهد لها
بتحديد الوسيلة التى بها حصل هذه الخصال. ولقد كانت هذه الوسيلة - فى نظر
القاضى عياض - هى العقل^(٢).

«فالعقل هو الذى منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع منه ثقبوب الرأى،
وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس،
ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل».

وقد كان بلوغه - ﷺ - «من العقل ومن العلم، الغاية القصوى التى لم
يبلغها بشر سواه، وإذ جلالة محلّه من ذلك، ومما تفرع منه، متحققة عند من تتبع
مجارى أحواله، وأطراد سيره، وطالع جوامع كلامه، وحسن شأئله، وبدائع سيره،
وحكم حديثه، وعلمه بما فى التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء
وسير الأمم الخالية، وأيامها، وضرب الأمثال وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع،
وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم، التى اتخذ أهلها

كلامه - ﷺ - فيها قدوة، وإشاراته حُجة كالعبارة والطب والحساب والفرائض، وغير ذلك.. دون تعليم ولا مدارس، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبى أُمى لم يعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلمه وأقرأه».

وبحسب عقله - كانت معارفه - ﷺ، إلى سائر ما علَّمه الله تعالى، وأطلعته عليه من علم ما يكون، وما كان، وعجائب قدرته وعظيم ملكوته، قال الله تعالى:

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

حارت العقول في تقدير فضله عليه، وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهى إليه.

٨

بدأ القاضى عياض فصوله التى خصصها للحديث عن خصاله المكتسبة من الأخلاق الحميدة، بفصل أفرده للكلام عن حلمه واحتماله، وعفوه مع المقدرة، وصبره^(١)

قال: «وأما الحلم والاحتمال والعفو مع المقدرة، والصبر على ما يكره، وبين هذه الألقاب فرق. فإن الحلم.. حالة توقر وثبات عند الأسباب المحركات، والاحتمال.. حبس النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصبر، ومعانيها متقاربة. وأما العفو.. فهو ترك المؤاخذه. وهذا كله مما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ. وقد جاء ذلك فى قول الحق سبحانه:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

روى أن النبى ﷺ - لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عليه السلام - عن تأويلها، فقال له: حتى أسأل العالم.. ثم ذهب فأتاه، فقال: يا محمد.. إن الله يأمرك أن تصل مَنْ قطعك، وتعطي مَنْ حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وقال له (واصبرْ على ما أصابك) الآية.

* ويتابع القاضي عياض قوله:

«ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حلیم قد عُرِفَتْ منه زلة، وحفظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يزيد من كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حُلماً.

ومضى القاضي عياض يستشهد لموضوعه بالعديد من الأحاديث النبوية، التي وردت في مناسبات كثيرة.. من ذلك حديث عائشة - رضى الله عنها، قالت: «ما خير رسول الله - ﷺ - في أمرين قط إلا أختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله - ﷺ - لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى، فينتقم الله بها.»

وروى أن رسول الله - ﷺ - لما كُسرت رباعيته، وشُجَّ وجهه يوم أحد، شق ذلك على أصحابه شقاً شديداً، وقالوا لو دعوت عليهم، فقال: «إني لم أبعث لعناً، ولكني بُعثت داعياً ورحمة، اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»

قال القاضي عياض: «أنظر في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحُسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر - ﷺ - على السكوت عنهم حتى عفا عنهم. ثم اشفق عليهم ورحمهم، ودعاً وشفع لهم، فقال اغفر أو اهد ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله (لقومي)، ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: (فإنهم لا يعلمون)^(١)

٩

وفي الحديث عن عفوه - ﷺ، يذكر القاضي عياض بعض ما جاء في سيرته من أمور يتصل بعفوه عند مقدرته، من ذلك:

* عفوه عن اليهودية التي سمّته في الشاه بعد اعترافها..
* وأنه لم يؤاخذ لبید بن الأعصم، إذ سحره، وقد أعلم به وأوحى إليه بشرح أمره..

* وكذلك لم يؤاخذ عبدالله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم

في جهته قولا وفعلًا، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «لا»، لئلا يُتحدَّث أن محمدًا يقتل أصحابه^(١)

ويختتم القاضى فصله هذا بقوله:

«والحديث عن حلمه - ﷺ - وصبره وعفوه عند المقدرة، أكثر من أن نأتى عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح، والمصنفات الثابتة إلى ما بُلِّغ متواترا مبلغ اليقين، من صبره على مقاساة قريش، وأذى الجاهلية، ومصابرة الشدائد الصعبة معهم، إلى أن أظفره الله عليهم، وحكمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم، وإبادة خضرائهم، فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: ما تقولون إني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: أقول كما قال أخى يوسف: «لا تريب عليكم (الآية)، اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٢)

١٠

وفي الفصل التالى، الذى خصصه للحديث عن جوده وكرمه وسخائه وسماحته - ﷺ - لم يشأ أن يدخل فى موضوعه مباشرة إلا بعد أن يُعرّف معانى هذه الكلمات، وأنها جميعا متقاربة، إلا أن بعضهم قد فرق بينها بفروق، فجعلوا: الكرم: الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطرُه ونفعُه وسمّوه أيضا جرأة، وهو ضدّ النذالة.

والسباحة: التجافى عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس، وهو ضد الشكاسة.

والسخاء: سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب ما لا يُحمد، وهو الجود، وهو ضد التقدير.

قال^(٣): «فكان - ﷺ - لا يُوازى فى هذه الأخلاق الكريمة، ولا يبارى بهذا، وصفه كل من عرفه:

قال جابر بن عبد الله: «ما سئل رسول الله - ﷺ - عن شيء فقال لا. وقال ابن عباس - رضى الله عنها -: «كان النبى - ﷺ - أجود الناس

(٢) الشفا ١/١١١

(١) الشفا ١/١٠٨

(٢) الشفا ١/١١٠

بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل - عليه السلام - أجود بالخير من الريح المرسلة.

«وأنه - ﷺ - ردَّ على هوازن سبأياها، وكانت ستة آلاف، وأعطى العباس من الذهب ما لم يُطق حمله، ومُحِلَّ إليه تسعون ألف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما ردَّ سائلا حتى فرغ منها»

قال أنس: «كان رسول الله - ﷺ - لا يدخر شيئا لغد». والخبر ببجوده - ﷺ - وكرمه كثير.

١١

وتدخل في خصاله المكتسبة أيضا: الشجاعة والنجدة. أفرد لها القاضي عياض فصلا^(١)، عرّف في صدره بمعناها، ليكون ذلك منطلقا للحديث عن شجاعته ونجدته - ﷺ.

قال: «فالشجاعة فضيلة قوة الغضب، وانقيادها للعقل..

والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت، حيث يُحمد فعلها دون خوف». «وكان - ﷺ - منها - بالمكان الذي لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرَّ الكمأة والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يُدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرّة، وحفظت عنه جوله سواء.

ويقدم القاضي عياض الدليل تلو الدليل على شجاعته - ﷺ - فيقول:

* سُمع البراء وقد سأله رجل: أفررتُم يوم حنين عن رسول الله - ﷺ ؟

قال: لكن رسول الله - ﷺ - لم يفرّ، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء،

وأبو سفيان أخذ بلجامها، والنبي - ﷺ - يقول: «أنا النبي لا كذب؟ أنا ابنُ

عبدالمطلب» قيل: فما روى يومئذ أحدٌ كان أشد منه.

وقال على - رضى الله عنه: «إنا كُنّا إذا حمى البأس، واحمّرت الحَدَق، اتقينا

برسول الله، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيته يوم بدر، ونحن

نلوذ بالنبي - ﷺ - وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا»

وقيل: كان الشجاع هو الذى يقربُ منه - ﷺ - إذا دنا العدو لقربه منه.
وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله - ﷺ - كتيبة إلا كان أول من يضرب.

ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد، وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، وقد كان يقول للنبي - ﷺ - حين افتدى يوم بدر، عندي فرسٌ أغلفها كل يوم فرقا من ذرة، أقتلك عليها، فقال له النبي - ﷺ - أنا أقتلك إن شاء الله، فلما رآه يوم أحد شدُّ أبي على فرسه، على رسول الله - ﷺ - فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي.. هكذا - أى خلو طريقه، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشُّعراء عن ظهر البعير، إذا انتفض..

ثم استقبله النبي - ﷺ - فطعنه فى عنقه طعنة تدأداً منها عن فرسه مراراً. وقيل: بل كَسَرَ ضلعاً من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلنى محمد، وهم يقولون، لا بأس عليك. فقال: لو كان ما بى بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك. والله لو بَصَقَ عَلَى لقتلنى، فبات «بِسْرِفٍ» فى رجوعهم إلى مكة.

١٢

وفى فصل الحياء والإغضاء^(١) مهد القاضى عياض له بالتعريف بها، تمهيدا للحديث عن حياء رسول الله - ﷺ.
قال: «فالحياء: رقة تعترى وجه الانسان عند فعل ما يُتَوَقَّع كراهيته، أو ما يكون تركه خيراً من فعله.
والإغضاء: معناه التغافل عما يكره الانسان بطبيعته.

«وكان النبي ﷺ - أشد الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال الله تعالى: ﴿إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ﴾ الآية.
روى أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه، كان رسول الله - ﷺ - أشد حياءً من العذراء فى خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه على وجهه، وكان ﷺ، لطيف

البشرة، رقيق الظاهر، لا يُشافه أحداً بما يكرهه حياءً وكرم نفس.

١٣

وفي فصل حُسن عشرته وأدبه وبسط خلقه^(١)

يذكر القاضي عياض ما جاء عن رسول الله ﷺ، من حسن المعاملة، وما انتشرت به الأخبار الصحيحة.

«قال عليٌّ - رضى الله عنه - في وصفه - عليه الصلاة والسلام، كان أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة. وقال قيس بن سعد: زارنا رسول الله ﷺ - وذكر قصة آخرها: «فلما أراد الإنصراف قَرَّبَ له سعدٌ حملاً وطأً عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ -، ثم قال سعد: يا قيس اصحب رسول الله ﷺ، فقال لى رسول الله: اركب فأبيت، فقال: إما أن تركب، وإما أن تنصرف، فانصرفت» وفي رواية أخرى: اركب أمامى فصاحب الدابة أولى بمقدمها.

عقب القاضي عياض على مرويات هذا الفصل، فقال:

«وكان رسول الله ﷺ - يؤلفهم، ولا يُنفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويؤليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره، ولا خلقه، يتعهد أصحابه، ويُعطى كل جلسائه نصيبه، لا يحسبُ جلسُهُ أن أحداً أكرم عليه منه، مَنْ جالسه أو قاربه لحاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقته، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء»

بهذا وصفه ابن أبي هالة: قال:

«وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب ولا فحاش، ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه، وقال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾»

«وكان يجيب من دعاءه، ويقبل الهدية ولو كانت كُرَاعًا، ويُكافئُ عليها، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها، وكان أكثر الناس تبسُّمًا، وأطيبهم نفسًا ما لم يُنزل عليه قرآن، أو يعظ أو يخطب».

١٤

ويعقب القاضي عياض هذا الفصل: بفصل جديد، خصصه للحديث عن شفقتة ورأفته ورحمته^(١) لجميع الخلق. يصدره ببعض ما جاء في الذكر الحكيم من آيات تتحدث عن هذه الخصال الحميدة في المصطفى - ﷺ - من مثل قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وبعد أن يذكر الكثير من الأخبار والروايات والآثار، عن علاقات الرسول - ﷺ - بمن حوله من الناس، ومعاملته لهم بالحسنى والشفقة والرحمة، ينتقل للحديث عن شفقتة على أمته، فيقول:

«لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء، وخبرُ صلاة الليل ونهيبهم عن الوصال، وكرهته دخول الكعبة لئلا تتعنت أمته، ورغبته لربه أن يجعل سببه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته». «ومن شفقتة - ﷺ - أن دعا ربه وعاهده، فقال: أَيُّمَا رَجُلٍ سَبَّيْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ، فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً وَصَلَاةً وَطَهُورًا، وَقُرْبَةً تَقْرِبُهُ بِيَّ إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». «ولما كذَّبه قومه أتاه جبريل - عليه السلام - فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال، وسلَّم عليه، وقال: مُرْنِي بِمَا شِئْتَ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال النبي - ﷺ - بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا شريك به شيئًا».

وروى أن جبريل قال للنبي - ﷺ: إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك، فقال: أؤخر عن أمي لعل الله أن يتوب عليهم.

١٥

ثم انتقل القاضى عياض إلى خصيصة أصيلة في رسول الله - ﷺ - وهى خلقه فى الوفاء، وحسن العهد وصلة الرحم، وأفرد لهذا الموضوع فصلاً^(١) يتحدث فيه عما جاء فى سيرته العطرة من أمور وأحداث تبرز هذه الخصلة الحميدة فيه.

من ذلك، ما ذكره عن أبى الحمساء، قال: «بايعتُ النبی - ﷺ - ببيع قبل أن يُبعث، وبقيت له بقية، فوعده أن آتیه بها فى مكانه، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال: يافتي لقد شققت على، أنا ههنا منذ ثلاثٍ انتظرک.

«وكان الرسول - ﷺ - وفياً لزوجته خديجة، يحب من أحبها، ويصل من وصلها.. روى أنس، كان النبی ﷺ - إذا أتى بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة».

«ودخلت عليه امرأة، فهش لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيم خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

* أما عن صلته للرحم. فيستحضر القاضى عياض لذلك شواهد جمة بما رواه الناس عنه فقد وصفه بعضهم فقال: كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. قال ﷺ: إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء، غير أن لهم رحماً سألها ببلالها».

«ولما جرى بأخته من الرضاعة «الشيء» فى سبأيا هوازن، وتعرفت له، بسط لها رداءه، وقال: إن أحببت أقمت عندى مكرمة، محبة، أو منعتك ورجعت إلى قومك، فاختارت قومها فمتعها».

وقال أبو الطيفيل: رأيت النبی - ﷺ - وأنا غلام - إذ أقبلت امرأة حتى

دنت منه، فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته».

«وكان يبعث إلى ثوبية مولاة أبي لهب، مرضعته - بصلة وكسوة، فلما مات سأل من بقي من قرابتها؟ فقيل: لا أحد».

وقد جاء في حديث خديجة - رضى الله عنها - جماع خصاله هذه، حين قالت له: «أُبَشِّرُ.. فوالله لا يحزنك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

١٦

وخصص القاضى عياض الفصل التالى للحديث عن تواضعه - ﷺ^(١) قال فيه: «وأما تواضعه - ﷺ - على علي منصبه، ورفعة رتبته، فكان أشد الناس تواضعا. وأعدمهم كبراً، وحسبك أنه خير بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً، فقال إسرافيل عند ذلك، فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق الأرض عنه، وأول شافع».

ويذكر القاضى عياض أخباراً كثيرة تتحدث عن تواضعه - ﷺ. «من ذلك ما ورد عن أمانة رضى الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ - متوكئاً على عصا، فقمنا له، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً».

«وقال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد». وفي حديث عمر - عنه - ﷺ: «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: «عبدُ الله ورَسُولُهُ».

«وكان - ﷺ - يركب الحمار، ويُردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويحجب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس».

«جاءته امرأة - فى عقلها شيء - فقالت: إن لى إليك حاجة، قال: اجلسى

يا أم فلان في أى طُرق المدينة شئت، أجلسى إليك حتى أقضى حاجتك، قال أنس: فجلست فجلس النبي - ﷺ - إليها، حتى فرغت من حاجتها. ويذكر القاضي عياض خبراً هو القصة في تواضعه - ﷺ -، يوم فُتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش المسلمين، طأطأ على رحله رأسه، حتى كان يمر قادمته تواضعنا لله تعالى.

كما يذكر أخباراً كثيرة توضح تواضعه في بيته وبين نسائه، قال عائشة: «كان رسول الله - ﷺ - في بيته في مهنة أهله، يَفْلِي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق.

١٧

بعد ذلك عقد القاضي عياض فصلاً تحدث فيه عن عدله وأمانته، وعفته، وصدق لهجته^(١).

قال فيه: «كان - ﷺ - آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف بذلك محادوه وعِدَّاءه، وكان يسمى قبل نبوته «الأمين»، بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة.

وذكر القاضي عياض كثيراً من الأخبار والآثار التي تشهد بأمانته وعفته. من ذلك. «لما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة، فيمن يضع الحجر (الأسود)، حكموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبي - ﷺ - داخل، وذلك قبل نبوته، فقالوا: هذا محمد؟ هذا الأمين؟ قد رضينا به».

وروى عنه - ﷺ - أنه قال: «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض». * أما عن صدقه، فيشهد به كل من عرفه وعاصره، من محبيه ومبغضيه على السواء، روى علي - رضي الله عنه - أن أبا جهل قال للنبي - ﷺ : إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ الآية.

وقيل: «إن الأخنس بن شريق، لقي أبا جهل يوم بدر، فقال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، تخبرني عن محمد صادق هو أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمدًا لصادق، وما كَذَبَ محمد قط».

* وأما عن صدق لهجته، قد جاء في حديث عليّ وصفه - ﷺ - أصدق الناس لهجة.

* وأما عن عدله، فقد قال في الصحيح: «وَنَحْكُ فَمَنْ يَهْلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ خَبْتُ وَخَسَرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ».

وينقل القاضي عياض عن المبرد، قوله عن كسرى، الذي كان يعيش لنفسه ومتعته حيث قسم أيامه قائلا: «يصلح يوم الريح للنوم، ويم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج.. ثم يقول: «ولكن نبينا المصطفى - ﷺ - جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها، آمنه الله يوم الفزع الأكبر».

* أما عن عفته، فينقل القاضي عياض ما رواه الطبري، عن النبي - ﷺ - قوله:

«ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به، غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير، لُعرس بعضهم، فجلست أنظر، ففُضرب على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم عَرَافى مرة أخرى مثل ذلك، ثم لم أهُمَّ بعد ذلك بسوء».

ثم أفرد القاضي عياض فصلاً للحديث عن وقاره وصمته وتؤدته ومروءته

وحسن هديه^(١) جمع فيه ما جاءت به الأخبار، وروته الآثار، وسجله الصحابة والتابعون وتناقلوه فيما بينهم..

* أما وقاره، فقد ذكر خارجة بن زيد، أنه كان ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه.

وروى أبو سعيد الخدري: كان رسول الله ﷺ - إذا جلس في المجلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه - ﷺ مُحْتَبِيًا.

وجاء في صفته: «يخطو تكفؤا، ويمشي هونا، كأنما ينحط من صَبَبٍ، وإذا مشى مشى مجتمعا، يُعرف من مشيته أنه غير غَرَضٍ ولا وكلٍ، أى غير ضجر ولا كسلان.

* أما صمته، فقد كان رسول الله ﷺ - كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يُعْرِضُ عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكُهُ تَبَسًا، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، مجلسه مجلس حكم وحياء، وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤين فيه الحُرْمَ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير.

قال القاضي عياض: ومن مروته - ﷺ - نهيه عن النفخ في الطعام والشراب، والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسواك، وإنقاء البراجم والرواجب، واستعمال خصال الفطرة.

١٩

وفي الفصل الذى أفرده القاضى عياض لزهده، بدأه بقوله: «أما زهده في الدنيا، فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفى، وحسبك من تقلله منها، وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقّت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها، إلى أن توفى - ﷺ - ودرعه مرهونة عند يهودى في نفقه عياله، وهو يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قَوْتًا».

يبد أن الرجل يضيف إلى ما سبق ذكره، بعض الأخبار التي تتحدث عن زهده وقناعته ورضائه بالقليل. من ذلك: ما روته عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما شبع رسول الله - ﷺ - ثلاثة أيام تباعا من خُبزٍ حتى قَضَى لسبيله».

وفي رواية: ما شبع آل رسول الله - ﷺ - من خُبزٍ بُرٍّ حتى لقي الله عز وجل.

وقالت عائشة: «ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شَطْرَ شعير في رِفٍّ لي، وقال لي: «إني عُرض على أن يُجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت لا يارب، أجوع يوماً، وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه، فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك».

وعن حفصة - رضي الله عنها - قالت: كان فراش رسول الله - ﷺ - في بيته مسحاً ثنيتين، فينام عليه، فتثنيه له ليلة بأربع، فلما أصبح قال: ما فرستموا لي الليلة؟ فذكرنا ذلك له، فقال: ردّوه بحاله فإن وطأته منعني الليلة صلاقي.

وتروى عائشة ظروف معيشته في أخريات حياته، فتقول: «لم يمتلئ جوف النبي - ﷺ - شبعاً قط، ولم يَبْتَ شَكْوَى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظل جائعاً يتلوّى طول ليلته من الجوع، فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها.. ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به، وأمسخ بيدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول نفسي لك الفداء، لو تبلّغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: يا عائشة مالي وللدنيا؟ إخواني من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، فأجدني استحيى إن ترفّعت في معيشتي أن يُقَصَّر بي غدا دونهم، وما من شيء هو أحب إلى من اللّحوق بإخواني وأخلائي،» قالت: فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفي - ﷺ -.

ويختتم القاضي عياض بحوثة الجيدة عن الخصال الدينية المكتسبة، بفصل خصصه للحديث عن علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه، وخوفه منه، وطاعته له، وشدة عبادته^(١).

قال في صدره: «وأما خوفه ربه، وطاعته له، وشدة عبادته، فعلى قدر علمه بربه.

ويقدم الشواهد على ذلك مما ورد في السنة المطهرة، متصلاً بهذا الجانب.

من مثل قول أبي هريرة - رضى الله عنه - كان رسول الله - ﷺ - يقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»

وفي رواية لأبي ذر - رضى الله عنه - «إنى أرى ما لاترون، وأسمع ما لاتسمعون، أظن الساء وحق لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله». * أما عبادته، ففي حديث المغيرة: صَلَّى رسول الله - ﷺ - حتى انتفخت قدماه.

فقليل له: أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

قالت عائشة: «كان عمل رسول الله ﷺ - ديمة، وأيكم يطيق، كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ولا يفطر حتى نقول لا يصوم»

وقال عوف بن مالك: «كنت مع رسول الله ﷺ، فاستاك ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقامت معه فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه، يقول: سبحان ذى الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك».

* ويختتم القاضى عياض هذا الفصل المتمتع بذكر حديث على - رضى الله عنه، قال:

«سألتُ رسول الله - ﷺ - عن سُنته، فقال: المعرفة رأس مالى، والعقل أصل ديني، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أنيسى، والثقة كنزى، والحزن رفيقى، والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا غنيمتى، والعجز فخرى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهد خلقى، وقرة عينى فى الصلاة.

٢١

بعد أن انتهى القاضى عياض من عرض جميع الخصال الدينية المكتسبة، لرسول الله - ﷺ - لم يشأ أن يختتم هذه الفصول، دون أن يشير أيضا إلى خصال جميع الأنبياء والرسل^(١) - صلوات الله عليهم - من كمال الخلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحُسن الخلق، وجميع المحاسن، هى هذه الصفة، لأنها صفات الكمال، والكمال والتمام البشرى، والفضل الجميع لهم - صلوات الله عليهم، إذ رتبهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات، ولكن فَضَّلَ الله بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾

ثم يتحدث القاضى عياض عن هؤلاء الرسل، من آدم حتى يأتى عليهم جميعا، متحدثا عن صفاتهم وخصائصهم، ومكانتهم، وتأيد الله لهم فى كل مناسبة، حيث بلغوا رسالاتهم إلى أقوامهم. محدداً، أن أخبارهم فى هذا كله مسطورة، وصفاتهم فى الكمال وجميل الأخلاق وحسن الصور والشاغل معروفة مشهورة، فلا يريد التطويل فيها، وينصح قارئيه أن لا يلتفتوا إلى ما يجدوه فى كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين بما يخالف ما ذكره أو أتى به.

٢٢

ولقد كان حديث القاضى عياض عن أنبياء الله ورسله منطلقا لكى يعيد الحديث عن رسول الله - ﷺ - فى فصل تال^(٢). وكأنه يريد أن يلخص

ما سبق أن ذكره في الفصول السابقة، من ذكر الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصال الكمال العديدة..

لذلك رأى أن يختم هذه الفصول السابقة بذكر حديث الحسن عن ابن أبي هالة، لجمعه من شائله وأوصافه كثيرا، وإدماجه جملة كافية من سيره وفضائله.

قال الحسن بن علي، سألت خالي هند بن أبي هالة، عن حلية رسول الله - ﷺ - وكان وصافا، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئا أعلق به، قال: «كان رسول الله - ﷺ - فخما مفعما، يتلأأ وجهه تَلَأُو القمر ليلة البدر، أطول من المربع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رَجُلُ الشعر إن انفرت عقيقته فَرَّقَ، وإِلَّا فَلَا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزجُّ الحواجب، سَوَابِغٌ من غير قَرَنٍ بينهما، عِرْقٌ يُدْرُهُ الغضب، أفتى العرفين، له نور يعلو، ويحسبه من لم يتأمله أَشَمُّ، كث اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المُسْرَبَةِ، كأن عنقه جيدٌ دُمِيَّةٌ في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنا متماسكا، سواء البطن والصدر، مُشِيحُ الصدر، بعيد ما بين المنكبين، فخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عارى الثديين، ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين، وأعلى الصدر، طويل الزندين، رجب الراحة.. الحديث»

ولما كان هذا الفصل يضم كثيرا من الألفاظ الغريبة، التي تحتاج إلى تفسير وتوضيح، فقد عقد القاضى عياض فصلا تفسيريا تحليليا جعله في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله^(١) حتى يكون معينا لمن يراجع وصف رسول الله - ﷺ -، وحتى يبرز الرجل ثقافته اللغوية ودرايته بغريب الحديث.

الفصل الثالث

عظيم قدره ومنزلته عند ربه

في الفصل السابق تحدث القاضى عياض عن خصال الكمال والجمال للرسول المصطفى - ﷺ. سواء الخصال الضرورية الدنيوية ، أو الخصال الدينية المكتسبة، وأشبع هذا الموضوع تفسيراً وتحليلاً، واستشهاداً وتعليلاً..

بعد ذلك انتقل للحديث عن عظيم قدره عند ربه، ومنزله لديه، وما خصه به سبحانه وتعالى في الدارين من كرامات.

وقد صدر القاضى عياض هذا الفصل بمقدمة قصيرة، قال فيها: «لا خلاف أنه - ﷺ - أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله، وأعلاهم درجة، وأقربهم زُلْفَى»

واتخذ من ذلك منطلقاً للحديث عن عظيم قدره، ثم قرر أنه حصر معاني ما ورد من ذلك في اثني عشر فصلاً، كما يلي:

- ١ - مكانته عند ربه.
- ٢ - في تفضيله بالإسراء.
- ٣ - في مناقشة رحلة الإسراء، هل كانت بالروح والجسد.
- ٤ - في إبطال حجج من إدعى أنها نوم.
- ٥ - في رؤية الرسول - ﷺ - لربه.
- ٦ - في مناجاته - ﷺ - لله، وكلامه معه.
- ٧ - في تفضيله يوم القيامة.
- ٨ - في تفضيله بالمحبة والخلة.
- ٩ - في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود.

- ١٠ - في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة، والكوثر والفضيلة.
 ١١ - في أسماه وما تضمنته من فضيلته.
 ١٢ - في تشريف الله بما سباه به من أسماه الحسن.

١

فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه
 حدد القاضي عياض الإطار الذي سيتحدث في حدوده، فذكر أن مضمونه:
 «ما ورد من ذكر مكانة المصطفى - ﷺ - عند ربه، والإصطفاء، ورفعته
 الذكر، والتفضيل، وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب،
 ثم بركة اسمه الطيب».

* أما عن العنصر الأول، وهو ما ورد من ذكر مكانته عند ربه، فقد
 استشهد له بما رواه ابن عباس عن الرسول - ﷺ، وهو قوله:
 «إن الله تعالى قسم الخلق قسمين، فجعلني من خيرهم قسماً، فذلك قوله
 تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ فأنا من أصحاب اليمين، وأنا
 خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله
 تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْمِئْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فأنا من
 السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني من خيرها قبيلة،
 وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الآية، فأنا أتقى ولد آدم
 وأكرمهم على الله ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني من خيرها بيتاً، فذلك
 قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ الآية.

* وعن اصطفائه - يذكر القاضي عياض شاهده من قول المصطفى -
 ﷺ - عن نفسه: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد
 إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش
 بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

* وعن سيادته ولد آدم، يذكر القاضي عياض ما رواه أنس - رضي الله
 عنه - عن النبي - ﷺ - «أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

وروى ابن عباس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: لما خلق الله آدم، أهبطنى فى صُلبه إلى الأرض، وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة، وقذفنى فى النار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلنى فى الأصلاب الكريمة، إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجنى بين أبوى، لم يلتقيا على سفاح قط.. وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب بقوله:

* مِنْ قَبْلِهَا طِبَّتْ فِي الظَّلَالِ وَفِي	* مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ
* ثُمَّ هَبَطْتُ الْبِلَادَ لَا بَشَرُ	* أَنْتَ وَلَا مُضَفَّةٌ وَلَا عَلَقُ
* بَلْ نُطْفَةُ تَرَكَّبُ السُّفِينِ وَقَدْ	* أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْفَرْقُ
* تَنْقُلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَجَمٍ	* إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقُ
* ثُمَّ اخْتَوَى بَيْتَكَ الْمُهَيْمِنُ مِنْ	* خُنْدَفٍ عَلَيَّاءَ تَحْتَهَا النُّطْقُ
* وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتْ الْأَرْ	* ضُ وَضَاعَتْ بُرُوكَ الْأَفْقُ
* فَتَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النَّدَى	* حَوْرٍ وَسُبُلِ الرِّشَادِ نَخْتَرِقُ
* يَابِرْدَ نَارِ الْخَلِيلِ يَأْسِبِيَا	* لِعِصْمَةِ النَّارِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

ثم يذكر القاضى عياض ما خصه الله به من مزايا الرتب، وقد ورد ذلك فى حديث النبى المصطفى نفسه، مما رواه ابن عباس وغيره، وهو قوله - ﷺ - :

أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأجلت لى الغنائم، ولم يحل لنبى قبلى، ويؤمن إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة.»

* وروى ابن وهب، أنه ﷺ قال: «قال الله تعالى: سَلِّ يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: ما أسأل يارب، اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، واصطفيت نوحاً، وأعطيت سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.. فقال الله تعالى: ما أعطيتك خيراً من ذلك، أعطيتك الكوثر، وجعلت اسمك مع اسمى، ينادى به فى جوف السماء، وجعلت الأرض طهوراً لك ولأمتك، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأنت تمشى فى الناس مغفوراً لك، ولم أصنع ذلك لأحد قبلك، وجعلت قلوب أمتك مصاحفها، وخبأت لك شفاعتك، ولم أخبأها لنبى غيرك.»

* وأما عن بركة اسمه - ﷺ - فقد استشهد القاضي عياض بالعديد من الأحاديث الشريفة^(١)، منها ما حكاه أبو محمد الهكشي، أن آدم عند معصيته قال: «اللهم بحق محمد، اغفر لي خطيئتي، وتقبل توبتي، فقال له الله، من أين عرفت محمداً، قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وفي رواية: «محمد عبدي ورسولي» فعلمت أنه أكرم خلقك عليك، فتاب الله عليه، وغفر له، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾. وروى عن جعفر بن محمد، عن أبيه، إذا كان يوم القيامة، نادى منادُ ألا ليقيم من اسمه محمد، فليدخل الجنة لكرامة اسمه - ﷺ.

٢

في تفصيل المصطفى بما تضمنته كرامة الإسراء
احتلت كرامة الإسراء في فكر القاضي عياض حيزاً كبيراً، من أجل ذلك تحدث عنها حديثاً مستفيضاً، شغل حيزاً كبيراً من سيرة المصطفى - ﷺ. لقد خصص لها الفصول الخمسة التالية من هذا الباب، وتناول فيها كل ما ارتبط بها من أمور كالمناجاة، والرؤية، وإمامة الأنبياء، والعروج إلى سدة المنتهى، وما رآه الرسول من آيات ربه الكبرى.
يقول: «ومن خصائصه - ﷺ - قصة الإسراء، وما انطوت عليه من درجات الرفعة. فما نبه عليه الكتاب العزيز، وشرحته صحاح الأخبار^(٢). قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ إلى قوله ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به - ﷺ، إذ هو نص القرآن، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه، وخواص نبينا - ﷺ - فيه أحاديث كثيرة منتشرة. رأينا أن نقدم أكملها.

(١) الشفا ١/١٧٤

(٢) الشفا ١/١٧٦.

بدأ القاضي عياض بسرد مقدمات الرحلة المقدسة، وقد اعتمد في ذلك على ما جاء على لسان النبي - ﷺ - نفسه، مما رواه عنه أنس بن مالك، قال: «أُتِيَ بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة»

«ثم عُرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه، قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، ﷺ، فرحّب بي، ودعا لي بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابن الخالة عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، صلى الله عليهما، فرحّبًا بي، ودعوا لي بخير.

* ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف - ﷺ، وإذا هو أعطى شطر الحُسن، فرحّب بي ودعا لي بخير.
* ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحّب بي ودعا لي بخير، قال الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

* ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحّب بي، ودعا لي بخير،
* ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحّب بي، ودعا لي بخير،

* ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخل كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال.

قال: فلما غَشِيَهَا من أمر الله ما غَشِيَ تَعَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلى ما أوحى، ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بَلَوْتُ بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت يارب خفف عن أمتي، فحط عني خمسا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى، وبين موسى حتى قال: يا محمد... إنهن خمس صلوات، كل يوم وليلة، لكل صلاة عَشْرُ، فتلك خمسون صلاة.^(١)

بعد ذلك يتعرض القاضي عياض لنقد الروايات غير الصحيحة، كرواية شريك بن أبي نمر، فقد ذكر في أول حديث الإسراء، مجيء الملك له، وشق بطنه، وغسله بماء زمزم.

قال القاضي عياض: «وهذا إنما وهو صبي وقبل الوحي». ثم يقول: «ولا خلاف أن الإسراء كان بعد الوحي، وقد قال غير واحد إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قبل هذا.

* ثم يقف القاضي عياض ليذكر نكتا مفيدة مما وقعت في حديث الإسراء: - من ذلك: قول كل نبي له «مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح» إلا آدم وإبراهيم فقالا له: (والإبن الصالح) - ومن ذلك قوله: «ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»

- ومن ذلك قوله: «ثم انطلق بي حتى أتيت سِدْرَةَ المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي.. ثم أدخلت الجنة» - ومنه: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة فأمتهم، فقال قائل: يا محمد! هذا مالك، خازن النار فسلم عليه، فالتفت فبدأنى بالسلام.

ويذكر القاضي عياض ما قاله الرسول - ﷺ - عن سِدْرَةِ المنتهى، قال: «فَقِيلَ لِي هَذِهِ السَّدْرَةُ الْمُنْتَهَى، يَنْتَهَى إِلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِكَ خَلَا عَلَى سَبِيلِكَ، وَهِيَ السَّدْرَةُ الْمُنْتَهَى يُخْرَجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَامًا، وَأَنْ وَرَقَةً مِنْهَا مُطَلَّةٌ الْخُلُقِ، فَغَشِيَهَا نُورٌ، وَغَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، قَالَ، فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾»

* ويروى أيضا المناجاة التي تمت بين الحق سبحانه وبين رسول الله ﷺ^(١) قال تبارك وتعالى لرسوله: سَلِّ.. فقال: إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَأَلَّنْتَ لَهُ الْحَدِيدَ، وَنَسَخَرْتَ لَهُ الْجِبَالَ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَنَسَخَرْتَ لَهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالرِّيَّاحَ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يَبْرئ الأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَأَعَدَّتَهُ وَأُمَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلٌ».

فقال له ربه تعالى: «قَدْ اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا وَحَبِيبًا، فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ مُحَمَّدٌ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ، وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ هُمْ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ الْآخِرُونَ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ لَا تَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا، وَآخِرَهُمْ بَعَثًا، وَأَعْطَيْتَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي، وَلَمْ أُعْطِهَا لِنَبِيٍّ قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ وَجَعَلْتُكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا»

ويذكر القاضي عياض كيف تعلم الرسول الأذان ومتى، فيروى قوله - ﷺ - أثناء وجوده مع جبريل في السماء السابعة، عند سِدْرَةِ المنتهى.. «إِذَا خَرَجَ مَلَكٌ مِنَ الْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَا جَبْرِيلُ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لِأَقْرَبَ الْخَلْقِ مَكَانًا، وَإِنْ هَذَا الْمَلَكُ مَا رَأَيْتَهُ مِنْذُ خُلِقَتْ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ، فَقَالَ الْمَلَكُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقِيلَ لَهُ مِنْ وَرَاءِ

الحجاب: صدق عبيد، أنا الله لا إله إلا أنا. وذكر مثل هذا في بقية الآذان، إلا أنه لم يذكر جواباً عن قوله «حى على الصلاة، حى على الفلاح».

«ثم أخذ المَلَكُ بيد محمد - ﷺ - فقدمه فأَمَّ أهل السماء فيهم آدم ونوح فأكمل الله لمحمد - ﷺ - الشرف على أهل السموات والأرض.

* وهنا يجد القاضى عياض الفرصة مواتية لكى يتحدث عن ذكر الحجاب^(١)، الذى ارتفع من ورائه صوت الله تعالى، وهو يؤكد عظمتة، وأنه لا إله إلا هو.

يقول القاضى عياض: «إن ما فى هذا الحديث من ذكر الحجاب، فهو فى حق المخلوق لا فى حق الخالق. فهم المحجوبون، والبارى جل اسمه منزّه عما يحجبه، إذ الحُجُبُ إنما تحيط بمقدّر محسوس، ولكن حُجُبُهُ على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء، كيف شاء، ومتى شاء، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾»

فقوله فى هذا الحديث «الحجاب». وإذا خرج ملك من الحجاب، يجب أن يقال إنه حجابٌ حُجِبَ به من وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمتة وعجائب ملكوته وجبروته. ويدل عليه - من الحديث - قول جبريل عن المَلَكِ الذى خرج من ورائه: إن هذا الملك ما رأيته منذ خُلقت قبل ساعى هذه، فدلّ على أن هذا الحجاب لم يختص بالذاتِ

وقوله: (فقل من وراء الحجاب صدق عبيد أنا أكبر) فظاھر أنه سمع فى هذا الموطن كلام الله تعالى، ولكن من وراء حجاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أى وهو لا يراه، حُجِبَ بصره عن رؤيته.

٣

وفى الفصل التالى - وهو متعلّق بما قبله، يتصدى القاضى عياض للقضية التى شغلت الفكر الاسلامى كله على مر العصور، وكانت ذريعة لكى يتحدث

فيها كل من آمن أو لم يؤمن. كل من صدق أو لم يصدق. وهي: هل كان
إسراؤه - ﷺ - بروحه أو جسده؟
فترى القاضي عياض يجمع كل ما جاءت به الأخبار والروايات والآثار
حول هذا الموضوع.

ويصنف القائلين ثلاث طوائف:

١ - طائفة ذهب إلى أنه إسرائ بالروح، وأنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أن
رؤيا الأنبياء حق ووحي. وإلى هذا ذهب معاوية، وحكى عن الحسن، وإليه أشار
محمد بن اسحاق.
وحجتهم في ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلنَّاسِ﴾

وقول عائشة - رضى الله عنها - «ما فقدت جسد رسول الله - ﷺ».
وقوله - ﷺ - : «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ»
وقول أنس بن مالك: «وهو نائم في المسجد الحرام» وذكر القصة، ثم قال في
آخرها: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام»
٢ - وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسرائ بالجسد وفي اليقظة.
وأيد القاضي عياض هذا الرأي فقال: «وهذا هو الحق».
وهو قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعمر، وأبي هريرة وغيرهم.
وهو أيضا قول الطبري، وابن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين. وهو كذلك
قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

٣ - وقالت الطائفة الثالثة، كان الإسرائ بالجسد يقظة من المسجد الحرام
إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح.

* واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ فجعل إلى المسجد الأقصى «غاية الإسرائ»
الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي محمد - ﷺ -
به، وإظهار الكرامة له بالإسرائ إليه.

قال هؤلاء: «ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح».

وهنا يتصدى القاضى عياض للإدلاء برأيه في هذا الموضوع، فيقول: والحق من هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار، والاعتبار.. ولا يُعَدَّل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل، إلّا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، إذ لو كان مناماً لقال (الله تعالى) «بروح عبده»، ولم يقل «بعبده»

«ولو كان «الإسراء» مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم، وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا يتكرر.. بل لم يكن ذلك منهم إلّا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر في الحديث»:

«من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس، في رواية أنس، أو في السماء على ما روى غيره، وذكر بحى جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء، فيقال: ومن معك؟ فيقول: محمد، ولقائه الأنبياء فيها، وخبرهم معه، وترحيبهم به، وشأنه في فرض الصلاة، ومراجعته مع موسى في ذلك، وأنه وصل إلى سدة المنتهى، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره»

* ويستشهد القاضى عياض على صحة رأيه، ما جاء عن صحابة رسول الله - ﷺ - وملازميه، من ذلك قول ابن عباس: هي رؤيا عين رآها - ﷺ - لا رؤيا منام.

* ويقدم لنا القاضى عياض دليلاً مادياً يدعم به رأيه، وهو قول أم هانئ - بنت عم رسول الله، قالت:

«ما أسرى برسول الله - ﷺ - إلّا وهو في بيتي، تلك الليلة صلى العشاء الآخرة، ونام بيننا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله - ﷺ - فلما صلى الصبح وصلينا قال: يا أم هانئ.. لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت، بهذا

الوادي، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون» وهذا بين في أنه بجسمه.

* ويضيف إلى ذلك خبرا عن أبي بكر الصديق، أنه قال ليلة أُسْرِى به: «طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجذك؟ فأجابه.. أن جبريل - عليه السلام - حملني إلى المسجد الأقصى»

ويختتم القاضي عياض كلامه بقوله: «وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة، فتُحمل على ظاهرها.

٤

بيد أن القاضي عياض يعود، فيعقد بعد ذلك فصلا^(١)، جعله في إبطال حُجَج مَنْ قال إنها نوم. يقول فيه:

«الذين قالوا إن الاسراء نوم، احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ فسماها رؤيا

قلنا: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يردّه، لأنه لا يقال في النوم «أسرى» وقوله سبحانه: ﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ يؤيد أنها رؤيا عين، وإسراء بشخص، إذ ليس في الحلم فتنة، ولا يكذب به أحد لأن كل يرى مثل ذلك في منامه.

ويستطرد القاضي عياض قائلا: على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية..

«فأما قولهم إنه قد سماها في الحديث (مناما) وقوله في حديث آخر (بين النائم واليقظان) وقوله أيضا: (وهو نائم)، وقوله: (ثم استيقظت).. فلا حجة فيه، إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم، أو أول حمله والإسراء

به، وهو نائم، وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها، إلا ما يدل عليه قوله (ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام).

فلعل قوله (استيقظت) فمعنى أصبحت، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته. ويدل على أن مسراه لم يكن طول ليله، وإنما كان في بعضه.

«وقد يكون قوله (استيقظت) وأنا في المسجد الحرام لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض، وخامر باطنه من مشاهدة الملائ الأعلى، وما رأى من آيات ربه الكبرى، فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام.

* ووجه ثالث: أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه، ولكنه أسرى بجسده، وقلبه حاضر، ورؤيا الأنبياء حق، تمام أعينهم ولا تمام قلوبهم، وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا. قال: تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله تعالى. ولكن القاضي عياض ينقد هذا الرأي. ويقول: «ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات، ثم يقول:

* ووجه رابع: وهو أن يعبر بالتوم ههنا عن هيئة النائم من الإضطجاع. ثم يعود القاضي عياض إلى تفنيد ما قيل عن قصة الإسراء، خاصة قول عائشة: «ما فقدت جسد رسول الله» فيقول:

«وأما قول عائشة ما فقدت جسده، فعائشة لم تُحدِّث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن حينئذ زوجه، ولا في سنٍّ من يضبط، ولعلها لم تكن ولدت بعد، على الخلاف في الإسراء متى كان، فإن الإسراء في أول الإسلام، بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشة في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

ثم يقول: والحجة لذلك تطول ليست من غرضنا، فإذا لم تُشاهد ذلك عائشة، دل أنها حدّثت بذلك عن غيرها، فلم يرجع خبرها على خبر غيرها. وغيرها يقول خلافة، مما وقع نصاً في حديث أم هانئ وغيره.

وأيضاً فليس حديث عائشة - رضى الله عنها - بالثابت.. خاصة وهى تقول: «ما فقدت جسده» ولم يدخل بها النبى صلى الله عليه وسلم - إلا بالمدينة، وكل هذا يوهنه.

* ثم يعود إلى مناقشة القضية مرة ثانية، فيقول:

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ فقد جعل ما رآه للقلب، وهذا يدل على أنه رؤيا نوم ووحى، لا مشاهدة عين وحس.
قلنا: يقابله قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فقد أضاف الأمر للبصر. ومعنى قوله: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أى لم يوهم القلب العين غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها، فما أنكر قلبه ما رآه عينه من مرئيات.

٥

وبعد أن تناول القاضى عياض إثبات أن رحلة الإسراء والمعراج كانت بالجسد والروح، وقدم المؤيدات والمبرهنات، وناقش القضايا التى طُرحت فى هذا الموضوع.. انتقل لمناقشة موضوع آخر يرتبط بها وهو: رؤيته صلى الله عليه وسلم لرَبِّه^(١).

قال: «أما رؤيته - صلى الله عليه وسلم - لربه عز وجل، فاختلف السلف فيها.

* قال ابن عباس - رضى الله عنها - أنه رآه بعينه.

* وذكر ابن اسحاق، أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس - رضى الله عنها - يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم. والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، وروى ذلك عنه من طرق وقال:

إن الله تعالى اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمدًا بالرؤية.

(١) الشفا ١/١٩٥.

وحجته. قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾.

قال المارودي: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى، ومحمد صلى الله عليهما وسلم، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

* وعن أبي ذر - رضى الله عنه - في تفسير الآية، قال: رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - ربه.

* وعن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رآه رآه.

* وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود.

* وقال أبو الحسن الأشعري، وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله تعالى ببصره، وعين رأسه، وقال: كل آية أوتيتها نبي من الأنبياء عليهم السلام، فقد أوتى مثلها نبينا - صلى الله عليه وسلم - وخص من بينهم بتفضيل الرؤية.

* وقد أنكر الرؤية: عائشة رضى الله عنها، فقالت حين سُئِلَتْ: هل رأى محمد ربه؟ قالت: ثلاث من حدثك بهن فقد كذب، من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الآية.

وقال أبو هريرة: إنما رأى جبريل، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وكان على القاضي عياض أن يقول رأيه، ويحسم الأمر في هذه الآراء.. قال:

«والحق الذى لا إمتراء فيه، أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلا، وليس في العقل ما يحيلها. والدليل على جوازها في الدنيا، سؤال موسى - عليه السلام - لها، ومحال أن يحيل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذى لا يعلمه إلا من علمه الله، فقال له الله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أى لن تطيق ولا تحمل رؤيتي. ثم ضرب له مثلا بما هو أقوى من بنية موسى وأثبت، وهو الجبل..

وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة، وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لاختلاف التأويلات في الآية.

ثم يقول القاضي عياض: وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية نفسها، على جواز الرؤية، وعدم استحالتها على الجملة، وقد قيل: لا تدركه أبصار الكافر، وقيل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أى لا تحيط به، وقيل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وإنما يدركه المبصرون. وكل هذه التفسيرات لا تقتضى منع الرؤية ولا استحالتها.

* «وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ وقوله ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ لأن من قال معناها: لن تراني في الدنيا، إنما هو تأويل، وأيضاً فليس فيه نصّ الامتناع، وإنما جاءت في حق موسى.

* ويضيف القاضي عياض رأياً لبعض السلف والمتأخرين، يقولون فيه^(١).

«إن رؤية الله - سبحانه - في الدنيا ممتعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة عرضاً للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قووا بها على الرؤية.

قال القاضي عياض: «وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس، قال: لم ير الله في الدنيا لأنه باق ولا يرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة، ورزقوا أبصاراً باقية، رنى الباقي بالباقي».

وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده، وأقدرهم على حمل أعباء الرؤية، لم تمتنع في حقه، وقد أفاضت الكتب فيما ذكر عن قوة بصر موسى ومحمد، صلى

الله عليهما وسلم، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية منحاهما لإدراك ما أدركاه، ورؤية ما رآياه.

وإذا كان القاضي عياض قد قطع بأن ليس هناك ما يحيل رؤية الرسول - ﷺ - لربه في الدنيا، وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا إمتناعها.

فإن القول بأنه - ﷺ - قد رأى ربه بعينه، ليس فيه قاطع أيضاً، ولا نصٍّ.. إذ المعول فيه على آيتي النجم، والتنازع فيها مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر، عن النبي - ﷺ - بذلك، وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده، لم يسنده إلى النبي - ﷺ، فيجب العمل باعتقاد مُضْمَنه. ومثله حديث أبي ذرٍّ، يختلف محتمل مُشْكَل، فروى «نُورُ أُنِّي أَرَاهُ». وفي رواية أخرى: «نُورَانِي أَرَاهُ».

وفي حديثه الآخر: سألتَه فقال: «رَأَيْتَ نُورًا».

وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية، فإن كان الصحيح «رَأَيْتَ نُورًا»، فهو قد أخبر أنه لم ير الله تعالى، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى. وإلى هذا يرجع «نُورُ أُنِّي أَرَاهُ»، أي كيف أراه مع حجاب النور المغشى للبصر.

٦

ويرتبط بقضية الرؤية قضيتان هامتان وهما: «هل دنا محمد من ربه»؟

«وهل كلم محمد ربه مباشرة»؟

هاتان القضيتان كانتا محل دراسة القاضي عياض في سيرة المصطفى وأفرد لهما فصلين مستقلين^(١).

أما عن قضية الدنو، فقد استشهد بالآية الكريمة ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ وما جاء في تفسيرهما عن الصحابة والتابعين.

* قال ابن عباس: «هو محمد دنا فتدلى من ربه».

وقال أيضا: هو مقدم ومؤخر، تدلى الرفرف لمحمد - ﷺ - ليلة المعراج فجلس عليه، ثم رُفِعَ فَدَنَا من ربه، بدليل قوله ﷺ.

«فارقني جبريل، وانقطعت عنى الأصوات، وسمعت كلام ربى عز وجل».

وقال الحسن: دنا من عبده محمد - ﷺ - فتدلى، فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته.

وقال جعفر بن محمد: أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لَا حَدَّ لَهُ، ومن العباد بالحدود».

وقال أيضا: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب جبريل عن الدنو، ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب.

بيد أن أكثر المفسرين، ومنهم ابن كثير، يرى أن الدنو والتدلى منقسم ما بين محمد وجبريل، أو يختص بأحدهما من الآخر، أو من السدرة المنتهى.

على أن الدنو والقرب، في مفهوم القاضى عياض له معنى آخر^(١).

قال: «اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله أو إلى الله، فليس بدنو مكان ولا قرب مدى، بل ليس بدنو حد، وإنما دنو النبى - ﷺ - من ربه، وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته.

ومن الله - تعالى - له مبرة، وتأنيس وبسط وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول في قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» على أحد الوجوه، نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان».

ويضيف الواسطي: إن الدنو عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة والإشراف على الحقيقة من محمد - ﷺ، وعبارة عن إجابة لرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفي، وإنافة المنزلة والمرتبة من الله له، ويتأول فيه ما يتأول في قوله:

«من تقرب مني شبرا، تقربت منه ذراعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» قُرب بالإجابة. والقبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول.

٧

وفي فصل لاحق، من السيرة العطرة - ربط القاضى عياض قضية الدنو والقرب من الله، بقضية أخرى تتصل بها اتصالا وثيقا، وهى: مناجاته - صلى الله عليه وسلم الله، وكلامه معه.

يقول: «وأما ما ورد في هذه القصة من مناجاته لله تعالى، وكلامه معه، بقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ إلى ما تضمنته الأحاديث، فأكثر المفسرين على أن الموحى هو الله - عز وجل، إلى جبريل، وجبريل إلى محمد - ﷺ، إلا قليلا منهم.

وذهب بعض المتكلمين إلى أن محمداً كلمه ربه في المعراج، وأيد قولهم ابن مسعود وابن عباس، وحكى عن الأشعري.

* وقال جعفر بن محمد: أوحى إليه بلا واسطة.

وذكر النقاش - عن ابن عباس - عن الرسول ﷺ - في قوله تعالى: ﴿وَدَنَا فَتَدَلَّى﴾ قال: فارقت جبريل، فانقطعت الأصوات عني، فمست كلام ربي، وهو يقول: «لِيَهْدَأْ رَوْعَكَ يَا مُحَمَّد، أَدْنُ.. أَدْنُ».

وذكر البزار عن علي، ما هو أوضح في سماع النبي - ﷺ - لكلام ربه. فذكر فيه: «فقال الملك: الله أكبر، الله أكبر - وهو الأذان، فسمع محمد - ﷺ - من

وراء الحجاب: صدق عبيد أنا أكبر.. أنا أكبر، وقال في سائر كلمات الأذان مثل ذلك.

ويرد القاضي عياض على المحتجين بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فيقول:

«إن كلام الله - تعالى - لمحمد - ﷺ - ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلا، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه، فإن صح في ذلك خبر، اعتمد عليه». «وكلام الله لموسى كائن، حق، مقطوع به، نص على ذلك في الكتاب، وأكده المصدر دلالة على الحقيقة، ورفع مكانه على ما ورد في الحديث، في السماء السابعة، بسبب كلامه».

«ورفع محمد فوق هذا كله، حتى بلغ مستوى، وسمع صريف الأقلام فكيف يستحيل في حق هذا أو يبعد سماع الكلام؟ فسبحان من خص من شاء بما شاء، وجعل بعضهم فوق بعض درجات.

٨

وفي فصل قال، عرض القاضي عياض لخصيصة هامة من خصائص المصطفى - ﷺ - وهي تفضيله في القيامة وإبراز كرامته^(١).

وقد استند القاضي عياض في هذا الموضوع على ما أثير عن رسول الله - ﷺ - من أقوال حملها الصحابة والتابعون.

من مثل قوله - ﷺ - فيما رواه عنه أنس: «أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أُيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر». وفي رواية أخرى:

«أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا

أَنْصَتُوا، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا، وَأَنَا مَبْشَرُهُمْ إِذَا أُبْلِسُوا، لَوَاءَ الْكَرَمِ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ، وَيَطُوفُ عَلَى أَلْفِ خَادِمٍ كَأَنَّهُمْ لَوَلَوْ مَكْنُونٌ.. وَأَكْسَى حُلَّةٍ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي».

وروى ابن عباس - رضى الله عنها - أن الرسول ﷺ - قال :
أَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحْرَكُ حَلَقُ الْجَنَّةِ فَيُفْتَحُ لِي فَأَدْخُلُهَا، فَيَدْخُلُهَا مَعِيَ فَقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ».

وروى أنس - رضى الله عنه، قال : قال النبي ﷺ : «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَدْرُونَ لِمَ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ».. وذكر حديث الشفاعة. ويعلق القاضي عياض على هذه الأحاديث بقوله: ^(١)

«قوله ﷺ : أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هُوَ سَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنْ أَشَارَ - ﷺ - لَانْفِرَادِهِ فِيهِ بِالسُّودِّ وَالشَّفَاعَةِ دُونَ غَيْرِهِ، إِذْ لَجَأَ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدُوا سِوَاهُ، وَالسَّيِّدُ هُوَ الَّذِي يَلْجَأُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ، فَكَانَ حِينَئِذٍ سَيِّدًا مُنْفَرِدًا مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ، لَمْ يَزَاحِمْهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، وَلَا إِدْعَاهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿لَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وَالْمَلِكُ لَهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ انْقَطَعَتْ دَعْوَى الْمُدْعِينَ لِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا».

«وَكَذَلِكَ لَجَأٌ إِلَى مُحَمَّدٍ - ﷺ - جَمِيعِ النَّاسِ فِي الشَّفَاعَةِ، فَكَانَ سَيِّدُهُمْ فِي الْآخِرَةِ دُونَ دَعْوَى»

* وَمِنْ كِهَالِ سَيَادَتِهِ - ﷺ - أَنَّهُ يَأْتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَسْتَفْتَحُ فَيَقُولُ خَازِنُ الْجَنَّةِ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أَمَرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ؟

* ويفخر النبي المصطفى - ﷺ - بما خصه الله به في الجنة، فيقول - فيما رواه عنه ابن عمر: «خَوَضِي مسيرة شهر وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، كيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبداً».

٩

ويرتبط بموضوع التفضيل والكرامة - موضوع آخر، وهو تفضيله بالمحبة والخلة فهو - ﷺ - قد اختص بكونه حبيب الله ومصطفاه، وسالت هذه العبارة على ألسنة المسلمين في كل عصر ومصر.

وقد جمع القاضي عياض مادة هذا الموضوع - كعادته - مما جاء بذلك من الآثار الصحيحة. من مثل قول ابن عباس - رضى الله عنها:

«جلس ناس من أصحاب النبي - ﷺ. ينتظرونه، فخرج - ﷺ - حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلمة الله تكليماً. وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله.. فخرج عليهم فسلم وقال:

«سمعتُ كلامكم وعجبكم، إن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، وهو كذلك وموس نبيُّ الله، وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك.. ألا وأنا حبيبُ الله ولا فخر، وأنا حاملُ لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي، فيُدْخِلُنِيهَا ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر».

ومثله قوله - ﷺ - لأصحابه، فيما ذكره ابن مسعود: «اتَّخَذَ اللَّهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيلاً».

* وقد قال الحق سبحانه لنبيه، في قصة الإسراء: «إِنِّي اتَّخَذْتُكَ خَلِيلاً فَهُوَ مكتوب في التوراة».

* ولا يترك القاضى عياض هذا الموضوع حتى يوضحه، فأخذ يفسر معنى الخُلة، واشتقاقها، ويجمع إلى آرائه آراء العلماء والمفسرين، حتى يشبع موضوعه توضيحا وتحليلا، يقول: ^(١)

«اختلف في تفسير الخُلة وأصل اشتقاقها، فقيل: الخليل المنقطع إلى الله، الذى ليس فى انقطاعه إليه، ومحبه له اختلال، وقيل: الخليل المختص، وقال بعضهم: أصل الخُلة الاستصفاء، وسمى خليل الله، لأنه يُوالى فيه، ويُعادى فيه. وخُلة الله له: نَصْرُه وجعله إماما لمن بعده، وقيل: الخليل أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخُلة وهى الحاجة، فسمى بها ابراهيم لأنه قصر حاجته على ربه، وانقطع إليه بهمه، ولم يجعله قَبْلَ غيره، إذ جاءه جبريل وهو فى المنجنيق ليرمى به فى النار، فقال: ألك حاجة؟ قال: أَمَا إِلَيْكَ فلا».

«وأصل الخُلة: المحبة، ومعناها الإسعاف والإلطف، والترفع والتشفيع، وقد بَيَّن ذلك فى كتابه تعالى، بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ فأوجب للمحبيب أن لا يؤاخذ بذنوبه».

* قال القاضى عياض: هذا والخُلة أقوى من البُوة، لأن البُوة قد تكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الآية.

«ولا يصح أن تكون عداوة مع خُلة، فإذا تسمية ابراهيم ومحمد، عليهما السلام - بالخُلة إما بانقطاعهما إلى الله، ووقف حوائجها عليه، والانقطاع عَمَّن دونه، والاضراب عن الوسائط والأسباب، أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفى أُلطافه عندهما، وما خال بواطنها من أسرار إلهيته، ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستصفائه لهما، واستصفاء قلوبها عمن سواه، حتى لم يُخَالِلْهُمَا حُبٌّ لغيره».

* وينقل القاضى رأى العلماء فى الفرق بين درجة الخلّة ودرجة المحبة، فيقول:

«واختلف العلماء أربابُ القلوب أيهما أرفع: درجة الخلّة أو درجة المحبة؟ فجعلها بعضهم سواء، فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً.. وبعضهم قال: درجة الخلّة أرفع، واحتج بقوله - ﷺ - «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل - فلم يتخذه. وقد أطلق المحبة لفاطمة وابنيها وأسامة وغيرهم.

وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلّة، لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم. وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب، ولكن هذا فى حق من يصحّ الميل منه، والانتفاع بالوفق وهى درجة المخلوق.

«فأما الخالق فمنزه عن الأعراض، فمحبة لعبده، وتمكينه من سعادته، وعصمته وتوفيقه، وتهيئة أسباب القرب وإفاضة رحمته عليه، وقصاها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته، فيكون كما قال فى الحديث:

«فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به»

ويقول عياض:

«ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد لله، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، وإخلاص الحركات لله.

١٠

ويتصل بما سبق موضوع آخر اختص الحق تبارك وتعالى به نبيه المصطفى - ﷺ - وفضله به على سائر الأنبياء والمرسلين وهو موضوع الشفاعة، والمقام المحمود^(١).

وقد احتفل به القاضى عياض احتفالا كبيرا وحشد فيه كل ما ورد عن الرسول - ﷺ وعن صحابته من روايات تتصل بموقفه من أمته يوم القيامة.. يوم الحشر العظيم.

من مثل قول ابن عمر:

«إن الناس يصيرون يوم القيامة جُنى، كل أمة تتبع نبيها، يقولون يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبي - ﷺ - فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود.. كما قال الله تعالى:

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ قال أبو هريرة: هى الشفاعة.

* يقول النبي - ﷺ - عما يحدث فى ذلك اليوم..

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ، وَيَكْسُونِي رَبِّي حُلَّةَ خَضْرَاءٍ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ، فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ».

ويروى حذيفة: «يجمع الله الناس فى صعيد واحد، حيث يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، حِفَاةُ عُرَاةٍ، كَمَا خُلِقُوا سُكُوتًا لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَيَنْدَادِي مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْتَدَى مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبُّ الْبَيْتِ» قال: فذلك المقام المحمود الذى ذكر الله.

* وينقل لنا القاضى عياض عن رسول - ﷺ - مشاهد هذا اليوم العظيم:

«يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا.. ويموج الناس بعضهم فى بعض، وتدنو الشمسُ فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون، ولا يحتملون، فيقولون ألا تنظرون من يشفع لكم، فيأتون آدم، فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خَلَقَكَ اللهُ بيده، ونفخ فىك من روحه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شىء، اشفع لنا عند ربك، حتى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَاتِنَا، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟

فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاى عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

* فيأتون نوحاً، فيقولون أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك، فيقول: إن ربي غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي، ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربه بغير علم.. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

* فيأتون إبراهيم، فيقولن: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً، فذكر مثله، ويذكر ثلاث كلمات كذبهن، ويقول: نفسي نفسي، لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كلیم الله.

* فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ويذكر خطيئته التي أصاب وقتله النفس.. نفسي نفسي ولكني عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته.

* فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأوتى، فأقول: «أنا لها، فأنتلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أنه يُلهمنيها الله، فيفتح الله عليّ من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد.. إرفع رأسك، سل تعطه، واشفعُ تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يارب أمتي، يارب أمتي، فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، فأنتلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد»^(١).

وبعد أن يعرض القاضي عياض عشرات الرويات والآثار، على اختلاف رواياتها وألفاظها يجد أن الأمر يحتاج إلى نوع من التوفيق والربط بينها، لذلك يقول:

«فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار، أن شفاعته - ﷺ، ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها، من حين يجتمع الناس للحشر، وتضييق بهم الحاجز، ويبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه، وذلك قبل الحساب، فيشفع حينئذ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط، ويحاسب الناس، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة وحذيفة وهذا الحديث أتقن، فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة.. ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم.. ثم فيمن قال: لا إله إلا الله.

وليس هذا لسواه - ﷺ، وفي الحديث المنتشر الصحيح:

«لكل نبي دعوة يدعو بها، واختبأت دعوتي شفاعا لأمتي يوم القيامة»

ثم ينقل رأى أهل العلم في هذا الحديث، فيقول: ^(١)

«قال أهل العلم معناه: دعوة أعلم أنها تستجاب لهم، ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلا فكَم لكل نبي منهم من دعوة مستجابة، ولنبينا - ﷺ - منها ما لا يعد، لكن حالم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف، وضمنت لهم إجابة دعوة فيما شاؤوه، يدعون بها على يقين من الإجابة».

يقول القاضى عياض معلقا على هذا الرأى:

«فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة بالأمة، مضمونة الإجابة، وإلا فقد أخبر - ﷺ - أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا، أعطى بعضها، ومنع بعضها، وادخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة، وخاتمة المحن، وعظيم السؤال والرغبة، جزاء الله أحسن ما جزى نبيا عن أمته»

١١

بعد أن تناول القاضى عياض، تفضيل الحق سبحانه لنبه المصطفى بالشفاعة والمقام المحمود، رأى أن يفرد فصلا لكى يتحدث عن تفضيل الله له في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة ^(٢).

وهذا الفصل يعد متما لما قبله، لأنه يتعلق بأمور الآخرة، منذ القيامة، والبعث والنشور، والحساب، والثواب والعقاب. إلى أن يدخل الرسول - ﷺ - وأمتة الجنة، بعد أن يتشفع للمذنبين عند ربه.

* فأما الوسيلة، فقد روى أبو هريرة «أنها أعلى درجة في الجنة».

ويقول المصطفى - ﷺ - فيما رواه عنه عبدالله بن عمرو بن العاص :

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلى على مرة، صلى الله عليه عشراً، ثم سلّوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغى إلّا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة.

* وأما الكوثر، فهو كما ذكر النبي المصطفى - ﷺ. نهر من الجنة يسيل من حوضه.. وصفه رسول الله - ﷺ - بقوله:

«بيّنا أنا أسير في الجنة إذ عَرَضَ لي نَهْرٌ حافاه قَبَابُ اللؤلؤ، قلت لجبريل، ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، ثم ضرب بيده إلى طينته فاستخرج مسكاً.. مجراه على اللّز والياقوت، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، وإذا هو يجري ولم يُشَقْ شَقاً، عليه حوض تَرَدُّ عليه أمتي»
قال سعيد بن جبیر: والنهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله.

١٢

وبعد أن تحدث القاضي عياض، عن تفضيل الله - سبحانه وتعالى - لرسوله المصطفى - ﷺ، وهو ما ذكره في الفصول السابقة..

طرح الرجل قضية هامة، مؤداها، أنه إذا كان الحق تبارك وتعالى قد فضّل نبيّه وكرمه، وخصّه بأمور لم يُخصّ بها غيره من الأنبياء والمرسلين، مما يدل على كونه أكرم البشر، وأفضل الأنبياء والمرسلين، وعرف هو - ﷺ - قدر نفسه ومكانته وكرامته.. وهذا ما جاء في الذكر الحكيم والسنة المطهرة...

فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل^(١)؟

- ١ - كقوله - ﷺ - فيها رواه ابن عباس عنه: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»
- ٢ - وقوله - ﷺ - «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»
- ٣ - وقوله - ﷺ - فيها رواه أبو هريرة عنه: «لا تخيروني على موسى، الحديث.

يقول القاضي عياض موضحا الأمر:

«فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات:

* أحدها: أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل، إذ يحتاج إلى توقيف، وأن مَنْ فَضَّلَ بلا علم فقد كذب، وكذلك قوله: «لا أقول إن أحدا أفضل منه، لا يقتضى تفضيله هو، وإنما هو في الظاهر كيف عن التفضيل.

* الوجه الثاني: أنه قاله - ﷺ - على طريق التواضع، ونفى التكبر والعجب، وهذا لا يسلّم من الاعتراض.

* الوجه الثالث: ألا يُفَضَّلَ بينهم تفضيلا يؤدي إلى تنقص بعضهم، أو الغضب منه لاسيما في جهة يونس - عليه السلام - إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غضاظة وانحطاط من رتبته الرفيعة، إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا ظَنَّنَ أَنَّ لَنَا تَقْدِيرَ عَلَيْهِ﴾ فربما يُخَيَّلُ لمن لا علم عنده حَظِيظَتُهُ بذلك.

* الوجه الرابع: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب والألطف.

وأما النبوة في نفسها، فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور آخر زائدة عليها، ولذلك منهم رُسُلٌ ومنهم أولو عزم من الرسل، ومنهم من رُفِعَ مكانا عليا، ومنهم من أوتى الحكم صبيا. وأوتى بعضهم الزبور، وبعضهم البينات، ومنهم من كَلَّمَ الله، ورفع بعضهم درجات،

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية. وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية. * ويستشهد القاضى عياض بأقوال العلماء في هذه القضية، فيقول «قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال:

- أن تكون آيته ومعجزاته أبهر وأشهر.
- أو تكون أمته أزكى وأكثر.
- أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه من كلام، أو خلة، أو رؤية، أو ما شاء الله من الطافه، وتحف ولايته واختصاصه. وقد روى أن النبي - ﷺ - قال: «إن للنبوة أثقالا»، وإن يونسَ تَفْسَخَ منها تَفْسَخُ الرَّبْعِ، فحفظ - ﷺ - موضع الفتنة من أوهام من يسبق إليه بسببها جرح في نبوته، أو قَدَحٌ في اصطفائه، وخط في رتبته، ووَهْنٌ في عصمته، شفقة منه - ﷺ - على أمته»

ثم يضيف القاضى عياض وجها خامسا لما سبق^(١)، «وهو أن يكون (أنا) راجعا إلى القائل نفسه، أى لا يظن أحد وإن بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة ما بلغ أنه خير من يونس، لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإن تلك الأقدار لم تُحِطْ عنها حبة خردل ولا أدنى».

وقد احتفل القاضى عياض - في سيرة المصطفى، بأسمائه - ﷺ - احتفالا

كبيراً، وأُفرد لهذه الاسماء وما تضمنته من فضيلته فصلاً خاصاً^(١) تحدث فيه عنها، وعن معانيها، وعن اشتقاقها..

وكان من الطبيعي أن يعتمد في هذا الموضع على ما جاء في الذكر الحكيم من إشارات إلى أسماؤه وصفاته كما يستند إلى ما جاء في السنة المطهرة من أحاديث.

* فأما ما جاء في القرآن العظيم فقد «سَمَّاهُ اللهُ سبحانه محمداً وأحمد فمن خصائصه تعالى له، أن ضَمَّنَ أَسْمَاءَهُ ثَنَاءً، فَطَوَى أَثْنَاءَ ذِكْرِهِ عَظِيمَ شُكْرِهِ.

فأما اسمه أحمد، فأفعل مبالغة من صفة الحمد، ومحمد مفعّل مبالغة من كثرة الحمد، فهو - ﷺ - أجل من حمد، وأفضل من حمّد، وأكثر الناس حمداً، فهو أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة، ليطم له كمال الحمد، ويتشهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً، كما وعده، يحمّده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد كما قال - ﷺ - ما لم يُعط غيره. وسَمَّى أُمَّتَهُ في كتب أنبيائه بالحَمَّادِينَ، فحقيق أن يسمى محمداً وأحمد».

يقول القاضي عياض:

«ثم في هذين الإسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته.. أمر آخر: هو أن الله - جل اسمه - سَمَّى أن يُسمى بهما أحد قبل زمانه.

* فأما أحمد، الذي أتى في الكتب، وبشّرت به الأنبياء، فمنع الله تعالى بحكمته أن يُسَمَّى به أحد غيره، ولا يُدعى به مدعو قبله، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك.

* وكذلك محمد أيضاً، لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم، إلى أن شاع قبيل وجوده - ﷺ - وميلاده، أن نبياً يُبعث اسمه محمد، فسَمَّى قوم قليل من

العرب أبناءهم بذلك، رجاء أن يكون أحدهم هو - والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ثم حمى الله كل من تسمى به، أن يدعى النبوة، أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره، حتى تحققت السماتان له - ﷺ - ولم ينزع فيهما.

* أما ما جاء في السنة المطهرة، فقد روى أنه - ﷺ - قال في أحد أحاديثه: «لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله به الكفر. وأنا الحاشر، الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب».

«وأما قوله - ﷺ - (وأنا الماحي) الذي يمحو الله به الكفر» ففسر في الحديث، ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب، وما زوى له من الأرض، وُعد أنه يبلغه ملك أمته، أو يكون المحو عاما بمعنى الظهور والغلبة، وقد ورد في تفسيره: «أنه الذي محيت به سيئات من اتبعه»

* وقوله: (وأنا الحاشر)، الذي يُحشر الناس على قدمي، أى على زمانى وعهدى، أى ليس بعدى نبي، كما قال: (وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ)، وقيل: معنى على قدمي، أى يُحشر الناس بمشاهدي.

وقيل: على قدمي أى تُدَامى وحولى، أى يجتمعون إلى يوم القيامة.

* وقوله: (وأنا العاقب)، وسمى عاقبا لأنه عَقَبَ غيره من الأنبياء. وفي الصحيح: «أنا العاقب الذي ليس يعدى نبي» ومعنى قوله: «لى خمسة أسماء» أنها موجودة في الكتب المتقدمة، وعند أولى العلم من الأمم السالفة.

وقد روى عنه - ﷺ -: «لى عشرة أسماء، فذكر الخمسة التى فى الحديث الأول، قال: وأنا رسول الرحمة، ورسول الراحة، ورسول الملاحم، وأنا المقفى، قَفَيْتِ النَّبِيِّينَ، وأنا قَيِّمٌ، والقِيمُ الجامع الكامل.

وروى النقاش عنه - ﷺ - «لى فى القرآن سبعة أسماء: محمد، وأحمد، ويس، وطه، والمذثر، والمزمل، وعبدُ الله».

يقول القاضى عياض:

«وقد وصفه الله تعالى بصفات جمّة، منها قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» كما وصفه بأنه يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وبالمؤمنين رؤوف رحيم. وقد قال فى صفة أمته، إنهاء أمة مرحومة، وقد قال تعالى فيهم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ أى يرحم بعضهم بعضاً، فبعثه - ﷺ - ربه تعالى رحمة لأُمته، ورحمة للعالمين ورحمياً بهم، ومترحمًا، ومستغفراً لهم».

* أما ألقابه - ﷺ - وسماه، فقد ورد منها فى القرآن عدّة كثيرة:

«كالنور، والسراج المنير، والمنذر، والنذير، والمبشر، والبشير، والشاهد والشهيد، والحق المبين، وخاتم النبیین، والرؤوف الرحيم، والأمين، وقدم الصدق، ورحمة العالمين، ونعمة الله، والعروة الوثقى، والصراط المستقيم، والنجم الثاقب، والكریم، والنبى الأمى، وداعى الله - فى أوصاف كثيرة وسماه جليلة».

* ولم يكتف القاضى عياض بذكر أسماء الرسول الواردة فى القرآن والسنة، بل ضمَّ إليها ما جاء فى كتب الله المتقدمة كالتوراة والزبور والانجيل^(١) كتسميته بالمصطفى، والمجتبى، وأبى القاسم، والحبيب، والشفيع المشفع، والمتقى، والمصلح، والظاهر، والمهيمن، والصادق، والمصدق، والهادى، والمتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدّس، وروح القدس، وروح الحق (وهو معنى البارقليط فى الانجيل)، وماذُ ماذُ، ومعناه طيب طيب، ومُطَيَّاء، والخاتم، والحاتم، ومعناه أحسن الأنبياء خلقًا وخلقا، ويسمى بالسريانية مُشَقَّحَ والمُنَحِّمِنا، واسمه أيضا فى التوراة أُحِيدُ»

ويختتم القاضي عياض هذا الفصل بقوله: «وأسماؤه وألقابه وأوصافه وسمائه في الكتب كثيرة، وفيما ذكرناه منها مَنَعَ إن شاء الله».

ومن الطريف الذي يمكن أن نذكره الآن، أن القاضي عياض نسي أن يذكر كينته فيما سبق، فنراه يستدرك ذلك قائلا «وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم».

١٤

وبعد إذ انتهى القاضي عياض من ذكر أسماؤه وصفاته وألقابه مما احتفل به القرآن والسنة المطهرة أفرد الرجل فصلا تاليا خصصه للحديث عن تشريف الله تعالى بما سماه به من أسماؤه الحسنى، ووصفه به من صفاته العليا^(١) ويبدو أن القاضي عياض أحس بأن هذا الفصل كان يستحق أن يوضع في الباب الأول من السيرة، لأنه متصل بتفضيل الله سبحانه وتعالى له، وتشريفه بخصائص وكرامات عدة، لذلك سمعناه يعتذر عن هذا الخطأ في المنهج، ويقول:

«ما أحرى هذا الفصل بفصول الباب الأول، لانخراطه في سلك مضمونها، وامتزاجه بعذب معينها. لكن لم يشرح الله الصدر للهداية إلى استنباطه، ولا أثار الفكر لاستخراج جوهره وإلتقاطه، إلا عند الخوض في الفصل الذي قبله. (يقصد فصل أسماؤه وما تضمنته من فضيلته) فرأينا أن نضيفه إليه، نجمع به شملنا».

بدأ القاضي عياض موضوعه بمقدمة، ذكر فيها ما خص الله به الأنبياء السابقين بكرامة خلعها عليهم من أسماؤه، «كتسمية اسحاق وإسماعيل بعليم وحليم، وإبراهيم بحليم، ونوح بشكور، وعيسى ويحيى بآدم، وموسى بكريم وقوى، ويوسف بحفيظ عليم، وأيوب بصابر، وإسماعيل بصادق الوعد، كما نطق بذلك الكتاب العزيز في مواضع ذكرهم».

(١) الشفا ١/١٣٥.

ثم انتقل إلى الحديث عن فضل نبينا عليه الصلاة والسلام، وقال إن ربّه تعالى قد حلاه، في كتابه العزيز، وعلى السنة أنبيائه بعدّة كثيرة من الأسماء «جمعنا منها جملة، بعد إعمال الفكر، واحضار الذهن، وحررنا منها في هذا الفصل نحو ثلاثين إسماً، ولعل الله تعالى كما ألهم إلى ما علّم منها وحققه، يتم النعمة بإبانة ما لم يُظهره لنا الآن، ويفتح غلّقه»

بعد ذلك بدأ يتحدث عن بعض أسماء الله الحسنى، وتسمية النبي - ﷺ - بها لحكمة إلهية، وتقديراً لمكانته ومنزلته عند ربه.

يقول: فمن أسمائه تعالى: الحميد، ومعناه المحمود، لأنه حمد نفسه، وحمّده عباده، ويكون أيضاً بمعنى الحامد لنفسه، ولأعمال الطاعات.

وسمى النبي - ﷺ - محمداً وأحمد، فمحمد بمعنى محمود، وكذا وقع اسمه في كتب داود، وأحمد بمعنى أكبر من حمد.

* ومن أسمائه تعالى: الرؤوف الرحيم، وهما بمعنى متقارب.
وسمى نبيه ﷺ - في كتابه بذلك، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

* ومن أسمائه تعالى: الحق المبين، ومعنى الحق الموجود والمتحقق أمره، ومعنى المبين - أى البين أمره وإلهيته، ويكون بمعنى المبين لعباده أمر دينهم ومعادهم.
وسمى النبي - ﷺ - بذلك - في كتابه فقال: ﴿حَقُّ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾.

* ومن أسمائه تعالى النور، ومعناه ذو النور، أى خالقه أو منور السموات والأرض بالأنوار. وسمى النبي - ﷺ - نوراً فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾، وقال أيضاً: (وَسِرَاجًا مُنِيرًا) سمي بذلك لوضوح أمره، وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين، والعارفين بما جاء به.

* ومن أسمائه تعالى الشهيد، ومعناه العالم، وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة.

وسمى النبي - ﷺ - شهيداً وشاهداً، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ وقال: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولَ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وهو بمعنى الأول.

* ومن أسمائه الهادى، وهو بمعنى توفيق الله لمن أراد من عباده، وبمعنى الدلالة والدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وقيل في تفسير (طه) إنه يا طاهرياً هادى، يعنى النبي - ﷺ -، وقال تعالى له: ﴿إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

ويظل يتتبع القاضى عياض أسماء الله الحسنى، ويحاول أن يبين أن الحق أطلقها عليه.

ولا يخفى ما فى هذا الفصل من التكلف. ولا يخفى أن معظم هذه الأسماء إنما هى صفات أصلاً، وليست أسماء، إنما الأسماء الحقيقية هى ما ذكرها المصطفى - ﷺ - فى حديثه السابق. «لى خمسة أسماء...» الحديث.

١٥

لقد وجد القاضى عياض نفسه، قد أطلق الكثير من صفات الله على رسول الله، ﷺ، وهذا الأمر قد يفهم منه التشبيه، تشبيه الخلق برب الخلق، لذلك عقد فصلاً خاتماً^(١)، حاول فيه توضيح مقصوده الحقيقى، وأنه ما قصد إلى التعرض لأسماء وصفات الله، وإشراك الرسول فيها.

* يقول فى صدره، أنه سيذكر نكتة يذيل بها الفصل السابق، ويختم بها هذا القسم، ويزيح الإشكال بها فيما تقدم، عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، تخلصه من مهاوى التشبيه، وتزحزحه عن شبه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى - جل اسمه فى عظمتة وكبريائه، وملكوته وحُسْنِ اسمائه، وعلى صفاته.. لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يُشبه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى»

«إذ أن صفات الله العظيم تختلف عن صفات المخلوقين فكما أن ذاته تعالى لا تشبه ذوات المخلوقين، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأغراض، وهو تعالى منزّه عن ذلك. بل لم يَزَلْ بصفاته وأسمائه، وكفى في هذا قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾»

وهنا يجد المجال مفتوحا لكي يوضح مفهومه للتوحيد وخصائصه مستشهدا بأقوال العلماء والعارفين المحققين، فيقول: ^(١)

«التوحيد إثبات ذات غير مُشَبَّهٍ للذوات، ولا مُعْطَلَةٌ عن الصفات». وزاد هذه النكتة الواسطى - بيانا، وهي مقصودنا، فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ للفظ، وجَلَّتْ الذات القديمة، أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثّة صفة قديمة.

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضى الله عنهم.

وقد فسر الامام القشيري قول الواسطى هذا ليزيده بيانا، فقال:

«هذه الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد، وكيف تشبه ذاته ذات المحدثات، وهي بوجودها مستغنية، وكيف يُشَبَّهُ فِعْلُهُ الخلق، وهو لغير جَلْبِ أنسٍ أو دفع نقص حصل، ولا بخواطر وأغراض وُجِدَ، ولا بمباشرة ومعالجة ظهر، وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه.

الفصل الرابع

معجزاته - صلى الله عليه وسلم
ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات

١

خصص القاضى عياض هذا الفصل للحديث عن معجزات الرسول - ﷺ - المعنوية والحسية^(١) بيد أنه قبل أن يشرع في الحديث عن هذه المعجزات، وجد نفسه ملزماً أن ينوه على أن الإيمان بهذه المعجزات، لا بد وأن يقترن بالقاعدة الإيمانية العريضة: «الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»، وأن الإيمان برسول الله يتبعه حتبا الإيمان برسالة الرسول، والإيمان بصدق نبوته، وما أظهره الله على يديه من المعجزات، وما شرفه به من الكرامات.

لذلك وجه القاضى عياض كلامه في صدر هذا الفصل للمتأمل في كتابه ليعرفه أنه لم يجمعه لنكر لنبوة النبی المصطفى - ﷺ - ولا لطاعن في معجزاته، لأن هذا الأمر يحتاج إلى نصب البراهين عليها، وإقامة الأدلة، وتحصين حوزتها حتى لا يتوصل المطاعن إليها.

«بل ألقه» لأهل ملته، الملبين لدعوته، المصدقين لنبوته، ليكون تأكيداً في محبتهم له، ومنمّة لأعمالهم، وليزدادوا إيماناً مع إيمانهم».

* ومفهوم كلام القاضى عياض، أنه جمع كل ما قيل عن معجزات الرسول - ﷺ - التي تدله على عظيم قدره عند ربه، وهذه العملية الحصرية في مجملها، لا تحتاج إلى إقامة براهين، أو تقديم أدلة، لأن المؤمن الحق يعرف بوعى من دينه وبما جاء في القرآن الكريم، والسنة المطهرة أنها حق، ولا تحتاج إلى جدال أو مناقشة.

(١) الشفا ١/٢٤٦.

لذلك فهو يقول: «إن نَبَتْنَا أَنْ تَنْتَبِتَ فِي هَذَا الْبَابِ أَمْهَاتُ مَعْجَزَاتِهِ، وَمَشَاهِيرُ آيَاتِهِ لَتَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَأَتَيْنَا مِنْهَا بِالْمَحَقِّقِ وَالصَّحِيحِ الْإِسْنَادِ، وَأَكْثَرُهُ مِمَّا بَلَغَ الْقَطْعُ أَوْ كَادَ. وَأَضَفْنَا إِلَيْهَا بَعْضَ مَا وَقَعَ فِي مَشَاهِيرِ كُتُبِ الْأُئِمَّةِ».

ثم ينتقل القاضي عياض إلى نقطة هامة، وهي أنه يجعل الإيمان بصحة نبوته طريقاً إلى الإيمان بالمعجزات والمؤيدات الإلهية له. فنراه يبدأ بالدلائل الإيحائية الشكلية على صحة نبوته، بعد أن عُرف جميل أثره، وحميد سيرته، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وجملة كماله وحلمه، وجميع خصاله.

* ومن مثل قول عبدالله بن سلام - لما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة. «جنته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه، وعرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب».

* وروى مسلم: أن ضامداً لما وقَّده عليه، فقال له النبي - ﷺ -، إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.. قال له: أَعِذْ عَلَى كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَلَقَدْ بَلَغَنَ قَامُوسُ الْبَحْرِ، هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ»

* وفي خبر الجُلَنْدِيِّ - ملك عُثْمَانَ - لما بلغه أن رسول الله - ﷺ - يدعو إلى الإسلام، قال الجُلَنْدِيُّ: «والله لقد دُلَّنِي عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ آخِذٍ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَبْطِرُ، وَيُغْلِبُ فَلَا يَضْجُرُ، وَيَفِي بِالْعَهْدِ وَيَنْجِزُ الْمَوْعِدَ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ»

وبعد أن تحدث القاضي عياض عن السَّاتِ الْإِيْحَائِيَّةِ الشَّكْلِيَّةِ، الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ فِيهِ، فَجَعَلَ مِنْ يَرَاهُ يَحْسُّ بِالْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَيَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَيَدْرِكُ أَنَّ مَظْهَرَهُ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَتَلُ قُرْآنًا، تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا ابْنُ رَوَاحَةَ بِقَوْلِهِ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ لَكَانَ مَنَظَرُهُ يُنْبِئُكَ بِالْخَبَرِ

وجد القاضي عياض أنه من المفيد أن يتحدث عن النبوة والرسالة والوحي،

كمقدمة للحديث عن المعجزة القرآنية، وما فيها من برهان صَدْره بمقدمة عن المعرفة الالهية، والعلم الرباني.

٢

قال^(١): «إن المعرفة هبة من عند الله، يمنحها من يشاء ويمنعها عمن يشاء.. فالله سبحانه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده، وهو قادر على منحهم العلم بذاته وأسمائه وصفاته، كما حُكي عن سنته في بعض الأنبياء.. فعلم الأنبياء من لدن الله، أودعه الله في قلوبهم، وفق إرادته، لتحقيق أمرٍ ما هو يريده، وهو يعلمه».

إنه يريد أن يقول: إن العلم علم الله، والمعرفة هبة من الله، يمنحها لمن يشاء بإرادته، ووفق حكمته، وهذه المعرفة هي التي توصل الإنسان إلى إدراك المعارف التي شاءها الله، ومنها العلم بذاته وصفاته، وأسمائه، وجميع تكاليفه.

- وقد تكون هذه المعرفة دون واسطة، لو شاء الله. وهذا ما حُكي عن سنته - جل شأنه - في تعريف الأنبياء، وتوصيل العلم إليهم.
- وقد تكون بواسطة تبلغهم تعاليمه، وأوامره ونواهيه.

وتكون هذه الواسطة.. إما من غير البشر، كالملائكة مع الأنبياء.
أو من جنسهم كالأنبياء مع أممهم.

وهنا يقول القاضي عياض: ولا مانع لهذا من دليل العقل.

وإذا جاز هذا ولم يستحل، وجاءت الرسل بما دلُّ على صدقهم من معجزاتهم، وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به، لأن المعجز مع التحدى من النبي - صلى الله عليه وسلم - قائم مقام قول الله: «صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه، وشاهد على صدقه فيما يقوله».

وهنا يقف القاضي عياض لكي يعرف بالنبوة والرسالة، لغة وشرعا، كما يحدد الفرق بين النبي والرسول..

* فالنُّبوءة - في لغة من همز - مأخوذ من النُّبأ وهو الخبر.
 * والنبى - هو الذى أطلعه الله تعالى على غيبه، وأسلمه أنه نبيه، فيكون نبى مُنبأ، أو يكون مخبرا عما بعثه الله تعالى به، ومنبأ بما أطلعه الله عليه.
 * والنبى - عند من لم يهزمه، هو الذى يحمل رتبة شريفة، ومكانه نبهة عند مولاه منيفة، فالوصفان في حقه مؤتلفان.
 * وأما الرسول، فهو المرسل، وإرساله أمر الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه.

واختلف العلماء.. هل النبى والرسول بمعنى.. أو بمعنىين؟
 فقال قوم: هما سواء، وأصله من الإنباء وهو الإعلام، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فقد أثبت لهما الإرسال معا.
 قال: ولا يكون النبى إلا رسولا، ولا الرسول إلا نبيا.
 وقيل: هما مفترقان، من وجه إذ قد اجتماعا في النبوة، التى هى الاطلاع على الغيب والإعلام بخواص النبوة، أو الرفعة لمعرفة ذلك وحوز درجتها.
 * وافترقا في زيادة الرسالة للرسول، وهو الأمر بالإنذار والإعلام. وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين، ولو كانا شيئا واحدا لما حُسن تكرارهما في الكلام البليغ.
 وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول من جاء بشرع مبتدأ، ومن لم يأت به نبى غير رسول.

وكانت طبيعة الموضوع تفرض على القاضى عياض أن يحدد من هو أول رسول، وما عدد الرسل، والكيفية التى كان يتصل بها الحق بأنبيائه ورسله، لذلك وجدناه يقول:

«وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد - ﷺ» وقد استند في ذلك إلى حديث أبي ذر - رضى الله عنه - أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبى، وذكر أن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر^(١)

(١) الشفا ١/٢٥١ وفى مستند الإمام أحمد «ثلاثمائة وخمسة عشر» ٥/١٧٨، ٢٦٦.

٣

بعد ذلك يتهيأ القاضى عياض للحديث عن معجزات الرسول - ﷺ -
فنراه يبدأ بتعريف المعجزة، فيقول: هى أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها.

والمعجزات من وجهة نظر القاضى عياض على ضربين:
(أ) ضرب هو من نوع قدرة البشر: فعجزوا عنه، فتعجزهم عنه فعلُ الله،
دلٌّ على صدق نبيّه. وذلك كصرفهم عن تمتى الموت، وتعجزهم عن الإتيان
بمثل القرآن.

(ب) وضرب هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدرُوا على الإتيان بمثله، كإحياء
الموتى، وقلب العصا حيّة، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من
الأصابع، وانشقاق القمر.. مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله. فيكون ذلك على يد
النبي، من فعل الله تعالى، وتحديه من يكذّبه أن يأتي بمثله تعجيز له.

* ثم ينتقل القاضى عياض للحديث عن المعجزات التى ظهرت على يد
نبيينا المصطفى - ﷺ - فيقول: إنها من هذين النوعين معا، نوع من قدرة
البشر، ونوع فوق قدرة البشر.

فالرسول الكريم - ﷺ - أكثر الأنبياء والرسل معجزة، وأبرهم آية،
وأطهرهم برهانا، وهى فى كثرتها لا يحيط بها ضبط.

فالقرآن - وهو المعجزة المعنوية الكبرى للرسول الكريم - ﷺ - قد
تحدى بسورة منه، قال أهل العلم - أقصر سورة وهى الكوثر، فعجزوا عنها،
فكل آية، أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة.

ونراه يقسم معجزاته - ﷺ - إلى قسمين:

١ - قسم منها عُلِمَ قطعاً، ونقل متواتراً كالقرآن، فلا مرية ولا خوف
بمجيء النبي به، وظهوره من قبله، واستدلّاله بحجته، وإن أنكر هذا معاند

جاحد، فهو كإنكاره وجود محمد - ﷺ - في الدنيا، وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به.

٢ - والقسم الثاني.. ما لم يبلغ مبلغ القطع والضرورة، وهو على نوعين أيضاً:

(أ) نوع مشتهر منتشر، شاع الخبر به عند المحدثين والرواة، ونقله السير والأخبار، كنبع الماء من بين الأصابع، وتكثير الطعام.

(ب) ونوع منه اختص به الواحد والإثنان، ورواه العدد اليسير، ولم يشتهر اشتهار غيره

ثم يقول القاضى عياض: «وأنا أقول صدعاً بالحق، إن كثيراً من هذه الآيات الماثورة عنه - ﷺ - معلومة بالقطع..

أما انشقاق القمر، فالقرآن نصّ بوقوعه، وأخبر عن وجوده. وكذلك قصة نبع الماء وتكثير الطعام، رواها الثقات والعدد الكثير من الجباء الفقير، عن العدد الكثير من الصحابة، وقد حدث ذلك في موطن اجتماع الكثير منهم، في يوم الخندق وفي غزوة بواط، وعمرة الحديبية، وغزوة تبوك. فهذا النوع كله يلحق بالقطعى من معجزاته^(١).

وبعد أن يفند مزاعم الجاحدين المنكرين، ويفضح خطأهم وهمهم، يثبت صدق هذه المعجزات، لنبينا المصطفى - ﷺ - بالأدلة القاطعة، ويقول:

«وأعلام نبينا - ﷺ - هذه الواردة من طريق الآحاد، لا تزداد مع مرور الزمان إلّا زلهوّاً، ومع تداول الفرق وكثرة طعن العدو، وحرصه على توهينها، وتضعيف أصلها، وإجهاد الملحد على إطفاء نورها إلا قوة وقبولاً، ولا للطاعن عليها إلا حسرة وغليلاً.»

«وكذلك إخباره عن الغيوب، وإنباؤه بما يكون وكان، معلوم من آياته على الجملة بالضرورة، وهذا حق لا غطاء عليه، وقد قال به أئمتنا القاضى،

والأستاذ أبو بكر وغيرهما - رحمهم الله - وما عندي أوجب قول القائل: إن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد إلا قِلَّةُ مطالعته للأخبار وروايتها، وشغله بغير ذلك من المعارف، وإلا فمن اعتنى بطرق النقل، وطالع الأحاديث والسير، لم يَرْتَبْ في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه.

٤

معجزة القرآن:

حدد القاضي عياض مفهومه للمعجزة، وعدّد معجزات الرسول - ﷺ، وأثبت صحتها بما لا يدع مجالاً للشك.. ثم بدأ في تناول هذه المعجزات، واحدة فواحدة، فبدأ بالمعجزة المعنوية الكبرى.. معجزة القرآن، وأخذ في دراسة إعجاز القرآن، وإبراز وجوهه المختلفة التي اتفق عليها العلماء السابقون^(١).

* يرى القاضي عياض أن القرآن الكريم مُنطَو على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حُسْنُ تأليفه، والتثام كَلِمِهِ، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته المخارقة عادة العرب.

وثانيها: صورة نَظْمِهِ العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقفت مقاطع آية، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يُوجَد قبله ولا بعده نظير له.

وثالثها: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن وما لم يقع، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر به.

والوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا القَدَّ من أخبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك.

ويعلل القاضي عياض للأسباب التي جعلت من «حُسن تأليف القرآن والتثام كلمه، وجهها من أوجه الإعجاز، التي تميز بها، فيقول: «ذلك أنهم (أى العرب) كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خُصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فُصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدُلُّون به إلى كل سبب، فيخطبون يديها في المقامات، وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون، ويتوصلون ويرفعون، ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويَطْوِقُونَ من أوصافهم أجل من سُمط اللال، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان، وييسطون يد الجعد البنان، ويصيرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوى. ومنهم الحضري ذو البلاغة البارة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الروتق، الرقيق الحاشية، وكلا البابين فلهما في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقدح الفالج، والمهيج الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حَوَّوا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلَّوا صرخاً لبلوغ أسبابها، فقالوا.. في الخطير والمهين، وتفننوا في الغت والسمين، وتناولوا في القل والكثر، وتساجلوا في النظم والنثر، فإِراعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفُصِّلَت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوث كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حُسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب بحالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في السجع والشعر سجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخا بهم في كل حين، ومقرعاً لهم

بضعاً وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين..
 * ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَلَنْ تَفْعَلُوا، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٤]
 * ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الاسراء ٨٨]
 * ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود ١٣]

«وذلك أن المفترى أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب»

«فلم يزل يقرعهم - ﷺ - أشد التقرع، ويؤيخهم غاية التويخ، وسقاه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإيائهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالكذب، والإغراء والافتراء، وقولهم:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ و﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ و﴿إِنَّكَ افْتَرَاهُ﴾ و﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والمباهطة والرضى بالدنيئة، كقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ و﴿فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ و﴿فِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ و﴿مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ و﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ والإدعاء مع العجز بقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وقد قال لهم الله ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فما فعلوا ولا قنروا^(١).

هذا هو الوجه الأول من وجوه الإعجاز القرآني كما يراه القاضي عياض، وهو كما نرى وجه بلاغي خالص.

«وهو نوع من إعجازه منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح، وكون القرآن من قبل النبي - ﷺ، وأنه أتى به معلوم ضرورة،

وكونه - ﷺ - مُتَحَدِّيًا به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة، وكونه في فصاحته خارقاً للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة.

٣

* وعن الوجه الثاني.. وهو صورة نَظْمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب.. يقول القاضي عياض:

إنه «لم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلّت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر»

«لما سمع كلامه - ﷺ - الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن رقّ فجاءه أبو جهل منكراً عليه، قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئاً من هذا.»

وفي خبره الآخر، حين جمع قريشا عند حضور الموسم، وقال إن وفود العرب ترد، فأجمعوا فيه رأياً لا يُكْذِب بعضهم بعضاً، فقالوا نقول: كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بِزَمْزَمِيَّة ولا سجعته، قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريضه ومبسوطه ومقبوضه.. ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده: فما نقول؟

قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقرب القول أنه ساحر، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته.. فتفرقوا، وجلسوا على السُّبُل يحذرون الناس، فأنزل الله تعالى:

﴿وَدَّرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا، وَبَيْنَ شُهُودًا، وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدًا، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأَرَّهُنَّ صَعُودًا، إِنَّهُ فَكَّرَ

وقدّر، فقتل كيف قدّر، ثم قُتِلَ كيف قدّر، ثم نظر، ثم عَبَسَ وبَسَرَ، ثم أذْبَرَ واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يُؤثر، إن هذا إلا قول البشر، سأصليه سقراً»
[المدثر ١١-٢٦].

«والأخبار في هذا صحيحة كثيرة، والإعجاز بكل واحد من النوعين الإيجاز بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منها نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منها، إذ كل واحد خارج عن قدرتها، مباين لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين»

«وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر، وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع، وهو أبلغ في التعجيز، وأحرى بالتقريع والاحتجاج بمجىء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم وهو أبهر آية وأقنع دلالة، وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء والقتل، وتجرعوا كأسات الصغار والذل، وكانوا من شموخ الأنف وإبانة الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختياراً ولا يرضونه إلا اضطراراً، وإلا فالمعارضة لو كانت من قدرهم، والشغل بها أهون عليهم، وأسرع بالنجح وقطع العذر، وافحام الخصم لديهم، وهم ممن لهم قدرة على الكلام، وقدرة في المعرفة به لجميع الأنام، وما منهم إلا مَنْ جهد جهده.. واستنفذ ما عنده في إخفاء ظهوره، وإطفاء نوره، فما جلوا في ذلك خبيثة من بنات شفاهم، ولا أتوا بنطقة من معين مياهم، مع طول الأمد، وكثرة العدد، وتظاهر الوالد وما ولد، بل أبلسوا فما نسبوا، ومنعوا فانقطعوا، فهذان النوعان (الإيجاز والبلاغة) من إعجازه».

وفي هذا الوجه - يقول القاضي عياض:

«وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه، فأكثرهم يقول إنه بما جُمع في قوة جزالته ونصاعة ألفاظه، وحسن نظمه وإيجازه، وبديع تأليفه وأسلوبه، لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتعة عن أقدار الخلق عليها»

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر،
وَيُقَدِّرُهُمُ اللهُ عَلَيْهِ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فَمَنَعَهُمُ اللهُ هذا وعجزهم عنه.
والقاضي عياض بنقله لهذا الرأي يكون قد قال بالصُرْفَةِ، وهي مقالة
ابراهيم النظام المعتزلي الشهيرة. ولا أدري كيف غاب عنه ذلك، وهو إمام
من أئمة أهل السنة في الأندلس في عصره

٣

أما الوجه الثالث من وجوه الأعجاز - كما يراه القاضي عياض - فهو وجه
يتصل بالتاريخ وحركته. وقد عبر عنه بقوله:
«ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيّيات، وما لم يكن، ولم يقع، فوجد كما وَرَدَ
على الوجه الذي أخبر.

* كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمِينِينَ﴾
* وقوله تعالى: ﴿أَمْ، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيُغْلِبُونَ﴾

* وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾

* وقوله جل جلاله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾
* وقوله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

«فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس
في الإسلام أفواجا، فما مات - ﷺ - وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله
الإسلام، واستخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكن فيها دينهم، وملكهم إياها من
أقصى المشارق إلى أقصى المغارب، كما قال - ﷺ - «رُؤِيتُ لِي الْأَرْضُ فَأَرِيتُ
مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيُبْلَغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا رُؤِيتُ لِي مِنْهَا»

* وبما يدخل تحت هذا الوجه من وجوه الإعجاز:
 قوله تعالى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ الآية
 وقوله عز وجل: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ الآية
 وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ﴾ الآية
 - فكان كل ذلك وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقاهم
 وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا
 يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ الآية
 وقوله عز وجل: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ الآية.
 * وقال مبدئياً ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر
 ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ
 تَكُونَ لَكُمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾
 ولما نزلت بَشَّرَ النَّبِيُّ - ﷺ - بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم، وكان
 المستهزون نفراً بمكة، يُنْفِرُونَ النَّاسَ عَنْهُ وَيُؤْذِنُونَهُ فُهَلَكُوا.

٤

وأما الوجه الرابع، من وجوه إعجاز القرآن، فهو يتصل كسابقه بالجانب
 التاريخي، ولكنه لا يتناول الأمور المستقبلية، ولكنه يتحدث عن أخبار القرون
 السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة
 الواحدة إلا الفذ من أخيار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك،
 فيورده النبي - ﷺ - على وجهه، ويأتي به على نَصِّه، فيعترف العالم بذلك
 بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه - ﷺ - أمي لا يقرأ
 ولا يكتب، ولا اشتغل بمدرسة ولا مثافنة (أى مجالسة)، ولم يغب عنهم ولا جهل
 حاله أحد منهم.

ويدلل القاضي عياض على دقة هذا الوجه ووضوحه، فيقول:
 «وقد كان أهل الكتاب كثيراً ما يسألونه - ﷺ - عن هذا، فينزل عليه من

القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء، وبدء الخلق، وما فى التوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وموسى، مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدرُوا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن مَوْفَق آمن بما سبق له من خبر، ومن شقى معاند حاسد.. ومع هذا لم يُحَكَّ عن واحدٍ من اليهود والنصارى على شدة عداوتهم له. وحرصهم على تكذيبه، وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم، وتقريرهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤاَلهم له - ﷺ - وتعييناتهم إياه عن أخبار أنبيائهم، وأسرار علومهم، ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم، ومُضْمَنَاتِ كتبهم، مثل:

سؤاَلهم عن الروح، وذى القرنين، وأصحاب الكهف، وعيسى، وحُكْم الرُّجْم، وما حرم إسرائيل على نفسه، وما حُرِّمَ عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم، فحُرِّمت عليهم بِنَبِيِّهِمْ. وقوله ذلك مَثَلُهُمْ فى التوراة ومَثَلُهُمْ فى الإنجيل، وغير ذلك من أمورهم التى نزل فيها القرآن. فأجابهم وعرفهم بما أوحى إليه، من ذلك.. أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صَرَّحَ بصحة نبوته وصدق مقالته، واعترف بعناده وحسده إياه، كأهل نجران، وابن صوريا، وابنى أخطب وغيرهم، ومن باهت فى ذلك بعض المباهتة، وأدعى أن فيها عِنْدَهُمْ من ذلك، لما حكاه مخالفة دُعَى إلى إقامة حُجَّتِهِ، وكشف دَعْوَتِهِ، ف قيل له: ﴿قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَمَنْ افترى على الله الكَذِبَ من بعد ذلك فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فقرع ووبخ، ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فَمِنْ معترف بما جحدته، ومتوَّاقح يلقي على فضيحتة من كتابه يده، ولم يُؤثر أن واحدا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحا ولا سقيا من صُحُفِهِ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ الآيتين.

هذه هي الوجوه الأربعة، التي حددها القاضي عياض دليلاً على إعجاز القرآن.

والباحث المطلع.. يجد أنه مسبق بهذه الآراء من العلماء السابقين، الذين تصدوا لدراسة الإعجاز القرآني، وكانت لهم آراء خصبة.

ولقد كان الرجل أميناً حين ذكر أكثر من مرة، أنه يسجل آراء العلماء، وينقل من كتبهم، وأنه جامع لآرائهم، لذلك نقول: إن هذه الآراء ليست جديدة، إلا على بلاده الأندلس.

ويبدو أن القاضي عياض، وهو كما قلنا ناقل جامع، وجد أن هناك كثيراً من الآراء لم يسلكها بين أوجه الإعجاز الأربعة، التي حددها، وخشى أن يفوته تسجيلها، لذلك نراه يفرد فصولاً أخرى بعد الفصول التي اعتمدها للإعجاز، قائلاً في صدرها.

ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه:
١ - آى وردت بتعجيز قوم في قضايا إعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فَعَلُوا ولا قدروا على ذلك
كقوله تعالى لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾
الآية.

قال أبو اسحاق الزجاج: في هذه الآية أعظم حُجَّة وأظهر دلالة على صحة الرسالة، لأنه قال لهم: فتمنوا الموت، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً، فلم يتمنّه واحد منهم.

وعن النبي - ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يقوها رجل منهم إلا غُصَّ بِرِيقِهِ»
يعنى يموت مكانه، فصرّفهم الله عن تمنيه، وجزّعهم ليظهر صدق رسوله، وصحة ما أوحى إليه، إذ لم يتمنّه أحد منهم. وكانوا على تكذيبه أحرص - لو قدروا،

ولكن الله يفعل ما يريد، فظهرت بذلك معجزته، وبانت حُجته.

وكذلك آية المباهلة، من هذا المعنى؛ حيث وفد عليه أساقفة نجران، وأبوا الإسلام، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية ومثله قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ الآية - إلى قوله - ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فأخبرهم أنهم لا يفعلون كما كان، وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب، ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها^(١).

٢ - ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعترهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره، وهى على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستقلون سماعه، ويزيدهم نفورا، كما قال تعالى: وَيُودُونَ انْقِطَاعَهُ لَكِرَاهَتِهِمْ لَهُ.

ولذا قال - ﷺ: إِنْ الْقُرْآنَ صَعَبَ مُسْتَصَبٌ عَلَىٰ مَنْ كَرِهَهُ، وَهُوَ الْحَكَمُ. وأما المؤمن فلا تزل رَوْعَتُهُ بِهِ، وَهَيْبَتُهُ إِيَّاهُ مَعَ تِلَاوَتِهِ، تُولِيهِ أَنْجَذَابًا، وَتَكْسِبُهُ هَشَاشَةً، لِمِلَّ قَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَتَصْدِيقَهُ بِهِ.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن، ومنهم من كفر^(٢).

٦

ثم وجد القاضى عياض، أنه رغم كل ذلك لم يستوف كل وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء السابقون، والأئمة المحققون، لذلك رأيناه يعقد فصلا جديداً بدأه بقوله.

(١) الشفا ٢٧٢/١

(٢) الشفا ٢٧٤/١

- ومن وجوه إعجازه المحدودة، كونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه. فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية

ورغم كل ذلك وجد القاضى عياض نفسه لم يلم بكل جوانب الإعجاز وأن هناك آراء أخرى ذكرها العلماء ولم يسجلها، فلم يجد من ذلك بُدًّا من أن يجمعها معاً، ويفرد لها فصلاً أخيراً لم يجد له عنواناً، بل ذكر مطلعها.

٧

قال: «وقد عُدَّ جماعة من الأئمة ومقلدى الأمة في إعجازه وجوها كثيرة» فقد أجمل في هذا الفصل معظم ما قيل من آراء ووجوه حول إعجاز القرآن، وهى وجوه متباينة، ليس بينها رابط معين، إنما تندرج جميعاً تحت باب الإعجاز، قال:

- * ومنها: أن قارئه لا يملّه وسامعه لا يمجّه.
- * ومنها: جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة، ولا محمد - ﷺ - خاصة بمعرفتها، ولا القيام بها.
- * ومنها: جمعه فيه بين الدليل ومدلوله.
- * ومنها: أن جعله في حيز المنظوم الذى لم يُعهد.
- * ومنها: تيسيره تعالى حفظه لتعليمه، وتقريبه من متحفظيه.
- * ومنها: مشاكلة بعض أجزائه بعضاً، وحسن ائتلاف أنواعها، واللتام أقسامها.

* ومنها: الجملة الكثيرة التى انطوت عليها الكلمات القليلة.

وختم القاضى عياض هذا الموضوع الخاص بالمعجزة القرآنية، بقوله: وهذا كله وكثير مما ذكرنا أنه ذكر في إعجاز القرآن إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة، لم نذكرها إذ أكثرها داخل في باب بلاغته»

وكأنه وجد أن هذا السرد سيخرجه عن نطاق البحث، فاستدرك الأمر قائلاً:

«فلا نحب أن يُعد فناً منفرداً في إعجازه إلا في باب تفصيل فنون البلاغة، وكذلك كثير مما قدّمنا ذكره عنهم يعد في خواصه وفضائله، لا في إعجازه. وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا، فليعتمد عليها، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضى. والله ولى التوفيق»

٨

فإذا نظرنا إلى وجوه الاعجاز الأربعة، التي اختارها..
وجدنا أن الوجه الثاني وهو (صورة نظم القرآن العجيب، والأسلوب الغريب)

ما هو إلا تكرار للوجه الأول (حُسن تأليف والتّام كلمه وفصاحته وبلاغته) فكلّالوجهين يندرجان تحت علوم البلاغة. بيد أنه حين وضعهما على صورتها هذه، قد أضفى عليهما صفة التعميم، حتى ليبدو وكأنه حائر متردد بين أساليب البلاغة وعلومها. فالوجهان الأول والثاني، في حقيقة أمرهما وجه واحد، يتصل ببلاغة القرآن. هكذا قال المرحاني.

كذلك الوجه الثالث وهو: (ما انطوى عليه القرآن من الإخبار بالمفنيات) والوجه الرابع (ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة) كلاهما يندرج تحت الجانب التاريخي، فهما في واقع الأمر وجه واحد، يصور إعجاز القرآن من حيث الزمن، وإتصاله بحركة التاريخ في الماضي والمستقبل.

ومعروف أن القاضي عياض كان سلفياً، من أهل السنة والجماعة، ومع ذلك فقد ضلّله عنصر الجمع والنقل والاعتباس، فوقع في المحذور، حين لم يفهم ما ذكره المعتزلة من القول (بالصُّرفة) فنراه يذكر ما ذهب إليه أبو الحسن الرَّمّاني المعتزلي، استناداً لرأى النّظام شيخ المعتزلة، من أن القرآن «مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم عليه، ولكن لم يكن هذا فمنعهم الله هذا

وعجزهم عنه»^(١) وهو لا يدري أن هذا الرأي أنكره أهل السنة وحاربوه، وسفها آراء القائلين به.

هذا من حيث الشكل العام أو المظهر الخارجى..

* فإذا درسنا أوجه الإعجاز الأربعة التى اختارها القاضى عياض، وأمنا فيها النظر، وجدنا ما يلى:

أن الوجه الأول، فى حقيقته أمره ليس من وجوه الإعجاز، وإنما هو فى وضعه الدقيق شاهد من شواهد الإعجاز، ودليل من أدلته القاطعة.

أما الوجه الثانى، الذى يتعلق بنظم القرآن وأسلوبه، فهو ما توافق عليه جُلُّ الباحثين والعلماء، الذين بحثوا فى إعجاز القرآن، وحاولوا الكشف عن أسرارها، لقد أجمعوا على أن هذا النظم، الذى انفرد به القرآن، يخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها، وأن نظمها جاء على صورة لم تقع للعرب، وإن جمعت الطيب الحسن من كل أسلوب.

وأما الوجه الثالث: الذى اختاره القاضى عياض، وهو الإخبار بالمغيبات، فهو فى حقيقة أمره ليس وجها من وجوه الإعجاز يمكن أن تقطع الخصم عن المعارضة، وتمسك به عن العناد واللجاج، إذ كثير من الكهّان كانوا يرمجون بالقيب، فيصيرون ويخطئون، ولو كان القرآن حين تحدى العرب قد أشار إلى هذا الوجه من التحدى لما أقرروا بالعجز عنه، ولما شهدت عليهم الحياة به، بل كان لهم على هذا الوجه سبيل إلى المجادلة والمحااجة والمعارضة، ولا استدعوا إليهم كهنتهم وأصحاب الرؤى عندهم، وكان لهم قول إلى جانب هذا القول الذى جاء به القرآن.. وإن بعد ما بين القولين فى مقام الصدق واليقين، ولكن الخصم العنيد المتجبر لا يستسلم حتى يرمى بأخر شيء فى يده، حتى ولو كان عوداً من الحطب، يقاوم به السيوف والرماح^(٢)

(١) الشفا ٢٦٧/١

(٢) عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن ص ٢٨٩

وأما الوجه الرابع: «ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة» فهو كسابقه لا يمكن أن يكون معجزة قائمة للتحدى القاطع المفحم، وإن كان هو وسابقه مما يضافى على إعجاز القرآن جلالة وروعة، ومما يزيده إشراقا وإلفا.. إذا فالوجوه الأربعة التى اختارها القاضى عياض فى أغلبها أدلة أو شواهد على الاعجاز القرآنى، أما الوجه الحقيقى، فهو ذلك الوجه الذى ألحقه الرجل بهذه الوجوه الأربعة، وكأنه يرى أنه نافلة، وليس أصلا فى باب الاعجاز، وهو: الروعة التى تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه»

فهذا الوجه فى رأينا^(١) هو عمدة وجوه الإعجاز القرآنى على الإطلاق، إن لم يكن وحده وجه الاعجاز، وهو الوجه عينه الذى توصل إليه الخطابى قبله بنحو قرنين من الزمان.

فالروعة التى تعترهم عند تلاوته، هى مناط الاعجاز الحقيقى، وهى المعجزة القائمة فيه أبد الدهر، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإن كان القاضى عياض قد جعله حاشية فى وجوه الإعجاز، من باب تحصيل الحاصل.

٩

المعجزات الحسية:

وبعد إذ انتهى القاضى عياض من الحديث عن المعجزة المعنوية، وهى معجزة القرآن.

انتقل بعد ذلك للحديث عن المعجزات الحسية، التى شاء الحق تبارك وتعالى، أن يهبه إياها وأن يجعلها تحت سمع وبصر المحيطين به، إثباتا لصدق نبوته، وصحة دعوته.

فنرى الرجل يخصص جانبا كبيرا من السيرة النبوية للحديث عن هذه المعجزات، التى أثبتتها القرآن مثل انشقاق القمر، وجاءت بها الأخبار الصادقة،

(١) أنظر كتابنا مفهوم الاعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى ص ٢١١ طبع دار المعارف بمصر

والأحاديث الصحيحة عن رسول الله - ﷺ - مثل: معجزة حبس الشمس، ومعجزة نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته، ومعجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه، ومعجزة كلام الشجرة له، وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها دعوته، ومعجزة إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والرضع، ومعجزته في إبراء المرضى وذوى العاهات.

معجزة انشقاق القمر^(١):

أما عن معجزة انشقاق القمر، فقد ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿اَفْتَرَيَتُ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾

حيث أخبر الله تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته.

* يقول القاضى عياض.. أجمع الصحابة والمفسرون وأهل السنة على وقوعه

* فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله - ﷺ - فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله - ﷺ - أشهدوا.

* وفي رواية مجاهد، عن ابن مسعود الأسود: «.. حتى رأيت الجبل بين فرجتى القمر»

* ورواه عنه مسروق، أنه كان بمكة، وزاد - فقال كفار قريش سحركم ابن أبى كبشة، فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا، فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

* وعن أنس، سأل أهل مكة النبي - ﷺ - أن يُريهم آيةً فأراهم إنشقاق القمر مرتين، حتى رأوا حِراءَ بينهما، فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ * ثم يتصدى القاضى عياض للذين أنكروا هذه المعجزة، أو الذين لم يروها، فيقول: ^(١)

«وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة، والآية مصرّحة، ولا يلتفت إلى إعتراض مخذول بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض، إذ هو شيء ظاهرٌ لجميعهم، إذ لم يُنقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كانت علينا به حُجة، إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مُقابلهم من أقطار الأرض، أو يحول بين قوم وبينه سحاب، أو جبال، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعضها جزئية، وفي بعضها كلية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدّعون لعلمها، وذلك تقدير العزيز العليم.

* ويضيف القاضى عياض رأيا آخر يتعلق بالوقت والزمن، وظروف الناس، فيقول:

«وآية القمر، أى معجزة انشقاقه - كانت ليلا، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجاف الأبواب، وقطع التّصرف، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا إلا من رصد ذلك واهتبل به، ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيرا في البلاد، وأكثرهم لا يعلم به، حتى يُخبر، وكثيرا ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوال عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء، ولا عِلْم عند أحدٍ منها^(٢).

معجزة حبس الشمس:

أما معجزة حبس الشمس، استجابة لدعاء الرسول - ﷺ - فيذكر

القاضي عياض حديثاً، أخرجه الطحاوى في مشكل الحديث، رواه عن أسماء بنت عميس من طريقين:

«أن النبي ﷺ - كان يُوحى إليه ورأسه في حجرِ عليّ، فلم يُصلِّ العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله - ﷺ - أَصَلَّيْتَ يا عليّ؟ قال: لا، فقال: اللهم إنَّه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس». قالت أسماء: «فرايتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر»

قال القاضي عياض: وهذا الحديثان ثابتان، ورواتها ثقات، وإن كان لم يذكر إلا حديثاً واحداً.

قال أحمد بن صالح - فيما حكاه الطحاوى: لا ينبغي لمن سبيله التخلف عن حفظ حديث أسماء.. لأنه من علامات النبوة.

وروى يونس بن بكير في زيادة المغازى، روايته عن ابن اسحاق.. لما أُسْرِى برسول الله - ﷺ - وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير، قالوا: متى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار، ولم تجيء، فدعا رسول الله - ﷺ - فزید له في النهار ساعة، وحُبِسَتْ عليه الشمس.

١٠

معجزة نبع الماء من بين أصابعه

أما معجزته - ﷺ - في نبع الماء من بين أصابعه، فكما يقول القاضي عياض: «إن الأحاديث عنها كثيرة جداً، ذكرها جماعة من الصحابة، منهم أنس، وجابر، وابن مسعود وغيرهم.

من ذلك ما رواه أنس، قال: رأيت رسول الله - ﷺ - وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله - ﷺ - بوضوء، فوضَّع رسول الله في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضَّؤوا منه، قال: فرأيت

الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم». وسأله قتادة: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

* على أن هذه المعجزة قد حدثت أكثر من مرة، وفي أكثر من مكان، في يوم الحديبية، وفي غزوة بواط وفي غزوة تبوك.

ففي يوم الحديبية، حسب رواية جابر في الصحيح، عطش الناس عطشا شديداً، ورسول الله - ﷺ - بين يديه ركوة فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع النبي - ﷺ - يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه، كأمثال العيون.

قيل: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»

١١

* وبما يشبه هذا من معجزاته، تفجير الماء ببركته وابتعائه بمسه ودعوته^(١).

* فقد روى مالك في الموطأ، عن معاذ بن جبل، في قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسّل رسول الله - ﷺ - فيه وجهه ويديه، وأعادته فيها، فجرت بماء كثير فاستقى الناس. قال: فانخرق من الماء ماله حسّ كحسّ الصواعق، ثم قال: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا.

* وفي حديث عمر - في جيش العسرة، وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، فرغب أبو بكر - رضي الله عنه - إلى النبي ﷺ - في الدعاء، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فانسكبت فملئوا ما معهم من آنية ولم تجاوز العسكر^(٢).

ويعلق القاضي عياض بعد إيراده عشرات الرويات والآثار حول هذه المعجزة:

«ومثل هذا، في هذه المواطن الحافلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جُبِلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يَسْكُت على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه، ونسبوا حُضور الجباء الغفير له، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم، أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.»

١٢

ويذكر القاضي عياض، ضمن معجزاته: معجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه^(١).

فينقل لنا أخباراً كثيرة، وأحاديث عديدة، رواها صحابة رسول الله - ﷺ - تحكى عن ما شاهدوه، وما لمسوه من هذه المعجزة:

* من ذلك - حديث جابر في إطعامه - ﷺ - يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعتاق، وقال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه، وانحرفوا وإن بُرْمَتْنَا لَتَغَطَّ كما هي، وإنَّ عجبتنا ليخبر، وكان رسول الله - ﷺ - بصق في العجين والبرمة وبارك.

ومن ذلك ما رواه رجل من الأنصار وامرأته، قال: «وجيء بمثل الكف فجعل رسول الله - ﷺ - ييسطها في الإناء، ويقول: ما شاء الله، فأكل من في البيت والحجرة والدار، وكان ذلك قد امتلأ من قديم معه - ﷺ - لذلك، وبقي بعد ما شبعوا مثل ما كان في الإناء

ومن ذلك حديث أبي أيوب، أنه صنع لرسول الله - ﷺ - ولأبي بكر من الطعام زهاء ما يكفيهما، فقال له النبي - ﷺ - ادع ثلاثين من أشرف

الأنصار فدعاهم فأكلوا حتى تركوا، ثم قال: ادع ستين فكان مثل ذلك، ثم قال: ادع سبعين فأكلوا حتى تركوه، وما خرج منهم أحد حتى أسلم وباع. قال أبو أيوب: فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلاً»

وعن سُمرة بن جندب، أتی النبی - ﷺ - بقَصْعَةٍ فيها لحم فتعاقبوا من غُدْوَةٍ حتى الليل، يقوم قوم ويقصد آخرون.

«ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، كنا مع النبي - ﷺ - ثلاثين ومائة، وذكر في الحديث أنه عُجِنَ صَاعٌ من طعام، وصُنعت شاة فَشَوَى سَوَادُ بَطْنِهَا، قال: «وَأَيَمَ اللَّهِ مَا مِنَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ إِلَّا وَقَدْ حَزَّ لَهُ حَزَّةٌ مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا قِصْعَتَيْنِ، فَأَكَلْنَا أَجْمَعُونَ وَفَضَّلَ فِي الْقِصْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى الْبَعِيرِ.

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - أصاب الناس مخمصة (أى مجاعة)، فقال لى رسول الله - ﷺ - هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ قلت: نعم، شىء من التمر فى المِزْوَدِ، قال: فَأَتْنِي بِهِ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَأَخْرَجَ قَبْضَةً فَبَسَطَهَا وَدَعَا بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ عَشْرَةَ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ عَشْرَةَ كَذَلِكَ، حَتَّى أَطْعَمَ الْجَيْشَ كُلَّهُمْ وَشَبِعُوا، قَالَ: خُذْ مَا جِئْتَ بِهِ وَأَدْخِلْ يَدَكَ وَاقْبِضْ مِنْهُ، وَلَا تَكْبُهُ فَقَبِضْتُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا جِئْتُ بِهِ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ، وَأَطْعَمْتُ طَوَالَ حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَبَى بَكْرَ وَعُمَرُ، إِلَى أَنْ قُتِلَ عَثْمَانُ، فَانْتَهَبْتُ مَنِي فَذَهَبَ^(١).

ثم يقول القاضى عياض بعد أن روى عشرات الأحاديث وكأنه يريد أن يوثقها:

«وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة فى الصحيح، وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا ينعَدُّ بعدهم، وأكثرها فى قصص مشهورة، وجماع مشهودة، ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكتُ الحاضرُ لها على ما أنكر منها.»

ويتابع القاضي عياض حديثه عن معجزات رسول الله، وفق ما جاء في سيرته العطرة، فيذكر معجزة كلام الشجرة، وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها لدعوته حين طلبها..^(١)

وفق ما روى عن ابن عمر، قال:
«كنا مع رسول الله - ﷺ - في سفر، فدنا منه أعرابي، فقال: يا أعرابي.. أين تريد؟ قال: إلى أهلي، قال: هل لك إلى خير، قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة السُّمرّة، وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تتخذ الأرض (أى تشقها)، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.»

وعن يريدة، سأل أعرابي النبي - ﷺ - عن آية (أى معجزة) لكى يؤمن، فقال: قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك، قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها، وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تتخذ الأرض، تجرُّ عروقها مغبرة، حتى وقفت بين يدي رسول الله - ﷺ - فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مرّها فلترجع إلى منبتها، فرجعت فدلّت عروقها فاستوت، فقال الأعرابي: انّذن لي أسجد لك، قال: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. قال: فأذن لي أن أقبل يديك ورجليك، فأذن له»

* وفي الصحيح، في حديث جابر بن عبد الله الطويل، ذهب رسول الله - ﷺ - يقضى حاجته، فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله - ﷺ - إلى أحدهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال:

انْقَادِي عَلَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ، الَّذِي يُصَانَعُ قَائِدُهُ، وَذَكَرَ أَنَّهُ فَعَلَ بِالْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمُنْصِفِ بَيْنَهَا، قَالَ: «الْتَمِثَا عَلَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَالْتَأَمْتَا»

* وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: فَقَالَ: «يَا جَابِرُ، قُلْ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ، يَقُولُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ الْحَقِّي بِصَاحِبَتِكَ حَتَّى أَجْلِسَ خَلْفَكُمَا، فَزَحَفْتُ حَتَّى لَحِقْتُ بِصَاحِبَتِهَا، فَجَلَسَ خَلْفَهَا، فَخَرَجْتُ أَحْضَرُ وَجَلَسْتُ أَحَدْتُ نَفْسِي، فَالْتَفْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مُقْبِلًا وَالشَّجَرَتَانِ قَدْ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَى سَاقٍ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَقَفَةً فَقَالَ بِرَأْسِهِ: هَكَذَا بَيْنَنَا وَشِبَالَا».

* قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ، بَعْدَ سَرْدِهِ الْعَدِيدِ مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي أَتَتْ بِهَا الرِّوَايَاتُ الصَّادِقَةُ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ:

«فَهَذَا ابْنُ عَمْرٍ، وَبَرِيدَةُ، وَجَابِرُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَيَعْلَى بْنُ مَرَّةٍ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمْ.. قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ نَفْسَهَا، أَوْ مَعْنَاهَا، وَرَوَاهَا عَنْهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ أَعْصَافُهُمْ، فَصَارَتْ فِي انْتِشَارِهَا مِنَ الْقُوَّةِ حَيْثُ هِيَ»^(١).

وَذَكَرَ ابْنُ فُورَكٍ، أَنَّهُ ﷺ - سَارَ فِي غَزْوَةِ الطَّائِفِ لَيْلًا، وَهُوَ وَبَيْنَ (أَيَّ نَعْسَانٍ) فَاعْتَرَضَتْهُ سَيْدَرَةٌ، فَانْفَرَجَتْ لَهُ نِصْفَيْنِ، حَتَّى جَازَ بَيْنَهُمَا، وَبَقِيَتْ عَلَى سَاقَيْنِ إِلَى وَقْتِنَا وَهِيَ هُنَاكَ مَعْرُوفَةٌ مَعْظَمَةً.

١٤

وَيَعُضُّدُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ، كَمَا يَقُولُ الْقَاضِي عِيَاضُ - حَدِيثُ أَنَيْنِ الْجُدْعِ^(٢)، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَشْهُورٌ مُنْتَشَرٌ، وَالْخَبَرُ بِهِ مُتَوَاتِرٌ قَدْ خَرَّجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِضْعَةُ عَشْرٍ، مِنْهُمْ: أَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ.. كُلُّهُمْ يَحْدِثُ بِمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ.

(١) الشفا ٢٠١/١

(٢) الشفا ٣٠٣/١

قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل، فكان النبي - ﷺ - إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر، سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار.

وفي رواية أنس: حتى ارتجَّ المسجد بخواره.

وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوه به.

وفي رواية المطلب وأبي: حتى تصدع وانشق، حتى جاء النبي - ﷺ - فوضع يده عليه فسَكَت

زاد غيره: فقال النبي ﷺ - إن هذا بكى لما فَقَدَ من الذكر.

وزاد غيره: والذي نفسى بيده لو لم أَلْتَزِمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزُّنا على رسول الله - ﷺ - فأمر به رسول الله - ﷺ - فدفن تحت المنبر.

وفي حديث بريدة، فقال النبي - ﷺ - إن شئت أرُّدك إلى الحائط، الذى كُنْتُ فيه، تنبت لك عروقه، ويكمل خَلْقَكَ، ويمجد لك خوص وثمره، وإن شئت أغرسك فى الجنة، فياكل أولياء الله من ثمره، ثم أصفى له النبي - ﷺ - يستمع ما يقول، فقال:

بل تغرسنى فى الجنة فياكل منى أولياء الله، وأكون فى مكان لا أبلى فيه، فسمعه من يلىه، فقال النبي - ﷺ - قد فعلت، ثم قال: اختار دار البقاء على دار الفناء فكان الحسن إذا حَدَّثَ بكى وقال: يا عباد الله.. الخشبة تحن إلى رسول الله - ﷺ - شوقا إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاخوا إلى لقائه^(١).

قال القاضى عياض: فهذا حديث كما تراه خرَّجه أهل الصحة من ذكرنا، وغيرهم من التابعين ضَعَفَهم إلى مَنْ لم تذكره، وبدون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب، أى معجزات الرسول.

١٥

* ويرتبط بهذه المعجزات أيضا، ما ذكره القاضى عياض عن تسبيح الطعام وغيره من سائر الجهادات^(١).

● فقد روى ابن مسعود: «كنا نأكل مع رسول الله - ﷺ - الطعام ونحن نسمع تسبيحه.

وقال أنس: أخذ النبي - ﷺ - كفاً من حصي، فسبحن في يد رسول الله - ﷺ. حتى سمعن التسبيح، ثم صَبَّهْن في يد أبي بكر - رضى الله عنه - فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن».

وقال عليّ: كنا بمكة مع رسول الله - ﷺ، فخرج إلى بعض نواحيها فما استقبله شجرة ولا جبل، إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله. وعن عائشة - رضى الله عنها - قال رسول الله - ﷺ - لما استقبلني جبريل - عليه السلام - بالرسالة، فجعلت لا أمرّ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

ويحضرنا الآن حديثه مع الراهب في ابتداء أمره، إذ خرج تاجراً مع عمه، وكان الراهب لا يخرج إلى أحد، فخرج وجعل يتخلّلهم حتى أخذ بيد رسول الله - ﷺ - فقال: هذا سيد العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ قريش: ما علمك؟ فقال: إنه لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً له، ولا يسجد إلا لنبي، وذكر القصة، ثم قال: وأقبل ﷺ وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال الفئء إليه».

١٦

ويرتبط بهذا الجانب الاعجازى - في سيرته ﷺ - ما ذكره القاضى عياض من معجزاته التى لها صلة بالحيوان^(٢).

(٢) الشفا ٣٠٩/١

(١) الشفا ٣٠٦/١

● من ذلك ما روته عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله - ﷺ - مرَّ وثبت مكانه، فلم يجيئ ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله - ﷺ - جاء وذهب.

● وروى عن عمر - أن رسول الله - ﷺ - كان في محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابي قد صاد ضَبًّا، فقال : من هذا، قالوا : نبي الله، فقال : والللات والعزى لا آمنت بك، أو يؤمن بك هذا الضَّبُّ، وطرحه بين يدي النبي - ﷺ - فقال النبي له يا ضَبُّ، فأجابه بلسان مُبين، يسمعه القوم جميعاً : لبيك وسعديك يا زَيْنَ مَنْ وافي القيامة، قال : من تعبد؟ قال : الذى فى السماء عرشه، وفى الأرض سُلْطانه، وفى البحر سبيله، وفى الجنة رحمته، وفى النار عقابه، قال : فمن أنا؟ قال : رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدَّقك، وخاب من كَذَّبك، فأسلم الأعرابي.

● وعن أنس - رضى الله عنه - دخل النبي - ﷺ - حائط أنصارى، وأبو بكر وعمر ورجلٌ من الأنصار، رضى الله عنهم، وفى الحائط غَنَمٌ، فسجدت له - ﷺ - فقال أبو بكر : «نحن أحق بالسجود لك منها...» (الحديث)

● ومثله فى الجمل، عن عبد الله بن جعفر، قال : وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شَدَّ عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي - ﷺ - دعاه فوضع مِشْفَرَه على الأرض، وبرك بين يديه، فخطَّمه، وقال : ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أنى رسول الله، إلا عاصَى الجن والإنس.

● وفى خبر آخر : فى حديث الجمل - «أن النبي - ﷺ - سألهم عن شأنه فأخبروه أنهم أردوا ذبحه».

● وفى رواية - أن النبي - ﷺ - قال لهم : إنه شكى كثرة العمل، وقلة العلف، وأنه شكى إلى أنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه فى شاق العمل من صغره، فقالوا نعم.

● وروى ابن وهب أن حمام مكة أظلت النبي - ﷺ - يوم فتحها، فدعا لها بالبركة.

- وروى عن أنس، أن النبي ﷺ، قال: أمر الله ليلة الغار شجرة فنبتت تجاه النبي - ﷺ، فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا بقم الغار»
- وفي حديث آخر: وأن العنكبوت نسجت على بابه، فلما أتى الطالبون له، ورأوا ذلك قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه، والنبي - ﷺ - يسمع كلامهم فانصرفوا.

● وعن أم سلمة، كان النبي - ﷺ - في صحراء، فنادته ظبية: يا رسول الله، قال: ما حاجتك؟ قالت: صادني هذا الأعرابي ولى خشفان في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعها وأرجع، قال: أو تفعلين؟ قالت: نعم، فأطلقها فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابي، وقال: يا رسول الله ألك حاجة؟ قال ﷺ: تُطلق هذه الظبية، فأطلقها، فخرجت تعدو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله.

١٧

ويتصل بهذه المعجزات الحسية، التي يَسرها الله لرسوله - ﷺ - ما جمعه القاضى عياض في فصل إحياء الموتي وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع، وشهادتهم له بالنبوة^(١).

من ذلك ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - أن يهودية، أهدت للنبي - صلى الله عليه وسلم - بخيبر، شاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْها، فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها، وأكل القوم، فقال: ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتنى أنها مسمومة، فبأت بشر بن البراء، وقال لليهودية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبياً لم يضرَّك الذى صنعت، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك.

* ويبدو أن هذا الحديث، والأحاديث السابقة - كان هناك من لا يصدّقها، أو يقتنع بما جاء فيها، لأن الشاة كانت مذبوحة، وقد أعدت للأكل، فكيف تنطق بما قالت، وكذا يمكن أن يقال فيما جاء عن تسبيح الحصى، وحديث الجذع.

(١) الشفا ١/٣١٦.

هنا يتصدى القاضى عياض قائلا.. إن حديث الشاة المسمومة هذا خرّجه أهل الصحيح وخرّجه الأئمة، وهو حديث مشهور، وإن كان قد اختلف الأئمة أهل النظر فيه. فمن قائل: يقول هو كلام يخلقه الله تعالى فى الشاة الميتة، أو الحجر، أو الشجر وحروف وأصوات يحدثها الله فيها، ويسمعها منها دون تغيير أشكالها، ونقلها عن هيئتها..

وهو مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى، والقاضى أبى بكر الباقلانى، رحمهما الله.

* وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياة بها أولا ثم الكلام بعده.

وحكى هذا أيضا عن شيخنا أبى الحسن.

* يقول القاضى عياض معلقا: «وكُلُّ محتمل والله أعلم إذ لم يجعل الحياة شرطا لوجود الحروف والأصوات، إذ لا يستحيل وجودها مع عدم الحياة بمجردا..

فأما إذا كانت عبارة عن الكلام النفسى، فلا بد من شرط الحياة لها، إذ لا يوجد كلام النفس إلا من حيّ، خلافا للجبانى من بين سائر متكلمى الفرق، فى إحالة وجود الكلام اللفظى والحروف والأصوات إلا من حيّ مركب، على تركيب من يصح منه النطق بالحروف والأصوات والتزم ذلك فى الحصا والجذع والذراع. وقال: «إن الله خلق فيها حياة، وخرق لها فمًا ولسانا وآلة أمكنها بها من الكلام. وهذا لو كان - لكان نقله والتهمُّ به أكد من التهم بنقل تسبيحه أو حنينه».

ثم يقول القاضى عياض: «ولم ينقل أحدٌ من أهل السِّر والرواية شيئا من ذلك، فدلَّ على سقوط دعواه، مع أنه لا ضرورة إليه فى النظر»^(١).

١٨

وقد ضم القاضي عياض إلى ما سبق من معجزات الرسول - معجزات أخرى منحها الله له تدعيها لمكانته، وتصديقا بنبوته، وإيمانا بدعوته.. من ذلك ما جاء من كلام الصبيان والمراضع، وشهادتهم له بالنبوة. ومن ذلك أيضا، ما جاء من أخبار تتحدث عن إحياء الموتى بإذن الله أو الكلام معهم، أو إبراء المرض وذوى العاهات.

«من ذلك ما يروى عن فهد بن عطية، أن النبي - ﷺ - أتى بصبي قد شب لم يتكلم قط، فقال: من أنا؟ فقال: رسول الله»

ومن ذلك ما روى عن مُعَرِّض بن مُعَيْقِب؛ رأيت من النبي - ﷺ - عجباً، جرى بصبي يوم وُلِدَ، فذكر مثله. وهو حديث مبارك اليمامة، فقال له النبي - ﷺ: (صَدَقْتَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ) ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب، فكان يسمى مبارك اليمامة وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع.

* وعن أنس، أن شاباً من الأنصار تَوُفِّي، وله أم عجوز عمياء، فسَجَّيناه وعزَّيناه، فقالت: مات ابني، قلنا: نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى رسولك رجاء أن تعينني على كل شدة، فلا تحملنَّ على هذه المصيبة، فها برحنا أن كشف الثوب عن وجهه، فطعم وطعمنا.

* وروى عن عبيد بن عبيد الأنصاري، كنت فيمن دفنَ ثابت بن قيس بن شماس، وكان قُتل باليمامة، فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول: محمد رسول الله. فنظرنا فإذا هو ميت.

* وعن الحسن، أتى رجل النبي - ﷺ - فذكر له أنه طَرَحَ بُنْيَةً له في وادي كذا، فانطلق معه إلى الوادي، وناداهَا باسمها يافلانة، أجيبي بإذن الله، فخرجت وهي تقول: لبيك وسعديك، فقال لها إن أبويك قد أسلما. فإن أحببت أن أُرَدَّكَ عليهما، قالت: لا حاجة لي فيهما، وجدتُ الله خيراً لي منهما..

أما ما جاء عن إبراء المرضى وذوى العاهات
 * فقد قال سعد بن أبي وقاص، فيما يتصل بيوم أُحُد، أن رسول الله ﷺ
 ليناولني السهم لا نصل له، فيقول: ارم به، وقد رمى رسول الله ﷺ - يومئذ
 عن قوسه حتى اندقت، وأُصيب يومئذ عَيْن قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، حتى وقعت على
 وَجْنَتَيْهِ، فردّها رسولُ الله - ﷺ، فكانت أحسن عينيه.

* وروى النسائي، عن عثمان بن حنيف، أن أعمى قال: يارسول الله: ادعُ
 الله أن يكشف لي عن بَصْرِي، قال: فانطلق فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم قل:
 اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى
 رَبِّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَن بَصْرِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، قال: فرجع وقد كشف الله عن
 بصره.

* وذكر العُقَيْلِيُّ عن حبيب بن فُذَيْكٍ، أن أباه ابْيَضَّت عيناه، فكان
 لا يُبْصِرُ بهما شيئا، فنفت رسول الله في عينيه، فأبصر فرأيته يدخل الخيط في
 الإبرة وهو ابن ثمانين.

* وَرُمِيَ كُلُّثُومُ بْنُ الْحُصَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي نَحْرِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ فَبَرَأَ وَتَغَلَّ فِي عَيْنِي عَلَى يَوْمِ خَيْبَرٍ، وَكَانَ رَمَدًا فَأَصْبَحَ بَارِئًا،
 وَنَفَثَ عَلَى ضَرْبَةٍ بِسَاقِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ يَوْمَ خَيْبَرٍ فَبَرِثَتْ. وَفِي رَجُلٍ زَيْدِ
 بْنِ مَعَاذٍ حِينَ أَصَابَهَا السِّيفُ إِلَى الْكَعْبِ حِينَ قَتَلَ ابْنَ الْأَشْرَافِ فَبَرِثَتْ. وَعَلَى
 سَاقِ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ يَوْمَ الْحَنْدَقِ إِذْ انْكَسَرَتْ فَبَرِثُ مَكَانَهُ وَمَا نَزَلَ عَنْ فَرْسِهِ.
 وَقَطَعَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ يَدَ مَعُودٍ بْنِ عَفْرَاءَ، فَجَاءَ يَحْمِلُ يَدَهُ فَبَصَقَ عَلَيْهَا
 رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَأَلَصَقَهَا فَلَصِقَتْ.

* وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ أَنَّ خُبَيْبَ بْنَ يَسَافٍ، أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -

ﷺ - بَضْرِبَةٍ عَلَى عَاتِقِهِ حَتَّى مَالَ شِقَهُ، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ، وَنَفَثَ عَلَيْهِ حَتَّى صَحَّ.

* وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا بِهِ جُنُونٌ، فَمَسَحَ صَدْرَهُ فَثَعَّ ثَعَّةً فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ مِثْلُ الْجُرْوِ الْأَسْوَدِ فَسَقَى.

وَانْكَفَأَتِ الْقَدَرُ عَلَى ذِرَاعِ مُحَمَّدِ بْنِ حَاطِبٍ، وَهُوَ طِفْلٌ فَمَسَحَ عَلَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، وَتَفَلَّ فِيهِ فَبَرَأَ لِحِينِهِ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ كَانَتْ تَحْدُثُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَبِبَرَكَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ، بِمَا يَكْسِبُ النُّفُوسَ الثِّقَةَ، وَيَغْمُرُ الْقُلُوبَ بِالْإِيمَانِ.

٢٠

وَيَتَصَلَّ بِمَا سَبَقَ إِبَاجَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِدَعَائِهِ، تَحْقِيقًا لَصَدَقَ نُبُوته وَاثْبَاتًا لِمُعْجَزَتِهِ التَّائِيدَةِ^(١).

«وإِجَابَةُ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَجَاعَةٍ بِمَا دَعَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مُتَوَاتِرٌ عَلَى الْجُمْلَةِ، مَعْلُومٌ ضَرُورَةٌ.

جَاءَ فِي حَدِيثٍ حَذِيفَةٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا دَعَا لِرَجُلٍ أَدْرَكَتِ الدَّعْوَةُ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدَهُ.

* رَوَى قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ، ادْعُ لَهُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَالِهِ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهَا آتِيَتُهُ»، قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللَّهِ إِنْ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنْ وَلَدِي وَوَلَدُ وَلَدِي لَيُعَادُونَ الْيَوْمَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ.

* وَمِنْهُ دَعَاؤُهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ بِالْبَرَكَةِ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَلَوْ رَفَعْتُ حَجْرًا لِرَجَوْتُ أَنْ أَصِيبَ تَحْتَهُ ذَهَبًا، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَاتَ فَحُفِرَ الذَّهَبُ مِنْ تَرَكَّتِهِ بِالْفَوْسِ حَتَّى مَجَلَّتْ فِيهِ الْأَيْدِي، وَأَخَذَتْ كُلُّ زَوْجَةٍ ثَمَانِينَ أَلْفًا، وَكُنَّ

أربعاء، وقيل: مائة ألف، وأوصى بخمسين ألفاً بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوارفه العظيمة، أعتق يوماً ثلاثين عبداً، وتصدق مرة بغير فيها سبعمائة بغير، وردت عليه تحمل من كل شيء فتصدق بها، وبما عليها، وبأقنابها وأحلاسها.

* وقال لأبي قتادة: أفلح وجهك، اللهم بارك في شعره وبشره، فبات وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمس عشرة سنة.

* وقال للناطقة: لا يفضض الله فاك، فما سقطت له سن، وفي رواية: فكان أحسن الناس ثغراً إذا سقطت له سن نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة.

* وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه، فقال: اللهم نور له، فسطع له نور بين عينيه، فقال أخاف أن يقولوا مثله، فتحول إلى طرف سوطه، فكان يضيء في الليلة المظلمة، فسمى ذا النور.

* ودعا على كسرى حين مزق كتابه، أن يمزق الله ملكه، فلم تبق له بقية، ولا بقيت لفارس رياسة في أقطار الدنيا.
وهذا الباب أكثر من أن يحاط.

٢١

ويتابع القاضي عياض حديثه عن معجزات الرسول ﷺ، فيذكر معجزات أخرى تتناول جانبين هامين:

أولها: ما أطلع عليه من الغيوب.

ثانيها: عصمة الله له من الناس، وكفايته أذاهم.

١ - أما ما أطلع عليه من الغيوب، فيقول القاضي عياض^(١):

«إن الأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا يُنَزَف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواياتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب».

عن حذيفة، قال: «قام فينا رسول الله - ﷺ - مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حَفِظَهُ من حَفِظَهُ، ونَسِيَهُ من نَسِيَهُ، قد عَلِمَهُ أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل، إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه.

ثم قال حذيفة: ما أدري أنسى أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله - ﷺ - من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سمّاه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته».

قال القاضي عياض: «وقد خرّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه - ﷺ - ممّا وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، وأن المدينة ستغزى، وتفتح خيبر على يديّ عليّ في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها فرقة واحدة، وأنها ستكون لهم أنماط، ويغدو أحدهم في حُلّة ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صُحُفَةٌ، وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة».

ثم قال آخر الحديث: «وأنتم اليوم خير منكم يومئذ، وأنهم إذا مشوا المُطِيطَاء (البختر) وخدمتهم بنات فارس والروم، رد الله بأسهم بينهم، وسلط شرارهم على خيارهم».

وقال ﷺ: «ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، وأنه زويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها، ولذلك كان امتدت في المشرق والمغرب ما بين أرض الهند أقصى المشرق، إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم، ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك.

● أما ما يتصل بالأفراد، فقد ذكر القاضي عياض كثيرًا من الأخبار

المستقبلية، التي حدثت لهم وقد حدث عنها رسول الله ﷺ مما ينبئ أنه أطلع على الغيب.

من ذلك قوله: «يُقتل عثمان وهو يقرأ المصحف، وأن الله عسى أن يلبسه قميصا، وأنهم يريدون خلعه، وأنه سيقطر دمه»

وقوله «إن الفتن لا تظهر ما دام عُمر حيا، وأن عمارا تقتله الفئة الباغية، فقتله أصحاب معاوية، وقال لعبد الله بن الزبير: ويل للناس منك، وويل لك من الناس.»

وقال في قزمان وقد أبلى مع المسلمين، إنه من أهل النار، فقتل نفسه. وقال في حنظلة الغسيل: «سَلُوا زوجته عنه فإن رأيت الملائكة تُغسله» فسألوها فقالت: إنه خرج جُنبا، وأعجله الحال عن الغسل، قال أبو سعيد رضى الله عنه - ووجدنا رأسه يقطر ماء.

● وأما ما يتصل بالدولة، فقد أُنذر ﷺ بالرَّدة، وبأن الخلافة بعد ثلاثون سنة، ثم تكون مُلكا، فكانت كذلك بمدة الحسن بن علي، وقال: إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون مُلكا عضوا، ثم يكون عُتوا وجبروتا وفسادا في الأمة^(١).

٢ - عصمة الله له:

وأما عصمة الله تعالى له من الناس، وكفايته من أذاهم - كما يقول القاضي عياض - فيتجلى في قول الحق سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

قالت عائشة رضى الله عنها -: كان النبی - ﷺ - يُحَرَّسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله - ﷺ - رأسه من القبة فقال لهم: «يأيتها الناس انصرفوا فقد عصني ربي عز وجل».

* وروى أن النبي - ﷺ - كان إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة يُقِيل تحتها، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه، ثم قال: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنْي؟ فقال: الله عز وجل، فَرُعِدَتْ يد الأعرابي، وسقط سيفه، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه، فنزلت الآية.

* قال القاضي عياض: وقد حكيت مثل هذه الحكاية، أنها جرت له يوم بدر، وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته، فتبعه رجل من المنافقين، وذكر مثله. وقد روى أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان، بذى أمر، مع رجل اسمه دَعُشُور بن الحارث وأن الرجل أسلم فلما رجع إلى قومه الذين أغروه، وكان سيدهم وأشجعهم، قالوا له: أين ما كنت تقول، وقد أمكنك؟ فقال: إني نظرتُ إلى رجل أبيض طويل، دفع في صدرى فوقعت لظهرى، وسقط السيف، فعرفت أنه مَلَكٌ وأسلمت. قيل وفيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية.

وقيل: كان رسول الله - ﷺ - يخاف قریشا، فلما نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، استلقى ثم قال: من شاء فليخذلني.

* وعن الحكم ابن أبي العاص، قال: تواعدنا على النبي - ﷺ - حتى إذا رأيناه سمعنا صوتا خلفنا ما ظننّا أنه بقى بتهامة أحدُ فوقعنا مغشياً علينا، فما أفقنا حتى قَضَى صلاته، ورجع إلى أهله.

* وعن عمر - رضي الله عنه، تواعدتُ أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم. فجئنا منزله، فسمعنا له، فافتتح وقرأ ﴿الحاقة﴾ ما الحاقة﴾ إلى ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ فضرب أبو جهم على عَضِدِ عُمَرُ وقال: انج، وفراً هارين، فكانت من مقدمات إسلام عُمَرُ.

* وجاءه - فيما ذكر ابن اسحاق وغيره - أبو جهل بصخرة وهو ساجدٌ، وقریش ينظرون ليطرحها عليه، فلزقت بيده، وبست يده إلى عُنقه، وأقبل

يرجع القهقري إلى خَلْفِهِ، ثم سألَهُ أن يدعو له، ففعل، فانطلقت يداه، وكان قد تواعد مع قريش بذلك، وحَلَفَ لئن رآه ليدمغنه، فسألوه عن شأنه فذكر أنه عَرَضَ لى دونه، فَحَلَّ ما رأيت مثله قط، هم بي أن يأكلنى، فقال النبى - ﷺ :
ذاك جبريل لو دنا لأخذه.

وبعد أن أورد القاضى عياض الكثير من الأخبار والآثار التى تحكى عصمة الله له، وحمايته ممن أراد به السوء، وكفايته من أذاه..

عَرَّج بنا إلى الحديث عن معجزات باهرة أخرى، خصه الله بها، وأثار قلبه وبصائرهِ للنهل منها.. يقول:

«فمن هذه المعجزات ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وخصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأمور شرائعه وقوانين دينه، وسياسة عبادِه ومُصالح أُمته، وما كان فى الأُمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل، والجبابرة، والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمنه، وحِفظ شرائعهم وكتبهم، ووَعَى سيرهم، وسرد أنبائهم، وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم، واختلاف آرائهم، والمعرفة بمُدبهم وأعمارهم وحكم حكائهم، ومُحاجة كل أمة من الكفرة، ومعارضة كل فرقة من الكتائبين بما فى كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومُخبآت علومها، وإخبارهم بما كتبوه من ذلك وغيره، إلى الاحتواء على لغات العرب، وغريب ألفاظ فرقتها، والإحاطة بضروب فصاحتها، والحفظ لأيامها وأمثالها، وحِكمها ومعاني أشعارها، والتخصيص بجوامع كلمها إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة، والحكم البينة لتقريب التفهيم للغامض والتبيين للمُشكل إلى تهديد قواعد الشرع الذى لا تناقض فيه. ولا تتخاذل مع اشتغال شريعته على محاسن الأخلاق، ومحامد الآداب، وكل شىء مستحسن مفصل لم ينكر منه مُلحد ذو عقل سليم شيئاً، إلا من جهه الخذلان، بل كُل جاحد له وكافر من الجاهلية به، إذا سمع ما يدعو إليه صوبه واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه، ثم ما أحل لهم من الطيبات، وحرّم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم

من المعاقبات والحدود عاجلا، والتخويف بالنار أجلا، مما لا يعلم علمه، ولا يقوم به ولا يبعثه إلا من مارسَ الدرس، والعكوف على الكُتُب ومُثاقنة بعض هذا إلى الاحتواء على ضروب العلم، وفنون المعارف كالطب، والعِبارة، والفرائض والحساب والنسب.. وغير ذلك من العلوم، مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه - ﷺ - فيها قدوة وأصولا في علمهم.

* كقوله - ﷺ: «الرؤيا لأَوَّل عابر وهى على رجل طائر».

أى على قَدَرٍ جارٍ وقضاءٍ ماضٍ من خير أو شر.

قال ابن الأثير: هو من قولهم «اقتسموا داراً فطارسهم فلان إلى ناحية كذا، يعنى أن الرؤيا وهى التى يعبر المعبر الأول، فكأنها سقطت ووقعت حين عبرت كما يسقط الذى يكون على رجل الطائر بأدنى حركة.

قال ابن قتيبة: «أراد أنها غير مستقرة، يقال للشيء إذا لم يستقر هو على رجل طائر، وبين مغالب طائر، وعلى قرن ظبي»^(١).

* وقوله فى الطب: «خير ما تداويتم به السُّعُوطُ واللُّدُودُ والحِجَامَةُ والمشى، وخير الحِجَامَةِ يوم سبعم عشرة، وتسعم عشرة، وإحدى وعشرين، وفى العود الهندى سبعة أشقية، منها ذات الجنب».

والسُّعُوط: هو ما يجعل فى الأنف من الأدوية، كالنشوق. واللُّدود: هو الدواء المسهل لأنه يحمل شاربه على المشى والتردد إلى الخلاء، والقسط البحرى هو العود الذى يتبخّر به.

* وقوله ﷺ - فى الأنساب، «جَمِيرُ رَأْسِ الْعَرَبِ ونَأْيُهَا، وَمَذْحِجُ هَامَتِهَا وَغَلَصَمَتِهَا، وَالْأَزْدُ كَاهِلُهَا وَجَمْعَتِهَا، وَهَمْدَانُ غَارِيهَا وَذُرُوتُهَا».

ومذحج: هو أبو قبيلة من اليمن، وهو مَذْحِجُ بن يحاص بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

وغلصمتها: من الغاصمة، وهى رأس الحلقوم، وهو الموضع الثانى فى الحلق.

وكاھلھا: الكاھل من الإنسان ما بین كتفيه وذروتھا: أعلاھا.
وكذلك جوابه - ﷺ - في نسب قضاة، وغير ذلك مما اضطرت العربُ
على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه من ذلك.
وقوله - ﷺ - لكاآبه: «ضَع القلم على أُذُنِكَ فَإِنَّهُ أَذْكُرٌ لِلْمِئْلِ»
هذا مع أنه - ﷺ - كان لا يكتب، ولكنه أوتى عِلْم كل شيء حتى قد وردت
آثرُ بعرفته حروف الخط، وحسن تصويرها، كقوله ﷺ - فيما رواه ابن شعبان
عن طريق ابن عباس: «لا تُمَدُّوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».
وقوله في الحديث الآخر، الذي يروى عن معاوية، أنه كان يكتب بين يديه -
ﷺ فقال له: «أَلَيْ الدَّوَاةَ وَحَرْفُ الْقَلَمِ، وَأَقِمَّ الباء، وُفِرَق السَّيْنِ، وَلَا تُعَوِّرِ الميم،
وَحَسَّنِ اللَّهَ، وَمُدَّ الرَّحْمَنَ، وَجَوَّدَ الرَّحِيمَ».
وهذا وإن لم تصح الراوية أنه كتب، فلا يبعد أن يرزق علم هذا، ويُعَنَّ
الكتابة والقراءة.

* ثم يذكر القاضي عياض ما اكتسبه - ﷺ - من علوم ومعارف
ولغات.

فيقول: ^(١) «أما علمه بلغات العرب، وحفظه معاني أشعارها، فأمر مشهور،
وكذلك حفظه الكثير من لغات الأمم.

كقوله في الحديث: «سَنَّةٌ سَنَةٌ» وهي حَسَنَةٌ بالحِشْيَةِ.

وقوله في الحديث: «يَكْثُرُ الْهَرْجُ» وهو القتل بها.

وقوله في حديث أبي هريرة: «أَشْكَنْتَ دَرْدَ» أى وجع البطن بالفارسية إلى
غير ذلك، مما لا يَعْلَم بعض هذا، ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس،
والعكوف على الكتب، ومُتَأَنِّة أهلها عُمَرَهُ، وهو رجل - كما قال الله تعالى
(أَمْيَ) لم يكتب ولم يقرأ ولا عُرف بصحبة مَنْ هذه صفته، ولا نشأ بين قوم لهم

عِلْمٌ وَلَا قِرَاءَةً لشيءٍ من هذه الأمور. وَلَا عُرِفَ هُوَ قَبْلَ شَيْءٍ مِنْهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ الآية.

«إِنَّمَا كَانَتْ غَايَةُ مَعَارِفِ الْعَرَبِ النَّسَبَ وَأَخْبَارَ أَوَائِلِهَا وَالشَّعْرَ وَالْبَيَانَ، وَإِنَّمَا حَصَلَ ذَلِكَ لَهُمْ بَعْدَ التَّفَرُّغِ لِعِلْمِ ذَلِكَ، وَالِاشْتِغَالِ بِطَلْبِهِ، وَمُبَاحَثَةِ أَهْلِ عَنْهُ.»

«وَهَذَا الْفَنَ نَقَطَةُ مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ - ﷺ - وَلَا سَبِيلَ إِلَى جَعْدِ الْمُلْجِدِ لشيءٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ، وَلَا وَجَدَ الْكُفْرَةَ حِيلَةً فِي دَفْعِ مَا نَصَصْنَاهُ إِلَّا قَوْلَهُمْ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَإِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، فَردَّ اللَّهُ قَوْلَهُمْ بِقَوْلِهِ:

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

* وَيَفْنَدُ الْقَاضِي عِيَاضُ مَزَاعِمَهُمْ، مَدَافِعًا عَنْ عِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مَكْتَسَبٌ بِالْإِلْهَامِ الْإِلَهِيِّ فَيَقُولُ:

«ثُمَّ مَا قَالُوهُ مَكَابِرَةُ الْعِيَانِ، فَإِنَّ الَّذِي نَسَبُوا تَعْلِيمَهُ إِلَيْهِ، إِمَّا سَلْمَانَ، أَوْ الْعَبْدَ الرُّومِيَّ، وَسَلْمَانٌ إِنَّمَا عَرَفَهُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ وَنَزُولِ الْكَثِيرِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَظَهَرَ مَا لَا يَنْبَغُ مِنَ الْآيَاتِ. وَأَمَّا الرُّومِيُّ فَكَانَ أَسْلَمَ، وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَقِيلَ: بَلْ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَجْلِسُ عِنْدَهُ عِنْدَ الْمِرْوَةِ، وَكِلَاهُمَا أَعْجَمِيٌّ اللَّسَانِ، وَهُمُ الْفَصَحَاءُ اللَّذْدُ، وَالْخُطْبَاءُ اللَّسَنُ، قَدْ عَجَزُوا عَنْ مَعَارَضَةِ مَا أَتَى بِهِ، وَالْإِتْيَانِ بِنَثْلِهِ، بَلْ عَنْ فَهْمِ وَصْفِهِ، وَصُورَةِ تَأْلِيفِهِ وَنَظْمِهِ.. فَكَيْفَ بِأَعْجَمِيٍّ أَلْكَنَ؟

«نَعَمْ، وَقَدْ كَانَ سَلْمَانٌ، أَوْ بُلْعَامُ الرُّومِيِّ، أَوْ يَعِيشُ، أَوْ جَبْرٌ، أَوْ يَسَارٌ، عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي اسْمِهِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ يَكْلُمُونَهُمْ مَدَى أَعْيَارِهِمْ.. فَهَلْ حُكِيَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ مَا كَانَ يَجِيءُ بِهِ مُحَمَّدٌ - ﷺ -؟ وَهَلْ عُرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؟»

وَيَتَابَعُ الْقَاضِي عِيَاضُ دِفَاعَهُ قَائِلًا:

«وَمَا مَنَعَ الْعَدُوَّ حِينَئِذٍ عَلَى كَثْرَةِ عُدَدِهِ، وَدُؤُوبِ طَلْبِهِ، وَقُوَّةِ حَسَدِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى هَذَا فَيَأْخُذَ عَنْهُ أَيْضًا مَا يُعَارِضُ بِهِ، وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ، مَا يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى شَيْعَتِهِ،

كفعل النضر بن الحارث بما كان يُمَّخِرُ به من أخبار كتبه، ولا غاب النبي - ﷺ - عن قومه، ولا كُثِرَتْ اختلافاته إلى بلاد أهل الكتب، فيقال إنه استمد منهم، بل لم يزل بين أظهرهم يرعى في صغره وشبابه على عادة أنبيائهم، ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سَفَرَةٍ أو سَفَرَتَيْنِ لم يطل فيهما مُكُتُّهُ مدة يحتمل فيها تعليم القليل، فكيف الكثير؟

«بل كان في سفره في صُحبة قومه ورفاقه وعشيرته، لم يَغِبْ عنهم، ولا خالف حاله مدة مقامه بمكة من تعليم، واختلاف إلى حَبَرٍ أو قَسٍّ أو كاهن، بل لو كان هذا بعدُ كُلِّه، لكان مجيء ما أتى به في معجز القرآن قاطعا لكل عُذْر، ومُدْحَضًا لكل حجة، ومجليا لكل أمر.

٢٣

وعلى الرغم من أن القاضي عياض قد أشبع باب المعجزات تحليلا واستدلالا، وتفسيرا واستشهادًا، إلا أنه أبى أن يختتمه قبل أن يميز بين معجزات الرسول - صلى الله عليه وسلم، ومعجزات غيره من الأنبياء والرسل، خاصة معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

يقول القاضي عياض في هذه الخاتمة: ^(١) «ومعجزات نبينا - ﷺ - أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين: أحدهما: كثرتها، والثاني: وضوحها. ١ - أما كثرتها: فإنه لم يؤت نبي معجزة إلا وعند نبينا مثلها، أو ما هو أبلغ منها.

وقد نبه الناس على ذلك، فإن أردته فتأمل فصول هذا الباب، ومعجزات من تقدم من الأنبياء تقف على ذلك إن شاء الله.

● وأما كونها كثيرة، فهذا القرآن، وكله معجز، وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة الكوثر، أو آية في قدرها.

(١) الشفا ١/٣٦٩.

● «وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة، وزاد آخرون.. أن كل جملة منتظمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين».

● «ثم إعجازه كما تقدم بوجهين: طريق بلاغته، وطريق نظمته، فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان، فتضاعف العدد من هذا الوجه».

● «ثم فيه وجوه إعجاز أخرى، من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز، فتضاعف العدد ككرة أخرى.

● «ثم وجوه الإعجاز الأخرى - التي ذكرناها - توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العد معجزاته، ولا يحوى الحصر براهينه».

● «ثم الأحاديث الواردة، والأخبار الصادرة عنه ﷺ في هذه الأبواب، وعمًا دلَّ على أمره مما أشرنا إلى مجمله يبلغ نحواً من هذا.

● وينتقل القاضى عياض للحديث عن الوجه الآخر، فيقول:

٢ - أما وضوح معجزاته، ﷺ فإن معجزات الرسل كانت بقدر هم أهل زمانهم، وبحسب الفن الذى سبَّاه فيه قرنه.

«فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السحر، بُعث إليهم موسى بمعجزة تُشبه ما يدعون قدرتهم عليه، فجاءهم منها ما خرق عاداتهم، ولم يكن في قدرتهم، وأبطل سحرهم».

«وكذلك زمن عيسى أغنى ما كان الطبُّ وأوفر ما كان أهله، فجاءهم أمر لا يقدرُون عليه. وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميت، وإبراء الأكْمه والأبرص، دون معالجة ولا طب، وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

* ثم يتحول إلى الحديث عن معجزة الرسول ﷺ وهى القرآن، فيقول:

«إن الله بعث محمداً وجملة معارف العرب وعلومها أربعة: البلاغة والشعر والخبر والكهانة فأنزل الله عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة، فصول من الفصاحة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن غمط كلامهم، ومن النظم الغريب،

والأسلوب العجيب، الذى لم يبتدوا فى المنظوم إلى طريقه، ولا عَلِمُوا فى أساليب الأوزان منهجه، ومن الأخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبآت والضائير، فتوجد على ما كانت، ويعترف المخبر عنها بصحة ذلك وصدقه، وإن كان أعدى العَدُوِّ، فأبطل الكهانة، التى تصدق مرة، وتكذب عشرا، ثم اجتثها من أصلها برجم الشهب، ورصد النجوم».

«وجاء من الأخبار عن القرون السالفة، وأنباء الأنبياء والأمم البائدة، والحوادث الماضية ما يُعجز مَنْ تَفَرَّغَ لهذا العِلْمِ عن بعضه على الوجوه التى بسطناها، وبيننا المعجز فيها».

«ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه ثابتة إلى يوم القيامة، بينة الحجة لكل أمة تأتى، لا يخفى وجوه ذلك على من نظر فيه.

* ثم ينتقل إلى الحديث عن عنصر الخلود والبقاء للمعجزة القرآنية، وانقراض وفناء غيرها من المعجزات فيقول:

«وسائر معجزات الرسل انقضت بانقراضهم، وعُدمت بعدم ذواتها، ومعجزة نبينا ﷺ لا تبيد ولا تنقطع، وآياته تتجدد ولا تضمحل، ولهذا أشار النبی ﷺ بقوله الذى رواه أبو هريرة:

«ما مِنْ الأنبياءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الذى أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحاه الله إلى، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تابعا يومَ القيامة».

البَابُ الثَّانِي

حُقُوقُ الرَّسُولِ قَبْلَ الْمُسْلِمِينَ

الفصل الأول : وجوب الإيمان به ﷺ

الفصل الثاني : لزوم محبته

الفصل الثالث : وجوب تعظيمه وتوقيره وبرّه

الفصل الرابع : وجوب الصلاة عليه وزيارة قبره الشريف.

حُقوقُ الرُّسولِ قِبَلَ المُسْلِمِينَ

تمهيد:

أوضح القاضي عياض في الباب الأول من سيرة المصطفى ﷺ شخصية الرسول كما حددها القرآن، فتحدث عن مكانته عند ربه، وعناية الله به، ومؤهلاته للنبوة، بالإضافة إلى صفاته، من رجاحة العقل، والرحمة والعدل، والكرم والشجاعة، والعفو والحلم.. ليبين في النهاية أن كل مؤهلات ومواصفات النبوة قد توفرت في شخصه الكريم.

وفي هذا الباب، يتناول القاضي عياض بالتحديد «حقوق الرسول المصطفى - ﷺ قِبَلَ المُسْلِمِينَ» وهذه الحقوق تتجلى في وجوب الإيمان به، وتصديق دعوته، واتباع سنته، وطاعته ومحبته، ومناصحته وتوقيره وبرّه، والصلاة عليه والتسليم، وزيارة قبره الشريف. بعد أن استعرض ما جاء في الكتب السماوية السابقة، من التبشير به وبيعته، وشهادة علماء أهل الكتاب له بذلك، وشهادة الحق - سبحانه - وملائكته له، ثم تأييده - تعالى - له بالمعجزات المعنوية والحسية.

في هذا الباب الجديد، يُطبق القاضي عياض القاعدة الإيمانية العريضة، وفق منهج أهل الحق والسنة والجماعة، وهي الإيمان بالرسول ﷺ كجزء من الإيمان برسول الله جميعاً، لأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ختم الله به سائر النبوات، فهو النبي الخاتم، الذي أمرنا الله تعالى باتباعه، بقوله عز وجل:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

* وقد حدد القاضي عياض في هذا الباب حقوق الرسول قِبَلَ المُسْلِمِينَ فيما يلي:

- ١ - وجوب الإيمان به وتصديقه، ووجوب طاعته واتباع سنته ﷺ.
- ٢ - وجوب محبته وتوقيره ﷺ
- ٣ - وجوب تعظيم أمره ﷺ
- ٤ - وجوب الصلاة عليه والتسليم، وزيارة قبره الشريف.

الفصل الأول

وجوب الإيمان بالرسول المصطفى ﷺ

١

بعد أن أثبت الحق سبحانه نبوة النبي المصطفى ﷺ وصحة رسالته.. أوجب علينا الإيمان به، وتصديقه فيما أتى به، تحقيقاً وتنفيذاً لأمره سبحانه وتعالى:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

يقول القاضي عياض^(١): فالإيمان بالنبي محمد ﷺ، واجب متعين، لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه. قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وقال الرسول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه:

«أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ».

ويوضح القاضي عياض معنى الإيمان بالرسول، فيقول:

«والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته، ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به، وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان، بأنه رسول الله ﷺ. فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان، تم الإيمان به، والتصديق له. كما ورد في الحديث نفسه، من رواية عبد الله بن عمر رضى الله عنها:

(١) الشفا ٢/٢.

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ».

وقد زاده وضوحاً في حديث جبريل، إذ قال: أخبرني عن الإسلام؟ فقال النبي ﷺ:

«أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...» وذكر أركان الإسلام. ثم سأله عن الإيمان فقال: «أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ» الحديث.

يعلق القاضي عياض على ذلك فيقول: «فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العَقْدَ بِالْجَنَانِ أَى الْعَقْلِ، وَالْإِسْلَامَ بِهِ مُضْطَرٌ إِلَى النُّطْقِ بِاللِّسَانِ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ هِيَ الْمَحْمُودَةُ التَّامَةُ».

«وَأَمَّا الْحَالُ الْمَذْمُومَةُ، فَالشَّهَادَةُ بِاللِّسَانِ دُونَ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ، وَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ».

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

«أَيُّ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ عَنْ اعْتِقَادِهِمْ، وَتَصْدِيقِهِمْ، وَهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَهُ، فَلَمَّا لَمْ تُصَدِّقْ ذَلِكَ ضَمَائِرُهُمْ، لَمْ يَنْفَعِهِمْ أَنْ يَقُولُوا بِالسُّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَخَرَجُوا عَنْ اسْمِ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ حُكْمُهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ إِيمَانٌ، وَلَحِقُوا بِالْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ بِإِظْهَارِ شَهَادَةِ اللِّسَانِ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأُتَمَةِ وَحُكَامِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ أَحْكَامُهُمْ عَلَى الظُّوَاهِرِ، بِمَا أَظْهَرُوهُ مِنْ عِلَامَةِ الْإِسْلَامِ».

والذى يريد أن يقوله القاضي عياض، أن هؤلاء المنافقين مسلمون بالشهادة فقط، دون أن يكون إيمانهم بالرسول راسخاً في القلب، وهؤلاء موقفهم أمام الناس أنهم مسلمون بالظاهر، أما باطنهم فهم غير مسلمين. ذلك «بما أظهره من علامة الإسلام، إذ لم يجعل للبشر سبيلاً إلى السرائر،

ولا أَمَرُوا بالبحث عنها، بل نَهَى النَبِيُّ ﷺ عن التحكُّم عليها، وذم ذلك وقال: «هَلَّا شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟».

ويوضح القاضي عياض الفرق بين القول (باللسان) والعقد (بالقلب)، بأنه ما جُعِلَ في حديث جبريل: «الشهادة من الإسلام، والتصديق من الإيمان». إذا فالإيمان بالرسول المصطفى ﷺ يجب أن يكون بالشهادة اللسانية، والإيمان القلبي الذي لا يتزعزع، وهذا هو الإيمان الصادق الحقيقي، لمن يريد أن يكون إيمانه كاملاً.

ثم يتحدث القاضي عياض عن الحالتين اللتين يكون فيهما الإيمان غير كامل، فيقول:

«وبقيت حالتان أخريان بين هذين:

إحداهما: أن يُصَدَّقَ بقلبه ثم يُخْتَرَمَ قَبْلَ إتساع وقت للشهادة بلسانه فاختلف فيه:

- فشرط بعضهم من تمام الإيمان القول والشهادة به.
- ورآه بعضهم مؤمناً مستوجبا للجنة، لقوله ﷺ «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، فلم يذكر سوى ما في القلب، وهذا مؤمن بقلبه غير عاصٍ ولا مفرط بترك غيره.

ويؤيد ذلك القاضي عياض، فيقول: وهذا هو الصحيح في هذا الوجه.
أما الثانية: أن يُصَدَّقَ بقلبه وَيُطَوَّلَ مَهَلُهُ، وعلم ما يلزمه من الشهادة فلم ينطق بها جملة، ولا استشهد في عمره ولا مرة. فهذا اختلف فيه أيضاً:
- فقليل: هو مؤمن لأنه مصدق، والشهادة من جملة الأعمال، فهو عاص بتركها غير مخلد.

- وقيل: ليس بمؤمن حتى يُقَارَنَ عقده شهادة اللسان، إذ الشهادة إنشاء عَقْدٍ والتزام إيمان. وهي مرتبطة مع العقد، ولا يتم التصديق مع المهلة إلا بها. وهذا هو الصحيح.

ولا يريد القاضى عياض أن يتوسع فى هذه المسائل المتصلة بالإسلام والإيمان وأبوابها، لذلك نراه يتوقف عند هذا الحد قائلا: «وفى بسط هذا خروج عن غرض التأليف فى السيرة»^(١).

٢

وجوب طاعته:

وأما وجوب طاعته^(٢) - ﷺ - فهذه هى المرحلة الثانية..
 «فإذا وجب الإيمان به، وتصديقه فيما جاء به، وجبت طاعته، لأن ذلك مما أتى به. قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾
 وقال سبحانه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
 وقال عز وجل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾
 وقال عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾
 «فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ويوضح القاضى عياض معنى طاعة الرسول، فيقول:
 «طاعة الرسول فى التزام سُنَّتِهِ، والتسليم بما جاء به. قال المفسرون والأئمة: ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه، وقالوا: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فى سُنَّتِهِ، يُطِيعِ اللَّهَ فى فرائضه. وقال السمرقندى: فى (وأطيعوا الله والرسول): أطيعوا الله فى فرائضه والرسول فى سُنَّتِهِ.
 وقيل: أطيعوا الله فيما حرم عليكم، والرسول فيما بلغكم.
 وقيل: أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية، والنبي بالشهادة له بالنبوة.
 عن أبى هريرة - رضى الله عنه قال: «إن رسول الله - ﷺ - قال:

(٢) الشفا ٦/٢.

(١) الشفا ٥/٢.

«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني». فطاعة الرسول من طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له. وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»

* ويضع القاضي عياض أماناً صورة رائعة من الصور التي رسمها المصطفى - ﷺ - وصور بها من أطاعه ومن عصاه .. فيقول:

«وجاء في الصحيح عنه - ﷺ - «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعْنِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالْنَجَاءُ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»

٣

والإيمان بالرسول المصطفى - ﷺ - ووجوب طاعته، يقتضى حتماً وجوب اتباعه، وامتثال سنته، والافتداء بهديه، فقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾

قال القاضي عياض: «الأسوة في الرسول الإقتداء به، والاتباع لسنته، وترك مخالفته في قول أو فعل. أمرهم الله تعالى بمتابعة السنة، ووعدهم الاهتداء باتباعه، لأن الله تعالى أرسله بالهدى ودين الحق، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب

والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم، ووعدهم بحبته تعالى، ومغفرته إذا اتبعوه وآثروه على أهوائهم، وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له، ورضاهم بحكمه، وترك الاعتراض عليه»

روى عن الحسن، أن أقواما قالوا: يا رسول الله، إنا نُحِبُّ اللهَ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ الآية.

قال الزجاج: معناه، (إن كنتم تحبون الله) أن تقصدوا طاعته، فافعلوا ما أمركم به، إذ محبة العبد لله والرسول طاعته لها، ورضاه بما أمرا، ومحبة الله لهم عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته.

عن العرياض بن سارية، في حديثه في موعظة النبي - ﷺ - أنه قال: «فعلبكم بسُنَّتِي وَسُنَّةَ الْخُلَفَاءِ الرَّأِشِدِينَ الْمُهْدِيِينَ، عَصَوْا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِبَائِكُمْ وَمَحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٍ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»

وقال ﷺ: «مَنْ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»
وقال ﷺ: «إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يُدْخِلُ الْعَبْدَ الْجَنَّةَ بِالسُّنَّةِ تَمَسَّكَ بِهَا»
وقال ﷺ: «الْتِمَسْكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فُسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ»
وروى أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ»

٤

هذا وقد كان السلف الصالح والأئمة - رضوان الله عنهم أجمعين، يتمسكون بسُنَّتِهِ، ويقتدون بهديه وسيرته^(١).

ذكر القاضي عياض: «أن رجلا سأل عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن، ولا نجد

(١) الشفا ١٣/٢.

صلاة السفر، فقال ابن عمر - رضى الله عنها - يا ابن أخى، إن الله بعث إلينا محمداً - ﷺ - ولا نعلم شيئاً، وإنما نفعل كما رأينا، يفعل.

● وكتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن - أى اللغة - وقال: «إن ناساً يجادلونكم - يعنى بالقرآن، فخذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنة أعلم بكتاب الله» وفى خبره - حين صلى بذى الحليفة ركعتين، فقال: «أصنع كما رأيت رسول الله - ﷺ - يصنع».

● وعن على حين قرَنَ (بالحج والعمرة) فقال له عثمان: ترى أئى أنهى الناس عنه وتفعله؟ قال: لم أكن أدعُ سنة رسول الله ﷺ - لقول أحد من الناس.

● وعن على أيضاً، ألا إئى لست بنبى ولا يُوحى إئى ولكنى أعمل بكتاب الله، وسنة نبيه محمد - ﷺ - ما استطعت.

● وقال عمر بن عبد العزيز: سَنَّ رسول الله ﷺ، وولاة الأمر بعده سُنناً، الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر فى رأى من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتدٍ، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصله جهنم وساءت مصيراً.

وتوضيحا للأمر، ينقل القاضى عياض عن التستري قوله: «أصول مذهبنا ثلاثة: الإقتداء بالنبى - ﷺ - فى الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية فى جميع الأعمال.

وإذا كان السلف الصالح والأئمة يحرضون على التمسك بسنته - ﷺ - وهتدون بهديه ويقتدون بسيرته، فقد جاء فى القرآن والسنة - كما يقول القاضى عياض - أن مخالفة أمره، وتبديل سنته ضلال ويدعة^(١)، توعده الله مرتكبها

بالخذلان والعذاب. قال تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وقال عز شأنه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ الآية.

وروى أبو هريرة، أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى المقبرة، وذكر الحديث، في صفة أمته، وفيه: «فَلْيَذْأَنْ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأَنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ، أَلَا هَلُمَّ، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: فَسُحْقًا فَسُحْقًا فَسُحْقًا»

وروى ابن أبي رافع عن أبيه، عن النبي - ﷺ - قال: «لَا الْفَيْنَ أَحَدُكُمْ مَتَكَّنَا عَلَى أُرَيْكْتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِثْلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ».

الفصل الثاني

لزوم محبته ﷺ

١

الحق الثاني لرسول الله - ﷺ - لزوم محبته، هذا ما قرره تبارك وتعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة ٢٤]

قال القاضى عياض، بعد استدلاله على لزوم محبته^(١) - ﷺ - :
«فكفى بهذا حضا وتنبها ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها - ﷺ - إذ قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسقهم بتام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.
ويذكر القاضى عياض مجموعة من الأحاديث النبوية التى تدعو إلى محبته ﷺ، من مثل ما رواه أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»
* وعن أنس - عنه ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»

٢

وينقل لنا القاضى عياض فى فصل لاحق، ما ورد فى ثواب محبته ﷺ^(٢) - من أحاديث، تدل على حب الناس للرسول، وتعلقهم به، فى حياته وبعد مماته.

(٢) الشفا ١٩/٢.

(١) الشفا ١٨/٢.

● أتى رجل النبي - ﷺ، فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ فقال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت»

● وروى أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، لأنت أحب إلى من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ فدعا به، فقرأها عليه.

٣

وقد أورد القاضى عياض بعض ما احتفظت به المصادر من آثار وأخبار جرت على ألسنة السلف والأئمة، كلها تعبر عن محبتهم لرسول الله - ﷺ (١) - وتعلقهم به، وتأسيسهم بسيرته العطرة.

من ذلك، ما رواه أبو هريرة، قال: إن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ أَشَدَّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»

● وروت عبدة بنت خالد بن معدان، قالت: ما كان خالد يأوى إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله - ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، يُسَمِّيهِمْ ويقول: هُمْ أَصْلَى وَفَصْلَى، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضى إليك حتى يغلبه النوم.

● وروى ابن اسحاق، أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحُد مع رسول الله - ﷺ، فقالت ما فعل رسول الله؟ قالوا: خيراً هو بحمد الله كما تحبين، قالت أرنيه حتى أنظر إليه، فلما رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل.

● ولما احتضر بلال - رضى الله عنه - نادته امرأته: واحزنانه فقال:
واطرباه غدا ألقى الأحبة، محمداً وحزبه.

٤

* ومحبة المصطفى - ﷺ - لها علامات ودلالات، قررها ونص عليها
القاضي عياض بقوله: ^(١)

«اعلم أن من أحب شيئا أثره، وأثر موافقته، وإلا لم يكن صادقا في حبه،
وكان مدعيا، فالصادق في حب النبي - ﷺ - من تظهر علامة ذلك عليه..

● وأولها: الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتنال
أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بأدابه في عُسره ويسره، ومَنَشطه ومكرهه،
وشاهد هذا قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

● وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه، وموافقة شهوته، قال الله
تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ﴾ وإسقاط العباد من رضى الله تعالى.

قال أنس بن مالك: قال لى رسول الله - ﷺ :

«يا بنى إن قدرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ، ثم قال لى:
«يا بنى وذلك من سُنَّتِي، ومن أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْبَبَنِي، ومن أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِيَ فِي
الْجَنَّةِ»

* ويتابع القاضي عياض حديثه فى إبراز علامات المحبة للنبي المصطفى
ﷺ، فيقول: ^(٢)

«فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها»

● «ومن علامات محبة النبي - ﷺ - كثرة ذكره له، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره..

● ومنها: كثرة شوقه إلى لقائه، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه.

● ومنها: تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والإنكسار مع سماع اسمه.

● ومنها: محبته لمن أحب النبي - ﷺ - ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم، وبُغض من أبغضهم، فمن أحب شيئاً أحب من يُحب.

● ومنها: بُغض من أبغض الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته، وابتدع في دينه، واستثقاله كُلُّ أمرٍ يُخالف شريعته..

● ومنها: أن يحب القرآن الذي أتى به - ﷺ - وهَدَى به واهتدى، وتخلّق به، وحبه للقرآن تلاوته، والعمل به، وتفهمه.

● ومن علامات حبه للنبي - ﷺ - شفقتة على أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم، ورفع المضار عنهم. كما كان - ﷺ - بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً.

● ومن علامة تمام محبته زهد مدّعيها في الدنيا، وإيثاره الفقر، واتصافه به.

٥

* وهنا وجد القاضى عياض نفسه أمام سؤال هام يطرح نفسه.. ما معنى المحبة للنبي^(١)؟ وما حقيقتها؟ فنراه يعقد فصلاً يجيب فيه على هذا السؤال، ذاكراً كل ما أتت به كتب الأئمة، وتفسير المفسرين، وإن كان قد احتفظ لنفسه بأن يقول القول الفصل في هذا الموضوع.

يقول: «اختلف الناس في تفسير محبة الله، ومحبة النبي - ﷺ - وكثرت

عباراتهم في ذلك، وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال..

● فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول - ﷺ - كأنه التفت إلى قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾

● وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقاد نصرته، والدفاع عن سنته، والانقياد لها، وهيبة مخالفته.

● وقال بعضهم: المحبة دوام الذكر للمحبوب.

● وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الرب، يحب ما أحب ويكره ما كره.

وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له.

وبعد أن استعرض القاضى عياض الكثير من التعريفات لمعنى المحبة، يقول : «وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها.. وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه، كحب الصور الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأشباهاها مما كُلُّ طبع سليم مائلٌ إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معانى باطنة شريفة، كحب الصالحين والعلماء، وأهل المعروف، المأثور عنهم السَّير الجميلة، والأفعال الحسنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء، حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم، والتشيع من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان».

«أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له، وإنعامه عليه، فقد جُبلت النفوس على حب من أحسن إليها..»

ثم يقول: «فإذا تقرر لك هذا، نظرت هذه الأسباب كلها في حقه - ﷺ - فعلمت أنه جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

● «أما جمال الصورة والظاهر، وكمال الأخلاق والباطن، فقد قررنا منها ما لا يحتاج إلى زيادة.

● «وأما إحسانه وإنعامه على أمته، فكذلك قد مرّ منه في أوصاف الله تعالى له، من رأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، ويتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم»

وهنا يتساءل القاضى عياض، بعد أن أورد كل هذه الخصائص والخصال، فيقول:

- فأى إحسان أجل قدرًا وأعظم خطرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟
- وأى إفضال أعم منفعة، وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين؟

«إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيتهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم، والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم، والنعيم السرمد.. فقد استبان لك أنه - ﷺ - مستوجب للمحبة الحقيقية شرعاً، بما قدمنا من صحيح الأخبار، وعادة وجبلة - بما ذكرناه آنفاً، لإفاضته الإحسان، وعموم الإجمال، فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفًا، وإذا كان يحب بالطبع ملكًا لحسن سيرته، أو حاكمًا لما يؤثر من قوام طريقته، أو قاصً بعيد الدار لما يشاء من علمه أو كرم شيمته». فمن جميع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل»^(١)

٦

بعد ذلك يعقد القاضى عياض فصلاً للحديث عن دلائل محبة الرسول المصطفى ﷺ - وقد جعلها في وجوب مناصحته^(٢)، واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) الشفا ٣١/٢.

(٢) الشفا ٣١/٢.

قال أهل التفسير: (إِذَا نَصَّحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ): إِذَا كَانُوا مُخْلِصِينَ مُسْلِمِينَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى - ﷺ - «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ.. إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، قَالُوا لِمَنْ يَارَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَأُئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»

* قال القاضي عياض: «قال أئمتنا: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة..» ويوضح مفهوم النصيحة، وكيف تكون لله ولكتابه ولرسوله، فيقول:

«النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة نحصرها، ومعناها في اللغة الإخلاص، من قولهم: نصحت العسل إذا خلّصته من شمعته، والنصح فعل الشيء الذي فيه الصلاح والملاءمة»
● «فنصيحة الله تعالى: صحة الاعتقاد له بالوحدانية، ووصفه بما هو أهله، وتنزيهه عما لا يجوز عليه، والرغبة في محابه، والبعد عن مساخطه، والإخلاص في عبادته

● والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخضع عنده، والتعظيم له، وتفهمه، والتفقه فيه، والدفاع عنه من تأويل الغالين، وطعن الملحدين.

● والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به، ونهى عنه، ومؤازرته ونصرته، وحمايته حياً وميتاً، وإحياء سنته بالطلب، والدفاع عنها ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة.
ويضم القاضي عياض إلى قوله أقوال العلماء المحققين وتعاريفهم، فيقول:
وقال أبو إبراهيم اسحق التجيبي: «نصيحة رسول الله - ﷺ - التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله.

وقال أبو بكر الأجرى: النصح لرسوله - ﷺ - يقتضى نصحين: نُصحاً في

حياته، ونصحا بعد مماته. ففي حياته: نُصح أصحابه له بالنصر، والمحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه.

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته.. فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته، وانحرف عنها، والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك.

ويخلص القاضى عياض فى النهاية إلى نتيجة كان يعرفها مقدما، يضعها أمام قارئيه بعد تلك الجولات الواسعة فى فصل مناصحته، فيقول:

«فعلى ما ذكر تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة، وعلامة من علاماتها»

● وأما النصح لأئمة المسلمين، فطاعتهم فى الحق، ومعاونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه، وتنبيههم على ما غفلوا عنه.

● وأما النصح لعامة المسلمين: فأرشادهم إلى مصالحهم، ومعاونتهم فى أمر دينهم ودنياهم، بالقول والفعل، وتنبيه غافلهم وتبصير جاهلهم، ورشد محتاجهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم.

الفصل الثالث

وجوب تعظيم أمره.. وتوقيره وبره

والحق الثالث من حقوق الرسول - ﷺ - على المسلمين، حق التعظيم والتوقير والبر وهذا هو موضوع هذا الفصل من سيرة المصطفى - ﷺ، تناول فيه القاضي عياض كل ما يتصل بهذه الحقوق^(١).

وهو لم يبدأ بذكر حق الرسول على المسلمين مباشرة، بل بدأ بذكر تعظيم الحق لنبیه، وما أوجبه من توقيره وبره.

ثم انتقل إلى تعظيم صحابته له، وتوقيرهم وإجلالهم لشخصه الكريم. ثم تحدث عن حرمة - ﷺ - بعد موته، وأن توقيره وتعظيمه لازم كما كان في حياته، وأن تعظيمه يقتضى تعظيم سنته، ورواية حديثه.

كما أوضح القاضي عياض أن تعظيم الرسول - ﷺ - وتوقيره، يقتضى بر آله وذريته، وأمّهات المسلمين أزواجه، كما يقتضى توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم، والإقتداء بهم، وإعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهدته، وأمكنته من مكة والمدينة.

١

تعظيم الله لقدر نبیه:

صدر القاضي عياض بحثه بما جاء في تعظيم الله لنبیه، وتوقيره له - ﷺ - وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لَتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾

«فأوجب الحق سبحانه على الناس تعذيبه وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه، في

(١) الشفا ٢/٣٤.

حياته - ﷺ - وهو الذى يؤدى الأمانة، ويحمل الرسالة، وينصح للأمة، ويعبد الله بصدق العابدين.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾
فنهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام.

قال سهل بن عبد الله - فى تفسيرها - لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه، وأن يفتأوا بشيء من ذلك من قتال أو غيره، من أمر دينهم إلا بأمره، ولا يسبقوه به.

ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
أى اتقوا الله فى إهمال حقه، وتضييع حُرْمته، إنه سميعٌ لقولكم، عليمٌ بفعلكم.
ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته.

فقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الثلاث الآيات.

أى لا تسابقوه بالكلام، وتغلظوا له بالخطاب، ولا تتادوه باسمه نداء بعضهم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يجب أن يُنادى به: يا رسول الله، يا نبي الله.

* وذكر القاضى عياض مناسبة نزول هذه الآيات فقال:

«إن هذه الآية نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس، خطيب النبی - ﷺ، فى مفاخرة بنى تميم، وكان فى أذنيه صمم، فكان يرفع صوته، فلما نزلت هذه الآية، أقام فى منزله، وخشى أن يكون حَبَطَ عمله، ثم أتى النبی - ﷺ، فقال: يا نبي الله، لقد خشيتُ أن أكون هلكت، نهانا الله أن نجهر بالقول، وأنا أمرؤ جهير الصوت، فقال النبی - ﷺ -:

«يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ فقتل يومَ اليمامة»

وروى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية، قال: والله يا رسول الله.. لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار، وأن عمر كان إذا حدثه.. حدثه كأخي السرار، ما كان يُسمع رسول الله - ﷺ، بعد هذه الآية حتى يستفهمه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِتَقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٢

ولقد انعكس تعظيم الحق - سبحانه - لنبيه. على صحابة رسول الله، فكانوا يعظمونه ويقدرونه ويحجلونه^(١). روى القاضى عياض فى ذلك أخباراً كثيرة.

* من ذلك ما قاله عمرو بن العاص: «ما كان أحبَّ إلىَّ من رسول الله - ﷺ - ولا أجلُّ فى عينيَّ منه، وما كنتُ أطيقُ أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطق، لأنى لم أكن أملأ عينيَّ منه»

* وقال أنس بن مالك: «إن رسول الله - ﷺ - كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس، فيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحدٌ منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر، فإنها كانا ينظران إليه، وينظر إليهما ويتبسَّمان إليه، ويتبسَّم لهما».

* وروى أسامة بن شريك، قال: أتيت النبی ﷺ - وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير. وفى حديث صفته، «إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير».

وبصَّور لنا عروة بن مسعود الذى وجهته قريش عام القضية، إلى رسول الله - ﷺ - كيف كان صحابته يعظمونه، قال:

«أنه - ﷺ - كان لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه،

وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا وَلَا يَتَنَخَّمُ نَخَامَةً إِلَّا تَلَقَّوْهَا بِأَكْفِهِمْ فَدَلَّكُوا بِهَا وَجُوهَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ، وَلَا تَسْقُطُ مِنْهُ شَعْرَةٌ إِلَّا ابْتَدَرُوهَا، وَإِذَا أَمَرَهُمْ بِأَمْرٍ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَفُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ... فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَرِيشٍ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ، إِنِّي جِئْتُ كَيْسَرِي فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ، وَالنَّجَاشِي فِي مُلْكِهِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ»

٣

توقيره وتعظيمه بعد موته:

بعد أن ذكر القاضي عياض مدى تعظيم الله لرسوله، ومدى تعظيم صحابته له، واجلالهم لمكانته وشخصه، قال:

«واعلم أن حرمة النبي - ﷺ - بعد موته، وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته^(١)، وذلك عند ذكِّره - ﷺ -، وذكر حديثه، وستته، وسباع اسمه وسيرته، ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته، وصحابته».

«فواجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذُكر عنده، أن يخضع ويخشع، ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به».

وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح، وأنمتنا الماضين، رضى الله عنهم..

* ويضرب القاضي عياض لذلك مثلا، المناظرة التي قامت بين أبي جعفر أمير المؤمنين والإمام مالك، في مسجد رسول الله - ﷺ -.

فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أَدَبَ قوما فقال:

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية.

ومدح قوما، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية.
 وذم قوما، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات ٤]

وإن حرمته ميتا كحرمة حيا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله: أَسْتَقْبِلُ الْقَبْلَةَ وَأَدْعُو أُمَّ
 اسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللَّهِ؟ فقال: وَلَمْ تَصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُ، وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَيْيَكُم
 آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ بَلِ اسْتَقْبِلْهُ وَاسْتَغْفِرْ بِهِ، فَيَشْفَعَهُ اللَّهُ، قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ
 الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء ٦٤]

وقال: كان مالك إذا ذكر النبي - ﷺ - يتغير لونه، وينحني حتى يَضَعُ
 ذلك على جلسائه، فقل له يوما في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيْتُ لما أنكرتم
 عَلَيَّ ما ترون.. ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر، وكان سيد القراء - لا نكاد
 نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد،
 وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي - ﷺ. اصفر، وما رأيته يُحَدِّثُ
 عن رسول الله - ﷺ - إلا على طهارة.

ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مُصَلِّيًا، وإما
 صامتا، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيها لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين
 يخشون الله عز وجل»

ولما كثر على مالك الناس قيل له لو جعلت مُسْتَمَلِيًا يُسْمِعُهُمْ، فقال، قال الله
 تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ وحرمة حيا
 وميتا سواء.

* ومن تعظيم السلف للرسول - ﷺ - تعظيمهم لسنة المطهرة، وحديثه الشريف^(١).

* عن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى ابن مسعود سنة، فما سمعته يقول: قال رسول الله - ﷺ - إلاً أنه حَدَّثَ يوماً فجرى على لسانه (قال رسول الله - ﷺ) ثم علاه كَرْبٌ حتى رَأَيْتُ العرق يتحدَّر عن جبهته، وقد تفرَّغَتْ عيناه وانتفخت أوداجه.

* وقال مالك: جاء رجل إلى ابن المسيب، فسأله عن حديث، وهو مُضْطَجِع فجلس وحَدَّثه، فقال له الرجل: ودَدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَّعَنَّ، فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله - ﷺ - وأنا مضطجع.

* وقال مطرف: كان إذا أتى الناس مَالِكًا، خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله واغتسل، وتطيب، ولبس ثياباً جُوداً، وليس ساجَةً وتعمَّم، ووضع على رأسه رداءه، وتلقَى له منصَّة، فيخرج فيجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبيخ بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله - ﷺ. ولم يكن يجلس على تلك المنصَّة إلا إذا حَدَّثَ عن رسول الله ﷺ.

فَقِيلَ لِمَالِكٍ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَحَبُّ أَنْ أُعْظِمَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ. وَلَا أُحَدِّثَ بِهِ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ مَتَمَكَّنًا.

وكان يكره أن يُحَدِّثَ فِي الطَّرِيقِ، أو وهو قائم أو مُسْتَعَجِل، وقال: أَحَبُّ أَنْ أَفْهَمَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ.

ومن تعظيم الرسول وتوقيره وبره.. برّ آلِه وذُرّيته وأمهات المؤمنين أزواجه وآل بيته^(١). كما حض عليه - ﷺ - وسلكه السلف الصالح رضى الله عنهم.

* روى زيد بن الأرقم، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ: «أَنْشُدْكُمْ الله أهل بيتي - ثلاثا - قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل علي، وآل جعفر، وآل عَقِيل، وآل العباس».

وقال ﷺ: «معرفة آل محمد - ﷺ - براءة من النار، وَحُبُّ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب.

قال القاضي عياض: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي ﷺ - وإذا عرفهم بذلك عَرَفَ وجوب حقهم وحرمتهم بسببه.

وقد حَضَّ الحق سبحانه وتعالى المسلمين على برّ وتوقير آل بيت رسول الله - ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب ٣٣]

عن عمر بن أبي سلمة، لما نزلت هذه الآية، وذلك في بيت أم سلمة، دعا فاطمة وحَسَنًا وحُسَيْنًا فجَلَّلَهُمْ بكساء، وعلى خلف ظهره، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وقال ﷺ - لعنه العباس: «والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يُحِبُّكُمْ لله ورسوله. ومن آذى عَمِّي فقد آذاني، وَإِنَّمَا عم الرجل صِنُو أَبِيهِ» وقال للعباس أيضا: «أغد علىّ يا عمّ مع ولدك، فجمعهم وجلَّلَهُمْ بلاءته، وقال: هذا عَمِّي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من النار كَسْتَرَى إياهم» وقال الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة أمه، ثم قُرِّبَتْ له بغلته ليركبها،

فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا نفعل بالعلماء، فقَبِلَ زيدُ ابنَ عباس، وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وكان أبو بكر وعمر يزوران أم أيمن مولاة النبي ﷺ، ويقولان كان رسول الله - ﷺ - يزورها.

ولما وردت حليلة السعدية على النبي - ﷺ - بسط لها رداءه، وقضى حاجتها، فلما توفى وفدت على أبي بكر وعمر، فصنعا بها مثل ذلك.

٦

* قال القاضي عياض^(١): ومن توقيره وبره - ﷺ - توقير أصحابه وبرهم، ومعرفة حقهم، والإقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم. ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة، وضلال الشيعة، والمبتدعين القاذحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك، فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج، إذ هم أهل ذلك، ولا يُذكر أحد منهم بسوء، ولا يغمض عليه أمر، بل تُذكر حسناتهم، وفضائلهم، وحميد سيرهم، ويُسكت عما وراء ذلك

* كما قال - ﷺ - «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»

وقال - ﷺ - «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»

* وقال - ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»

* وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه».

إلا لعبيد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

* وروى أنس بن مالك: «أن النبي ﷺ - قال: «مَنْ صَلَّى عَلَى صَلَاةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَكُتِبَ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ».

* وروى عبد الرحمن بن عوف: قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيتُ جَبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُبَشِّرُكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمَتْ عَلَيْهِ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ».

* وروى ابن مسعود، أن النبي ﷺ - قال: «أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَى صَلَاةٍ».

* وروى أبي بن كعب: كان رسول الله ﷺ - إذا ذَهَبَ رُبْعُ اللَّيْلِ، قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ» فقال أبي بن كعب: يا رسول الله: إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ» قَالَ: الرُّبْعُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ» قَالَ: الثَّلَاثُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ» قَالَ: النِّصْفُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ» قَالَ: الثَّلَاثِينَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ» قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ فَأَجْعَلْ صَلَاتِي كُلَّهَا لَكَ، قَالَ: «إِذَا تَكْفَى وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ».

٦

ويرى القاضي عياض، استناداً إلى ما جاء عن رسول الله، أن مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ - مذموم آثم^(١) وأدلته على ذلك كثيرة، منها:

* ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ

٧

وفي ختام هذا الفصل، عقد القاضى عياض فصلاً خصصه للحديث عن إعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهدته وأمكنته^(١)، قال فيه:

«ومن إعظامه وإكباره - ﷺ - إعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهدته، وأمكنته من مكة والمدينة، ومعاهده، وما لمسه - ﷺ - أو عُرف به».

* ويذكر القاضى عياض مجموعة من الآثار والمرويات، التى تؤيد وجهة نظره..

من ذلك، ما روى عن خالد بن الوليد، أنه كانت فى قلنسوته شَعْرَات من شَعْر رسول الله - ﷺ، فسقطت قلنسوته فى بعض حروبه، فشَدَّ عليها شدة أنكر عليه أصحاب النبى كثره من قُتِلَ فيها، فقال: لم أفعلها بسبب القلنسوة، بل لما تضمنته من شَعْرِهِ - ﷺ. لئلاَّ أَسْلَبَ بركتها، وتقع فى أيدي المشركين.

* ورؤى ابن عمر - رضى الله عنها - واضعاً يده على مقعد النبى - ﷺ - من المنبر، ثم وضعها على وجهه.

* وكان مالك - رحمه الله - لا يركب بالمدينة دابة، ويقول: أستحيى من الله أن أظأ تربة فيها رسول الله، ﷺ، بحافر دابة.

* وحكى عن أحمد بن فضلويه الزاهد، وكان من الغزاة الرماة، أنه قال: ما مَسَّسْتُ القوس بيدي إلا على طهارة منذ بلغنى أن النبى - ﷺ - أخذ القوس بيده.

وقد أفقى مالك - فيمن قال: تربة المدينة رَدِيَّة، يُضْرَب ثلاثين دِرَّةً، وأمر بحبسه وكان له قَدْرٌ، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عُنْقِهِ، تربة دُفِنَ فيها النبى - ﷺ - يزعم أنها غير طَيِّبَةٍ.

قال القاضي عياض خاتماً مروياته:

«وجديرٌ لمواطنٍ عُمِرَتْ بالوحي والتنزيل، وتردَّد بها جبريل ومكائيل، وعرجتُ منها الملائكة والروح، وضجَّت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله، وسُنة رسوله ما انتشر، مدارسُ آياتٍ ومساجد، وصلوات ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عبابها، ومواطن طويت فيها الرسالة، وأول أرضٍ مسَّ جلد المصطفى تُرأبها، أن تُعظَّم عرصاتها، وتتنسَّم نفحاتها، وتُقبل ربوعها وجدراؤها»^(١).

الفصل الرابع وُجوب الصَّلَاة عليه، وزيارة قبره الشريف

١

ذكر القاضي عياض، فيما سبق من هذا الباب، الذى خصه لتعيين وتحديد حقوق النبي المصطفى - ﷺ - قبل المسلمين: وجوب الإيمان به، ولزوم محبته، ووجوب إعظامه وتقديره وبره. وكان لا بد أن يتحدث عن العنصر الهام المكمل لكل ما سبق، وهو وجوب الصلاة والتسليم عليه. وزيارة قبره الشريف^(١). وقد صدر هذا الفصل الفقهى الهام بذكر حُكْم الصلاة عليه، استناداً لقول الحق سبحانه، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب ٥٦].

حيث يخبر المولى جل وعلا بما ناله الرسول الكريم - ﷺ - من جاه عظيم، ومنزلة سامية، ومكانة رفيعة عند الله تعالى، وماله من السيادة والمقام المحمود فى الملأ الأعلى، وما خصه الله تعالى به من الثناء العاطر، والذكر الحسن، فيقول الله تعالى - فى الآية الكريمة - ما معناه:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْحَمُ نَبِيَّهِ، وَيَعْظُمُ شَأْنَهُ، وَيَرْفَعُ مَقَامَهُ، وَمَلَائِكَتُهُ الْأَبْرَارُ، وَجُنْدُهُ الْأَطْهَارُ، يَدْعُونَ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَيَطْلُبُونَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُبَارِكَ وَيُمَجِّدَ عَبْدَهُ وَنَبِيَّهَ مُحَمَّدًا - ﷺ - وَتُنِيلَهُ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَيُجْزِلَ لَهُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ، عَلَى مَا قَدِمَ لِأَمَّتِهِ مِنْ خَيْرٍ عَمِيمٍ، وَفَضْلٍ جَسِيمٍ، فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ صَلُّوا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ، وَاتَّبِعُوا شَرْعَهُ، وَأَكْثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ، فَحَقَّهُ عَلَيْكُمْ عَظِيمٌ، وَمَهْمَا فَعَلْتُمْ فَلَنْ تَوَدُّهُ حَقَّهُ، فَقَدْ كَانَ الْمُنْقَذَ لَكُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهَدْيِ، وَبِهِ أَخْرَجَكُمْ اللَّهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

(١) الشفا ٦٠/٢.

وقد ورد ذكر الثناء على الرسول - ﷺ - بهذه الصيغة، فجاء الخبر مؤكداً بـ (إن) إهتماماً به، وجيء بالجملة اسمية، لإفادة الدوام وكانت الجملة اسمية في صدرها (إن الله) فعلية في عجزها (يصلُّون) للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى، والتمجيد الدائم يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام، وهذا من الأسرار الدقيقة.

فإن قيل: إذا صلى الله وملائكته على النبي، فأى حاجة إلى صلاتنا عليه؟

قلنا: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه. وإنما هو لإظهار تعظيمه - ﷺ - لئيبنا الله تعالى عليه، ولهذا قال النبي المصطفى - ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَىَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا».

ويذكر القاضى عياض أقوال الراسخين في العلم، حول هذا الموضوع، فيقول:

قال ابن عباس: إن الله وملائكته يباركون على النبي، وقيل: إن الله يترحم على النبي، وملائكته يدعون له، وأصل الصلاة الترحم، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله.

وقال القشيري: الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي رحمة، وللنبي - ﷺ - تشريف وزيادة تكريمة.

وقال بعض العلماء: معنى قولنا «اللهم صل على محمد» أى عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وإعطائه المقام المحمود.

روى أن صحابة رسول الله سألوه: يا رسول الله كيف نُصَلِّي عليك؟ فقال: «قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

* وهنا يتصدى القاضى عياض لتجلية الأمر وتحديدده فيقول:

«إن النبي ﷺ - قد فرّق في حديث تعليم الصلاة عليه، بين لفظ الصلاة، ولفظ البركة، فدل أنها بمعنيين: أما التسليم الذى أمر الله تعالى به عباده، أن

يَسْلَمُوا عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - عِنْدَ حُضُورِهِمْ قَبْرَهُ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ، وَفِي مَعْنَى السَّلَامِ عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ وَجْهٌ:

أحدهما: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدرًا كَاللَّذَاذِ وَاللَّذَاذَةِ.
الثاني: أى السلام على حفظك ورعايتك مُتَوَلٍّ لَهُ، وكفيل به، ويكون هنا السلام اسم الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المسألة له، والانقياد، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

٢

هل الصلاة على النبي - ﷺ - على سبيل الندب أو الفرض؟
عقد القاضى عياض فصلا جديدا للإجابة على هذا السؤال، قال فيه: (١).
«اعلم أن الصلاة على النبي - ﷺ - قَرَضٌ عَلَى الْجُمْلَةِ، غَيْرُ مُحَدَّدٍ بِوَقْتٍ، لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَحَمْلِ الْأَثْمَةِ وَالْعِلْمَاءِ لَهُ عَلَى الْوُجُوبِ، وَأَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

وينقل القاضى عياض عن الفقهاء والعلماء آراءهم، فيقول:
* وحكى أبو جعفر الطبري: أن مجمل الآية عنده على الندب، وأدعى فيه الإجماع، ولعله فيما زاد على مرة. والواجب منه الذى يسقط به الحرج، ومأثم ترك الفرض مرة كالشهادة له بالنبوة، وما عدا ذلك فمندوب مرغّب فيه، من سُنَنِ الْإِسْلَامِ وشعار أهله.

* قال القاضى أبو الحسن بن القُصَّال: المشهور عند أصحابنا أن ذلك واجب فى الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتى بها مرة من دهره مع القدرة على ذلك.

* وقال القاضى أبو بكر بن بُكَيْر: افترض الله على خلقه أن يُصَلُّوا على نبيه، وُسِّلُوا تَسْلِيًا، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم، فالواجب أن يكثر المراء منها، ولا يغفل عنها.

قال القاضى أبو محمد بن نصر: الصلاة على النبى - ﷺ - واجبة فى الجملة.

* قال القاضى أبو عبد الله محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه، وغيرهم من أهل العلم، أن الصلاة على النبى - ﷺ، فَرَضَ بالجملة، بعقد الإيمان، لا يتعين فى الصلاة، وأن من صلى عليه مرة واحدة من عمره، سقط الفرض عنه.

* وقال أصحاب الشافعى: الفرض منها الذى أمر الله تعالى به ورسوله - ﷺ - هو فى الصلاة وقالوا وأما فى غيرها فى خلاف أنها غير واجبة.

وأما فى الصلاة، فحكى الإمامان الطبرى والطحاوى وغيرهما، إجماع جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبى فى التشهد غير واجبة.

وشذ الشافعى فى ذلك فقال: مَنْ لم يصل على النبى - ﷺ - من بعد التشهد الآخر قبل السلام. فصلاته فاسدة. وإن صلى عليه قبل ذلك لم تُجْزِهِ.

ولا سلف له فى هذا القول ولا سُنَّة يتبعها.

وقد بالغ - فى إنكار هذه المسألة عليه لمخالفته فيها من تقدمه - جماعة، وشنعوا عليه الخلاف فيها، منهم الطبرى والقشيرى وغير واحد.

* وقال أبو بكر بن المنذر: يستحب أن لا يُصَلَّى أحدُ صلاة إلا صلى فيها على رسول الله - ﷺ - فإن ترك ذلك تارك، فصلاته تُجْزِئُه فى مذهب مالك، وأهل المدينة، وأهل الكوفة من أصحاب الرأى. وهو قول جملة أهل العلم.

* وحكى أبو محمد بن أبى زيد عن محمد بن المَوَاز: أن الصلاة على النبى - ﷺ - فريضة. ليست من فرائض الصلاة، ولكنها فريضة فى الصلاة.

* وحكى أبو يعلى العبدى المالكى، عن المذهب فيها ثلاثة أقوال: الوجوب، والسنة، والندب^(١).

وقد خالف الخطابي - من أصحاب الشافعى وغيره - الشافعى فى هذه المسألة. قال الخطابي: وليست بواجبة فى الصلاة.

يقول القاضى عياض: ولا أعلم له فيها قدوة. والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة، عمل السلف الصالح - قبل الشافعى - وإجماعهم عليه.

وقد شنع الناس عليه هذه المسألة جدا، وهذا تشهد ابن مسعود الذى اختاره الشافعى، وهو الذى علمه له النبى - ﷺ - ليس فيه الصلاة على النبى - ﷺ. وكذلك كل من روى التشهد عن النبى - ﷺ، كأبى هريرة، وابن عباس، وجابر، وابن عمر، وأبى سعيد الخدرى.. لم يذكروا فيه صلاة على النبى ﷺ.

وقد قال ابن عباس وجابر: كان النبى ﷺ - يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن

* وفى الحديث: «لا صلاة لمن لم يُصلِّ على» قال ابن القصار - معناه كاملة، أو لمن لم يُصلِّ على مرة فى عمره. وضُفَّ أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث.

* وخلاصة ما أراد أن يقوله القاضى عياض فى هذا البحث الفقهى حول الصلاة على النبى:

«أن الله سبحانه أمر المؤمنين بالصلاة على نبيه الكريم، وهذا الأمر للوجوب، فتكون الصلاة على النبى - ﷺ. واجبة».

ويكاد العلماء يجمعون على وجوب الصلاة والتسليم عليه مرة فى العمر، بل لقد حكى القرطبى الإجماع على ذلك عملا بما يقتضيه الأمر (صلوا) من الوجوب، وتكون الصلاة والسلام فى ذلك كالتلفظ بكلمة التوحيد، حيث لا يصح إسلام الإنسان إلا بالنطق بها.

وقد اختلف العلماء في حكم الصلاة على النبي، هل تجب في كل مجلس، وكلما ذكر اسمه الشريف - ﷺ - أم هي مندوبة؟ وذلك بعد اتفاقهم على أنها واجبة في العمر مرة.

(أ) فقال بعضهم: إنها واجبة كلما ذكر اسم النبي - ﷺ.

(ب) وقال آخرون: تجب في المجلس مرة واحدة، ولو تكرر ذكره - عليه الصلاة والسلام - في ذلك المجلس مرات.

(ج) وقال آخرون: يجب الإكثار منها، من غير تقيد بعدد أو مجلس، ولا يكفي أن يكون في العمر مرة.

وحجة القائلين بالوجوب في المجلس، أو كلما ذكر اسم الرسول - ﷺ - أن الله عز وجل أمر بها، والأمر يفيد التكرار ثم ما ورد من الوعيد الشديد لمن لم يصل على رسول الله - ﷺ، كقوله: «البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل على»^(١).

وقوله ﷺ: «ما من قوم يجلسون في مجلس ثم يقومون منه لا يذكرون الله، ولا يصلون على نبيه إلا كان ترة عليهم» أى حسرة وندامة يوم القيامة. فهذه تفيد الوجوب عندهم.

وذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة على النبي - ﷺ - قربة وعبادة، كالذكر والتسبيح والتحميد، وأنها واجبة في العمر مرة. ومندوبة ومسنونة في كل وقت وحين، وأنه ينبغي الإكثار منها لما صح عنه - ﷺ - أنه قال: «مَنْ صَلَّى عَلَى صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(٢) وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الشهيرة في فضل الصلاة على النبي - ﷺ فهي مطلوبة، ولكن لا على سبيل الوجوب، بل على سبيل الندب والاستحباب.

(١) رواه الترمذی.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم.

* أما عن مناقشة القاضى عياض حول هل تجب الصلاة على النبى في الصلاة المفروضة؟ فنقول: اختلف الفقهاء في حكم الصلاة على النبى - ﷺ - في الصلاة على مذهبين:

- (أ) مذهب الشافعى وأحمد، أنها واجبة في الصلاة ولا تصح الصلاة بدونها.
(ب) مذهب مالك وأبى حنيفة، أنها سنة مؤكدة في الصلاة، وتصح الصلاة بدونها مع الكراهة والإساءة.

* وقد استدل الشافعية والحنابلة على أن الصلاة على النبى واجبة في الصلاة بأدلة نوجزها فيما يلى:

١ - الأمر الوارد في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ والأمر يقتضى الوجوب، ولا وجوب في غير التشهد، فتكون الصلاة على النبى واجبة في الصلاة.

٢ - حديث كعب بن عجرة: «قلنا يارسول الله قد عرفنا التسليم عليك، فكيف نصلى عليك؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...» الحديث.

قال ابن كثير: «ذهب الشافعى - رحمه الله - إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله - ﷺ - في التشهد الأخير، فإن تركه لم يصح صلاته، وهو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، وهو مذهب الإمام أحمد، وإليه ذهب ابن مسعود وجابر بن عبد الله^(١).

* واستدل المالكية والأحناف على مذهبهم ببضعة أدلة نوجزها فيما يلى:

١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ قالوا: قد تضمنت هذه الآية الأمر بالصلاة على النبى - ﷺ - وظاهره يقتضى الوجوب، فمتى فعلها الإنسان مرة واحدة في صلاة - أو في غير صلاة فقد أدى فرضه، وهو مثل كلمة

(١) تفسير ابن كثير الجزء الثالث باختصار.

التوحيد والتصديق بالنبى - ﷺ - متى فعله الإنسان مرة واحدة في عمره، فقد أدى فرضه، والأمر يقتضى الوجوب لا التكرار.

٢ - حديث ابن مسعود، حين علمه - ﷺ - التشهد، فقال: إذا فعلت هذا أو قلت هذا فقد تمت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقم، ثم اختر من أطيب الكلام ما شئت^(١).

٣ - حديث معاوية السلمى، وفيه: أن النبى - ﷺ - قال: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هى التسبيح، والتهليل وقراءة القرآن، ولم يذكر الصلاة على النبى - ﷺ».

٣

بعد إذ انتهى القاضى عياض من الحديث عن حكم الصلاة على النبى، وعرض آراء العلماء ومناقشتها. انتقل إلى الحديث عن المواطن التى يستحب فيها الصلاة على رسول الله - ﷺ^(٢).

قال:

«وَيُرْغَبُ مِنْ ذَلِكَ فِي تَشَهُدِ الصَّلَاةِ - كما قدمنا - وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء. لقول ابن مسعود: «فإنكم إذا قَلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

* ويستشهد القاضى عياض على ذلك بما رواه الصحابة والتابعون وأهل العلم من الأئمة.. من مثل قول فضالة بن عبيد: «سمع النبى ﷺ رجلاً يدعو فى صلاته، فلم يُصَلِّ على النبى - ﷺ، فقال النبى: «عَجَلْ هَذَا» ثم دعاه فقال له ولغيره: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ».

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه، قال: الدعاء والصلاة معلق بين

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.

(٢) الشفا ٢/٦٤.

السماء والأرض، فلا يصعد إلى الله منه شيء، حتى يُصَلِّيَ على النبي - ﷺ.

* وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه حضور القلب والرقّة، والاستكانة والخشوع، وتعلّق القلب بالله، وقطعه من الأسباب، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد - ﷺ.

* وفي الحديث: «كل دعاءٍ محبوبٍ دون السماء فإذا جاءت الصلاةُ علىَّ، صعد الدعاء».

* ويحدد القاضي عياض المواطن التي يستحب فيها الصلاة على النبي - ﷺ، فيقول:

«ومن مواطن الصلاة والسلام دخول المسجد، فينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي على النبي - ﷺ - وعلى آله، ويترحم عليه، ويبارك عليه، وعلى آله، ويسلم تسلياً. ويقول: اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فعل مثل ذلك، وجعل موضع رحمتك: فضلك».

«ومن مواطن الصلاة عليه أيضاً: الصلاة على الجنائز، وذكر عن أبي أمامة أنها من السنة. ومن مواطن الصلاة على النبي وآله في الرسائل، وما يكتب بعد البسملة، ولم يكن هذا في الصدر الأول، وأحدث عند ولاية بني هاشم، فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض، ومنهم من يختم به أيضاً الكتب، وقال ﷺ «من صلّى علىّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب».

٤

وعن كيفية الصلاة على النبي - ﷺ^(١)، يروي القاضي عياض، عن صحابة رسول الله أخباراً كثيرة تتضمن كيفية هذه الصلاة.

(١) الشفا ٢/٧٠ - ٧٤.

* منها: ما رواه مالك عن ابن مسعود: أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نُصلي عليك؟

قال: «قولوا اللهم صل على محمد، وعلى آله كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين، إنك حميدٌ مجيد، والسلام كما قد عَلَّمْتُمْ».

* وفي رواية كعب بن عُجرة «اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد».

* وفي رواية أبي سعيد الخدري: «اللهم صل على محمدٍ عبدك ورسولك»..

* قال علي بن أبي طالب: كرم الله وجهه. «عَدَّهْنِ في يدي رسول الله - ﷺ، وقال: «عَدَّهْنِ في يدي جبريل، وقال هكذا نزلت من عند رب العزة: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ تَرَحَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا تَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ وَتَحَنَّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا تَحَنَّنْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا سَلَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.»

وعن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ - قال: «من سرَّه أن يكتال بالملكِال الأوْفى إذا صَلَّى علينا أهل البيت، فليقل: اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد».

هذا وقد تفنن الصحابة والتابعون والسلف الصالح في الصلاة على النبي - ﷺ - وذكر كل منهم فيض عواطفه، وأشواق نفسه في هذه الصلاة،

وذكر القاضى عياض عنهم فى ذلك أقوالا كثيرة^(١) من ذلك ما رواه سلامة الكندى قال:

«كان على يعلمنا الصلاة على النبى - ﷺ - «لبيك اللهم ربى وسعديك، صلوات الله البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنبين والصدّيقين، والشهداء والصالحين، وما سبّح لك من شىء يارب العالمين، على محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الشاهد البشير الدّاعى إليك بإذتك، السراج المنير، وعليه السلام».

* ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

٥

وإثراء للموضوع، عقد القاضى عياض فصلا فى فضيلة الصلاة على النبى والتسليم عليه والدعاء له^(٢) ذكر فيه كثيرا من أحاديث رسول الله - ﷺ - التى رواها صحابته، والتى توضح ما ينتظر المصلّى على النبى، من الشفاعة والبركة وجزيل الثواب.

* من ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ مرة واحدة، صلى الله عليه عشرا، ثم سلّوا لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبى

(١) الشفا ٧٠/٢ - ٧٤.

(٢) الشفا ٧٤/٢.

إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت .
الشفاعة».

* وروى أنس بن مالك: «أن النبي ﷺ - قال: «مَنْ صَلَّى عَلَىَّ صَلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجـ وكتب له عشر حسنات».

* وروى عبد الرحمن بن عوف: قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت جبر فقال: إني أُبشرك أن الله تعالى يقول: من سلّم عليك سلّمت عليه، ومن عليك سلّيت عليه».

* وروى ابن مسعود، أن النبي - ﷺ - قال: «أولى الناس بي القيامة أكثرهم على صلاة».

* وروى أبي بن كعب: كان رسول الله - ﷺ - إذا ذهب رُبْع الليل، فقال: «يا أيها الناس، أذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت فيه» فقال أبي بن كعب: يا رسول الله: إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل من صلاتي؟ قال: «ما شئت» قال: الرُبْع؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خـ قال: الثلث؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال: النصف؟ قا «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال: الثلثين؟ قال: «ما شئت وإن زدت خير» قال: يا رسول الله فأجعل صلاتي كلها لك، قال: «إذا تُكفى وينا ذنبك».

٦

ويرى القاضى عياض، استناداً إلى ما جاء عن رسول الله، أن مَنْ لم يُص على النبي - ﷺ - مذموم آثم^(١) وأدلته على ذلك كثيرة، منها:
* ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِر

عنده فلم يصل على، ورغم أنف رجل دخل رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه أو أحدهما الكبر فلم يدخله الجنة».

* وفي حديث آخر: أن النبي - ﷺ - صعد المنبر فقال: آمين، ثم صعد فقال: آمين ثم صعد فقال آمين، فسأله معاذ عن ذلك فقال: «إن جبريل أتاني فقال: يا محمد... مَنْ سُمِّيتَ بين يديه فلم يصل عليك فمات فدخل النار، فأبعده الله قل آمين، فقلت آمين، وقال: فمن أدرك رمضان فلم يقبل منه فمات مثل ذلك، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات مثله».

* وقال ﷺ - فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه «أيما قوم جلسوا مجلساً ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على النبي، كانت عليهم من الله ترة، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم».

٧

ومن فضل الله تعالى على النبي المصطفى - ﷺ - أنه خصه دون سائر الأنبياء بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام^(١).

ذكر القاضي عياض، بإسناد طويل إلى أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما من أحدٍ يُسلمُ على إلا ردَّ الله على رُوحى حتى أُرَدَّ عليه السلام».

* وعن ابن مسعود - رضى الله عنه: قال رسول الله - ﷺ:

«إنَّ لله ملائكةً سياحين في الأرض يُبلِّغوننى عن أمتي السَّلام».

* وعن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّى عَلَى عِنْدَ قَبْرِى سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلَّى عَلَى نَائِيَا بُلِّغْتُهُ»

«وعن ابن عمر، قال: أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة، فإنه يؤتى به منكم في كل جمعة».

وفي رواية: فإن أحدا لا يُصلي على إلا عُرِضَتْ صَلَاتُهُ على حين يفرغ منها». * وعن الحسن، عنه عليه السلام: «حيثما كنتم فصلُّوا على فإن صَلَاتُكُمْ تَبْلُغُنِي». * وعن ابن شهاب: بلغنا أن رسول الله - عليه السلام - قال: «أكثرُوا من الصَّلَاةِ على في الليلة الزهراء، واليوم الأزهري، فإنها يُؤدِّيَانِ عنكم، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وما من مُسْلِمٍ يُصَلِّي على إلا حَمَلَهَا مَلَكٌ حتى يُؤدِّيَهَا إِيَّيَّ وَيسمِّيهِ حتى إنه ليقول: إن فلانا يقول كذا وكذا».

٨

وبعد أن انتهى القاضي عياض من الحديث عن وجوب الصلاة على النبي عليه السلام، وفضلها، وما يتصل بذلك من أمور، وجد الفرصة مواتية لإثارة قضية، مؤداها.

هل تجوز الصلاة على غير النبي - عليه السلام - وسائر الأنبياء عليهم السلام^(١). قال القاضي عياض: «عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي - عليه السلام».

وهم يستندون في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ الآية.

وقوله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

وقول النبي - عليه السلام - «اللهم صل على آل أبي أوفى، وكان إذا أتاه قوم بصدقته، قال: اللهم صل على آل فلان».

وفي حديث الصلاة: «اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته وفي آخر:

وعلى آل محمد، قيل : أتباعه، وقيل : أمته، وقيل : آل بيته، وقيل : الأتباع والرهط والعشيرة.

بيد أن كثيرا من الصحابة، منهم ابن عباس، لا يجوزون الصلاة على غير النبي ﷺ.

وروى عنه.. أنه لا تجوز الصلاة على غير النبي - ﷺ.

قال القاضي عياض: ووجدت بخط بعض شيوخى، مذهب مالك، أنه لا يجوز أن يُصلى على أحد من الأنبياء سوى محمد - ﷺ.

وقال مالك - فى الميسوط - ليحيى بن اسحاق: أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به. قال يحيى بن يحيى: لست آخذ بقوله، ولا بأس بالصلاة على الأنبياء كلهم، وعلى غيرهم، واحتج بحديث ابن عمر وما جاء فى حديث تعليم النبي - ﷺ - الصلاة عليه وفيه وعلى أزواجه وعلى آله.

وبعد مناقشات طويلة، واستعراض لآراء وأقوال الصحابة وأئمة أهل العلم، يذكر القاضي عياض رأيه فى هذا الموضوع فيقول:

والذى ذهب إليه المحققون - وأميلُ إليه - ما قاله مالك وسفيان - رحمهما الله - وروى عن ابن عباس، واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين.. أنه لا يصلى على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيء يختص به الأنبياء توقيرا وتعزيرا، كما يخص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم، ولا يشاركه فيه غيره. كذلك يجب تخصيص النبي - ﷺ - وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم، ولا يشارك فيه سواهم كما أمر الله به بقوله (صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). ويذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرضى، كما قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

أيضا، فهو أمر لم يكن معروفا فى الصدر الأول، كما قال عمران - وإنما أحدثه الرافضة والمتشيعه فى بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذكر لهم، بالصلاة،

وساووهم بالنبي - ﷺ - في ذلك وأيضاً، فإن التشبه بأهل البدع منهي عنه، فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك، وذكر الصلاة على الآل، والأزواج مع النبي - ﷺ - بحكم التبعية والإضافة إليه، لا على التخصيص. قالوا: وصلاة النبي - ﷺ - على مَنْ صَلَّى مجراها مجرى الدعاء والمواجهة، ليس فيها معنى التعظيم والتوقير، وقد قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مخالفاً لدعاء الناس بعضهم لبعض.

٩

حكم زيارة قبره ﷺ:

يقر القاضي عياض في بحثه الذي عنوانه: حكم زيارة قبره الشريف - ﷺ - أن من أبرز فضائل المدينة المنورة. أنها تحوى المسجد النبوى الشريف، الذى يضم قبر النبى - ﷺ - وقبر خليفته أبى بكر وعمر، رضى الله عنها.

* فأما عن المسجد النبوى الشريف، فقد قال ﷺ - في فضله:

«لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ، الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ هَذَا
وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»
وقال ﷺ:

«صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيْمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ».
وقال ﷺ:

«مَنْ صَلَّى فِي مَسْجِدِي أَرْبَعِينَ صَلَاةً لَا تَفُوتُهُ صَلَاةٌ، كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ
وَنَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

* وأما عن قبره الشريف، ﷺ، فلا ريب أن زيارته من أعظم القرب وأجلها شأنًا، فإن بقعة ضُمَّتْ خَيْرَ الرُّسُلِ، وأكرمهم عند الله لها شأن خاص،

ومزية يعجز القلم عن وصفها، إن الذي يزور قبر النبي المصطفى - ﷺ، لابد أن يتذكر عظمة هذا الرسول، وسجله الحافل الزاخر بالأحداث الجليلة، ما أعظم هذه الذكريات التي تطوف بخاطر المسلم، وهو في الأراضى المقدسة فيدفعه الشوق إلى زيارة نبي الله ورسوله، في مدينته المنورة، هذه الزيارة التي تحرك مشاعر المسلمين، وتذكرهم بعظمة هذا الرسول الكريم، الذي اصطفاه الله، وطهره، وأدبه، وفضله على سائر الأنبياء والمرسلين، وحمله أعظم رسالة في تاريخ الإنسانية.

* إن من نعم الله - العلى القدير - على المسلمين أن حَصَّهم بأن مثوى نبينهم - ﷺ - معلوم لديهم باليقين، وفي ذلك راحة للنفوس، وطب للقلوب من الحيرة، إذ ترسخ فيها السَّكينة من لواجع الشوق، لأنها من أسمى المطالب الروحية المقبولة عند الله سبحانه وتعالى، تحقيقاً وامتنالاً لقوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء ٦٤]

قال ابن كثير في تفسيرها: يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول - ﷺ - ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم، ورحمهم، وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

وفي فضل زيارة قبر النبي المصطفى - ﷺ، ذكر القاضى عياض حكايات كثيرة رواها العلماء. منها حكاية مشهورة عن العُتْبِيِّ، قال: كنت جالساً عند قبر الرسول - ﷺ، فجاء أعرابى فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ..﴾ الآية

وقد جئتكَ مستغفراً لذنبى، مستشفعاً بك إلى ربى، ثم أنشأ يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظَمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكْمُ
نَفْسَى الْفِدَاءِ لِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَاُ وفيه الْجُودُ وَالْكَرَمُ

قال العتبي: ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي - ﷺ - في النوم، فقال: يا عتبي، إلهي الأعرابي قبّشه أن الله غفر له

قال القاضي عياض: وقد أجمع العلماء في كافة الأزمان والعصور على وجوب زيارة قبره الشريف، فزيارة قبره - ﷺ - - سنة من سنن المسلمين، مجمع عليها، وفضيلة مرغّب فيها.

يقول القسطلاني: «اعلم أن زيارة قبره الشريف، من أعظم القربات، وأرجى الطاعات، والسبيل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام».

- على أننا نحترز فنقول: إن الغرض الصحيح من زيارة القبور هو تذكرة الآخرة، كما ورد في حديثه الصحيح - ﷺ - الذي نص على الإذن في زيارة القبور للموعظة الحسنة، وتذكرة الآخرة. فمتى كانت الزيارة لغرض صحيح يقره صاحب الشريعة، كانت ممدوحة من جميع الجهات.

وما لا شك فيه، أن زيارة قبر الرسول في مسجده، تفعل في نفوس أولى الألباب أكثر مما تفعله أية عبارة أخرى، فالذي يقف على قبر المصطفى ذاكرًا جهاده، وما لاقاه في سبيل الدعوة إلى الله، وإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والهداية، وما بثه من مكارم الأخلاق في العالم أجمع، وما محاه من فساد عام شامل، وجاء به من شريعة مبنية على جلب المصالح للمجتمع الانساني ودرء المفاسد عنه، لا بد أن يمتلئ قلبه حبًا وتقديرًا وتعظيمًا لهذا الرسول، الذي أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين.

فإذا لم يكن في زيارة قبر المصطفى - ﷺ - سوى هذه الموعظة الحسنة، وهذا الأثر الجليل، لكفى في كونها من أجل الأعمال الصالحة التي يحث عليها الدين الخفيف.

وقد ذكر القاضي عياض أحاديث كثيرة تنصّ على زيارة قبر النبي ﷺ. منها:

- «من زار قبري وجبت له شفاعتي».
- «من زارني في المدينة محتسبا كان في جوارى وكنت له شفيعا يوم القيامة».
- «من زارني بعد موتى فكأنما زارني في حياتي»
- «من حج ولم يزرني فقد جفاني»

وهذه الأحاديث وغيرها مما في معناها، ضَعُفها بعض العلماء، وطعنوا في أسانيدها.

ومع ذلك، فإنه بتعددتها وكثرتها، تتقوى وتعتضد، كما يقول رجال الحديث، وتشهد لها الأحاديث الأخرى، خاصة وأنها لا تخالف نصوص القرآن أو شرائعه، لذلك فإن الطعن في أسانيدها لا يقلل من شأنها، بعد أن تحدثنا عن فوائد زيارته - ﷺ - ومحاسنها التي يقرها الدين، وتحت عليها قواعده العامة.

ويؤيد هذا ما ذكره القاضي عياض، من قول الإمام مالك: إن الزيارة مباحة للناس، وواجب شد المطى إلى قبره، ﷺ، والوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأکید - لا وجوب فرض^(١).

ويقول:

«وكيف لا يزار قبر رسول الله، وقد تواترت الروايات على أن مَنْ وَقَفَ عند قبر النبي - ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ثم قال: صلى الله عليك يا محمد، من يقولها سبعين مرة، ناداه مَلَكٌ، صلى الله عليك يا فلان، ولم تسقط له حاجة^(٢)».

أقول: لقد استنبط بعض الفقهاء المحققين، من هذه الأحاديث وغيرها، الأدلة على وجوب زيارة قبر الرسول - ﷺ، لما في الآية الكريمة من حَصْ على زيارته، في قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ والترغيب العظيم بالمغفرة وقبول التوبة، في قوله تعالى: ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَابًا رَحِيمًا﴾ ولأنه - ﷺ - حَيٌّ في قبره، يرد السلام على كل من يسلم عليه.

(١) الشفا ٨٣/٢.

(٢) الشفا ٨٥/٢.

روى أبو هريرة - رضى الله عنه، أن رسول الله - ﷺ، قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَسْلُمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أُرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ» وقال ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءُ فِي قُبُورِهِمْ»^(١)

* والسؤال الآن: هل هذه الزيارة واجبة أم سنة؟ هذا الأمر لم يحده أو يتعرض له القاضى عياض.

أقول: إن حكم زيارة قبره الشريف، كما ذكر علماء الفقه - فيه رأيان: الأول: الإجماع على سُنيّتها.

والثانى: القول بوجوبها.

* أما الإجماع على سُنيّتها، فقد انعقد عليه إجماع المسلمين في كافة العصور، وقد صرح بذلك الأئمة الأعلام، كالإمام الحافظ ابن حجر، والإمام القسطلانى، والإمام النووى، والإمام كمال الدين ابن الهمام، والعلامة الفقيه رحمة الله السندى.

* قال ابن حجر: إن مشروعيتها محل إجماع المسلمين^(٢)

وقال بعض العلماء: هى سنة مؤكدة تقرب من درجة الواجبات، وهو المفتى به عن طائفة من أئمة الحنفية، كالفقيه المرجح عبد الله بن محمود الموصلى، صاحب كتاب الاختيار، والشيخ رحمة الله السندى، والعلامة على القارى، واختاره العلامة الفارسى فى مناسكه^(٣)

* أما القول بوجوبها، فقد ذهب إليه جمهور من الفقهاء، وهو اختيار الفتوى فى المذاهب الأربعة^(٤)

يقول القاضى عياض: وقد كره مالك أن يقال «زرنا قبر النبى - ﷺ».

(١) أنظر أيضا نيل الأوطار ٩٤/٥.

(٢) فتح البارى ٤٣/٣

(٣) أنظر الاختيار شرح المختار ١٧٣/١، وفتح القدير ٣٣٦/٢، ولباب المناسك ص ٢٨٢.

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٧١٢ وأنظر المواهب اللدنية ٥٠٤/٢، ونيل الأوطار ٩٤/٥.

وقد اختلف في معنى ذلك، فقيل: كراهية الاسم لما ورد من قوله ﷺ «لعن الله زوَّارات القبور». وهذا يرُدُّه قوله ﷺ: «نَهَيْتُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَرُورُهَا» وقيل: لأن ذلك لما قيل: «إن الزائر أفضل من المزور»

وهذا أيضا ليس بشيء، إذ ليس كُلُّ زائر بهذه الصفة، وليس هذا عموما، وقد ورد في حديث أهل الجنة زيارتهم لرَبِّهم، ولم يَمْنَعْ هذا اللفظ في حقه تعالى. ويفسر القاضي عياض كراهية مالك لهذا القول، فيقول:

«وإنما كره مالك أن يقال طواف الزيارة، وزرنا قبر النبي، لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض، وكره تسوية النبي ﷺ - مع الناس بهذا اللفظ، وأحبَّ أن يُخَصَّ بأن يقال: «سَلَّمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ».

وأیضا، فإن الزيارة مباحة بين الناس، وواجب شد المطى إلى قبره - ﷺ. يُريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأکید، لا وجوب فرض. ثم يقول: والأولى عندي، أن منعه، وكرهه مالك له، لإضافته إلى قبر النبي ﷺ وأنه لو قال: «زرنا النبي» لم يكرهه، لقوله ﷺ:

«اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد بعدي، اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فَحَمَى إضافة هذا اللفظ إلى القبر، والتشبه بفعل أولئك قطعاً للذريعة، وحسباً للباب.

قال اسحق بن ابراهيم الفقيه: «ومأ لم يَزَلْ مِنْ شَأْنِ مَنْ حَجَّ - المرور بالمدينة، والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله - ﷺ، والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره ومجلسه، وملامس يديه، ومواطئ قدميه، والعمود الذي كان يستند إليه، وينزل جبريل بالوحي فيه عليه، وبين عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله.

أما عن آداب زيارة قبره الشريف - ﷺ^(١)، فيذكر القاضي عياض كيف كان الصحابة والتابعون وأهل العلم والأئمة يزورون قبره الشريف. قال بعضهم: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي - ﷺ - فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة، فسَلَّمَ على النبي - ﷺ - ثم انصرف. وقال مالك - في رواية ابن وهب - إذا سَلَّمَ على النبي - ﷺ - ودَعَا، يقف وجهه إلى القبر، لا إلى القبلة، ويدنو وَيُسَلِّم ولا يمَس القبر بيده. وقال - في المبسوط - لا أرى أن يقف عند قبر النبي - ﷺ - يدعو، ولكن يَسَلِّم ويمضى.

وقال نافع: كان ابن عمر يُسَلِّم على القبر، رأته مائة مرة وأكثر، يجيء إلى القبر، فيقول:

السلام على النبي، ﷺ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي ثم ينصرف.

وقال ابن حبيب: ويقول إذا دخل مسجد الرسول: «بسم الله، وسلام على رسول الله، السلام علينا من ربنا، وصلى الله وملائكته على محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك، واحفظني من الشيطان الرجيم، ثم اقصد إلى الروضة، وهى ما بين القبر والمنبر، فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر، تحمد الله فيها، وتسأله تمام ما خَرَجْتَ إليه، والعون عليه، وإن كانت ركعتاك في غير الروضة أجزأتاك، وفي الروضة أفضل. وقد قال ﷺ:

«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على تُرعة من تُرُع الجنة» ثم تقف بالقبر متواضعا متوقفا، فتصلِّي عليه، وتثنى بما يحضرك، وتسلم على أبي بكر وعمر، وتدعو لهما.

ويختتم القاضي عياض هذا الفصل المتع بالحديث عن آداب زيارة المسجد النبوي الشريف، مستلها ما جاء عن صحابته - رضي الله عنهم - والتابعين.. فيقول:

قال مالك: سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوتا في المسجد، فدعا صاحبه، فقال: *مَنْ أَنْتَ؟* قال: رجل من ثقيف، قال: لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك، إن مسجدا لا يرفع فيه الصوت.

وقال محمد بن سلمه: لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصوت ولا بشيء من الأذى، وأن يُنَزَّه عما يُكره.

وقال القاضي اسماعيل: «والعلماء كلهم متفقون أن حُكْم سائر المساجد هذا الحكم.

ويكره في مسجد الرسول - ﷺ - الجهر على المُصَلِّين فيما يُخَلِّط عليهم صلاتهم وليس مما يُخَصُّ به المساجد رفع الصوت، وقد كُره رفع الصوت بالتلبية في مساجد الجماعات إلا المسجد الحرام ومسجدنا.

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ، قال: «صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

وهنا يجد القاضي عياض الفرصة مواتية، لكي يتحدث عن اختلاف العلماء في معنى الاستثناء، على اختلافهم في المفاضلة بين مكة والمدينة، فيقول:

* ذهب مالك - في رواية أشهب عنه - إلى أن معنى الحديث: أن الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة، إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة في مسجد النبي - ﷺ - أفضل من الصلاة فيه بدون الألف.

واحتجوا بما روى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - «صلاة في

المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه» فتأق فضيلة مسجد الرسول بتسعمائة، وعلى غيره بألف.

وهذا مبنى على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك، وأكثر المدنيين.

وزهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة، وهو قول عطاء وابن وهب، وحكاه الباجي عن الشافعي، وحملوا الاستثناء في الحديث المتقدم على ظاهره، وأن الصلاة في المسجد الحرام أفضل، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير، عن النبي ﷺ، وفيه:

«وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة».

فيأتى فضل الصلاة في المسجد الحرام على هذا - على الصلاة في سائر المساجد بمائة ألف.

البَابُ الثَّالِثُ

دراسة شخصية الرسول من جانبين

تمهيد:

الفصل الأول: جانب النبوة

الفصل الثاني: الجانب الإنساني

دراسة شخصية الرسول

تمهيد:

هذا الباب هو أخطر وأعظم ما في سيرة المصطفى - ﷺ. التي ألفها القاضي عياض، فهو يتناول دراسة شخصية الرسول - ﷺ - من جانبين هامين:

١ - جانب ديني، هو النبوة

٢ - وجانب دنيوي، يتصل بإنسانيته وبشريته.

وهذا القسم من دراسته، نوه به، وأشار إليه القاضي عياض، في مقدمة السيرة، بقوله^(١)

«وهذا القسم هو سرّ الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله (من أبواب) له كالقواعد والتمهيدات، والدلائل على ما نورده فيه من النكت البيّنات، وهو الحكم على ما بعده، والمنجز من غرض التأليف وعده.. وعند التفصّي لموعده، والتفصّي عن عهده، يشرق صدر العدو اللعين، ويشرق قلب المؤمن باليقين، وتتلأ أنواره جوانح صدره، ويقدر العاقل النبي حق قدره».

وقد صدره القاضي عياض بمقدمة نفيسة، تتحدث عن مكانة الأنبياء والمرسلين، وأنهم جميعا بشر، بُعثوا من قبل الله تعالى، لكي يؤدوا الأمانة، ويحملوا الرسالة، ويهدوا الناس إلى صراط العزيز الحميد، والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾

وقوله عز شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾

وقول جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ الآية

ثم يقول القاضى عياض^(١): ولو كان هؤلاء الرسل من الملائكة لما أطاق
الناس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أى لما كان إلا فى صورة البشر، الذين يمكنكم
مُخَالَطَتِهِمْ، إذ لا تطيقون مقاومة الملك، ومخاطبته ورؤيته، إذا كان على صورته.
وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا
عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾

أى لا يمكن فى سنة الله إرسال الملك إلا لمن هو من جنسه، أو من خصه
الله تعالى واصطفاه، وقواه على مقاومته كالأنبياء والرسل.

ويخلص من هذه المقدمة إلى نتيجة واضحة، وهى أن الأنبياء والرسل -
عليهم السلام - وسائط بين الله تعالى وبين خلقه، يُبَلِّغُونَهُمْ أَمْرَهُ وَنَوَاهِيَهُ،
ووعده ووعيده، ويعرفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقهم وجلاله وسلطانه
وجبروته وملكوته.

ثم ينتقل القاضى عياض إلى قضية هامة، تتعلق بشخصية الرُّسُلِ
وإنسانيتهم هل تتفق هذه الشخصية مع إنسانية سائر البشر؟

هنا ينفى القاضى عياض أن يكون الرسل بَشَرًا عَادِيَيْنِ، وإنما هم أناس
اصطفاهم الله وطهرهم وعلمهم وأهلهم، وفضلهم على سائر العالمين، فهم
بشر لهم سيئاتهم الخاصة، وطبيعتهم المميزة، التى هيأها الله وأهلها لتلقى وحيه،
وتبليغ رسالته.

وهم وإن كانوا فى ظواهرهم كظواهر الناس إلا أنهم مختلفون فى بواطنهم
وبصائرهم.

وفى ذلك يقول:

«لما كان هؤلاء الأنبياء والرسل من البشر، كانت ظواهرهم وأجسادهم

وَبَنِيَّتِهِمْ مَتَّصَةً بِأَوْصَافِ الْبَشَرِ، طَارِئٌ عَلَيْهَا مَا يَطْرَأُ عَلَى الْبَشَرِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، وَنَعَوَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ.. أَمَّا أَرْوَاحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ فَمَتَّصَةٌ بِأَعْلَى مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ، مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، مُتَشَبِّهَةٌ بِصِفَاتِ الْمَلَائِكَةِ، سَلِيمَةٌ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْآفَاتِ، لَا يَلْحَقُهَا غَالِبًا عَجْزُ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا ضَعْفُ الْإِنْسَانِيَّةِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ بَوَاطِنُهُمْ خَالِصَةً لِلْبَشَرِيَّةِ كَظَوَاهِرِهِمْ، لَمَا أَطَاقُوا الْأَخْذَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ وَرُؤْيَتِهِمْ وَمَخَاطَبَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ كَمَا لَا يَطِيقُهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْبَشَرِ.

ولو كانت أجسادهم وظواهرهم - أى الأنبياء - متسمة بنعوت الملائكة، وبخلاف صفات البشر لما أطاق البشر، ومن أُرسلوا إليه مخالطتهم كما تقدم من قول الله.

* فالأنبياء - جعلهم الله - من جهة الأجسام والظواهر مع البشر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة، كما قال النبي - ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَا تَخَذُتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامِ، لَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ» وكما قال ﷺ: «تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»

وقال ﷺ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيُسْقِينِي» ثم يصل القاضي عياض بعد هذه المقدمة إلى نتيجة هو أرادها، ومهد لها وهي:

«أَنَّ بَوَاطِنَ الْأَنْبِيَاءِ مُنَزَّهَةٌ عَنِ الْآفَاتِ، مُطَهَّرَةٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْإِعْتِلَالَاتِ»

وكانت هذه المقدمة تمهيدًا لما أراد أن يتناوله في دراسة شخصية الرسول من جَانِبَيْهَا^(١) جانب النبوة، والجانب الإنساني، أو كما يقول هو: الأمور الدينية، والأمور الدنيوية.

الفصل الأول

عصمة الله لنبية ﷺ

يمهد القاضي عياض لقضية العصمة^(١)، وما يتصل بها من أمور، فيذكر أن البشر جميعاً تطراً عليهم الطوارئ، وتأتى عليهم التغيرات، وتصيبهم الآفات والأمراض، ولا يخلو فرد أن تطراً على جسمه، أو على حواسه، بغير قصد واختيار، كالأمراض والأسقام، أو تطراً بقصد واختيار، وكله في الحقيقة عملاً وفِعْلاً.

* وقد جرت عادة المشايخ بتقسيم هذا إلى ثلاثة أنواع:
(أ) عقد بالقلب، أى إيمان يقينى راسخ.
(ب) وقول باللسان، أى شهادة التوحيد.
(ج) وعمل بالجوارح، أى عبادات كالصلاة والصوم والحج.. والجهاد
وجميع البشر تطراً عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار، وبغير الاختيار، في هذه الوجوه كلها.

* أما النبى المصطفى - ﷺ - فهو وإن كان من البشر، ويجوز على طبيعته ما يجوز على طبيعة البشر، فقد قامت البراهين القاطعة، وتمت كلمة الإجماع على خروجه عن سائر البشر، وتنزهه عن كثير من الآفات، التى تقع على الاختيار، وعلى غير الاختيار.

١

عصمته بعد النبوة
قال القاضي عياض: أما عقد قلبه ﷺ أى إيمانه وبقينه بالله، والعلم بصفاته وتوحيده وتنزهه، فواضح فى سيرته ﷺ معروف يقيناً، وعليه إجماع المسلمين.

(١) الشفا ٢/٩٧.

فقد تعاضدت الأخبار والآثار عن نبينا - ﷺ - بتنزيهه عن كل نقص منذ ولد، ونشأته على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ومن هنا كان توحيده، وعلمه بالله وصفاته، والإيمان به وبما أوحى إليه على غاية المعرفة، ووضوح العلم واليقين والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك، أو الشك أو الريب فيه. والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك اليقين. وما ورد من النصوص مما قد يفيد ظاهره خلاف هذا، فسنبين حقيقته.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآيتين.

قال القاضي عياض^(١) فاحذر - ثبت الله قلبك - أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس، أو غيره، من إثبات شك للنبي ﷺ، فيما أوحى إليه، وأنه من البشر، فمثل هذا لا يجوز عليه مجله، بل قال ابن عباس:

«لَمْ يَشْكُ النَّبِيُّ - ﷺ - وَلَمْ يَسْأَلْ»

وحكى قتادة: «أن النبي ﷺ، قال: ما أشك ولا أسأل» وعامة المفسرين على هذا.

* واختلفوا في معنى الآية:

- فقليل المراد: قل يا محمد للشاك ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ﴾ الآية. وقالوا: وفي السورة نفسها ما دل على هذا التأويل، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الآية. وقيل: المراد بالخطاب العرب، وغير النبي - ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية الخطاب له والمراد غيره.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْذُّهُؤْلَاءُ﴾ ونظيره كثير.
 ألا تراه يقول: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية.
 وهو ﷺ كان المكذَّب فيما يدعو إليه، فكيف يكون ممن كَذَّبَ به؟ فهذا
 كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره.

* ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ المأمور ههنا
 غير النبي - ﷺ - ليسأل النبي، والنبي - ﷺ - هو الخبير المستنول،
 لا المستخير السائل.

- ويتابع القاضى عياض قوله فى قضية الشك، التى أثارها المفرضون،
 ووقع فى حباتها بعض المفسرين، فيقول:

«إن هذا الشك الذى أُمِرَ به غير النبي - ﷺ - بسؤال الذين يقرءون
 الكتاب، إنما هو فيما قصه الله من أخبار الأمم - لا فيما دعا إليه من التوحيد
 والشرعة.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ الآية.

المراد به المشركون، والخطاب مواجهة للنبي - ﷺ.

قليل معناه: «سَلْنَا عَمَّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ» فُحِذِفَ الْخَافِضُ وَتَمَّ الْكَلَامُ، ثُمَّ
 ابْتَدَأَ ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ - عَلَى طَرِيقِ الْإِنْكَارِ، أَيْ
 مَا جَعَلْنَا.

وقيل: أُمِرَ النبي ﷺ - أَنْ يَسْأَلَ الْأَنْبِيَاءَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عَنْ ذَلِكَ، فَكَانَ
 أَشَدَّ يَقِينًا مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى السُّؤَالِ، فَرَوَى أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَسْأَلُ قَدْ اكْتَفَيْتُ»

وقيل: سَلْ أُمَّمَ مِنْ أَرْسَلْنَا هَلْ جَاؤُوهُمْ بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ؟

وهو معنى قول مجاهد والسُّدِّي والضُّحَّاك وقتادة، والمراد بهذا، والذى قبله:
 إِعْلَامُهُ - ﷺ - بِمَا بُعِثَ بِهِ الرِّسَالُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ فِي عِبَادَةِ غَيْرِهِ لِأَحَدٍ، رَدًّا
 عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ ﴿إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِئَقْرَبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

ثم يقول القاضي عياض: ووجه آخر يلوح لى، فى الجواب عن الآية ﴿فَإِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ﴾ وهو أنها لا تدل على حصول الشك منه - ﷺ - وحاشا مقامه العالى، وإنما تدل على افتراض وقوع ذلك، وهو محال منه، وافتراض المحال لا يدل على جواز الوقوع، والمعنى هو: «إن فرض حصول الشك منك، فاسأل الذين يتلون الكتاب» ولكن ذلك محال، وافتراض المحال لا يلزم منه الوقوع.

* ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ فهل يصح أن يقال إن هذا يفيد صحة وقوع ذلك، ولا يقول ذلك إلا مشرك جاهل، بل هذا افتراض، أى «إن فرض أن يكون للرحمن ولده وهو محال بلا شك، ويمثل هذا نجيب عن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ﴾ الآية.

* ويضرب القاضي عياض مثلاً آخر قد يوحى بالشك، فيقول^(١) وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى فى علمهم بأنك رسول الله، وإن لم يُقرّوا بذلك، وليس المراد به شكّه فيما ذكرَ فى أول الآية. وقد يكون أيضاً على مثل ما تقدم، أى قل يا محمد لمن امترى فى ذلك: لا تكونن من الممترين، بدليل قوله أول الآية: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ الآية. وأن النبى - ﷺ - يُخاطب بذلك غيره.

وقيل: هو تقرير، كقوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ وقد عِلِمَ أنه لم يقل.

وقيل معناه: ما كنت فى شك فاسأل طمأنينة وعلماً إلى علمك ويقينك. وقيل: إن كنت تشكّ فيما شرفناك وفضلناك به، فاسألهم عن صفتك فى الكتب ونشر فضائلك.

وحكى عن أبي عبيدة، أن المراد: إن كنت في شك من غيرك فيما أنزلنا.

قال القاضى عياض:

«فإن قيل فما معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ على قراءة التخفيف؟

قلنا: المعنى في ذلك ما قالته عائشة - رضى الله عنها - «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَظُنَّ ذَلِكَ الرُّسُلُ بِرَبِّهَا، وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ لَمَّا اسْتَيْأَسُوا ظَنُّوا أَنَّ مَنْ وَعَدَهُمُ النِّصْرَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ كَذَّبُوهُمْ، وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ.

وقيل: إن ضمير (ظَنُّوا) عائد على الأتباع والأمم لا على الأنبياء والرسل، وهو قول ابن عباس والنخعي، وابن جبير، وجماعة من العلماء، وبهذا المعنى قرأ مجاهد (كذَّبوا) بالفتح.

* ثم يقول القاضى عياض بعد هذا الإسهاب الطويل في تحليل الآية، لإثبات عصمة النبى المصطفى ﷺ - بعد النبوة، من النقائص والشبهات..
«فلا تشغل بالك من شاذ التفسير بسواه مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء؟

«وكذلك ما ورد في حديث السيرة، ومبدأ الوحي، من قوله - ﷺ -
لحديثه: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية الملك، ولكن لعلّه خشى أن لا تحتمل قوته مقاومة الملك، وأعباء الوحي، فينخلع قلبه، أو تزهق نفسه، هذا على ما ورد في الصحيح، أنه قاله بعد لقائه الملك، أو يكون ذلك قبل لقائه وإعلام الله تعالى له بالنبوة، لأوّل ما عُرِضَتْ عليه من العجائب، وسلم عليه الحجر والشجر، وبدأته المنامات والتباشير، كما روى في بعض طرق هذا الحديث، أن ذلك كان أوّلاً في المنام، ثم أرى في اليقظة مثل ذلك، تأنيساً له - عليه السلام - لئلا يفجأه الأمر مشاهدة ومشاهدة، فلا يحتمله لأوّل حالة بُنِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ»^(١)

* وقد روى ابن اسحاق، أن النبي - ﷺ - قال، وذكر جواره بغار حراء، قال: «فجاءني وأنا نائم، فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ؟ وذكر نحو حديث عائشة، في غطه له، وإقرائه له ﴿اقرأ باسم ربك﴾ السورة... قال: «فانصرف عني وهبيت من نومي كأنما صُورَت في قلبي، ولم يكن أبغض إلي من شاعر أو مجنون، قلت: لا تتحدث عني قريش بهذا أبداً، لَأَعْمِدَنَّ إلى حالي من الجبل فلا طرْحَنَّ نفسي منه لأقتلها، فبينما أنا عامد لذلك، إذ سمعت منادياً ينادي من السماء.. يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأسي فإذا جبريل على صورة رجل.

يقول القاضي عياض: فقد بين في هذا، أن قوله لما قال، وقصده لما قصد، إنما كان قبل لقاء جبريل - عليه السلام، وقيل: إعلام الله تعالى له بالنبوة وإظهاره واصطفائه له بالرسالة^(١).

* ومن ذلك قوله تعالى لنبيه المصطفى - ﷺ - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن بعضهم فسرهما بأن معناها.. لا تكونن ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى.

وهذا أمر باطل، فإن أقل الناس إيماناً لا يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى، فكيف بسيد أهل الإيمان، إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات الله تعالى، وذلك لا يجوز على الأنبياء.

نقول: إن المقصود هو وعظه - ﷺ - أن لا يتشبه في أموره بسماة الجاهلين.

وقيل: إنه خطاب للأمة المحمدية، والمعنى: فلا تكونوا من الجاهلين. فبهذا الفضل وجب القول بعصمة الأنبياء منه بعد النبوة قطعاً.

ثم يفترض القاضي عياض سؤالاً قد يطرحه البعض، بعد أن قال بعصمة الأنبياء جميعاً وبرهن عليه..

فيقول:

«فإن قلت: فإذا قرّرت عصمتهم من هذا، وأنه لا يجوز عليهم شيء من ذلك..

فما معنى إذا وعيد الله لنبينا ﷺ - على ذلك، إن فعله وتحذيره منه. كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ الآية. وقوله سبحانه: ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ﴾ الآية. وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله جل جلاله: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾. وقوله عز شأنه: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾. ثم يجيب على هذا التساؤل، وما قد يُثار من أقاويل حول عصمته -

ﷺ - بقوله^(١)

«فاعلم - وفقنا الله وإياك - أنه ﷺ، لا يصح ولا يجوز عليه أن لا يُبلَّغ ولا يخالف أمر ربه، ولا أن يُشرك به، ولا يتقول على الله ما لا يجب أو يفترى عليه، أو يضل أو يختم على قلبه، أو يطيع الكافرين، لكن يسر أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين، وأن إبلاغه إن لم يكن بهذه السبيل فكأنه ما بلغ. وطيب نفسه، وقوى قلبه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ﴾.

فمعناه، أن هذا جزاء من فعل هذا، وجزاؤك لو كنت ممن يفعله وهو لا يفعله.

وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ

(١) الشفا ٢/١٠٨.

الله ﷻ فالمراد غيره، كما قال: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وما أشبهه، فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك، والنبى - ﷺ - لا يجوز عليه هذا.

وقوله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِغِ الْكَافِرِينَ﴾ فليس فيه أنه أطاعهم، والله ينهاه عما يشاء، وبأمره بما يشاء، كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية. وما كان طردهم - ﷺ - ولا كان من الظالمين.

٢

عصمته قبل النبوة:

ويتحدث القاضى عياض بعد ذلك عن عصمة النبى - ﷺ - والأنبياء جميعاً من مثل هذه الأمور قبل النبوة، أى فى فترة الإعداد والتأهيل لحمل الرسالة، وأداء الأمانة، فيذكر أن هذا الأمر كان محل خلاف بين العلماء.. بيد أنه يصوب ويؤكد أن الأنبياء معصومون قبل النبوة من الجهل بالله، والتشكك فى شىء من ذلك.

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد، والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة. وأن أحداً من العلماء وأهل الأخبار، لم ينقل أن أحداً نبياً واضطفى من عرف بكفر وإشراك قبل ذلك.

وقد استدلل بعضهم بأن القلوب تنفر عن كانت هذه سبيله.

* ويستشهد القاضى عياض على ذلك، بما عرف عن النبى المصطفى - ﷺ -
- وبما جاء فى سيرته قبل البعثة، فيقول: ^(١)

«إن قريشاً قد رمت نبينا بكل ما افترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما

أمكنها، واختلقته مما نصَّ الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعبيراً لواحد منهم برفضه آلهته وتقريره بدمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، ويتلوونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفطع، وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة، وقالوا: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، كما حكاه الله عنهم.

وقد استدل القشيري على عصمته - ﷺ، وتنزيهه، بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ﴾ الآية.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ قال: وطهره الله في الميثاق، ويعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه، ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره، قبل مولده بدهور، ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب. هذا ما لا يجوز إلا ملحد.

ويكمل القاضي عياض استدلال القشيري بقوله:

«وكيف يكون ذلك، وقد أتاه جبريل - عليه السلام - وشق قلبه صغيراً، واستخرج منه علقه، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله بماء حكمة وإيماناً، كما تظاهرت به أخبار المبدأ؟

وبعد أن أثبت القاضي عياض بالأدلة السمعية والنقلية، أن الرسول المصطفى - ﷺ - كان معصوماً من الخطأ والزلل قبل النبوة.. انتقل للرد على موضوع الضلالة^(١)، الذي ورد في قوله تعالى:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، ليوضح أن معناه ليس هو من الضلال الذي هو الكفر، وإنما للضلالة معاني أخرى كثيرة لغوية وغير لغوية.. ذكرها العلماء.

فَقِيلَ: «ضَالًا عَنِ النَّبُوءَةِ فَهَذَاكَ إِلَيْهَا»

وَقِيلَ: «وَجَدَكَ بَيْنَ أَهْلِ الضَّلَالِ فَعَصَمَكَ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَاكَ لِلْإِيمَانِ وَإِلَى إِرْشَادِهِمْ.

وَقِيلَ: «ضَالًا عَنِ شَرِيعَتِكَ، أَيْ لَا تَعْرِفُهَا فَهَذَاكَ إِلَيْهَا. وَالضَّلَالُ هُنَا التَّحْيِيرُ. وَهَذَا كَانَ - ﷺ - يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فِي طَلَبِ مَا يَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ، وَيَتَشَرَّعُ بِهِ حَقِّي هِدَاةِ اللَّهِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَقِيلَ: لَا تَعْرِفُ الْحَقَّ فَهَذَاكَ إِلَيْهِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: وَوَجَدَكَ ضَالًا عَنْ مَحَبَّتِي لَكَ فِي الْأَزَلِ، أَيْ لَا تَعْرِفُهَا، فَمَنْنْتَ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَتِي.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أَيْ اهْتَدَى بِكَ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ شَاذَةٌ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ بَعْدَ عَرْضِهِ لِأَقْوَالِ وَأَرَآءِ الْعُلَمَاءِ:

«وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي، أَنَّ الْمَعْنَى: وَوَجَدَكَ يَا مُحَمَّدُ مَتَحِيرًا فِي بَيَانِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ، وَفِي كَيْفِيَةِ إِرْشَادِ النَّاسِ وَتَبْلِيغِهِمْ، فَهَذَاكَ لَذَلِكَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

* ثُمَّ يَطْرَحُ الْقَاضِي عِيَاضُ تَسْأُولًا يَفْرُضُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فَيَقُولُ:

فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ مَعْنَاهُ: مَا كُنْتُ تَدْرِي قَبْلَ الْوَحْيِ أَنَّ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ، وَلَا كَيْفَ تَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْإِيمَانِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَلَا الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ الْفَرَائِضُ وَالْأَحْكَامُ.. فَكَانَ قَبْلَ مُؤْمَنًا بِتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ نَزَلَتْ الْفَرَائِضُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَدْرِيهَا قَبْلَ، فَزَادَ بِالتَّكْلِيفِ إِيْمَانًا. وَهُوَ أَحْسَنُ وَجْهِهِ.

بعد إذ انتهى القاضى عياض من الحديث عن عقود الأنبياء فى التوحيد والإيمان والوحى، وعصمتهم جميعا قبل النبوة وبعدها، انتقل إلى موضوع آخر، وهو: علم الأنبياء ومعرفتهم اليقينية^(١) ليبرهن أن قلوبهم جميعا، قد احتوت من المعرفة والعلم بأمور الدين والدنيا ما لا شىء فوقه، إلا أن أحوالهم فى هذه المعارف تختلف.

* فأما ما تعلق منها بأمر الدنيا، فلا يشترط فى حق الأنبياء العصم من عدم معرفة الأنبياء ببعضها، أو اعتقادها على خلاف ما هى عليه، ولا وُصِّمَ عليهم فيه، إذ هِمَّتْهُمْ متعلقة بالآخرة وأنبيائها، وأمر الشريعة وقوانينها.

«وأمر الدنيا تُضَادُّها بخلاف غيرهم من أهل الدنيا، الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

وينفى القاضى عياض عن الأنبياء أنهم لا يعلمون شيئاً من أمر الدنيا، فإن ذلك يؤدى إلى الغفلة والبله وهم المتزهون عنه.

«بل قد أرسلوا إلى أهل الدنيا، وقلدوا سياستهم وهدايتهم، والنظر فى مصالح دينهم ودنياهم».

«وهذا لا يكون مع عدم العلم بأمور الدنيا بالكلية، وأحوال الأنبياء وسيرهم فى هذا الباب معلومة، ومعرفتهم بذلك كله مشهورة».

وينتقل القاضى عياض بعد ذلك إلى الحديث عما يتعلق بأمور الدين، فيذكر أن النبى لا بد أن يكون على علم تام به، ولا يجوز عليه جهله، لأن هذه العلوم الدينية إنما حصل عليها بطريق الوحى الإلهى، فيقول:

«إن النبى - ﷺ - حصل له العلم اليقين، وقد يكون فعل ذلك باجتهاده، فلم ينزل عليه فيه شىء، وهذا ما قرره المحققون.

وقد جاء في الحديث الشريف، أن النبي كثيرا ما كان يجتهد ويقضى برأيه، من ذلك حديث أم سلمة «إني إنما أقضى بينكم برأىي، فيما لم ينزل على فيه شيء».

وكقضية أسرى بدر، والإذن للمتخلفين. فلا يكون ما يعتقد مما يشره اجتهاده إلا حقا وصحيحا، وهذا هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه، ممن أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد.

* وفي هذا الصدد، يذكر القاضي عياض رأيه في قضية علم النبي - ﷺ، بأمور الدنيا فيقول: «والصواب عندنا - بأن الحق في طرف واحد، لعصمة النبي - من الخطأ في الاجتهاد في الشرعيات، ولأن القول في تحطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع، ونظر النبي - ﷺ - واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء، ولم يشرع له قبل.

«هذا فيما عَقَدَ عليه النبي - ﷺ - قلبه».

* فأما ما لم يعقد عليه قلبه من أمر النوازل الشرعية، فقد كان لا يعلم منها أولا إلا ما علمه الله شيئا شيئا حتى استقر علم جملتها عنده، إما بوحي من الله، أو إذن أن يشرع في ذلك، وبحكم بما أراه الله. وقد كان ينتظر الوحي في كثير منها، ولكنه لم يمت حتى استفرغ علم جميعها عنده - ﷺ - وتقررت معارفها لديه على التحقيق، ورفَعَ الشك والريب وانتفاء الجهل.

أما ما يتصل بملكوت السموات والأرض، وخلق الله، وتعيين أسائه الحسنى، وآياته الكبرى، وأمور الآخرة، وأشراف الساعة، وأحوال السعداء والأشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لم يعلمه إلا بوحي، فيقول عنه القاضي عياض:

«فَعَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِيهِ، لَا يَأْخُذُ فِيهِ أَعْلَمَ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، بَلْ هُوَ عَلَى غَايَةِ الْيَقِينِ، وَأَنَّهُ كَانَ عَنْدهُ مِنْ عِلْمِ ذَلِكَ مَا لَيْسَ عِنْدَ جَمِيعِ الْبَشَرِ، لِقَوْلِهِ ﷺ:

«إِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي». ولقوله: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وقوله: «فلا تَعْلَمَ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ». وقوله: ﷺ: «أَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ». وقوله: ﷺ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِعْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ».

وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. قال زيد بن أسلم: «حتى ينتهي العلم إلى الله» وهذا ما لا خفاء به إذ معلوماته تعالى لا يحاط بها ولا تنتهي لها.

٤

كحال عصمة النبي من الشيطان وكفايته منه وبعد انتهاء القاضى عياض من ذكر حُكْمِ عَقْدِ النَبِيِّ في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية انتقل إلى الحديث عن عصمته - ﷺ - من الشيطان، وكفايته منه^(١). لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالسواوس، بل في كل أحواله - ﷺ، مستدلا على ذلك بالصحيح من الآثار والأخبار.

من ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَكُلَّ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» قالوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: وَإِيَّايَ، ولكن الله تعالى أعاننى عليه فَأَسْلَمَ». زاد غيره: «فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ».

وعن عائشة - رضى الله عنها - رَوَى (فَأَسْلَمَ) بَضْمُ الميم، أى فَأَسْلَمَ أَنَا مِنْهُ، وَصَحَّحَ بَعْضُهُمْ هَذِهِ الرِّوَايَةَ وَرَجَّحَهَا.

(١) الشفا ١١٧/٢.

وروى (فأسلم) يعنى القرين، أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام، فصار لا يأمر إلا بخير كالمملك، وهو ظاهر الحديث.

قال القاضى عياض: «فإذا كان هذا حُكْمُ شيطانه وقرينه المسلط على بنى آدم، فكيف بمن بعد منه، ولم يلزم صُحْبته، ولا أُقْدِرَ على الدُّنُو منه؟ وقد جاءت الآثار بتصدى الشياطين له في غير موطن، رغبة في إطفاء نوره، وإماتة نفسه، وإدخال شغل عليه إذ يَسُوسُوا من إغوائه، فانقلبوا خاسرين، كتعرضه له في صلاته، فأخذه النبي - ﷺ - وأسره.

ففى الصحاح، قال أبو هريرة - رضى الله عنه، قال رسول الله - ﷺ: «إن الشيطانَ عَرَضَ لى، قال عبد الرزاق: فى صورة هِرٍّ، فشدَّ على يقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه فدَعَتْهُ (أى طرحته أرضاً)، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا تنظرون إليه، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لى وَهَبْ لى مُلْكاً﴾ الآية، فردّه الله خاسئاً»

* وفى حديث أبى الدرداء، عنه ﷺ: «إِنَّ عَدُوَّ الله إبليسَ جَاءَنِ بِشَهَابٍ من نارٍ لِيَجْعَلَهُ فى وَجْهِى، والنبي - ﷺ - فى الصلاة، وذكر تَعَوُّذَهُ بالله منه، ولعنه له، وقال: «ثُمَّ ارْتَدْتُ أَنْ أَخْذَهُ».

وذكر نحوه، وقال: «لَا ضَبَحَ مُوتَقًا يَتَلَاَعَبُ بِهِ وَلَدَانِ أَهْلَ الْمَدِينَةِ». وكذلك فى حديثه فى الإسراء: «وطلب عِفْرِيْتُ لَهُ بِشُعْلَةٍ نَارٍ فَعَلَّمَهُ جَبْرِيلُ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ مِنْهُ».

* «ولما لم يقدر على أذاه بمباشرتيه، تسبب بالتوسط إلى عداه، كفضيته مع قريش فى الاثتار بقتل النبي - ﷺ - وتصوره فى صورة الشيخ النجدى.

«ومرة أخرى فى غزوة يوم بدر فى صورة سُرَاقَةَ بن مالك، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ﴾ الآية.

* ومرة يُنْذِرُ بِشَأْنِهِ عِنْدَ بَيْعَةِ الْعَقْبَةِ.

قال القاضى عياض : « وكل هذا فقد كفاء الله أمره وعصمه ضره وشره ».

* ويتابع القاضى عياض تحليله للأمور والأحداث والأحوال، التى عصم الله فيها نبيه من الشيطان فيقول: « وقال - ﷺ - حين لُدَّ فى مرضه، وقيل له: خشينا أن يكون بك ذات الجنب، فقال: إنها من الشيطان ولم يكن الله ليُسَلِّطَهُ عَلَىَّ ».

ثم يطرح سؤالاً قد يفرض نفسه فى هذا المجال، فيقول:
فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ الآية؟

فالجواب: أن المراد بهذا الخطاب أمته ﷺ وهذا كغيره من الخطابات التى توجه إلى النبى ﷺ ويكون المراد بها أمته.

وقال بعض المفسرين: إنها راجعة إلى قوله تعالى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.
ثم قال: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ أى يستخفك غضبٌ يملكك على ترك الإعراض عنهم فاستعذ بالله.

قال القاضى عياض: فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضبٌ على عدوه أو رام الشيطان من إغرائه به، وخواطر أدنى وسأوسه ما لم يجعل له سبيلٌ إليه، أن يستعِذ منه فيُكْفَى أمره، ويكون سبب تمام عصمته.

ولا يصح أن يتصور له الشيطان فى صورة الملك، ويُلبَس عليه لا فى أول الرسالة ولا بعدها، والاعتقاد فى ذلك دليل المعجزة، بل لا يشك النبى أن ما يأتية من الله الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضرورى يخلقه الله له، أو ببرهان يُظهره لديه لِيَتِمَّ كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مُبَدَّل لكلماته.

* ويفترض القاضى عياض سؤالاً آخر فى هذا الشأن.. فيقول:
فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج ٥٢].

فقد زلت في معنى هذه الآية أقدام كثير من العلماء، وساءت أفهام كثير من القراء، إذ فسروا التمني هنا بالتلاوة، وإن (إذا تمنى) معناه: إذا قرأ، ويكون معناه حينئذ، أنه إذا قرأ الرسول أو النبي ما أوحى إليه، فإن الشيطان يتسلط على قراءته، ويلقى فيها ما يشاء، ثم ينسخ الله ذلك الذي ألقاه الشيطان.

* واستدلوا لصحة هذا التأويل بقصة الغرائيق، وهي ما روى أن النبي ﷺ لما قرأ سورة «النجم» وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم ٢٠]. قال: تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى.

والغرائيق في الأصل: الذكور من الطير. واحدها غرنوق وغرنيق، سمي به لبياضه. والغرنوق أيضا: الشاب الأبيض الناعم، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله، وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التي تعلقو السماء وترتفع.

ويروى «تُرْتَضَى» وفي رواية: إن شَفَاعَتَهَا لُتُرْتَجَى، وإنها لمع الغرائيق العلى. فلما ختم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم.

وما وقع في بعض الروايات أن شيطاناً ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه، فلما ألقى ذلك الشيطان، حزن ﷺ لذلك، فأنزل الله تعالى تسلياً له:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِیْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الاسراء ٧٣].

والصحيح في تفسير الآية: كما يقول القاضي عياض:

أن الله سبحانه وتعالى ما أرسل من رسول، ولا بعث نبياً من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته، ويحبهم، ويرغب فيه، ويحرص

عليه غاية الحرص، ويعالجهم عليه أشد المعالجة، ومن جملتهم في ذلك نبينا المصطفى ﷺ الذي قال له الحق. سبحانه وتعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إلى غير ذلك من الآي المتضمنة لهذا المعنى. ثم الأمة تختلف، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة ٢٥٣].
فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوسوس القاذحة في الرسالة الموجبة لكفره.

وكذا المؤمن أيضا لا يخلو من وسوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلّة والكثرة، وبحسب المتعلقات.

قال: «إذا تقرر هذا فمعنى ﴿تَمَنَّى﴾ أنه يتمنى الإيمان لأمته، ويحب لهم الخير والرشد، والصلاح والفلاح، فهذه أمنية كل رسول ونبي، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوى من الوسوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين، فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به، فخرج من هذا أن الوسوس تلقى أولا في قلوب الفريقين معا، غير أنها لا تدوم على المؤمنين، وتدوم على الكافرين، فهذا ما يتعلق بتفسير الآية الكريمة..

وأما قصة الغرانيق^(١)، فإنها قصة باطلة نقلا وعقلا.

● أما نقلا: فإن حديثها - كما يقول القاضى عياض - حديث لم يخرج به أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله

المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وَصَدَقَ الْقَاضِي بَكْرُ بْنُ الْعَلَاءِ الْمَالَكِيُّ، حَيْثُ قَالَ: لَقَدْ بُلِيَ النَّاسُ بِبَعْضِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالتَفْسِيرِ، وَتَعَلَّقَ بِذَلِكَ الْمَلْحَدُونَ مَعَ ضَعْفِ نَقْلَتِهِ، وَأَضْطَرَّابِ رَوَايَاتِهِ وَانْقِطَاعِ إِسْنَادِهِ، وَاخْتِلَافِ كَلِمَاتِهِ، فَقَاتِلْ يَقُولُ: «إِنَّهُ فِي الصَّلَاةِ».

وَأَخْرَجَ يَقُولُ: «قَالَهَا فِي نَادَى قَوْمِهِ حِينَ أُتْرِزَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ».

وَأَخْرَجَ يَقُولُ: «قَالَهَا وَقَدْ أَصَابَتْهُ سِنَةٌ».

● وَأَخْرَجَ يَقُولُ: «بَلْ حَدَّثَ نَفْسَهُ فَسَهَا».

● وَأَخْرَجَ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَهَا عَلَى لِسَانِهِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا عَرَضَهَا عَلَى جِبْرِيلَ، قَالَ: مَا هَكَذَا أَقْرَأْتُكَ».

● وَأَخْرَجَ يَقُولُ: «بَلْ أَعْلَمَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَهَا، فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ذَلِكَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا هَكَذَا نَزَلَتْ».

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَافِ الرِّوَاةِ، وَمِنْ حُكَيْتِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ عَنْهُ مِنَ الْمَفْسُرِينَ وَالتَّابِعِينَ، لَمْ يُسْنِدْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا رَفَعَهَا إِلَى صَاحِبٍ. وَأَكْثَرُ الطَّرِيقِ عَنْهُمْ فِيهَا ضَعِيفَةٌ وَاهِيَةٌ.

● وَأَمَّا (عَقْلًا) فَقَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى عَصَمَتِهِ ﷺ وَنَزَاهَتِهِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الرِّذِيلَةِ، أَمَّا مَنْ تَمَنَّى أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا مِنْ مَدْحِ آلِهَةٍ غَيْرِ اللَّهِ - وَهُوَ كُفْرٌ - أَوْ أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَيُشَبَّهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ حَتَّى يَجْعَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَيَعْتَقِدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، حَتَّى يُنَبِّهَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَلِكَ كُلُّهُ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ - ﷺ، أَوْ يَقُولَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ عَمْدًا - وَذَلِكَ كُفْرٌ - أَوْ سَهْوًا، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ:

وَقَدْ تَقَرَّرَ بِالْبَرَاهِينِ وَالْإِجْمَاعِ عَصَمَتُهُ ﷺ، مِنْ جَرِيَانِ الْكُفْرِ عَلَى قَلْبِهِ أَوْ لِسَانِهِ، لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا، أَوْ أَنْ يَتَشَبَّهُ عَلَيْهِ مَا يُلْقِيهِ الْمَلَكُ مِمَّا يُلْقَى

الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيلٌ، أو أن يتقوّل عليه الله لا عمدًا ولا سهوًا ما لم ينزل عليه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء ٧٥].

هذا وجه.

● ووجه ثان: (١) - كما يقول القاضى عياض - وهو استحالة هذه القصة نظرًا وعرفًا وذلك أن هذا الكلام لو كان كما رُوى، لكان بعيدًا الالتئام، متناقضًا الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبى ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل.. فكيف بمن رجح حُلمه، واتسع في باب البيان، ومعرفة فصيح الكلام علمه.

● ووجه ثالث: وهو أنه قد عُلِمَ من عادة المتناقضين، ومعاندى المشركين، وَضَعْفُ القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأَوَّل وهلة، وتخليط العدو على النبى ﷺ لأقل فتنة، وتغييرهم المسلمين والشبابة بهم الفئنة بعد الفئنة، وارتداد من في قلبه مرض، ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحدٌ في هذه القصة شيئًا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصُّولة، ولأقامت بها اليهودُ عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء، حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة.

● ووجه رابع (٢)، نقله القاضى عياض عن الرواة لقصة القضية، ولا فتنة أعظم من هذه البلية، أن فيها نزلت: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَيْكَ لَيَتَفَتَّرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء ٧٣، ٧٤].

وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذي رواه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونهُ حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبت له كاد يركن إليهم، فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفتري، وثبته حتى لا يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيراً، وهم يزوّون في أخبارهم الواهية.. أنه زاد على الركون والإفراء بمدح آلهتهم، وأنه قال ﷺ «افتريت على الله وقلت ما لم يقل».

وهذا ضد مفهوم الآية، وهي تُضعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له؟.

قال الأتباري: ما قارب الرسول ولا ركن، وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخرى، ما ذكرناه من نصّ الله على عصمة رسول تردّ سفايفها، فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتنّ على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار، وراموا من فتنته، ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ وهو مفهوم الآية.

٥

بعد إذ انتهى القاضي عياض من توضيح عصمة النبي ﷺ فيما طريقه البلاغ، أى ما بلغ به من وحى.. انتقل إلى ما ليس سبيله الوحى من الأخبار، التى لا مستند لها إلى الأحكام، ولا أخبار المعاد، كالساعة والقيامة والحساب والصراط، وغير ذلك من أمور الآخرة، ولا تضاف إلى وحى، بل فى أمور الدنيا وأحوال نفسه.

فيقول: «فالذى يجب تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع خبره فى شيء من ذلك بخلاف مخبره، لا عمداً ولا سهواً ولا غلطا، وأنه معصوم من ذلك فى حال رضاه، وفى حال سخطه، وجده ومزحه، وصحته ومرضه، ودليل ذلك إتفاق السلف وإجماعهم عليه.

«وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعاداتهم ومبادئهم إلى تصديق جميع أحواله، والثقة بجميع أخباره، فى أى باب كانت، وعن أى شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردّد فى شيء منها، ولا استنبات عن حاله فى ذلك، هل وقع فيها سهواً أم لا»

● والدليل على ذلك، فيما يذكره القاضى عياض:

لما احتج ابن أبى الحقيق اليهودى على عُمر حين أُجْلَاهم من خيبر، بإقرار رسول الله ﷺ لهم، واحتج عليه عمر، بقوله ﷺ: كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ؟ فقال اليهودى: كانت هُزَيْلَةٌ مِنْ أبى القاسم، فقال له عمر: كذبت يا عدو الله.

وأىضا - فإن أخباره وآثاره وسيره وشبائله مُعْتَنَى بها، مستقصى تفاصيلها، ولم يَرِدْ فى شىء منها استدراكه ﷺ لِغَلَطٍ فى قَوْلٍ قاله، أو اعترافه بوهم فى شىء أخبر به، ولو كان ذلك لَنُقِلَ، كما نُقِلَ من قصته عليه السلام رُجُوعُهُ ﷺ عما أشار به على الأنصار فى تلقيع النخل، وكان ذلك رأياً لا خبراً، وغير ذلك من أمور.

كقوله: «والله لا أُحْلِفُ على يَمِينٍ فأرى غيرها خيراً منها إلا فَعَلْتُ الذى حَلَفْتُ عليه، وكَفَرْتُ عن يَمِينِي».

وقوله: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَى...» الحديث.

وقوله: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ حَتَّى يَبْلُغَ الْمَاءُ الْجَذَرَ».

* ويذكر القاضى عياض حقيقة هامة^(١)، وهى أنه من المسلّم به عند الاخباريين إذا عرّفوا أن أحداً يكذب فى حديثه، أو ينقل خطأ، أو يهذى بروايات غريبة، أنهم، ولم يقع قوله فى النفوس موقعا، ولم يؤخذ عنه.. «ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عن عُرْفٍ بالوهم والغفلة، وسوء الحفظ، وكثرة الغلط مع ثِقَتِهِ».

«وأىضا فإن تعمّد الكذب فى أمور الدنيا معصية، والإكثار منه كِبِيرَةٌ بإجماع، مُسْقَطٌ للمروءة» وكل هذا مما ينزه عنه منصب النبوة.

«وأما فيما لا يقع هذا الموقع، فإن عَدَدَنَاهَا من الصغائر، فهل تجرى على حكمها - فى الخلاف فيها - مُخْتَلَفٌ فيه.

* ويصل القاضي عياض إلى هدفه ومبتغاه من هذا العرض، فيقول:
«والصواب تنزيه النبوة عن قليله وكثيره، وسهوه وعَمْدَه، إذ عُمْدَةُ النبوة
البلاغ والإعلام والتبيين، وتصديق ما جاء به ﷺ وتجويز شيء من هذا قَادِحٌ
في ذلك، ومُشَكِّكٌ فيه، مناقض للمعجزة.
«فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خُلْفٌ في القول في وجه من
الوجوه، لا بقصد ولا بغير قصد، ولا تتسامح مع من تتسامح في تجويز ذلك
عليهم، حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ»^(١).

٦

سهوه.. لا ينافي كماله - ﷺ.
ويطرح القاضي عياض سؤالاً قد يطرح، فيقول:
«فإن قلت.. فما معنى قوله - ﷺ - في حديث السهو، الذي رواه
أبو هريرة، ومقاده: «أن النبي - ﷺ - صلى صلاة العصر، فسلم في ركعتين،
فقام ذو اليمين، فقال: يا رسول الله: أَقْصَرْتُ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتُ؟. فقال رسول
الله ﷺ: «كل ذلك لم يكن».
وفي الرواية الأخرى: «ما قَصُرَت الصلاة وما نَسِيتُ»
مظاهر هذا الحديث يفيد أنه ﷺ - نفى الحالتين، وأنه لم يحصل قَصْرٌ
ولا نِسْيَانٌ، مع أنه قد حصل أحد ذلك، كما قال ذو اليمين: «قد كان بعض ذلك
يا رسول الله»

وقد نقل القاضي عياض عن العلماء أجوبتهم في هذا^(٢).
منها: أن النبي - ﷺ - قد أخبر عن اعتقاده وضميره، أما إنكار القصر فحقٌ
وصدق باطناً وظاهراً، وأما النسيان، قد أخبر ﷺ عن اعتقاده، وأنه لم ينس

(١) الشفا ٢/١٣٧.

(٢) الشفا ٢/١٣٨.

في ظنه، فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه، وإن لم ينطق به، وهذا صدق أيضا.
 ووجه ثان: أن قوله ﴿وَلَمْ أَنْسَ﴾ راجع إلى السلام، أى أَنَّى سَلَّمْتُ قَصْدًا،
 وسهوت عن العدد، أى لم أَسْهُ في نفس السلام. وهذا محتمل وفيه بعد.
 ووجه ثالث: وهو أبعدا - ما ذهب إليه بعضهم، وإن احتمله اللفظ من
 قوله «كل ذلك لم يكن» أى لم يجتمع القصر والنسيان، بل كان أحدهما.
 ومفهوم اللفظ خلافه مع الرواية الأخرى الصحيحة، وهو قوله «ما قَصُرَتْ
 الصلاة وما نَسِيتُ».

* وهنا يتصدى القاضى عياض، ليقول القول الفصل، الذى استلهمه
 بعد مراجعة آراء وأقوال العلماء والشيوخ في هذه القضية.. قال:
 «والذى يظهر لى أنه أقرب من هذه الوجوه كلها، أن قوله ﴿لَمْ أَنْسَ﴾
 إنكار للفظ الذى نفاه عن نفسه، وأنكره على غيره، بقوله: «بِنَسَا لأَحَدِكُمْ أَنْ
 يقول: نَسِيتُ آية كذا وكذا، ولكنَّهُ نُسِّيَ». وبقوله في بعض روايات الحديث
 الآخر: «لَسْتُ أَنْسَى وَلَكِنْ أُنْسَى»

فلما قال له السائل: أَقَصُرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ؟ أنكر قَصْرَهَا كما كان،
 ونسيانه هو من قِبَل نفسه، وأنه إن كان جَرى شَيْء من ذلك، فقد نُسِّيَ حتى
 سأل غيره، فتحقق أنه نُسِّيَ وأجرى عليه ذلك لِيُسنَّ. فقوله على هذا «لَمْ أَنْسَ»
 ولم تُقَصِّر» وكل ذلك لم يكن صدق وحق، لم تُقَصِّر ولم يَنْس حقيقة ولكنه نُسِّيَ.
 ويضيف القاضى عياض وجها آخر استشاره من كلام بعض المشايخ..

«وذلك أن النبى - ﷺ - كان يسهو ولا ينسى، ولذلك نفى عن نفسه
 النسيان، لأن النسيان غفلة وآفة، والسهو إنما هو شُغْل، فكان النبى - ﷺ -
 يسهو في صلاته، ولا يغفل عنها، وكان يشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة
 شُغْلًا بها لا غفلة عنها.

فهذا إن تحقق على هذا المعنى، لم يكن في قوله «ما قَصُرَتْ وَمَا نَسِيتُ» خُلْف
 في قول.
 «وعندى - أن قوله، ما قَصُرَت الصلاة وما نَسِيتُ، بمعنى الترك، الذى هو

أحد وجهي النسيان، أراد - والله أعلم - لم أُسَلِّم من ركعتين تاركاً لإكمال الصلاة، ولكنني نُسِيت ولم يكن ذلك من تلقاء نفسي.

والدليل على ذلك قوله - ﷺ - في الحديث الصحيح، «إني لَأَنْسَى أو أَنْسَى لِأُسْنٍ»

ويحدد القاضي عياض جملة الأحاديث المذكور فيها سهو من الرسول - ﷺ، فيقول:

«والصحيح من الأحاديث الواردة في سهوه - ﷺ - في الصلاة ثلاثة أحاديث:

أولها: حديث ذي اليدين في السلام من اثنتين.

والثاني: حديث ابن بحنة في القيام من اثنتين.

الثالث: حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - صَلَّى الظهر خمساً، وهذا هو الثابت في الصحيح.

وهذه الأحاديث مبنية على السهو في الفعل، وحكمة الله فيه لِيُسْتَنَّ به، إذ البلاغ بالفعل أجلى منه بالقول، وأرفع للاحتمال، وشرطه أنه لا يقر على السهو، بل يشعر به ليرتفع الالتباس، وتظهر فائدة الحكمة.

وأن النسيان والسهو في الفعل في حقّه - ﷺ - غير مضاد للمعجزة، ولا قادح في التصديق.

«وهذا بناء على التفريق بين الأفعال البلاغية، وبين الأقوال البلاغية، فالسهو والنسيان قد يقع في الأفعال والأحكام منه - ﷺ - وهو جائز عليه، كما ثبت من أحاديث السهو في الصلاة.

أما الأقوال البلاغية فلا يجوز وقوع النسيان والسهو فيها، لقيام المعجزة على الصدق في القول، والنسيان يناقض ذلك. أما النسيان في الأفعال فغير ناقض لها، ولا قادح في النبوة، بل غلطات الفعل من سمات البشر، كما قال - ﷺ:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أُنْسَىٰ كَمَا تَنْسُونَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»

وحالة النسيان والسهو هنا - في حقه - ﷺ - سبب إفادة علم، وتقرير شرع كما قال ﷺ: «إِنِّي لَا أُنْسَىٰ أَوْ أُنْسَىٰ لِأُسْنٍ»

وهذه الحالة زيادة له في التبليغ، وتقام عليه في النعمة بعيدة عن سمات النقص، وأغراض الطعن.

أما ما ليس طريقه البلاغ، ولا بيان الأحكام من أفعاله، ﷺ - وما يختص به من أمور دينية، وأذكار قلبية، مما لم يفعله لِيَتَّبِعَ فيه، فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها، وذلك بما كلفه من مقاسات الخلق، وسياسات الأمة، ومعاناة الأهل، وملاحظة الأعداء، ولكن ليس على سبيل التكرار، ولا الاتصال، بل على سبيل الدور

وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان، والغفلات والفترات في حقه - ﷺ - جملة، وهو مذهب جماعة من أهل القلوب والمقامات.

٧

ويبدو أن موضوع السهو والنسيان، أخذ على القاضي عياض لُبُّه وقلبه وأحاسيسه، فهو لم يكتفِ بكثرة الآراء والمناقشات، وعقد الفصل تلو الفصل، ولكنه دائماً يسعى لكي يبرز الحقيقة، وذلك بتفنيد المزاعم، والرد على الضالين المضللين، وإبطال مزاعمهم، ويظل ينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن نقطة إلى أخرى، مستطرداً لِيَبْرَزَ نصاعة السيرة، ويوضح الشرائع الزكية.

إن القاضي عياض بعد أن تناول قضية السهو والنسيان، وقف ليرد على الذين يجوزون على النبي - ﷺ - الصُّغائر^(١)، من الفقهاء والمحدثين، ومن شايعهم على ذلك من المتكلمين، لِيَقِيمَ الأدلة على خطأ قولهم، وصحة غيره.

وقد كانت نقطة البداية، أن يناقش ويفسر ما جاء في القرآن من آيات توجي بأن هناك ذنباً اقترِف، من مثل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

فإن ظاهر الآية يفيد جواز صدور الذنب من النبي - ﷺ - اعتماداً على أن المغفرة إنما تكون بعد الذنب، وقد قال بهذا بعض العلماء وأيدوه، فقالوا يجوز صدور الصفات منه - ﷺ - محتجين بآيات وأحاديث، يفيد ظاهرها هذا المعنى.

- * منها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- * وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.
- * وقوله عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾.
- * وقوله سبحانه: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقول النبي - ﷺ - في دعائه: «اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت» ونحوه من أدعيته - ﷺ. وقوله: «إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

وفي حديث أبي هريرة: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

- * وقد أجاب القاضى عياض عن قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بأجوبة عديدة:
- منها: المراد بذلك أمته - ﷺ.
- ومنها: المراد ما كان عن سهو وغفلة وتأويل.
- ومنها: أن المغفرة هنا تبرئة من العيوب.

ومنها: أن النبي - ﷺ - لما أمر أن يقول: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف ٩] سرّ بذلك الكفار، فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية.

فمقصد الآية^(١): أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كَانَ. والمغفرة هنا تبرة من العيوب.

ويعجبني في هذا الصدد، ما قاله الشيخ عبد العزيز الدباغ^(٢)، وخلاصته: «أن المراد بالفتح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ المشاهدة، أى مشاهدته تعالى، فمن رحمة الله تعالى للنبي - ﷺ - أنه أزال عنه الحجاب، وأكرمه بمشاهدته تعالى، فلا يرى إلا ما هو حق، من الحق، وإلى الحق، فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين. وقد وقع له - ﷺ - من صفه لأنه لم يحجب عنه تعالى، وهذا الفتح ثابت لكل نبي، بل ولكل عارف، والخصوصية فيه للنبي - ﷺ - من حيث كمال قوته وطاقته، وأهلية عقله، وروحه ونفسه، وذاته وسره، مما لم يثبت لغيره.

والمراد بالذنب، في قوله: ﴿مَا تَقَدَّمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرُ﴾ الكناية عن زواله، والمراد بالغفران الإزالة فكأنه يقول: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليزول عنك الحجاب بالكلية، ولتتم النعمة منا عليك، ولتهدى وتنصر فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب، ولا هداية فوق هداية المعارف، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته.

* أقول: أما أمر الله تعالى لنبينا المصطفى - ﷺ - بالاستغفار، وكونه - ﷺ - يصرح بذلك، ويدعو به، ويسأله من الله، فهذا من كمال تواضعه - ﷺ - ومن كمال إقراره بالعبودية الكاملة، وبحاجته إلى ربه، وافتقاره إليه، وعدم استغنائه عن فضله، وعدم اغتراره بما أعطاه مولاه، وكان لسان حاله يقول: إني مع ما من الله على من فضل وثواب، ودرجات عالية، ومقامات سامية، فإني لا أزال أرغب في فضله، وأسارع إلى رحابه، وأقف على أبوابه، وأنافس في الخيرات، وأبادر إلى المبرات، وقد صرح بذلك - ﷺ - فقال:

«أنا أخشاكم لله وأتقاكم وأعلمكم به». وفي هذا أيضا تعليم للأمة، ليقصدوا به

(١) الشفا ١٥٧/٢.

(٢) نقلا عن كتاب الإنسان الكامل للشيخ محمد بن علوى المالكي - الجزء الثالث ص ٣٦.

ويتبعونه، وفي هذا أيضا تمام الشكر لله بإدامة العمل له، كيف لا؟ وهو القائل:
«أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»

* قال القاضي عياض: وأما قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾

فقال: ما سَلَفَ من ذنبك قبل النبوة.
وقيل: معناه أنه حُفِظَ قبل نبوته منها، وعُصِمَ، ولولا ذلك لَأَثْقَلَتْ ظهره من أعباء الرسالة حتى بلغها.
وقيل: يُقَالُ شُغِلَ سِرْكٌ وَخَيْرِيَّتُكَ، وطلب شَرِيعَتِكَ حَتَّى شَرَعْنَا ذَلِكَ لَكَ.
وقيل معناه: خَفَقْنَا عَلَيْكَ مَا حُمِلَتْ بِحِفْظِنَا عَلَيْكَ لَمَّا اسْتَحْفَظْتَ وَحُفِظَ عَلَيْكَ.

وقيل: حططنا عنك ثقل الجاهلية.
ومعنى ﴿أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أى كَادَ يَنْقُضُهُ، فيكون المعنى على من جعل ذلك لما قَبْلَ النبوة، اهتمام النبي - ﷺ - بأمور فعلها قبل النبوة، وَحُرِّمَتْ عليه بعد النبوة، فَعَدَّهَا أَوْزَارًا وَثَقَلَتْ عليه، وَأَشْفَقَ مِنْهَا.
أو يكون «الوضع» عصمة الله له، وكفايته من ذنوب لو كانت لَأَنْقَضَتْ ظهره.

أو يكون من ثَقُلَ الرسالة، أو ما ثَقُلَ عليه، وَشَغَلَ قَلْبُهُ من أمور الجاهلية. وإعلام الله تعالى له بحفظ ما استحفظه من وحيه.

* قال القاضي عياض: وأما قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ هُمْ﴾
فأمر لم يتقدم للنبي - ﷺ - فيه من الله تعالى نَهْيٌ، فبعدُ معصية، ولا عَدَّةُ الله تعالى عليه معصية، بل لم يعدّه أهل العلم معاتبة، وَغَلَطُوا من ذهبَ إلى ذلك.

قال نفطويه: وقد حاشاه الله تعالى من ذلك، بل كان مُخَيَّرًا في أمرين، قالوا:
وقد كان له أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي، فكيف وقد قال الله تعالى ﴿فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

فلما أذن لهم، أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم، أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، وأنه لا حرج عليه فيما فعل.

وليس ﴿عَفَا﴾ ههنا بمعنى ﴿غَفَرَ﴾ بل كما قال النبي - ﷺ - «عَفَا الله لَكُمْ عن صدقة الخيل والرقيق». ولم يجب عليهم قط، أى لم يلزمكم ذلك. ونحوه للقشيري: قال: وإنما يقول ﴿العَفْوُ﴾ لا يكون إلا عن ذنب، من لم يعرف كلام العرب.

قال: ومعنى ﴿عَفَا الله عَنْكَ﴾ أى لم يلزمك ذنباً.

قال الداودي: روى أنها كانت تكرمة.

قال مكى: هو استفتاح كلام، مثل: «أَصْلَحَكَ الله وَأَعَزَّكَ».

٨

موقفه من أسرى بدر^(١):

ومما يستدل به، من يقول بجواز الخطأ على النبي - ﷺ - دون أن يقر عليه، قصة أسرى بدر. وهى - كما فى المسند - عن أنس رضى الله عنه أنه قال:

«استشار النبي ﷺ - الناس فى الأسرى يوم بدر، فقال: إن الله تعالى أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله.. اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله - ﷺ، فقال: يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس، فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال الناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله نرى أن تغفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله - ﷺ - ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبِل منهم الفداء.

(١) الشفا ١٥٨/٢.

● قال القاضي عياض: «وأما قوله في أسارى بدر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ الآيتين. فليس فيه إلزام ذنب للنبي - ﷺ - بل فيه بيان ما خُصَّ به، وفضل من بين سائر الأنبياء، فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك، كما قال ﷺ: «أَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلْ لِنَبِيٍّ قَبْلِي»

● فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ٦٧]

● قيل: المعنى، الخطاب لمن أراد ذلك منهم، وتجرد بغيره لغرض الدنيا وحده، والاستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي - ﷺ - ولا عليه أصحابه.

بل روى الضحاك، أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر، واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال، حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو. ثم قال تعالى:

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال

[٦٨]

ويتابع القاضي عياض دفاعه، فيقول: «إن معنى هذه الآية: لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم، فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية.

وقيل: المعنى، لولا إيمانكم بالقرآن، وهو الكتاب السابق، فاستوجبتم به الصفح لعقوبتم على الغنائم. ويزداد هذا القول تفسيراً وبياناً بأن يُقال: لولا ما كنتم مؤمنين بالقرآن، وكنتم ممن أجلت لهم الغنائم، لعوقبتكم كما عوقب من تعدى.

وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتكم. فهذا كله ينفي الذنب والمعصية، لأن من فعل ما أجّل له لم يعص^(١).

أقول: إن من تأمل ما جاء في روايات هذه القصة، يظهر له جليا أنه -

ﷺ - كان مُصِيباً فيما فعله، وذلك من وجوه متعددة:

● الوجه الأول: أن النبي ﷺ - عمل بذلك بمقتضى المشورة، التى أمره الله تعالى بها، فى قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾

● الوجه الثانى: أنه - ﷺ - جنح إلى رأى من قال بالفداء، وأحبّه لما فيه من الرحمة والعطف واللين، بمقتضى المقام الذى أقامه تعالى فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

● الوجه الثالث: أن فعله - ﷺ - كان موافقاً لما سبق فى الكتاب الأول، الذى قضى الله تعالى فيه حلّ الغنائم له - ﷺ - خاصة، ولم تحل لأحد قبله، كما قال ابن عباس رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعنى فى أم الكتاب الأول، إن المغانم والأسارى حلال لكم، لمُسْكَم فيما أخذتم عذاب عظيم.

● الوجه الرابع: وكما أن قبوله - ﷺ - الفداء، وافق قضاء الله تعالى السابق فى الكتاب الأول، فإنه وافق أيضاً الشرع اللاحق النازل فى الكتاب الحكيم، وهو قوله تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
[الأنفال ٦٩]

فكيف يقال فى أمر وافق الكتاب الأول ووافق الشرع النازل بعد، كيف يقال إنه خطأ؟

● الوجه الخامس: أن نزول التشريع بإحلال الغنائم، وهو قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾

وهو إقرار لما فعله الرسول - ﷺ - وتصويب لما رآه، إذ لو كان فعله خطأ، كيف يقرّه الله تعالى عليه، ويجعله شرعاً باقياً؟ حتى على قول من جَوَزَ الخطأ عليه - ﷺ - دون أن يقرّه الله عليه، لا يقال: إنه ﷺ - أخطأ فى قضية أسرى بدر، لأن الله تعالى أقرّه على ذلك، فمن أين يأتى الخطأ.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل، كما فعل بينى قريظة، وإن شاء فآدى بآل، كما فعل بأسرى بدر، أو فآدى بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله - ﷺ - في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين، الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعى، وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

الوجه السادس: لو كان موقفه - ﷺ - مع أسرى بدر خطأ، لأمره الله تعالى أن يرّد الفداء، وأن يستغفر الله تعالى من الخطأ الذى وقع فيه، مع أنه سبحانه وتعالى أقره على ذلك، وشرع له ذلك، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الآية.

فلو كان خطأ لما أقره الله تعالى عليه، ولما شرع له ذلك.

الوجه السابع: كيف يحكم بأنه - ﷺ - أخطأ في أسرى بدر، مع أنه - ﷺ - أمر أن يخير أصحابه في ذلك، ثم عمل بمقتضى ذلك.

● فقد روى الترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم، بإسناد صحيح، عن على كرم الله وجهه، قال:

جاء جبريل - عليه السلام - إلى رسول الله - ﷺ - يوم بدر، فقال له: خير أصحابك في الأسارى إن شاءوا القتل، وإن شاءوا الفداء، على أن يقتل منهم - أى الصحابة - فى العام المقبل مثلهم، فقالوا: نختر الفداء، ويقتل منا (أى الصحابة) سبعون رغبة فى الشهادة فى سبيل الله تعالى. وعند ابن سعد: من مرسل قتادة: فقالوا: بل نفاديهم فتقوى بهم عليهم، ويدخل العام القابل منا الجنة سبعون، ففادوهم.

قال الحافظ القسطلانى: وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه.

أما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَنَّ فِي الْأَرْضِ، تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ٦٧]

فليس فيها معاتبة للنبي - ﷺ - أصلاً، وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبي - ﷺ - بالفداء بغية عرض الدنيا، وهو المال المفتدى به، حين استشار عامة الناس قبل أن يستشير خاصتهم أبا بكر وعمر وعلياً، رضى الله عنهم، كما تقدم. فأراد الله بقوله تعالى: ﴿تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أولئك النفر الذين أرادوا المال.

أما الرسول - ﷺ - فلم يقصد بقبول الفداء عرض الدنيا، وحاشاه من ذلك، فإن الدنيا كلها مالها قيمة عنده، وقد قال - ﷺ - : «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» وقد عُرِضَتْ عليه جبال تهامة أن تكون له ذهباً فأبى، فأين هو من عرض الدنيا؟

كما أن قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فإن هذا إعلان منه - سبحانه وتعالى - بنعمته ومنته على هذه الأمة بفضل نبيها - ﷺ - وإعلام بأنه سبق منه القضاء في الكتاب الأسبق، بحل الغنائم لهذه الأمة دون غيرها، فضلاً منه ونعمة بفضل نبيها وكرامته على الله تعالى.

ومن ثم كان - ﷺ - يُشِيدُ بهذه النعمة في جملة من المناقب التي خصَّه الله تعالى بها، فيقول: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبَعَثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَكُنْ تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي».

أما ما جاء في الحديث، من قول عمر - رضى الله عنه: فلما كان من الغد، جئت فإذا رسول الله - ﷺ - وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يارسول الله أخبرني من أى شيء تبكى وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت،

وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكها، فقال رسول الله - ﷺ: «أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله - ﷺ) وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ، تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فأحل الله الغنيمة لهم.

أقول: الصواب أن هذا الذي عرض عليه - ﷺ - من عذابهم كان قبل نزول الآيات المقررة تصحيح عمله، وتأيد موقفه، وتثبيتته فيما انشرح إليه صدره، من رأى أبي بكر - رضى الله عنه، وفائدة هذا العرض زيادة المنّة من الله تعالى، بتعظيم النعمة عليهم فيما أباحه لهم مما كان محرماً على من قبلهم، وذلك ببيان ما يستحق هؤلاء الأسرى من الجزاء والعقاب لو جرى الأمر على ما كان مما هو مشروع من قبل، فعذابهم هذا الذي رآه - ﷺ - هو الذي يستحقونه لو لم يكن ما شرعه الله، مما هدى إليه رسوله الصادق الأمين، من قبوله الفداء، وأخذ الغنائم ثم بعد إظهار ذلك لحضرة المصطفى - ﷺ - بكى، لأنه ظن أن هذا هو حكم الله فيهم وظن أنه أخطأ فيما جنح إليه ورآه، ثم أعلمه الله جل شأنه بصحة ذلك، وأنه هو الحق، بما أنزل عليه من الآيات البينات، التي صوّبت عمله، وأيدت قوله وفعله، وجعلت ما ذهب إليه شريعة متبعة، وسمة قائمة، ونظاماً من أصول الأنظمة الحربية في شأن الأسرى إلى قيام الساعة.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية.

فالصواب: أن هذه الآية إخبار من الله تعالى لنبيه - ﷺ - عن حكم هذه القضية في الشرائع السابقة، وهي تقول له: يا محمد ما كان لنبي ممن سبقك من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يكثر القتل والقهر في العدو، هذا حكم من سبق. أما أنت، فقد أبحنا ذلك وأحللناه لك، مزية ومنقبة وخصوصية تتميز بها عنهم.

فالآية اشتملت على تقرير تمام النعمة على محمد - ﷺ - ببيان ما فضله به مولاه، واختصه به الله مما كان محرماً على من سبقه، فتدبر، وليس فيها عتاب أو خصام.

* ويتابع القاضى عياض حديثه فى هذه القضية، فيقول: ^(١) - وأما قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى..﴾ الآيات، فليس فيه إثباتُ ذنب له - ﷺ - بل إعلام الله أن ذلك المتصدى له ممن لا يتركى..

وأن الصواب والأولى كان - لو كُشِفَ لك حالُ الرَّجُلَيْنِ - الإقبال على الأعمى. وفعل النبي - ﷺ، لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعةً لله، وتبليفاً عنه، واستثلاًفاً له، كما شرعه الله له، لا معصية ومخالفة له، وما قصه الله عليه من ذلك إعلامٌ بحال الرجلين، وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى﴾

أقول: ويحتمل أنه عتاب من الحق سبحانه على ما فعله - ﷺ - مما ظهر له صلاحه، وترجع عنده نجاحه، وكان الواقع الذى قدر الله جل وعلا بخلاف ذلك، والعتاب لا يقتضى ولا يلزم منه أن يكون بعد ذنب، أو مخالفة - كما هو الجارى بين الناس فى معاملتهم، فقد يعاتب الأخ أخاه، والحبیب حبيبه، على ترك الأولى، بل على ترك الأكمل، وقد يعاتب الوالد ولده على التقصير وفعل المنعوم، فالعتاب أوسع من أن يكون فى جهة واحدة.

وقيل: أراد (يعبس وتولى) الكافر، الذى كان مع النبي - ﷺ - قاله أبو تمام.

* قال القاضى عياض: وأما قوله - ﷺ - «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ» وفى رواية: «فى اليوم أكثر من سبعين مرة»

« فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغين وسوسة أو رِيًّا وقع في قلبه ﷺ، بل أصل الغين في هذا ما يتغشى القلب ويغطيه. وأصله من غين السماء وهو إطباق الغيم عليها. وقال بعض العلماء: والغين شيء يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية، كالغيم الرقيق، الذي يعرض في الهواء، فلا يمنع ضوء الشمس.

والمراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه، وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر، ومشاهدة الحق بما كان ﷺ، دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، ومقاومة الولي والعدو، ومصلحة النفس، وما كلفه من أعباء أداء الرسالة، وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه، وعبادة خالقه.

ولكن لما كان - ﷺ - أرفع الخلق عند الله مكانة، وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه، وخلوهمه، وتفرد به بره، وإقباله بكليته، ومقامه هناك أرفع حاله، رأى - ﷺ - حال فترته عنها، وشغله بسواها غضا من على حاله وخفضا من رفيع مقامه، فاستغفر الله من ذلك.

هذا أولى وجوه الحديث وأشهرها، وإلى معنى ما أشرنا به مال كثير من الناس، وحام حوله وهو مبني على جواز الفترات والفضلات، والسُّهُو في غير طريق البلاغ.

وذهبت طائفة من أرباب القلوب، ممن قال بتنزيه النبي - ﷺ - عن هذا جملة، وأجله أن يجوز عليه في حال سهو، أو فقرة إلى أن معنى الحديث ما بهم خاطره، ويغم فكره من أمر أمته - ﷺ - لاهتمامهم بهم، وكثرة شفقتهم عليهم فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكون الغين هنا على قلبه السَّكِينَةُ تتغشاه لقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ ويكون استغفاره - ﷺ - عندها إظهاراً للعبودية والافتقار.

قال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا، تعريف للأمة يحملهم على الاستغفار.

وقال غيره: ويستشعرون الحذر ولا يركنون إلى الأمن.

وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه، فيستغفر حينئذ شكراً لله، وملازمة لعبوديته، كما قال في ملازمة العبادة «أفلا أكون عبداً شكوراً»

٩

* ويختتم القاضي عياض هذا الفصل الهام من سيرة المصطفى - ﷺ - بخاتمة نفيسة يقول فيها: (١)

«قد استبان لك أيها الناظر بما قرناه ما هو الحق من عصمته - ﷺ - عن الجهل بالله، وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وإجماعاً، وقبلها سماعاً ونقلًا، ولا بشيء مما قرناه من أمور الشرع، وأداه عن ربه من الوحي قطعاً وعقلاً وشرعاً. وعصمته عن الكذب، وخلف القول منذ نبأه الله، وأرسله قصداً أو غير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، ونظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه، فيما شرعه للأمة. وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب، وجدٍّ ومزح..

فيجب عليك أن تتلقاه باليمين، وتشدُّ عليه يد الضنين، وتقدر هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطورها، فإن من يجهل ما يجب للنبي - ﷺ -، أو يجوز أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه، لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هي عليه، ولا يُنزَّهه عما لا يجب أن يُضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار، إذ ظنَّ الباطل به اعتقاد

ما لا يجوز عليه، يُحِلُّ بصاحبه دار البوار.

«ولهذا ما احتاط عليه السلام على الرجلين اللذين رأياه ليلاً، وهو معتكف في المسجد مع صَفِيَّة، فقال لهما: إنها صَفِيَّة، ثم قال لهما: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا فتَهْلِكَا.

ثم يقول القاضي عياض: هذه أكرمك الله إحدى فوائد ما تكلمنا عليه في هذه الفصول.

ولعل جاهلاً لا يَعْلَم بجهله، إذا سمع شيئا منها يرى أن الكلام فيها جملة من فضول العلم، وأن السكوت أولى، وقد استبان لك أنه متعين للفائدة التي ذكرناها. وفائدة أخرى: يُضطر إليها في أصول الفقه، وَيُتَنَبَّئُ عليها مسائل لا تَنَعُدُّ من الفقه، ويتخلص بها من تشعب مختلفي الفقهاء في عدة منها، وهي: «الحكم في أقوال النبي - ﷺ - وأفعاله» وهو باب عظيم، وأصل كبير من أصول الفقه، ولا بد من بنائه على صدق النبي - ﷺ - في أخباره وبلاغه، وأنه لا يجوز عليه السهو فيه، وعصمته من المخالفة في أفعاله عمداً.

وفائدة ثالثة: يحتاج إليها الحاكم والمفتي، فيمن أضاف إلى النبي - ﷺ - شيئا من هذه الأمور، ووصفه بها، فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه، وما وقع الإجماع فيه، والخلاف كيف يُصمَّم في الفتيا في ذلك، ومن أين يدرى هل ما قاله فيه نقص أو مدح..

فإما أن يجترئ على سفك دم مُسْلِمٍ حرام، أو يسقط حقاً وَيُضَيِّع حُرْمَةً للنبي - ﷺ ^(١).

الفصل الثاني

الجانب الإنساني في شخصية الرسول

بعد إذ انتهى القاضى عياض من دراسة الجانب الدينى في شخصية الرسول ﷺ، وما يتصل بها من عصمته قبل النبوة وبعدها. تحوّل لدراسة الجانب الدنيوى، الإنسانى البشرى^(١) وما يتصل به من أمور دنيوية، وما يطرأ عليه من العوارض البشرية في شخصيته - ﷺ.

هذا الجانب سبق أن أشار إليه، وتحدث عما يجوز عليه من الآفات والتغيرات، والآلام والأسقام، وتجرع كأس الحما، لأنه من البشر، وأن جسمه وظاهره خالص للبشر.

وهذا الأمر ليس بنقيضه فيه - ﷺ - لأن الشيء إنما يُسمى ناقصاً بالإضافة إلى ما هو أتم منه، وأكمل من نوعه، وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار: ﴿فِيهَا يُخَيَّونَ وَفِيهَا يُمَوَّتُونَ، وَمِنْهَا يُخْرَجُونَ﴾.

وبناء على ذلك، فقد مرض - ﷺ - واشتكى وأصابه الحرّ والقرّ، وأدركه الجوع والعطش، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياء والتعب، ومسه الضعف والكبر، وسقط فججش شقه، وشجّه الكفار، وكسروا رِباعيته، وسقى السم، وسجر، وتداوى واحتجم، وتنشّر وتعوذ، ثم قضى نحبه فتوفى - ﷺ، ولحق بالرفيق الأعلى، وتخلّص من دار الامتحان والبلوى.

وهذه سمات البشر التى لا محيص عنها لولا عناية الله التى تحيط به فى كل زمان وفى كل مكان.

فالله سبحانه كفاه يد ابن قَمِيْثَة يوم أحد، وحجبه عن عيون عداه عند دعوته

(١) الشفا ٢/١٧٨.

أهل الطائف. وأخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور، وأمسك عنه سيف غورث، وحَجَرَ أَبِي جَهْل، وفرَس سُرَاقَةَ، ووقاه الحق سبحانه سحر ابن الأعصم، كما وقاه ما هو أعظم، من سَمِّ اليهودية.

وهذه الحماية، وهذه الوقاية، من تمام حكمته تعالى، ليظهر شَرَفَهُ في هذه المقامات، ويبين أمره، ويتم كلمته، وليحقق بامتحانه بشريته، ويرتفع الإلتباس عن أهل الضعف فيهم، لئلا يضلُّوا بما يظهر من العجائب على يديه ضلال النصارى بعبسى بن مريم، وليكون في محنته تسلية لأمته، ووفور لأجره عند ربه.

قال الراسخون في العلم: وهذه الطوارئ والتغيرات المذكورة، إنما تختص بجسمه البشري، المقصود به مقاومة البشر، ومعاناة بنى آدم لمشاكلة الجنس.

* أما بواطنه، ﷺ - فمنزّهة غالبا عن ذلك، معصومة منه، متعلّقة بالملأ الأعلى والملائكة لأخذها عنهم، وتلقيها الوحي منهم، وقد قال ﷺ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أُبَيِّتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». «إِنْ عَيْنِي تَنَامَانِ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»

فأخبر أن سرّه وباطنه وروحه بخلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التي تحلُّ ظاهره من ضَعْفٍ وجوع وسَهَرٍ ونوم، لا يحل منها شيء باطنه، بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن، لأن غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه، وهو ﷺ - في نومه حاضر القلب، كما هو في يقظته. حتى قد جاء في بعض الآثار، أنه كان محروسا من الحدث في نومه، لكون قلبه يقظان.

قال القاضي عياض: إنه - ﷺ - في هذه الأحوال كلها من وَصَبٍ وَمَرَضٍ، وَسِحْرِ وَغَضَبٍ، لم يَجْرَ على باطنه ما يُحِلُّ به، ولا فَاَضَ منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به، كما يعتري غيره من البشر.

سحره لا ينافي كماله:

أول المسائل التي تعرض لها القاضي عياض، فيما يطراً عليه من الأحوال، مسألة السحر^(١) الذي تعرض له فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «سُحِرَ رسول الله - ﷺ - حتى إنه ليُخَيَّلُ إليه أنه فَعَلَ الشيءَ وَمَا فَعَلَهُ» وفي رواية أخرى: «حتى كان يُخَيَّلُ إليه أنه كان يأتي النساء ولا يأتينهن» الحديث.

وقد اختلف الناس في هذا الحديث اختلافاً كبيراً، فمنهم من ردّه وطعن فيه، ومنهم من التمس عليه الأمر فقدح في العصمة النبوية. والحق أن حديث سحره - ﷺ - صحيح، متفق عليه، ولا يقدح في عصمته.

* قال القاضي عياض:

«وقد نزه الله الشَّرع، والنَّبِيَّ عما يُدْخِلُ في أمره لبساً، وإِنَّمَا السُّحْرُ مَرَضٌ من الأمراض، وَعَارِضٌ من الْعِلَلِ، يجوز عليه كَأَنوَاعِ الأمراضِ بما لا ينكر ولا يقدح في نبوته»

«وأما ما ورد أنه كان يُخَيَّلُ إليه أنه فَعَلَ الشيءَ ولم يفعله فليس في هذا ما يُدْخِلُ عليه داخلية في شيء من تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا»

«وإِنَّمَا هذا فيما يجوز طَرُهُ عليه في أمر دنياه، التي لم يُبْعَثْ بسببها، ولا تُفْضَلُ من أجلها، وهو فيها عُرْضَةٌ لآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يُخَيَّلَ إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان.

* أما ما ورد في الحديث الآخر، من قوله: «حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ».

فقد قال سفيان: هذا أشد ما يكون من السحر، ولم يأت في خبر منها أنه نُقل عنه في ذلك قول، بخلاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يفعله، وإنما كانت خواطر وتخيلات.

وقد قيل: إنه كان يتخيل الشيء أنه فعله وما فعله، لكنه تخيل لا يعتقد صحته، فتكون اعتقاداته كلها على السداد، وأقواله على الصحة.

قال القاضي عياض: إن كل وجه من هذه الوجوه مقنع، لكنه قد ظهر لي - في الحديث - تأويل أجلى وأبعد عن المطاعن.

* ففي رواية عروة بن الزبير: سَحَرَ يَهُودُ بْنُ زُرَيْقٍ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فجعلوه في بئر، حتى كاد رسول الله - ﷺ - أَنْ يُنْكَرَ بَصَرَهُ، ثُمَّ دَلَّهَ اللَّهُ عَلَى مَا صَنَعُوا فاستخرجوه من البئر.

* وفي رواية يحيى بن يعمر، «حُبِسَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ عَائِشَةَ سَنَةً، فَبَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ أَتَاهُ مَلَكَانٌ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ». الحديث.

* وفي رواية ابن عباس: مَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَحُبِسَ عَنِ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَهَبَطَ عَلَيْهِ مَلَكَانٌ... وذكر القصة.

ويخلص القاضي عياض من مضمون هذه الروايات، أن السحر إنما تسلط على ظاهره وجوارحه، لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثر في بصره، وحَبَسَهُ عَنْ وَطْءِ نِسَائِهِ وَطَعَامِهِ، وَضَعَفَ جِسْمَهُ وَأَمْرَضَهُ، ويكون معنى قوله: «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ» أى يظهر له من نشاطه ومتقدم عاداته، القدرة على النساء، فإذا دَنَا مِنْهُنَّ أَصَابَتْهُ أَخْذَةُ السَّحْرِ، فلم يقدر على إتيانهن، كما يعترى من أخذ واعترض.

ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله: «وهذا أشد ما يكون من السحر» ويكون قول عائشة: «إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله من باب

ما اخْتَلَّ من بَصَرِهِ، فيظن أنه رأى شخصا من بعض أزواجه، أو شاهد فعلا من غيره، ولم يكن على ما يُخَيَّل إليه، لما أصابه في بصره، وَضَعَفَ نظره، لا لشيءٍ طَرَأَ عليه في مَيَّزِهِ.

وإذا كان هذا.. لم يكن فيها ذكر من إصابة السُّحر له، وتأثيره فيه ما يُدخل لُبْسًا، ولا يجد به الملحد المعترض أنسًا».

أقول : وأقرب دليل - في رأيي - في تأكيد حفظ قلبه وعقله من السحر، هو انضباط أقواله في تلك الفترة، وجريانها على نسقها الطبيعي، بلا اختلال ولا تناقض، ولا اضطراب ولا فساد، بل على الكمال والتمام، والانسجام التام، مع وجود أعدائه، وترقبهم لأحواله، وحرصهم على حفظ أدنى كلمة أو حرف، يستنقصون به حاله، ويشفون به غيظهم، ولو ظفروا بمثل ذلك لنفخوا فيها، وطاروا بها، ولكنه لم يثبت شيء من هذا، وحفظ الله نبيه المصطفى - ﷺ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال.

بل الأمر عندى على العكس، وهو أن سحره - ﷺ - وتأثر بعض ظاهره بذلك، وسلامة قلبه وعقله، واعتقاده وأقواله، أكبر دليل على كمال عصمة الله له، وأن نبوته محفوظة، لا تتأثر بالعوارض البشرية مهما بلغت قوتها، وأنه بالرغم من تأثر بشريته بذلك - إلا أن نبوته محفوظة، مع أن النفس التي تحمل البشرية والنبوة واحدة، وهى نفس محمد - ﷺ.

وفى هذا إشارة إلى أنه محفوظ بحفظ خاص، مرعى برعاية خاصة، ليس لأحد عليه سلطان، بل هو الله الواحد الديان، عرش حقائق، ومحل دقائق، ومهبط أنوار، وتنزل أسرار. فهذا حاله في جسمه.

٢

أحواله في أمور الدنيا:

وأما أحواله الدنيوية، فمناط أسلوبها - كما يقول القاضى عياض - بالعقد والقول والفعل^(١).

(١) الشفا ١٨٣/٢.

* أما العقد: فقد يعتقد في أمور الدنيا الشيء على وجهه، ويظهر خلافه، أو يكون منه على شك أو ظن، وهذا بخلاف أمور الشرع.

أى أنه - ﷺ - قد يجتهد في الأمور الدنيوية التي تتصل بالزراعة، ويدلى برأيه، وهذا الرأى يحتمل الصحة والخطأ، لأنه من البشر، قد يصيب وقد يخطئ.
مثال ذلك.. موقفه من قضية تأييد النخل..

قال رافع ابن خديج: قدم رسول الله - ﷺ - المدينة، وهم يأبسون النخل، أى يلقحونه. فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا» فتركوه، فنفضت أى أسقطت حملها. فذكروا ذلك له، فقال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أُمِرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أُمِرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ».

وفى رواية أنس: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ».

وفى حديث آخر: «إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تَوَاضَعُوا لِي بِالظَّنِّ».

وفى حديث ابن عباس، فى قصة الخرص - أى الحزر والتقدير - فقال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَمَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قُلْتُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَخْطِئُ وَأُصِيبُ».

فمن هذا الحديث فهم بعض الناس، أن النبى ﷺ - قد يخطئ فى أمور الدنيا، وراح يقول: أخطأ رسول الله - ﷺ - فى كذا، وأخطأ فى كذا.
قال القاضى عياض: «وهذا على ما قرناه فيما قاله من قبل نفسه فى أمور الدنيا، وظنه من أحوالها، لا ما قاله - ﷺ - من قبل نفسه واجتهاده فى شرع شرعه، وسنة سنّها».

* ومثله ما حكاه ابن اسحاق، أنه ﷺ، لما نزل بأدى مياه بدر، قال له الحباب بن المنذر: أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

قال ﷺ: لا بَلْ هو الرأى والحرب والمكيدة، قال: فإنه ليس بمنزل، أنهض حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، فنشرب ولا يشربون، فقال ﷺ: «أَشْرَتُ بالرأى» وفعل ما قاله. وقد قال الله تعالى له - ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

قال القاضى عياض: «فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا، لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها، يجوز عليه فيها الصواب والخطأ».

«والنبي - ﷺ - مشحون القلب بمعرفة الربوبية، ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور، ويجوز في النادر.

«وقد تواتر بالنقل عنه - ﷺ - من المعرفة بأمور الدنيا، ودقائق مصالحها. وسياسة فِرَق أهلها ما هو معجز في البشر»^(١).

أقول: الحق أَحَقُّ أن يذكر، وأن يتبع، ذلك أن أقواله - ﷺ - وأفعاله، يُفسَّر بعضها بعضا، ويشبه بعضها بعضا، وأن الله تعالى حفظه عن الخطأ كما حفظه من الخطيئة، والدليل على ذلك..

أولا: أنه - ﷺ - قد نشأ في تلك الأراضي المباركة، التي هي منابت النخيل، وتربى بين قوم يعلمون فنون زرع النخيل، وما يتطلبه من عنايات ولقاحات، وكيف يتصور في حقه - ﷺ - أن تخفى عليه تلك العادة المطردة في انتاج النخيل، ولزوم التلقيح له بموجب الأصول الزراعية؟ في حين أن ذلك ليس من خفايا معلومات الزراعة لشجر النخيل. ولا من غوامضها، إذا لابد وأنه يعلم ذلك كما يعلمون، ولكن أراد أن يظهر لهم أمرا لا يستطيعون ثبَلَه بأنفسهم.

ثانيا: أن الرسول الكريم - ﷺ - الذى نال من العلوم ما نال، وأفاض الله تعالى عليه ما أفاض، حتى أنه ذكر الصحابة، ويحث لهم في كل شيء، كما روى الطبرانى عن أبي ذرٍّ - رضى الله عنه. قال: «تَرَكْنَا رسول الله ﷺ - وما طَائِر

يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو ذكر لنا منه علما.

فكيف يتصور أنه يخفى عليه - ﷺ وسلم - أن النخيل لا يحتاج إلى تلقيح بمقتضى العادة في علم الزراعة؟ ولكن رسول الله - ﷺ - أراد أمراً آخر.

ثالثاً: أن الذى يدلنا على ذلك الأمر الذى أراده - ﷺ - هو النظر في أشباه هذه الواقعة الصادرة منه - ﷺ - ومن ذلك حديث «ناولنى الذراع».

* ففى المسند عن أبى رافع، مولى رسول الله - ﷺ - قال: صُنع لرسول الله - ﷺ - شاة مَصْلِيَّة (أى مشوية) فأتى بها فقال: «يا أبا رافع: ناولنى الذراع» فناولته، ثم قال: «ناولنى الذراع» فناولته، ثم قال: «ناولنى الذراع» فقلت: يارسول الله هل للشاة إلا ذراعان، فقال ﷺ: «لو سَكَتَ لَنَاوَلْتَنِي مِنْهَا ذِرَاعًا مَا دَعَوْتُ بِهِ» قال: وكان رسول الله - ﷺ - يعجبه الذراع.

وعن أبى عبيد: أنه طبخ لرسول الله - ﷺ - قِدْرًا فيها لحم، فقال رسول الله - ﷺ: «ناولنى ذراعها» فناولته، فقال: «ناولنى ذراعها» فناولته، فقال: «ناولنى ذراعها» فقلت: يانبنى الله، كم للشاة من ذراع؟ فقال رسول الله - ﷺ: - والذى نفسى بيده. لو سَكَتَ لَأَعْطَيْتُ ذِرَاعًا مَا دَعَوْتُ بِهِ».

فقوله - ﷺ - «ناولنى الذراع» فى المرة الثالثة، مع العلم أن الشاة لها ذراعان، إنما أراد أن يظهر أمراً معجزاً فيه الإكرام، وفيه البرهان، وفيه الإشهاد بالعيان.

ولكن لما لم يجد محلاً قابلاً، لم تظهر تلك المعجزة، ولذلك قال الحافظ الزرقانى - عند قوله: ﷺ «أما أَتَاكَ لو سَكَتَ لَنَاوَلْتَنِي ذِرَاعًا فَذِرَاعًا مَا سَكَتَ» أى مدة سكوتك، لأنه سبحانه يخلق ذراعاً فذراعاً معجزةً لنبيه - ﷺ - فحملت المناول عجلته المركبة فى الإنسان على قوله: «إنما للشاة ذراعان» فانقطع المدد، لأنه إنما كان من مدد الكريم سبحانه، إكراماً لخلاصة خلقه - ﷺ. فلو تلقاه المناول بالأدب ساكتاً مصغياً إلى ذلك العجب، لكان شكراً منه مقتضياً لتشريفه بإجراء هذا المدد على يديه، ولكنه تلقاه بصورة الإنكار، فرجع الكرم مولياً، لما لم يجد قابلاً، إذ لا تليق مشاهدة هذه المعجزة العظيمة، التى فى شهودها نوع تشريف

للمطلع عليها، إلا لمن كمل تسليمه، ولم يبق فيه أدنى حظ ولا إرادة.

* وهكذا في حادثة تأبير النخل، لما مرَّ ﷺ - يقوم يُؤبِرُونَ النخل، أراد أن يكرمهم ويُثَجِّفَهُمْ، وأن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة المطردة في إصلاح النخيل بالتأبير، فيكرمهم خاصة بصلاحه دون تأبير، إذ هو - ﷺ - ممن يعلم بموجب العادة، حاجة النخيل إلى تلقيح - كما يعلمون، لأنه - ﷺ - بينهم مطلع على أمورهم..

ولكن لما لم تقبل قلوب بعض أولئك نفر، ولم تستسلم كل الاستسلام، إلى قوله - ﷺ - «لو لم تفعلوا - أى التأبير - لصلح» بل وقفوا عند معلوماتهم الدنيوية المطردة من فن زراعة النخيل، وأن صلاحه موقوف على التأبير، فلم يلتق الكرم محلاً قابلاً، فرجع. ولذلك ردَّهم - ﷺ - بعد ذلك إلى الأسباب المعتادة لديهم، المعلومة عندهم، التي وقفوا عندها، ولم يجاوزوها، فقال لهم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» أى فارجعوا إلى العمل بموجب علمكم بأمور دنياكم.

ويشهد لصحة ما قلناه، وصواب ما فهمناه، من أنه - ﷺ - لم يخطئ في ذلك، قول «الشيخ عبد العزيز الدباغ» في كتابه الإبريز^(١)، حين سُئل عن حديث تأبير النخل، فقال:

«قوله - ﷺ - «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَتْ» كلام حق، وقول صدق، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين، بأنه تعالى هو الفاعل بالاطلاق، وذلك الجزم مبنى على مشاهدة سريان فعله تعالى في سائر الممكنات، مباشرة بلا واسطة ولا سبب، بحيث أنه لا تسكن ذرة، ولا تتحرك شعرة، ولا يخفق قلب، ولا يضرب عِرْق، ولا تطرف عين، ولا يومئ حاجب، إلا هو تعالى فاعله مباشرة، من غير واسطة، وهذا أمر يشاهده النبي - ﷺ - كما يشاهد غيره من سائر المحسوسات، ولا يغيب ذلك عن نظره، لا إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة، ولا يغيب ذلك عن نظره لا في اليقظة ولا في المنام، لأنه - ﷺ - لا ينام قلبه، الذى فيه هذه المشاهدة».

ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره، ويترقى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان، فعنده - من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ مشاهدة دائمة لا تغيب، ويقين يناسب هذه المشاهدة، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزماً، لا يخطر معه بالبال، نسبة الفعل إلى غيره تعالى، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة.

قال: ولا شك أن هذا الجزم الذى يكون على هذه الصفة تخرق به العوائد، وتتفعل به الأشياء، وهو سرّ الله تعالى، الذى لا يبقى معه سبب ولا واسطة. فصاحب هذا المقام، إذا أشار إلى سقوط الأسباب، ونسبة الفعل إلى رب الأرباب، كان قوله حقاً، وكلامه صدقاً.

قال: وأما صاحب الإيمان بالغيب، فليس عنده فى قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى ما ظهرت على يده، ولا يجذبه إلى معنى الآية، ونسبة الفعل إليه تعالى، إلا الإيمان الذى وهبه الله تعالى، فعنده جاذبان:

أحدهما: من ربه وهو الإيمان الذى يجذبه إلى الحق. وثانيهما: من طبعه، وهو مشاهدة الفعل من الغير، الذى يجذبه إلى الباطل. فهو بين هذين الأمرين دائماً، لكن تارة يقوى الجانب الإيماني، فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين، وتارة يقوى الجانب الطبيعي، فتجده يغفل عن معناها اليوم واليومين، وفى أوقات الغفلة ينتفى اليقين الخارق للعادة.

* فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبى - ﷺ - لأن أولئك النفر من الصحابة - رضى الله عنهم - فاتهم اليقين الخارق وقتئذ، الذى اشتمل عليه باطنه - ﷺ - وبحسبه خرج كلامه الحق، وقوله الصدق - ﷺ.

ولما عَلم - ﷺ - العلة فى عدم وقوع ما ذكره لهم، وعلى أن زوال تلك العلة ليس من طوقهم وقتئذ، أبقاهم على حالتهم، وقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

وعلى كل حال فإنه لا يقال أخطأ ﷺ - في قصة تأبير النخل، فإن ذلك ليس من باب الخطأ، بل من باب الصواب، وإرادة الإكرام والإيتحاف لأولئك النفر بأمر فيه اليُمن والبركة، على وجه خارق للعادة، ولكنه تخلف ذلك لوجود المانع والعارض.

٣

* ما يعتقده في أمور أحكام البشر:

قال القاضي عياض: «أما فيما يتصل بقضايا البشر، وأمور أحكامهم الجارية على يديه»^(١).

«فهذا اجتهد منه - ﷺ، فباجتهاده قد يعرف المحقّ من المبطل، وباجتهاده أيضا يعلم المصلح من المفسد، وهو في هذا أيضا قد يصل إلى الحقيقة، أو لا يصل وفقا لما يقدمه الخصوم من دلائل، لقوله ﷺ:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنُّ (أَفْطَنَ) بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».

وفي رواية الزُّهري عن عروة: «فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أْبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبَ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ».

قال: «إن الرسول - ﷺ - يجري أحكامه على الظاهر، وموجبات غلبات الظن، بشهادة الشاهد، وبمين الخالف، ومراعاة الأُشبّه، ومعرفة العِفاص والوكاء، مع مقتضى حكمة الله في ذلك، فإنه تعالى لو شاء لأطلع على سرائر عباده، ومخبات ضائرت أمته، فتولّى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه، دون حاجة إلى اعتراف أو بيّنة، أو يمين، أو شبهة.

ولكن لما أمر الله أُمَّته باتباعه، والإقتداء به في أفعاله وأحواله وقضاياه

وسيره.. وكان هذا - لو كان - مما يختص بعلمه، ويؤثره الله به، لم يكن للأمة سبيل إلى الاقتداء به في شيء من ذلك، ولا قامت حجة بقضية من قضاياها، لأحد في شريعته. لأننا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضية بحكمه هو إذا في ذلك، بالمكنون من إعلام الله له، بما أطلعه عليه من سرائرهم وهذا ما لا تعلمه الأمة.

«فأجرى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم، التي يستوى في ذلك هو وغيره من البشر، ليتم اقتداء أمته به، في تعيين قضاياها، وتنزيل أحكامه، ويأتون ما أتوا من ذلك من علم ويقين في سنته.

إذ البيان بالفعل أوقع منه بالقول، وكان حكمه على الظاهر أجلى في البيان، وأوضح في وجوه الأحكام، وأكثر فائدة لموجبات التشاجر والخصام، وليقتدى بذلك كله حُكَّام أمته، وينضبط قاتنون شريعته، وطى ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، فيعلمه منه بما شاء، ويستأثر بما شاء، ولا يقدح هذا في نبوته، ولا يفصم عروة من عصمته.

٤

* وأما أقواله الدنيوية^(١)، أى التي لا تتصل بشرع أو حكم ديني، أى أقواله العادية مع الناس، من أخباره عن أحواله، وأحوال غيره، فالخلاف فيها ممتنع عليه في كل حال، وعلى أى وجه من عهد أو سهو، أو صحة، أو مرض، أو رضى أو غضب. لأنه - ﷺ - معصوم منه.

وهذا - كما يقول القاضى عياض - فيما طريقه الخبر المحض، مما يدخله الصدق والكذب.

من هذه الأقوال الدنيوية.. توريتته عن وجه مغازبه لئلا يأخذ العدو حذره. وما روى من ممازحته ودعابته لبسط أمته، وتطبيب قلوب المؤمنين من صحابته، وتأكيدها في تحبيهم، ومسرّة نفوسهم.

كقوله: «لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى ابْنِ النَّاقَةِ».

وقوله للمرأة التي سألته عن زوجها: «أَهْوَ الَّذِي بَعَيْنِهِ بَيَاضٌ».

وهذا كله - كما يذكر القاضى عياض - صدق، لأن كل جمل ابن ناقه، وكل إنسان بعينه بياض وقد قال - ﷺ: «إِنِّي لَأَمْزُحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا».

وهذا كله فيها بابہ الخبر.

* فأما ما بابہ غیر الخبر، مما صُورَتْهُ صورة الأمر والنهى، فى الأمور الدنيوية، فلا يصح منه أيضا، ولا يجوز عليه أن يأمر أحدا بشيء، أو ينهى أحدا عن شيء وهو يبطن خلافه.

وقد قال ﷺ: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ».

فكيف أن تكون له خائنة قلب؟

وهنا يشير القاضى عياض إلى ما ورد حول قصة زيد بن حارثة، وزينب بنت جحش، التي وردت الإشارة إليها، فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ، وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾

[الأحزاب ٣٧]

فقد أخطأ بعض المفسرين فى تفسيرها، وقال: إن معناها أن النبى - ﷺ - لما رأى زينب أعجبتة، وتمنى أن يطلقها زيد، وأخفى فى نفسه هذه الأمنية، وأنه كان يأمر زيدا بإمساکها بماملة. ولو كان هذا صحيحا، لكان فيه أعظم الحرج، وما لا يليق به من مدَّ عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا، وكان هذا نفس الحسد المذموم، الذى لا يرضاه، ولا يتسم به الأتقياء.. فكيف سيد الأنبياء؟

قال القشيري: وهذا إقدام عظيم من قائله، وقلة معرفة بحق النبي - ﷺ - وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء محتجين منه - ﷺ - وهو زوجها لزيد؟

«وإنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبي إياها، لإزالة حُرمة التبنّي وإبطال سُنّته، كما قال تعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾
[الأحزاب ٤٠]

وقال: ﴿لَكَيْلًا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾
[الأحزاب ٣٧].

قال القاضي عياض^(١):

«فإن قيل: فما الفائدة في أمر النبي ﷺ لزيد بإمسакها؟

فهو أن الله أعلم نبيه أنها زوجته، فنهاه النبي ﷺ عن طلاقها، إذ لم تكن بينهما الفقة، وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به.

فلما طلقها زيد خشي (النبي) قول الناس، يتزوج امرأة ابنه، فأمره الله بزواجها ليباح مثل ذلك لأمة.

والحقيقة، أن النبي ﷺ لو أرادها لاصطفاها لنفسه قبل زيد، ولفرحت زينب بذلك، بما لا مزيد عليه، خصوصا وأنها ما تزوجت بزيد إلا طاعة لأمر رسول الله ﷺ.

والحق أيضا: أن الله تعالى كان قد أعلم نبيه، أن زينب ستكون من أزواجه بعد زيد، لحكمة تشريعية، أشارت إليها الآية السابقة، وكان زيد يشكو كثيرا إلى رسول الله ﷺ عدم استقراره، وارتياحه للزواج بها، وذلك لوجود فوارق عديدة بينها، تجعل الائتلاف والانسجام بعيدا، فكان كلما شكها إلى رسول الله

ﷺ يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها، مما الله مبدية ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها. فهذا منه - ﷺ - تمام الأدب والذوق، وكمال الإحساس في مراعاة شعور الآخرين، مع أنه لو قال له: إن الله أخبرني بأن زينب ستكون زوجة لي بعدك، لما كان عليه في ذلك حرج، ولذا فإن الله هنا يمتدح فيه هذه المنقبة، ويشي على موقفه هذا.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

● ويؤيد هذا ما جاء عن الزهري قال: «نزل جبريل على النبي ﷺ يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش، فذلك الذي أخفى في نفسه». ويصحح هذا قول المفسرين، في قوله تعالى بعد هذا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي لا بد لك أن تتزوجها، ويوضح هذا أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها. فدلَّ على أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به تعالى. والحكمة في زواجه بها، فهو كما ذكر سابقا - لإزالة حرمة التبنّي، وإبطال سنته، لأن النبي ﷺ كان قد تبنى زيدا، حتى صار يدعى زيد بن محمد، وقد أبطل الله تعالى هذه العادة بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، وأبطلها عمليا بأمره ﷺ بالتزوج بها.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

فالمعنى: أن الخشية هنا معناها الإستحياء وليس الخوف. أي يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس، كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبيهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه، بعد نفيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فعتبه الله على هذا ونزّهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له، كما عاتبه الله على مراعاة رضى أزواجه في سورة التحريم، بقوله: ﴿لَمْ تُحْرَمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية.

كذلك قوله له ههنا ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾

وقد روى عن الحسن وعائشة: «لو كنتم رسول الله ﷺ شيئا، لكنتم هذه الآية لما فيها من عتبه، وإبداء ما أخفاه»^(١).

٥

وينتقل القاضى عياض - بعد ذلك - إلى أمر هام، وقضية خطيرة. هل يمكن للرسول ﷺ - بحكم بشريته وبحكم أحواله الدنيوية أن يلعن أحداً أو يسبه^(١)..

وإلا فما معنى قوله ﷺ، فيما رواه أبو هريرة - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ، يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، وَإِنِّي قَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تَخْلِفَنِيهِ، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتَهُ، أَوْ سَبَيْتَهُ، أَوْ جَلَدْتَهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ كَفَّارَةً وَقُرْبَةً تَقْرِبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفى رواية: «فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ دَعْوَةً».

وفى رواية: لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ».

وفى رواية: «فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَيْتَهُ أَوْ لَعَنْتَهُ أَوْ جَلَدْتَهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَصَلَاةً وَرَحْمَةً».

قال القاضى عياض: وكيف يصح أن يلعن النبى ﷺ من لا يستحق اللعن، ويسب من لا يستحق السب، ويجلد من لا يستحق الجلد، أو يفعل مثل ذلك عِنْدَ الغضب، وهو معصوم من هذا كله؟

«اعلم، شرح الله صدرك، أن قوله ﷺ أولا: «لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ» أى عندك يارب فى باطن أمره، فإن حُكْمَهُ ﷺ عَلَى الظاهر، كما قال، وللحكمة التى ذكرناها - فَحَكَمَ ﷺ بِجَلْدِهِ أَوْ أَدَبِهِ بِسَبِّهِ، أَوْ لَعْنِهِ بِمَا اقْتَضَاهُ عِنْدَهُ حَالُ ظَاهِرِهِ، ثُمَّ دَعَا لَهُ ﷺ لَشَفَقَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، الَّتِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِهَا، وَحَذَّرَهُ أَنْ يَتَقَبَّلَ اللَّهُ فِيمَنْ دَعَا عَلَيْهِ دَعْوَتَهُ، أَنْ يَجْعَلَ دَعَاءَهُ وَفَعْلَهُ لَهُ رَحْمَةً، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ﴾..»

لا أنه ﷺ يحمله الغضب، ويستفزه الضجر، لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقه من مسلم. وهذا معنى صحيح، ولا يفهم من قوله «أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ» أن الغضب حمله على ما لا يجب، بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حمله على معاقبته. هذا عن أقواله ﷺ.

٦

* أما أفعاله ﷺ الدنيوية^(١)، فحكمه فيها من تَوَقَّى المعاصي والمكروهات، مع جواز السهو والغلط في بعضها، وكله غير قاذح في النبوة.

قال القاضي عياض: «بل إن هذا فيها على التدور، إذ عامة أفعاله على السداد والصواب، وكلها جارية مجرى العبادات».

إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لنفسه إلا ضرورته، وما يُقيم رَمَقَ جسمه، وفيه مصلحة ذاته، التي بها يعبد ربه، ويقيم شريعته، ويسوس أمته. وما كان فيها بينه وبين الناس من ذلك فَبَيْنَ معروف يصنعه، أو بِرٍّ يُوسِّعُهُ. أو كلام حسن يقوله أو يسمعه، أو تألف شارد، أو قهر معاند، أو مداراة حاسد..

وكل هذا لاحقٌ بصالح أعماله، منتظم في زاكي وظائف عباداته.

* ويذكر القاضي عياض، أن النبي ﷺ، كان في أفعاله الدنيوية، يتصرف بحسب اختلاف الأحوال، ويعد للأمور بما يناسبها ويتفق معها:

«فكان يركبُ في تصرفه لما قُرِبَ الحمار، وفي أسفاره الراحلة، ويركب البغلة في معارك الحرب، دليلاً على الثبات، ويركب الخيل ويعدّها ليوم الفزع، وإجابة الصارخ».

«وكذلك في لباسه وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أمته».

«وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا مساعدةً لأُمته، وسياسةً، وكرهيةً لخلافها».

وقد يفعل هذا في الأمور الدينية، مما له الخيرة في أحد وجهيه: كخروجه من المدينة لأحد، وكان مذهبه التحصن بها، وتركه قتل المنافقين، وهو على يقين من أمرهم، مؤالفة لغيرهم، ورعاية للمؤمنين من قرابتهم، وكراهة لأن يقول الناس.. إن محمداً يقتل أصحابه، كما جاء في الحديث. وتركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاة لقلوب قريش، وتعظيمهم لتغيرها وحذراً من نفار قلوبهم لذلك، وتحريك متقدم عداوتهم للدين وأهله، فقال لعائشة - في الحديث الصحيح. «لَوْلَا حَدَّثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَأَتَمَمْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ».

«ويفعل الفعل ثم يتركه لكون غيره خيراً منه، كانتقاله من أدنى مياه بدر إلى أقربها للعدو من قريش».

وكقوله: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى». ويبسط وجهه للكافر والعدو رجاء استلافه، ويصبر للجاهل، ويقول: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ». ويذل له الرغائب ليحبب إليه شريعته ودين ربه.

ويتولى في منزله ما يتولى الخادم في مهنته.

«ويتحدث مع جلسائه بحديث أولهم، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويضحك مما يضحكون منه، وقد وسع الناس بشره وعدله، لا يستفز الغضب، ولا يقصر عن الحق، ولا يبطن على جلسائه، يقول: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ».

ولكن هذا لا يمنع أن يقول رأيهِ صريحاً في شيء أو شخص.. من ذلك قوله لعائشة - رضى الله عنها - في الداخل عليه: «بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ»، فلما دخل الآن له القول، وضحك معه، فلما خرج سأله عن ذلك، قال: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ».

وكيف جاز أن يظهر له خلاف ما يبطن، ويقول في ظهره ما قال :

أجاب القاضي عياض: «إن فعله ﷺ كان استلافاً لمثله، وتطبيياً لنفسه، ليتمكن إيمانه، ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام، ومثل هذا على هذا الوجه قد خرج من حد مداراة الدنيا إلى السياسة

الدينية، وقد كان يستألفهم بأموال الله العريضة، فكيف بالكلمة اللينة؟^(١)
 فقوله فيه «يَسَّ ابن العشيرة» هو غير غيبة، بل هو تعريف ما عَلِمَهُ منه لَمْ
 لَمْ يعلم، ليحذر حاله، ويحترز منه، ولا يوثق بجانبه كل الثقة، لاسيما وكان مُطاعا
 متبوعا. ومثل هذا إذا كان لضرورة، ودَفَع مَضْرَّة، لم يكن بغيبة، بل كان جائزا بل
 واجبا في بعض الأحيان. كمادة المحدثين في تجريح الرواة، والمزكين في الشهود.

٧

ويختم القاضي عياض هذا الباب، الذي يتصل بالأمر الدنيوية من سيرة
 المصطفى ﷺ بالحديث عن الحكمة في إجراء الأمراض وشدها عليه ﷺ وما
 الوجه في ابتلاء الله به من البلاء، وامتحانه بما امتحن به. فيقول: ^(١).

«فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن أفعال الله تعالى كلها عدل، وكلماته جميعها
 صدق، لا مبدل لكلماته. يبتلى عباده، كما قال لهم - ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾
 ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
 شُهَدَاءَ﴾ ﴿وَلِمَا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

«فامتحانه إياه بضروب المحن، زيادة في مكانته، ورفعة في درجاته، وأسباب
 لاستخراج حالات الصبر والرضى، والشكر والتسليم، والتوكل والتفويض،
 والدعاء والتضرع منه. وتأکید لبصائره في رحمة الممتحنين، والشفقة على المبتلين،
 وتذكرة لغيره، وموعظة لسواه، ليتأسوا في البلاء به، ويتسلوا في المحن بما جرى
 عليه، ويقتدوا به في الصبر، ومحو لهفات فرطت منهم، أو غفلات سلفت لهم، لِيَلْقُوا
 الله طيبين مهذبين، وليكون أجرهم أكمل، وثوابهم أوفر وأجزل.
 روى مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشدُّ

بلاء؟

لأقال: «الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة، يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه، فما يبرح
 البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة».

وعن أبي هريرة: «ما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده، وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة».

وعن أنس، عنه عليه السلام: «إذا أراد الله بعبيده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبيد الشرَّ أَمْسَكَ عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة». وفي حديث آخر: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه لِيَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ». وحكي السمرقندي: أن كل من كان أكرم على الله تعالى، كان بلاؤه أشد، كي يتبين فضله، ويستوجب الثواب.

قال القاضي عياض: وهذه فائدة شدة المرض والوجع بالنبي عليه السلام قالت عائشة: «ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله عليه السلام».

وعن عبد الله: رأيت النبي عليه السلام في مرضه يوعك وعكاً شديداً، فقلت: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» قلت: ذلك أن لك الأجر مرتين، قال: أجل ذلك كذلك.

وفي حديث أبي سعيد، أن رجلاً وضع يده على النبي عليه السلام فقال: والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حُماكَ، فقال النبي عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء يُضَاعَفُ لنا البلاء» إن كان النبي ليبتلى بالقلم حتى يقتله، وإن كان النبي ليبتلى بالفقر، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء.

وقد قال المفسرون في قوله تعالى ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أن المسلم يجزي بمصائب الدنيا، فتكون له كفارة.

قال القاضي عياض: «وحكمة أخرى أودعها الله في الأمراض لأجسامهم (أى الانبياء) وتعاقب الأوجاع وشدتها عند مماتهم لتضعف قُوَى نفوسهم فيسهل خروجها عند قبضهم وتخف عليهم مَوْنَةُ النزاع. وشدة السكرات بتقدم المرض، وضعف الجسم والنفس لذلك».

البَابُ الرَّابِعُ

موقف الشريعة من العداوة للرسول

- الفصل الأول : الحكم الشرعى فيمن سَبَّ أو نَقَّص حق الرسول
- الفصل الثانى : موقف المذاهب الفقهيّة من سَابِّ الرسول وشأنه
- الفصل الثالث : موقف الشريعة ممن سَبَّ الله تعالى وملائكته وكتبه وآل النبي وأزواجه وصحبه

موقف الشريعة من العداوة للرسول

تمهيد

هذا هو الباب الرابع والأخير من سيرة المصطفى ﷺ، وهو باب فقهي خالص، خصصه القاضي عياض للكلام في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبّه^(١) - ﷺ، وجمع فيه آراء فقهاء المذاهب، وأهل الإفتاء في الأمصار الإسلامية.

- وقد قسم هذا الباب الفقهي إلى قسمين رئيسيين:

أولهما: في بيان ما هو في حقه سبٌ ونقص، من تعريض أو نص.
والثاني: في حكم شاتته - أي مبغضه - ومؤذيه، ومنتقصه، وعقوبته في ذلك، وما يتصل بهذا من أمر استتابته.

وبهذا الباب، تتم أبواب السيرة النبوية، كما يقول: «ويلوح في غرة الإيمان لمعة منيرة، وفي تاج التراجم ذرة خطيرة، تزيح كل لبس، وتوضح كل تخمين وحُذس، وتشفي صدور قوم مؤمنين، وتصدعُ بالحق، وتعرض عن الجاهلين.

وقد قدم القاضي عياض لهذا الباب بمقدمة قصيرة، حدّد فيها إستنادًا إلى الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، «موقف الشريعة من العداوة للرسول» - ﷺ، قال:

«قد تقدم في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ما يجب من الحقوق للنبي - ﷺ - وما يتعين له من برٍّ وتوقير وتعظيم وإكرام، وبحسب هذا حرّم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسأبه. قال الله تعالى:

(١) الشفا ٢/٢١١.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ
عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب ٥٧]

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة ٦١]
وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَرْوَاحَهُ
مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٥٣]

وقال تعالى في تحريم التعريض له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا
وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة ١٠٤]

وذلك أن اليهود - عليهم لعائن الله - كانوا يقولون «رَاعِنَا يا محمد» أى
أَرْعِنَا سَمْعَكَ واسمع منا، ويُعْرِضُونَ بالكلمة يريدون الرعونة، فهى الله المؤمنين
عن التشبه بهم، وقطع الذريعة بنهى المؤمنين عنها، لِئَلَّا يتوصل بها الكافر والمنافق
إلى سَبِّهِ والاستهزاء به.

وقيل: «بل لما فيها من قلة الأدب لأنها عند اليهود بمعنى «اسْمَعْ لا سَمِعْتَ»
وقيل: «بل لما فيها من قلة الأدب، وعدم توقير النبی - ﷺ - وتعظيمه،
لأنها فى لغة الأنصار، بمعنى «أَرْعِنَا نَرْعَاكَ»، فهوا عن ذلك، إذ مُضِنَّهُ أَنَّهُمْ
لا يرعونه إِلَّا برعايته لهم، وهو - ﷺ - واجب الرعاية بكل حال.

وهذا هو ﷺ - قد نهى عن التَّكْنِي بِكُنْيَتِهِ، فقال: «سَمُّوا بِاسْمِي، وَلَا تُكْنُوا
بِكُنْيَتِي» صيانة لنفسه، وحماية عن أذاه. إذ كان ﷺ، استجاب لرجل نادى:
«يَا أَبَا الْقَاسِمِ» فقال: لَمْ أَعْنِكَ، إِنَّمَا دَعَوْتُ هَذَا، فهى حينئذ عن التكني بكُنْيَتِهِ،
لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره لمن لم يدعه، ويجد بذلك المنافقون والمستهزئون
ذريعة إلى أذاه والإضرار به، فينادونه، فإذا التفت قالوا: إِنَّمَا أُرَدْنَا هَذَا لِسِوَاهُ.
تعنيًا له واستخفافًا بحقه، على عادة المجان والمستهزئين، فَحَمَى - ﷺ - حِمَى
أذاه بِكُلِّ وَجْه.

هذا وقد حمل محققو العلماء نهيه عن التكني بكُنْيَتِهِ على مدة حياته، وأجازوا
التكني بها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لارتفاع العلة وانتهاء السبب، وهذا هو
مذهب الجمهور، وللعلماء فى هذا مذاهب كثيرة ليس هذا موضعها.

قال القاضي عياض: «والصواب - إن شاء الله - أن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل الندب والاستحباب لا على التحريم، ولذلك لم يَنْه عن اسمه، لأنه قد كان الله مَنَع من ندائه به، بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾»

وإنما كان المسلمون يدعونه: «يارسول الله».. «يانبي الله» وقد يدعونه بكنيته «أبا القاسم» بعضهم في بعض الأحوال.

وقد روى أنس - رضي الله عنه - عنه - ﷺ - ما يدل على كراهة التسمي باسمه وتنزيهه عن ذلك إذا لم يُوقر، فقال: «تُسَمُّونَ أَوْلَادَكُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تَلْعَنُونَهُمْ»

وروى أن عمر - رضي الله عنه - كتب إلى أهل الكوفة: «لا يُسَمَّى أَحَدٌ باسمِ النبي - ﷺ - وحكى محمد بن سعد، أنه نظر إلى رجل اسمه «محمد» ورجل يسبه، ويقول له: فعل الله بك يا محمد وصنع، فقال عمر لابن أخيه «محمد» ابن زيد بن الخطاب «لا أرى محمدًا - ﷺ - يُسَبُّ بك، والله لا تدعى محمدًا ما دُمْتَ حيًّا، وسماه «عبد الرحمن»».

ويرى القاضي عياض، أن هذا الأمر قد انتهى بوفاة النبي - ﷺ - ولا ينبغي التوقف عن التسمية «بمحمد» والدليل على ذلك إطباق الصحابة على ذلك، وقد سمي جماعة منهم ابنه محمدًا وكناه بأبي القاسم.

وروى أن النبي - ﷺ، أذن في ذلك لعلي رضي الله عنه، وقد أخبر - ﷺ أن ذلك اسم المهدي وكنيته، وقد سُمِّي به النبي - ﷺ - محمد بن طلحة، ومحمد ابن عمرو بن حزم، ومحمد بن ثابت بن قيس، وغير واحد. وقال ﷺ: «ما ضرَّ أحدكم أن يكون في بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة»

الفصل الأول

الحكم الشرعى فيمن سب أو نقص حق الرسول

صدر القاضى عياض هذا الفصل بأن وضع أمامنا الحكم الشرعى فى من سب النبى - ﷺ - أو عابه، أو ألحق به نقصاً فى نفسه، أو نسبه، أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرض به، أو شبهه بشئ على طريق السب له، أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه، والعيب له..

فهو فى نظر الشريعة الإسلامية سَابُّ له، والحكم فيه حكم السَّابِّ وهو القتل^(١)

وينطبق هذا الحكم نفسه، على كل من لعنه، أو دعا عليه، أو تمقَّى مضرَّة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه، على طريق الذم، أو عبث فى جهته العزيزة بسُخف من الكلام، وهجر ومُنكر من القول وزور. أو غيره بشئ مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمَّصه (استصغره) ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه.

وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى أن تقوم الساعة.

قال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبى - ﷺ - يُقتل.

ومن قال ذلك: مالك بن أنس، والليث، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهب الشافعى

قال القاضى عياض: وهو مقتضى قول أبى بكر الصديق - رضى الله عنه.

(١) الشفا ٢/٢١٤.

ولا تقبل توبته عند هؤلاء. ويمثله قال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري، وأهل الكوفة، والأوزاعي. لكنهم قالوا: هي ردة.

وحكى الطبري مثله عن أبي حنيفة وأصحابه، فيمن تنقصه - ﷺ - أو برئ منه أو كذبه. وقال سحنون فيمن سبه: ذلك ردة كالزندقة.

* وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره، وهل قتله حد أو كفر؟ أما الذين قال بتكفيره..

فمنهم: محمد بن سحنون، قال: أجمع العلماء أن شاتم النبي - ﷺ - المتنقص له كافر. والوعيد جار عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر.

واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه - في مثل هذا، بقتل خالد بن الوليد مالك بن نورة، لقوله عن النبي - ﷺ - «صاحبكم».

وقال أبو سليمان الخطابي: لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله، إذا كان مسلما.

● وقال ابن القاسم عن مالك: من سب النبي - ﷺ - من المسلمين قتل ولم يستتب. وقال أيضا: من سبه، أو شتمه، أو عابه، أو تنقصه، فإنه يقتل، وحكمه عند الأمة القتل كالزندق.

● وقال عثمان بن كنانة: من شتم النبي - ﷺ - من المسلمين قتل، أو صلب حيا ولم يستتب، والإمام مخير في صلبه حيا أو قتله.

* وبعد أن جمع القاضى عياض آراء علماء الفقه، ووضعها جنبا إلى جنب. أعقب ذلك بما جاء عن أهل الإفتاء من فتاوى بصدد موضوع السب أو التنقص، فقال:

«وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل، أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة»

● وأفتى أبو الحسن القابسي - فيمن قال في النبي - ﷺ - الجَّهْل، يَتِيمُ أبي طالب بالقتل.

● وأفتى أبو محمد بن أبي زيد، بقتل رجل سمع قوما يتذكرون صفة النبي - ﷺ - إذ مرَّ بهم رجل قبيح الوجه واللحية، فقال لهم: تريدون تعرفون صفته، هي في صِفَةِ هذا المارِّ في خلقه ولحيته.

قال: ولا تقبل توبته، وقد كَذَبَ لعنه الله، وليس يخرج من قلب سليم الإيمان.

● وأفتى أبو عبدالله بن عتاب في عَشْرٍ قال لرجُل أدَّ واشكُ إلى النبي - ﷺ - وقال: إن سَأَلْتُ أو جهَلْتُ فقد جَهِلُ وسأل النبي - بالقتل

● وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقه الطُّلَيْطُلِي، وُصِّلَ به، بما شهد عليه به من استخفافه بحق النبي - ﷺ - وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم، وَخَتَنَ حَيْدَرَهُ وزعمه أن زهده لم يكن قصداً، وَلَوْ قدر على الطيبات أكلها، إلى أشباه هذا^(١).

● وأفتى فقهاء القيروان، وأصحاب سحنون، بقتل ابراهيم الفَزَارِي، وكان شاعراً متفنناً في كثير من العلوم، وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبي العباس ابن أبي طالب للمناظرة، فرفعت عليه أمورٌ منكّرة من هذا الباب، في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا ﷺ - فأحضر له القاضي يحيى بن عمر، وغيره من الفقهاء، وأمر بقتله وُصِّلَ به، فطعن بالسكن وُصِّلَ منكسباً، ثم أنزل وأحرق بالنار. وحكى بعض المؤرخين، أنه لما رُفِعَتْ خشبته وزالَتْ عنها الأيدي استدارت وحولته عن القبلة، فكان آية للجميع، وكبرَّ الناس، وجاء كلب فوَلَّغَ في دمه، فقال يحيى بن عمر: صدق رسول الله - ﷺ - وذكر حديثاً عنه، أنه قال: «لَا يَلْغُ الكَلْبُ في دم مسلم».

قال ابن عتاب: الكتابُ والسنة موجبان، أن من قَصَدَ النبي - ﷺ - بأذى أو نَقَصَ مُعْرِضاً أو مُصْرِحاً - وإن قَلَّ - فقتله واجب.

قال القاضي عياض: «فهذا الباب كله بما عدّه العلماء سباً أو تنقُصاً يجب قتلُ قاتله، لم يختلف في ذلك متقدمهم ولا متأخّره، وإن اختلفوا في حكم قتله، هل هو حدٌّ أو كُفْر».

* وكذلك أقول: حُكْم من غمَصه أو عَيَّره برعاية الغنم، أو السهو أو النسيان أو السحر، أو ما أصابه من جُرح أو هزيمة لبعض جيوشه، أو أذى من عدوه، أو شدّة من زمنه، أو بالميل إلى نساته، فحكم هذا كله لمن قصَد به نقصه: القتل

٨

* دليل فقهاء الإسلام في وجوب قتل من سبّه أو عابه

أفرد القاضي عياض فصلاً في هذا الجزء من السيرة النبوية، استعرض فيه أدلة فقهاء الإسلام، وحجتهم في وجوب قتل من سبّ الرسول ﷺ - أو عابه

* ونظرة فاحصة على هذا الفصل، نجد أنه حدّد أدلتهم في: القرآن، والسنة والآثار، والإجماع.

١ - «فمن القرآن.. لعنهُ تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة، وقرآنهُ تعالى أذاه بأذاه، ولا خلاف في قتل من سبّ الله، وأن اللعن إنما يستوجه من هو كافر، وحُكْم الكافر: القتل.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب ٥٧]

وقال في قاتل المؤمن، مثل ذلك، فمن لعنته في الدنيا القتل، قال الله تعالى:

﴿مَلْعُونِينَ أَيْمًا تُقْفُوا أَخْذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب ٦١]

وقد يقع القتل بمعنى اللعن، قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ و ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى لعنهم الله. ولأنه فرق بين أذاها وأذى المؤمنين، وفي أذى

المؤمنين ما دُون القتل من الضرب والنكال. فكان حُكْمُ مؤذَى الله ونبيه أشد من ذلك وهو القتل^(١)

● وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية

فَسَلَبَ اسْمَ الْإِيمَانِ عَمَّنْ وَجَدَ فِي صَدْرِهِ حَرَجًا مِنْ قَضَائِهِ، وَلَمْ يُسَلِّمْ لَهُ، وَمِنْ تَنْقُصِهِ فَقَدْ نَاقَضَ هَذَا.

● وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ - إِلَى قَوْلِهِ - أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ وَلَا يُحِبِّطُ الْعَمَلُ إِلَّا الْكُفْرُ، وَالْكَافِرُ يُقْتَلُ.

● وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢ - وَأَمَّا السُّنَّةُ وَالْآثَارُ:

فَقَدْ رَوَى الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فَاقْتُلُوهُ، وَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَقَوْلُهُ: «مَنْ لَكَعَبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ» وَوَجَّهَ إِلَيْهِ مِنْ قَتْلِهِ غِيْلَةً دُونَ دَعْوَةٍ بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَعَلَّلَ بِأَذَاهُ لَهُ، فَدَلَّ أَنْ قَتْلَهُ إِيَّاهُ لَغَيْرِ الْإِشْرَاقِ، بَلْ لِلْأَذَى.

وكَذَلِكَ قَتَلَ أَبَا رَافِعٍ، قَالَ الْبَرَاءُ: وَكَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ أَمَرَهُ يَوْمَ الْفَتْحِ، بِقَتْلِ ابْنِ خَطْلٍ وَجَارِيتِهِ، اللَّتَيْنِ كَانَتَا تَغْنِيَانِ بِسَبِّهِ ﷺ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسْبُو ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ يَكْفِينِي عُدُوِّي؟» فَقَالَ خَالِدُ أَنَا، فَبِعِثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَتَلَهُ.

● وَعَهْدَ بِقَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ - قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ - فَقَتَلُوا إِلَّا مَنْ بَادَرَ بِاسْلَامِهِ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

● وَقَدْ رَوَى الْبَزَارُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ عَقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، نَادَى: يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ.. مَا لِي أُقْتَلَ مِنْ بَيْنِكُمْ صَبْرًا؟
فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «بِكُفْرِكَ وَافْتِرَائِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

● وَرَوَى أَيْضًا أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تَسُبُّهُ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ يَكْفِينِي عَدُوَّتِي؟»
فَخَرَجَ إِلَيْهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَتَلَهَا.

● وَبَلَغَ الْمُهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةٍ أَمِيرَ الْيَمَنِ، لِأَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ امْرَأَةً هُنَاكَ فِي الرَّدَّةِ غَنَّتْ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ فَقَطَعَ يَدَهَا وَنَزَعَ ثَنِيَّتَهَا، فَبَلَغَ أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: لَوْلَا مَا فَعَلْتَ لِأَمْرَتِكَ بِقَتْلِهَا، لَأَنَّ حَدَّ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ يَشْبِهُهُ الْحُدُودُ^(١).

● وَرَوَى النَّسَائِيُّ: أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَقَدْ أَغْلَظَ لِرَجُلٍ، فَرَدُّ عَلَيْهِ، قَالَ: فَقُلْتُ يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ نَصْرٍ: وَلَمْ يُخَالَفْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَاسْتَدَلَّ الْأَثَمَةُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى قَتْلِ مَنْ أَغْضَبَ النَّبِيَّ ﷺ بِكُلِّ مَا أَغْضَبَهُ أَوْ آذَاهُ أَوْ سَبَّهُ.

● وَلَمَا كَانَ جَزَاءُ الْعَانِبِ أَوْ السَّابِّ لِرَسُولِ اللَّهِ الْقَتْلَ، فَلَا يَجُوزُ تَخْفِيفُ هَذَا الْحُكْمِ إِلَى مَا هُوَ أَدْنَى مِنَ الْقَتْلِ، هَذَا مَا قَرَّرَهُ الْفُقَهَاءُ.

«سَأَلَ الرَّشِيدَ مَالِكًا فِي رَجُلٍ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ فُقَهَاءَ الْعِرَاقِ أَفْتَوْهُ بِجُلْدِهِ، فَغَضِبَ مَالِكٌ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا بَقَاءُ الْأُمَّةِ بَعْدَ شَتْمِ نَبِيِّهَا؟

مَنْ شَتَمَ الْأَنْبِيَاءَ قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ جُلِدَ.

يُوضَحُ الْقَاضِي عِيَاضُ هَذَا الْحُكْمِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ قَائِلًا:

« كذا وقع في هذه الحكاية رواها غير واحد من أصحاب مناقب مالك، ومؤلفي أخباره وغيرهم ولا أدري مَنْ هؤلاء الفقهاء بالعراق، الذين أفتوا الرشيد بما ذكر، وقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله، ولعلمهم مَنْ لم يُشهر بعلم، أو مَنْ لا يُوثق بفتواه، أو يميل به هواه..

أو يكون ما قاله يُحمل على غير السب، فيكون الخلاف هل هو سب أو غير سب».

«أو يكون رجع وتاب عن سبه، فلم يُقله لمالك على أصله.. وإلا فالإجماع على قتل من سبه، كما قدمناه».

«ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار، أن من سبه، أو تنقصه ﷺ فقد ظهرت علامة مرض قلبه، وبرهان سرّ طويته وكفره».

ولهذا ما حكم له كثير من العلماء بالرّدة، وهي رواية الشاميين عن مالك. والقول الآخر: أنه دليل على الكفر، فيُقتل حداً، وإن لم يُحكمه بالكفر، إلا أن يكون متبادياً على قوله، غير منكر له، ولا مُقلع عنه، فهذا كافر.

٢

ويتوقف القاضى عياض عند بعض المواقف، التى لم يعاقب فيها النبى ﷺ شاتميه أو مبغضيه، أو المخطئين فى حقّه بالقتل، ويحدد الحكمة فى عدم تطبيق حكم الشريعة الرادع فيهم فيقول: (١).

«فإن قلت: فلم لم يقتل النبى ﷺ اليهودي، الذى قال له: السّام عليكم. وهذا دعاء عليه؟

«ولا قتل الآخر الذى قال له: إن هذه لقسمّة ما أريد بها وجه الله، وقد تأذى النبى ﷺ من ذلك».

● ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه فى أكثر الأحيان؟

● ويجب القاضى عياض على هذا التساؤل قائلاً:

«فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن النبي ﷺ كان أول الإسلام يستألف عليه الناس، ويميل قلوبهم، ويميل إليه، ويحب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، ويُدَارِئُهُمْ، ويقول لأصحابه: إنما بعثتم مُيسرين ولم تبعثوا مُنفرين، ويقول: «يَسْرُوا ولا تُعْسِرُوا، وَسَكُنُوا ولا تُنْفِرُوا».

ويقول: لا يتحدثُ الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه.
«وكان ﷺ يُدَارِي الكفار والمنافقين، ويحملُ صُحْبَتَهُمْ، ويُغْضِي عنهم، ويحتمل من أذاهم. ويصبر على جفائهم ما لا يجوز لنا اليوم الصبر لهم عليه، وكان يُرفقهم بالعطاء والإحسان.

وكان ﷺ يفعل ذلك إمتثالاً لأمر الله، وتحقيقاً لإرادته، وهو الرؤوف الرحيم، والمطلع على هفوات عباده وهناتهم، وفي ذلك يقول الحق سبحانه لرسوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

ويقول عز شأنه:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.
وذلك لحاجة الناس للتألف أول الإسلام، وجمع الكلمة عليه.

«فلما استقر وأظهره الله على الدين كله، قتل من قدر عليه، واشتهر أمره، كفعله بابن خطل، ومن عهد بقتله يوم الفتح، ومن أمكنه قتله غيلة من يهود وغيرهم، أو غلبة من لم ينظمه قبل سلك صحبته، والانخراط في جملة مظهرى الإسلام... والإيمان به، ممن كان يؤذيه كابن الأشرف، وأبي رافع، والنضر، وعقبة. وكذلك ندر دم جماعة سواهم ككعب بن زهير، وابن الزُبَيْرِ وغيرهما، ممن آذاه، حتى ألقوا بأيديهم ولقوه مسلمين».

● ويواصل القاضى عياض حديثه عن الموقف مع المنافقين، الذين يبطنون غير ما يُظهرون، والذين يبدون غير ما يكتُمون، فيقول:

«وبواطن المنافقين مستترة، وحكمه ﷺ على الظاهر، وأكثر تلك الكلمات إنما كان يقولها القائل منهم خفية ومع أمثاله، ويحلفون عليه إذا نُفِيت، وينكرونها،

ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر»..

«وكان مع هذا يطمع في قِيَّاتِهِمْ، ورجوعهم إلى الإسلام، وتوبتهم، فيصبرُ ﷺ على هَنَاتِهِمْ وجفوتهم، كما صَبَرَ أَوَّلُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ، حتى فاء كثيرٌ منهم باطنا كما فاء ظَاهِرًا، وأخلص سرًّا كما أظهر جهرًا، ونفع الله بعدُ بكثيرٍ منهم، وقام منهم للدين وزراءٌ وأعوانٌ وحماةٌ وأنصار، كما جاءت به الأخبار».

- وبهذا أجاب كثير من الأئمة، عن هذا السؤال، قالوا: ولعله لم يثبت عنده ﷺ من أقوالهم ما رُفِعَ، وإنما نقله الواحد، ومن لم يصل رتبة الشهادة في هذا الباب، من صبي أو عبد أو امرأة، والدماء لا تُسْتَبَاحُ إِلَّا بِعَدْلَيْنِ، وعلى هذا يحمل أمر اليهودي في السلام، وأنهم لوؤا به ألسنتهم ولم يبينوه^(١).

ومعروف أن النبي ﷺ صبر لليهود على سحرهم وسَمِّهم، وهو أعظم من سَبِّهم، إلى أن نصره الله عليهم، وأذن له في قتل من حينه منهم، وإتزالهم من حصونهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وكتب على من شاء منهم الجلاء، وأخرجهم من ديارهم، وخرَّب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وكاشفهم بالسَّبِّ، فقال: «يَا إِخْوَةَ الْقِرْدَةِ وَالْحَنَازِيرِ»، وحكَّم فيهم سيوف المسلمين، وأجلاهم من جَوَارِهِمْ. وأورثهم أَرْضَهُمْ وديارهم وأموالهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ثم يفترض القاضي عياض اعتراضا قد يوجَّه.. فيقول: «فإن قال قائل: كيف ذلك، وقد جاء في الصحيح عن عائشة رضى الله عنها، أنه ﷺ.

«مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تَنْتَهَكَ حُرْمَةً اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ».

قال: إن هذا لا يقتضى أنه لم ينتقم من سَبِّه أو آذاه أو كذبه، فإن هذه من حرمان الله التي انتقم لها، وإنما يكون ما لا ينتقم منه له فيها تعلق بسوء أدب أو معاملة من القول والفعل، بالنفس والمال، مما لم يقصد فاعله به آذاه.. لكن مما جُبِلَتْ عليه الأعراب من الجفاء والجهل، أو جُبِلَ عليه البشر من السَّفَه..

كجَبِدُ الأعرابي إزاره حتى أثر في عنقه، وكرّفع صوت الآخر عنده، وكجحد الأعرابي شراءه منه فرسه، التي شهد فيها خزيمة.. وأشياء هذا مما يحسّن الصفح عنه.

وقد قال بعض العلماء: إن أذى النبي ﷺ حرامٌ، لا يجوز بفعل مباح ولا غيره. وأما غيره، فيجوز بفعل مباح مما يجوز للإنسان فعله، وإن تأذى به غيره.

٣

بعد إذ انتهى القاضي عياض من توضيح حيثيات ومدلولات الحكم في وجوب قتل القاصد المتعمد لسبِّ الرسول ﷺ أو غمّصه بأى وجه كان.. أوجز الحكم بقوله:

«إن هذا وجه واضح صريح لا إشكال فيه، وحكمه ظاهر، إستنادًا إلى الكتاب والسنة والآثار والإجماع، وهو القتل على الكفر، ولا يستتاب.

بيد أنه عاود الحديث، عن حكم الشريعة فيمن كان غير قاصد للسبِّ والإضرار ولا معتقد له^(١)، ولكنه تكلم في جهته ﷺ بكلمة الكفر، من لعنه أو تكذيبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه، أو نفى ما يجب له، مما هو في حقه نقيصة، مثل:

● أن ينسب إليه إتيان كبيرة، أو مدهانة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس..

● أو يفضّ من مرتبته، أو شرف نسبه، أو وفور علمه، أو زهده.

● أو يكذب بما اشتهر من أمور أخبر بها ﷺ وتواتر الخبر بها، عن قصدٍ لرّدّ خبره.

● أو يأتي بسفّه من القول، أو قبيح من الكلام، ونوع من السبِّ في جهته.

● يقول القاضي عياض: فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول: القتل.

دون تلعثهم، إذ لا يُعذر أحد في الكفر بالجهالة، ولا بدعوى زلل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه.

● أما أن يقصد تكذيبه ﷺ، فهذا كافر بإجماع، ويجب قتله، ثم ينظر: فإن كان مُصْرِّحاً بذلك، كان حكمه أشبه بحكم المرتد، وقوى الخلاف في استتابته.

● وإن كان مستتراً بذلك. فحكمه حكم الزنديق، لا تُسْقِط قتله التوبة عند المالكية والحنفية.

● قال أبو حنيفة وأصحابه: «مَنْ بَرِئَ مِنْ مُحَمَّدٍ، أَوْ كَذَّبَ بِهِ فَهُوَ مُرْتَدٌ حَلَالُ الدَّمِ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ.

● وقال ابن القاسم: إذا قال إن محمداً ليس نبيي، أو لم يرسل، أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء تقوله: يُقتل.

وقال: ومن كفر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين، فهو بمنزلة المرتد. وكذلك من أعلن بتكذيبه أنه كالمُرتد يستتاب.

وكذلك قال، فيمن تنبأ وزعم أنه يوحى إليه.. ودعا إلى ذلك سراً أو جهراً.

وأيضاً إذا قال: بعد نبيكم نبيي، أنه يُستتاب إن كان معلناً بذلك، فإن تاب وإلا قُتل. وذلك لأنه مكذب للنبي ﷺ في قوله: «لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ في دعواه عليه الرسالة والنبوة.

وقال محمد بن سحنون: مَنْ شَكَّ فِي حَرْفٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَهُوَ كَافِرٌ بَاجِدٌ.

٤

والوجه الرابع - كما يقول القاضي عياض - أن يأتي السَّابُّ للنبي ﷺ من الكلام بمجمل لا يفهم، ويلفظ من القول بِمُشْكِلٍ يمكن حمله على النبي ﷺ أو غيره^(١). أى أن يأتي بعبارات غير واضحة، وبألفاظ غير محددة، لا يسهل

(١) الشفا ٢/٣٣٤.

معرفة هل المقصود بها النبي أو غيره.

قال:

فهنا متردد النظر، وحيرة العبر، ومظنة اختلاف المجتهدين:
أى يتردد الفقهاء في الحكم عليه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَحَيًّا مَنْ حَيَّ
عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

وهذا الشخص وأمثاله، وقف منه أهل الفتوى مواقف متفاوتة:
● فمنهم - من غلب حرمة النبي، ونمى جمى عريضه، فجسر على الحكم
بالقتل.

● ومنهم - من عظم حرمة الدم، ودرأ الحد بالشبهة، لإحتمال القول.
● ويضرب القاضى عياض لذلك الأمثلة التى توضح اختلاف الفقهاء فى
إصدار الحكم على هذا وأمثاله.. من ذلك.

- اختلاف الأئمة فى رجل أغضبه غريمه، فقال له: صَلِّ على محمد ﷺ فقال
له الطالب: لا صَلِّ الله على من صَلَّى عليه.
ف قيل لُسُخُنُون: هل هو كمن شتم النبى ﷺ أو شتم الملائكة الذين يصلُّون
عليه؟

قال: لا، إذا كان على ما وصفت من الغضب، لأنه لم يكن مضمراً الشتم.
وقال أبو اسحق البرقى: لا يُقْتَل، لأنه إنما شتم الناس، وهذا نحو قول
سُخُنُون، لأنه لم يعذره بالغضب فى شتم النبى ﷺ

«ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تكن معه قرينة تدل على شتم النبى ﷺ،
أو شتم الملائكة - صلوات الله عليهم - ولا مقدمة يحتمل عليها كلامه، بل
القرينة تدل على أن مراده الناس، غير هؤلاء لأجل قول الآخر له: صَلِّ على
النبى، فحتمل قوله وشبه لمن يُصَلَّى عليه الآن، لأجل أمر الآخر له بهذا عند
غضبه. هذا معنى قول سُخُنُون.

وذهب الحارث بن مسكين القاضى، وغيره، فى مثل هذا إلى الحكم بالقتل.
وتوقف أبو الحسن القابسى فى قتل رجل، قال: كل صاحب فندق قرنان ولو
كان نبياً مرسلًا، فأمر بشده بالقيود، والتضييق عليه حتى يُستفهم البيّنة عن

مُجَلَّة أَلْفَاظِهِ، وَمَا يَدُلُّ عَلَى مَقْصَدِهِ، هَلْ أَرَادَ أَصْحَابُ الْفَنَادِقِ الْآنَ؟.. فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ، فَيَكُونُ أَمْرُهُ أَخْفَى.

قَالَ: وَلَكِنْ ظَاهِرُ لَفْظِهِ الْعُمُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ فَنَدَقٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ، وَقَدْ كَانَ فَيَمُنُ تَقَدُّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ اكْتِسَابِ الْمَالِ.

قَالَ: وَدَمَّ الْمُسْلِمُ لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَمْرٍ يَنْبَغُ، وَمَا تُرَدُّ إِلَيْهِ التَّأْوِيلَاتُ لَا بَدَّ مِنْ إِمْعَانِ النَّظَرِ فِيهِ.

٥

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْقَاضِي عِيَاضٌ إِلَى وَجْهِ خَامِسٍ - لِيَذْكُرَ حُكْمَ الشَّرِيعَةِ فَيَمُنُ «لَا يَقْصِدُ نَقْصًا، وَلَا يَذْكُرُ عِيَا فِي النَّبِيِّ - ﷺ - وَلَا سَبًّا، لَكِنَّهُ يَنْزِعُ بِذِكْرِ بَعْضِ أَوْصَافِهِ، أَوْ يَسْتَشْهَدُ بِبَعْضِ أَحْوَالِهِ الْجَائِزَةِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا^(١). عَلَى طَرِيقِ ضَرْبِ الْمَثَلِ وَالْحُجَّةِ لِنَفْسِهِ، أَوْ لِغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى التَّشْبِيهِ بِهِ، أَوْ عِنْدَ هُضِيمَةٍ (أَيُّ مَظْلَمَةٍ) لِحَقَّتِهِ، أَوْ غَضَاضِهِ (أَيُّ ذِلَّةٍ وَمِنْقَصَةٍ) لِحَقَّتِهِ، لَيْسَ عَلَى طَرِيقِ التَّأْسَى، وَطَرِيقِ التَّحْقِيقِ، بَلْ عَلَى مَقْصَدِ التَّرْفِيعِ لِنَفْسِهِ، أَوْ لِغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّمَثِيلِ، وَعَدَمِ التَّوْقِيرِ لِلنَّبِيِّ - ﷺ، أَوْ قَصْدِ الْهَزْلِ وَالتَّنْذِيرِ بِقَوْلِهِ.

كَقَوْلِ الْقَائِلِ: «إِنْ قِيلَ فِي السُّوءِ فَقَدْ قِيلَ فِي النَّبِيِّ».

أَوْ «إِنْ كُذِّبَتْ فَقَدْ كُذِّبَ الْأَنْبِيَاءُ» أَوْ «إِنْ أُذْنِبْتُ فَقَدْ أُذْنِبُوا».

أَوْ «أَنَا أَسْلَمْتُ مِنَ السِّنَةِ النَّاسِ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»

أَوْ «قَدْ صَبَرْتُ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعِزِّ، أَوْ كَصَبَرَ أَيُّوبَ».

وَكَقَوْلِ الْمُتَنَبِّئِ:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي تَمُودٍ

وَنَحْوِهِ مِنْ أَشْعَارِ الْمُتَعَجِّرِينَ فِي الْقَوْلِ، الْمُتَسَاهِلِينَ فِي الْكَلَامِ، كَقَوْلِ الْمُعَرِّى:

كُنْتُ مُوسَى وَافَتَهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكَمَا مِنْ فَقِيرٍ
على أن آخر البيت شديد، وداخل في الإزراء والتحقير بالنبي - ﷺ،
وتفضيل حال غيره عليه.

وكذلك قوله:

لَوْلَا انْقِطَاعُ الْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ قُلْنَا مُحَمَّدٌ عَنْ أَبِيهِ بَدِيلٌ
هُوَ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جِبْرِيلُ

فصدر البيت الثاني من هذا الفصل، شديد، لتشبيهه غير النبي - ﷺ - في
فضله بالنبي، والعجز محتمل لوجهين:
أحدهما: أن هذه الفضيلة نقصت الممدوح.
والآخر، استغناؤه عنها، وهذا أشد.

ونحوه قول: حَسَّانَ الْمُقَيِّصِي، من شعراء الأندلس في محمد بن عباد المعروف
بالمعتمد، ووزيره أبي بكر بن زيدون:

كَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَبُو بَكْرٍ الرُّضَا وَحَسَّانُ حَسَّانُ وَأَنْتَ مُحَمَّدٌ
إلى أمثال هذا.

قال القاضي عياض بعد أن أورد العديد من الأمثلة والشواهد الشعرية التي
توضح مراده: ^(١) «وإنما أكثرنا بشاهدها مع استئقالاتنا حكايتها لتعريف أمثلتها،
ولتساهل كثير من الناس في ولوج هذا الباب الضنك، واستخفافهم فادح هذا
العبء، وقلة علمهم بعظيم ما فيه من الوزر، وكلامهم منه بما ليس له به علم،
وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، لاسيما الشعراء.. وأشدّهم فيه تسريحا،
وللسان تسريحا ابن هاني الأندلسي، وابن سليمان المعري، بل قد خرج كثير
من كلامهما إلى حد الاستخفاف والنقص وصريح الكفر».

«فإن هذه كلها وإن لم تتضمن سبّا، ولا أضافت إلى الأنبياء نقصا، ولست
أعني عجزى بيتي المعري، ولا قصد قائلها إزراء وغضا، فما وقر النبوة، ولا عظم

الرسالة، ولا غَزُرُ حُرمة الإصطفاء، ولا عَزَزُ خُطوة الكرامة، حتى شبه من شبه في كرامة نالها، أو معرَّة قَصَد الانتفاء منها، أو ضَرَبَ مثل لتطبيب مجلسه، أو إغلاء في وصفٍ لتحسين كلامه بمن عَظَّمَ الله خطره، وشَرَّفَ قدره، وألزم توقيره وبره، ونهى عن جهر القول له، ورفع الصوت عنده، فحق هذا إن دُرِيَ عنه القتل: الأدب والسجن، وقوة تعزيره، بحَسَبِ شُنَّةِ مقالته، ومقتضى قبح ما نطق به»

«لأن حقَّ الرسول، وموجب تعظيمه، وإنافة منزلته، أن يضاف إليه، ولا يُضاف، فالحكم في أمثال هذا ما بسطناه في طريق الفتيا. على هذا المنهج، جاءت فتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس - رحمه الله وأصحابه.

* ويروى القاضي عياض مجموعة من الأخبار التي توضح ما ارتآه مالك من فتاوى، وما أصدره من أحكام، ضد المتعرضين للرسول - ﷺ - بالقول. فيقول:

«ففي النوادر من رواية ابن أبي مريم في رَجُلٍ عَيَّرَ رجلاً بالفقر، فقال: تُعَيِّرُنِي بالفقر وقد رَعَى النبي - ﷺ - الغنم.

فقال مالك: قد عَرَضَ بذكر النبي - ﷺ - في غير موضعه، أرى أن يُؤدَّب.

٦

الوجه السادس - من وجوه السَّبِّ. وهو الذي يتصل بحكم الحاكي عن غيره^(١).

وقد ذكره القاضي عياض وذكر الحكم فيه، قال:

«أن يقول القائل ذلك حاكياً عن غيره، وأثراً له عن سواء، فهذا يُنظر في صورة حكايته، وقرينة مقاله. ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوجوب، والتدب، والكراهة، والتحريم.

* فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام

بقوله، والتنفير منه، والتجريح له. فهذا مما ينبغي امتثاله، ويحمد فاعله.
 * وكذلك إن حكاه في كتاب، أو في مجلس عن طريق الرد له، والنقض على
 قائله، والفتيا بما يلزمه وهذا منه ما يجب، ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي
 لذلك، والمحكي عنه.

* فإن كان القائل لذلك ممن تصدَّى لأن يؤخذ عنه العلم، أو رواية الحديث،
 أو يُقطع بحكمه أو شهادته أو فتياه في الحقوق، وجب على سامعه الإشادة بما
 سُمِعَ منه، والتنفير للناس عنه، والشهادة عليه بما قال. ووجب على من بَلَّغَه
 ذلك من أئمة المسلمين إنكاره، وبيان كفره، وفساد قوله، بقطع ضرره على
 المسلمين، وقيامًا بحق سيّد المرسلين.

* وكذلك إن كان ممن يعظ العامة أو يؤدب الصبيان، فإن من هذه سريرته
 لا يؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم. فيتأكد في هؤلاء الإيجاب لحق النبي - ﷺ -
 ولحق شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل.. فالقيام بحق النبي - ﷺ - واجب، وحماية
 عِرْضِهِ متعين، ونُصْرَتُهُ على الأذى حيًا وميتًا مستحق على كل مؤمن.

* ثم يقول القاضي عياض: «وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في
 الحديث، فكيف بمثل هذا؟»

وقد سئل أبو محمد بن أبي زيد، عن الشاهد. يسمع مثل هذا في حق الله
 تعالى، أيسعه أن لا يؤدّي شهادته؟

قال: إن رجا نفاذ الحكم بشهادته فليشهد، وكذلك إن علم أن الحاكم
 لا يرى القتل بما شهد به ويرى الاستتابة والأدب فليشهد، ويلزمه ذلك.
 وأما الإباحة لحكاية قوله، لغير هذين المقصدين، فلا أرى لها مدخلًا في هذا
 الباب.

فليس التفكّه بعرض رسول الله - ﷺ - والتمضمض بسوء ذكره لأحد،
 لا ذاكرًا ولا آثرًا، لغير غرض شرعي بمباح.

وأما للأغراض المتقدمة، فمُتَرَدِّدٌ بين الإيجاب والاستحباب.

* وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رُسُلِهِ في كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه، والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم كتابه.

* وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي - ﷺ - الصحيحة على الوجوه المتقدمة.

وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين، في كتبهم ومجالسهم، لِيُبَيِّنُوا للناس، وينقضوا شبهها عليهم، وإن كان وَرَدَ لأحمد بن حنبل إنكار لبعض هذا..

ويختم القاضي عياض حديثه عن هذا الوجه السادس - بقوله:

«فأما ذكر هذه الحكايات على غير هذا، من حكاية سَبِّهِ والإِزْراءِ بمنصبه على وجه الحكايات والأسفار والطُرف وأحاديث الناس ومقالاتهم، فكل هذا ممنوع. وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض.

حكى أن رجلاً سأل مالكا عن يقول القرآن مخلوق؟ فقال مالك: كافر فاقتلوه.

فقال: إنما حكيته عن غيري.. قال مالك: إنما سَمِعْتَاهُ منك.

قال القاضي عياض: «وهذا من مالك - رحمه الله - على طريق الزجر والتغليظ، بدليل أنه لم يُنفذ قَتْلُهُ. وَإِنْ أُتِمَّ هذا الحاكى - فيما حكاه - أنه اختلقه ونسبه إلى غيره، أو كانت تلك عادة له، أو ظهر استحانه لذلك، أو كان مولعا بمثله..

فحكم هذا حكم السَّابِ نفسه، يؤاخذ بقوله ولا تنفعه نسبته إلى غيره، فيبادر بقتله.

٧

أما الوجه السابع وهو الحكم في الراوى. الذى يذكر ما يجوز على النبى - ﷺ - وما يطرأ من الأمور البشرية به، ويمكن إضافتها إليه، أو يذكر ما أمتحن به، وصبرَ في ذاتِ الله على شدته من مقاساة أعدائه، وأذاهم له، ومعرفة ابتداء حاله وسيرته، وما لقيه من بؤس.

وكل ذلك على طريق الرواية، ومذاكرة العلم، ومعرفة ما صحت منه العصمة له.

«قال القاضى عياض^(١) فهذا حكم خارج عن هذه الأحكام الستة، إذ ليس فيه غمضٌ ولا نقص، ولا إزراء ولا استخفاف، لا فى ظاهر اللفظ، ولا فى مقصد الالفاظ..

وهنا يستدرك القاضى عياض فيقول :

«لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم، وفقهاء طلبة الدين، ممن يفهم مقاصده، ويحققون فوائده، ويجنب ذلك من عساه لا يفقه أو يخشى به فتنته. فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف، لما انطوت عليه من تلك القِصص لضعف معرفتهن، ونقص عقولهن وإدراكهن.

وقد قال ﷺ - مخبراً عن نفسه باستيجاره لرعاية الغنم فى ابتداء حاله وقال : «ما من نبى إلا وقد رعى الغنم» وأخبرنا الله تعالى عن موسى عليه السلام. وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة، لمن ذكره على وجهه، بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقيق، بل كانت عادة جميع العرب.

«نعم فى ذلك للأنبياء حكمة بالغة، وتدرىج لله تعالى لهم إلى كرامته، وتدريب برعايتها لسياسة أمهم من خليفته بما سبق لهم من الكرامة فى الأزل.

(١) الشفا ٢/٢٤٧.

وكذلك في ذكر الله يُتَمِّمُهُ وَعَيْلَتُهُ على طريق المنَّة عليه، والتعريف بكرامته له.

فذكر الذاكر لها على وجه تعريف حاله، والخبر عن مبتدئه، والتعجب من منح الله قِبَلَهُ، وعظيم منته عنده، ليس فيه غضاظة، بل فيه دلالة على نبوته، وصحة دعوته، إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب. ومن ناوأه من أشرافهم شيئا فشيئا، ونمى أمره حتى قهرهم وتمكن من ملك مقاليدهم، واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم، بإظهار الله تعالى له، وتأنيده بنصره، وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، وإمداد بالملائكة المسنومين.. ولو كان ابن ملك، أو ذا أشياخ متقدمين؛ لحسب كثير من الجهال أن ذلك موجب ظهوره، ومقتضى علوه.

وإذا اليتم من صفته. واحدى علاماته في الكتب المتقدمة، وأخبار الأمم السالفة، وكذا وقع ذكره في كتاب أرمياء، وبهذا وصفه ابن ذى رزن لعبد المطلب، وبجيرا لأبي طالب.

وكذلك إذا وُصف بأنه أُمِّي - كما وصفه الله - فهي مدحة له، وفضيلة ثابتة فيه، وقاعدة معجزته، إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم، إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم مع ما منح - ﷺ - وفضل به من ذلك.. ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ، ولم يكتب ولم يُدارس ولا لُقن، مقتضى العجب، ومنتهى العبر، ومعجزة البشر، وليس في ذلك نقيصة.

إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها غير مُراداة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب، استغنى عن الواسطة والسبب، والأمية في غيره نقيصة، لأنها سبب الجهالة، وعنوان الغباوة، فسبحان من باين أمره من أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه.

ثم يذكر القاضي عياض الحكم في من خالف ذلك فيقول:

أما «من أورد ذلك على غير وجهه، وعلم منه بذلك سوء قصده، لحق بالفصول الستة التي قدمناها» أى يحكم عليه بما حكم على السابقين، لأنه منتقص لحق الرسول، متقول عليه. مقل من شأنه.

٨

ويختتم القاضي عياض هذا الفصل الفقهي الهام بالحديث عن الآداب التي يجب أن يتحلَّى بها المتكلم عن رسول الله - ﷺ - الذاكر لسيرته وأحواله فيما يجوز عليه^(١) فيقول:

«يجب عليه أن يلتزم في كلامه عند ذكره - ﷺ - وذكر تلك الأحوال، والواجب من توقيره وتعظيمه، ويُراقب حال لسانه، ولا يُهملُه، وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره.

فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد، ظهر عليه الإشفاق والإرتماض (أى شدة القلق) والغيظ على عدوه، وموثة الفداء للنبي - ﷺ - لو قدر عليه، والنصرة لو أمكنته.

● وإذا أخذ في أبواب العصمة، وتكلم عن مجارى أعماله وأقواله - ﷺ - تحرَّى أحسن اللفظ، وأدب العبارة ما أمكنه، واجتنب بشيع ذلك، وهجر من العبارة ما يفتضح، كلفظة الجهل والكذب والمعصية.

● فإذا تكلم في الأقوال، قال: هل يجوز عليه الخلف في القول، والإخبار بخلاف ما وقع سهواً أو غلطاً ونحوه من العبارة، ويتجنب لفظة الكذب جملة واحدة.

● وإذا تكلم عن العلم، قال: هل يجوز أن لا يعلم إلا ما علم، وهل يمكن أن لا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه، ولا يقول بجهل لقب اللفظ وبشاعته.

● وإذا تكلم عن الأفعال، قال: هل يجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والنواهي، ومواقعة الصفائر، فهو أولى وآدب من قوله: هل يجوز أن يعصى أو يذنب، أو يفعل كذا وكذا من أنواع المعاصي.

فهذا من حق توقيره - ﷺ - وما يجب له من تعزيز وإعظام.

الفصل الثاني

موقف المذاهب الفقهية من سب الرسول وشأنه

انتهى القاضى عياض - فى الفصل السابق - إلى تحديد الحكم الشرعى فيمن سب الرسول - ﷺ - أو أذاه أو تنقص من حقه، وذكر اتفاق فقهاء المسلمين وعلمائهم على قتل هذا الساب، وتخيير الإمام - ولى الأمر - فى صلبه بعد القتل أم لا. وكان إصدار الحكم الشرعى هذا استناداً إلى الكتاب والسنة والإجماع.

وفى هذا الفصل، انتقل إلى توضيح موقف المذاهب الفقهية من هذا الحكم.. هل قتله حدًا أو كفرًا؟ وما هى حيثيات هذا الحكم؟
ونلاحظ أن القاضى عياض فرق فى بحثه هذا بين الحكم الذى يجرى على المسلم، والحكم الذى يجرى على الذمى.

١

أولاً: حكم المسلم الساب

بدأ القاضى عياض هذا الموضوع بعرض مذهبه، مذهب الإمام مالك وأصحابه، فقال: «إعلم أن مشهور مذهب الامام مالك وأصحابه، وجهور العلماء قتله حدًا - لا كفرًا، إن أظهر التوبة منه. ولهذا لا تقبل عندهم توبته، ولا تنفعه استقالته ولا فيأته. وحكمه: حكم الزنديق، ومسير الكفر فى هذا القول.

وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه، والشهادة على قوله، أو جاء تائباً من قبل نفسه، لأنه حدٌ وجب لا تسقطه التوبة كسائر الحدود.

(١) الشفا ٢/٢٥٤.

قال الشيخ أبو الحسن القابسي - وهو مالكي - إذا أقرَّ بالسُّبِّ وتاب منه، وأظهر التوبة، قُتِلَ بالسُّبِّ، لأنه هو حَدُّهُ.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: وأما ما بينه وبين الله فتوبته تنفعه.
وقال ابن سُخْنُون: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ - ﷺ - من الموحِّدين، ثم تاب عن ذلك، لم تُزَلْ توبَتُهُ عنه القتل.

قال القاضي عياض: «وكذلك قد اختلف في الزنديق، إذا جاء تائباً..
فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلك قولين: قال من شيوختنا:
● من قال اقتله باقراره، لأنه كان يقدر على ستر نفسه، فلما اعترف خِفْنَا
أنه خَشِيَ الظهور عليه فبادر لذلك.

● ومنهم من قال: أَقْبِلُ توبَتَهُ، لأنِّي استدلُّ على صحتها بمجيئِهِ، فكأننا وقفنا
على باطنه بخلاف من أَسْرَتَهُ اليقينة.

● ويوضح القاضي عياض حثية هذا الحكم الفقهي المالكي، ستقول:
«ومسألة سَابُّ النَّبِيِّ - ﷺ - أقوى، لا يُتَصَوَّرُ فيها الخلافُ على الأصل
المتقدم، لأنه حقٌّ متعلِّقٌ للنبي - ﷺ - ولأُمَّتِهِ بسببه، لا تُسْقِطُهُ التوبة كسائر
حقوق الآدميين.

والزَّندِيقُ إذا تاب بعد القدرة عليه، فعند مالك والليث وإسحاق وأحمد،
لا تقبل توبته. وعند الشافعي تقبل.

واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف.
وحكى ابن المنذر، عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - يُسْتَتَابُ.
قال محمد بن سُخْنُون: ولم يُزَلْ القتلُ عن المسلم بالتوبة مِنْ سَبِّهِ - ﷺ -
لأنه لم ينتقل من دين إلى غيره، وإنما فَعَلَ شيئاً حَدُّهُ عندنا القتل، لا عَفْوُ فيه
لأحد كالزَّندِيقِ

وقال القاضي أبو محمد بن نصر محتجاً لسُقُوطِ اعتبار توبته، والفرق بينه
وبين من سَبَّ الله تعالى، على مشهور القول باستتابته..

«أن النبي - ﷺ - بَشَرٌ، والبشرُ جنسٌ تلحقه المعرةُ إلا من أكرمه الله بنبوته. والبارى تعالى مُنَزَّهٌ عن جميع المعاييب قطعاً، وليس من جنسٍ تلحق المعرة بجنسه، وليس سبُّه - ﷺ - كالارتداد المقبول فيه التوبة، لأن الارتداد معنى ينفرد به المرتد، لا حق فيه لغيره من الآدميين، فقبلت توبته».

«ومن سبَّ النبي - ﷺ - تعلَّقَ فيه حقٌّ لآدمي، فكان كالمرتد، يُقتل حين ارتداده أو يُقَذَّف، فإن توبته لا تسقط عنه حدُّ القتل والقذف.

«ولم يُقتل سبُّ النبي - ﷺ - لكُفْرِهِ، لكن لمعنى يَرْجِعُ إلى تعظيم حُرْمَتِهِ، وزوال المعرة به، وذلك لا تسقطه التوبة.

ويوضح القاضي عياض هذا القول ويحلله فيقول:

«يريد - والله أعلم - لأن سبُّه لم يكن بكلمة تقتضي الكفر، ولكن بمعنى الإزراء والاستخفاف، أو لأن بتوبته وإظهار إنابته ارتفع عنه اسم الكفر ظاهراً، والله أعلم بسريره، وبقي حكم السب عليه^(١).

وقال أبو عمران القاسمي: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ - ثم ارتدَّ عن الإسلام قُتِلَ ولم يُسْتَتَب. لأن السبَّ من حقوق الآدميين التي لا تسقط عن المرتد.

وكلام شيوخنا هؤلاء مبنيٌّ على القول بقتله حداً لا كُفْراً.

أما ما جاء على رواية الوليد بن مسلم، عن مالك، وقال به بعض أهل العلم:

«فقد صرَّحوا أنه ردة. قالوا: ويستتاب منها، فإن تاب نُكِّل، وإن أبى قُتِل، فحكم له بحكم المرتد مطلقاً في هذا الوجه. والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه.

ثم يقول القاضي عياض: «ونحن نيسط الكلام فيه فنقول:

«مَنْ لم يره ردةً فهو يُوجب القتل فيه حداً. وإنما نقول ذلك مع فصلين: إمَّا مع إنكاره ما شهد عليه به.. أو إظهاره الإقلاع والتوبة عنه، فتقتله حداً، لثبات

كلمة الكفر عليه في حق النبي - ﷺ - وتحقيره ما عظم الله من حقه، وأجرينا حكمه في ميراثه، وغير ذلك حكم الزنديق إذا ظهر عليه، وأنكر أو تاب.

وفترض القاضي عياض تساؤلا قد يثار في هذا المقام، فيقول: «فإن قيل: فكيف تثبتون عليه الكفر، ويشهد عليه بكلمة الكفر، ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابعها؟

ثم يجيب بقوله: «نحن وإن أثبتنا عليه حكم الكافر في القتل، فلا نقطع عليه بذلك، لإقراره بالتوحيد والنبوة، وإنكاره ما شهد به عليه، أو زعمه أن ذلك كان منه وهلا ومعصية، وأنه مقلع عن ذلك، نادم عليه.

وأما من علم أنه سبه معتقدا لاستحلاله، فلا شك في كفره بذلك، وكذلك إن كان سبه في نفسه كفر بذلك، كتكذيبه أو تكفيره.

فهذا بما لا أشكال فيه، ويقتل وإن تاب منه، لأننا لا نقبل توبته، ونقتله بعد التوبة حدا، لقوله، ومتقدم كفره، وأمره بعد إلى الله المطلع على صحة إقلاعه، العالم بسره. وكذلك من لم يظهر التوبة، واعترف بما شهد به عليه، وصم عليه، فهذا كافر يقوله، وباستحلاله فتك حرمة الله، وحرمة نبيه - ﷺ - يقتل كافرا بلا خلاف.

٢

قال القاضي عياض بعد عرض حيثيات الحكم الذي ارتضاه الفقهاء: «هذا حكم من ثبت عليه السب، بما يجب ثبوته من إقرار منه بالذنب، أو شهادة عدول عليه».

«فأما من لم تتم الشهادة عليه^(١)، بما شهد عليه الواحد، أو اللئيف من الناس»

● أو ثبت قوله لكن احتيل ولم يكن صريحا..

● وكذلك إن تاب (على القول بقبول توبته)

فهذا يُدْرَأُ عنه القَتْلُ، ويتسلط عليه اجتهاد الإمام بقدر شهرة حاله، وقوة الشهادة عليه وضعفها، وكثرة السماع عنه، وصورة حاله من التهمة في الدين، والنَّبر بالسُّفَه والمجون.

فمن قَوِيَ أمره.. أذاقه من شديد النكال، من التضيق في السجن، والشَّد في القيود، إلى الغاية التي هي منتهى طاقته، بما لا يمنعه القيام لضرورته، ولا يُقْعِدُه عن صلاته»

وهو حكم كُلٍّ من وَجَبَ عليه القَتْلُ لكن وُقِفَ عن قتله لمعنى أَوْجَبَه، وترَبَّصَ به لإشكال، وعَائِقٍ اقتضاه أمره.

* قال القاضي عياض: وحالات الشدة في نكاله تختلف بحسب اختلاف حاله.

«فقد روى الوليد عن مالك والأوزاعي أنها رِدَّة، فإذا تاب نُكِّل.

● وأفتى أبو عبد الله بن عتاب - فيمن سَبَّ النبي ﷺ - فشَهِد عليه شاهدان عُدْلُ أحدهما بالأدب الموجه، والتتكيل والسجن الطويل، حتى تظهر توبته.

● وقال القابسي: في مثل هذا - «ومن كان أقصى أمره القتل، فعَاقَ عَائِقُ، أَشْكَلَ في القتل، لم يَنْبَغِ أَنْ يُطْلَقَ من السجن، ويُستَظَال سجنه، ويَحْمَل عليه من القيد ما يُطَبِّق.

● وقال في مثله ممن أَشْكَلَ أمره: يُشَدُّ في القيود شَدًّا، وَيُضَيَّقُ عليه في السجن، حتى يُنْظَرُ فيما يجب عليه.

● وقال في مسألة مثلها: ولا تُهْرَاقَ الدماء إلا بالأمر الواضح، وفي الأدب بالسُّوْط، والسجن نكالٌ للسُّفَهَاء، ويعاقب عقوبة شديدة.

قال القاضي عياض:

«فأما إن لم يَشْهَدْ عليه سوى شاهدين، فاثْبَتَ من عداوتها ما أسقطها عنه،

ولم يُسمع ذلك من غيرها، فأمره أخف لسقوط الحكم عنه، وكأنه لم يُشهد عليه.
هذا حكم المسلم السَّاب.

٣

ثانياً: حكم الذُّمِّي السَّاب:

بعد أن انتهى القاضى عياض من توضيح الحكم الشرعى، الذى يطبق على المسلم الذى يَسُبُّ رسول الله - ﷺ - تحوّل لكى يكمل موضوعه بذكر الحكم الشرعى ضد الذُّمِّي السَّاب^(١)، المنتقص لقدّر النبى - ﷺ - وموقف الشريعة الإسلامية منه، وفتوى الفقهاء فى ذلك.

قال :

« فَأَمَّا الذُّمِّيُّ إِذَا صَرَّحَ بِسَبِّهِ أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَخَفَّ بِقَدْرِهِ - ﷺ - أَوْ وصفه بغير الوجه الذى كَفَّرَ به. فلا خلاف عندنا فى قتله - إِنْ لم يُسَلِّمْ، لأنَّنا لم نُعْطِهِ الذُّمَّةَ، أَوْ العهد على هذا»

وهو قول عامة العلماء إلا أبا حنيفة والثورى، وأتباعهما من أهل الكوفة. فإنهم قالوا: لا يُقتل لأن ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدب ويُعَذَّر.

● واستدل بعض شيوخنا على قتله، بقوله تعالى:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

ويُستدل أيضاً عليه بقتل النبى ﷺ لابن الأشرف وأشباهه، ولأنَّنا لم نُعَاهِذْهُمْ، ولم نُعْطِهِم الذُّمَّةَ على هذا، ولا يَجُوزُ لنا أن نفعل ذلك معهم.

« فَإِذَا أَتَوْا مَا لم يُعْطُوا عليه العهد ولا الذُّمَّةَ فقد نَقَضُوا ذِمَّتَهُمْ وصاروا كُفَّارًا أَهْلَ حَرْبٍ يُقْتَلُونَ لَكُفْرِهِمْ».

« وأيضاً: فإن ذِمَّتَهُمْ لا تُسْقِطُ حدودَ الإسلام عنهم من القَطْعِ فى سرقة أموالهم، والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك حَلَالًا عندهم».

(١) الشفا ٢/٢٦٢.

«فكذلك سَبُّهم للنبي ﷺ يُقْتَلُونَ به.

● ويشير القاضى عياض فى هذا المجال قضية هامة، وهى: (١)
ما الموقف الشرعى من الذمى الذى سَبَّ رسول الله ﷺ ثم أسلم؟
قال: اختلفوا إذا سَبَّ ثم أسلم:
ف قيل: يُسْقِطُ إسلامه قتلَه. لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله.
بخلاف المسلم، إذا سَبَّه ثم تاب، لأننا نعلم باطنه الكافر فى بُغْضه له، وتنقصه
بقلبه، لكننا منعناه من إظهاره، فلم يَزِدْنَا ما أظْهَره إلَّا مخالفةً للأمر، ونقضاً
للعهد.. فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله. قال الله تعالى:
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ
سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال ٣٨].

والمسلم بخلافه، إذ كان ظَنُّنا بباطنه حُكْمَ ظاهره، وخلاف ما بدا منه الآن،
فلم تُقْبَلْ بعد رجوعه ولا اسْتَتَمْنَا إلى باطنه، إذ قد بدت سرائره، وما ثبت عليه
من الأحكام باقية عليه، لم يُسْقِطْها شىء.

● وقيل: لا يُسْقِطُ إسلام الذمى السَّابَّ قتلَه، لأنه حَقُّ للنبي ﷺ وجب
عليه، لانتهاكه حرَّمته، وقصده إلحاق النقيصة والمعرة به..
فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالَّذى يُسْقِطُه، كما وجب عليه من حقوق
المسلمين من قبل إسلامه من قتلٍ وقذف. وإذا كُنَّا لا نقبلُ توبةَ المسلم، فأنَّ
لا نقبلُ توبةَ الكافر أولى.

٤

لمن يؤول ميراث من قُتل فى سَبِّ النبي ﷺ؟

لم يغفل القاضى عياض تناول هذا الموضوع بعد أن تنقل بنا بين المذاهب
الفقهية، ومجالس أهل الافتاء، وأوضح حكم الشريعة فيمن سَبَّ أو تنقص
الرسول المصطفى ﷺ..

وهذا الموضوع - موضوع الميراث وموقف الشريعة منه، هو ما أراد أن ينهى به موقف المعادى لرسول الله ﷺ، سواء ما يتصل بدمه، أو ما يتصل بماله وتركتيه بعد مقتله^(١).

قال :

اختلف العلماء في ميراث من قُتل بسبِّ النبي ﷺ.

● فذهب سُخُنُونُ : إلى أنه لجماعة المسلمين، من قِبَل أن شَتَمَ النبي ﷺ كُفْرٌ يُشَبِّهُ كُفْرَ الزنديق.

● وقال أَصْبَغُ : ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مُسْتَسِيرًا بذلك.. وإن كان مُظْهِرًا له مُسْتَهْلًا به، فميراثه للمسلمين.

● قال أبو الحسن القابسي : وإن قُتِلَ وهو منكر للشهادة عليه، فالحكم في ميراثه على ما أظهر من إقراره، يعنى لورثته. والقتل حَدٌّ ثبت عليه ليس من الميراث في شيء.

وكذلك لو أَقْرَ بالسَّبِّ، وأظهر التَّوْبَةَ لِقَتْلِ، إِذْ هو حَدٌّ، وحكمه في ميراثه وسائر أحكامه حُكْمُ الإسلام.

ولو أَقْرَ بالسَّبِّ وتَمَادَى عليه، وَأَبَى التَّوْبَةَ منه فَقُتِلَ على ذلك، كان كَافِرًا وميراثه للمسلمين. ولا يُغَسَّلُ، ولا يُصَلَّى عليه، ولا يَكْفَنُ، وتُسَرَّ عَوْرَتُهُ وَيَوَارَى كما يُفْعَلُ بالكفار.

● وبوضح القاضي عياض فتوى أبي الحسن، فيقول :

«وقول الشيخ أبي الحسن، في المجاهر المتباعد بين لا يمكن الخلاف فيه، لأنه كافر مُرْتَدٍّ، غير تائب ولا مُقْلَع. وحكمه : حكم المرتد، لا تَرِثُهُ من المسلمين، ولا من أهل الدين الذي ارتدَّ إليه، ولا يَجُوزُ وصاياه.

● وروى أَصْبَغُ عن ابن القاسم، فيمن كَذَبَ برسول الله ﷺ أو أَعْلَنَ دينًا بما يُفَارِقُ به الإسلام، أن ميراثه للمسلمين.

وقال بقول مالك: إن ميراث المرتد للمسلمين ولا ترثه ورثته: ريعة والشافعي وأبو ثور، وابن أبي ليلى. واختلف فيه عن أحمد.

وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن المسيب، والحسن، والشعبي والأوزاعي، والليث واسحق وأبو حنيفة: يرثه ورثته من المسلمين.

● ويلخص القاضي عياض الأمر فيقول: «وتفصيل أبي الحسن في باقي جوابه حسنٌ بينٌ، وهو على رأى أصبغ، وخلاف قول سُخُنُون، واختلافهما على قول مالك في ميراث الزنديق، فمرة ورثه ورثته من المسلمين، قامت عليه بذلك بيّنة فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة.

● وقاله أصبغ ومحمد بن سلمة، وغير واحد من أصحابه، لأنه مظهرٌ للاسلام بإنكاره أو توبته..

وحكمه: حُكْمُ المنافقين، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وزهب ابن قاسم إلى أنه إن اعترف بما شهد عليه به، وتاب، فقتل، فلا يُورث.

وإن لم يُقرّ حتى مات أو قُتل ورث. وكذلك كُلٌّ من أسرَّ كُفْرًا، فإنهم يتوارثون بوراثة الإسلام.

● وسئل أبو القاسم بن الكاتب: عن النصّراني يسبُّ النبي ﷺ فيقتل... هل يرثه أهل دينه أم المسلمون؟ فأجاب: أنه للمسلمين ليس على جهة الميراث، لأنه لا توارث بين أهلِ مِلَّتَيْن، ولكن لأنه من قَبِيلِهِم، لنقضِهِ الْعَهْدِ.

الفصل الثالث

موقف الشريعة مِّن سَبِّ الله تعالى وملائكته
وكتبه وآل النبي وأزواجه وصحبه

هذا هو الفصل الخاتم، الذي ختم به القاضي عياض سيرة المصطفى ﷺ.

وقد خصصه لتحديد موقف الشريعة الإسلامية من جانبين:

(أ) مِّن سَبِّ الله تعالى وملائكته وأنبياءه وكتبه.

(ب) مِّن سَبِّ آل البيت النبوي الشريف، وأزواجه، وأصحابه.

والجانب الأول - في رأيي - يخرج عن نطاق السيرة النبوية. وإن يكن من المفيد أن نعلمه، استكمالاً لهذا الباب الفقهي الجامع.

١

أولاً: موقف الشريعة مِّن سب الله وملائكته وأنبياءه وكتبه.

قال القاضي عياض: ^(١) «لا خلاف أن سَابَّ الله تعالى - من المسلمين - كافرٌ، حلال الدم.

واختلف في استتابته:

● روى ابن القاسم عن مالك: مَن سَبَّ الله تعالى من المسلمين قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ إلا أن يكونَ افتراءً على الله بارتداده إلى دينٍ دَانَ به وأظهره فُيُسْتَتَاب. وإن لم يُظهره لم يُسْتَتَب.

● وقال المخزومي، ومحمد بن سلمة، وابن أبي حازم: لا يُقْتَلُ المسلمُ بالسَّبِّ حتَّى يُسْتَتَاب. وكذلك اليهودي والنصراني، فإن تابوا قُبِلَ مِنْهُمْ، وإن لم يتوبوا قُتِلُوا، ولا بد من الاستتابة.

(١) الشفا ٢/٢٧٠.

● وأفقي أبو محمد بن أبي زيد، في رجل لَعَنَ رجلاً وَلَعَنَ الله، فقال: إنما أردتُ أن الْعَنَ الشيطان، فزَلَّ لِسَانِي.. فقال: يُقْتَلُ بظاهر كُفْرِهِ، ولا يُقْبَلُ عُذْرُهُ. وأما فيما بينه وبين الله تعالى فمُعْذُورٌ.

● واختلف فقهاء قُرطُبة، في مسألة هارون بن حبيب، أخى عبد الملك الفقيه، وكان ضيق الصدر، كثير التبرم، وكان قد شهد عليه بشهادات منها: أنه قال عند استِلالِهِ من مرضٍ: «لَقِيتُ في مرضي هذا ما لو قَتَلْتُ أبَا بكر وعمر لم استوجب هذا كله».

فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله، وأن مضمَّن قوله تَجْوِيرُ الله تعالى، وتظلمُ منه، والتعريض فيه كالنصريح.

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، وسعيد بن سليمان القاضي: بطرح القتل عنه، إلا أن القاضي رأى عليه التثقيل في الحبس، والشدة في الأدب، لاحتمال كلامه، وصرفه إلى التشكي، فوجه من قال في سَابِ الله بالاستتابة، أنه كفر وَرِدَّةٌ محضة لم يتعلق بها حقٌ لغير الله، فأشبهه قصد الكفر بغير سب الله، وإظهار الانتقال إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

قال القاضي عياض:

«ووجه ترك استتابة، أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قَبْلُ، اتَّهَمَاهُ وَظَنَّا أن لسانه لم ينطق به إلا وهو معتقد له، إذ لا يتساهل في هذا أحد، فحُكِمَ له بِحُكْمِ الزنديق، ولم تقبل توبته».

«وإذا انتقل من دين إلى دين آخر، وأظهر السُّبَّ بمعنى الارتداد، فهذا قد أعلم أنه خَلَعَ رِبْقَةَ الإسلام من عنقه، بخلاف الأول المستمسك به، وَحُكِمَ هذا حُكْمُ المرتد. يُستتاب على مشهور مذاهب أكثر العلماء، وهو مذهب مالك وأصحابه.

٢

وهنا يجد القاضى عياض فرصة لتوضيح موقف الشريعة الإسلامية من المتأولين، أصحاب الهوى والبدع من الفرق الإسلامية المضللة، فيقول^(١):

«وَأَمَّا مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، لَيْسَ عَلَى طَرِيقِ السُّبِّ وَلَا الرَّدِّ وَقَصِدَ الْكُفْرَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالاجْتِهَادِ وَالخَطَأَ الْمَفْضَى إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ، مِنْ تَشْبِيهِ أَوْ نَعْتٍ بِجَارِحَةٍ، أَوْ نَفَى صِفَةٍ كِهَالٍ.. فَهَذَا مِمَّا اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِي تَكْفِيرِ قَائِلِهِ وَمَعْتَقَدِهِ..»

● واختلف قول مالك وأصحابه في ذلك، ولم يختلفوا في قتالهم إِذَا تَحَيَّرُوا فِتْنَةً، وَأَنَّهُمْ يُسْتَتَابُونَ فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا.

وإنما اختلفوا في المنفرد منهم، فأكثر قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم، وترك قتلهم، والمبالغة في عقوبتهم، وإطالة سجنهم، حتى يظهر إقلاعهم، وتستبين توبتهم، كما فعل عمر - رضى الله عنه - بصبيغ، الذى كان يتتبع مشكل القرآن، ويسأل عنه عمر، فضربه عمر، وأمر أن لا يجالس.

وهذا قول محمد بن المَوَازِ في الخوارج، وقول سُحُنُونِ في جميع أهل الأهواء. وبه فُسِّرَ قول مالك في الموطأ، وما رواه عمر بن عبد العزيز - وجده وعمه - من قولهم في القَدَرِيَّةِ يُسْتَتَابُونَ فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا.

* وقال عيسى بن القاسم في أهل الأهواء من الإباضية والقدرية وشبههم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف لتأويل كتاب الله.. يُسْتَتَابُونَ، أظهروا ذلك أو أسروه، فإن تابوا، وإلا قُتِلُوا وميراثهم لورثتهم.

قال: واستتابتهم أن يقال لهم: اتركوا ما أنتم عليه.

وقال: وهم مُسْلِمُونَ، وإنما قُتِلُوا لرأيهم السوء، وهذا عمل عمر بن عبد العزيز.

* قال القاضي عياض:

«وابن حبيب وغيره من أصحابنا - يرى تكفيرهم، وتكفير أمثالهم من الخوارج والقدرية والمرجئة، وقد روى أيضا عن سُخُنُون مثله، فيمن قال: «ليس لله كلام» أنه كافر.

وروى عن مالك: «أهل الأهواء كُلُّهم كفار، ومن وصف شيئا من ذات الله تعالى، وأشار إلى شيء من جسده يَدٍ أو سَمْعٍ أو بَصَرٍ قُطِعَ ذلك منه، لأنه شبه الله بنفسه.

وقال - فيمن قال القرآن مخلوق: كافر فاقتلوه.

وأكثر أقوال السلف تكفيرهم، ومن قال به الليث وابن عُيينة، وابن لهيعة.

قال القاضي عياض:

أما من روى عنه معنى القول الآخر أى ترك تكفيرهم، فهم علي بن أبي طالب، وابن عمر، والحسن البصرى، وهو رأى جماعة من الفقهاء النظار، والمتكلمين.

واحتجوا بتورث الصحابة والتابعين ورثة أهل حروراء، ومن عُرف بالقدر، ممن مات منهم، ودَفَنِهِمْ في مقابر المسلمين، وجَرَى أحكام الإسلام عليهم. قال اسماعيل القاضي: «وإنما قال مالك في القَدَرِيَّة وسائر أهل البدع، يُسْتَتَابُونَ فإن تابوا وإلا قُتِلُوا - لأنه من الفساد في الأرض.

٣

تحقيق القول في تكفير المتأولين^(١)..

وبعد أن ذكر القاضي عياض مذاهب السلف في تكفير أصحاب البدع،

(١) الشفا ٢/٢٧٦.

والأهواء المتأولين ممن قال قولاً - في الله - لا يؤديه مسأقه إلى الكفر. انتقل إلى تحقيق القول في تكفيرهم، أي ذكر حيثيات الحكم عليهم بالكفر، استناداً إلى أقوال الفقهاء في ذلك..

قال: اختلف الفقهاء في ذلك:

- فمنهم من صوّب التكفير، الذي قال به الجمهور من السلف.
- ومنهم من أبأه ولم ير إخراجهم من سواد المؤمنين. وهو قول أكثرهم..
وقالوا: هم فسّاق، عَصَاة، ضَلَالٌ، وَنُورُهُمْ من المسلمين، ونحكم لهم بأحكامهم.
ولهذا قال سُخْنُون: لا إعادة على من صَلَّى خَلْفَهُمْ. وهو قول جميع أصحاب مالك..

قال: لأنه مسلمٌ، وذنبه لم يُخْرِجه من الإسلام.

* قال القاضي عياض: واضطرب آخرون في ذلك، ووقفوا عن القول بالتكفير أو ضده.

واختلاف قولى مالك في ذلك، وتوقفه عن إعادة الصلاة خلفهم، منه. وإلى نحو من هذا ذهب القاضي أبو بكر الباقلاني - إمام أهل التحقيق والحق، قال:

«إنها من المعصّات - أى التى يصعب معناها، إذا القوم لم يصرّحوا باسم الكُفْرِ، وإنما قالوا قولاً يؤدي إليه.

* واضطرب قوله في المسألة - على نحو اضطراب قول إمامه مالك بن أنس، حتى قال في بعض كلامه: «إنهم على رأى مَنْ كَفَرَهُم بالتأويل، لا تحل مناكحتهم، ولا أكل ذبائهم، ولا الصلاة على مَيِّتِهِمْ ويختلف في مَوَارِثَتِهِمْ على الخلاف في ميراث المرتد».

وقال أيضاً: نُورَتْ مَيِّتُهُمْ وَرَثَتُهُمْ من المسلمين، ولا نُورُتُهُمْ من المسلمين،

وأكثر ميله إلى ترك التكفير بالمآل.

وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري، وأكثر قوله ترك التكفير، وأن الكفر خَصْلَةٌ واحدة، وهو الجهل بوجود الباري تعالى. وقال مرة: من اعتقد أن الله جِسْمٌ، أو المسيح، أو بعض مَنْ يلقاه في الطُّرُق، فليس بعارف به، وهو كافر.

ولمثل هذا ذهب أبو المعالي في أجوبته لأبي محمد عبد الحق، وكان سألته عن المسألة فاعتذر له بأن الغلط فيها يصعب، لأن إدخال كافر في الملة، وإخراج مسلم عنها، عظيم في الدين.

وقال غيرهما من المحققين: ^(١) الذي يجب «الاحتراز من التكفير في أهل التأويل» فإن استباحة دماء المصلين الموحدين خطر، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سَفْكِ محجمة (قارورة) من دم مسلم واحد، وقد قال ﷺ: «فإذا قالوها - يعني الشهادة - عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وحسابهم على الله».

* ويظل القاضي عياض يطرح الآراء والأقوال، ويستشهد عليها بالألفاظ الأحاديث الواردة في الباب، ويقول أنها معرضة للتأويل، فما جاء منها في التصريح بكفر القدرية، وقوله: «لا سَهْمَ لهم في الإسلام» وتسميته الرافضة بالشرك، وإطلاق اللعنة عليهم، وكذلك في الخوارج، وغيرهم من أهل الأهواء، فقد يحتج بها من يقول بالتكفير، وقد يجيب الآخر بأنه قد ورد مثل هذه الألفاظ في الحديث في غير الكفرة، عن طريق التغليظ.

* ويظل يتابع الصحابة في أقوالهم وما فهموه وما أخذوه عن رسول الله ﷺ ويناقش آراءهم حول هذه الفرق الإسلامية، ثم يقول: «وهذا مما يدل على سعة فقه الصحابة، وتحقيقهم للمعاني، واستنباطها من

الألفاظ، وتحريرهم لها، وتوقيهم في الرواية هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة ولغيرهم من الفرق، فيها مقالات كثيرة مضطربة سخيفة، أقربها قول جَهم، ومحمد ابن شبيب: **إِنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ الْجَهْلُ بِهِ**، لا يكْفُرُ أَحَدٌ بغير ذلك. وقال أبو الهذيل: **إِنْ كُلُّ مَتَأَوَّلٍ كَانَ تَأْوِيلُهُ تَشْبِيهَاً لِلَّهِ بِخَلْقِهِ**، وتجويزاً له في معناه، وتكذيباً لخبره فهو كافر، وكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئاً قَدِيماً لَا يُقَالُ لَهُ اللَّهُ، فهو كافر.

وقال بعض المتكلمين: **إِنْ كَانَ مَنْ عَرَّفَ الْأَصْلَ**، وبني عليه، وكان فيما هو من أوصاف الله، فهو كافر، وإن لم يكن من هذا الباب ففاسق، إلا أن يكون ممن لم يعرف الأصل، فهو مخطئ غير كافر.

وذهب عبيد الله بن الحسن العنبري إلى تصويب أقوال المجتهدين في أصول الدين، فيما كان عُرْضَةً للتأويل، وفارق في ذلك فِرْقَ الْأُمَّةِ، إِذْ أَجْمَعُوا سِوَاهُ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَاحِدٌ، والمخطئ فيه آثم عاصٍ فاسق، وإنما الخلاف في تكفيره.

وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني، مثل قول عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ دَاوُدِ الْأَصْبَهَانِيِّ.

وقال: وحكى قومٌ عنها أنها قالوا ذلك في كُلِّ مَنْ عَلِمَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، مِنْ حَالِهِ اسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ.

قال القاضي عياض: «وقال نحو هذا القول: الجاحظ، وثبامة، في أن كثيراً من الدامة والنساء والبُله، ومقلدة النصارى واليهود وغيرهم، لا حُجَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ طِبَاعٌ يُمْكِنُ مَعَهَا الْإِسْتِدْلَالُ».

وقد نَحَا الغزالي قريباً من هذا في كتابه التفرقة.

«وقاتل هذا كُلَّهُ كَافِرٌ بِالْإِجْمَاعِ، عَلَى كُفْرٍ مِنْ لَمْ يَكْفُرْ أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ. وَكُلُّ مَنْ فَارَقَ دِينَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ وَقَفَ فِي تَكْفِيرِهِمْ أَوْ شَكَّ».

قال القاضي أبو بكر: لأن التوقيف والإجماع اتفقا على كُفْرِهِمْ، فَمَنْ وَقَفَ فِي

ذلك فقد كَذَّبَ النَّصَّ والتوقيف، أو شكَّ فيه، والتكذيب أو الشك فيه لا يقع إلا من كافر»^(١).

٤

بيان ما هو من المقالات كفر:

بعد هذه المناقشات الطويلة حول تكفير الفرق الإسلامية أو عدم تكفيرها، وبعد استعراض آراء علماء الإسلام الباقلاني والأشعري والغزالي، وتوضيح وتحليل آرائهم ومقالاتهم..

يعود القاضي عياض إلى دراسة وبيان ما هو من المقالات كفر، وما ليس بكفر..

وقد جعل مرجع تحقيق هذه الدراسة، وكشف اللبس فيها إلى الشرع، والشرع وحده. فلا مجال للعقل فيها.

يقول:^(٢) والفصل البين في هذا أن كُلَّ مقاله صرَّحت بنفى الرُّبُوبِيَّةِ أو الوجدانية، أو عبادة أحد غير الله، أو مع الله، فهي كُفْرٌ، كمقالة الدهرية، وسائر فرق أصحاب الاثنين من الديصانية^(٣) والمأنوية^(٤)، وأشباههم من الصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان، أو الملائكة، أو الشياطين، أو الشمس، أو النجوم، أو النار، أو أحد غير الله من مشركى العرب، وأهل الهند والصين والسودان وغيرهم ممن لا يرجع إلى كتاب».

«وكذلك القرامطة، وأصحاب الحلول والتناسخ من الباطنية، والطياراة من

(١) الشفا ٢ / ٢٨١.

(٢) الشفا ٢ / ٢٨٢.

(٣) الديصانية: قوم يقولون بالنور والظلمة كالمانية، إلا أن المانية يقولون: النور والظلمة حيَّان، والديصانية يقولون: النور حى والظلمة ميت. [شرح الشفا على الشفا ٢ / ٢٨٢].

(٤) المأنوية: نسبة إلى مانى الزنديق، ظهر في زمن سابور بن أردشير، وادعى النبوة، وادعى أن للعالم أصليين: نورا وظلمة، وهما قديمان، فقبل قول سابور، فلما ملك بهرام سَلَخَهُ وحشا جلده تبنًا، وقتل أصحابه وهرب بعضهم إلى الصين [شرح الشفا ٢ / ٢٨٢].

الروافض، وكذلك من اعترف بالهية الله ووجدانيته، ولكنه اعتقد أنه غير حي، أو غير قديم، وأنه محدث أو مصور، أو ادعى له ولداً أو صاحبة أو والدًا أو مُتولد من شيء، أو كائن عنه، أو أن معه في الأزل شيئاً قديماً غيره أو أن ثمَّ صانعا للعالم سواء، أو مُدبراً غيره.

فذلك كله كفرٌ باجماع المسلمين، كقول الإلهيين من الفلاسفة والمنجمين والطَّبيعيين».

«وكذلك من ادعى مجالسة الله، والعُروج إليه ومكالمته، أو حُلُوله في أحد الأشخاص، كقول بعض المتصوفة، والباطنية والنصارى والقرامطة».

قال القاضي عياض:

«وكذلك تقطع على كُفر.. من قال بقدَم العالم أو بقاءه، أو شكَّ في ذلك على مذهب بعض الفلاسفة والدهرية، أو قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تتعمها فيها بخسب زكاتها وخُبثها».

«وكذلك من اعترف بالإلهية والوحدانية ولكنه جحد النبوة من أصلها عموماً، أو نبوة نبينا - ﷺ - خصوصاً، أو أحد من الأنبياء الذين نصَّ عليهم بعد علمه بذلك، فهو كافرٌ بلا ريب كالبراهمة، ومعظم اليهود، والأروسية من النصارى، والغرايية^(١) من الروافض، الزاعمين أن علياً كان المبعوث إليه جبريل، وكالمُعطلَّة، والقرامطة، والاسماعيلية، والعنبرية من الرافضة.

«وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النبوة، ونبوة نبينا - ﷺ - ولكن جَوَّز على الأنبياء الكذب فيما أتوا به. فهو كافرٌ باجماع، كالمُتفلسفين، وبعض الباطنية والروافض، وغلاة المتصوفة، وأصحاب الإباحة، فإن هؤلاء زعموا: أن ظواهر الشرع، وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان ويكون من أمور الآخرة والحشر، والقيامة، والجنة، والنار، ليس منها شيء على مقتضى لفظها،

(١) الغرايية: هم الذين قالوا محمد يعلّ أشبه من الغراب بالغراب والدواب بالدواب، وبعث الله جبريل إلى عليّ فغلط، فيلعنون - لعنهم الله - صاحب الريش، ويعنون به جبريل عليه السلام.

ومفهوم خطابها، وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يَكْتُمُهم التصريح لقصور أفهامهم. فمضمّن مقالاتهم إبطال الشرائع، وتعطيل الأوامر والنواهي، وتكذيب الرسل والارتباب فيما أتوا به».

* «وكذلك من أضاف إلى نبينا - ﷺ - تعمّد الكذب فيما بلغه، وأخبر به، أو شكّ في صدقه، أو سبه، أو قال إنه لم يبلغ، أو استخفّ به، أو بأحد من الأنبياء، أو أذى عليهم، أو آذاهم، أو قتل نبيا، أو حاربه، فهو كافر باجماع^(١).
* ويظل القاضي عياض يذكر من كفرهم الأئمة الفقهاء، واحداً واحداً، أو فرقة فرقة، أو طائفة طائفة، إلى أن يأتي عليهم جميعا.

وهذا الفصل - في رأيي - من أقوى وأمتع، وأشمل وأكمل فصول الكتاب، لأنه يدل على عقلية واعية، حافظة، تتسم بالشمول والموضوعية، كما يدل على ثقافة دينية فقهية واسعة، موروثة عن السابقين، مأخوذة عن المعاصرين.
* ويختتم القاضي عياض هذه الدراسة بتوضيح أسباب تكفير الأئمة من أنكر الإجماع، فيقول: ^(٢).

«فأما من أنكر الإجماع المجرد، الذي ليس طريقه النقل المتواتر عن الشارع، فأكثر المتكلمين - ومن الفقهاء والنظار في هذا الباب، قالوا: بتكفير كل من خالف الإجماع الصحيح، الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عموماً. وحجّتهم قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء ١١٥].
وقوله ﷺ: «مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رُبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ». وحكوا الإجماع على تكفير من خالف الإجماع.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع، الذي يختص بنقله العلماء.

وذهب آخرون إلى التوقف في تكفير من خالف الإجماع الكائن عن نظر، كتكفير النظام بإنكاره الإجماع، لأنه بقوله هذا مخالف لإجماع السلف على احتجاجهم به، خارق للإجماع.

● وينقل القاضي عياض عن القاضي أبي بكر الباقلاني رأيه في هذه القضايا.. قال:

«القول عندي، أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده، والإيمان بالله هو العلم بوجوده، وأنه لا يكفر أحدٌ بقوله ولا رأى إلا أن يكون هو الجهل بالله، فإن عصى بقوله أو فعل، نصَّ الله ورسوله، أو أجمع المسلمون أنه لا يوجد إلا من كافر، أو يقوم دليل على ذلك، فقد كفر. ليس لأجل قوله أو فعله، لكن لما يُقارنه من الكفر.

فالكفر بالله لا يكون إلا بأحد ثلاثة أمور: (١) أحدها: الجهل بالله تعالى.

والثاني: أن يأتي فعلاً، أو يقول قولاً يخبر الله ورسوله، أو يجمع المسلمون أن ذلك لا يكون إلا من كافر، كالسجود لصنم، والمشي إلى الكنائس بالتزام الزنار مع أصحابها في أعيادهم، أو يكون ذلك القول أو الفعل لا يمكن معه العلم بالله. فهذان الضريان، وإن لم يكونا جهلاً بالله، فهما علّم أن فاعلهما كافر، منسلخ من الإيمان.

الثالث: فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية، أو جحدتها مستبصراً في ذلك، كقوله:

ليس بعالم، ولا قادر ولا مريد، ولا متكلم، وشبه ذلك من صفات الكمال الواجبة له تعالى، فقد نصَّ أئمتنا على الإجماع على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها وأعرأه عنها.

فأما من جهل صفة من هذه الصفات، فاختلف العلماء ههنا، فكفّر بعضهم، وحكى ذلك عن أبي جعفر الطبري، وغيره. وقال به أبو الحسن الأشعري. وذهبت طائفة إلى أن هذا لا يُخرجُه عن اسم الإيمان، وإليه رجع الأشعري، قال:

«لأنه لم يعتقد ذلك اعتقادًا يقطع بصوابه، ويراه دينًا وشرعًا». هذا حكم المسلم الساب لله تعالى.

٥

حكم الذمّي الساب لله تعالى:

وبعد إذ انتهى القاضي عياض من ذكر حكم المسلم الساب لله تعالى، انتقل لتوضيح موقف الشريعة الإسلامية من الذمّي الساب لله تعالى^(١) المضيف ما لا يليقُ بجلاله وإلهيته إليه.

قال: وأما (حكم) الذمّي، فروى عن عبد الله بن عمر في ذمّي تناول من حرمة الله تعالى، غير ما هو عليه من دينه، وحاجّ فيه، فخرج ابن عمر عليه بالسيف، فطلبه فهرب.

قال مالك: في كتاب ابن حبيب: مَنْ شَتَمَ الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي كفّر به قُتل، ولم يُستَتَب.

قال أصبغ: لأن الوجه الذي به كفروا هو دينهم، وعليه عُوهدوا من دعوى صاحبة الشريك والولد، وأما غير هذا من الفِرْيَةِ والشَّتْم، فلم يعاهدوا عليه، فهو نقض للعهد.

قال ابن القاسم: ومن شَتَم - من غير أهل الأديان - الله تعالى، بغير الوجه الذي ذُكِرَ في كتابه، قُتل إلا أن يُسَلِّم.

وقال المخزومي: لا يُقتل حتى يستتاب، مسلمًا كان أو كافرًا، فإن تاب وإلا قُتل.

٦

فأما مفترى الكذب على الله تعالى^(١)، بادِّعَاءِ الإِلَهِيَّةِ أو الرسالة، أو النافى أن يكون الله خالقه أو ربه. أو قال: ليس لى رب..

فلا خلاف فى كفر قائل ذلك ومدَّعيه، مع سلامة عقله - كما قدمنا - لكنه تَقَبَّلُ توبته، على المشهور، وتنفعه إنايته، وتُنَجِّيه من القَتْلِ فَيَأْتَهُ - أى رجوعه، لكنه لا يسلم من عظيم النكال، ولا يُرْفَهُ عن شديد العقاب، ليكون ذلك زجرًا لمثله عن قوله، وله عن العودة لكفره أو جهله. إلا من تكرر منه ذلك، وعُرف استهانتُه بما أتى به، فهو دليل على سوء طويته، وكذب توبته، وصار كالزنديق، الذى لا نأمن باطنه، ولا نقبلُ رجوعه.

ويذكر القاضى عياض الأحكام التى صدرت ونُفِّذت على هؤلاء وأمثالهم من مفترى الكذب على الله، فيقول:

«وقد أحرق على بن أبى طالب من ادَّعى له الإِلَهِيَّةَ، وقد قتل عبد الملك بن مروان الحارث المتنبى وصَلَّبه، وفعل ذلك غير واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم، وأجمع علماء وقتهم على صواب فعلهم.

وأجمع فقهاء بغداد - أيام المقتدر - من المالكية، وقاضى قضاتها أبو عمر المالكى، على قَتْلِ الحَلَّاجِ وصَلَّبه، لدعواه الإِلَهِيَّةَ، والقول بالحلُول، وقوله: أنا الحق، مع تمسكه فى الظاهر بالشرعية، ولم يقبلوا توبته.

٧

بعد أن بن القاضى عياض موقف الشريعة الإسلامية من سبِّ الله تعالى أو شتمه، سواء أكان مسلماً أو ذمياً.. رأى أن يضيف إلى ذلك حكم الشريعة فى مَنْ سَبَّ أنبياء الله وملائكته، وكتبه^(٢)، واستخف بهم، أو كذَّبهم فيما أتوا به، أو أنكرهم وجحدهم..

(١) الشفا ٢/٢٩٦.

(٢) الشفا ٢/٣٠٢.

● أما فيما يتصل بأنبياء الله، فيقول إن حكم الشريعة في ذلك مطابق لحكمها فيمن سب نبينا محمد ﷺ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء ١٥٠، ١٥١].

ويقول عز وجل: ﴿كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة ٢٨٥]

قال مالك - فيمن شتم الأنبياء أو أحدا منهم أو تنقصه قُتِلَ ولم يُستَتَب. ومن سبهم من أهل الذمة قُتِلَ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ. وروى سُخْنُون، عن ابن القاسم: من سبَّ الأنبياء - من اليهود والنصارى - بغير الوجه الذي به كفر، فاضرب عنقه إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ. ● وأما ما يتصل بملائكة الله، فقد قال القاضي بقرطبة سعيد بن سليمان، في بعض أجوبته:

من سبَّ الله وملائكته قُتِلَ.

● وقال سُخْنُون: من شتم ملكاً من الملائكة فعليه القتل. ● وفي النوادر، عن مالك، فيمن قال: إن جبريل أخطأ بالوحى، وإنما كان النبی علی بن أبی طالب. أُسْتُتِيب، فإن تاب وإلا قُتِلَ. ويوضح القاضي عياض الأمر، فيقول: «وهذا كله فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة والنبیین، أو على مُعَيَّنٍ من حَقَّقْنَا كونه من الملائكة والنبیین ممن نَصَّ الله عليه في كتابه، أو حَقَّقْنَا علمه بالخبر المتواتر والمشتهر، المتفق عليه بالإجماع القاطع، كجبريل وميكائيل، ومالك، وخزنة الجنة والنار، والزبانية، وحملة العرش المذكورين في القرآن من الملائكة، ومن سُمِّيَ فيه من الأنبياء، وكعزرائيل واسرافيل ورضوان، والحفظة، ومنكر ونكير من الملائكة، المتفق على قبول الخبر بها.

فأما من لم تثبت الأخبار بتعيينه، ولا وقع الإجماع على كونه من الملائكة أو الأنبياء، كهاروت وماروت في الملائكة، والحضر ولقمان وذو القرنين، ومريم، وآسية، وخالد بن سنان، المذكور أنه نبي أهل الرُّس، وزرَادِ شت الذي تدعى المجوس والمؤرخون نبوته..

فليس الحكم في سائهم والكافر بهم كالحكم فيمن قدمناه.^(١)

● وأما ما يتصل بكتب الله.. فيذكر القاضي عياض، نقلا عن الأئمة الفقهاء، أن من استخف بالقرآن، أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبها، أو جحده، أو حرقا منه، أو آية، أو كذب به، أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه، من حكم أو خير، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبتته على علم منه بذلك، أو شك في شيء من ذلك...

فهو كافر عند أهل العلم بإجماع، لقوله تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾.

وروى أبو هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «المراء في القرآن كفر» تؤول بمعنى الشك، ويعنى الجدل.

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: «من جحد آية من كتاب الله من المسلمين فقد حل ضرب عنقه».

«وكذلك إن جحد التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة، أو كفر بها، أو لعنها أو سبها أو استخف بها فهو كافر».

قال القاضي عياض - فيما يتصل بالقرآن العظيم: «وقد أجمع المسلمون، أن القرآن المتلو في جميع أقطار الأرض، المكتوب في المصحف بأيدي المسلمين، مما جمعه الدفئتان من أول ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

إلى آخر ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أنه كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد ﷺ. وأن جميع ما فيه حق، وأن مَنْ نَقَصَ منه حرفاً قاصداً لذلك، أو بدّله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفاً مما لم يشتمل عليه المصحف، الذي وقع الاجماع عليه، وأجمع على أنه ليس من القرآن عامداً لكل هذا أنه كافر.

● ولهذا رأى مالك قتل من سَبَّ عائشة رضى الله عنها - بالفرية، لأنه خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتل.

● وقال أبو عثمان الحدد: جميع من ينتحل التوحيد متفقون أن الجحد لحرف من التنزيل كُفْرٌ.

● وقال عبد الله بن مسعود: من كَفَرَ بآية من القرآن فقد كَفَرَ به كُله.

● وقال محمد بن سُخْنُون: فيمن قال: المعوذتان ليستا من كتاب الله، يُضْرَبُ عنقه، إلا أن يتوب.

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن سُنبُودَ المقرئ، أحد أئمة المقرئين، المتصدرين بها مع ابن مجاهد، لقراءته وإقراءته بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه، والتوبة منه سجلاً، أشهد فيه بذلك على نفسه في مجلس الوزير أبي علي بن مُقْلَة، سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وكان فيمن أفتى عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره.

٨

موقف الشريعة ممن سب آل بيت النبي وأزواجه وأصحابه..

وهذا الفصل، هو آخر فصول السيرة النبوية المطهرة، التي صَنَّفَهَا القاضي عياض، وجمع لها ما لم يجمع لمصنف من مصنفاته الغزيرة، وبذل فيها جهداً كبيراً. في هذا الفصل، يقرر القاضي عياض أن سب آل البيت النبوي الشريف، وأزواجه وأصحابه رضى الله عنهم، وتَنَقُّصُهُمْ، حَرَامٌ، ملعونٌ فاعله^(١).

● ويذكر لنا العديد من الآثار والأحاديث النبوية والأخبار، التي توضح هذا الأمر..

- من مثل قوله - ﷺ: لا تُؤذُونِي فِي عَائِشَةَ.
وقوله في فاطمة «بِضْعَةٍ مِنِّي يُؤْذِنِي مَا آذَاهَا».

وروى أبو مصعب عن مالك، فيمن سب من انتسب إلى بيته ﷺ يُضْرَبُ ضَرْبًا وَجِيعًا، ويشهر ويحبس طويلا حتى تظهر توبته، لأنه استخفاف بحق الرسول ﷺ.

وروى عن مالك: «من سب عائشة قُتِلَ» قيل له لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعْظُمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور ١٧].
فمن عاد لمثله كفر.

● أما عن أصحابه.. فقد روى عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ:

«الله في أصحابي، لا تتخذوهم غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحْبَبَهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبْغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

وقال رسول الله ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

وقال ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَإِنَّهُ يَجِيءُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَسُبُّونَ أَصْحَابِي، فَلَا تَصْلُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا تَصْلُوا مَعَهُمْ، وَلَا تَتَاكَّهُوهُمْ، وَلَا تَجَالِسُوهُمْ، وَإِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ».

وعنه - ﷺ - «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

* قال القاضي عياض - بعد أن أورد عشرات الأحاديث والآثار -
موضحا موقف العلماء في هذا - خاصة مالك:

قال: «فمشتهور مذهب مالك في ذلك: الاجتهاد والأدب الموجه.

قال مالك: «من شتم النبي - ﷺ قُتِل، ومن شتم أصحابه أُدب». وقال أيضا: «من شتم أحدا من أصحاب النبي - ﷺ - أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فإن قال كانوا على ضلالٍ وكُفِر قُتِل، وإن شتمهم بغير هذا من مشاقمة الناس نُكِّل نكالا شديدا. ثم يذكر القاضي عياض الكثير من الروايات والأخبار عن أهل الفتيا، وما حكموا به على من سبَّ الرسول أو زوجاته أو آل بيته، أو أصحابه.. وهنا يصل القاضي عياض إلى منتهى أمله وبغيته، بالانتهاء من تأليف السيرة النبوية فيقول: ^(١)

«هنا انتهى القول بنا فيما حررناه، وانتجز الغرض الذي انتحينا، واستوفى الشرط الذي شرطناه، مما أرجو في كل قسم منه للمريد مَنَع، وفي كل باب منهج إلى بُغيته ومنزَع. وقد سَفرَت فيه عن نُكَيِّتٍ تُسْتَغَرَّبُ وتُسْتَبَدَّع، وَكَرَّعَتْ في مِشَارِبٍ من التحقيق لم يُورَد لها قَبْلُ في أَكْثَرِ التَّصَانِيفِ مِشْرَعٌ، وأودَعَتْهُ غيرَ ما فَضَّلَ وَوَدَدَتْ لو وَجَدَتْ مَنْ يَسْطِ قَبْلِي الْكَلَامَ فِيهِ، أو مَقْتَدِي يُفِيدُنِيهِ عَنْ كِتَابِهِ، أو فِيهِ، لَأَكْتَفَى بِمَا أَرَوِيهِ عَمَّا أَرَوِيهِ وَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى جَزِيلُ الضَّرَاعَةِ وَالْمَنَّةِ بِقَبُولِ مَا مِنُّهُ لَوَجْهِهِ، وَالْعَفْوُ عَمَّا تَخَلَّلَهُ مِنْ تَزْيِينٍ وَتَصْنَعٍ لَغَيْرِهِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا ذَلِكَ بِجَمِيلِ كَرَمِهِ وَعَفْوِهِ لِمَا أودَعْنَاهُ مِنْ شَرَفٍ مُصْطَفَاهُ، وَأَمِينٍ وَحِيهِ»..

خاتمة
في
تقويم المنهج والدراسة

خاتمة في تقويم المنهج والدراسة

رأينا في الأبواب والفصول السابقة، منهج القاضي عياض في تأليف وبناء السيرة النبوية. وهو منهج دقيق، يبصرنا بأن السيرة في مفهومه وعقله، ليست مجرد سرد للحوادث، وإنما هي تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية، التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات.

لقد كانت مصادره هي المصادر المعتمدة في المنهج الإسلامي، مع تحرير النصوص وتنسيقها، وتطبيق قواعد التحديث رواية ودراية.. من هنا عاش القاضي عياض للسيرة وفي السيرة، بعقله وروحه، ونفسه وحسّه، وشعوره ووجدانه.

عاش في جو الإسلام عقيدة وشرعة، وفكرا ونظاما، تفسير وتأويلا.. عاش مدركا معطيات السيرة النبوية إدراكا حقيقيا، متجاوبا معها بكل كيانه وذاتيته، عاش في جو السيرة النبوية بكامل مؤثراتها وإيجاباتها..

وهذه الخصائص جميعها، قلما توجد بهذه الصورة والكيفية إلا عند باحث مؤمن، صادق الإيمان محب لرسول الله - ﷺ - مثل القاضي عياض، فله هنا ميزة خاصة في دراسة السيرة النبوية بهذه الطريقة.. ومن ثم كان أقدر على التلبس بها واستبطانها.. بعد أن ملك عليه الرسول - ﷺ - قلبه وحبه، وشعوره وكيانه، وصار حبه - ﷺ - منقوشا في قلبه، مطبوعا في عقله.

لقد درس القاضي عياض سيرة المصطفى - ﷺ - من خلال منهج إيماني، يتصل بالدين والعقيدة، والفقه والتاريخ، والقيم الروحية، والقيم الإنسانية، ومن ثم جعل القاضي عياض استعراض أحداث السيرة، في وحدة موضوعية، عقيدية فقهية، قرآنية حديثية، وفق معطيات دستور الإسلام، ووفق أصول

الدين، مع الاستفادة من الأرضية التاريخية الثابتة التي تحركت فوقها الأحداث ونمت، واكتسبت ملامحها النهائية، ووفق النظرة الشمولية التكاملية، التي تدرس حركة الإسلام في منهج شامل متكامل، له خصائصه ومقوماته، في إطار القيم الروحية، والتوجيهات الإلهية.

وهكذا تصبح السيرة النبوية، التي ألفها القاضى عياض - مادة للتربية الإسلامية، ودليلاً وترجماناً للحياة الإسلامية الممتدة، ولتصبح نبراساً يضيء في قلوب ونفوس الجماعة الإسلامية، عبر التاريخ وفي حياتها كلها على سواء.

وليس أدل على ذلك من تصليته، التي لخص فيها رؤيته للسيرة النبوية، تلخيصاً مركزاً مكثفاً جميلاً، جمع فيها كل عناصر السيرة العطرة، وأضاف إلى ما ذكره في الشفا، عناصر جديدة تجلّى مدى حبه لنبي الله ورسوله - ﷺ. يقول فيها: ^(١)

«قال الله العظيم في محكم كتابه الحكيم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ صَلُّوا وَسَلِّمُوا وَتَوَسَّلُوا بهذا النبي، الذي فضله الله تفضيلاً، واتخذته حبيباً وخليلاً، وأنزل عليه القرآن تنزيلاً، وتبذل لربه تبتيلاً، وسبح بحمد ربه بكرة وأصيلاً، فأناله ثواباً جزيلاً، ورزقه من كل علم تأويلاً، ووفقه لسنته التي ليس لها تحويلاً، وكان له معيناً وكفياً، وختم به رُسله، ونهج على يديه الكريمين سُبُلَه، وزكى فعله، وعلمه وفهمه، وعقله وعظمه، وحكمه وعدله، وكرمه ونعمه ودلله، وبالشفاعاة فضلة تفضيلاً، على كل ما يأتي بعده، وكل من تقدم قبله، وانتخبه وطهره، وطيبه وعصمه، وحجبه وأدبه، واختاره لحبه وقربه، وخط اسمه مع اسمه سطرًا على العرش وكتبه، وخصه بالفضائل، وشرّفه بالفعائل، وصدّقه فيما هو قائل، وختم برسائله الرسائل، وصلى الله عليه، والصلاة عليه من أعظم الوسائل، صلى عليه الملك العلّام، هو وملائكته الكرام، وأمر جميع الأنام بالصلاة

(١) نقل عن مجموع مسجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ ق - ورقة ١٩.

عليه والسلام، إلى يوم البعث والقيام، فقال من لم يزل غفوراً رحيمًا، إجلالاً لنبيه وتعظيمًا، وولاية له وتقديماً، وتشريفاً له وتكريماً، وإرشاداً لعباده المؤمنين وتعليماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

صَلُّوا وَتَوَسَّلُوا بالنبي الأُمِّي، الهاشمي القرشي، الأبطحي المكي، المدني الحَرَمي، الزَّمَرَمي الحجازي، التهامي العربي، التقى التقى، الوفي القوي، الزُّكِّي الذُّكِّي، البهي النهي، السني السمي، السخي الصفي، العفي الكفي، المستضيء الرضي، المرضي الذي جاء بالكتاب المضيء، وبالدين الحنفي، والقول الشرعي، والحكم الجلي، والمقام العلي، ومكنه الله بلفظه الحنفي، وحقق له إنجاز وعده الوفي، فأشرقت بالآفاق أنواره، وتكررت في السامع أخباره، وظهرت للأبصار معجزاته، وبلغ حجة الله وتمت بها كلماته، وختم الله به رسله وأنبياءه، وأمر القمر بطاعته فأجاب بالتلبية عند ندائه، وأنشق وتفرق^(٢) وصار نصفه بالغرب ونصفه بالشرق وسطع وشرق، وتكلم ونطق، فأمن من تقدم له السعد وسبق، وكفر من للشقاء خلق، نبي ركب البراق، وغاب عن الأبصار والأحداق، واخترق الهوى والفضا والسَّبع الطِّباق، إلى منى جاءت الخلائق، فتلقاه^(٣). بأحسن تلاق، وكلمه بلسان الرحمة والإشفاق، فسبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى مسجده الأقصى إلى حُضرة عرشه، فتجلَّى له بقدسه، وآتسَّه بلطفه، فأمن من خوفه، وبلغ غاية أمله، ومشى على بساط العزة بنعله، ودنا من ربه حتى تناول ثمار القرب بيده، دنا فتدلى ولم يتأنى، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فبلغ كل وصل ومُنَى، وأعطى جميع ما تمنى، فسجد شكراً لله، على بساط عزة الله، وألهمه الله، فقال في سلامه على الله: «التَّحِيَّاتُ لله، الطَّيِّبَاتُ لله. الصَّلَوَاتُ لله، فتم الله عليه إنعامه، وواصل إكرامه وشرف مقامه، وردَّ عليه سلامه، كما صحَّ عند أهل العلم إثباته، «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، فرُفِعَتْ له الحُجُبُ»^(٤)

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٦.

(٢) أنظر في انشقاق القمر: الشفا ٢٨٠/١ (ضمن معجزاته).

(٣) يظهر من السياق أن كلاماً سقط.

(٤) وردت حادثة الإسراء والمراج في الشفا ج ١ ص ٢٠٣.

حتى سلم الحبيب على المحبوب، كما سبق في أم الكتاب مكتوب، ونال كل مطلوب، وبلغ غاية المرغوب، وشفّعه الله في أهل كباثر الذنوب، فطار بالأمان وبالإسلام والإيمان، ويتلاوة القرآن وبصيام رمضان، وكلمه الرحمان من غير واسطة ولا ترجمان، فنزل من أدراجہ، والليل باق في ذاجه، وبشر نفرا من أصحابه وأزواجه، بما عاين في معراجہ، نبى له وسيلة وفضيلة، وطلعة بهية جميلة، وأخلاق عظيمة، وذات جليلة، وصفات تامة عجيبة، وأفعال كريمة، وأقوال بليغة، وخصال حميدة، قدّه متوسط ما بين الحاليتين، غُصن بين غُصْنَيْن، شَعْرُهُ إلى شَحْمَةِ الْأُذُنَيْن، أَرْجَحَ الْحَاجِبَيْن^(١)، كَحِيلِ الْمُقْلَتَيْنِ، أَزْهَرُ الْوَجْنَتَيْنِ^(٢).

أَقْنَى الْعَرْنَيْنِ^(٣)، شَتْنِ الْكُفَيْنِ^(٤)، خِمَصَانِ الْأَخْمَصَيْنِ^(٥)، مَسِيحِ الْقَدَمَيْنِ^(٦)، أَحْنَى عَلَى أُمْتِهِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، فِي شَعْرِهِ سَبِجٌ^(٧)، وَفِي عَيْنِهِ دَعِجٌ^(٨)، وَفِي وَجْهِهِ بَلَجٌ^(٩)، وَفِي ثَغْرِهِ فَلَجٌ^(١٠)، وَفِي رِيقِهِ شَفَاءٌ وَفَرَجٌ، إِذَا قَضَى كَانَ أَعْدِلَ النَّاسِ، وَإِذَا أُعْطِيَ كَانَ أَبْذَلَ النَّاسِ، وَإِذَا رَضِيَ كَانَ أَجْمَلَ النَّاسِ، وَإِذَا مَشَى كَانَ أَعْدَلَ النَّاسِ^(١١)، وَإِذَا جَلَسَ كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ أَنْصَتَ النَّاسُ، وَإِذَا وَعَظَ أَبْكَى النَّاسُ، صَاحِبُ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ، وَاللِّسَانِ الْفَصِيحِ، وَالْقَوْلِ النَّصِيحِ، وَالْعَقْلِ الرَّجِيحِ، وَالِدَيْنِ الصَّحِيحِ، وَالنَّسَبِ الصَّرِيحِ، مَنْ بَشَّرَ بِهِ الْكَلِيمُ^(١٢) وَالْمَسِيحُ، وَأَخْبَرَ بِهِ

(١) أَرْجَحَ الْحَاجِبَيْنِ: دَقِيقَ الْحَاجِبَيْنِ مَعَ امْتِدَادِهِمَا إِلَى مُؤَخَّرِ الْعَيْنَيْنِ (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٣٠).

(٢) أَزْهَرُ الْوَجْنَتَيْنِ: قِيلَ نَيْرٌ وَقِيلَ حَسَنٌ، وَمَنْهُ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَقِيلَ: أَيْبُضُ مَشْرَبٍ بِحَمْرَةٍ (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٢٨).

(٣) أَقْنَى الْعَرْنَيْنِ: الْعَرْنَيْنِ الْأَنْفِ وَالْمَقْصُودُ: أَحَدُ الْأَنْفِ (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٣٠).

(٤) شَتْنِ الْكُفَيْنِ: فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ شَتْنِ الْكُفَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، وَالشَّتْنُ بِمَعْنَى الْغَلِيظِ.

(٥) خِمَصَانِ الْأَخْمَصَيْنِ: مُتَجَانِّئِ الْأَخْمَصِ الْقَدَمِ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي لَا تَنَالُهُ الْأَرْضُ (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٣٣).

(٦) مَسِيحِ الْقَدَمَيْنِ: أَمْلَسَهَا وَلَا لَحْمَ عَلَيْهَا (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٣٣).

(٧) سَبِجٌ: خَرَزٌ أَسْوَدٌ (دَخِيلٌ مَرْبٍ).

(٨) دَعِجٌ: شِدَّةُ سُودِ الْعَيْنَيْنِ مَعَ سَمْتِهَا (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٢٩).

(٩) الْبَلَجُ: تَقَاءُ مَا بَيْنَ الْحَاجِبَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٢٩).

(١٠) الْفَلَجُ: الْفَلَجُ تَبَاعُدُ مَا بَيْنَ الثَّنَائِيَا أَوْ مَا بَيْنَ الْأَسْتَانِ (نَسِيمُ الرِّيَاضِ ١/٣٣٥).

(١١) يَقْصُدُ فِي مَشْيِهِ.

(١٢) مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَلِمَةُ اللَّهِ.

الخليل والذبيح، بحر الإنعام، فخر الأنام، بدر التمام، الذى بنوره أجلى الله الظلام، وذل الكفر وعز الإسلام، وظهر الحق ودام، وزهق الباطل فلم يقم، فى مولده تنكست الأصنام، وبطل علم الكهنة حتى كأن لم يعلم، وسقطوا عن أسيرتهم وزعقوا زعقة الحيام، وحُرست السماء بالشهب فلم ترم، والجنة يهتفون لا يَدْرُونَ أشرُّ أريد بمن فى الأرض أم الرشدا والاستقام^(١)، وغاصت بحيرة (سماوة)^(٢)، فكأنها لم تجر يوما من الأيام، ويسس نهر (سماوة) فى الشام، وخمدت نار فارس فلم تعبد ولم تظهر، وطار التاج عن رأس كسرى فى المقام، وتصدع إيوانه وارتنج وأيقن بالانهدام، وأشرقت الأرض بالنور وارتفعت فيها أعلام..

رأت آمنة أشياء لا تستطيع لها إعلام، مما غشيها من الأنوار العظام، لم تدر أفى اليقظة هى أم فى المنام، وفسح مجلسها ورأت فيه صورا لم تر مثلها فى المنام، ولم تجد عند حمله ما ييجدن النساء من الأوحام، ولم تحس به ثقلا ولا انتفخت لها بطن ولا تحرك فى الأرحام، ولم تجد عند وضعه ماء ولا ألما من الآلام، ولا شعرت بخروجه حتى رآته ساجدا للملك العلام، فلما نظرت إليه أسرع فى وجهها الابتسام، وأراد أن يكلمها فأمسك الله لسانه عن الكلام، فإذا بغمامة قد نزلت من السماء لا تشبه الغمام، وفيها جماعة من الملائكة الكرام، فازدحموا عليه أى ازدحام، وسلموا عليه بأحسن سلام ونادوه: يا وحيه، يا محمد، يا نعيم الغلام، وأمه فى قلق واحتشام، تتاديهم بالله خلوا ولدى واتركوه، ولا تأخذوه منى فتؤلموا قلبى وتوجعوه، فسمعوا مقاتلتها وما جهلوه، وقالوا لها أمرنا بهذا الإله لا نعصيه، فحملوه ورفعوه، وعرجوا به للسماء وعن بصرها غيبوه، وطافوا على الأنبياء وللملائكة نعتوه، وإلى رضوان خازن الجنان دفعوه، وفتحوا له الجنة ودخلوه، ففرح به الحور العين وقبلوه وكحلوه ودهنوه، وبالمسك الأذفر طيبوه، وفى حريرة خضراء قمطوه، ونزلوا به الملائكة واستنزلوه، وبشروا به طيور الهواء وحوت الماء وإلى والدته رده، وعزلوه عنها وأفردوه، وفى بيت خلّى تركوه، وكل ذلك بأمر الله صنعوه، وهتفوا به من كل مكان، ونادوها بأفصح لسان: يا آمنة يا أمة

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ بِنِ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَشْدًا﴾ [الجن ١٠].

(٢) سماوة: موضع بعينه (لسان العرب).

الرحمان، بشرى لك، لك الأمان، هذا الوجيه، هذا المجيب، هذا أحمد، هذا محمد العدنان، هذا المبعوث في آخر الزمان، هذا الذي سبق في الكون جميع الأكوان، هذا الذي ببركته تاب الله على آدم من العصيان، هذا الذي بخرمته نجا قوم نوح من الطوفان، هذا الذي من أجله رُفع إدريس لأعلى مكان، هذا الذي في صلب إبراهيم لم تحرقه النيران، هذا الذي يكون لعيسى روح الله على أمته سلطان، هذا الذي ترضعه من النسوان، حليلة النقية الطاهرة الألبان، هذا الذي لا يدخل عليه في هذا المكان أنسية ولا إنسان، إلا تمام ثمانية أيام متواليان، هذا المعصوم من الشيطان، الذي صح عند أهل الإسلام والإيمان، هذا الذي يكل عن وصف فضله اللسان.

ولما انقطعت عنه زيارة ملائكة الرحمان، وأبرزته أمه للعيان، أته النسوة من كل مكان، يرغبن في رضاعته لحُسْنِهِ لا لشيء من الإحسان، ولما وضع الله في قلوبهن من الرأفة والحنان، فلم يقبل المراضع، وهو في عزة القانع الشايع، لا في ذلة الجائع الضائع، صائم في قباطته غير جائع، أته حليلة وبعلها راغب خاضع، فوضع منها اليمين ولم يمس اليسار، وهذا من عدله في عهد الصغار، فسرت به حليلة وسارت وقد حفتها الأنوار، فلقبها في بعض الطريق جماعة من الأخبّار، كان خروجهم في طلب الحيلة على المختار، فلما رأوه عقلوه بما عندهم من الآثار وصاح به كبيرهم ما هذا الانتظار، اقتلوه يبق لكم الملك إلى سالف الدهر وانقضاء الأعمار، فجردوا سيوفهم وقد علاهم الفرح والاستبشار، وظنوا أن لا مانع له في تلك القفار، وحليمة تنادى: يا ستار، لا تهتك الأستار، ودمعها على خدّها مدرار، وبعلها في دهشة وافتكار، قد ركن إلى الغرار، وأشار إليها: أن ألقيه إليهم ما بعد الجهد من عار، فقالت له: يا ابن الأحرار الأخيار، أأمرني بفعل الأسواء الأشرار، وله إله قاهر جبار، يجيب المستجير وينعه ويمنع ببركته من هؤلاء الفجّار، فَوَحَقَهُ لا ألقيه إليهم ولو انتشرت بالمنشار، فلما أن كادت تصل إليها سيوف الكفار، إذا بمحمد قد فتح عينيه فأضاء الأفق واستنار، ودعا الله باللسان الخفي لا بالجهر والإظهار، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم وعجل مصيرهم إلى النار.

وفي رضاعه وفطامه أخبار، وإنما قصدنا الاختصار.

هو الحبيب، هو الخليل، هو الكريم البذل المجزىل، القائم بذكر الله في آناء الليل الطويل، العامل بسنة الله التي ليس لها تحويل، صاحب الوجه الجميل، والخذ الأسيل، والطرف الكحيل، والقدر الجليل، والعرف الخصيل، والشرف الأصيل، والكف المقيّل، والتكبير والتهليل، والتفسير والتأويل، والتيسير والتسهيل، من أخبر به التنزيل، وبشّر به التوراة والإنجيل، الموقر المعزّر، صاحب الخطبة والمنبر، والعمامة والمغفر، والقضيب والمحشر، والحوض والكوثر، والجبين الأزهر، والطرف الأحور، والوجه الأقر، والريح الأعطر، والحسب الأظهر، والجد الأكبر، من بشّر وأنذر، وحجّ واعتَمَر، وحلق ونحر، وهزل ونفر^(١)، ورمي بالجمار وهلّل وكبّر، وحمد وشكر، وصام وأفطر، وجاهد وانتصر، وقاتل مَنْ كَفَر، ونهى عن الفحشاء والمنكر، وبَيَّنَّ الله أمر، الطاهر المطهر، المنتخب من أخيار مضر، المؤيد المنصور، الممجد المشكور، صاحب اللواء المنشور، والجيش الجسور، والبدن الصبور، والقلب الشكور، واللسان الذكور، والبهاء والنور، والولدان والحور، والغرفات والقصور^(٢). النبي الأواب، السخي الوهاب، الناطق بالصواب الذي لا يغلط في الخطاب، ولا يعجزه الجواب، مَنْ خضعت له الرقاب، وتواضعت له الصعاب، ولَأَنْتَ له الصم الصلاب، وتاهت بحبه الألباب، وتحيرت في وصفه النجائب، فلا ينحصر في كتاب، ولو تكون له الملائكة كتاب، دعا إلى الله الأعجام والأعراب، وهجر بدين الله الأهل والأقارب، وقاتلهم في الله تعالى حتى ظهر دين الله وأُناب، ونصره الله وهزم الأحزاب، ونزلت لنصره على خيول بلق بعائم صفر تُهاب، في يوم بدر يُقدّمهم جبريل، بلا رَيْب ولا ارتياب، فقال المصطفى: شأنت الوجوه ونفخ في وجوهم بقبضة من تراب، فأمر الله الريح فسرت بقبضته فأصابت بها عيون المشركين أعم مصاب، حتى لم تبق لهم (...) إلّا وأصابها من تلك القبضة تراب، ودَعَا لأهل المدينة فأسرع لدعائه السحاب، وعاجله المطر قبل نزوله من المنبر إلى المحراب، وتواتر صَبَّه من الجمعة إلى الجمعة بَصَبَّ صباب، ثم دعا بالصحو والطيبات

(١) إشارة إلى مناسك الحج.

(٢) في الجنة إن شاء الله.

فبرزت الشمس وتفرق السحب عنها وذاب، النبي المكرم، الصفى المحترم، الحاشر الذى يحشر على عقبه الأمم، الماحى الذى يمحو الله به الزلل والأثم، سيد ولد آدم، وشفيع من عصى وندم، وزلّ به القدم، عَهْدَنَا الذى لا ينقضى، وَحَبْلُنَا الذى لا يَنْصَرِمُ، مَنْ ضَمِنَ لَأَمَّتِهِ الشُّفَاعَةَ وَهُمْ فى عدم العَدَمِ..

النَّبِىُّ الْمُهَذَّبُ، الْحَبِيبُ الْمُقَرَّبُ، الطَّاهِرُ الْمُطَيَّبُ، الْمُخْتَارُ الْمُنْتَخَبُ، خَيْرُ الْأَعَاجِمِ، وَالْعَرَبِ، وَأَشْرَفُهُمْ فى الْحَسَبِ وَالنُّسَبِ، وَأَعْرَفُهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، لَا حِقُّ مَنْ هَرَبَ، وَمَا حِقُّ مَنْ كَذَبَ، وَغَالِبُ مَنْ غَلَبَ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقُدُوةُ الْأَصْفِيَاءِ، وَجَوْهَرَةُ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِمَامُ الْأَتْقِيَاءِ، وَشَفِيعُ الْأَشْقِيَاءِ.

مَنْ غَطَّى بِشَارَةِ زَكَرِيَّا^(١)، وَزَهَادَةِ يَحْيَى، وَلَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ آخِرَةُ وَلَا دُنْيَا وَلَا سَمَاءٌ مَبْنِيًّا، وَلَا أَرْضًا مَدْحِيًّا^(٢)، وَلَا جِبَلًا مَرْسِيًّا، وَلَا خَرَجَ مِنَ الْعَدَمِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ، نَبِىُّ الثَّقَلَيْنِ، وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ، وَسَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ، وَخَيْرُ الْفَرِيقَيْنِ، وَصَاحِبُ الْخُطْبَتَيْنِ: الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ، وَجَدِ السُّبُطَيْنِ: الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَابْنِ الذَّبِيحَيْنِ^(٣)، مَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ يَبْدُرْ وَحُنَيْنٌ، وَسَتَرَهُ فى الْغَارِ فَلَمْ تَرَهُ عَيْنٌ.

خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُرْسَلِينَ، وَسَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَحَبِيبُ الْعَالَمِينَ، مَنْ خَصَّهُ بِالْفَتْحِ الْمَبِينِ، وَسَمَّاهُ طَهُ وَيَسَّ، الْمَطَاعَ الْمَكِينِ، الصَّادِقَ الْأَمِينِ، قَائِدَ الْغُرِّ الْمُحْجَلِينَ، وَكَهْفَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ، وَسَيْفَ اللَّهِ الْمَسْلُوقِ عَلَى أَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ، وَرَحْمَةَ اللَّهِ الْمُنْشُورَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، الْعُرْوَةَ الْوُثْقَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا انْفِصَامٌ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا فَازَ بِهَا بِدَارِ السَّلَامِ، وَصَارَ فى ذِمَّةٍ مَنْ لَا يَخْضَرُ لَهُ ذِمَامٌ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَحَبِيبُهُ وَنَجِيِّهِ، وَأَمِينُهُ وَتَقِيهِ، وَصَدِيقُهُ وَرَضِيهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ الَّذِى اخْتَارَهُ لَوَحْيِهِ، وَقَرَنَ حَقَّهُ بِحَقِّهِ، وَصَدَّقَهُ بِصَدَقِهِ، وَكَتَبَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِهِ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، وَجَعَلَ لَهُ الْأَرْضَ مَسْجِدًا طَهُورًا، وَأَحْلَلَ لَهُ الْغَنَائِمَ وَكَانَتْ

(١) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم ١٩]

(٢) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَسَاتِمًا﴾ [النازعات ٧٩].

(٣) وَهِيَ جَدُّهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، وَوَالِدُهُ عَبْدِ اللَّهِ.

حِجْرًا مَحْجُورًا، ونصره الله بالرعب سنين وشهورًا، وأنزل عليه القرآن هدى ونورًا، فانتظم لفظه مسطورًا، فأحيا نفوسا وأشقى صدورًا، ويُعث إلى الأحمر والأسود سعيا كان مشكورًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح في المقالة، وسد مسلك الضلالة، وقاتل أهل الشرك والجهالة، المختار من تهامة، المخصوص بالتاج والعبامة، واللواء والحوض والكرامة، الشفيق في أهوال يوم القيامة، المنتقد من الحسرة والندامة، الداعي إلى النجاح والسلامة، نبي أظلمته الغمامة، وكلمته الغزالة^(١)، وبشر به مبارك اليا^(٢)، ودلت عليه الشامة والعلامة، وكان يرى ما خلفه كما يرى ما أمامه، وكلمه الذراع المسموم^(٣)، وشكا له البعير المظلوم^(٤) وأحيا للعجوز ولدها^(٥). فشب في المدينة حتى جاوز الحلم، وصدع بأمر الله صدعا، وقمع الباطل قمعا، وجمع الناس على الهدى جمعا، واتخذ الزهد ذرعا، والحلم طبعًا، والرفض صنعا، والعلم أصلا وفرعا، وأوقى من الآيات البيئات ألفا إن كان أوقى موسى تسعا، فما تفجر البحر بأعجب من أنامله^(٦)، إذ انبعث بالزلال نبعا، وما بجيء الشجر^(٧) يجبر عروقه كرجوع العصا حية تسعى.

(١) أنظر فصل معجزاته - الشفا ٣١٦/١.

(٢) مبارك اليا^(٢) ورد في الشفا ٣١٩/١ (أن النبي ﷺ أتى بصبي قد شب لم يتكلم قط، فقال له: مَنْ أنا؟ قال رسول الله، ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب، فكان يسمى مبارك اليا^(٢).

(٣) أنظر الشفا ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٨.

(٤) ورد في الشفا ج ١ ص ٣٠٩ (وفي خبر آخر في حديث الجمل، أن النبي ﷺ - سألم عن شأنه فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه، وفي رواية: أن النبي ﷺ، قال: إنه شكا كثرة العمل. وقلة العلف) أنظر فصل في الآيات في ضروب الحيوانات ج ١/٣٠٩.

(٥) ورد في الشفا ج ١/٣٢٠ (وعن أنس أن شابا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء، فسجّيناه وعزّيناه، فقالت: مات ابني، قلنا: نعم، قالت اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى رسولك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملني على هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه، قطعتم وطعمنا).
(٦) الشفا ٢٨٥/١، أنظر فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته» ومنه «عن أنس بن مالك، رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الضوء فلم يجدوه، فأق رسول الله ﷺ - بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ - في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضأوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه».

(٧) أنظر «فصل في كلام الشجر» الشفا ٢٩٨/١، وأنظر أيضا «فصل في قصة حنين الجذع»

وكم من معجزة له تبهر، وكم من معجزة له تبهر، وآية له من أختها أكبر، رجعت له الشمس بعد الغروب حتى صلى العصر^(١) وَحَنُّ لَهُ الْجَذَعُ^(٢)، وأنشق القمر^(٣)، وسَلَّمَ عَلَيْهِ الذَّيْبُ^(٤)، وكَلَّمَهُ الْحَجَرُ^(٥)، وبَعَثَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وذمة للمسلمين، وعصمة للتائبين النادمين، ونقمة للظالمين، واستخرجه الله من شجرة مباركة طيبة، بأسقة عطرة ناعمة، نَبَتَ مِنَ الْخَلِيلِ عودها، وَأَتَسَقَ بِإِسْمَاعِيلِ عمودها، واتصل بعدنان عنقودها، وتم بمحمد - ﷺ - صعودها، يا لها من شجرة نبتت في أرض الصفا، وقامت على ساق الوفا، وسقيت بماء الاكتفا، لامعة البهاء، مشرقة الضياء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، الحق زهرتها، والصدق ثمرتها، والحلم ورقها، والعلم جثتها، والهدى فنوانها، والتقوى أفنانها، من تعلّق بها سَلِمَ، ومن لجأ إليها (...) ومن استظل بها غَنِمَ، ومن عاندها حُطِمَ، ومن خاصمها قَصِمَ.

اشهدوا يا مَنْ حضر، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا، اشهدوا وأيقنوا وتحققوا، أَنْ مَا خَلَقَ اللَّهُ أَتَقَى، وَلَا أَتَقَى، وَلَا أَوْفَى، وَلَا أَصْفَى، وَلَا أَغْفَى، وَلَا أَكْفَى، وَلَا أَشْفَى، وَلَا أَفْضَلَ، وَلَا أَكْمَلَ، وَلَا أَجْمَلَ، وَلَا أَبْجَلَ، وَلَا أَعْقَلَ، وَلَا أَعْدَلَ، وَلَا أَفْلَحَ، وَلَا أَفْصَحَ، وَلَا أَنْصَحَ، وَلَا أَصْلَحَ، وَلَا أَنْجَحَ، وَلَا أَرْجَحَ، وَلَا أَسْمَحَ، وَلَا أَرَأَفَ، وَلَا أَعْرِفَ، وَلَا أَشْرَفَ، وَلَا أَنْظِفَ، وَلَا أَظْهَرُ، وَلَا أَشْهَرُ، وَلَا أَنْوَرُ،

(١) ورد في الشفا ج ٢٨٤/١ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ وَرَأْسُهُ فِي جَبْرِ عَلَى، فَلَمْ يَصِلْ الْعَصْرَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَصَلَيْتَ يَا عَلَى؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ فِي طَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ، فَارْدَدْ عَلَيْهِ الشَّمْسَ، قَالَتْ أَسْمَاءُ: فَرَأَيْتَهَا غَرَبَتْ ثُمَّ رَأَيْتَهَا طَلَعَتْ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ، وَوَقَفَتْ عَلَى الْجِبَالِ وَالْأَرْضِ وَذَلِكَ بِالصَّبَاءِ فِي خَيْبَرَ»

(٢) انظر «فصل في قصة حنين الجذع» وفيه، قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مستقوفا على جذوع نخل، فكان النبي - ﷺ - إذا خطب يقوم إلى جذع منه، فلما صُنِعَ لَهُ الْمَنْبَرُ سَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجَذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ (النوق الموائل) فلم يسكت إلّا بعد أن هدده الرسول [الشفا ٣٠٤/١]

(٣) انظر «فصل انشقاق القمر وحبس الشمس» وفيه: «عن أنس، سَأَلَ أَهْلَ مَكَّةَ النَّبِيَّ - ﷺ - أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ، حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهَا» [الشفا ٢٨٢/١]

(٤) انظر قصة الذيب في الشفا ج ٣١٠/١

(٥) جاء في الشفا [٣٠٦/١] أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى فَسَبَحَ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ، حَتَّى سَمِعَ مِنْ حَوْلِهِ التَّسْبِيحَ، ثُمَّ صَبَّحَ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَبَحَ، ثُمَّ فِي أَيْدِي الْحَاضِرِينَ فَمَا سَبَحَ «انظر فصل: ومثل هذا في سائر الجملادات ٣٠٦/١».

ولا أزهَر، ولا أبصر، ولا أشكر، ولا أذكر، ولا أبر، ولا أضوم، ولا أقوم، ولا أكرم، ولا أرحم، ولا أعلم، ولا أفهم، ولا أعظم، ولا أزعم، ولا أنعم، ولا أنفق، ولا أشفق، ولا أرفق، ولا أوفق، ولا أسبق، ولا أصدق، ولا (...)، ولا أعبد، ولا أزهد، ولا أرشد، ولا أمجد، ولا أنجد، ولا أوجد، ولا أوحّد، ولا أحمّد، ولا أسعد، ولا أشجع، ولا أبرع، ولا أوزع، ولا أكرع، ولا أنفع، ولا أمنع، ولا أشفع، ولا وطىء الثرى، ولا أحيا البراء، ولا ولدت ثيباً ولا عذراً، ولا يلدن أبد الآباد مثل نبينا محمد - ﷺ، ما نطق ناطق، وما طرق طارق، وما ذرّ شارق، وما فاح غابق، وما لاح بارق، وما صاح عاشق، وما دامت المغارب والمشارق، وشرف وكرم، ومجد وعظم، ورضى الله عن كافة أصحابه أجمعين، وعن أنصاره وأصحابه الخلفاء الراشدين، وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعن الحاضرين المستمعين، وعن سائر المسلمين، والمؤمنين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا - سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً، واجعل لنا بالصلاة عليه أجراً عظيماً.

٢

الطابع العام لمؤلفاته ومصنفاته:

والباحث المدقق في كتب القاضى عياض، التى وصلت إلى أيدينا، يستطيع أن يضع يده على عدة حقائق تتصل بمنهج الرجل في البحث. أولها وأهمها أن الطابع العام لكتبه عامة هو طابع النقل والرواية، والاختصار والاختصار والتمحيص والتكميل، فهو ينقل عن الشيوخ الأفاضل، القدامى والمعاصرين له، ينقل سماعاً بسلاسل الإسناد، وينقل عنهم بالوجداء من كتبهم وموسوعاتهم العلمية.

- هذا الطابع نستطيع أن نجده في كتابه «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك».
- ونستطيع أن نجده في كتابه «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد».

- ونستطيع أن نجده في كتابه «الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع».
- ونستطيع أن نجده في كتابه «مشارك الأنوار على صحيح الآثار».
- ونستطيع أن نجده في كتابه «إكمال المعلم بفوائد مسلم».
- ونستطيع أن نجده في كتابه «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى».

١ - فهو يقول في «ترتيب المدارك»، بعد أن ذكر الكتب التي نقل عنها: «وأكثر تعويلي على كتابي التستري والضراب، وتتبع من غيرهما ما فيه زيادة فائدة، أو نادرة لم تقع فيها..»^(١).

٢ - ويقول في مقدمة «بغية الرائد».

«وطرقنا في هذا الحديث كثيرة متشعبة، جننا ببعضها عن أئمة شيوخوا، وبعضهم يزيد على بعض، وفي متن الحديث بينهم اختلافات وزيادات، وتقديم وتأخير، فجئنا بأكملها رواية، وأحسنها سياقاً، بعد تقديم أشهر أسانيدنا فيها، إثارة للاختصار والانتلاف، واستظهاراً بمن نهج لنا هذه السبيل من قدوة الأسلاف، ونبهنا على موضع الخلاف فيها، مما يفيد فائدة، أو يزيد فقرة شاردة، وثم زيادات من غير الطرق التي ذكرناها، جَلَبْنَا بعضها، ونبهنا على ما أمكن منها»^(٢).

٣ - ويقول في خاتمة كتابه «الإلماع»:

«هذه فصول وأبواب انتخبناها في هذا الكتاب، وأتينا منها بالمحض اللباب، مما يحتاج إليه طالب علم الحديث في طلبه، ويلتزمه من وظائفه وآدابه، ويضطر إليه في علم مأخذه ومياديه، وأتينا في ذلك من المعقول والمنقول، ما يعترف المنصف بالإجادة فيه»^(٣).

٤ - ويقول أيضاً في آخر كتابه «مشارك الأنوار»:

«وسيعلم من وقف عليه من أهل المعرفة والدراية قدره، ويوفيه أهل الإنصاف والديانة حقه، فإنني نخلت فيه معلومي، وبثته مكتومي، ورصعته بجواهر محفوظي

(١) مقدمة الكتاب ص ١٢. (٢) الإلماع ص ٢١٢.

(٢) بغية الرائد: خطبة الكتاب ص ٢.

ومفهومي، وأودعته مصونات الصناديق والصدور، وسمحت فيه بمضونات المشايخ والصدور، وقد ألفتها بحكم الاضطراب والاختيار، وصنفته من منتقى النكت من خيار الخيارات، وأودعته غرائب الودائع والأسرار، وأطلعته شمساً يُشرق شعاعها من سائر الأقطار، وحررته تحريراً تحار فيه العقول والأفكار، وقربته تقريباً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وسميته: «بمشارق الأنوار على صحيح الآثار».

٥ - ويقول كذلك في خطبته لكتاب «إكمال المعلم»:

«وقد اخترت للكتاب سمة على وفقه، تشهد بالإنصاف والاعتراف لذي السبق بسبقه، ووسمته بكتاب «إكمال المعلم» وتحررت فيه جهدى الصواب بفضل المنعم، وأودعته من الغرائب والعجائب ما يعرف قدره كل مفتن بها مهتم، وقد تركنا كثيراً مما تعلق بعلم الإسناد مما لم يذكره الشيخ الحافظ أبو علي، أو ذكره ولم يذكره الإمام أبو عبد الله، إذ غالب ما ذكر في هذا الكتاب مما في كتاب الحافظ أبي علي، ولم نتبعه لاستقصائه في الكتاب، لكننا ذكرنا من العلل طرفاً مما لم يقع في كتاب الحافظ أبي علي مما هو من شرطه، أو تركه عن قصد مما ذكره الإمام أبو الحسن الدارقطني، في كتابه المسمى «بالتتبع والاستدراكات على البخاري ومسلم».

٦ - ويقول في مقدمته لكتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى»:

«فإنك كررت على السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى - ﷺ - وما يجب له من توقير وإكرام، وما حُكم من لم يُوفَّ واجب عظيم ذلك القدر، أو قَصُر في حَقِّ منصبه الجليل قَلَامَةً ظفر، وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وآيينه بتنزيل صُور وأمثال»^(١).

ويقول أيضاً: «ولما نويت تقريبه، ودرجت تبويبه، ومهدت تأصيله، وخلصت تفصيله، وانتحيت حصره وتحصيله، ترجمته «بالشفاء»^(٢).
من هنا يتضح أن القاضي عياض ناقل راوٍ، جامع مختصر، مكمل ملخص،

(١) الشفاء ص ٤.

(٢) الشفاء ص ٧.

يجمع مادته العلمية من جميع الرويات والمسموعات والمكتوبات، ثم يضعها أمامه، فيعمل فيها عقله، فيختار ما يروق له، ويوفق بين عناصر بحثه أو موضوعه من مجموع ما جمع وحَصَرَ، فيختصر ويهذب، ويكمل ويلخص، ويربط بين المادة العلمية ربطاً محكماً بفكره الثاقب، وصبره الدائب، ويعمل في ذلك عقله وعلمه، حتى يخرج عمله العلمى كاملاً متكاملًا، من حَصيلة هذا الجمع واللّم والحصر.

من هنا يمكننا القول إن منهج الرجل^(١): نقل تكاملي حَصْرِي، ومن هنا تتضح طريقته في التأليف والتصنيف، وإنه يعتمد على المواد العلمية المجموعة، والروايات المسموعة، والآثار المكتوبة، التي صُنفت في المجال الذي يكتب فيه.

والسؤال الآن: ماذا نعني بمنهج الرواية النقلى الجمعى التكاملى؟

نعنى به.. ذلك المنهج الذى يعتمد على الرواية والسماع والنقل. ونعنى به المنهج الذى يقوم على تجميع أقوال وآراء الشيوخ والعلماء - الأمناء - على اختلاف اهتماماتهم، وحصرها، ثم وضعها جنباً إلى جنب، ما توافق منها وما تعارض، دون مساس بجوهر الأقوال والآراء.

ونقصد به.. المنهج الموثق، المنسوب فيه كل قول أو رأى إلى صاحبه، مهما تعددت الأقوال، أو تضاربت الآراء، ما دام صاحب الرأى مذكوراً في صدر كلامه وروايته.

إن أصحاب هذا المنهج، ملتزمون بما سمعوه ودَوَّنوه، أمناء على ما نقلوه عن شيوخهم، لأن كلامهم هو العلم، وهو الثقة والصدق، وإن اختلفت الآراء وتباينت.

إن أصحاب هذا المنهج، جامعون ناقلون، مكملون منقحون، مختصرون مُهذَّبون، ومصنفاتهم ومؤلفاتهم مؤلفة من جميع الآراء التى وصلت إليهم عن

(١) المنهج: أو المنهاج، هو لغة المذهب والطريقة والاتجاه، وقد جاء هذا المعنى في القرآن، في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المعجم الوسيط ج ٢ ص ٩٦٥ إصدار مجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١].

أشياخهم، سواء بالسماع المباشر والأخذ، أو بالرواية المنقولة عن رواة ثقات عدول، أو بما وجدوه في كتبهم من مواد علمية تتصل بما يبحثون ويدرسون ويؤلفون.

إن الباحث المصنّف من أتباع هذا المنهج، يضع على مائدة البحث كلّ ما جمعه من العلماء السابقين الأساتذة، وأحيانا يكون له حق النقد، وأحيانا يلتزم التزاما شديدا بهذه الأقوال والآراء، لا يفنّدها ولا يعلق عليها، إنما يعرض أقوالهم وآراءهم وتعليقاتهم كما هي، المهم أن يذكر مصادره.

لذلك كثيرا ما تختفى شخصيته العلمية، وراء منقولاته السماعية والكتابية، خاصة إن توقف عند حدود السرد والعرض، حينئذ لا يظهر من علمه إلا التعليق والربط بين الآراء، فقلما يظهر في صنيعه هذا شخصيته أو موهبته، لأنه يروى ما سمع أو ما قرأ وما دَوّن عن السابقين، ويعرض ذلك كله في إطار هذا المنهج الذى اختطه لنفسه، أو فرضته عليه ظروف البحث، وطبيعة الحياة الثقافية والعلمية. وقد نجد لذلك سببا يدعم هذا الرأى..

ذلك أن القاضى عياض - أحد علماء القرن الخامس والسادس، الذين تسلّموا الأمانة من علماء الأجيال السابقة، كان قد وجد محصولا وافرا من المادة العلمية، ومحصولا أوفر من شرحها وتحليلها، فأخذ على عاتقه دراسة هذا المحصول الوافر..

ثم إنه قد التقى بالكثير من العلماء، في مختلف التخصصات، الذين نقلوا المصنفات بسلاسل إسنادها إليه، وإلى أمثاله، كما نقلوا إليه علوم المشرق العربى بأكملها، وكل ذلك غذى ثقافته، وأثرى حصيلته، وساعده في عملية التأليف والتصنيف، التى أقام أسسها على تجميع هذه الروايات والآراء، والأقوال والآثار، اتفقت أو تباينت، وهو بذلك يوفر لقارئه وسامعه مشقة معرفة رأى كل عالم من العلماء السابقين حول الموضوع الواحد.

من هنا كانت مصنفاته ومؤلفاته محصلة كل المصنفات والمؤلفات السابقة في الموضوع الذى يتطرق إليه، أو يبحث فيه، أو يتناوله، ومن هنا كان منهجه نقليا

تجميعيا، شاملا لكل العناصر الموضوعية الموروثة حتى عصره.

إن هذا المنهج العلمى - منهج الرواية والنقل - على الرغم من قيمته العلمية الكبيرة، يفتقر إلى أمور هامة، لو أضيفت إليه لكانت دعماً له.

- يفتقر إلى ترجيح ما يراه صوابا، وتجريح ما يراه زائفا.
- يفتقر إلى حذف ما ليس بصحيح، أو يحمل الشطط من الآراء والروايات.
- ويفتقر ثالثا إلى نقد الآراء، لتوضيح مدى توفيق العلماء السابقين في آرائهم أو إخلالهم.

من هنا نستطيع القول.. إن التأليف وفقا لهذا المنهج النقلى التكميلى - فى أغلبه عرض مسطح، مرويّ مسرود، لا أثر يذكر للعمق أو النفاذ فيه، ولا أثر ظاهر لشخصية المؤلف المصنف.

أضف إلى ذلك، أن التصنيف والتأليف فى إطار هذا المنهج العلمى، المسموع المنقول، جعل أصحابه لا يتعدونه فى أغلب الأحيان، لشرط احترامهم لما سمعوه ونقلوه عن الأشياخ العلماء، الذين يكتون لهم ولعلمهم كل تقدير وإجلال.

- ولكن ما الذى جعل القاضى عياض يلتزم هذا المنهج التزاما قويا فى مصنفاته عامة، وفى كتاب الشفا خاصة. ويقيد نفسه بما سمعه وما نقله وما ورثه عن الشيوخ من آراء وروايات؟

- ولم كان يحرص على أن يسند كل رأى أو قول إلى صاحبه، إن كان مسموعا أو يذكر مصنفه أو مؤلفه إن كان مكتوبا؟

أقول : إنها الأمانة العلمية أولا وأخيرا، ثم الاعتراف بفضل هؤلاء القمم الرواسخ من العلماء، الذين بذلوا أقصى الجهد فى سبيل الوصول إلى الحقيقة.. وأخيرا، فإن هذا الالتزام كان مدعاة لتوثيق الروايات والآراء التى قيلت حول الموضوع.. لذلك وجدناه يذكر بكل إجلال شيوخه بين ثنايا مصنفاته، وفى كل مناسبة، وفى كل موضوع.

على أن هذا المنهج الثقلي، وإن ذكرنا له بعض العيوب، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يكون له مزايا أخرى كثيرة، أبرزها:

● أنه يبين مدى اعتماد الخلف على السلف، والوثوق بهم وبعلمهم، لأنهم كانوا مبعث ثقة، ومصدر علم، ومنبع معرفة.

● وأنه يبدو نسبيا متكامل العناصر، يكمل العلماء الشيوخ بعضهم بعضا، في منهج تلاميذهم، لذلك تبدو الآراء والأقوال في صورة تكاد تكون مستوفاة. وهذا الأمر لا نجده عند عالم واحد، أو شيخ واحد.

● إن عملية إسناد الأقوال إلى أصحابها في حد ذاتها تعتبر وثيقة علمية، تجعل في مقدور المطلع المدقق على مصنفات أصحاب هذا المنهج الثقلي، من استخراج آراء وأقوال وتفسيرات واجتهادات كل عالم على حدة. وبذلك حفظ لنا أصحاب هذا المنهج ما لم نعثر عليه من قبل.

ومهما يكن من أمر، فإن التصنيف والتأليف في إطار هذا المنهج، في هذا الوقت المتقدم، وهذه البيئة المغربية، لم يكن من الممكن أن يكون بخلاف ما كان، ولا يمكن أن تتغير صورته أو تتحول إلى غير ما وجدنا، تجميعا للروايات والآثار والأخبار ثم عرض لها.

إن منهج القاضي عياض.. منهج تقريرى علمى مسند موثق، لا تتدخل فيه غالبا، أى سمة شخصية أو عقلية من سباته، إنما هو عرض لكل الآراء والنقول وكل التفسيرات.

فهذا كتاب الشفا، نجده مشحونا بالأقوال والآراء والتعليقات والتفسيرات، التي أوردها القاضي عياض للاستشهاد بها، تدعيا للموضوعات الكثيرة التي عرضها في أبوابه وفصوله المتعددة حتى لقد طغت على أسلوبه الخاص، وآرائه المتضمنة.

إن بروز عنصر الرواية والنقل في مؤلفاته عامة، وفي سيرة المصطفى ﷺ أمر طبيعى في وقته، فالرواية كانت ركنا أصيلا من أركان العلم في زمانه، عند المحدثين ومن يتأثر بهم خاصة.

يقول أبو القاسم الكلاعى - معاصره - عن ألوان التأليف فى عصره :
 «إن منها ما أقل فضيلته حسن الاختيار الذى دار عليه المدار، ومنها
 ما فضيلته جمع ما افترق مما تناسب، وافترق، ومنها ما يعتمد المؤلف فيها على
 فكره ويغترف من بحر»^(١)

وتأليف القاضى عياض عامة يمكن أن تندرج تحت هذه الألوان كلها، فليس
 فى كتبه كتاب واحد إلا وفيه فكره من ناحية، وليس بينها كتاب واحد إلا وفيه
 نقله.

بيد أننا نقول للحق، إنه رغم كثرة نقوله ورواياته، فى منهجه التأليفى، إلا أنه
 كان دائماً حاضراً فى كتبه، لا تغيب شخصيته، ولا يخفت صوته، بل شخصيته
 بارزة حاضرة، بين ثنايا مصنفاته ومؤلفاته، خاصة فى الربط بين الآراء والأقوال،
 ومناقشة الآراء ونقدها إن ظهر له مجال للنقد.

٣

تحديد منهجه العلمى فى بناء كتبه

أما منهجه العلمى فى بناء مؤلفاته وكتبه، فيتضح من مقدمات هذه المؤلفات
 والكتب، ففى كل مؤلف من مؤلفاته - مقدمة أو خطبة - يحدد فيها منهجه الذى
 سيطبقه، ويذكر مصادره التى سيعتمد عليها، وهو بذلك يفيد الدارسين والباحثين،
 وطلاب العلم، إلى أمهات المصادر، ويكفيهم مشقة البحث عنها، وإن كان نقله
 عنها وأخذه منها لا يمنعه من نقدها أحياناً.

● وسمة هامة فى هذا التحديد، وهى أنه إذا خرج عن نطاق ما سبق
 تحديده وسطره فى مقدمة كتابه، أشار إليه ونبه عليه.
 ومن هنا وضع فى كتبه عامة عدم الاستطراد، كما هو الشأن فى كثير من كتب
 معاصريه، الذين انتهجوا نهج أصحاب الكتب العامة.
 أما القاضى عياض وأمثاله، فقد عصمتهم الدراسات الأصولية، بمنهجها

الدقيقة - المحددة في المقدمات - من الوقوع في هوة الاستطراد. بفضل هذا المنهج المحدد الموضوع تمكّن القاضى عياض من توزيع المادة الضخمة، التى تجمعت لديه لكل كتاب، وبفضله أيضا يستطيع الباحث القارئ أن يجد مطلبه فى كتبه بسهولة ويسر.

وكتاب الشفا يؤكد هذه الحقيقة، أى إيفاء المنهاج بالقصد من الكتاب. فهو وإن كان يتناول سيرة الرسول المصطفى - ﷺ - من جوانب متعددة، تتصل بالشئائل النبوية ومكانة الرسول، إلا أنه لم يبنه بناء تاريخيا، ولم يتتبع فيه الخط الزمنى، لذلك لا نجد فيه ما نراه فى كتب السيرة الأخرى، التى تبتدئ بالارهاصات الأولى للبعثة النبوية، وتتناول جوانب مولد الرسول - ﷺ - لذلك فالخط الزمنى لا أثر له فى الكتاب.

ولقد كان الرجل أميناً ودقيقاً فى تحديد مساره العلمى، حيث حدّد غرضه من تأليفه فى (بيان ما يجوز وما لايجوز فى حقّه ﷺ) وهو موضوع الباب الثالث من الكتاب، وما قبله من فصول جعله تمهيداً، أو تقدماً لهذا الباب.

٤

الطابع الجدلى.

وسمة بارزة فى تأليف السيرة النبوية، تلك هى الطابع الجدلى، القائم على المناقشة، وتوجيه الآراء، فنجدّه يجمع العديد من الحجج النقلية والعقلية، التى تفيده فى عرض موضوعاته. إنه يورد نقاط الخلاف ويتعقبها واحدة بعد أخرى، محللاً مفنداً ادعاءات الخصوم، ادعاء بعد ادعاء، وكثيراً ما نراه يحاصر خصمه من كل جهة بحججه النقلية والعقلية.

ولما كان الموضوع الأساسى - فى سيرة المصطفى - ﷺ - هو بيان ما يجوز وما لايجوز فى حق الرسول - ﷺ - فقد كان من المسلم به اتخاذ التأليف سمة الطابع الجدلى الخالص، ذلك لأن خلافاً كبيراً فى هذا الأمر. فقضية العصمة - وهى أهم قضية فى السيرة النبوية، والتى شغلت حيزاً كبيراً منها، كانت تحتاج إلى لون من المناقشة الموضوعية، لإبراز كنهها وما يتصل

بها، ولإثبات عصمة الرسول - ﷺ، كان القاضي عياض يرد أدلة كثيرة عن طريق تأويلها أو توهينها، ونتج عن ذلك، اصطباغ الكتاب بالطابع الجدلي الحاد عبر الكثير من الصفحات. وقد أعان القاضي عياض في الرد على خصومه، معرفته الدقيقة بالقرآن الكريم وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعربية وفنونها، فاستطاع أن يرد أكثر من عشرين دليلاً تمسك بها الذين جاوزوا الخطأ على النبي - ﷺ - قبل البعثة، حيث ظل يستعرض الأدلة دليلاً تلو دليل، فيتناول منها ما يجد له طريقاً إلى التأويل، ويوهن ما يجد له سبيلاً إلى التوهين.

* فلنستمع إلى مناقشته الجدلية في العصمة:

فإذا نفيت عنهم (أى الأنبياء) صلوات الله عليهم - الذنوب والمعاصي مما ذكرته من اختلاف المفسرين، وتأويل المحققين، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم، واستغفارهم وبكائهم على ما سلف، واشفاقك، وهل يُشفق ويُتاب ويُستغفر من لا شيء؟

فاعلم وفقنا الله وإياك، أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله، وسُنَّته في عبادته، وعظم سلطانه، وقوة بطشه مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله، والإشفاق من المؤاخذه بما لا يؤاخذ به غيرهم، وأنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها، ولا أمروا بها، ثم أُوْخِذُوا عليها، وعوتبوا بسببها، وحذروا من المؤاخذه بها، وأتوها على وجه التأويل أو السهو، أو تزيد من أمور الدنيا المباحة خائفون ووجلُّون، وهى ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم، ومعاصٍ بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصيهم، فإن الذنب مأخوذ من الشيء الذى الرذل، ومنه ذنب كل شيء آخره، وأذئاب الناس رذالهم^(١).

ولاشك أن طبيعة المواضيع التى درسها القاضي عياض في السيرة النبوية.. طبيعة جدلية حتمتها الخلافات المذهبية الفقهية والعقدية، وقد كانت هذه

(١) الشفا ٢/١٦٩.

الخلافات مجالا خصباً للمناقضات والمناظرات، التي كان يعقدها العلماء، ولها قواعد وأصول مدونة، متّواضع عليها، كان لا بد من إتقانها.

٥

السمة الشخصية

والسمة البارزة التي تتميز بها مصنفات ومؤلفات القاضي عياض، هي السمة الشخصية، وذلك على الرغم من غلبة طابع النقل والرواية على جُل كتبه، وتبرز هذه السمة في نوع الموضوعات التي ألفت فيها، وفي منهجه ونقده لمصادره. كما تظهر في الرغبة في التفرد لديه، وفي إثبات ذاته.

فالقاضي عياض حريص - في معظم كتبه - على القول بأنه لم يُسبق إلى هذا من الأعمال، أو إن أي أحد لم يأت به كما هو مطلوب سواء. إن الرغبة في تجاوز ما هو كائن تلوح في كل مؤلفاته، وقد أوقعته أحيانا في بعض المحظورات، ولا ينكر أحد أن عياضا كان فعلا رائد في أكثر من مجال، سواء فيما يتصل بالمنهج، أم فيما يخص الموضوع، فقد تفردت كتبه - خاصة الشفا - في كثير من الأشياء.

أضف إلى ذلك أن طريقته في «المشارك» و «الغنية» كانت فريدة، فقد رتب مادة الكتابين حسب ترتيب الحروف عند المغاربة، ثم إنه في ترجمة شيوخه تميز بمنهج خاص، فقد كان العلماء ينجون طريقتين في فهارسهم، فمنهم من ذكروا شيوخهم، ومنهم من ذكروا مروياتهم، وقد أخذ القاضي عياض بالمنهجين معا. ففي أمهات كتب الحديث، نجده يذكر الكتاب، ثم يعقبه بذكر طرقه فيه، وقد فعل ذلك تجنباً للتكرار، ولما أتى على ذكر كتب الحديث التي رواها بطرق مختلفة، عاد إلى ذكر الشيوخ، فرتبهم بحسب أسمائهم، وطبق ترتيب الحروف في المغرب، إلا أنه قدم من اسمه (محمد) تبركا بهذا الاسم، وتبجيلا له، وختم عمله بذكر الفهارس التي يروها، فجاء عمله هذا متفاديا لكثير من النقص الذي اعترض بقية الفهارس^(١).

(١) عبد السلام شقور ص ١٢٦.

متى أُلِّفَت السيرة النبوية؟ ولماذا؟

أما عن تاريخ تأليف السيرة النبوية، فقد ذكر القاضى عياض منها فقرة تقول:

«والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته على ما كان عليه اليوم مدة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة، لأول نزوله إلى وقتنا هذا حجة باهرة، ومعارضته ممتنعة»^(١)

ولقد استنتج منها الخفاجى^(٢) وغيره، أن القاضى عياض كان يكتب الشفا سنة خمسمائة وخمس وثلاثين (٥٣٥ هـ) إلا أن المقرئ أثبت في كتابه^(٣) حكاية وقعت له في غرناطة يوم كان قاضيا بها، قال فيها:

«وكان الإمام القاضى أبو الفضل عياض - رحمه الله - كثير الإنصاف، وما يدل على إنصافه الحق وتواضعه، ما حكاه عبد الرحمن المذكور آنفا، إذ قال: دخلت مجلس القاضى أبى الفضل عياض، إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة، وبه جماعة من الطلبة والأعيان يسمعون تأليفه المسمى «بالشفا» فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات: (ومن قسم به أقسَط) قرأه ثلاثيا (أى قَسَط)، وكذلك في الأم التى كان يقرأ فيها، فقلت للقاضى: وَصَل الله توفيقه: هذا لا يجوز في هذا الموضع، فقال: ما تقول؟ فقلت: إنما هو (أَقَسَط).

لأن المراد في هذا الموضع (عَدَل) فالفعل منه رباعى، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وأما (قَسَط) إنما هو جار كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.. إلخ.

وواضح من مفهوم هذا النص، أن كتاب الشفا كُتِب قبل سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة (٥٣١ هـ) إذ إن القاضى عياض كان قاضيا بغرناطة خلال هذه السنة، كما مرّ بنا.

(٣) أزهار الرياض ١٤/٣.

(١) الشفا ج ١ ص ٢٧٦.

(٢) نسيم الرياض ٣٢٥/٢.

إلا أن المقرئ يعلّق على هذه الحكاية فيقول: «قلت وقد رأيت نسخة من الشفا بخط هذا الشيخ عبد الرحمن المذكور، وحكى هذه المسألة في الطرة بخطه، كما نقلته حرفاً حرفاً، إلا قوله المسمى بالشفا فإنه لم يقله^(١)».

وقد وردت الجملة التي ورد فيها فعل (أقسط) في الشفا كما يلي: (هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح ومن قسم به أقسط)^(٢). فصحت بذلك حكاية ابن القصير، وصح أيضاً أن الحكاية وقعت بخصوص الشفا كما ذكره، وانتفى احتراز المقرئ إذ لا معنى له، بعد العثور على الجملة السابقة، وبناء على ذلك فإن السيرة قد ألفت قبل سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بمدة طويلة، ولا اعتراض على هذا الاستنتاج بما جاء في الشفا.

هذا إلى أن قول القاضي عياض «والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته». إلخ.

لا يفهم منه بالضرورة أن عياضاً يقصد منذ السنة الهجرية الأولى، والقول هنا إنما هو تخمين لا يؤيده شيء. بخلاف حمله على بداية البعثة، الذي يؤيده دليان: منطوق اللفظ أولاً وهو قول القاضي عياض (الأول نزول القرآن) ثم الحكاية السابقة، التي أصبحت صحيحة على أصلها في الشفا.

وحيث إن الرسول - ﷺ - لم يهاجر إلا في السنة الثالثة عشرة لمبعثه، فقد بات من الواضح إذن، أن القاضي عياض كان يصنف السيرة النبوية سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة (٥٢٢ هـ)^(٣)

* أما لماذا ألفت القاضي عياض السيرة النبوية؟

فكما علمنا وذكرنا من قبل، أن الكتابة عن الرسول الكريم - ﷺ - والتأليف في سيرته العطرة، إنما كان ينبع من صدق محبته - ﷺ - التي كانت تملأ قلوب المسلمين، وقلب القاضي عياض خصوصاً..

(١) أزهار الرياض ١٥/٣.

(٢) الشفا ٢٧٨/١.

(٣) عهد السلام شقور ص ١٣٣.

إن السيرة النبوية، التي ألفها القاضي عياض، لم تكن استجابة لعوامل ذاتية، تتعلق بشخص القاضي عياض فحسب، وإنما هي ثمرة لهذه العاطفة الجياشة، والحب العميق للنبي - ﷺ - ذلك الحب الذي ملأ عليه حياته كلها، فلم يعد بقادر على كَبْت عواطفه تجاهه، بل ترجم هذا الحب تقديراً وتقديساً، ووفاء بحق المصطفى - ﷺ - الذي بعثه الله رحمة للعالمين.

وليس أدل على هذا الحب من تلك التَّصْلِيَةِ - التي ذكرناها من قبل - والتي ألفها القاضي عياض في الصلاة والسلام على النبي - ﷺ، كما صلى الله وملائكته عليه، وليس أدل على هذا الحنين والشوق لزيارته من تلك الرسائل، التي كان يكتبها القاضي عياض للرسول - ﷺ.

أضف إلى ذلك - أن التأليف في السيرة النبوية، كان ثمرة من ثمار الحركة الفكرية التي كانت نشطة في هذا العصر، خاصة وأن القاضي عياض، جعل جوهرها: «بيان ما يستحيل في حقه وما يجوز عليه، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه»

فموضوع السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض عقدي وفقهي، وهو عقدي بالدرجة الأولى، لأن الجانب الفقهي فيه ليس إلا ذيلًا للجانب العقدي.

وأهم موضوع على الإطلاق - درسه القاضي عياض - هو موضوع العصمة - كما ذكرنا - وهو موضوع شغل الفكر الإسلامي كله، لاختلاف الناس في هذا الأمر. وقد بذل القاضي عياض - كما رأينا - جهوداً مضنية لإثبات العصمة للرسول جميعاً، وفي مقدمتهم الرسول المصطفى - ﷺ - ولأجل ذلك اضطر لتأويل أو توهين كثير من الأقوال التي قد توحى بغير العصمة. مستعيناً في ذلك بثقافته الدينية، وقدرته على الجدل.

وإنما ركز القاضي عياض على هذا الجانب - جانب العصمة - لأن المغرب العربي - كما ذكرنا - ابتلى بمن ادَّعاه، وذلك في حياة القاضي عياض نفسه وقبله.

والقاضي عياض إذ يثبت العصمة للرسول - قبل البعثة - ينفىها عن غيرهم،

وكانه - رحمه الله - رأى تطاول بعض الناس على الرسل واجترأهم عليهم، فكتب كتابه هذا، ولذلك نجده يطيل القول في باب (حكم من نال من الرسول بأى شكل من أشكال النيل).

إن المنهج الذى اتبعه القاضى عياض فى تأليف السيرة النبوية، منهج عقلى، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالغاية منه، وهكذا نجد الكتاب مقسماً إلى أربعة أقسام:

«مكانة الرسول عند ربه، وواجب المسلمين نحوه، وبيان ما يجوز وما لا يجوز فى حقّه، أى تناول الجانب الدينى النبوى، والجانب الدنيوى الإنسانى، وأخيراً موقف الشريعة الإسلامية ممن تنقصه أو سبّه. والقسم الثالث هو الأهم. ومن الطبيعى أن يلتزم القاضى عياض الطابع الجدلى فى هذا القسم، ويتمثل ذلك فى إيرادهِ للأقوال المختلفة والرد عليها، حيث تمكن من ردّ واحد وعشرين دليلاً، تمسك بها الضالون المضللون، الذين جوزوا صدور الصفائر من الأنبياء، بعد النبوة، وكان ذلك تلميحاً لما أرادوه من النيل من الرسول المصطفى - ﷺ^(١).

وليست العصمة هى القضية الوحيدة، التى تناولها القاضى عياض، بل تناول إلى جانبها عدداً من القضايا الكلامية، منها رؤية الله تعالى، وقد رأينا فى دراستنا، أنه يذهب إلى أن رؤية الله جائزة، غير ممنوعة شرعاً، ولو كان الأمر غير ذلك لما سأل موسى ربه الرؤية، إذ لا يمكن بحال أن يجهل نبيّ الله الكليم، ما يجوز على الله وما لا يجوز^(٢).

وقضية كلامية ثالثة تناولها القاضى عياض، وهى تتعلق بذات الله، وقد تحدث عنها أثناء شرحه لقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ، أَوْ أَدْنَى﴾، قال:

«اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله أو إلى الله، فليس بدنوّ مكان، ولا قرب مدى، بل كما ذكرنا عن «جعفر بن محمد الصادق» - ليس

(١) الطاهر بن عاشور: مجلة الإيمان عدد ٧٢/٧٣ ص ٢٤ السنة الثامنة.

(٢) الشفا ١/١٩٨.

بدنو حَدَّ، وإنما دنو النبي - ﷺ - من ربه، وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى مبرة، وتأنيس، وبسط وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول في قوله: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا على أحد الوجوه، نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان.. الخ)^(١).

وفي موضع آخر من السيرة النبوية، يعاود القاضي عياض التعرض لموضوع ذات الله وصفاته، فنراه يبسط الكلام في بيان موقفه، ووجهة نظره.. وعياض الأشعرى الهوية، يقول بما قالته الأشاعرة، فهو يثبت لله صفاته، إلا أنه يقول: لا علاقة لها بصفات البشر. «إلا من حيث موافقة اللفظ للفظ، وجلت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثه صفة قديمة، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة»^(٢).

وفي موضع آخر يذكر مقالة «الجويني»: «مَنْ اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره، فهو مشبه، وَمَنْ قطع بوجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد»^(٣).

* وتتضح عقيدة القاضي عياض السلفية، من هذه الجملة الماثورة، وهي قوله:

«ثَبَّتْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْإِثْبَاتِ وَالتَّنْزِيهِ، وَجَنَّبْنَا طَرَفِي الضَّلَالَةِ وَالغَوَايَةِ مِنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ بَمَنْ وَرَحْمَتِهِ»^(٤).

ولسنا نقصد من عرض هذه الاشارات وأمثالها، أن ندرس الجانب العقدي في السيرة النبوية، وإنما أردنا أن نُبرز - ما سبق أن ذهبنا إليه - وهو أن مصنفه الشفا، يعد من أبرز الوثائق التي تتولى الكشف عن الحركة الفكرية في المغرب العربي عموماً، والصراع العقدي خصوصاً في عصر القاضي عياض. ويمكن أن ينضم إلى نظم الجهان، ومسائل ابن رشد، وغيرها، التي تبرز حقيقة

(٢) الشفا ١/٢٤٥.

(٤) الشفا ١/٢٤٦.

(١) الشفا ١/٢٠٥.

(٣) الشفا ١/٢٤٥.

هذا الصراع، الذى كان أطرافه ابن الألبيرى، وابن حمدين، وابن رشد، حول كثير من القضايا الكلامية، التى انطلقت فى الأساس من الموضوعات الفقهية. فكتاب «الشفاء»، بقضاياها الفكرية التى عالجها، يصور لنا أصدق التصوير ذلك الصراع، وهو بذلك أساسى لمن أراد دراسة التيارات الفكرية فى العصر المرابطى^(١).

إن العصر المرابطى، الذى عاش القاضى عياض فيه ردحا من الزمن عرف اتجاهات فكرية ثلاثة: الاتجاه الفقهى، والاتجاه الصوفى، والاتجاه الكلامى. وكتاب الشفاء يصور هذه الاتجاهات الثلاثة، فهو كتاب فى التصوف، ولكنه تصوف على درجة خاصة، تصور ينبع من حب الرسول - ﷺ - وعياض إنما دخل رحاب التصوف من هذا الحب، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن التصوف المغربى كله من هذا الحب ينبع، ومن فيضه برز، والشفاء أيضا كتاب فى العقائد، ثم هو أخيرا يطلعنا على وجهة نظر فقيهه، وفيه قسم كامل فى الفقه إلى جانب الآراء الفقهية، التى وردت فى بقية الأبواب الأخرى^(٢).

٧

جانب الصياغة اللفظية:

ويرتبط بمنهجه التأليفى فى السيرة النبوية.. جانب الصياغة اللفظية، فنستطيع أن نرى فيها جانبين اثنين:

- * جانباً يغلب عليه السرد العلمى.
- * وجانباً آخر يكثر فيه التحليق فى فضاء فسيح الأرجاء معبوق بعطر الروضة الشريفة.

والحقيقة، أن النصوص التى نأى فيها عن السرد العلمى، جاءت وكأنها واحات وارقة الظلال، كان القاضى عياض يلوذ بها، ويجد فيها راحته ومسرته، فيطلق العنان لخياله، فيبدع ما شاء الله له أن يبدع، وهذه الواحات التى كان يستريح فيها عياض كثيرة، منها هذا النص الذى قدم به أبياتا له فى التشويق

(٢) المرجع السابق.

(١) عبد السلام شقور ص ١٣٧.

لزيرة النبي المصطفى - ﷺ - والحسين إلى مدينته المنورة، يقول فيه: «وجدت لمواطني عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصات بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة وأين فاض عليها، ومواطن طويت فيها الرسالة، وأول أرض مسَّ جلد المصطفى تراها، أن تعظم عرصات، وتتنسّم نفحاتها، وتقبل ربوعها وجدرانها»^(١).

فأين هذا النص بنفحاته وعبيره، من تلك النصوص التي يتناول فيها القضايا الفقهية والعقدية والمسائل التقريرية؟

إن نظرة فاحصة في نصوص السيرة النبوية، نستطيع أن نجد من خلالها أن للقاضي عياض أسلوبين متميزين:

(أ) أسلوباً تقريرياً، هو ثمرة جهد علمي ونشاط فكري.

(ب) وأسلوباً فنياً، هو نتاج عاطفة صادقة متأججة بحب الرسول - ﷺ - وهذا الأسلوب الأخير، حقه أن يُدرج ضمن النثر الفني الخالص.

والسؤال الآن: ما مقومات الأسلوب التقريري عنده؟ وما خصائص الأسلوب الفني في السيرة النبوية؟

أما الأسلوب التقريري: فأول سماته وأبرزها على الإطلاق التحرر من فنون البديع، أو الصور البيانية وإنما هو سرد وتقرير للحقائق.

* وسمة ثانية: يتميز بها هذا الأسلوب، هو الإيجاز الشديد المركز. من مثل قوله:

«الشجاعة: فضيلة قوة الغضب، وانقيادها للعقل. والنجدة: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت، حيث يحمد فعلها دون خوف»^(١).

«والسماحة: «التجاني عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس»^(٢).

«والسخاء: سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب ما لا يحمد»^(٣).

«وأما الحياء والإغضاء: فالحياء رقة تعترى وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته، أو ما يكون تركه خيرا من فعله، والإغضاء: التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته»^(٤).

إن هذه التعاريف الموجزة تتميز بالتركيز الشديد، فلا حشو فيها ولا تكرار، ولا فرصة للإسهاب في القول، فهي أشبه بالمعادلات الرياضية.

* وسمة ثالثة: لأسلوب القاضي عياض التقريرى، وهى الوضوح التام، فعلى الرغم من الإيجاز الشديد، الذى يطبع أسلوبه فى مواطن كثيرة، إلا أن القارئ لا يجد مشقة فى تتبعه، مهما كان الأمر الذى يتناوله. ولعل من أسباب هذا الوضوح فى عباراته، هو تسلسل الأفكار وترتيبها، فهو يحدد لنفسه - قبل كتابة موضوعه - مخططا واضحا، لا يحتاج إلى تكرار، أو يحتاج إلى إسهاب، بل يكتب موضوعه مستعينا بأدل الألفاظ وأوضحها على المقصود، وأقصر التراكيب وأفصحها للوصول إلى مراده، حتى لو اضطر إلى مناقشة أكثر من رأى، والاستشهاد بأكثر من قول. أضف إلى ذلك أنه حين يعالج موضوعا، فإنه يهدف له بالمقدمات الضرورية، التى توحى بالغرض الذى يهدف إليه، إقرأ قوله: «اعلم أيها المحب لهذا النبى الكريم، الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم، أن خصال الجبال والكمال فى البشر نوعان: ضرورى دنيوى، اقتضته الجبلية وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب دينى، وهو ما يحمد فاعله، ويقرب إلى الله زلفى» ثم هى على فئتين أيضا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين، ومنها ما يتنازع

(١) الشفا ١/١١٤.

(٢) الشفا ١/١١١.

(٢) الشفا ١/١١١.

(٤) الشفا ١/١١٧.

ويتداخل، فأما الضروري المحض، فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقته، وجمال صورته»^(١).

وتتوالى الشروح والتقسيمات في تسلسل محكم، كل فكرة ترتبط بما بعدها، لا اضطراب مطلقا، ولا إغراب، ولا غموض، إنما هو الوضوح التام، الذى لا خفاء فيه.

● وسمة رابعة في هذا الأسلوب، وهى أن اتساق الجمل عنده إنما بنى على أساس خطائى. فهو خطيب مفوّه - كما نعلم - منظم الأفكار، مرتب الذهن، لذلك وجدناه يقتضى من الخطابة وسائلها، وكأنه يتخيل أن القراء أمامه مثل جمهوره، الذى كان يتصل به كل جمعة، وفى كل مناسبة دينية، ليخاطبه، فنراه يستخدم كثيرا «ضمير المخاطب»، ويسهب فى استعمال أدوات التنبيه. وينوع من جملة وعباراته، من حيث الطول والقصر، ويزاوج بين الجمل الإسمية والفعلية، ليضمن استمرار يقظة القارئ وانجذابه له. من مثل قوله:

«قد استبان لك أيها الناظر بما قررناه، ما هو الحق من عصمته - ﷺ، عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافى العلم بشيء من ذلك كل جملة بعد النبوة، عقلا وإجماعا، وقبلها سماعا ونقلًا، ولا شيء مما قررناه من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعا وعقلا وشرعا، وعصمته عن الكذب، وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله قصداً أو عن غير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعا وإجمالا، ونظراً وبرهانا. وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعا، وتنزيهه عن الكبائر إجماعا، وعن الصغائر تحقيقا، وعن استدانة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعت للأمم، وعصمته فى كل حالات من رضا وغضب، وجدّ ومزح، فيجب عليك أن تتلقاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين، وتقدر هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها، فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ، أو يجوز أويستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه، لا يأمن أن يعتقد فى بعضها خلاف ما

هى عليه، ولا ينزعه عما لا يجب أن يُضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري»^(١). أما الأسلوب الفنى، الذى يصور عاطفته للرسول - ﷺ - فيتمثل فى تلك النصوص النثرية المتميزة، التى وشح بها السيرة النبوية، والتى فطن إليها القدماء، فجمعها بعضهم فى مصنف مستقل، كما فعل محمد بن الحسين بن محمد الحالى (ت ٧٧١ هـ) فى مصنفه «لباب الشفا»^(٢).

من هذه النصوص: الفصل الذى عقده لبيان فصاحة الرسول - ﷺ - والفصل الذى تناول فيه بالحديث إعجاز القرآن. ويضاف إلى ذلك خطبته على الكتاب، فهى خطبة مشحونة بألوان من الأصباغ البديعية، بناها القاضى عياض على حرف واحد، فكان السجع لها بمثابة القافية فى الشعر.

وعمد أيضا إلى الازدواج، فزواج بين جملة، وزواج بين الجمل الاسمية والفعلية كعادته، فأضفى على أسلوبه حيويةً فياضة، هذا عدا الألوان الأخرى الزاهية من الطباقات والتقسيمات.

٨

أخطاء علمية..

بقى أن نتحدث عما وقع فيه القاضى عياض من أخطاء علمية وهنات موضوعية..

١ - من هذه الأخطاء: زعمه أن الذبيح اسحاق بن إبراهيم^(٣). ويبدو أن العامل الأساسى فى وقوعه فى هذا الخطأ، هو اعتياده على ما رواه كثير من المفسرين، منهم ابن جرير الطبرى، والبغوى من روايات كثيرة، عن بعض الصحابة والتابعين، بل رفعوا ذلك إلى النبى ﷺ.

(١) الشفا ١٧٢/٢.

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة بجامع الزيتونة تحت رقم ٢٧٦/٢، وانظر تاريخ الأدب العربى - لكارل بروكلمان ج ٦ ص ٢٦٦.

(٣) الشفا ٩٩/١ (قال: ابتلاء اسحاق بالذبح).

١ - فقد روى ابن جرير، بإسناد طويل، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ قال: «الذبيح إسحاق».

٢ - وأخرج الديلمي بسنده، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن داود سأل ربه مسألة، فقال: اجعلني مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحى الله إليه أني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر، وابتليت يعقوب بالعمى فصبر».

٣ - وأخرج الدارقطني والديلمي - في مسند الفردوس - بسندهما، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ الذبيح إسحاق.

وكان الأخرى بالقاضى عياض وهو من كبار المحدثين، المشهود لهم بالحصافة وقوة الفكر، وغزارة العلم وسعة الاطلاع، أن يتحرى صحة هذه الأحاديث، وينظر في حقيقة الأمر، بدلا من أن ينقلها كما هي، اعتمادا على المصادر السابقة.

إن الباحث المطلع على كتب الرجال، وكتب الصحاح المعتمدة، يجد أن هذه الأحاديث كلها ضعيفة، وموضوعة، وسلاسل الإسناد لها مطعون فيها.

فالحديث الأول: الذي رواه ابن جرير، ضعيف ساقط، ولا يصح الاحتجاج به، فالحسن بن دينار راوية متروك، وشيخه علي بن زيد بن جدعان منكر الحديث^(١).

والحديث الثاني، الذي أخرجه الديلمي، والحديث الثالث، الذي أخرجه الدارقطني والديلمي، من الأحاديث الضعيفة، التي لا تصح ولا تثبت، كما أن أحاديث الديلمي - في مسند الفردوس - شأنها معروف، أضف إلى ذلك أن الدارقطني ربما يخرج في سُننه ما هو موضوع^(٢).

(١) تفسير البغوي ١٥٤/٧.

(٢) انظر أعلام المحدثين (ترجمته) للشيخ محمد محمد أبي شهبة.

أقول: إن المرويات في أن الذبيح «إسحاق» واضح فيها أنها من الإسرائيليات المدسوسة، التي تسربت ونقلها من أسلم من اليهود ككعب بن الأحبار، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين، تحسينا للظن بهم، يوم أن منحهم الرسول الكريم ﷺ الرخصة وقال لهم:

«لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»^(١).

فقد نُسب كثير من هذا كذبا إلى الصحابة، والسلف الصالح، كابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب وغيرهم ممن عرفوا بالثقة والعدالة، واشتهروا بين المسلمين بالتفسير والتحديث، وقد تم دخول هذه الاسرائيليات في تفسير القرآن الكريم بسهولة ويُسر بالغين، منذ الصدر الأول. ولم يحل دون ذلك شهادة القرآن على اليهود بتقوُّلهم على الله، وتزييفهم التوراة.

قال الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران ٧٨].

ولقد اغتر كثير من العلماء بما قرأوه من روايات غير صحيحة، عن الصحابة والتابعين، فذهبوا إلى أن الذبيح إسحاق - عليه السلام - وما من كتاب من كتب التفسير والتاريخ إلا ويذكر فيه الخلاف بين السلف في هذا، إلا أن منهم من يُعَقِّب ببيان وجه الحق في هذا، ومنهم من لا يعقب اقتناعاً بها.

والحقيقة أن هذه المرويات - كما قلنا - من دس ووضع أهل الكتاب، خاصة اليهود، لعداوتهم المتأصلة من قديم الزمان للنبي الأمي العربي محمد ﷺ. وقومه العرب، ذلك أنهم أرادوا أن لا يكون «إسماعيل» الجد الأعلى للنبي وللعرب، فضل في أنه الذبيح، حتى لا ينجر ذلك إلى النبي ﷺ وإلى الجنس العربي، من أجل ذلك حرفوا كتابهم المقدس «التوراة» إمعانا في التضليل،

(١) رواه البخاري.

وإضمامًا للحقد، وإبرازًا لفضل جدهم «إسحاق» - عليه السلام، على أخيه الأكبر «إسماعيل».

يبد أن عناية الله أبت إلا أن يُنسب الفضل لأهله، فلم تغفل عن هذا التضليل والتزوير، وحكمة الله أن يترك الجاني دائئًا من البصمات والآثار ما يدل على جريمته، وإرادته سبحانه أن يبقى دائئًا للحق شعاع ولو خافت يرشد إليه، مهما حاول المضلّلون إخفاء نوره، وطمس معالمه.

وهذا هو الدليل:

١ - جاء في التوراة [الإصحاح الثاني والعشرون فقرة ٢] ما نصه: «فقال الرب: خُذْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ الذى تحبه «إسحاق» واذهب به إلى أرض المرايا، واصعده هناك مَحْرَقَةً على أحد الجبال، الذى أقول لك...».

وليس أدل على التحريف من كلمة «وحيدك» فإسحاق لم يكن وحيدًا لأبيه إبراهيم، فقد وُلد وإسماعيل في نحو الرابعة عشرة، كما هو مذكور في تواتهم، وقد بقى إسماعيل عليه السلام حتى مات أبوه إبراهيم، وحضر وفاته ودفنه.

٢ - جاء في سفر التكوين [الإصحاح السادس عشر، الفقرة ١٦] ما نصه:

«وكان أبرام (أى إبراهيم بالعبرية) ابن ست وثمانين سنة، لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام.».

٣ - وجاء في سفر التكوين [الإصحاح الحادى والعشرون الفقرة ٥] ما نصه:

«وكان أبرام ابن مائة سنة حين وُلد له إسحاق ابنه.».

٤ - وجاء في سفر التكوين [الإصحاح الحادى والعشرون، الفقرة ٩] ما نصه:

(٩) ورأت سارة (ابن) هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمرح (١٠)

فقال لإبراهيم اطرده هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحاق (١١) فقبح الكلام جدًّا في عيني إبراهيم لسبب ابنه (١٢) فقال الله لإبراهيم، لا يقبح في عينيك من أجل الغلام، ومن أجل جاريتك في كل ما تقول سارة، اسمع لقولها لأن باسحاق يدعى لك نسل (١٣) وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك..» إلى آخر النص.

وكتاب الله الكريم، القرآن العظيم، خير شاهد على ما جاء في الكتب السماوية الأخرى، فهو المهيمن عليها، وقد صدق على ذلك، فقال حكاية لمقالة إبراهيم وإسماعيل بعد أن بنيا البيت:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة ١٢٨]
ولو أن اليهود وعَوْا ما جَاءَ في القرآن والتوراة، لعلوا أنه ستكون أمة لها شأنها من نسل إسماعيل - عليه السلام، ولما حَسَدُوا العرب على هذا الفضل، فكيف يتأتى أن يكون اسحاق وحيدًا؟

فإذا كان الذبيح - كما وضع الآن - هو إسماعيل، فما الدليل على ذلك؟
إن القرآن الكريم، والسنة المطهرة فيها الردّ الكافي الشافي لهذا الموضوع..

* ففي القرآن الكريم: الدليل على أن الخليل إبراهيم ﷺ أسكن هاجر وابنها الوليد إسماعيل عند مكان البيت المحرم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

ثم بنى إبراهيم البيت، تنفيذا لأمر ربه، وساعده إسماعيل وهو غلام في بنائه، وقامت مكة بجواره ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وأيدت ذلك التوراة، فقالت: إنها كانا في ﴿بَرِيَّةَ فَارَانَ﴾ وفاران هي مكة، كما يُعبّر عنها في العهد القديم، وهذا هو الصحيح في أن قصة الذبيح كانت بعد ذلك، وكان مسرحها بمكة ومنى، وفيها يذبح الحجاج ذبائح الأضحية إلى اليوم.

والعجيب في الأمر، أن اليهود حرفوا هذا النص، وجعلوه (جبل المريا) وهو الذى تقع عليه مدينة أورشليم القديمة، مدينة القدس العربية اليوم، ليحققوا هدفهم في زعمهم أن الذبيح إسحاق، وهذا ما أظهر تحريفهم، وهذا ما فضحه القرآن:

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران ٦٧، ٦٨].

أما السنة المطهرة، فقد دلت الأحاديث النبوية الصحيحة، والآثار عن الصحابة والتابعين، ما يثبت أن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ومنها ما يلي:

١ - ماروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابنُ الذبيحين»^(١) يعنى جده الأعلى إسماعيل وأباه عبدالله.

٢ - ماروى عبدالله بن سعيد الصنابحي، قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم (إسماعيل وإسحاق) أيهما الذبيح، فقال بعضهم إسماعيل، وقال بعضهم إسحاق، فقال معاوية: علي الحخير سقطتم، كُنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي، فقال: يا رسول الله، خلفت الكلاً يابسا، والمال عابسا، هلك العيال، وضاع المال، فعُدَّ علىَّ مما أفاء الله تعالى عليك «يا ابنُ الذبيحين»^(٢) فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، فقال القوم: مَنْ الذبيحان يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم، نذر لله إن سهَّل أمرها أن ينحر بعض بنيه، فلما فرغ أسَّهم بينهم (أى اقترع) فكانوا عشرة، فخرج السهم على «عبدالله» فأراد أن ينحره، فمنعه أخواله بنو مخزوم، وقالوا: أرض ربك وافِدِ ابنك، ففداه بمائة ناقة.

قال معاوية: هذا واحد، والآخر إسماعيل^(٣).

(١) رواه الحاكم في المستدرک وصححه وقال حديث حسن، وذكر الزغفرى في كشافه عند تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٧) من سورة الصافات، وذكره النسفى أيضا.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره يستلذه عن عبدالله بن سعيد.

٣ - وروى ابن اسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، أنه ذكر ذلك لعمر ابن عبد العزيز، وهو خليفة، فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجلاً كان يهودياً فأسلم وحسّن إسلامه، وكان من علمائهم، فسأله: أي بني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل «والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، وهذا هو الحق الذي يجب أن يُصار إليه».

قال ابن كثير معلقاً: والذي استدل عليه محمد بن كعب القرظي، على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم^(١).

ويضيف العلامة ابن القيم: «ولا خلاف بين النسايب أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل هو القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل من عشرين وجهاً» وقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع تحليلاً دقيقاً، جاء فيه:

هذا القول متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه «إن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه «يكره» وفي لفظ «وحيده». ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن «إسماعيل» هو بكر أولاده - أي أولهم، والذي غر هؤلاء: إنه في التوراة التي بأيديهم: «اذبح ابنك إسحاق» قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: «اذبح بكرك ووحيدك». ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختاروه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله...

وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق؟ والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود ٧١].

فمحال أن يبشرها بأن يكون لها ولد، وللولد ولد، ثم يأمر بذبحه.

(١) تفسير ابن كثير للآيات. وانظر تفسير البغوي ١٠٦/٧.

ويدل عليه أيضا: أن الله ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات، ثم قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الآية ١١٢] وهذا ظاهر جدًا في أن المبشر به غير الأول، بل هو كالتص فيه، وغير معقول في أفصح الكلام وأبلغه، أن يُبَشَّرَ بإسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح.. فتعين أن يكون الذبيح غيره.

● وأيضاً.. فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، تذكيراً بأن اسماعيل وأمه، وإقامته لذكر الله. ومعلوم أن اسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون اسحاق وأمه، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب، لكانت القرابين والنحر في الشام - لا بمكة.

● وأيضاً، فإن الله سبحانه - سَمَّى الذبيح ﴿حَلِيلِيَّ﴾ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر (اسحاق) سماه ﴿عَلِيَّيَّ﴾: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات ٢٨] وهذا (إسحاق) بلا ريب، لأنه من امرأته وهى المبشرة به، وأما (اسماعيل) فمن السرية، أى الجارية، وأيضاً، فلأنها بُشِّرَا به على الكبر والياس من الولد، فكان ابتلاؤها بذبحه أمراً بعيداً وأما اسماعيل فإنه وُلد قبل ذلك.. إلى آخر ما قال^(١)

٢ - ومن الأخطاء التى وقع فيها القاضى عياض: حديثه عن خطيئة داود^(٢)، وهذا القول لا يتفق مع حديثه عن عصمة الأنبياء. وكان عليه أن يتحرى الأمر قبل أن ينقل ما نقل، ويذكر ما ذكر.

فداود - هذا النبى الكريم، الذى اختصه الله بالحكمة وفُضِّل الخطاب، كما اختصه بالقوة فى العبادة، وشِدَّة الاجتهاد، واختصه بنزول كتابه الزبور، واختصه كذلك بالقوة الجسدية والعضلية التى يَسَّرَتْ له إلانة الحديد، وجمع له بين

(١) انظر زاد المعاد ج ١ ص ٢٨ - ٣٠.

(٢) قال: «ولم يُر (أى داود) ضاحكاً بعد الخطيئة، ولا شاخصاً بصره إلى السماء» ج ١ ص ١٥١

الدين والدنيا، بين النبوة والمُلك. تعرض لامتحان رهيب، أورد العلماء أخباره، وإن اختلفوا في كنهه وأسبابه.

● فقال قوم: كان سبب ذلك أنه تَمَنَّى يوماً من الأيام على ربه - تعالى - منزلة آبائه، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم، ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم.

فروى السدى والكلبى، ومقاتل عن أشياخهم، فقالوا:
«كان داود - عليه السلام - قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوماً يقضى فيه بين الناس، ويوما يَخْلُو فيه بنسائه، ويوما لعبادة ربه، وقراءة الكتب، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام، فيقول: يارب أرى الخير قد ذهب به آبائى، الذين كانوا قبلى، فأوحى الله - تعالى - إليه أنهم ابتُلُوا ببلايا لم يُبْتَلْ بها أحد فصبروا عليها.. ابتلى إبراهيم - عليه السلام - بنار النمرود وبذبح ولده، وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بَصَرِهِ على يوسف، وإنك لم تُبْتَلْ بشيء من ذلك. فقال داود - عليه السلام - يارب فابْتَلْنِي كما ابتليتهم، وأعطني كما أعطيتهم، فأوحى الله تعالى إليه، إنك مُبْتَلَى في شهر كذا.. في يوم كذا، فاحترس على الصبر.. فلما كان اليوم الذى وعده الله، دخل داود محرابه، وأغلق بابه، وجعل يصلى، ويقرأ الزبور استعداداً للأمر.

فماذا كان نوع الابتلاء العظيم، والامتحان الرهيب؟

● ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبعغوى والسيوطى^(١)، من الأخبار والوقائع ما تقشع من هوله الأبدان، قالوا: «بينما داود فى محرابه يصلى، إذ جاءه الشيطان، وتمثل فى صورة حمامة من ذهب، فيها كل لون حسن، فوقعت بين يديه، فمدَّ يده ليأخذها، فلما أهوى إليها، طارت غير بعيد، من غير أن تؤسسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها، ففتحت فتبَّعها، فطارت فوقعت فى كوة المحراب، فذهب ليأخذها، فطارت من الكوة، فنظر داود أين تقع، فبيعت إليها مَنْ

يصيدها، فإذا هو بامرأة في بستان على شط بركة تغتسل» هذا قول الكلبي.

قال السدي: رآها تغتسل على سطح لها، فرآها من أحسن النساء خلقاً، فتعجب داود من حُسْنِها، وحانت منها التفاتة، فأبصرت المرأة ظل داود، فنشرت شعرها، فغطى بدنّها كله، فزاد بذلك إعجاباً بها، فسأل عنها، فقيل له: هي سابع بنت شائع، امرأة أوريا بن حنان، وزوجها في غزاة اللقاء مع أيوب بن سوريا، ابن أخت داود.

فكتب داود إلى ابن اخته أيوب، صاحب بعثة بلقاء، أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا، وقدمه على الثابوت، وهو صندوق فيه بعض مخلفات أنبياء بني إسرائيل، فكانوا يقدمونه بين يدي الجيش كي يُنصَرُوا، وكان المقدم على الثابوت لا يحل له أن يتقهقر إلى ورائه، حتى يفتح الله على يديه، أو يستشهد، فبعث به، ففتح له، فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه داود أيضاً. أن ابعثه إلى غزوة كذا، وكان رئيسها أشد منه بأساً، فبعثه فقتل في المرة الثانية، فلما انقضت عدتها، تزوجها داود.

فلما دخل داود بامرأة أوريا، لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله ملكين في صورة رجلين، فطلبا أن يدخلوا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعها الحراس أن يدخلوا عليه، فتسوّرا المحراب وهو يصلي، فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان، فذلك قوله تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [سورة ص ٢١]

ففزع منهم داود حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه، لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب، أي احتاطا به يسألونه عن شأنها..

﴿قَالُوا: لَا تَخَفْ، خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾

أي لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان، تعدى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا

بالعدل، ولا تجر ولا تفرط، ولا تظلم في الحكم ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾
أى وارشدنا إلى وسط الطريق، يعنى إلى الطريق الحق المستقيم الواضح.
وهنا نكون قد وصلنا إلى موضوع القضية، بداية قصة الخصمين
المتخاصمين:

قال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾
[سورة ص ٢٣]

فقال: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أى أعطينها وتحول لى عنها، ملئنى إياها ﴿وَعَزَّنِي فِي
الْخِطَابِ﴾ أى غلبنى فى الخصومة، وكان أفصح منى، وشدد على فى القول وأغلظ،
وإن حارب كان أبطش منى..

فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ أى لقد ظلمك بهذا
الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة.

● قال السدى: - يأسناده - إن أحدهما لما قال (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
وَتِسْعُونَ نَعْجَةً)

قال داود للآخر: ما تقول؟ قال: إن لى تسعا وتسعين نعجة، وله نعجة
واحدة، فأريد أن آخذها منه وأكمل نعاى مائة، قال: وهو كاره؟ قال: نعم. قال
داود: إذا لا تدعك، وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا، يعنى طرف الأنف
وأصل الجبهة.

فقال الرجل: يا داود.. أنت أحق بضرب هذا منى، حيث كان لك تسع
وتسعون امرأة، ولم يكن لأورياء إلا امرأة واحدة، فلم تزل تعرضه للقتال حتى
قتل، وتزوجت امرأته.

فهذا هو وجه الآية، وقصة الامتحان، إلا أن داود حَكَمَ قبل أن يسمع كلام
الخصم الآخر.

قيل: ثم إن داود نظر فلم ير أحدا، فعرف ما قد وقع فيه، فذلك قوله
تعالى: ﴿وَطَنَّ دَاوُدُ أَمَّا فَتْنَاهُ﴾ أى ابتليناه، أى علم وأيقن إنما اختبرناه بهذه
الحادثة، وتلك الحكومة.

هذه القضية، قضية الابتلاء، بهذه الأحداث والوقائع، كانت مثار نقاش كبير وجدل كثير، منذ قديم الزمان، وخبَّ فيها ووضع القصَّاص ونقَّلة الأخبار والرواة الكثير من الأقوال، وقد ساعدتهم على ذلك، أن في التوراة والإنجيل ما يثبت لبعض الأنبياء كداود، ما يترفع عنه عامة الناس، فكيف الحال مع الأنبياء والمرسلين؟

ونحن المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة، نقول بعصمة الأنبياء، وترفعهم عن الدنيا والسقطات، وبعدهم عن سفاسف الأمور قولاً وعملاً، فإننا نرى أن زعماء الإصلاح، على مرِّ الدهور، قوم غير عاديين، يكونون غالباً بعيدين عن الدنيا، والأنبياء - عليهم رضوان الله وسلامه، أولى بذلك منهم، لأنهم قوم اصطفاهم الله، واختارهم، وصنعمهم على عينه، فأرواحهم طاهرة، ونفوسهم عالية، يستحيل عليهم ما ذكره أحبار اليهود، في حقهم، ونقله بعض علماء المسلمين، ورووه على ألسنتهم، ودوَّنوه في كتبهم بحسن نية.

ولم يقف الأمر عند هذه الروايات الموقوفة عن بعض الصحابة والتابعين، من أمثال ابن عباس وابن مسعود، وأنس بن مالك، وغيرهم بل جاء بعضها مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال السيوطي: في الدر المنثور^(١). وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير بسنده، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن داود - عليه السلام - حين نظر إلى المرأة، قطع على بنى إسرائيل، وأوصى صاحب الجيش، فقال: إذا حضر العدو فقرَّب فلانا بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به، من قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم معه الجيش، فقتل وتزوج المرأة، ونزل الملكان على داود - عليه السلام - فسجد، فمكث أربعين ليلة ساجداً، حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه. فأكلت الأرض جبينه، وهو يقول في سجوده:

«ذُلَّ داود ذلَّةً هي أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضعف داود،

وتغفر له ذنبه، جعلت ذنبه حديثاً في الخلائق من بعده، فجاء جبريل - عليه السلام - بعد أربعين ليلة، فقال: يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهمم الذي هممت به، فقال داود: قد علمت أن الله قادر على أن يغفر الهمم الذي هممت به...»

والذى لا شك فيه، أن هذه الرواية وأمثالها منكورة ومُختَلقة على رسول الله - ﷺ، وقد فطن إلى ذلك العلامة ابن كثير السلفى، فقال في تفسيره:

«وقد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس - رضى الله عنه - ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. ومن ثم يتبين لنا كذب رفع هذه الرواية المنكرة إلى رسول الله - ﷺ، ولا نكاد نصدق ورود هذا عن نبي الله داود، الذى مدحه الله بخصال جمّة، واختصه بهبات لم يخص بها غيره، وإنما هى اختلاقات وأكاذيب من إسرائيليات أهل الكتاب.

وهل يشك مؤمن عاقل، يقرّ بعصمة الأنبياء فى استحالة صدور هذه الواقعة عن داود - عليه السلام، ثم يكون على لسان من؟ على لسان من كان حريصاً على تنزيه إخوانه الأنبياء عما لا يليق بعصمتهم، وهو نبينا المصطفى - ﷺ^(١)

● ولو أن القصة كانت صحيحة، لذهبت بعصمة داود، ولنفرت منه الناس، ولكان لهم العذر فى عدم الإيمان به، فلا يحصل المقصد الذى أراده رب العزة من بعث الرسل، وكيف يكون على هذه الحال، من قال الحق تبارك وتعالى فى شأنه: ﴿وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْن مَّآبٍ﴾ [سورة ص ٢٥]

قال ابن كثير - فى تفسيرها: «وإن له يوم القيامة لقُرْبَى، يقرّبه الله - عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية فى الجنة، لنبوته وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن،

(١) الشيخ محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات ص ٣٦٩ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وكلتا يديه يمين، الناس يقسطون في أيديهم وماؤلوا»

على كل حال: إنما أُوخذ داود في هذه القضية، كما نص القرآن، لأنه حكم بمجرد سماعه لكلام أحد الخصمين، وكان عليه أن يسمع كلام الخصم الآخر. وقد قيل: إذا جاءك أحد الخصمين وقد فُتت عينه، فلا تحكم له لجواز أن يكون خصمه قد فُتت عيناه.

فالقضية، كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخا مثيرا، لا يحتمل التأويل، ومن ثم اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب منه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ..﴾ إلى آخر الآيات. فعاتبه الله على ذلك، ونَبَّهَهُ إلى ضرورة تثبيت القاضى من حكمه، وسماحه للخصم الآخر.

وقد تنبّه إلى ذلك الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، فقال: ^(١) يبين الله سبحانه وتعالى، بطريق القصص القرآنى، لأنه من تصريف البيان، أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطانا فى الحكم، فإن كان الهوى، كان الشطط فى الحكم، ومظنة الوقوع فى الظلم، وإن كان الحاكم لا بد أن يكون للحق مدركا، فلا بد من عنصر العلم، وإبعاد الهوى.

واقراً قصة داود - عليه السلام - الذى أعطاه الله الملك والحكمة ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ..﴾ الآيات، هنا نجد القصة عن نبي الله داود - عليه السلام - تتضمن ثلاثة أمور، فى التنبيه على كل واحدة منها، تنبيه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل فى الأحكام.

أولها: أنه سبق إلى الحكم من غير أن يستمع إلى كلام الخصم، فقضى لأحد الخصمين، قبل أن يستمع إلى كلام الآخر، فإن ذلك مدرجة فى الظلم، بل قد يكون ظلماً.

(١) المعجزة الكبرى ص ٢١١ طبع دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٧٠ م

ثانيا: أنه لم يكتف بالحكم في القضية المعروضة، بل عمم الحكم، والقضاء يكون في القضية المدروسة ولا يتجاوزها.

الأمر الثالث: وهو يفصل التفرقة بين الحكم الظالم، والحكم العادل، أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة، وأما الحكم الظالم، فإنه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة، وأن الملوك والحكام المستبدين يكون مصدر شرهم أهواؤهم، فهم يتبعون أهواءهم فيها يحكمون به، وما ينزلونه بالناس، فهم يستنون النظم تبعاً لأهوائهم، ويطبقونها تبعاً لأهوائهم، ويجعلون شيعتهم تسارع إلى تنفيذ أهوائهم، ولا يفهمون المصلحة إلاّ تابعة لأهوائهم، فإذا نهى الله تعالى نبيه داود عن اتباع الهوى، وهو خليفة حاكم، فإنما نهاه عما يؤدي إلى فساد الحكم.

وهذا يتبين أن حكم الهوى كان مصدر فساد الحكم في الماضي، كما هو مصدر الفساد في كل الأزمان، وذكر ذلك في قصة من قصص القرآن، يزيد المبدأ تبييناً وتأكيّداً، وقد بينا أن ذكر أى أمر في قصة يجعله يسرى في النفوس، ويدخل إلى الضمائر إن كان فيها استعداد للحق.

إن قول داود متسرعا، قبل أن يسمع جواب الخصم الثاني: (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ) لعل هذا هو الذنب الذى ألمّ به داود، وظن داود أنما فتناه بهذه الحادثة، فاستغفر ربه مما ألمّ به، وخرّ راکعاً، وصلى قائماً وساجداً وأُناّب، فغفر له ربه ذنبه، فهذا رأى يستند إلى سرعة الحكم.

أما ما قاله بعض العلماء -ومنهم القاضى عياض- اعتماداً على بعض الروايات الإسرائيلية، فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء، بل بخواص الأنبياء.

إننا نعلم قطعاً، أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جَوُزْنَا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع، ولم تثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يمرّ على ما أَرَادَهُ الله، وما حكى القصاص مما فيه غُضٌّ من منصب النبوة طرحناه^(١)

(١) أبو حيان: البحر المحيط ٣٩٣/٧

والدليل على أن داود كان معصوما من الخطايا، قول الحق سبحانه وتعالى - بعد ذلك - ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة ص ٢٦] أى استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم، ﴿فَاخُذْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى احكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التى أنزلها عليك ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى لا تتبع هوى النفس فى الحكومات وغيرها، فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم.

● قال أبو حيان: «وَجَعَلَهُ تَعَالَى دَاوُدَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، يدل على مكانته - عليه السلام - واصطفائه له، ويدفع فى صدر من نسب إليه شيئا مما لا يليق بمنصب النبوة»^(١).

(١) المصدر السابق ٣٩٤/٧.

ملاحق البحث

- ١ - شعره الذى لم يسبق نشره.
- ٢ - تَصَلِيَّاتِهِ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ٣ - خُطْبَتُهُ.

أولاً: شعره

١ - قال القاضي عياض، رحمه الله تعالى^(١):

قِفْ بِالرَّكَابِ فَهَذَا الرَّبْعُ وَالْذَّارُ لَاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ أَنْوَارُ
بُشْرَاكِ، بُشْرَاكِ قَدْ لَاحَتْ قِبَابُهُمْ فَانْزِلْ، فَقَدْ نِلْتَ مَا تَهْوَى وَتَخْتَارُ
هَذَا الْمُحَصَّبُ هَذَا الْخِيفُ خِيفُ مُنَى هَذِي مَنْازِلُهُمْ، هَذِي هِيَ الدَّارُ
هَذِي قِبَابُ قِبَا آثَارِ وَطَنِهِمْ وَذَا هُوَ الْجَدْعُ، فَابْكِ، ذَا هُوَ الْغَارُ
هَذَا النَّبِيُّ الْحِجَازِيُّ الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ بِتَقْدِيمِهِ فِي الرُّسُلِ أَخْبَارُ
هَذَا الْحَبِيبُ الَّذِي أَسْرَى لِحَالِقِهِ لَيْلًا، وَقَدْ ضُرِبَتْ بِاللَّيْلِ أَسْتَارُ
هَذَا الرُّسُولُ الَّذِي مِنْ أَهْلِهِ شَهِدَتْ لَنَا عَلَى غَيْرِنَا فَضْلٌ وَآثَارُ
هَذَا الشَّرِيفُ الَّذِي سَادَتْ بِهِ مُضَرُ هَذَا الَّذِي تُرْبُهُ كَالْمَسْكِ مِعْطَارُ
هَذَا الشَّفِيعُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِلْمُذْنِبِينَ إِذَا مَا اسْوَدَّتِ النَّارُ
بَايِرُ وَسَلَّمٌ عَلَى أَنْوَارِ رَوْضَتِهِ قَبْلَ الْمَمَاتِ فَلَا تُشْفِكَ أَعْدَارُ
إِنْ لَمْ تُعَايِنِ ثَرَاهُ الْعَيْنُ يَا أَسْفَى أَوْ لَمْ تَزُرْهُ فَإِنَّ الشُّوقَ زَوَارُ
يَا أَهْلَ طَيْبَةِ لِي فِي رَبِّكُمْ قَمَرُ بَرٌّ عَطُوفٌ لِفِعْلِ الْخَيْرِ أَمَارُ
وَأَشْغَلْتَنِي ذُنُوبٌ عَنْكَ مُؤَلِّمَةٌ أَخَافُ تَحْرِيقِي مِنْ أَجْلِهَا النَّارُ
يَا خَيْرَةَ الرُّسُلِ يَا أَعْلَى الْوَرَى شَرَفًا قَدْ أَثْقَلْتُ ظَهْرِي آثَامَ وَأَوْزَارُ
فَكُنْ شَفِيعِي لِمَا قَدِمْتُ مِنْ زَلَلٍ وَمِنْ خَطَايَ، فَإِنَّ الرَّبَّ غَفَّارُ
صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا سَجَعْتُ وَرَقٌ، وَمَا نَفَحْتُ فِي الرُّوضِ أَزْهَارُ
وَأَلِيهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ السَّعْدَاءُ مَالَاخَ نَجْمٍ وَمَاهَطَلَّ مِندَرَارُ

(١) نقلا عن الأستاذ عبد السلام شقور في بحثه «القاضي عياض الأديب» ص ٣٣١ وما بعدها.
والقصيدة موجودة في مجموع المكتبة العامة بالرباط رقم ٣٧٧٤، وهي موجودة كذلك بكتاب «مناسك
الحج» للبويعقوبي بالمكتبة العامة بتطوان رقمه ٥١٨، وفي مجموع ثالث بغرانة ابن يوسف بمرakash
رقمه ٣٥٩ وفي مجموع رابع بالمكتبة العامة بالرباط رقمه ٢٤٤٥ د.

٢ - وقال القاضى عياض - رحمه الله تعالى (١).

يا عينُ هَذَا السَّيِّدَ الْأَكْبَرُ
فشَاهِدِي فِي حَرَمِ الْمُصْطَفَى
يا عينُ، ذَا مَا كُنْتَ تَبْغِيهِ
هَذَا مَقَامُ الْمُجْتَبَى أَحْمَدَ
وَأَيُّ فَهْمٍ فِيهِ لَا يَنْجَلِي
وَدَّتْ نُجُومُ الْأَفْقِ لَوْ أَنَّهَا
مَا كَانَ أَهْنَى مُهْجَتِي لَوْ غَدَتْ
كُلُّ مَقَامٍ قَدْ سَمَا قَدْرُهُ
تَجَمَّعَ الْفَضْلُ بِهَا وَالنَّدَى
إِلَى ثَرَاهَا الزُّعْفَرَانُ انْتَمَى
قَدْ حَسَدَتْهَا سِدْرَةُ الْمُتَنَهَى
وَالْكَعْبَةُ الْغَرَاءُ وَالْمُنْحَنَى
فَاسْتَبْشِرِي بِأَمْقَلَتِي بِاللِّقَا
قَدْ ذَهَبَ الْهَمُّ وَزَالَ الْعَنَاءُ
وَحُصُّ بِالنُّعْمَى، وَحَازَ الرُّضَى
بِاسْمِكَ يَا رَبِّ قَرَنْتَ اسْمَهُ
صِفَاتُهُ الْعَلِيَاءُ، كُلَّ الْوَرَى
مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى اسْمَهُ
بَدْرٌ دُجَى، أَصْحَابُهُ أَنْجُمٌ

وَهَذِهِ الرُّوْضَةُ وَالْمَنْبَرُ
مِنْ نُورِهِ السَّاطِعِ مَا يُبْهِرُ
فَمَا لِأَجْفَانِكَ لَا تُنْطِرُ
فَمِثْلُهُ الْأَعْيُنُ لَا تَنْظُرُ (٢)
وَأَيُّ كَسْرٍ فِيهِ لَا يُجْبَرُ
كَانَتْ قَنَادِيلُ بِهِ تَزْهَرُ
مَوْطُوءَةٌ فِيهِ لِمَنْ يَخْطُرُ
فِي هَذِهِ الْحَضْرَةِ مُسْتَضْفَرُ
وَالْجُودِ وَالسُّودْدِ وَالْمُتَجَرُّ
وَمِنْ شَذَاهَا الْمِسْكُ وَالْعَنْبَرُ
لِمَا حَوَتْ، وَالْفَلَكَ الْأَنْوَرُ
وَالْحَجَرُ، وَالْأَسْتَارُ وَالْمِشْعَرُ
فَمَنْ رَأَى الْأَحْبَابَ يُسْتَبْشِرُ
وَكُلُّ مَا يُخْشَى وَمَا يُحْذَرُ
وَأَرْغَمَتْ حَسَادَهُ (.....) (٣)

فَإِنَّهُ يُذَكِّرُ إِذْ تُذَكَّرُ
عَنْ حَضْرَتِهَا، وَالْقَطْرُ لَا يُحْصَرُ
بِقَوْلِهِ: (فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ)
بَحْرٌ نَدَى، أَنْثَلَهُ أَبْحَرُ

(١) عن مجموع بمكتبة ابن يوسف بمراكش رقم ٣٥٩.

(٢) يبدو أن بيتا قبل هذا سقط.

(٣) كلمة غير مقروءة.

يَا مَنْ لَهُ جَاءَ عَظِيمٌ، وَمَنْ
يَا أَرْفَعَ الْخَلْقِ مَقَامًا وَيَا
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ وَيَا شَافِعًا
ذَخِيرَتِي حُبُّكَ يَا مُصْطَفَى
يَا كَاشِفًا دَاءَ مُقِيمًا وَلَا
قَدْ عَجَزْتُ عَنْ طِبِّهِ قُدْرَتِي
وَقَدْ تَوَسَّلْتُ إِلَى اللَّهِ فِي
فَاشِفَعٍ، فَإِنِّي بِكَ مُسْتَشْفِعُ
وَارْحَمْ، فَإِنِّي بِكَ مُسْتَرْجِمُ
وَاعْظِفْ عَلَى الْعَبْدِ الْمُسِيءِ الَّذِي
يَرْجُو نَدَى رَحْمَاكَ يَا ذَا الْعَلَا
فَلَا تُخَيِّبْ فِيكَ تَأْمِيلَهُ
يَا رَبِّ، يَا اللَّهَ، يَا سَيِّدِي
إِنْ لَمْ تَذَارِكْنِي بِلُطْفٍ فَيَا
قَلِي ذُنُوبٍ أَثْقَلْتُ كَاهِلِي
يَا مُسْتَجِيبًا دَعْوَةَ الْمُتَبَلِّغِي
فَأَنْتَ قُلْتَ: اسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ
وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى الْمُصْطَفَى
وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ الْأَلَى
مَا هَامَ صَبٌّ وَهَمَى عَارِضُ

لَهُ لِيَوَاءَ الْحَمْدِ وَالْكَوْثَرُ
أَجَلَ مَنْ يَنْهَى، وَمَنْ يَأْمُرُ
وَالنَّاسُ فِي حَشَرِهِمْ حَيْرُ
فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مَا يُذْخِرُ
يَشْفِيهِ إِلَّا مَنْ بِهِ أَخْبَرُ
رَفَعْتُ شُكْوَايَ لِمَنْ يَقْدِرُ
شِفَاءِ دَاءِ بِكَ يَا مُنْذِرُ
وَانْصُرْ، فَإِنِّي بِكَ مُسْتَنْصِرُ
وَاجْبُرْ فَإِنِّي بِكَ مُسْتَجْبِرُ
أَتَى لِإِحْسَانِكَ يَسْتَمْطِرُ
فِي مَوْقِفِ أَهْوَالِهِ تُذْعِرُ
فَأَنْتَ فِيهِ الشَّافِعُ الْأَكْبَرُ
وَيَا عَلِيمَ الْغَيْبِ مُسْتَتِرُ
خَسِرَى وَخَيِّبَةً مَنْ يَخْسِرُ
إِنْ لَمْ تَكُنْ تَغْفِرُ، مَنْ يَغْفِرُ
وَدَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ إِذْ يَجَارُ
وَإِنِّي جُنْتُكَ مُسْتَغْفِرُ
وَالِهِ مَا جَادَتْ الْأَبْحَرُ
لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَتَى يُذَكَّرُ
وَسَارَ رُكْبٌ أَوْ سَرَى عَسْكَرُ

وقال القاضي عياض رحمه الله^(١):

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ أَسْتَمِطِرُ الْفَضْلَا وَأَسْتُكْشِفُ الْبَلَوَى وَأَسْتَعِطِفُ الطُّوَلَا
دَعَوْتُكَ مُضْطَرًّا فَعَجَلْتُ إِيَّاهُنِي بِتَفْرِيجِ كَرْبٍ، طَالَمَا وَصَلَ الْهَوَلَا
وَأَنْتَ مَلَاذِي، يَا مُرَادِي وَسَيِّدِي فَسَامَحَ مُسِيئًا قَدْ جَنَى الْجَدَّ وَالْهَزَلَا
نَدَاءُ مَدَى الْأَعْمَارِ: يَا قَالِقِ النَّوَى وَيَا سَامِعِ النَّجْوَى وَيَا مَنْ هُوَ الْأَعْلَى
يَتِيمٌ مِنَ الطَّاعَاتِ، عَفْوُكَ يُرْتَجَى قِهِ الْفَقْرَ، وَالْإِفْلَاسَ وَالْفَقْدَ وَالذُّلَا
إِلَهَ، لَكَ الشُّكْوَى يَقُومُ تَسْرَبُلُوا رَدَاءُ مِنَ الْبَلَوَى أَذَاعُوا بِهِ الْوَيْلَا
سَأَلْتُكَ بِالْمُخْتَارِ.....^(٢)

بَجَاءِ رَسُولِ اللَّهِ فَارْحَمْ تَضَرُّعِي وَنَفْسُ هُمُومِي كُلُّهَا: الْفَرَعُ وَالْأَصْلَا
لَجَأْتُ إِلَى بَابِ الْكَرِيمِ لِفَاقَتِي فَلَيْسَ لَنَا مَغْنٍ سِوَاهُ وَلَا مَوْلَى
كُنَيْيَا، غَرِيْبًا، بِافْتِقَارٍ وَضِيعَةٍ ذَلِيلًا حَقِيرًا، أَهْمَلُ الْفَرَضَ وَالنَّفْلَا
.....^(٣)

فَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنْ عِلَّاكَ صَوَاعِقًا تَصِيرُ مَدَى الْأَعْمَارِ أَخْبَارَهَا تُتْلَى
وَصَلِّ عَلَى قُطْبِ الْوُجُودِ مُحَمَّدٍ صَلَاةَ تَعَمُّ الرُّسُلَ وَالصُّحُبَ وَالْأَهْلَا
وَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ وَارْضَ عَنْهُمْ وَجَازِهِمْ (عَنَّا) وَعَنِ الْإِسْلَامِ مَا هُمْ بِهِ أَوْلَى^(٤)

وقال القاضي عياض^(٥):

بُشْرَاكَ يَا قَلْبُ هَذَا سَيِّدُ الْأَمْرِ وَهَذِهِ خَضْرَاءُ الْمُخْتَارِ فِي الْحَرَمِ
وَهَذِهِ الرُّوْضَةُ الْفَرَاءُ طَاهِرَةٌ وَهَذِهِ الْقُبَّةُ الْخَضْرَاءُ كَالْعَلَمِ

(١) نقلًا عن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقمه ١٦٥٤، والصفحات بدون ترقيم.

(٢) ما يلي ذلك غير واضح ولا مقروء، ويعدّه ثلاثة أبيات غير مقروءة.

(٣) بيت غير مقروء.

(٤) لا يستقيم وزن البيت.

(٥) عن مجموع بخزانة ابن يوسف بمراكش رقمه ٣٥٩.

وَمَنْبَرُ الْمُصْطَفَى الْهَادِي وَحُجْرَتُهُ
 فِطْبٌ وَغِبٌ عَنْ هَمُومٍ كُنْتَ تَعْرِفُهَا
 يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي
 يَا سَيِّدِي الرِّسْلَ، يَا مَنْ ضَيْفٌ سَاحَتِهِ
 يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُتَّعِلٍ
 يَا أَشْرَفَ الْأَنْبِيَاءِ، يَا مَنْ شَفَاعَتُهُ
 أَنَا فَقِيرٌ إِلَى عَفْوٍ وَمَغْفِرَةٍ
 فَقَدْ أَتَيْتَكَ أَرْجُو مِنْكَ مَكْرَمَةً
 وَالْحَالُ يَغْنَى عَنِ الشُّكْرِ إِلَيْكَ وَقَدْ
 فَاشْفَعْ لِعَبْدِكَ وَاجْبُرْ قَلْبَهُ فَلَكُمْ
 يَا أَحْمَدُ، يَا أَبَا بَكْرٍ، وَيَا عَمْرُ
 وَقَدْ سَعَيْتُ إِلَى أَبْوَابِ حُجْرَتِكُمْ
 أَتَى لَأَمْرِ الْقُرَى يَرْجُو الْقُرَى كَرَمًا
 فَإِنْ قَبِلْتَ فَإِنِّي قَرِحٌ بِكُمْ
 يَا مَنْ أَجَلَ مُلُوكَ الْأَرْضِ قَاطِبَةً
 فَهَلْ عَسَى نَظْرَةً مِنْكُمْ لِقَاصِدِكُمْ
 مُحَمَّدٌ وَصَحْبَاهُ الَّذِينَ بِهِمْ
 ثَلَاثَةُ بِلَالٍ فِي الْوَرَى عُرِفُوا
 يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، يَا مَوْلَايَ عَبْدُكَ فِي
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ
 مُحَمَّدُ الْمُصْطَفَى وَالْآلُ ثُمَّ عَلَى

وَصَحْبِهِ، وَالْبَقِيعُ دَائِرٌ بِهِمْ
 وَسَلَّ تَلَّ كُلُّ مَا تَرْجُوهُ مِنْ كَرَمٍ
 فَالْعَبْدُ ضَيْفٌ، وَضَيْفُ اللَّهِ لَمْ يَضْمِ
 يَبِيتُ فِي الْأَمْنِ فِي خَيْرٍ وَفِي نِعَمٍ
 يَا أَفْضَلَ النَّاسِ فِي ذَاتٍ وَفِي شَيْءٍ
 عَمْتُ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْوِجْدَانِ وَالْعَدَمِ
 وَأَنْتَ أَهْلُ الرِّضَا يَا سَيِّدَ الْأَمْرِ
 وَأَنْتَ أَكْرَى بِمَا فِي الْقَلْبِ مِنَ أَلَمٍ
 عَرَفْتَ حَالِي، وَإِنْ لَمْ أَحْكِهِ بِفَمٍ
 أَوْدَى بِهِ الْكَسْرُ مِمَّا نَالَ مِنْ جَرَمٍ
 نَزِيلُكُمْ فِي أَمَانٍ غَيْرِ مُنْهَضٍ
 سَعْيًا عَلَى الرَّأْسِ لَاسَعْيًا عَلَى الْقَدَمِ
 مِنْ سَادَةٍ هُمْ بِحَارُ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ
 فِي زُودَتِي وَاغْتِرَابِي وَافِرُ الْقَسَمِ
 فِي بَابِ أَفْضَلِهِمْ مِنْ أَصْغَرِ الْخَدَمِ
 يَغْنَى بِهَا عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
 طِبْنَا وَغَيْنَا عَنِ الْخُسْرَانِ وَالنَّدَمِ
 بِالْعَفْوِ وَالْفَضْلِ وَالْوَفَاءِ لِلذَّمِّ
 بَابِ الرَّجَا يَرْتَجِي أَمْنًا مِنَ النَّقَمِ
 خَيْرُ الْبَرِيَّةِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
 أَصْحَابِهِ مَا سَرَى رُكْبٌ لِرَبْعِهِمْ

وقال القاضي عياض رحمه الله^(١):

أُولِيَاءُ اللَّهِ إِنِّي مَرِيضٌ وَالِدَوَاءُ لَدَيْكُمْ وَالشِّفَاءُ
فَانظُرُوا إِلَيَّ بِفَضْلِكُمْ فِي عِلَاجِي وَاْمْنَحُونِي بِفَضْلِكُمْ مَا أَشَاءُ
كَمْ أَتَانِي فِي جِمَاكُم مِّن سَقِيمٍ زَالَ عَنْهُ سُقْمُهُ وَالشَّقَاءُ
كَمْ أَعْنَتُمْ عَلَى الدَّوَامِ مَرِيضًا فِي فِرَاشٍ، وَقَدْ كَفَاهُ النَّدَاءُ
أَنْتُمْ الْبَابُ وَالْإِلَهُ كَرِيمٌ مَنْ أَتَاكُمْ لَهُ الْمُنَى وَالْهَنَاءُ

وقال الشيخ الفقيه الإمام القاضي عياض بن موسى اليعصبى رضى الله عنه وأرضاه آمين^(٢)

هَذَا الَّذِي وَخَذْتُ شَوْقًا لَهُ الْإِبِلُ هَذَا الْحَبِيبُ الَّذِي مَا مِنْهُ لِي بَدَلُ
هَذَا الَّذِي مَارَأَتْ عَيْنٌ وَلَا سَمِعَتْ أَذُنٌ بِأَكْرَمٍ مِنْ كَفَيْهِ إِنْ سَأَلُوا
هَذَا الَّذِي جَاءَتْ التُّورَةُ شَاهِدَةً بِأَنَّهُ خَيْرٌ مَنْ يَخْفَى وَيُنْتَعِلُ
هَذَا الَّذِي جَاءَ فِي الْإِنْجِيلِ مَبْعُوثُهُ يَتْلُوهُ مِنْ قَبْلِ ذَارُهَا أَنَّهُ الْأَوَّلُ
هَذَا الَّذِي هَتَفَتْ مِنْ قَبْلِ مَوْلِدِهِ بِهِ الْهَوَاتِفُ، وَاشْتَاقَتْ لَهُ الْمُقَلُّ
هَذَا الَّذِي جَاءَتْ الْأَخْبَارُ وَاتَّفَقَتْ قُدُّمًا عَلَى بَعْثِهِ الْأَخْبَارُ وَالْمِلُّ
هَذَا الَّذِي كَانَ مِنْ سَيْفِ بَنِي دِي يَزِينَ مَعَ جَدِّهِ نَبَأٌ مِنْ بَعْثِهِ جَلُّ
هَذَا الَّذِي جَاءَ عَنْ «شَق» لَهُ خَبَرٌ وَعَنْ «سَطِيح» حَدِيثٌ مِنْهُ يَنْتَقِلُ^(٣)
هَذَا مُحَمَّدُ الْمَاجِي وَأَحْمَدُهُمْ هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ (الْمَاحِي) إِذَا جَهِلُوا^(٤)
هَذَا الَّذِي فِي قُرَيْشٍ قَدْ سَمَا نَسَبًا أَبَا، وَأُمَا، فَمَعْنَى الْمَجْدِ مُكْتَمَلُ

(١) عن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقمه ٢٣٢٨ ك.

(٢) عن مجموع بخزانة ابن يوسف براكش رقمه ٣٥٢.

(٣) شق وسطيح كاهنان شهيران عاشا في الجاهلية.

(٤) ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا الماحى الذى يحو

ا لله به الكفر، وأنا الحامش الذى يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب» [الشفا ١/٢٢٩]

هَذَا الَّذِي مَجَّدُهُ مِنْ عَهْدِ آدَمَ لَمْ
 هَذَا الَّذِي كَرَّمَتْ أَبَاؤُهُ وَعَلَتْ
 هَذَا هُوَ ابْنُ ذَيْبِجِ اللَّهِ وَابْنُ خَلِيلِ
 هَذَا هُوَ ابْنُ الذَّيْبِجَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا
 هَذَا الَّذِي أَشْرَفَ الْأَعْمَامُ مِنْ مُضَرٍ
 هَذَا الَّذِي زَهَرَتْ الْأَخْيَارُ كُلُّهُمْ
 هَذَا الَّذِي كَانَ عَبْدَ اللَّهِ وَالِدَهُ
 هَذَا ابْنُ شَيْبَةَ: الْمَشْهُورُ عَنْدهُمْ
 هَذَا ابْنُ هَاشِمٍ: السَّاقِي الْحَجِيجِ نَدَى
 هَذَا ابْنُ عَمِيدٍ مَنَافٍ خَيْرٌ مِنْ نَزَلَتْ
 هَذَا ابْنُ قِصَى، سَيِّدُ جُمُعَتِ
 هَذَا ابْنُ حَامِي النُّمَارِ، الْمُسْتَجَارُ بِهِ
 هَذَا ابْنُ مُرَّةٍ: الثَّلَوُ النَّدَا كَرَّمَا
 هَذَا ابْنُ كَعْبٍ، وَمَا أَتْرَاكَ مِنْ رَجُلٍ
 هَذَا ابْنُ لُؤَيٍّ، كَمِ لِيَوَاءَ عَلَا
 هَذَا ابْنُ غَالِبٍ الْمَغْلُوبُ حَاسِدُهُ
 هَذَا ابْنُ فِهْرِ وَفِهْرٍ لَا نَظِيرَ لَهُ
 هَذَا ابْنُ مَالِكٍ الْمَخْضَرَّ نَائِلُهُ
 هَذَا الَّذِي قَدْ سَمَتْ لِلنَّضْرِ نِسْبَتُهُ
 هَذَا الَّذِي نَالَ مَجْدًا مِنْ خَزِيمَةٍ عَنْ
 هَذَا ابْنُ إِيَّاسٍ، سَاقِي الْقَوْمِ إِنْ عَطَشُوا
 هَذَا الَّذِي أَحْرَزَ الْعُلَيَّاءَ مِنْ مُضَرٍ
 هَذَا الَّذِي لَمَعَدِ قَدْ عَلَا وَإِلَى

يَسِينُهُ شَيْءٌ وَلَا فِي أَصْلِهِ دَخَلُ
 عَنِ السَّفَاحِ قَنْظُمُ الْمَجْدِ مُتَّصِلُ
 لَلِ اللَّهِ، تِلْكَ خِلَالُ مَا بِهِ دَخَلُ
 أَوْفَى وَأَصْبَرُ مَنْ يُتْلَى وَيَحْتَمِلُ
 أَعْمَامُهُ كَمْ وَفَوْا خَطْبًا وَكَمْ بَذَلُوا
 أَخْوَالُهُ بُعْلَاهُمْ يُضْرَبُ الْمَثَلُ
 أَوْفَى الْبَرِيَّةِ: إِنْ قَالُوا وَإِنْ فَعَلُوا
 بِشَيْبَةَ الْحَمْدِ، سَاقِي رُكْبٍ، إِنْ مَحَلُّوا
 وَهَاشِمُ الزَّادِ لِلْأَضْيَافِ إِنْ نَزَلُوا
 بِهِ الْوُفُودُ، فَلَا بُخْلُ وَلَا مَلَلُ
 بِهِ قُرَيْشُ، فَعَادَ الْوُدَّ وَاتَّصَلُوا
 كُلابُ: الْفَارِسِ الْيَقْدَامِ إِنْ وَجَلُوا
 وَالْمَرْءُ بِأَسَا وَنَارُ الْحَرْبِ تَشْتَعِلُ
 مَاضِي الْعَزِيمَةِ: لَا عَجْزٌ وَلَا كَسَلُ
 أَعْلَا بِمَا يَقْتَضِيهِ الْبَيْضُ وَالْأَسَلُ
 وَالْوَاهِبُ السَّالِبُ الْآسَادِ مَا حَمَلُوا
 لَيْثٌ مِثْلُ بَدْرِعِ الْبَاسِ مُشْتَمِلُ
 وَالْجَوَّ غَيْرُ وَمَا فِي غَيْمِهِ نَهْلُ
 إِلَى كِنَانَةٍ مِنْهُ الْمَجْدُ يُتَّصِلُ
 أَبِيهِ (...) الْوَاقِفِي إِذَا مَطَّلُوا
 وَالْمَشْبَعُ الْوَفْدِ، وَالْمُعْطُونُ قَدْ بَخَلُوا
 وَفِي نِزَارِ نَمَتْ أَغْصَانُهُ الدُّلَلُ
 عَدْنَانُ فِي الْمَجْدِ يَسْمُو فِرْعُهُ الْخَضْلُ

هَذَا ابْنُ أَكْرَمِ آبَاءِ سَمَوَاتٍ وَإِلَى
هَذَا الَّذِي أُمُّهُ خَيْرُ النِّسَاءِ فَلَمْ
هَذَا ابْنُ أَمْنَةِ الْمُتِمِّينَ طَائِرُهَا
وَهَبُ بْنُ عَبْدِ مَنْفَى كَانَ وَالِدُهَا
هَذَا الَّذِي لَمْ تَجِدْ فِي وَضْعِهِ تَعَبًا
هَذَا الَّذِي قَدْ بَدَا مَعَ أُمِّهِ مَعَهُ
هَذَا الَّذِي ظَهَرَتْ فِي يَوْمِ مَوْلِدِهِ
هَذَا الَّذِي خَمَدَتْ نِيرَانُ فَارِسَ مِنْ
هَذَا الَّذِي كَسَرَتْ كِسْرَى مَهَابَتُهُ
هَذَا الَّذِي أَمَرَتْ مِنْ أَجْلِ مَبْعَثِهِ
هَذَا الَّذِي مِنْ بَنِي سَعْدِ رِضَاعَتِهِ
هَذَا الَّذِي شَهِدَتْ عَجَبًا حَلِيمَةً فِي
هَذَا الَّذِي قَاضَ دُرًّا تَدْيِهَا كَرَمًا
هَذَا الَّذِي دَرَّ حَالَ الْجَذْبِ شَارِفُهَا^(١)
هَذَا الَّذِي عِنْدَمَا سَارَتْ بِهِ جَعَلَتْ
هَذَا الَّذِي قَلْبُهُ جَبْرِيلُ طَلْهَرُهُ

هَذَا ابْنُ أَكْرَمِ آبَاءِ سَمَوَاتٍ وَإِلَى
هَذَا الَّذِي أُمُّهُ خَيْرُ النِّسَاءِ فَلَمْ
هَذَا ابْنُ أَمْنَةِ الْمُتِمِّينَ طَائِرُهَا
وَهَبُ بْنُ عَبْدِ مَنْفَى كَانَ وَالِدُهَا
هَذَا الَّذِي لَمْ تَجِدْ فِي وَضْعِهِ تَعَبًا
هَذَا الَّذِي قَدْ بَدَا مَعَ أُمِّهِ مَعَهُ
هَذَا الَّذِي ظَهَرَتْ فِي يَوْمِ مَوْلِدِهِ
هَذَا الَّذِي خَمَدَتْ نِيرَانُ فَارِسَ مِنْ
هَذَا الَّذِي كَسَرَتْ كِسْرَى مَهَابَتُهُ
هَذَا الَّذِي أَمَرَتْ مِنْ أَجْلِ مَبْعَثِهِ
هَذَا الَّذِي مِنْ بَنِي سَعْدِ رِضَاعَتِهِ
هَذَا الَّذِي شَهِدَتْ عَجَبًا حَلِيمَةً فِي
هَذَا الَّذِي قَاضَ دُرًّا تَدْيِهَا كَرَمًا
هَذَا الَّذِي دَرَّ حَالَ الْجَذْبِ شَارِفُهَا^(١)
هَذَا الَّذِي عِنْدَمَا سَارَتْ بِهِ جَعَلَتْ
هَذَا الَّذِي قَلْبُهُ جَبْرِيلُ طَلْهَرُهُ

(١) انظر تصليحة القاضي عياض في ملحق النثر، ففيها ذكر كثيرا مما ورد هنا وخاصة الأحداث التي وقعت في مولده - صلى الله عليه وسلم.
(٢) الشارف من النوق: المسنة المرمية.
(٣) هنا وقف الناسخ، وترك بيضا يقدر بأربع صفحات، وبناء القصيدة يوحى بأنها كانت ضمت ما هي عليه.

ثانياً: نثره

قال الشيخ الفقيه العالم القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، رحمه الله: ^(١)

«قال الله العظيم في محكم كتابه الحكيم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ صَلُّوا وَسَلِّمُوا وَتَوَسَّلُوا بهذا النبي، الذى فضله الله تفضيلاً، واتخذته حبيباً وخليلاً، وأنزل عليه القرآن تنزيلاً، وتبتل لربه تبتيلاً، وسبح بحمده بكرة وأصيلاً، فأنا لله ثواباً جزيلاً، ورزقه من كل علم تأويلاً، ووفقه لسنته التى ليس لها تحويل ^(٢) وكان له معينا وكفيلاً، وختم به رُسُلَه، ونهج على يديه الكريمتين سُبُلَه، وزكى فعله وعلمه وفهمه وعقله وعظمه، وحكمه وعدله، وكرمه ونعمه ودلله، وبالشفاعه فضله تفضيلاً، على كل ما يأتى بعده وكل من تقدم قبله، وانتخبه وطهره، وطيبه وعصمه وحجبه وأدبه، واختاره لحبه وقربه، وخط اسمه مع اسمه سطرًا على العرش وكتبه، وخصه بالفضائل وشرفه بالفعائل، وصدقه فيما هو قائل، وختم برسالاته الرسائل، وصلى الله عليه، والصلاة عليه من أعظم الوسائل، صلى عليه الملك العلام، هو وملائكته الكرام، وأمر جميع الأنام بالصلاة عليه والسلام، إلى يوم البعث والقيام، فقال من لم يزل غفوراً رحيمًا، إجلالا لنبيه وتعظيمًا، وولاية له وتقديما، وتشريفا له وتكريما، وإرشادا لعباده المؤمنين وتعلينا:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ^(٣).

(١) عن مجموع مسجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ ق، ورقة ١٩.

(٢) فى الأصل: تحويلا.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

صلوا وتوسلوا بالنبي الأمي، الهاشمي القرشي، الأبطحي المكي، المدني الحرمي، الزمزمي الحجازي، التهامي العربي، التقي النقي، الوفي القوي، الزكي الذكي، البهي النهي، السني السمي، السخي الصفي، العفي الكفي، المستضيء الرضي، المرضي الذي جاء بالكتاب المضيء وبالدین الحنفي، والقول الشرعي، والحكم الجلي، والمقام العلي، ومكنه الله بلفظه الحفي، وحقق له إنجاز وعده الوفي، فأشرق بالآفاق أنواره، وتكررت في المسامع أخباره، وظهرت للأبصار معجزاته، وبلغ حجة الله وتمت بها كلماته، وختم الله به رسله وأنبياءه، وأمر القمر بطاعته فأجاب بالتلبية عند ندائه، وانشق وتفرق، عند سدة المنتهى بالاتفاق^(١) وصار نصفه بالغرب ونصفه بالشرق، وسطع وشرق، وتكلم ونطق، فأمن من تقدم له السعد وسبق، وكفر من للشقاء خلق.

* نبي ركب البراق، وغاب عن الأبصار والأحداق، واخترق الهوى والفضا والسبع الطباق، إلى مئى جاءت الخلاق، فتلقاه^(٢) بأحسن تلاق، وكلمه بلسان الرحمة والاشفاق، فسبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى مسجده الأقصى إلى حضرة عرشه، فتجلى له بقدسه، وأنسه بلطفه، فأمن من خوفه، وبلغ غاية أمله، ومشى على بساط العزة بنعله، ودنا من ربه، حتى تناول ثمار القرب بيده، دنا فتدل ولم يتأن، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فبلغ كل وصل ومئى، وأعطى جميع ما تمئى، فسجد شكراً على بساط عزة الله، والحمد لله، فقال في سلامه على الله: التحيات لله، الطيبات لله، الصلوات لله، فتم الله عليه إنعامه، وأصل إكرامه وشرف مقامه، ورد عليه سلامه، كما صح عند أهل العلم إثباته، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، فرفعت له الحجب^(٣) حتى سلم الحبيب على المحبوب، كما سبق في أم الكتاب مكتوب، ونال كل مطلوب، وبلغ غاية المرغوب، وشفعه الله في أهل كبائر الذنوب، فطار بالأمان وبالإسلام

(١) انظر في انشقاق القمر: الشفا ٢٨٠/١.

(٢) يظهر من السياق أن كلاما سقط.

(٣) وردت قصة الإسراء والمراج في الشفا ٢٠٣/١.

والإيمان، وبتلاوة القرآن، وبصيام رمضان، وكلمه الرحمان، من غير واسطة ولا ترجمان، فنزل من أدراج، والليل باق في داجه، وبشر نفراً من أصحابه وأزواجه، بما عاين في معراج.

* نبي له وسيلة وفضيلة، وطلعة بهية جميلة، وأخلاق عظيمة، وذات جليلة، وصفات تامة عجيبة، وأفعال كريمة، وأقوال بليغة، وخصال حميدة، قدّه متوسط ما بين الحالتين، غصن بين غصنين، شعره إلى شحمة الأذنين، أزج الحاجبين^(١)، كحيل المقلتين، أزهر الوجنتين^(٢)، أقي العرينين^(٣)، شثن الكفين^(٤)، خمسان الأخصين^(٥)، مسيح القدمين^(٦)، أحنى على أمته من الوالدين، في شعره سبع^(٧)، وفي عينه دعج^(٨) وفي وجهه بلج^(٩) وفي ثغره فلج^(١٠)، وفي ريقه شفاء وفرج، إذا قضى كان أعدل الناس، وإذا أعطى كان أبذل الناس، وإذا رضى كان أجمل الناس، وإذا مشى كان أعدل الناس^(١١)، وإذا جلس كان أكمل الناس، وإذا تكلم أنصت الناس، وإذا وعظ أبكى الناس، صاحب الوجه المليح، واللسان الفصيح، والقول النصيح، والعقل

(١) أزج الحاجبين: دقيق الحاجبين مع امتدادها إلى مؤخر العينين [أنظر نسيم الرياض ١/٣٣٠].

(٢) أزهر الوجنتين: أزهر قيل: نير، وقيل حسن، ومنه زهرة الحياة الدنيا، وقيل أبيض مشوب بحمرة [نسيم الرياض ١/٣٢٨].

(٣) أقي العرينين: العرين: الأنف، والمقصود أحذب الأنف. [نسيم الرياض ١/٣٣٠].

(٤) شثن الكفين: فقد ورد أنه كان - صلى الله عليه وسلم - شثن الكفين والقدمين، والشثن بمعنى الفليظ، وعن أنس - رضى الله عنه: «ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين وأنعم من كف رسول الله - صلى الله عليه وسلم» [نسيم الرياض ١/٣٣٢].

(٥) خمسان الأخصين: متجانى أخص القدم، وهو الموضع الذي لا تتأله الأرض. [نسيم الرياض ١/٣٣٣].

(٦) مسيح القدمين: أملسها ولا لحم عليها، [أنظر نسيم الرياض ١/٣٣٣].

(٧) سبع: خرز أسود (دخيل معرب).

(٨) دعج: شدة سواد العينين مع سمتهما، وقيل سواد السواد وبياض البياض [نسيم الرياض ١/٣٢٩].

(٩) بلج: البلج نقاء ما بين الحاجبين من الشعر. [نسيم الرياض ١/٣٢٩].

(١٠) فلج: الفلج تباعد ما بين الثنايا أو ما بين الأسنان [نسيم الرياض ١/٣٣٥].

(١١) يقصد في مشيته.

الرجيح، والدين الصحيح، والنسب الصريح، من بَشَّرَ به الكلم^(١) والمسيح، وأخبر به الخليل والذبيح، بحر الإنعام، فخر الأنام، بدر التمام، الذى بنوره أجلى الله الظلام، وذل الكفر وعزَّ الإسلام، وظهر الحق ودام، وزهق الباطل فلم يقم.

فى مولده تنكست الأصنام، وبطل علم الكهنة حتى كأن لم يعلم، وسقطوا عن أسيرتهم وزعقوا زعقة الحَيَّام، وحرسَت السماء بالشهب فلم ترم، والجنة يهتفون لا يدرون أشر أريد مِن فى الأرض أم الرشد والاستقام^(٢)، وغاصت بحيرة (سماوة)^(٣)، فكأنها لم تجر يوما من الأيام، ويس نهر سماوة فى الشام، وخمدت نار فارس فلم تعبد ولم تظهر، وطار التاج عن رأس كسرى فى المقام، وتصدَّع إيوانه وارتج وأيقن بالانهدام، وأشرقت الأرض بالنور، وارتفعت فيها أعلام، رأت آمنة أشياء لا تستطيع لها إعلام، مما غشيتها من الأنوار العظام، لم تدر أفى اليقظة هى أم فى المنام، وفسح مجلسها ورأت فيه صوراً لم تر مثلها فى المنام، ولم تجد عند حمله ما يجذ النساء من الأوحام، ولم تحس به ثقلاً ولا انتفخت لها بطن ولا تحرك فى الأرحام، ولم تجد عند وضعه ماء ولا ألماً من الآلام، ولا شعرت بخروجه حتى رأتة ساجداً للملك العلام، فلما نظرت إليه أسرع فى وجهها الابتسام، وأراد أن يكلمها فأمسك الله لسانه عن الكلام، فإذا بغمامة قد نزلت من السماء لا تشبه الغمام، وفيها جماعة من الملائكة الكرام، فازدحموا عليه أى ازدحام، وسلّموا عليه بأحسن سلام، ونادوه يا وجيه، يا محمد، يا نعيم الغلام، وأمه فى قلق واحتشام تناديه: بالله خلّوا ولدى واتركوه، ولا تأخذوه منى فتولموا قلبى وتوجعوه، فسمعوا مقاتلتها وما جهلوه، وقالوا لها أمرنا بهذا الإله لا نعصيه، فحملوه ورفعوه، وعرجوا به للسماء وعن بصرها غيبوه، وطاقوا على الأنبياء وللملائكة نعتوه،

(١) موسى عليه السلام.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: «وانا لا ندرى أشر أريد من فى الأرض أم أراد ربهم رشداً»

[الجن ١٠].

(٣) سماوة: موضع يعينه (لسان العرب)

وإلى رضوان خازن الجنان دفعوه، وفتحوا له الجنة ودخلوه، ففرح به الحور العين وقَبَلوه وكَحَلوه ودهنوه، وبالمسك الأذفر طيبوه، وفي حريرة خضراء قَمَطوه، ونزل به الملائكة واستنزلوه، وبشروا به طيور الهواء وحُوت الماء وإلى والدته ردوه، وعزلوه عنها وأفردوه، وفي بيت خلى تركوه، وكل ذلك بأمر الله صنعوه، وهتفوا به من كل مكان، ونادوها بأفصح لسان: يا آمنة يا أمة الرحمن بشرى لك، لك الأمان، هذا الوجيه، هذا المجيب، هذا أحمد، هذا محمد العدنان، هذا المبعوث في آخر الزمان، هذا الذى سيق فى الكون جميع الأكوان، هذا الذى ببركته تاب الله على آدم من العصيان، هذا الذى بحرمته نجا قوم نوح من الطوفان، هذا الذى من أجله رفع ادريس لأعلى مكان، هذا الذى فى صُلب ابراهيم لم تحرقه النيران، هذا الذى يكون لعيسى روح الله على أمته سلطان، هذا الذى ترضعه من النسوان، حليلة التقية النقية الطاهرة الألبان، هذا الذى لا يدخل عليه فى هذا المكان إنسية ولا إنسان، إلا تمام ثمانية أيام متواليان، هذا المعصوم من الشيطان، الذى صح عند أهل الإسلام والإيمان، هذا الذى يكل عن وصف فضله اللسان.

ولما انقطعت عنه زيارة ملائكة الرحمان، وأبرزته أمه للعيان، أته النسوة من كل مكان، يرغبن فى رضاعته لحسنه لا لشيء من الإحسان، ولما وضع الله فى قلوبهن من الرأفة والحنان، فلم يقبل المراضع، وهو فى عزّة القانع الشابح، لا فى ذلة الجائع الضائع، صائم فى قباطته غير جائع، أته حليلة وبعلمها راغب خاضع، فرضع منها اليمين ولم يمس اليسار، وهذا من عدله فى عهد الصغار، فسرت به حليلة وسارت وقد حَفَّتْها الأنوار، فلقبها فى بعض الطريق جماعة من الأخبار، كان خروجهم فى طلب الحيلة على المختار، فلما رأوه عقلوه بما عندهم من الآثار، وصاح به كبيرهم ما هذا الانتظار، اقتلوه يبق لكم الملك إلى سالف الدهر وانقضاء الأعمار، فجرّدوا سيوفهم وقد علاهم الفرح والاستبشار، وظنوا أن لا مانع له فى تلك القفار، وحليمة تنادى: يا ستار، لا تهتك الأستار، ودمعها على خدّها مدرار، وبعلمها فى دهشة وافتكار، قد ركن إلى الفرار، وأشار إليها، أن ألقيهم، ما بعد الجهد من عار، فقالت له: يا ابن الأحرار الأخيار، أأمرنى بفعل

الأسواء الأشرار، وله إله قاهر جبّار، يجيب المستجير ويمنعه ويمنعنا ببركته من هؤلاء الفجار، فوَحِّقْه لا أَلْقِيهِ إِلَيْهِمْ ولو انتشرتْ بالمنشار، فلما أن كادت تصل إليها سيوف الكفار، إذا بمحمد قد فتح عينيه فأضاء الأفق واستنار، ودعا الله باللسان الخفى لا بالجهر والإظهار، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم وعجل مصيرهم إلى النار.

وفى رضاعه وفطامه أخبار وإثما قصدنا الاختصار.

هو الحبيب، هو الخليل، هو الكريم البذل الجزيل، القائم بذكر الله في آناء الليل الطويل، العامل بسنة الله التي ليس لها تحويل، صاحب الوجه الجميل، والخذ الأسيل، والطرف الكحيل، والقدر الجليل، والعرف الخصيل، والشرف الأصيل، والكف الثقيل، والتكبير والتهيل، والتفسير والتأويل، والتيسير والتسهيل، من أخبر به التنزيل، وبشّر به التوراة والإنجيل، الموقر المعز، صاحب الخطبة والمنبر، والعمامة والمغفر، والقضيب والمحشر، والحوض والكوتر، والجبين الأزهر، والطرف الأحور، والوجه الأقمر، والريح الأعطر، والحسب الأظهر، والجد الأكبر، من بشّر وأنذر، وحج واعتمر، وحلق ونحر، وهرول ونفر^(١)، ورمى بالحجار وهلل وكبر، وحمد وشكر، وصام وأفطر، وجاهد وانتصر، وقاتل من كفر، ونهى عن الفحشاء والمنكر، ويدين الله أمر، الطاهر المطهر، المنتخب من أخيار مضر، المؤيد المنصور، المجدد المشكور، صاحب اللواء المنشور، والجيش الجسور، والبدن الصبور، والقلب الشكور، واللسان الذكور، والبهاء والنور، والولدان والخور، والغرفات والقصور^(٢)، النبي الأواب، السخي الوهاب، الناطق بالصواب، الذي لا يغلط في الخطاب، ولا يعجزه الجواب، من خضعت له الرقاب، وتواضعت له الصعاب، ولانت له الصم الصلاب، وتاهت بحبه الألياب، وتحيرت في وصفه النجائب، فلا ينحصر في كتاب، ولو تكون له الملائكة كتاب، دعا إلى الله الأعجام والأعراب، وهجر بدين الله الأهل والأقارب، وقاتلهم في الله تعالى حتى ظهر دين الله وأناب، ونصره الله وهزم الأحزاب، ونزلت لنصره على خيول يلقى بعمائم صفر تهاب، في يوم بدر يقدمهم

(١) إشارة إلى مناسك الحج.

(٢) في الجنة.

جبريلُ بلا ريب ولا ارتياب، فقال المصطفى: شأنت الوجوه، ونفخ في وجوههم يقبضة من تراب، فأمر الله الريح فسُرت بقبضته فأصابت بها عيون المشركين أعم مصاب، حتى لم تبق لهم (....)^(١) إلا وأصاها من تلك القبضة تراب، ودعا لأهل المدينة فأسرع لدعائه السحاب، وعاجله المطر قبل نزوله من المنبر إلى المحراب، وتواتر صبه من الجمعة إلى الجمعة بصب صباب، ثم دعا بالصحو والطيبات فبرزت الشمس وتفرق السحب عنها وذاب، النبي المكرم، الصفيّ المحترم، الحاشر الذي يحشر على عقبه الأمم، الماحي الذي يمحو الله به الزلل والإثم، سيد ولد آدم، وشفيع من عصى وندم، وزل به القدم، عهدنا الذي لا ينقضي، وحبلنا الذي لا ينصرم، من ضمن لأمته الشفاعة، وهم في عدم العدم. النبي المهذب، الحبيب المقرب، الطاهر المطيب، المختار المنتخب، خير الأعاجم والعرب، وأشرفهم في الحسب والنسب، وأعرفهم بالعلم والأدب، لآحق من هرب، ومآحق من كذب، وغالب من غلب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، خاتم الأنبياء، وقدوة الأصفياء، وجوهرة الأولياء. وإمام الأتقياء، وشفيع الأشقياء، من غطى بشاره زكريا^(٢). وزهاده يحيى، ولولاه لم تكن آخرة ولا دنيا، ولا سما مبنياً، ولا أرضاً مدحجياً^(٣)، ولا جبلاً مرسياً، ولا خرج من العدم شيء من الأشياء.

نبي الثقلين، وإمام الحرمين، وسيد الكونين، وخير الفريقين، وصاحب الخطبتين: الجمعة والعيدين، وجدّ السبطين: الحسن والحسين، وابن الذبيحين^(٤)، من نصره الله بيد رحمن، وستره في الغار فلم تره عين، خاتم النبيين وإمام المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين، من خصه الله بالفتح المبين، وسماه طه ويس، المطاع المكين، الصادق الأمين، قائد الغر المحجلين، وكهف اليتيم والمسكين، وسيف الله المسلول على أعدائه المشركين، ورحمة الله المنشورة لعباده المؤمنين، العروة الوثقى، التي ليس لها انفصام، من تمسك بها فاز

(١) هكذا في الأصل. ولعلها (عين).

(٢) قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم ١٩].

(٣) من قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات ١٧٩].

(٤) وهما إسماعيل عليه السلام، وعبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ.

بها بدار السلام، وصار في نعمة من لا يخفر له ذمام، عبد الله ورسوله، وحبيبه ونجييه، وأمينه وتقيّه، وصديقه ورَضِيّه، وحجته على جميع خلقه الذي اختاره لوَحِيّه، وقرن حقه بحقه، وصدقته بصدقته، وكتب اسمه مع اسمه، ورفع ذِكْرَه بذكره، وجعل له الأرض مسجداً طهوراً وأحل له الغنائم وكانت حَجراً محجوراً، ونصره الله بالرعب سنين وشهوراً، وأنزل عليه القرآن هدى ونوراً، فانتظم لفظه مسطوراً، فأحيا نفوساً وأشفى صدوراً، وبعث إلى الأحمر والأسود سيباً كان مشكوراً، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح في المقالة، وسد مسلك الضلالة، وقاتل أهل الشرك والجهالة، المختار من تهامة، المخصوص بالتاج والعمامة، واللواء والحوض والكرامة، الشفيع في أهوال يوم القيامة المنقذ من الحسرة والندامة، الداعي إلى النجاح والسلامة، نبي أظلمته الغمامة، وكلمته الغزالة^(١)، وبشر به مبارك الياومة^(٢)، ودلت عليه الشامة والعلامة، وكان يرى ما خلفه كما يرى ما أمامه، وكلمه الذراع المسموم^(٣) وشكا له البعير المظلوم^(٤)، وأحيا للعجوز ولدها^(٥)، فشبّ في المدينة حتى جاوز الحلم، وصدع بأمر الله صدعا، وقمع الباطل قمعا، وجمع الناس على الهدى جمعا، واتخذ الزهد ذرعا، والحلم طبعاً، والرفض صنعا، والعلم أصلاً وفرعاً، وأوقى من الآيات البيّنات ألّفاً إن كان أوقى موسى تسعاً، فما تفجر البحر بأعجب من أنامله^(٦)، إذ انبعث بالزلزال نبعا،

-
- (١) انظر فصل في احياء الموق (الشفاء ٣١٦/١).
 (٢) مبارك الياومة: ورد في الشفاء (٣١٩/١) «أن النبي ﷺ أتى بصبي قد شب ولم يتكلم قط، فقال: من أنا؟ قال: رسول الله.. ثم أن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب فكان يسمى مبارك الياومة.
 (٣) انظر الشفاء ٣١٦/١، ٣١٧، ٣١٨.
 (٤) جاء في حديث الجمل، أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه، وفي رواية: أن النبي ﷺ قال: إنه شكا كثرة العمل وقلة العلف... [انظر فصل الآيات في ضروب الحيوانات ٣٠٩/١].
 (٥) ورد في الشفاء (٣٢٠/١) «وعن أنس أن شاهبا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء فسجّيناه وعزيناها، فقالت: مات ابني؟ قلنا نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى رسولك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملني على هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف التراب عن وجهه، فطعم وطعمنا».
 (٦) الشفاء ٢٨٥/١ «فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته» ومنه «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، فالتبس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضأوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه».

وما بجيء الشجر^(١) يجر عروقه كرجوع العصا حيّة تسعى، وكم من معجزة له تبهر، وآية له من أختها أكبر، رجعت له الشمس بعد الغروب حتى صلى العصر^(٢) وَحَنَ له الجذع^(٣) وانشق القمر^(٤)، وسلّم عليه الذيب^(٥) وكلمه الحجر^(٦) وبعثه الله رحمة للعالمين، وذهمة للمسلمين، وعصمة للتائبين النادمين، ونقمة للظالمين، واستخرجه الله من شجرة مباركة طيبة، ياسقة عطرة ناعمة، نبت من الخليل عودها، وأتسق بإسما عيل عمودها، واتصل بعدنان عنقودها، وتم بمحمد ﷺ صعودها، يا لها من شجرة تبث في أرض الصفا، وقامت على ساق الوفا، وسقيت بماء الاكتفا، لامعة البهاء، مشرقة الضياء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، الحق زهرتها، والصدق ثمرتها، والحلم ورقها، والعلم جنتها، والهدى قنوانها، والتقوى أفنانها، من تعلّق بها سلم، ومن لجأ إليها (....) من استظل بها غنم، ومن عاندها حطم، ومن خاصمها قصم.

(١) انظر «فصل في كلام الشجر، الشفا ٢٩٨/١» وانظر أيضا «فصل في قصة حنين الجذع». ومن الأول: «عن ابن عمر قال: كتب مع رسول الله ﷺ في سفر فدننا منه أعراي، فقال: يا أعراي، أين تريد؟ قال إلى أهل، قال هل لك إلى خير، قال وما هو: قال تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة السرة وهي بشاطئ الوادي فأقبلت تحم (أي تشق) الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدا ثلاثا فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها».

(٢) ورد في الشفا (٢٨٤/١) «أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ أصليت يا علي؟ قال: لا، فقال: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاررد عليه الشمس. قالت أساء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقفت على الجبال والأرض وذلك بالصباح في خير».

(٣) انظر «فصل في قصة حنين الجذع» وفيه: «قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفا على جنوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار (التوق الحوامل) [الشفا ٣٠٤/١]».

(٤) انظر «فصل انشقاق القمر وحسب الشمس» ومنه: «عن أنس، سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يرمم آية، فأراه انشقاق القمر مرتين حتى رأوا حراء بينها» [الشفا ٢٨٢/١]».

(٥) انظر قصة الذيب في الشفا ٣١٠/١.

(٦) وعن الشفا، «أخذ النبي ﷺ كفا من حصى فسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم صبّهن في يد أبي بكر رضي الله عنه فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن [وانظر فصل: ومثل هذا في سائر الجهادات] [الشفا ٣٠٦/١]».

هذا وقد تعددت الإحالة على الشفا، والنقل عنه دون غيره من كتب الشائات لتتم المقارنة بين الشفا «والتصلي».

اشهدوا يا من حضر، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً، اشهدوا وأيقنوا وتحققوا أن ما خلق الله أتقى، ولا أنقى، ولا أوفى، ولا أصغى، ولا أعفى، ولا أكفى، ولا أشفى، ولا أفضل، ولا أكمل، ولا أجمل ولا أبجل، ولا أعقل، ولا أعدل، ولا أفلح، ولا أفصح، ولا أنصح ولا أصلح، ولا أنجح، ولا أرجح، ولا أسمح، ولا أراف ولا أعرف، ولا أشرف، ولا أنظف، ولا أظهر، ولا أشهر ولا أنور، ولا أزهر، ولا أبصر، ولا أشكر، ولا أذكر، ولا أبر، ولا أصوم، ولا أقوم، ولا أكرم، ولا أرحم، ولا أعلم، ولا أفهم، ولا أعظم، ولا أزعم، ولا أنعم، ولا أنفق، ولا أشفق، ولا أرفق، ولا أسبق، ولا أصدق، ولا (....) ولا أعبد، ولا أزهد، ولا أرشد، ولا أمجد، ولا أنجد، ولا أوجد، ولا أوحّد، ولا أحمد، ولا أصعد، ولا أسعد، ولا أشجع، ولا أبرع، ولا أوزع، ولا أكرع، ولا أنفع، ولا أمتع، ولا أشفع، ولا وطىء الثرى، ولا أحيا البراء، ولا ولدت ثيب ولا عذراء، ولا يلدن أبد الآباد مثل نبينا محمد ﷺ، ما نطق ناطق، وما طرق طارق، وما نر شارق، وما فاح عابق، وما لاح بارق، وما صاح عاشق، وما دامت المغارب والمشارق، وشرف وكرم ومجد وعظم، ورضى الله عن كافة أصحابه أجمعين، وعن أنصاره وأصحابه الخلفاء الراشدين، وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعن الحاضرين المستمعين، وعن سائر المسلمين والمؤمنين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً واجعل لنا بالصلاة عليه أجراً عظيماً.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله
 هنا انتهت الخطب التي دونها أبي، رحمه الله، ورضى عنه، من انشائه، وقرئت
 عليه مدة حياته، وبعد وفاته، رحمة الله عليه آمين^(١).
 خطب أخرى صنعها بعد تدوين هذه، فنقلتها من مبيضاتها هنا، وأثبتها
 ليجتمع شملها، ويكمل تدوينها^(٢). فمن ذلك خطبة يحرض فيها على الاستعداد
 وحمل الزمار:

«الحمد لله الذي هدانا لهذا برحمته، وشرح لنا صدورنا لمعرفته، وأكرمنا بالإسلام،
 وأنشأنا على فطرته، وأخرجنا إلى نور الهدى من ظلمة الشك والالتباس، وجعلنا
 من خير أمة أخرجت للناس، أحمدوه وهو الذي لا يحمد بالحقيقة سواه، وأؤمن به
 إيمان من حقق أن كل شيء من مبداه وإليه منتهاه، وأشهد أن لا إله إلا الله
 وحده لا شريك له، المنزه عن الأنثاد والأشباه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
 ومحجته ومصطفاه، شفيع يوم العرض، وصاحب اللواء والحوض، وأفضل من
 مشى على وجه الأرض، ﷺ، وعلى آله صلاة تقضى عنا الواجب والفرض.

- أيها الناس: انظروا لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم، وتأملوا ما يراد
 بكم، واستعدوا لما أعد لكم، وتحفظوا قبل أن يحاط بكم، فإنكم تستقبلون خطبا
 جسيما، وتنتظرون عن قريب أمرا عظيما، فقد صار أعداؤكم عليكم إلبا، وتحالفوا
 عليكم شرقا وغربا، واحتشروا إليكم برا وبحرا، وتعاهدوا عليكم سرا وجهرا،
 ومدوا لكم من كيدهم وشرهم أمرا إمرأ، وأنتم عما يراد بكم غافلون، وعما يحل
 بكم إن لم يدفع الله عنكم ذاهلون، كأنكم من مكرهم في أمان، ولستم بأضدادهم

(١) يشير أبو عبد الله محمد إلى خطب والده التي ذكرها غير واحد ومنهم أبو عبد الله هذا في
 التعريف.

(٢) ظهرت هذه الخطب ضمن مجموع شارك به مالك في المسابقة الخاصة بالمخطوطات لسنة ١٩٧٨.
 [انظر فهرس المخطوطات التي شارك بها أصحابها في السنة المذكورة].

في الدين والإيمان، فقد جَدَّتْ بكم الحرب فجِدُّوا، وشمرت عن ساقبها فشدوا، وأعدت لكم مكايدها فاستعدُّوا..

ومدينتكم هذه التي راموا إليها أبصارهم، وأجمعوا عليها كيدهم وأنصارهم، وهي عرضة للهلاك إن لم تُشَيَّدْ، وفرصة للعدو إن لم ترتب أمورها وتسدَّدْ جهاتها غير محصنة، وأعمال أمورها ظاهرة بيَّنة، لا حِماة، ولا رماة، ولا سلاح ولا آلات، ولا عدد ولا عُدَّة، ولا أموال لصالحها معدَّة، فاقدروا رحمتكم حق قدره أمركم، وخذوا، كما أمركم الله، حذركم، وقوموا في ذلك بجِدٍّ وحزم، واصبروا صبر أولى العزم، وحوطوا أن يعتدى عليكم من أنفسكم وأبنائكم ومن ورائكم، من الخِزْمِ بالحدِّ في أحوالكم، والتعاون بأيديكم وأموالكم، وانفقوا الكريمة في مثل هذه الحال، وإنما يدخر المال لحاجات الرجال، واشتروا بالقليل، وبأدوا، وذروا التسويف، والتعليل، واعملوا مادام يمكنكم العمل في هذه الأيام، قبل أن يشغلكم العدو، فقبل الرمي تراش السهام، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(١) وعدة للقتال، واستكثروا من القسَى والنبال، وبيض الصفاح، وسمر الرماح، فقد ألزَمَكُم من له الأمر عليكم ذلك، كما ألزَمَكُم الله وأمركم، وتوقعوا عرضا يكشف حالكم، ممن لا يسامحكم في ذلك ولا يقدركم، وأخلصوا نياتكم، وأسرار ضمايركم، في جهاد عدو قد قصدكم في عقر داركم، وغيرُوا غيرَ الرجال في حمى داركم، وشدوا حَيَازِيَكُمْ، وكونوا على عدوكم يَدًا. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذْ أَنْ أَبْدَا﴾^(٢)، وتوكلوا على الله، واستعينوا بتقواه وطاعته، واضرعوا إليه في أن يؤيدكم بنصره وكفايته، وهلك عدوكم بلطفه الخفي، ويكفيكم باسمه الجليل وقايته، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٣)، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤)، ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

اللهم بك نحول، وبك نقول، وفيك نحاكم، وبك نخاصم، وبك نستنجد،
ولك نستعد، ولا ملجأ لنا، ولا منجى منك إلا إليك، ولا معول لنا إلا عليك، ولا
ناصر لنا إلا أنت، وما مخدول إلا مَنْ خذلت، فلا تكلنا إلى أنفسنا طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولا
تخلنا من نظرك في الدارين، واكنفنا بعزك الذي لا يُضام، وأكنفنا في كنفك الذي
لا يرام، وأحطنا عن أيماننا وشيائنا، وأماننا، وخلفنا، وفوقنا وتحتنا، وحول عنا
عدونا، واكنفنا ما أهَّنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، واكشف ما نزل بنا، وأنزل
سَكِينَةً علينا، وثبَّت الأقدام إن لقينا، والطف بنا بلطفك الخفي المرتجى، واجعل
لنا من أمرنا قَرَجًا ومُخْرَجًا.

يَا مَنْ تَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا، دَعَوْنَاكَ مُضْطَرِينَ كَمَا أَمَرْتَنَا فَأَجِبْنَا كَمَا وَعَدْتَنَا
﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(١) ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً،
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

٢ - ومن خطبه رضى الله عنه:

الحمد لله الذى خلق الأشياء كلها فَقَدَّرَهَا تَقْدِيرًا، وجعلها على عظمته
ووحْدَانِيَّتِهِ دَلِيلًا وبرهانًا منيرًا، وجعل الأرض مَهَادًا^(٣) وفَجَّرَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا
أَنْهَارًا^(٤)، ورفع السبع الشداد بغير عماد وجعل في سمائها أَنْوَارًا، يَهْتَدَى بِأَشْرَاقِهَا
لَيْلًا ونَهَارًا، والشمس سراجًا^(٥) وأنزل من (المُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَاجَا)^(٦) فأخرج به
من الأرض نباتًا^(٧)، وجعل فيها لخلقه أَرْزَاقًا، وقسم بينهم بعدله أَقْوَاتًا، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دَبَّرَ الْعَالَمَ وجعله دَلِيلًا على وجوده فَدَلَّ كُلَّ
شَيْءٍ على عَظَمَتِهِ وعِزَّتِهِ، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء، (لا

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

(٣) قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا﴾ سورة النبا: الآية ٦.

(٤) قال تعالى: ﴿تَفْجِيرَ الْأَنْهَارِ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ سورة الإسراء: الآية ٩١.

(٥) قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ سورة الفرقان: الآية ٦١.

(٦) قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَاجَا﴾ سورة النبا: الآية ١٤.

(٧) قال تعالى: ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَيًّا وَنَبَاتًا﴾ سورة النبا: الآية ١٥.

معقب لحكمه^(١)، و﴿مبدل لكلماته﴾^(٢).

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه بالحق بشيراً ونذيراً، (وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)^(٣) أظهر الآيات بنبوته دليلاً على صدقه، وأرسله للناس كافة، وختم به الرُّسل واصطفاه بالحكم والنبوة، والعلم والحكمة، والرفق والرحمة، فبلغ الرِّسالة، وأدى الأمانة، وبين الشريعة حتى أتاه اليقين بعد كمال الدين، ﷺ، وعلى آله وأصحابه الأنصار والمهاجرين، الذين صبروا في العسر واليسر على الجهاد والعبادة، والتقلل من الدنيا والزهادة، فلکم فيهم أسوة، فاتباع سبيلهم فاهتدوا، ويعملهم فاقتدوا، رضى الله عنهم أجمعين.

عباد الله، انتبهوا من غفلتكم، وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يراد بكم، قبل حلول آجالكم، وانقطاع آمالكم، ولا تغتروا بالدنيا، فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عن قريب راحلون، وإلى ربكم راجعون، فاذكروا ألم الموت وسكرته، وعذاب القبر وظلمته، وهول الحشر وبُعْثَتِهِ، والميزان وخفته، والصراط ودقته والقصاص وجسسته، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، فَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَهُ جَنَّاتُ غَرَضِهَا السَّامَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ^(٤) ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٥) ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(٦) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ رَبِّكُمْ﴾^(٧) ﴿وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٨)، واذكروا الله واذكروه، واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واحفظوا

(١) سورة الرعد: الآية ٤١.

(٢) سورة الأنعام : الآية ١١٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(٤) قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾

سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤.

(٦) سورة الزمر: الآية ٥١.

(٧) سورة الزمر: الآية ٥٢.

(٨) سورة النور: الآية ٣٦.

ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم قبل أن تشهد جوارحكم بما علمت و ﴿تَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(١) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) و ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) و ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤) و ﴿جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾^(٥).

٣ - وله رضى الله عنه خطبة يخطب بها عند قتال عدو. وقد تقدم له كثير من فصولها^(٦).

* الحمد لله الذى أظهر فى مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة جزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس لعز الإسلام عوالى رايات الكفر وينوده، وكشف عن قلوب ما غشّوها من روعة عدته وعديده، أحمدته حق حمده، وأشكره شكرًا موعودًا بزيده، وأسأله دوام نصر الإسلام وتأيينه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تستهدف توحيد ذى العز والجلال، ويضمحل عندها دعوى الكفر والضلال، ويستقل بعصمة النفوس والأموال، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، نبي الملائمة والقتال، أرسله والكفر قد مدّ أطنابه، وأمدّ عبابه، وجمع أحزابه، ورفع أنداده وأنصابه، فجاءه ﷺ فى قبض ما أمد، وفض ما جمع، وخفض ما رفع، وحارب من دنا من الكفر وصنع، حتى صدقه الله وعده، وهزم الأحزاب وحده، وأظهر دينه على الدين كله^(٧)، وأورى زنده، صلى الله عليه وعلى آله صلاة يزيدهم بها شرفا عنده.

أيها الناس: إن أحق النعيم بجميل الشكر، وجميع الذكر، نعمة عمّت عوارفها، وتمّت مبادئها وروادفها، وملأت القلوب مسرة عواطفها ولطائفها،

(١) سورة غافر: الآية ١٧.

(٢) سورة النور: الآية ٢٤.

(٣) سورة الأنفال : الآية ٢٧.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٤.

(٥) سورة الحج: الآية ٧٥.

(٦) لا أثر لهذه الفصول المشار إليها فيما بين أيدينا من آثار للقاضى عياض.

(٧) قال تعالى: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [التوبة: ٣٣]

وحسن مخبرها ومرآها، وطاب خبرها وذكرها، وأقرت عيون الدعوة الخفيفة
 و(أ.. لها)^(١)، واجتثت شجرة الطاغوت من أصلها، وتركت حريمه مباحا، وزعيمه
 مشاعا، قد حكمت أيدي المؤمنين فيه صفاحا ورماحا، حتى كبا لغيه، وانتقم الله
 منه لعلمه فيه، فكم أيتّم من الولدان، وأيتّم من النسوان، وغير من الأحوال،
 واغتصب من الأموال، وقتل من الرجال والأطفال، وملأ القلوب رعبا وأخذ كل
 سفينة غصبا^(٢)، واستخف بالعالم اغترارا وعيبا، وقد كان أوعد بجمعه، وأرعد
 بقوته وحوله. وأجلب بخيله ورجله، وأرهب له المخدول وهوله، والقدر يلى له
 ليزداد إثنا على إثمه وسيئاته، ومكر الله يستدرجه من حيث لا يعلم لميقاته، فلما
 شمع بأنفه، وظن أن لن نقدر عليه بعُجبهِ وسخفه، أخذه الله بخفى لطفه، وساقه
 إلى حتفه، فأتاه الله من حيث لم يحتسب، فانقاذ على تمنعه و(....)^(٣) للحين إلى
 مصيره، ولما علم الله صدق نياتكم، وخلوص طوياتكم، وشحككم بدينكم، وثباتكم
 وثقتكم بيارثكم في ملأكم، أبلغوكم في عدوكم غاية أمنياتكم، فأقرّ عيونكم
 بأشدهم على الرحمن عتيا^(٤) وأبعدهم صيتا وأقربهم للشيطان ليا، وصدق وعده،
 ﴿إِنَّه كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾^(٥) فاقدروا، رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها، ووفوها
 جزاءها من الطاعات، وبذل الصدقات وشكرها، واستجزلوا من عند الله ثوابها
 وأجرها، واعتبروا بحال من أسرف في ذنبه، وحال من كفر نعمة ربه، وتغير من
 غير بنفسه، ويون ما بين حالين: يومه، وأمسّه، وانظروه عبرة لأولى الأبصار،
 راكبا مطية من عمل النجار، عاريا بالعراء تصهره الشمس، وتزقه الرياح
 والأمطار، وكان قد أصبح بالأمس على سرير عاتيا مسرفا، وأصبح اليوم على
 جزعه عاليا مشرفا، قد تبرأت منه شياطينه ولم يجد عن قضاء الله مصرفا،
 فأخلصوا رحمكم الله، الدعاء لمن كان هذا الفتح المبين بيمن نقيته وشدة بطشه،

(١) كلمة غير مقروءة، ولعلها: وأهلها.

(٢) قال تعالى ﴿وكان وراءهم بَلَكٌ يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف ٧٩].

(٣) كلمة غير مقروءة.

(٤) قال تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيمة أهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [سورة مريم ١٩].

(٥) سورة مريم: الآية ٦١.

(٦) لعل أبا عبد الله بن عياض تعدد حذف اسم الأمير تجنباً لفضب الموحدين، وقد رأينا أنه صدر هذه
 الخطبة بقوله: «وهي خطبة يخطب بها عند القتال» دون ذكر المناسبة التي خطب القاضي عياض بها.

وقوة سريره الأمير (أبو فلان)^(١) أدام الله توفيقه ونصره، وقوى بطاعته وتقواه عضده، وآزره، وأجزل على صنعه الجميل ثوابه وأجره، وقد جعل دون نحوركم نحره، وأراحكم من تعدى العدو وكفاكم ضره اللهم أوزعه وأوزعنا شكر هذه النعم^(٢)، واحجب عن حوزته وعنا الغير والغم، واجعل ثأره وثأرنا على من ظلم، واعصمنا برحمة منك، فإنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم^(٣) واشفع هذا الفتح الجليل بأمثاله، أنك أنت الأعز الأكرم، إن أفصح المقال، وأوضح الأمثال كلام الله العزيز المتعال، ﴿ورّد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً﴾^(٤).

٤ - وله رضى الله عنه، من فصل في هذا المعنى:

أيها الناس: إن الله وعظكم بما قدره من محنة غيركم، والسعيد من وعظ بغيره فاعتبروا، وابتلاكم بشيء من الخوف والجوع^(٥) فاصبروا، وامتحنكم بما رأيتم من أذى عدوكم فادفعوا ذلك بالإجابة إليه واستغفروا، وأعدوا لمدافعتة عن دينكم ودمائكم، وحريمكم، وذرائعكم، ولا تقصروا، وخذوا حذركم ولا تفتروا، واعلموا أن الله قرب إليكم الرباط والجهاد بأبواب داركم فاغتنموا ذلك وابتدروا، ولا تهملوا، ولا تتواكلوا ولا تكلوا، وعلى ربكم فتوكلوا، ﴿ولا تهنأوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾^(٦) واصبروا ﴿إن الله مع الصابرين﴾^(٧)، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾^(٨) واسألوا ربكم في تعجيل نصره وأن يكفيكم بأس عدوكم (ويذكر في غمده...) ^(٩) واضرعوا إليه في كشف

(١) قال تعالى: ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى﴾ [سورة النمل الآية ١٩].

(٢) قال تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ [سورة هود الآية ١١].

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

(٤) قال تعالى: ﴿ولنبولنكم بشيء من الخوف والجوع...﴾ الآية ١٥٥ من سورة البقرة.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٥٣.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(٨) جملة غير مقروءة.

بأسه وضره، فإنه يجيب دعوة المضطرين^(١)، ويصرف السوء عن عباده المؤمنين^(٢) وارفعوا أيديكم إليه راغبين، وقولوا بالسنتكم وصدق قلوبكم مخلصين:

يا مَنْ لا رَبَّ سِوَاهُ، يا مجيب المضطر إذا دعاه، يا مَنْ لا ملجأ لنا منه إلا إياه، نسألك يا رب العالمين أن تكشف عنا بأس القوم الظالمين، وتكف عنا أيدي المعتدين، وتصرف صرف الكفرة الملحدين، الذين سفكوا الدم الحرام، وركبوا منا الآثام، وحرقوا الديار، وقطعوا الثمار، اللهم وأصلهم جهنم، بشس لقرار، اللهم استأصل شأفتهم، واقطع من الأرضين دعوتهم، وأهلكهم أجمعين، وانصرنا عليهم يا رحمان يا رحيم، اللهم احننا من جميع جهاتنا، ولا تكشف ما سترت من حرماننا، واعصم من أموالنا ودمائنا، واكفنا برحمتك أعداءنا، واجعلهم جزر صفاحنا ورماحنا، وبلغنا منهم شفاء نفوسنا وأرواحنا، واجعلنا من المنصورين عليهم في معدانا ومراحنا، اللهم وهب لنا نصرة منك تفرج بها ما نزل بنا بلطفك المرتجى، واجعل لنا من أمورنا فرجاً ومخرجاً، وانهج لنا ما يرضيك صراطاً مستقيماً ومنهجاً، ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾^(٣)، ربنا واجعلنا من ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾^(٤).

٥ - ومن إنشائه رضى الله عنه:

﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترنون، وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سرركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾^(٥) ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله، وهو الحكيم العليم، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما

(١) قال تعالى: ﴿أَم من يُجِيبُ المضطر إذا دعاه﴾ [سورة النمل ٦٢]

(٢) قال تعالى: ﴿فَيَصِيبُ بِهِ من يَشَاءُ ويصرفه عن من يَشَاءُ﴾ [سورة النور ٤٣]

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨

(٤) سورة الزمر: الآية ١٨

(٥) سورة الأنعام: الآيات ١، ٢، ٣

وعنده علم الساعة وإليه ترجعون^(١) و ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أين ما كنتم، والله بما تعملون بصير، له ملك السموات والأرض، وإلى الله ترجع الأمور، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل، وهو عليم بذات الصدور﴾^(٢) و ﴿هو الذى يحيى ويميت، وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون﴾^(٣) و ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾^(٤) ﴿لا إله إلا هو يحيى ويميت، ربكم ورب آبائكم الأولين﴾^(٥) ﴿لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون﴾^(٦).

أحمده وأومن به، وأستعينه وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلى المشركين، صلى الله عليه وعلى أصحابه الأخيار، والمهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ﴿واتقوا الله الذى إليه تحشرون﴾^(٧) ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾^(٨) ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾^(٩) ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد﴾^(١٠) ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾^(١١) ﴿يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾^(١٢) ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله

- | | |
|------------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة الزخرف: الآيتان ٨٤، ٨٥ | (٧) سورة المائدة: الآية ٩٦ |
| (٢) سورة الحديد: الآيات ٣، ٤، ٥، ٦ | (٨) سورة آل عمران: الآية ١٣٢ |
| (٣) سورة المؤمنون: الآية ٨٠ | (٩) سورة البقرة: الآية ٢٨١ |
| (٤) سورة البقرة: الآية ١١٧ | (١٠) سورة آل عمران: الآية ٣٠ |
| (٥) سورة الدخان: الآية ٨ | (١١) سورة الشعراء: الآيتان ٨٨، ٨٩ |
| (٦) سورة القصص: الآية ٨٨ | (١٢) سورة عبس: الآيات ٣٤ - ٣٧ |

شديد^(١) ﴿يَوْمَ يُؤْذَى الْمُجْرِمَ لُو يُفْتَدَى مِنْ عَذَابٍ يُومَنُ بِهِ، وَصَاحِبَتَهُ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتَهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ، كَلَّا إِنَّمَا لُطْفِي نَزَاعَةً لِلشَّوَى، تَدْعُو مِنْ أَدْبَرٍ وَتَوَلَّى، وَجَمْعٌ فَأُوْعَى، إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلْمَسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ، فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ، عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ، أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ، كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ^(٢) ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تَرْجَعُونَ^(٣) ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٤)﴾.

٦ - خطبة أخرى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ، وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا^(٥)﴾ ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا^(٦)﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا^(٧)﴾ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ^(٨)﴾ ﴿وَمَا مِنْ

(٥) سورة الإسراء: الآية ١١٠

(٦) سورة الجن: الآية ٣

(٧) سورة مريم: الآيات ٩٠ - ٩٥

(٨) سورة المؤمنون: الآية ٩١

(١) سورة الحج: الآيات ١، ٢

(٢) سورة المعارج: الآيات ١١ - ٣٩

(٣) سورة الجاثية: الآية ١٤

(٤) سورة غافر: الآية ٦٥

إِلَهَ إِلَّا إِلَهَ وَاحِدٌ^(١) ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا^(٢)﴾ ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٣)﴾ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ^(٤)﴾.

أحمدُه وأومن به، وأستعينه وأتوكل عليه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلى الخليفة المنتخب من صميم نسبة الحسنى الفاطمية^(٥) المحمدى، العربى القرشى الهاشمى المصطفى من بيت النبوة، المختار من (...) الرسالة، من الذين اصطفاهم الله واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم، الإمام المهدي أبى عبدالله محمد ابن عبدالله - رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، ورضى الله عن الولي بعده، القائم بأمره، أمير المؤمنين أبى محمد عبدالمؤمن بن على، وفقه الله للسداد، وهداه لسبيل الرشاد، وأدام عزته بالتوفيق، وسرمد امداده بالنصر والتأييد، وقرن مساعيه بالتوفيق والتسديد، وفقه للصواب والرأى السديد.

اللهم أصلحه وأصلح الرعية على يديه، ووفقه للخير وأعنه عليه، اللهم أعنه على ما وليته، واحفظ منه ما استرعيت، وبارك الله في ما آتيت، واجعله لأنعامك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبطاعتك من العاملين. اللهم قوّ عزمه في طاعتك، واشدد عضده بجماعة الخير وطائفة الحق وأنصاره.

أوصيكم عباد الله وإياي بتقوى الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٦)﴾ ﴿لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ^(٧)﴾ ﴿أَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنْ اللَّهَ

(١) سورة المائدة: الآية ٧٣

(٢) سورة النساء: الآية ١٧٠

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٢

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٣

(٥) من المعلوم أن المهدي - زعيم دولة الموحدين رفع نسبه إلى البيت النبوى.

(٦) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٧) سورة المنافقون: الآية ٩.

عنده أجر عظيم، يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم، وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين، وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمنط علينا جحارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصُدُّون عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وما كانوا أوليائه، إن أوليائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ولكن أكثرهم لا يعلمون، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون، ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيزكمه جميعا فيجعلهم في جهنم أولئك هم الخاسرون، قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين، وقابلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير، واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم، إذ يريكم الله في منامك قليلا ولو أراكم كثيرا لفلسنكم ولتنازعنكم في الأمر ولكن الله سلم إنَّه عليهم بذات الصدور، وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا

وإلى الله ترجع الأمور، يأتيا الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴿١﴾ ﴿وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾ ﴿٢﴾.

اللهم انصر الموحدين نصرا عزيزا، وافتح لهم فتحا مبينا، وكفى بك نصيرا ﴿٣﴾، اللهم يدد شمل المجسمين، وحرِّق جميع المفسدين، وكف عنا أيدي المعتدين، اللهم استعملنا بطاعتك، وثبتنا على دينك، وأعنا على شكرك وحسن عبادتك، ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ ﴿٤﴾، ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ ﴿٥﴾.

قال أبو الفضل: ﴿٦﴾.

الرغبة إلى شيخى المعظم ﴿٧﴾، أدام الله جلاله، في النص في هذه المسائل التي أسأله عنها، إذ هي نوازل كان من بعض الأصحاب فيها نزاع فأردت الاستنجاد برأيه، والاهتداء بهديه، والله يعظم أجره، ويجزل ذخره، بعزته.

فأما الأولى منها، فهي رجل قام على آخر يعيب في سلعته، فأنكر المدعى السلعة، وأنه ما باعها منه: هل يقدم اثبات العيب قبل اليمين على إنكار البيع مخافة ألا يكون بها عيب فتذهب يمين الرجل باطلا؟ أو تقدم اليمين على إنكار البيع؟

(١) سورة الأنفال الآيات ٢٨ - ٤٦.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٧.

(٣) قال تعالى: ﴿وكفى بالله وليا وكفى به نصيرا﴾ [سورة النساء الآية ٤٥].

(٤) سورة البقرة: الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٦) مسائل ابن رشد ص ٦٠٢.

(٧) يقصد ابن رشد.

وكذلك أسأله. أعزه الله - عن مسألة الزريعة المشتراة إذا لم تنبت ولم يبق منها ما يجرب: هل يلزم فيها اليمين على البائع أنه ما باع منها إلا نابتا؟... وكيف يحلف إن لزم: على البت، أو على العلم ها هنا؟
وقد وقع في المسألة المنصوصة فيها على العلم خلاف، وما فائدة التجربة؟ هل لا يجاب اليمين، فلا تجب إلا بعد التجربة والعلم أنها لم تنبت؟ أم ما فائدتها، لعلها تنبت فلا يكون للمشتري حجة؟

وكذلك أسأله^(١) - أعزه الله - عن قوم لهم جنات، وآخر لهم أرحاء، وسقى الجنات من الماء الذي تدور به الأرحاء، فقام بعض أصحاب الجنات على بعض أصحاب الأرحاء الذين فوقه يخصمه في السقى: فهل يلزم الحكم في مثل هذا، وهو يعلم أن دعوى أصحاب الجنات وقيامهم على جملة من أصحاب الأرحاء، أن يجمعهم كلهم فينظر في أمرهم نظرا واحداً؟ أم ينظر في أمر من خاصم دون من لم يخاصم، وهو إن فعل ذلك تشتت عليه الأمر، واتسع عليه الخصام؟

وكذلك ورثة قام بعضهم بطلب دين لأبيهم على رجل، قال المطلوب: اجتمعوا لخصامي ولا تعنتوني بتوالى الطلب، واحداً بعد الآخر. ورغبني بيان هذا الباب، ففي بعض نصوص مسائله اشتباه.

وكذلك، أعزه الله، أسأله عن أكثرى داراً لسنتين بنجوم معلومة للشهور أو للسنين، فمات أو فلس.. هل تحمل النجوم وتكون كالديون الثابتة؟ أو لا يحل إلا ما سكن، ويرث الورثة المنافع ويكون الكراء عليهم؟

وفي التفليس من المدونة من هذا الباب مسائل، ورأيت للقرويين فيها خلافاً، ذكره اللخمي^(٢)، فرأيه أعزه الله، في ذلك لنعتمد عليه.

وكذلك سألت، أعزه الله، عن الحاضنة والمربية إذا لم تكن ذات قرابة، فطلبت الزيارة لمن حضنت بحكم شرط الصداق بزيارة أهلها من النساء لها ذلك، والمضرة في انقطاعها أشد من المضرة من بعيد الأقارب، ومحارم الرجال من الرضاع والصهر.

ما تراه في ذلك، أكرمك الله؟
 وأسأله، أعزه الله، عن حاكم أشهد على رجل غير مولى عليه بتحجير البيع
 عليه في رباغة خاصة، وهل ينفذ ذلك؟ وهل هو حجران تام؟ وكيف أن باع ماله
 قدر من غير رباغة؟ وأسأله، أعزه الله، عن مسألة عدم التحقيق في الدعوى
 المختلف فيها عند كل من القولين.
 وعن مسألة ما يتكرر من الدعوى في دعوى الاقالة ونحوها مما (تفنن في
 ذلك ممتنا متطولا)^(١)، وهل يحتاج لإيجاب اليمين فيها إلى شبهة أو تجب بنفس
 الدعوى.

بسم الله الرحمن الرحيم^(٢)

أدام الله توفيق الفقيه الأجل معظي، وأبقاه، وختم له بحسنائه، وجمع له خير
 دنيا وأخراه ضمننت مدرجتي هذه، اسولة رغبتى جوابه عنها مأجوراً مشكوراً إن
 شاء الله، وهو أعزه الله: أن جماعة أصحاب الجنات، خاصموا رجلاً من أهل
 الارحاء في قطع الماء عن جناتهم، وهم محتاجون إلى السقى والانتفاع بالماء
 المذكور، فزعم صاحب الأرحاء أن لآحق لهم فيه، وأن أرحاءه سبقت إلى حوز
 الماء المذكور، وعليه بناها وطحنت به عدة سنين كثيرة، فأثبت القوم شهادات من
 قبلته أنهم كانوا يستقون من الماء المذكور جناتهم قبل إنشاء الأرحاء وبعدها،
 وطالب صاحب الأرحاء النظر في هذه الشهادات والمدافع فأوقفت الماء عن
 الارحاء والجنات المذكورات على مجرى آخر، واجلت صاحب الأرحاء في
 البيّنات.

فما رأيك أن انقضى أمد السقى، والمنفعة التي طلبها أصحاب الجنات قبل
 انقضاء أجل المدفع، فقام صاحب الأرحاء يسأل حل العقلة، ويحتج بأن خصامهم
 معه إنما هو زمن السقى والعصير، وما عدا ذلك يجري الماء على مناصب ارحائه،
 ولا مطالب لهم فيه، ولا حاجة تلك المدة، وإنما ينازعهم في زمن آخر، هل يسمع

(١) جملة لم اهتد إلى قراءتها.

(٢) مسائل ابن رشد ص ٨١٣.

قوله وتوجيه هذه الحجة حل العقلة، ويبقون في مطلب حججهم، فإن انقضى خصامهم قبل سنة أخرى، وإلا فيعتقل الماء إذا حان زمن السقى من السنة الأخرى؟ أم ترى العقلة باقية حتى يتم خصامهم، إذ من حجة الآخرين أن يقولوا: هذا شيء متنازع فيه، يدعى فيه حقاً، فلا نبقية بيد خصمنا حتى ينقضى الخصام؟

وتأمل، أعزك الله بطاعته، أن دفع صاحب الأرحاء في جملة الشهود سوى واحد، فادعى الآخر أن لهم شهوداً آخر يقومون بها، أو ادعى صاحب الأرحاء ألا مدفع في ذلك الشاهد الباقي، وسأل حل العقلة على مذهب من يرى العقلة بالشاهد الواحد. هل يقضى له بذلك أم لا تنحل العقلة على مقتضى القولين إلا بالدفع في الجميع؟ أو هو حكم منفذ فلا يحكم بغيره إلا بسقوط جملة شهوده بخلاف ابتداء الحكم بالعقلة؟

مصادر البحث

١ - القرآن الكريم

- ابن الأبار: محمد بن عبد الله القضاعى (ت ٦٥٨ هـ)
٢ - التكملة لكتاب الصلة، اعتنى بنشره كوديرة، طبع مدريد سنة ١٨٨٤ م.
- الدكتور إبراهيم إبراهيم قريشى
٣ - مرويات غزوة بنى المصطلق، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٣ هـ
- ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى (ت ٦٠٦ هـ)
٤ - النهاية فى غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود الطناحى، طبع مصطفى البابى الحلبي، القاهرة سنة ١٩٦٣ م.
- ابن الأثير: على بن محمد بن محمد الجزرى (ت ٦٣٠ هـ).
٥ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة، مطبعة الشعب بالقاهرة سنة ١٣٩٠ هـ.
٦ - الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت سنة ١٣٨٥ هـ.
٧ - اللباب فى تهذيب الانساب، مكتبة المثنى، بغداد (بدون ذكر سنة الطبع).
- الدكتور إحسان عباس.
٨ - تاريخ الأدب الأندلسى، عصر الطوائف والمرابطين، نشر دار الثقافة سنة ١٩٦٢ م.
- أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠ هـ)
٩ - المسند، نشر المكتب الإسلامى ودار صادر بيروت (بدون ذكر سنة الطبع).

- الدكتور أحمد جمال العمرى.
- ١٠ - مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤ م.
- ابن الأهر: اسماعيل بن أبى الحجاج يوسف (ت ٨٠٧ هـ).
- ١١ - بيوتات فاس الكبرى، طبع دار المنصور، بالرباط سنة ١٩٧٢ م.
- ابن اسحاق: محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى (ت ١٥١ هـ).
- ١٢ - المبتدأ والمبعث والمغازى (سيرة ابن اسحق) تحقيق محمد حميد الله، طبعة سنة ١٣٩٦ هـ.
- الأسنوى:
- ١٣ - طبقات الشافعية، تحقيق عبد الله الجبورى، بغداد سنة ١٩٧٠ م.
- الدكتور أكرم العمرى:
- ١٤ - بحوث فى تاريخ السنة. المشرفة، مطبعة الإرشاد، بغداد سنة ١٩٦٧ م.
- الألوسى: محمود الألوسى البغدادى (ت ١٢٧٠ هـ).
- ١٥ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم، والسبع المثانى، إدارة الطباعة المنيرية، دمشق.
- انخيل كونثال بالنسيا
- ١٦ - تاريخ الوكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥ م.
- باكير أحمد
- ١٧ - مقدمة ترتيب المدارك، الطبعة اللبنانية، سنة ١٩٥٥ م.
- البتلونى شاكى
- ١٨ - نفع الأزهار فى منتخبات الأشعار، تصحيح إبراهيم اليازجى، طبعة دار كرم دمشق.

- البخارى: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ).
- ١٩ - التاريخ الصغير، إدارة إحياء السنة، كوجر نواله باكستان (دون ذكر سنة الطبع).
- ٢٠ - التاريخ الكبير، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن سنة ١٣٨٠ هـ.
- ٢١ - الجامع الصحيح، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة سنة ١٣٧٦ هـ.
- ابن بسام: أبو الحسن الشنترينى (ت ٥٤٢ هـ).
- ٢٢ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٥ م.
- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف (ت ٥٧٨ هـ).
- ٢٣ - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثهم وفقهائهم، تحقيق عزت العطار ط سنة ١٩٥٥ م.
- بروكلمان: كارل.
- ٢٤ - تاريخ الأدب العربى ج ٥، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، الطبعة الثانية.
- البكرى: أبو عبيد عبد الله (ت ٤٨٧ هـ).
- ٢٥ - المغرب في ذكرى بلاد أفريقيا والغرب، نشر مكتبة المثنى ببغداد (بدون ذكر سنة الطبع).
- ٢٦ - معجم ما استعجم، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والنشر القاهرة سنة ١٣٦٤ هـ.
- البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ).
- ٢٧ - أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ م.

- البوطي: محمد سعيد رمضان
٢٨ - فقه السيرة، نشر دار الفكر الحديث، لبنان سنة ١٣٨٦ هـ
- البيهقي: أبو بكر الصنهاجي
٢٩ - أخبار المهدي بن تومرت، طبع دار المنصور بالرباط سنة ١٩٧١ م
- البيهقي: أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)
٣٠ - السنن الكبرى، طبع دار صادر ببيروت (بدون ذكر سنة الطبع)
- ابن تاووت: محمد الطنجي
٣١ - أدب المرابطين والموحدين، مجلة البحث العلمي، العدد الثاني، السنة الأولى
- ٣٢ - الأدب المغربي، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت سنة ١٩٦٠
- ٣٣ - سبته السلفية، مجلة البحث العلمي، العددان ٢٥، ٢٦، السنة الثالثة.
- ٣٤ - مقدمة ترتيب المدارك، نشر وزارة الأوقاف، الرباط سنة ١٩٦٥
- ٣٥ - نظرة على بغية الرائد للقاضي عياض، مجلة دعوة الحق - المغرب، يونيو ويوليو سنة ١٩٧٩ م
- الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ)
٣٦ - سنن الترمذي، الفجالة الجديدة، والسلفية بالمدينة المنورة.
- ابن تغري بردي
٣٧ - النجوم الزاهرة - طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٥
- التوحيدى
٣٨ - البصائر والذخائر، تحقيق الدكتورة وداد القاضي، طبع الدار العربية للكتاب، تونس سنة ١٩٧٨ م
- ابن تيمية: أبو البركات مجد الدين عبد السلام بن عبدالله (ت ٦٥٢ هـ)
٣٩ - منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، مع نيل الأوطار للشوكاني، طبع مصطفى الحلبي سنة ١٣٥٢ هـ

- ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت ٧٢٨ هـ)
٤٠ - الصارم السلول، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٩ هـ
- الدكتور جواد على
٤١ - تاريخ العرب قبل الإسلام، طبع المجمع العلمی العراقي، بغداد سنة ١٩٥٥
- ابن الجوزی
٤٢ - صفة الصفوة، طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٣٥٥ هـ
٤٣ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٣٥٧ هـ
- الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)
٤٤ - المستدرک على الصحيحين، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب (بدون ذكر سنة الطبع)
- ابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ)
٤٥ - الجرح والتعديل، ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن سنة ١٩٥٢ م
- ٤٦ - علل الحديث، مكتبة المثنى، بغداد سنة ١٣٤٣ هـ
٤٧ - المراسيل في الأحاديث، مكتبة المثنى، بغداد سنة ١٣٨٦ هـ
- حاجي خليفة: مصطفى عبد الله (ت ١٠٦٨ هـ)
٤٨ - كشف الظنون، تحقيق محمد شرف الدين ورفعت بيلكة، المطبعة البهية، استانبول سنة ١٣٦٠ هـ
- ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ)
٤٩ - الإصابة في تمييز الصحابة، طبع مطبعة السعادة، سنة ١٣٢٨ هـ
٥٠ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق محمد رضوان، دار الكتاب العربي، بيروت

- ٥١ - تبصير المنتبه، تحقيق على البجاوى ومحمد على النجار، القاهرة سنة ١٩٦٤ م
- ٥٢ - تهذيب التهذيب، طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٥ هـ
- ٥٣ - فتح البارى شرح صحيح البخارى، تحقيق عبد العزيز بن باز، المطبعة السلفية القاهرة سنة ١٣٨٠ هـ
- ٥٤ - لسان الميزان، طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٩ هـ

● الدكتور حجي محمد

- ٥٥ - الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

● الحجوى: محمد بن الحسن الثعالبي (ت ١٩٥٦ م)^١

- ٥٦ - الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى، مطبعة إدارة المعارف بالرباط سنة ١٣٥٤ هـ

● ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)

- ٥٧ - جهرة أنساب العرب، دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٢ هـ
- ٥٨ - جوامع السيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، والدكتور ناصر الأسد - دار المعارف بمصر.

- ٥٩ - رسائل ابن حزم، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت سنة ١٩٨١ م

- ٦٠ - المحلى، إدارة الطباعة المنيرة، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

● الدكتور حسن أحمد محمود

- ٦١ - قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م

● الحلبي: أبو العباس على برهان الدين الحلبي

- ٦٢ - إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبي) مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

● الحميدى:

٦٣ - جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة سنة ١٩٥٢ م

● ابن خاقان: أبو نصر محمد القيسى (ت ٥٢٩ هـ)

٦٤ - قلائد العقيان، مطبعة التقدم العلمى سنة ١٣٢٥ هـ

٦٥ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس، مطبعة الجوائب، القسطنطينية سنة ١٣٥٢ هـ

● الخضرى: محمد بن عفيفى الباجورى

٦٦ - نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، دار التعاون للنشر والتوزيع سنة ١٩٦٧ م

● ابن الخطيب: لسان الدين (ت ٧٧٦ هـ)

٦٧ - الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق الدكتور محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٧٣ م

٦٨ - أعمال الأعلام، تحقيق الدكتورين أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى طبع دار الكتاب بالبيضاء سنة ١٩٦٤ م

● الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن على بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ)

٦٩ - تاريخ بغداد، بناية محمد حامد الفقى، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩ هـ

٧٠ - الكفاية فى علم الرواية، تحقيق عبد الحليم الطبعة الأولى، القاهرة.

● ابن خلدون: عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ)

٧١ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) نشر دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٥٩ م

● ابن خلكان: شمس الدين أحمد (ت ٦٨١ هـ)

٧٢ - وفيات الأعيان، تحقيق محى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م

- ابن خير: القاسى ثم الاشيبلى (ت ٥٧٥ هـ)
٧٣ - فهرسته، طبعة مؤسسة الخانجى بمصر.
- دائرة المعارف الإسلامية: لمجموعة من المستشرقين، ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرين، تصوير دار المعرفة ببيروت
٧٤ - مادة (سيرة)، ومادة (عياض)
- أبو داود السجستاني: سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥ هـ)
٧٥ - السنن، طبع بعناية أحمد سعد على، طبع مصطفى الحلبي بمصر سنة ١٣٧١ هـ
- الدباغ
٧٦ - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس سنة ١٩٧٨ م
- ابن دحية: أبو الخطاب (ت ٦٣٤ هـ)
٧٧ - المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق ابراهيم الايبارى وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٤ م
- ● الدورى: عبد العزيز
٧٨ - نشأة علم التاريخ عند العرب، طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٦٠ م
- الذهبى: شمس الدين محمد أحمد عثمان (ت ٧٤٨ هـ)
٧٩ - تاريخ الإسلام، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٦٧ هـ
٨٠ - تذكرة الحفاظ، طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٩٥٥ م
٨١ - سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأتؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠١ هـ
٨٢ - العبر في خبر من عبر، تحقيق فؤاد السيد، الكويت سنة ١٩٦١ م

- ابن رشد: أبو الوليد محمد (ت ٥٢٠ هـ)
- ٨٣ - مسائل ابن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، طبع الرباط
- ٨٤ - المقدمات - طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥ هـ
- الزبيدي: محمد مرتضى (١٣٠٥ هـ)
- ٨٥ - تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد السلام هارون، طبع الكويت سنة ١٩٧٠ م
- ابن الزبير:
- ٨٦ - صلة الصلة، نشره ليفي بروفنسال، الرباط سنة ١٩٣٧ م
- ابن أبي زرع: علي بن عبد الله (ت ٧٢٦ هـ)
- ٨٧ - الأنيس المطرب بروض القرطاس، طبعة دار المنصور، الرباط سنة ١٩٧٣ م
- ● أبو زرعة: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت ٨٢٦ هـ)
- ٨٨ - طرح التثريب شرح التقريب، جمعية النشر والتأليف الأزهرية سنة ١٣٥٣ هـ
- ● الزرقاني: محمد بن عبد الباقي المالكي (ت ١١٢٢ هـ)
- ٨٩ - شرح المواهب اللدنية، المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٥ هـ
- الزركشي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يهادر بدر الدين (ت ٧٩٤ هـ)
- ٩٠ - البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة سنة ١٣٧٦ هـ
- الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ)
- ٩١ - الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل، القاهرة سنة ١٩٤٥ م
- ٩٢ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ

● ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ)

٩٣ - الطبقات الكبرى، نشر. دار صادر بيروت سنة ١٩٥٨ م

● السهمودي: علي بن عبد الله بن شهاب الدين الحسيني (ت ١٠١١ هـ)

٩٤ - وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد، بمصر سنة ١٣٢٦ هـ

● السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت ٥٨١ هـ).

٩٥ - الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار النصر للطباعة (بدون ذكر سنة الطبع).

● ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٧٣٤ هـ).

٩٦ - عيون الأثر في فنون المغازي والشهائل والسير، نشر مكتبة القدس بالقاهرة سنة ١٣٥٦ هـ

● السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ).

٩٧ - الأكليل في استنباط التنزيل، طبع على نفقة أسعد دار بزوني الحسيني، سنة ١٣٧٣ هـ

٩٨ - تدريب الراوي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة سنة ١٣٧٩ هـ

٩٩ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، نشر محمد أمين دمج، بيروت (بدون ذكر سنة الطبع)

١٠٠ - لباب النقول في أسباب النزول، طبع مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الثانية.

● ابن سعيد

١٠١ - المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

- الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس المطلبى (ت ٢٠٤هـ).
- ١٠٢ - الأم، طبع دار الشعب بمصر سنة ١٣٨٨هـ.
- ١٠٣ - المسند (مطبوع على هامش الأم).
- الشمني: أحمد بن محمد بن محمد (ت ٨٧٢هـ).
- ١٠٤ - مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، حاشية الشفاء، طبع دار الفكر، بيروت سنة ١٩٨١م.
- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني.
- ١٠٥ - أضواء البيان، مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ.
- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ).
- ١٠٦ - البدر الطالع، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٨هـ.
- ١٠٧ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، نشر محفوظ العلي، بيروت.
- أبو شهبه: محمد بن محمد.
- ١٠٨ - الاسرائيليات والموضوعات، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٣.
- ١٠٩ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة طبع دار الأنوار بمصر (دون ذكر سنة الطبع).
- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ).
- ١١٠ - الملل والنحل، تحقيق الدكتور محمد فتح الله بدران طبع مصر سنة ١٩٥١م.
- الصابوني: محمد بن علي
- ١١١ - التبيان في علوم القرآن، طبع دار الارشاد ببيروت سنة ١٣٩٠هـ.
- ١١٢ - روائع البيان تفسير آيات الأحكام، طبع دار القرآن الكريم، الكويت سنة ١٣٩١هـ.

● ابن الصابوني

١١٣ - تكملة إكمال الصلة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد سنة ١٩٥٧ م.

● ابن سعد التلمساني: محمد بن أحمد (ت ٩٠١ هـ).

١١٤ - النجم الثاقب فيا لأولياء الله من مفاخر ومناقب. مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط رقم ١٩٩٢ ك.

● الصفدي:

١١٥ - نكت المهيان، طبع بعناية أحمد زكي بالقاهرة سنة ١٩١١ م.

● الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره القرطبي

١١٦ - بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، طبع مدريد سنة ١٨٨٣ م.

● الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ).

١١٧ - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. طبع دار المعارف بمصر.

١١٨ - تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، طبع دار المعارف بمصر.

● ابن عاشور: طاهر

١١٩ - القول الفصل لأبي الفضل في عصمة الأنبياء من بعد النبوة ومن قبل، مجلة دعوة الحق العددان ٧٢، ٧٣ السنة الثامنة.

● العباس بن إبراهيم المراكشي

١٢٠ - إظهار الكمال في تميم مناقب أولياء مراكش سبعة رجال، طبع الرباط سنة ١٣٧٣ هـ.

● الدكتور عباس الجراري

١٢١ - وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، الرباط سنة ١٩٧٦ م.

١٢٢ - التيار الفقهي وأثره على الأدب المراكشي، مجلة دعوة الحق، العددان ٤، ٥ السنة ١٦.

- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمرى (٤٦٣هـ).
١٢٣ - الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار، تحقيق على النجدى ناصف، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩٣هـ.
- ١٢٤ - جامع بيان العلم، طبع المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
- ١٢٥ - الدرر في اختصار المغازى والسير، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ.
- الدكتور عبد الحليم محمود
١٢٦ - دلائل النبوة ومعجزات الرسول، طبع القاهرة سنة ١٩٧٤م.
- عبد السلام شقور:
١٢٧ - القاضى عياض الأديب، نشر دار الفكر المغربى سنة ١٩٨٣م.
- عبد العزيز عبد الله:
١٢٨ - الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، مطبوعات وزارة الأوقاف بالمغرب سنة ١٩٧٦م.
- العبد لاوى: موسى بن محمد (ت ١١٤٠هـ)
١٢٩ - التماس العقاب فيما كتب على الشفا (مخطوط) المكتبة العامة بالرباط رقم ١٢٤١د.
- ابن عبد الملك المراكشى
١٣٠ - الذيل والتكملة، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة، دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٣م.
- ابن عذارى (ت ٦٩٥هـ)
١٣١ - البيان المغرب (دولة المرابطين) تحقيق الدكتور إحسان عباس طبع بيروت.
- ابن العربي: (ت ٥٤٣هـ)
١٣٢ - العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر مكتبة أسامة بن زيد، بيروت سنة ١٩٧٩م.

- العباد الأصفهاني: أبو عبد الله محمد (ت ٥٩٧هـ)
١٣٣ - خريدة القصر، تحقيق على عبد العظيم وعمر الدسوقي، طبع دار نهضة مصر.
- ابن العباد الحنبلي: (ت ١٠٨٩هـ)
١٣٤ - شذرات الذهب، نشر مكتبة القدسي القاهرة سنة ١٣٥٠هـ.
- الدكتور عنان محمد
١٣٥ - عصر المرابطين والموحدين، طبع القاهرة سنة ١٩٦٤م.
- ابن عياض: أبو غيد الله محمد (ت ٥٧٥هـ)
١٣٦ - التعريف، تحقيق وتقديم الدكتور محمد بن شريفة، مطبوعات وزارة الأوقاف بالمغرب.
- عياض أبو الفضل القاضي (ت ٥٤٤هـ)
١٣٧ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام، تحقيق محمد بن تاويت، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب سنة ١٩٧٩م.
- ١٣٨ - إكمال المعلم بفوائد مسلم، المكتبة الملكية بالرباط مخطوط تحت رقم ٢٦٤٠د.
- ١٣٩ - الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر، طبع دار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٠م.
- ١٤٠ - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق صلاح الدين بن أحمد الأدلبي، ومحمد الحسن أجانف، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب سنة ١٩٧٥م.
- ١٤١ - تراجم أغلبية مستخرجة من ترتيب المدارك، تحقيق محمد الطالبي طبع تونس سنة ١٩٦٨م.
- ١٤٢ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تعليق محمد بن تاويت، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب.

١٤٣ - التنبیهات المستنبطة، المكتبة العامة بالرباط مخطوط تحت رقم ٣٨٤ ق.

١٤٤ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

١٤٥ - الغنية (في أساء شيوخه) نشر وتحقيق الأستاذ ماهر زهير جرار، طبع بدار الغرب الإسلامي ببيروت سنة ١٩٨٢ م.

١٤٦ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار، نشر في دار التراث المكتبة العريقة - تونس سنة ١٣٢٨ هـ.

● الفاسي: محمد بن أحمد تقي الدين المكي (ت ٨٣٢ هـ)
١٤٧ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار إحياء الكتب، طبع عيسى الحلبي سنة ١٩٥٦ م.

● الفتح بن خاقان
١٤٨ - قلائد العقيان، طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ.

● ابن فرحون: ابراهيم علي بن محمد اليعمرى المدني (ت ١٠٢٥ هـ)
١٤٩ - الديباج المذهب، نشر ابن شقرون سنة ١٣٥١ هـ.

● ابن الفرضي
١٥٠ - تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

● الفسوي: أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ)
١٥١ - المعرفة والتاريخ، تحقيق الدكتور أكرم العمري، مطبعة الارشاد، بغداد سنة ١٩٧٥ م.

● فنسنتك: المستشرق
١٥٢ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف، طبع ليدن سنة ١٩٣٦ م.

١٥٣ - مفتاح كنوز السنة، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة معارف
لاهور سنة ١٣٩٧هـ.

● الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم
(ت ٨١٧هـ)

١٥٤ - القاموس المحيط، مؤسسة الحلبي بمصر. (بدون ذكر سنة الطبع)

● ابن القاضي: أحمد بن محمد (ت ١٠٢٥هـ)
١٥٥ - جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس، مطبعة
دار المنصور بالرباط سنة ١٩٧٣م.

● القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ).
١٥٦ - الجامع لأحكام القرآن طبع دار الكتب المصرية، القاهرة سنة
١٣٨٣هـ.

● ابن القطان: علي بن محمد (ت ٦٢٨هـ)
١٥٧ - نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي. منشورات جامع محمد الخامس
بالرباط.

● القفطي
١٥٨ - إنباء الرواة، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، طبع دار الكتب
المصرية سنة ١٩٥٠م.

● القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)
١٥٩ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق ابراهيم
الأياري، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٨٣.

● الكاتب الأصفهاني
١٦٠ - خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الأندلس)،
الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٦م.

- الكتاني: محمد بن جعفر بن ادريس (ت ١٣٨٢هـ)
- ١٦١ - الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، طبع دار الفكر - دمشق سنة ١٩٦٤م.
- ١٦٢ - فهرس الفهارس طبع فاس سنة ١٣٤٦هـ.
- ابن كثير: عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)
- ١٦٣ - البداية والنهاية طبع مطبعة السعادة، القاهرة سنة ١٣٥١هـ
- ١٦٤ - تفسير القرآن العظيم، طبع دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي بمصر.
- الكلاعي: أبو القاسم (من رجال القرن السادس)
- ١٦٥ - أحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٦م
- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ)
- ١٦٦ - السنن - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٧٤
- ابن ماكولا
- ١٦٧ - الإكمال في رفع الإرتياب (١ - ٦) طبع حيدر آباد الدكن، الهند سنة ١٩٦٥ (٧ - ٨) طبع بيروت.
- مالك بن أنس: أبو عبد الله الأصمعي إمام دار الهجرة (ت ١٧٩هـ)
- ١٦٨ - المدونة الكبرى، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٣هـ
- ١٦٩ - الموطأ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الماوردي:
- ١٧٠ - أدب الدنيا والدين، نشره الأستاذ مصطفى السقا، القاهرة سنة ١٩٥٥م

- محمد عزة دروزة
١٧١ - سيرة الرسول، نشر مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر سنة ١٩٥٦ م
- محمد الغزالي
١٧٢ - فقه السيرة، طبع دار الكتب الحديثة بمصر سنة ١٩٧٦ م
- المرادى
١٧٣ - الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق الدكتور رمضان السيد، طبع دار الطليعة بيروت سنة ١٩٨١ م
- محمد مخلوف
١٧٤ - شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ
- مرتضى الزبيدي:
١٧٥ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، طبع بولاق.
- المراكشي
١٧٦ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، طبع القاهرة سنة ١٩٦٣ م
- مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١ هـ)
١٧٧ - الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء الكتب العربية، مصر سنة ١٣٧٤ هـ
- المعري: أبو العلاء
١٧٨ - الفصول والغايات، تحقيق محمود حسن زناق، طبع الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٧ م
- المقدسي: المطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ)
١٧٩ - كتاب البدء والتاريخ، طبع بعناية كلان هوار، باريس سنة ١٩٠٣ م

- المقرئ: شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ)
 ١٨٠ - أزهار الرياض (١-٣) تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين، طبع
 لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ ، (ج ٤) تحقيق
 الأستاذين محمد بن تاويت وسعيد أحمد أعراب، طبع المغرب، (ج ٥) تحقيق
 الدكتور عبد السلام هراس وسعيد أحمد أعراب ، المغرب سنة ١٩٨٠ م
- المقرئ: تقى الدين أبو العباس أحمد (ت ٨٤٥ هـ)
 ١٨١ - امتاع الأسماع، تحقيق محمود شاكر، طبع لجنة التأليف والترجمة
 والنشر، القاهرة سنة ١٩٤١ م
- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١ هـ)
 ١٨٢ - لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة (دون ذكر سنة
 الطبع)
- ابن المؤقت: المراكشي محمد (ت ١٣٥٣ هـ)
 ١٨٣ - السعادة الأبدية، المطبعة الحجرية، بفاس.
- الناصري: أبو العباس أحمد (ت ١٣١٥ هـ)
 ١٨٤ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، طبع دار الكتب، البيضاء
 سنة ١٩٥٤ م
- النباهي: أبو الحسن (ت بعد سنة ٧٩٢ هـ)
 ١٨٥ - كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا، تحقيق ليفى بروفنسال،
 المكتب التجاري للطباعة والنشر ببيروت.
- ابن النديم:
 ١٨٦ - الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران سنة ١٩٧١ م
- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ)
 ١٨٧ - سنن النسائي (المجتبى) طبع مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨٣ هـ
 ١٨٨ - الضعفاء والمتروكين، طبع دار إحياء السنة، كوجر نواله باكستان
 (بلا تاريخ طبع)

- أبو نعيم الأصبهاني
١٨٩ - حلية الأولياء، طبع القاهرة سنة ١٩٣٨ م
- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨ هـ)
١٩٠ - السيرة النبوية، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري
وعبد الحفيظ سلبى. طبع مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٧٥ هـ
- الهمداني: القاضي عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥ هـ)
١٩١ - تثبيت دلائل النبوة، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، طبع بيروت
سنة ١٣٨٦ هـ
- ١٩٢ - تنزيه القرآن عن المطاعن، طبع بيروت. (بدون تحديد سنة الطبع)
- هورفتس: المستشرق
١٩٣ - المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة الدكتور حسين نصار طبعة مصطفى
البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٦٩ هـ
- الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت ٨٠٧ هـ)
١٩٤ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، طبع دار الكتاب العربي ببيروت سنة
١٩٦٧ م
- الواحدى: أبو الحسن علي بن أحمد (ت ٤٦٨ هـ)
١٩٥ - أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٥ هـ
- الواقدي: محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ)
١٩٦ - كتاب المغازى، تحقيق مارسدن جونز، مؤسسة الأعلمى، بيروت
سنة ١٩٦٦
- وكيع بن خلف: (ت ٣٠٦ هـ)
١٩٧ - أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز المراغى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة
سنة ١٣٦٩ هـ

- اليافعى: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨ هـ)
١٩٨ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان.
تصوير مؤسسة الأعلى ببيروت سنة ١٣٩٠ هـ
- ياقوت الحموى: (ت ٦٢٦ هـ)
١٩٩ - معجم الأدباء، طبع دار المأمون سنة ١٩٣٦ م
٢٠٠ - معجم البلدان، دار صادر ببيروت سنة ١٩٧٦ م
- الدكتور يحيى هويدى
٢٠١ - تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الافريقية، طبع القاهرة.

فهرس تحليلى للموضوعات

رقم الصفحة	
٣	- الإهداء
٧	- مقدمة البحث
١٧	● القسم الأول : الرجل والعصر
١٩	- تمهيد: إطلالة على المغرب فى عصر القاضى عياض ...
١٩	● المؤرخون يقسمون تاريخ الأندلس إلى خمسة عصور.
٢١	● الحكم فى عهد المرابطين.
٢٢	● معركة الزلاقة بين ابن تاشفين والقونس السادس (سنة ٤٧٩هـ) ..
٢٣	● توحيد المغرب سياسيا ومذهبيا.
٢٣	● الأسس التى سار عليها المرابطون.
٣١	● الحكم فى عهد الموحدين.
٣٢	● ثورة القاضى عياض ضد الموحدين ونتائجها.
٣٣	- الفصل الأول : اسمه ونسبه
٣٨	- الفصل الثانى : مولده ونشأته وثقافته
٤٥	- الفصل الثالث : حياته:
٤٥	- مرحلة طلب العلم
٥٣	- مرحلة نشر العلم
٥٨	- مرحلة الصراع الفكرى والعقيدى
٦٣	- الفصل الرابع : مكانته، ومحتنه بسبب عقيدته السنية
٧٠	- الفصل الخامس : مؤلفاته ومصنفاته

رقم الصفحة

أولاً: كتب الحديث: ٧١

- ١ - إكمال المعلم بفوائد مسلم. ٧١
- ٢ - الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع. ٧٤
- ٣ - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد. ٨٣
- ٤ - مشارق الأنوار على صحيح الآثار. ٨٩

ثانياً: مصنفاته الفقهية: ٩٣

- ١ - الأجوبة المحبرة على المسائل المتخيرة. ٩٣
- ٢ - الأجوبة فيما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام. ٩٣
- ٣ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام. ٩٤
- ٤ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. ٩٥
- ٥ - التنبيهات المستنبطة على المدونات المختلطة. ١٠١
- ٦ - كتاب السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول. ١٠٢
- ٧ - كتاب العقيدة. ١٠٢
- ٨ - مسألة الأهل المشترك بينهم التزاور. ١٠٢
- ٩ - مطامح الأفهام في شرح الأحكام. ١٠٢
- ١٠ - نظم البرهان على صحة جزم الآذان. ١٠٢

ثالثاً: مصنفاته في السيرة النبوية ١٠٢

- ١ - اختصار شرف المصطفى ﷺ. ١٠٢
- ٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ. ١٠٣

رابعاً: مصنفاته التاريخية ١٠٤

- ١ - أخبار القرطبيين. ١٠٤
- ٢ - تاريخ المرابطين. ١٠٤

- ٣ - الجامع في التاريخ. ١٠٤
- ٤ - العيون الستة في أخبار سبته. ١٠٥
- ٥ - المعجم في ذكر أبي على الصدفي وأخباره وشيوخه وأخبارهم. ١٠٥
- ٦ - أخبار العلويين. ١٠٥
- ٧ - تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض. ١٠٥
- ٨ - المعجم في شيوخ ابن سكرة. ١٠٥
- ٩ - جهرة رواة مالك. ١٠٦
- ١٠ - الغنية في أسماء شيوخه. ١٠٦

خامسا: مصنفاته الأدبية ١١٢

- ١ - كتاب التنبهات. ١١٢
- ٢ - كتاب خطبه. ١١٢
- ٣ - سر السراة في آداب القضاة. ١١٢
- ٤ - كتاب سؤالات وترسيل. ١١٣
- ٥ - غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل. ١١٣
- ٦ - غريب الشهاب. ١١٣
- ٧ - كتاب القواعد. ١١٣
- ٨ - المقاصد الحسان. ١١٣
- نظرة فاحصة في آثار القاضي عياض. ١١٤

الفصل السادس: أدب القاضي عياض. ١١٨

- أولا: شعره. ١١٨
- مصادر شعره ١٢٠
- أغراض الشعر عنده ١٢٣
- (أ) المدائح النبوية. ١٢٣

رقم الصفحة

١٣١ (ب) النسيب.

١٣٤ (ج) الشكوى والحنين.

١٣٥ (د) في العلم والحض عليه.

١٣٧ ثانيا: نثره

١٣٧ - مصادر نثره

١٣٨ - أغراض النثر عنده

١٣٨ (أ) رسائله:

١٣٨ - مكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٤١ - مكاتبة الأدباء في مواضيع خاصة.

١٤١ - مكاتبة العلماء في قضايا علمية.

١٤٢ (ب) فن التصليّة

١٤٣ مكونات التصليّة:

١٤٣ - الحث على الصلاة على الرسول ﷺ.

١٤٤ - الصلاة عليه ﷺ

١٤٥ - الدعاء

١٤٦ (ج) خطبه

١٤٧ - الخطب الجهادية.

١٤٩ - الخطب الدينية.

١٥٥ القسم الثاني: منهج القاضي عياض في السيرة النبوية

١٥٧ تمهيد: السيرة النبوية قبل القاضي عياض.

١٥٧ ١ - مميزاتها

١٦٣ ٢ - مصادر السيرة النبوية.

رقم الصفحة

- القرآن الكريم. ١٦٤
- الحديث النبوى. ١٦٦
- كتب السيرة المختصة. ١٦٨
- كتب الدلائل والشأنل. ١٧٩
- ٣ - نظرة القاضى عياض إلى السيرة. ١٨٢
- ٤ - منهجه فى البحث. ١٨٦

- الباب الأول : شخصية الرسول كما رسمها القرآن ١٩١
- الفصل الأول: فى ثناء الله عليه. ١٩٣
- الفصل الثانى : خصال الجبال والكمال : ٢٠٥
- (أ) الضرورى الدنيوى. ٢٠٥
- (ب) المكتسب الدينى. ٢٠٥

- (أ) خصال الكمال والجبال غير المكتسبة..أى لضرورى الدنيوى : ٢٠٦
- كمال الخلقة وجمال الصورة. ٢٠٨
- نظافة جسمه وطيب ريحه. ٢٠٩
- وفور عقله وذكاء لبه. ٢١٠
- فصاحة لسانه وبلاغة قوله. ٢١١
- شرف النسب والمنشأ وكرم البلد. ٢١٤

ويلحق بالضرورى الدنيوى

- غذاؤه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه. ٢١٥
- تقسيم هذه الأمور إلى ثلاثة أضرب : ٢١٥
- ١ - ضرب الفضل فى قلته (الغذاء والنوم). ٢١٦
- ٢ - ضرب الفضل فى كثرته (النكاح والجاه). ٢١٧

رقم الصفحة

٢١٨ رأى وتحليل، والحكم في تعدد زوجات الرسول ﷺ.

٢٢٤ ٣ - ضرب تختلف الأحوال فيه.

٢٢٦ (ب) خصال الكمال والجمال المكتسبة:

٢٢٦ - أخلاقه.

٢٢٩ - حلمه واحتماله وعفوه مع المقدرة وصبره.

٢٣١ - جوده وكرمه وسخاؤه وسماحته.

٢٣٢ - الشجاعة والنجدة.

٢٣٣ - الحياء والاغضاء.

٢٣٤ - حسن عشرته وأدبه.

٢٣٥ - شففته ورأفته ورحمته.

٢٣٦ - وفاؤه وحسن العهد.

٢٣٧ - تواضعه.

٢٣٨ - عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته.

٢٣٩ - وقاره وصمته ومروءته.

٢٤٢ - علاقته بربه وخوفه منه وطاعته له.

٢٤٣ - خصال جميع الأنبياء والرسل.

٢٤٥ الفصل الثالث: عظيم قدره ومنزلته عند ربه.

٢٤٦ ١ - مكانته عند ربه.

٢٤٨ ٢ - كرامة الإسراء.

٢٥٣ - هل كان أسراؤه بروحه أو جسده؟

٢٥٥ - إبطال حجج من قال إنها نوم.

٢٥٧ - هل رأى الرسول ﷺ ربه؟

٢٥٨ - رأى القاضى عياض في رؤية الله في الدنيا.

٢٦٠ - هل دنا محمد من ربه؟

- ٢٦١ - هل كلم محمد ﷺ ربه مباشرة ؟
- ٢٦٢ - مناجاة الرسول ﷺ لربه .
- ٢٦٣ - تفضيله في القيامة وإبراز كرامته .
- ٢٦٥ - تفضيله بالمحبة والخلة .
- ٢٦٧ - تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود .
- ٢٧٠ - تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة .
- ٢٧٧ - تشريف الله له بما سواه به من أسمائه الحسنى .
- ٢٨١ - الفصل الرابع : معجزاته ﷺ .
- ٢٨١ (أ) معجزته المعنوية
- ٢٨٧ - معجزة القرآن .
- ٣٠٠ (ب) معجزاته الحسية
- ٣٠١ - معجزة انشقاق القمر .
- ٣٠٢ - معجزة حبس الشمس .
- ٣٠٣ - معجزة نبع الماء من بين أصابعه .
- ٣٠٤ - معجزة تفجير الماء ببركته .
- ٣٠٥ - معجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه .
- ٣٠٧ - معجزة كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة .
- ٣٠٨ - حديث أنين الجذع .
- ٣١٠ - تسبيح الطعام وغيره من سائر الجمادات .
- ٣١٠ - معجزاته التي لها صلة بالحيوان .
- ٣١٢ - معجزاته في إحياء الموتي وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع .
- ٣١٥ - معجزاته في إبراء المرضى وذوى العاهات .
- ٣١٦ - إجابة الله لدعائه .
- ٣١٧ - ما أطلع عليه من الغيوب .
- ٣٢١ - عصمة الله له من الناس وكفايته أذاهم .

رقم الصفحة

الباب الثاني: حقوق الرسول ﷺ قبل المسلمين ٣٢٩

الفصل الأول: وجوب الإيمان به وتصديقه ٣٣٢

- وجوب طاعته. ٣٣٥

- وجوب اتباعه وامثال سنته والاقتداء به. ٣٣٦

- مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة. ٣٣٨

الفصل الثاني: لزوم محبته - صلى الله عليه وسلم ٣٤٠

- محبة الرسول ﷺ لها علامات ودلالات. ٣٤٢

- ما معنى المحبة؟ وما حقيقتها؟ ٣٤٣

الفصل الثالث: وجوب تعظيم أمره وتوقيره وبره ﷺ ٣٤٨

- تعظيم الله لقدر نبيه. ٣٤٨

- تعظيم صحابته له. ٣٥٠

- توقيره وتعظيمه بعد موته. ٣٥١

- تعظيم السلف لسنته المطهرة. ٣٥٣

- بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه وآل بيته. ٣٥٤

- توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم. ٣٥٥

- إعظام جميع أسبابه وإكرام مشاهدته وأمكنته. ٣٥٧

الفصل الرابع: وجوب الصلاة عليه وزيارة قبره الشريف ٣٥٩

- إذا صلى الله وملائكته عليه - فأى حاجة إلى صلاتنا عليه؟ ٣٦٠

- هل الصلاة على النبي على سبيل النذب أو الفرض؟ ٣٦١

- المواطن التي يستحب فيها الصلاة على النبي. ٣٦٦

- كيفية الصلاة على النبي. ٣٦٧

- فضيلة الصلاة على النبي والتسليم عليه والدعاء له. ٣٦٩

- اختصاصه دون سائر الأنبياء بتبليغه صلاة من صلى عليه من الأنام ٣٧١

- هل تجوز الصلاة على غير النبي؟ ٣٧٢
- حكم زيارة قبره الشريف. ٣٧٤
- هل زيارة قبره واجبة أم سنة؟ ٣٧٨
- آداب زيارة قبره الشريف. ٣٨٠

الباب الثالث: دراسة شخصية الرسول من جانبين: ٣٨٣

جانب النبوة والجانب الإنساني

- #### الفصل الأول: جانب النبوة.. ٣٨٧
- عصمة الله لنبيه. ٣٨٧
 - ١ - عصمته بعد النبوة. ٣٨٧
 - ٢ - عصمته قبل النبوة. ٣٩٤
 - علم الأنبياء ومعرفتهم اليقينية. ٣٩٧
 - كمال عصمة النبي من الشيطان وكفايته منه. ٣٩٩
 - قصة الغرائق وأبعادها. ٤٠٢
 - سهوه لا يثناني كماله. ٤٠٨
 - هل تجوز على النبي - ﷺ - الصغائر؟ ٤١١
 - موقفه من أسرى بدر. ٤١٥

الفصل الثاني: الجانب الإنساني في شخصية الرسول ﷺ. ٤٢٥

- سحره لا يثناني كماله. ٤٢٧
- أحواله في أمور الدنيا. ٤٢٩
- ما يعتقده في أمور أحكام البشر. ٤٣٥
- أقواله الدنيوية. ٤٣٦
- أفعاله الدنيوية. ٤٤١
- الحكمة في إجراء الأمراض عليه. ٤٤٣

٤٤٥ الباب الرابع: موقف الشريعة من العداوة للرسول

٤٤٩ الفصل الأول: الحكم الشرعى فيمن سبَّ أو نقض حق الرسول

٤٤٩ - موقف الشريعة من العداوة للرسول: الحكم بالقتل

٤٥٠ - دليل فقهاء الإسلام في وجوب قتل سبِّه أو عابه

٤٥٢ - من القرآن

٤٥٣ - من السنة والآثار

٤٥٥ - الحكمة في أن النبي لم يعاقب شاتميه أو مبغضيه

٤٥٨ - حكم الشريعة فيمن كان غير قاصد للسبِّ والازدراء

٤٥٨ - حكم الشريعة فيمن يقصد تكذيبه

..... - حكم الشريعة فيمن يلفظ من القول بمشكل يمكن حمله على النبي أو

٤٥٩ غيره.

٤٦١ - حكم الشريعة فيمن ينزع بذكر بعض أوصافه على طريق ضرب المثل.

٤٦٣ - حكم الشريعة فيمن يحكى السبِّ عن غيره.

٤٦٦ - حكم الشريعة في الراوى.

٤٦٩ الفصل الثاني: موقف المذاهب الفقهية من ساب الرسول وشأنه

٤٦٩ أولاً: حكم المسلم السَّاب.

٤٧٤ ثانياً: حكم الذمى الساب.

٤٧٥ - لمن يؤول ميراث من قُتل في سب النبي؟

الفصل الثالث: موقف الشريعة ممن سبَّ الله تعالى وملائكته وكتبه

٤٧٨ وآل النبي

٤٧٨ أولاً: - موقف الشريعة ممن سبَّ الله وملائكته وأنبياءه وكتبه

..... - موقف الشريعة من المتأولين أصحاب الهوى والبدع من الفرق

٤٨٠ الإسلامية

٤٨٩ - حكم الذمى الساب لله تعالى

- حكم الشريعة فيمن سب أنبياء الله ٤٩٠
- حكم الشريعة فيمن استخف بكتب الله ٤٩٢
- ثانيا: موقف الشريعة ممن سب آل بيت النبي وأزواجه وأصحابه ٤٩٣

خاتمة في تقويم المنهج والدراسة ٤٩٦

- عناصر جديدة تجل مدى حب القاضي عياض للنبي ﷺ. ٤٩٩
- تلخيص السيرة في التصلية. ٤٩٩
- الطابع العام لمؤلفاته ومصنفاته. ٥٠٨
- منهجه نقلى تكاملى جمعى. ٥٠٨
- ماذا نعنى بمنهج الرواية النقلى التكاملى الجمعى؟ ٥١١
- سمات علمية فى بناء كتبه ٥١٥
- عدم الاستطراد. ٥١٥
- الطابع الجدلى. ٥١٦
- السمة الشخصية. ٥١٨
- متى ألفت السيرة النبوية ولماذا؟ ٥١٩
- موضوع السيرة النبوية فى مفهوم القاضي عياض : عقدى وفقهى ٥٢١
- بروز عقيدته السلفية فى السيرة النبوية. ٥٢٣
- جانب الصياغة اللفظية فى السيرة النبوية. ٥٢٤
- أخطاء علمية ٥٢٨
- زعمه أن الذبيح اسحاق بن ابراهيم ٥٢٨
- حديثه عن خطيئة داود ٥٣٥

ملاحق البحث ٥٤٥

- ١ - شعره الذى لم يسبق نثره ٥٤٦
- ٢ - تصلياته على النبى ﷺ ٥٥٤

رقم الصفحة

- ٣ - خطبه ٥٦٤
- ٤ - مكاتبه إلى شيخه ابن رشد ٥٨١
- مصادر البحث ٦٠٢
- فهرس تحليلي لموضوعات البحث

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين.

رقم الايداع	٨٨/٧٣٤٨
الترقيم الدولى	٣ - ٢٥٥٣ - ٠٢ - ٩٧٧

٣/٨٧/٢١

طبع بطابع دار روتا برنت

10/321-81